المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

العدد 36 ـ السنة الرابعة عشرة 1408هـ 1988م.

طبع هذا العدد على نفقة جامعة الامارات العربية المتحدة
بمناسبة مرور عشر سنوات على انشائها

تصدر عن

الأمانة العامة لإتحاد المؤرخين العرب
بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سمو الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان
الرئيس الأعلى للجامعة

تعمل جامعة الامارات المتحدة على اداء دورها في تنمية المجتمع من خلال اهتمامها بتقديم المعرفة ونشرها وحسن تطبيقها، وحفظ التراث وتأصيله، على نحو يؤكد الهوية ويصون العقيدة. وتقوم الجامعة في سبيل ذلك برعاية البحوث العلمية وتشجيعها، وتولى اهتماما خاصا بالدراسات المتعلقة بالحضارة العربية والاسلامية، وشبه الجزيرة العربية والخليج العربي.

وحرصا من جامعة الامارات العربية المتحدة، على تحقيق هذه الأهداف، فقد عنيت باصدار المجلات العلمية بكل كلية من كلياتها، وحرصت على عقد الندوات العلمية ذات الصلة المباشرة بالحضارة العربية الاسلامية، ومعالجة القضايا التي تتصل بالبيئة المحلية والخليجية والعربية.

وتعمل الجامعة على أن توثق علاقاتها بالجامعات الخليجية العربية، والجامعات العربية الأخرى والاسلامية والعالمية، ومراكز البحوث العلمية، والمؤسسات والهيئات الأخرى المعنية بالبحث العلمي، وأن ترفد هذه المراكز والمؤسسات بما يتاح لها من خبرات وامكانات علمية ومادية. وفي هذا الاطار يأتي حرصنا على تبني طباعة العدد السادس والثلاثون من مجلة «المؤرخ العربي» التي يصدرها اتحاد المؤرخين العرب.

ونأمل في أن يكون هذا العدد، بما اشتمل عليه من بحوث، اضافة نوعية للمكتبة العربية ينتفع منه الباحثون والدراسون والمهتمون بشؤون امتنا تاريخا وواقعا ومستقبلا.

ونشكر لاتحاد المؤرخين العرب جهوده في سبيل تحقيق وتأصيل تاريخ امتنا والحفاظ عليه. كما نقدر لكلية الآداب بجامعة الامارات العربية المتحدة دورها في اعداد هذا العدد والاشراف على طباعته ومراجعته واخراجه بالصورة التي هو عليها.

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد.

نهيان بن مبارك آل نهيان

الرئيس الأعلى للجامعة

ترسل البحوث باسم مدير التحرير

ص.ب : (٤٠٨٥) بغداد الجمهورية العراقية
مجلة المؤرخ العربي ـ اتحاد المؤرخين العرب
ت : (٤٤٤٨٠٠٦)

الاشتراكات السنوية في مجلة المؤرخ العربي والمنشورات التاريخية

١ ـ الدوائر الرسمية وشبه الرسمية في داخل العراق (٥٠ دينارا ، وفي خارج العراق (١٥٠) دولاراً امريكيا .

٢ ـ للمؤرخين في داخل العراق (٢٠) دينارا ، وفي خارج العراق (٦٠) دولارا امريكيا .

٣ ـ لطلبة التاريخ في داخل العراق (١٠) دينارات ، وفي خارج العراق (٣٠) دولارا امريكيا .

شروط نشر البحوث في المجلة

١ ـ ان يعتمد البحث الاسس العلمية في اعداد وكتابة البحوث .

٢ ـ ان يكون منسجما مع أهداف اتحاد المؤرخين العرب .

٣ ـ ان لايزيد عدد صفحاته عن (٥٠) صفحة .

٤ ـ ان لايكون قد سبق نشره او قبل للنشر في مجلة اخرى ، على ان يقدم كاتب البحث تعهدا يؤكد ذلك مرفقا برسالة مع البحث موجهة الى مدير التحرير .

٥ ـ تقبل البحوث في جميع فروع المعرفة التاريخية ، وباللغتين العربية والانجليزية .

٦ ـ يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة ، ويفضل ان يكون مختصرا ، ويثبت اسم الباحث او اسماء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم .

٧ ـ يطبع البحث على وجه واحد من الورقة ، وتأخذ كل ورقة رقمها الخاص ، ويقدم من نسختين .

٨ ـ بالنسبة للبحوث المقدمة الى المؤتمرات او الندوات او كان مستلا من رسالة او اشرف عليها مقدم البحث يؤشر ذلك في حاشية البحث .

٩ ـ لامور فنية خاصة بالطباعة يجب ان توحد الهوامش الخاصة بالبحث من اول هامش في البحث الى آخر هامش فيه ، وتعطي تسلسلا واحدا .

١٠ـ يحال البحث المقدم للنشر الى خبير مختص ، ويعاد الى كاتبه لاجراء التعديلات المقترحة ان وجدت على ان يعاد الى مدير التحرير في غضون خمسة أيام .

١١ـ رتبت البحوث لاعتبارات فنية وهى تعبر عن آراء اصحابها مع التأكيد على ان مجلة المؤرخ العربي منبر تاريخي قومي تنطق باسم القضية العربية الكبرى ، والبحوث التى ترد للمجلة لاتسترجع الى اصحابها في حالة عدم نشرها .

١٢ـ يرجى تدوين اسم الباحث وعنوانه ، وعنوان بحثه باللغة الانكليزية .

هيئة التحرير

الهيئة الاستشارية لمجلة المؤرخ العربي

الدكتور عاصم الدسوقي	جمهورية مصر العربية/ سوهاج/ جامعة اسيوط عميد كلية الآداب
الدكتور زكي مبارك	المملكة المغربية/ مدير المعهد الملكي للشباب/ الرباط/ ص.ب. ٣٢٨ .
الدكتور عبدالودودبن الشيخ	جمهورية موريتانيا الاسلامية/ مدير المعهد الموريتاني نواكشوط (ص.ب ١٩٦)
الدكتور صالح ياسره	جمهورية اليمن الديمقراطية/ جامعة عدن/ كلية الآداب رئيس قسم التاريخ .
الدكتور حسين عبدالله العمري	الجمهورية العربية اليمنية/صنعاء ص.ب. ١٠٦٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

فيسر الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب أن تضع العدد « السادس والثلاثين » من مجلة المؤرخ العربي بين أيدى المؤرخين العرب الأعزاء والقراء الكرام الذي يحفل بعديد من البحوث والمقالات المتنوعة عن التاريخ الاسلامي والعربي على مختلف عصوره اضافة الى أبواب المجلة الثابتة .

ومع تقدير الأمانة لاسهامات مؤرخينا العرب في اثراء المجلة بانتاجهم التاريخي والفكري الا أننا نطمح الى المزيد من الانتاج والمشاركة المستمرة ، فهم الرافد الحقيقي لها والمعين الذى لاينضب ، لتسير في طريقها المرسوم ، وتعبر بصدق واخلاص عن أمانيهم وتطلعاتهم .

أيها القاريء الكريم : ان برامج الاتحاد العام للمؤرخين العرب في تقدم متواصل ، وجهوده في خدمة تاريخنا واضحة وملموسة فهو لا يألوا جهدا في ان يشارك في كل ما من شأنه العمل على ابراز الحقائق التاريخية والوقوف أمام جميع من أراد أن يشكك في ذلك فقد قام بعقد كثير من المؤتمرات وشارك في البعض الآخر عن طريق أعضائه منتسبية ومن مشاركاته ـ بالاضافة الى برامجه الثابته ـ على سبيل المثال :

١ ـ عقد مؤتمر عن التاريخ العربى والاسلامي في مناهج المدارس الأمريكية في شيكاغو عام ١٩٨٨م .
٢ ـ عقد مؤتمر حطين في بغداد والاشادة بهذه المعركة وبطلها صلاح الدين .
٣ ـ المشاركة في المؤتمر الدولى الرابع عشر للوثائق في مدريد الذي عقده الأرشيف الدولي في الفترة من ١٥ الى ١٩ يوليو ١٩٨٧م .
٤ ـ المشاركة في مؤتمر الجمعية البريطانية لدراسة الشرق الأوسط الذي عقد في جامعة اكستر البريطانية في الفترة من ١٢ الى ١٥ يوليو ١٩٨٧م .
٥ ـ عقد مؤتمر في اليمن حول وسائل المحافظة على آثار مأرب .
٦ ـ عقد ندوةعلمية تاريخية احياء لذكرى معركة حطين في سوريا .
٧ ـ الاشتراك في المؤتمر العالمي السابع عشر للعلوم التاريخية الذي سوف تعقده « الجمعية الدولية للتاريخ » في مدريد عام ١٩٩٠م عن تاريخ الاديان الثلاثة (الإسلام والنصرانية واليهودية) .

وختاما نرجو أن يحتوى هذا العدد على الفائدة والمتعة .

والله من وراء القصد

الإستاذ الدكتور مصطفى عبد القادر النجار
الامين العام لاتحاد والمؤرخي العرب

بحوث التاريخ الحديث والمعاصر

مميزات الحياة الثقافية والفكرية
خلال العصر السعدي ١٠٦٩/٩٠٥ (١٥٠٥ ـ ١٦٥٣)

د. ابراهيم حركات
كلية الآداب جامعة محمد الخامس

١ ـ الطابع العام

كل مظاهر الحركة الفكرية في أي بلد اسلامي انطبعت بالطابع الديني عبر التاريخ ، وانما بدأ هذا الطابع يتخلى شيئا فشيئا عن اطار الاسلاميات المحضة ليأخذ اتجاها علميا في الجملة ، منذ اجيال قليلة من التاريخ المعاصر . فالقرنان ١٠/١١ (١٦/١٧) بالنسبة للمغرب إنما يمثلان نفس الصورة العامة التى نعرفها عن مصر المماليك أو الجزائر العثمانية مثلا ، ثم هناك مميزات بكل قطر تبعا للحاجة والظروف السياسية والمجتمعية .

ومما يلفت نظر دارس الفترة التى نحن بصددها أنها تمثل بالنسبة للمغرب تجربة جماهيرية في نطاق الحقل الثقافي والتعليمي لم يتقدم لها نظير ابدا . فالجهد الذي قام به بنومرين في نطاق نشر التعليم عن طريق المساجد والكتاتيب ومجموعة من المدارس لم يكن شيئا هينا ، ولكن كان دون الكفاية لأن مراكز كثيرة من البلاد لم تصلها عناية الدولة ، بما في ذلك أغلب مناطق دكالة والأطلس المتوسط والجنوب ، أما في العهد السعدي فعناية الدولة بالحركة التعليمية والثقافية تركزت بصفة خاصة في مراكش وتارودانت وفاس ، بينما قام السكان بسد الفراغ في جل المراكز الأخرى ، لاسيما بالمراكز القروية التى كان على فتيانها فيما قبل ان يتلقوا تعليمهم حتى في المستوى الابتدائي ببعض المدن التى تكون بعيدة عنهم . ويبدو أن الفقهاء والمثقفين والصوفية اهتدوا قُبَيل قيام الدولة السعدية الى أن ضمان عقيدة اسلامية صحيحة ، وسلوك أفضل للأوساط الشعبية ، انما يتم عن طريق نشر التعليم ووضع الكتاب تحت تصرف أكبر عدد ممكن من أبناء الجيل الصاعد ، ومن أجل ذلك هرعت هذه الأوساط بدافع الغيرة على الدين قبل كل شيء الى بناء المزيد من المدارس والزوايا والمساجد والكتاتيب ، ومن اجل الدين كان الناس يضحون بكل شيء ابتداءً بأموالهم ، وانتهاء بأنفسهم . وفي كل هذه المؤسسات كان التعليم اختياريا لايخضع لتوجيه محدد ولكنه يتفق الى حد ما مع حاجات الدولة والشعب . ومن الأشياء التي يحث عليها المثقفون ذوو النزعة الصوفية ، الجمع بين علم الظاهر وعلم الباطن[١] ، وإذا كان أصحاب علم الظاهر وهم الفقهاء وذوو الثقافة العقلية بوجه عام قلما ينزعون الى الدراسات الروحانية ، فان المتصوفة قلما يتنازلون عن أخذ حظهم من الثقافة الفقهية التي لاغنى لهم عنها لافي قطع مراحل التصوف كما اصطلحوا عليها فقط ، ولكن كذلك في أداء مأموريتهم التربوية والتثقيفية .

والواقع أن الخلاف بين التيارين لم يمنع من التقائهما في هذه المأمورية بالذات ، فابن عاشر الفقيه ضَمَّن كتابَه المدرسي الذي سماه « المرشد المعين على الضروري من علوم الدين » والذي هو منظومة مبسطة نسبيا ، مبادىء في التصوف يطلب من التلميذ أن يدرسها اسوة بمبادىء الشريعة ، وهذه مرحلة أولية في الجمع بين علم الظاهر وعلم الباطن ، وانما يمثلها في مستوى عال كتاب الاحياء للغزالى الذي لم ينفك أساتذة التصوف عن تدريسه .

٢ ـ التكوين الثقافي للاسرة المالكة

كلما اتجهت القيادة العليا للشعب في طريق الاصلاح الاجتماعي والديني ضربت المثل للطبقات الواعية وسائر افراد الشعب ليسيروا في نفس الخطة. وبعض ملوك الدولة السعدية يذكروننا في متانة تكوينهم الثقافي ببعض ملوك الموحدين الذين زاوجوا بين الثورة الثقافية والسياسية وبلغوا سعة من المعرفة أدهشت جلساءهم من الشخصيات الفكرية على اختلاف اختصاصها ، كعبد المومن ، والمنصور وخلفه أبي يعقوب يوسف . وهكذا فتح البلاط السعدى أبوابه لعدد من المثقفين الذين كانوا منهم أساتذة الكراسي في المعاهد التقليدية ، وتميز ملوك السعديين بتذوق الأدب والميل اليه ، فقد جاء هذا التفتح في اطار جدي يعد قرون من الجمود ، وانتعش هذا الباب من الفكر مثلما كان الأمر في فترة معينة من حياة الدولة المرينية .

وهكذا كان محمد الشيخ المهدي[1] ذا ثقافة متينة ، وله ولع بشعر المتنبي حتى كان يحفظ ديوانه عن ظهر قلب ، في الوقت الذى كتب فيه حواشي على بعض التفاسير القرآنية[2] ، وكان حفيده محمد بن عبد القادر (ت . ١٥٦٧/٩٧٥) فقيها وشاعرا لامعا وناشرا مبدعا[3] ، توجه مرة الى فاس مع القاضي أبي مالك عبد الواحد الحميدي وأبي العباس أحمد المنجور وله أطلت أبواب المدينة عليها أنشد ارتجالا بضعة أبيات في الموضوع[4] .

وكان أبو مروان عبد الملك المعتصم يجيد عدة لغات : الإيطالية والإسبانية والتركية ، فضلا عن العربية .

أما احمد المنصور فقد أجمع المؤرخون على أنه كان ذا مستوى ثقافي عال ، وأن معلوماته كانت واسعة في الأدب والتاريخ والمنطق والبلاغة والفقة والأصول والتفسير والحديث والتراجم والرياضيات والفلك والعلوم اللغوية[5] . وكان يجمع بين الفنية والأخرى مجلسا تجرى فيه المناقشات الأدبية والعلمية ، وكان من جلسائه المفتي عبدالواحد الحسني وأبو فارس الفشتالي ومحمد بن على الهوزالى وسليمان بن ابراهيم التاملي[6] .

وقام أحمد المنصور بتأليف عدد من الكتب من أهمها :

١ ـ المعارف ، في كل ما تحتاج اليه الخلائف ، وهو كتاب في سياسة تدبير الدولة ، وصفه المقري بأنه لانظير له[7] .

ويتناول هذا الكتاب الطرق التقنية والعلمية لصناعة الأسلحة والمتفجرات والقنابل وبناء التحصينات والتخطيط العكسري[8] .

ولايستغرب في الواقع ان يؤلف احمد المنصور كتابا في موضوع كهذا يهم دولة قامت قبل كل شيء بدعوة من السكان ، للجهاد ومحاربة الاسبان والبرتغال بسلاحهم ، لكن ما يستغرب له هو أن الموضوع في حد ذاته سرّي ولايعقل أن يكون محل تأليف متداول . وعلى كل ، فهذا الكتاب في حكم المفقود حتى الآن . أو لعله ينزوى في ركن ما باحدى الخزانات .

وبهذا الصدد قارن الفشتالي بين يعقوب المنصور والموحدى وأحمد الذهبي فرأى أن العاهل السعدى كان أكثر واقعية من سلفة الموحدي الذي وضع كتابا حلل فيه مذهب ابن تومرت وفرض استعماله علي سائر السكان[9] وقد وضع ملك زناتى بتلمساني هو أبو حمو موسى[10] كتابا تاريخيا أدبيا هو واسطة السلوك .

ونقل مؤلف «المناهل » مقدمة كتاب أحمد المنصور ، ونوه بالمعلومات النظرية والتطبيقية التى اشتمل عليها هذا المصنف[11] .

٢ ـ مجموع أذكار وأدعية تهم المومنين عامة ، سماه العود احمد[12] ويؤكد المقرى أنه رأي هذا المجموع ، معبرا عن اعجابه بجمال عنوانه وخطه وينتهى المجموع بتقريظ لأبى فارس الفشتالي[13] مؤرخ بسنة ١٠٠٩/١٦٠٠(أي بثلاث سنوات قبل وفاة المنصور) .

ولقد برهن أحمد المنصور بالعناية لموضوع كهذا على أنه متعدد الشخصيات وبالتالي يحاول أن يعالج القضايا الوطنية في آن واحد معالجة روحية دينية وتقنية ، فضلا عن الاطار السياسي والاقتصادي الذي انشغل به على طريقته في ممارسة هذه القضايا .

ولكى يقدم أحمد المنصور دليلا آخر على جدارته العلمية ، لاسيما أمام الملأمن الفقهاء والشخصيات الفكرية التى كانت تتردد على بلاطه استجاز أبا عبدالله محمد البكرى الصديقي من أئمة التصوف بمصر(١٤) ووصف الأفرني أحمد المنصور بأنه كان ذا مواهب عالية قوى الحافظة ، فكان اذا قُرىء أمامه صحيح البخارى أو أى مؤلف آخر أبدى ملاحظات نادرة أو اعتراضات صائبة لايمكن دحضها أو الرد عليها(١٥) . واشتهر عنه أنه كان يقرأ ويعلق على جل الكتب التى تحتوى عليها خزانته ، والحق أن قليلا من الملوك كانت لهم مثل هذه القدرة على الاهتمام المباشر بالعمل الفكرى وبتنمية معارفهم باستمرار في الوقت الذى لاتوجد أعباء أضخم من أعبائهم .

وممن عرفوا بسعة الافق الفكري في الاسرة السعدية محمد المتوكل الذي جمع بين الفقهيات والادبيات مثلما كان جده المهدي(١٦) .

وكان ابو فارس عبدالعزيز ، نجل احمد المنصور اديبا متذوقا للشعر والنثر ، جمع بعض المتكسبين الاشعار التي قيلت في مدحه ، ودونها مجموعا ضخما(١٧) . وقد بني ابوفارس خزانة كبيرة الحقها بضريح ابي العباس السبتي(١٨) الذي بني حوله كذلك جامعا وخصص عددا من الكراسي لتدريس التفسير وغيره .

وكان زيدان اوسع ملوك السعديين ثقافة بعد والده المنصور . وقد وضع تفسيرا للقرآن استمد فيه من آراء ابن عطية والزمخشري(١٩) .

وكان احمد المنصور يولي عطفه لعدد من رجالات الفكر الذين لم تكن لهم مسؤوليات سياسية ، كأبي عبدالله البصري المكناسي خطيب الجامع الاعظم بمكناس ، وأبي نعيم رضوان الجنوي ، وابي العباس احمد المنجور(٢٠) .

ومن اهتمامات المنصور في نطاق اشاعة المعرفة أو اكتسابها تكليفه لعدد من المثقفين بتأليف كتب لخزانته أو لوضعها تحت تصرف الاساتذة والطلبة (٢١) ، وهذا فضلا عن الكتب المنسوخة او المجلوبة من الشرق ، وقد اغتنت خزانة احمد المنصور بالكتب التي الفها خصيصا لهذه المؤسسة شخصيات فكرية من المشرق ، بينها مصريون واتراك وعرب من البقاع المقدسة ، واهدى امير مكة الى المنصور ديوان شعر له في مديح العاهل المغربي(٢٢) .

وكانت الفية ابن مالك في قواعد اللغة قد تعددت الشروح عليها بعد ان اشتد الاهتمام بها في اقطار المغرب ، فكلف المنصور اساتذة احمد المنجور بوضع زبدة هذه الشروح في تصنيف واحد يستغني به الطلبة عن الشروح المتعددة ، فوضع شرحا في مجلدين (٢٣) ، ولكن يبدو ان بعض الشروح الاخرى لاسيما شرح ابن عقيل مالبثت ان اكتسحت الميدان التعليمي لعدة اجيال . ومهما يكن من شيء ، فقد بدا ان احمد المنصور كان يريد ان يعطي لتوجيه الكتاب المدرسي صبغة رسمية ، كما اتضح انه يضع يده على الشاذة والفاذة من امور الدولة والمصالح العامة ربما تفاديا لنكسة في الاتجاهات العقائدية والتثقيفية ، وانما نرى المبادرات الشخصية والشعبية تنشط العمل الثقافي بعد ان تخبو جذوة القيادة السياسية ، اي على اثر وفاة أحمد المنصور .

٣ ـ الخزائن

اتسمت فترة الاستقرار في العصر السعدي بتنافس الاسر والخواص في اقتناء الخزائن وجمع الكتب . وشمل هذا التنافس وسط الامراء والعائلات التي تقبل على الدراسة ، وحتى الخواص الذين ليس لهم حظ يذكر من الثقافة ، ولكنهم شغفوا باقتناء الكتب حبا في وضعها تحت تصرف الدارسين والباحثين ، مثلما كان يفعل

عدد من الاساتذة الذين يضعون خزائنهم تحت تصرف زملائهم وطلبتهم . وقد ذكر ابن عسكر[٢٤] انه دعى مرة الى بيت الفقيه ابي عمران موسى الوزاني فقرأ في خزانته كتبا في الفقه .

ولربما كانت اعظم خزانات المغرب حتى العهد السعدي هى خزانة القرويين التي احتفظت بمؤلفات ترجع الى القرون الماضية ، فضلا عما زودت به في العصر الذي نعالجه ، وهى من انشاء ابي عنان كبناية خاصة ، منذ سنة ١٣٤٨/٧٥٠ ، وكانت تحت اشراف قيم يعينه القاضي ، وقد خصصت في البداية للاساتذة والباحثين ، وكان القيم هو الذي يقدم اليهم الكتب مقابل شهادة استلام [٢٥] . اما الطلبة فكان بامكانهم مطالعة الكتب في عين المكان من غير استعارتها[٢٦] . ولما كانت هذه الكتب محبسة فلم يكن مباحا او تبادلها .

وقام احمد المنصور السعدي من جهته ، ببناء خزانة جديدة بالقرويين زودها بالكتب النادرة والتي لاتوجد بجهات اخرى ، واذا كان ابوعنان قد بنى للمصاحف خزانة خاصة ملحقة بخزانة القرويين[٢٧] فان احمد المنصور يرجع اليه الفضل في تزويد مختلف مساجد البلاد بالمصاحف على الرغم من ان قراءة "الحزب" عرفت قبل العصر السعدي .

ولاتزال خزانة القرويين تحتفظ حتى الآن ببضع عشرات من الكتب التي حبسها عليها احمد المنصور وهى لاتمثل الا اقل القليل من التآليف التي وقفها على القرويين وغيرها .

وحفاظا على هذه الكتب حتى يستفيد منها الجميع لم يكن مسموحا للطلبة باستعارتها ، ولذلك كانوا يستعيرون الكتب المدرسية التي بين يدي اساتذتهم يتقاسمون كراريسها ثم ينتسخونها في قليل من الايام .[٢٨] .

وورث زيدان معظم خزانة والده الخاصة ، وهى التي كونت فيما بعد ، اهم المخطوطات التي تحتوي عليها الاسكوريال ، وكان بها عدد من الكتب اللاتينية التي ترجمت بأمر زيدان الى الاسبانية ، على يد راهب ايرلندي كلف بهذا العمل خاصة ، ثم نقلت الى العربية على يد احد العلوج [٢٩] .

واغلب جوامع مراكش جهزها السعديون والمواطنون بالكتب مساعدة على تعميم الثقافة والمعرفة ، والواقع انه كان بمراكش من الخزائن والمؤلفات ماليس بها الآن .

واهم خزائن مراكش هي خزانة جامع المواسين وخزانة ابي العباس السبتي وخزانة جامع بن يوسف الواقعة بشرقيه [٣٠] . وبها قرأ الصوفي ابو عمرو القسطلي (ت . ١٥٨٤/٩٩٢) كتاب الإحياء للغزالي .

وفي بداية القرن ١٧/١١ كان بخزانة جامع تينمل[٣١] عدد كبير من الكتب بينها مؤلفات المهدي بن تومرت[٣٢] .

كما كانت توجد بزاوية سيدي عبدالله بن سعيد بتافيلالت خزانة نهبت عدة كتب منها ذات قيمة[٣٣] .

وحسب وثيقة عدلية محفوظة بالقرويين ومؤرخة بـ ١٥٨١/٩٨٩ فقد كانت توجد خزانة بقرب الكتاب المدعو بالكهف ، والموجود بفاس بحي زقاق البغل[٣٤] .

وكان في ملك احمد الشعبي رئيس زاوية الصومعة تبادلا خزانة تضمنت ١٠٨٠ عنوانا[٣٥] ، وقد عاصر هذا الصوفي احمد المنصور ، وتوفي سنة ١٦٠٤/١٠١٣ .

وتوارثت عدة عائلات خزائن ظلت تنمو مع تعاقب الاجيال ، ومنها عائلة ابن الغرديس التي اشتهرت خزائنه بفاس ، وكان الفقيه ابوالعباس احمد الونشريسي (ت .١٥٠٨/٩١٤) قد استفاد من مراجعها الكثيرة ، في تأليف "المعيار"[٣٦] وهو كتاب في عدة مجلدات تضمن فتاوى الفقهاء في اقطار المغرب والاندلس .

وضربت سوس بأوفر حظ في اقتناء الكتب ، وتنافس أسرها في هذا المجال ، وهكذا فان اسرة أزريف التي تقطن بجبل آيت حميد والتي اسست مدرسة منذ القرن ١٤/٨ اكتسبت شهرة واسعة في العهد السعدي ، بفضل اسهامها النشيط في حركة التعليم والتثقيف ، وكانت لها ولاتزال خزائن تحتوي على أندر الكتب[٣٧] .

وانشأ شيخ قرية ادوز ، عبدالله بن يعقوب السملالي (ت ١٠٥٢هـ) نواة لخزانة ظلت تنمو بعده على يد ورثته حتى تعد مخطوطاتها اليوم بالالآف[٣٨] ، كذلك انشأ سيدي عمرو دفين فاس في بداية القرن ١٠/١٦ خزانة ثم تزويدها بمزيد من المؤلفات بعده[٣٩] .

وفي قرية تاكركوست (بكافين معقودتين وراءٍ ساكنة) بقبيلة سكتانة من منطقة تاليوين) انشأ الشيخ محمد بن يعقوب التاتلتي (ت . ٩٦٣/١٥٥٥) خزانة يبدو انها خصصت لكتب الحديث واللغة والتفسير ، او على الاقل ، فلم يوجد بها في بداية القرن ١٢/١٨ الا مؤلفات في هذه الفنون[٤٠] .

اما اكبر مكتبة خاصة ، فهي بدون جدال ، مكتبة تمكروت التي اسست بدرعة في القرن العاشر/السادس عشر ، وانما اكتسبت ابتداء من القرن التالي سيما علي يد احد رؤساء زاوية تمكروت محمد بن ناصر (ت . ١٠٨٥/١٦٧٤) اي بعد حوالي عشرين سنة من سقوط الدولة السعدية[٤١] . وقد اكتسبت هذه المكتبة شهرة لافي المغرب فحسب ، بل حتى لدى المستشرقين من اوروبا وغيرها ، وقد كانت كتبها تنمي بفضل الاوقاف الكثيرة التي خصصت لزاوية تمكروت والتي تحدثنا عنها في الفصل السابق[٤٢] .

لم يقتصر العبث بالكتب ونهبها على المغرب الاقصى وحده ، ففي تونس ابيدت مبان بكاملها كمدرسة المعرض وخزانتها وهما من بناء السلطان الحفصي عمر بن ابي زكريا ، (زركشي ، اخبار الدولتين ، الحفصية والموحدية ، ص٥١) . اما الكمية الكبيرة من المخطوطات التي قدمها ابوفارس عبدالعزيز الحفصي ٨٣٧/١٤٣٣ الى خزانة جامع الزيتونة فلم يحفظ منها الا القليل ، وكان بينها كتب في الطب والرياضيات والتاريخ (ن.م.ص١١٦) واسس ابو فارس هذا خزانة جديدة للطلاب كانوا يترددون عليها في اوقات معلومة وبها عدد كاف من القيمين (ابن دينار ، المؤنس ، ص١٥٣) فاين هذه الخزانة ؟

بينما قدم الامير الحفصي ابوعبدالله محمد ٩٣٢/١٥٢٥ كمية كبيرة من الكتب الى مقصورة جامع الزيتونة نقلت بقاياها الى الجامعة الجديدة ، وكان القصر الملكي الفاطمي بالقاهرة يضم ستمائة الف مجلد بينها الكثير مما تعددت نسخة : (١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبري . ١٠٠ نسخة من الجمهرة لابن دريد (مقريزي خطط ٢ ، ٢٥٣ ـ ٢٥٤) وهذا دون الحديث عن عشرات الخزائن الاخرى في البلاد العربية والاسلامية .

وهكذا يتجلى ان مساهمة الدولة السعدية في انشاء الخزانات على الرغم من انها لم تستجب لحاجات الشعب من حيث عددها وتوزيعها فقد فتحت المجال لتنافس حقيقي في الاوساط الاجتماعية بمختلف جهات البلاد ، حتى كانت الخزائن الخاصة اكثر عددا واحسن توزيعا على يد هذه الاوساط المتعطشة الى المعرفة . غير ان الخزائن الملكية والكتب التي حسبها الخواص على المعاهد والمساجد لم تسلم الا كمية قليلة منها ، من نهب الثوار وعبث العابثين[٤٣] . ومن جهة اخرى فان الخزائن الخاصة لم تكن تحتوي دائما على مؤلفات كلها ذات اهمية او تعالج شتى فروع العلم المتعارفة ؛ فمكتبة يعقوب الولالي مثلا كانت تشتمل على نسخ من المصحف الكريم وكتب الحديث والتفسير والتصوف [٤٤] ، ويدل جمع هذا النوع من الكتب على ان صاحبها ذو روح دينية مجردة ، فضلا عن شخصيته كصوفي .

٤ ـ المراكز الثقافية

استفاد السعديون من نتائج الجهود التي بذلها قبلهم بنومرين قبل ان يحققوا من جهتهم بعض المنجزات الاضافية :

١ ـ انشأ المرينيون عدة مدارس لايواء الطلبة ونشر التعليم العربي والعلوم الدينية وبعض العلوم الطبيعية والرياضية ، وهذه المدارس التي توقفت العناية بها في العهد الوطاسي اعيد استخدامها في العصر

السعدي ، ولما كانت هذه المدارس غير كافية لاستقبال الطلبة الذين تكاثرت اعدادهم في مختلف جهات البلاد فقد انشئت مؤسسات دينية وتعليمية في جل النواحي التي كانت محرومة فيما قبل من تلقي نصيبها من المعرفة والثقافة ، وهكذا فان الامكانيات الثقافية التي توفرت تبادلا في القرن العاشر/السادس عشر لم تكن معهودة قط من قبل . كذلك استعادت وكالة نشاطها الفكري الذي تجاوز ماعرفته في القرون الاولى للفتح الاسلامي على يد البروغواطيين

٢ ـ في كثير من مجالات النشاط الثقافي والفكري لم يكن العمل الرسمي الا استمرارا لما عرف في العصر المريني . فالكتب التعليمية لم تشهد تغييرا . جذريا في جملتها سيما كتب النحو والفقه المالكي . فقد استمر العمل بمتن خليل مع الرجوعه الى مزيد من الشروح الجديدة . وبقيت منظومة ابن مالك في النحو والاجرومية في نفس العلم ، المصنفين الرئيسيين في مراحل الدراسة الابتدائية والمتوسطة . كما ان حفظ النصوص عن ظهر قلب لم يزدد الا نموا وأهمية .

وعلى الرغم من ان كثيرا من الاساتذة والفقهاء والطلبة كانوا يؤدون واجبهم المهني بتجرد ومن غير ان يتأثروا بدوافع مادية فان الحركة الثقافية والتعليمية في عامتها ظلت خاضعة لعاملين اساسيين :

١ ـ الظروف المحلية ، فمراكش وفاس مثلا ، كانا يوفران في ظروف الاستقرار جميع الامكانيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، اذ هناك مساعدات هامة لرجال الفكر ، لكن على شرط ان يساندوا سياسة الدولة ، وهناك اوقاف تدر موارد لمساعدة الطلبة والاساتذة ، كما ان الوظائف متوفرة . غير ان طموح رجال الفكر والطلبة كان في الغالب بعيدا عن كل هدف مادي ، فالروح الدينية المتجردة سائدة بالرغم من ان بعض النقاد الاجتماعيين كانوا يريدون من كل مفكر أو مثقف ان يعيش زاهدا ولايسهم بعمل منتج . ومهما يكن من شيء فالامكانيات العلمية لم تكن متكافئة فيما بين المراكز الثقافية . وقد تخصص مركز تادلا في علم التصوف وبالنظر لموقعها الاستراتيجي كمعبر للجيوش المنطلقة من الشمال الى الجنوب وعكسا ، فانها لم تتأثر سياسيا بأي تيار معين ، ومن ثم فقد كرس المثقفون هنا حياتهم للجهاد تارة والعمل الروحي تارة اخرى . وهكذا قل في مراكز أخرى حيث نجد الكل منها امكانياته واتجاهاته .

٢ ـ حاجيات الدولة : اذا كانت الدولة قد استقرت في اغلب عدها بمراكش ، فان قسما كبيرا من اطرها ينتمي الى مركزين كبيرين بالجنوب ، هما سوس وتافيلالت اللتان ساهمتا في خدمة البلاد بتكوين العديد من الاطارات الدينية والعسكرية والادارية بالنظر لوفائها للدولة طالما التزمت هذه جانب الجادة . وهكذا كانت الاطر التي تنتمي الى المراكز ذات الاهمية السياسية والاستراتيجية الخاصة تغطي الكثير من حاجيات المخزن الى الاطر . ومن ثم فلم يكن كل مثقف يعمل بالضرورة في خدمة الدولة . غير ان اغلبية المثقفين الملتزمين كانوا يستنكفون من العمل في اطارات الدولة ، فيكتفون بأعمال متواضعة قانعين بشظف العيش ، واذا دعوا الى عمل وطني او مشروع بر ، تحمسوا له ووجدوا فيه خطة تتفق والتزامهم .

وفيما يلي نستعرض نشاط المراكز الثقافية الكبرى :

مراكش

ترجع شخصية مراكش الفكرية الى وضعها كعاصمة قبل كل شيء وبالنسبة لازدهارها كمركز ثقافي في العصر السعدي ، الى قربها من مناطق جزولة والجهات التي اعطت الدولة الكثير من اطاراتها المثقفة . فكانت والحالة هذه مركز اجتذاب لعناصر السكان على اختلاف نزعاتهم واوضاعهم الاجتماعية ، ففي مراكش تلتقي التيارات من غير ان تتجاوز الافق السُّني الذي دارت في فلكه هذه التيارات ، ومافشل الحركة الظاهرية الا عنوان للاطار

المحدد لهذا النشاط الفكري ، لكن لاننسى ان من مراكش انبعث المذهب المالكي في العهد المرابطي في اوسع جولة دعائية له لم يعهدها من قبل قط ، وان مراكش هي التي حاولت في شخص ملوك الدولة الموحدية الاوائل ان تقر مذهب المهدي بين تومرت في العقيدة والشريعة وتعمل على وضع حد لنفود الفقهاء جملة ، ثم تعود مراكش مرة اخرى بعد غياب طويل عن النشاط الفكري بوجه عام استغرق شطرا كبيرا من القرن ٨/ ١٤ ثم القرن ٩/ ١٥ ، تعود في ظل الحكم السعدي وبفضل همة عدد من قادة الفكر الاحرار ، لتسترجع مجدها العلمي القديم ، ولتستقبل الكثير من الاساتذة والمثقفين من اقطار المغرب العربي والسودان واحيانا من المشرق . فكل المثقفين الذين وردوا من خارج المغرب لابد ان يستقروا بها فترة او يقضوا بها بقية حياتهم . فمحمد هبة الله الوهراني شخصية لامعة في علوم الشريعة من اصل جزائري . والاستاذ الخروبي الفقيه والناقد الاجتماعي من اصل ليبي . وقد سبق ذكر الكثير من المثقفين الذين استقروا بمراكش وغيرها من مدن المغرب قادمين من تلمسان على اثر محاولة السعديين للاستيلاء على هذه المدينة .

ولقي احمد بابا السوداني من التقدير بمراكش مااستحقه بفضل معارفه الواسعة وقيامه بالتدريس حتى انجذبت اليه المآت من الطلبة وعدد لايستهان به من زملائه في التدريس .

ولما كانت مراكش عاصمة البلاد فلم يكن يختار للوظائف السامية بها الا اولئك الذين نالوا حظا كثيرا من التكوين الثقافي ، ونذكر منهم على سبيل المقال ابا فارس الفشتالي الذي خصص كل ادبه وربما كل كتاباته للدولة وحدها ، وكان عميق المعرفة باللغة والادب ، وكان القاضي محمد الرجراجي من الفقهاء الممتازين والذين كلفهم احمد المنصور بوضع تآليف لخزانته .

ولم يكن بمراكش عدد كاف من المدارس لايواء الطلبة ، ولكن كانوا كبعض زملائهم بفاس يَكْتَرَون غرفا في بعض الفنادق المتواضعة بأثمان زهيدة . وانما يجدون العوض عن الإيواء والعناية المادية في العدد الكثير من الخزائن التي انشئت بكثرة لمصلحتهم ، والتي الحقت بالمساجد وعدد من الاضرحة الرئيسية كماهو الشأن بجامع القصبة وجامع المواسين وجامع ابن يوسف وجامع باب دكالة وضريح ابي العباس السبتي .

ولربما شهد التأليف اكبر نشاط عرفه بتاريخ المغرب حتى القرن ١١/ ١٧ . فقد تناول كل العلوم والفنون المتداولة ، فضلا عن موضوعات الساعة كالصيد بالبندقية وتدخين التبغ . وبالطبع نالت مراكش حظا وفيرا بوصفها مركز اجتذاب لسائر الاتجاهات الفكرية ، وبها الف احمد بابا السوداني معظم كتبه الشهيرة ، كما انها تميزت باحتضان المجلس العلمي الذي كونه احمد المنصور والذي كان يضم شخصيات من رجال الفقه والادب والرياضيات واللغة ، وكان عدد من افراده يشاركون في "الديوان" كأعضاء دائمين ، كما كان المنصور يصحب عددا من الشخصيات المثقفة المراكشية الى فاس كلما توجه اليها ليجتمعوا وزملائهم الفاسيين باشرافه فتجرى بينهم مناقشات فكرية يساهم فيها ايضا ، كما يشارك الفريقان في "الديوان" الذي يجتمع في عين المكان ، وهو مجلس استشاري سياسي .

وحقا لقد شهدت مراكش مظاهر من الحياة متناقضة كأي مدينة كبيرة مفتوحة ومتقدمة حضاريا ، فهناك جلسات وسهرات ماجنة تقام في عدد من القصور وبعض الفنادق المتواضعة ، الى جانب حركة تجارية واقتصادية كبيرة ، مع وجود طبقة كبيرة من السكان في حالة من البؤس والحرمان ، ثم هناك نشاط علمي وديني يستقطب اتجاهات مختلفة ويتخذ شتى الاشكال والصور ولكنه يبقى في مجمله ديمقراطيا لان التعليم مفتوح للجميع ، والكتاب في متناول اي قارىء .

وبلغت مراكش كفاس ، مكانا خاصا في بث العلوم الفقهية وعلم التصوف وبها قضى الصوفي التادلي احمد الشعبي شطرا من حياته قبل ان يستقر نهائيا بمسقط رأسه "الصومعة" ولقي المذهب الجزولي أذنا واعية في

الاوساط الشعبية التي كانت ترى في وجود رفات الشيخ محمد الجزولي في تراب مراكش بشيرا باليمن والبركة . وبمراكش تلقى ثقافته او قسما منها على الاقل ابن ابي محلي ذلك الشخص الذي زعزع كيان النظام السعدي والجأ السلطان الى الاقامة مدة خارج عاصمته ، ثم في مراكش ايضا ظهرت واحبطت محاولة ابي عبدالله الاندلسي من أجل وضع حد للعمل بالمذهب المالكي واقرار المذهب الحزمي مكانه .

ومجمل القول انه اذا كانت فاس لم تفقد مجدها قط كمركز اشعاع ثقافي عظيم ، فان مراكش انما عرفت امجد عهودها الثقافية في ابان الحكم السعدي .

فاس

كانت فاس اهم مراكز استقبال العنصر الاندلسي بالمغرب . فقد استقرت بها العائلات الاندلسية الاولى في العهد الادريسي ، ولما كانت طبيعتها تتقارب مع طبيعة المدن الاندلسية ، فقد ظلت اهم مراكز اجتذاب لهذا العنصر فجمعت لذلك مزيتين لاتتوفران لكل مدينة ، وهما النشاط الاقتصادي والفكري وهكذا فان نقل العاصمة السياسية الى مراكش في ايام المرابطين والموحدين لم يفقد فاس اهميتها في حقل الثقافة والتعليم لان السلطة لم تعزلها عن اهتماماتها بل واصلت العناية بها في مختلف الميادين ولكنها عرفت اوج ازدهارها في العهد المريني الذي خلد جل مظاهر التراث الاندلسي حتى يومنا هذا . ومن هذا العهد تبقت في مستوى التعليم حوالي مائتي كتاب استمرت في اداء مهمتها في تعليم الاطفال ابان العصر السعدي الاول على الاقل (٤٥) واذا افترضنا ان هذه الكتاتيب تضم ١٠ آلاف طفل ، عرفنا الى اي حد كان التعليم منتشرا بفاس ، التي كانت مع هذا تضم عددا وفيرا من المساجد والمدارس . ووجود القرويين وحدها كاف لاثبات الزعامة الثقافية التي ظلت فاس تحتفظ بها حتى ابان العهد السعدي نفسه (٤٦) ، على ان المدارس تتمم ماقد تتركه القرويين وغيرها من المساجد في تدريس بعض المواد حيث تتوفر كلها او تكاد على كراسي تقل او تكثر حسب الظروف ، ولقد كان المغرب يتتبع التطورات الفكرية بالبلاد الاخرى ويبحث عن انتاج العلماء والفقهاء يقتنيه بمجرد ظهوره ، كما نعلم ذلك من الكمية الكبيرة من كتب السيوطي التي اقتناها احمد المنصور وقدمها لخزانة القرويين .

ولقد لقي عدد من فقهاء فاس وشخصياتها المثقفة شهرة عمت انحاء المغرب ، لما كان لها من تأثير يتضح في الرجوع الى آرائها في شتى المراجع المعاصرة واللاحقة ، ومن بين هذه الشخصيات على سبيل المثال : قاسم بن ابي العافية النحوي ، وشيخ علم التصوف عبدالقادر الفاسي ، والاديب ابن الغرديس التغلبي ، والمفتي يحيى السراج والفقيه الاصولي ابن القاسم القصاروه وايضا من اشهر المفتين في تاريخ المغرب عموما ، وقد اتيح لهذه الشخصيات وغيرها ان تحظى في آن واحد بعطف وتقدير السلطة الرسمية والجماهير الشعبية .

وقد تميزت فاس كمركز ثقافي :

١ ـ بكونها مركز اشعاع ثقافي على الصعيد القومي لا الجهوي فحسب .

٢ ـ بالعدد الضخم من الكراسي العلمية المخصصة لمختلف فروع المعرفة والتي اوقفت بها من قبل الخواص والسلطة .

٣ ـ بكونها مركزاً للدراسات الفقهية من مستوى عال حيث اضيفت دراسة الاصول بها الى سائر المواد الفقهية ، وذلك بمبادرة من بعض كبار اساتذة الشريعة كمحمد القصار وأحمد المنجور .

واشتركت الطبقات الشعبية في الاستفادة من الدروس التي كانت تعطي بالمساجد في الحديث والفقه والتفسير والسيرة النبوية ، هذه العلوم التي تشد المؤمنين الى الدين برباط محكم وتوجههم الى المثل العليا في الميدان الاجتماعي والأخلاقي .

كذلك اكتملت سلسلة الفكر المترابطة بتلقين الموسيقى الاندلسية في الاوساط البرجوازية ، والملحون الذي اشتركت فيه طبقات من مختلف المستويات الفكرية ، فالافراح العائلية والرسمية لايمكن ان ترتاح اليها النفس مالم تكن زينتها الأجواق الموسيقية وأناشيد الملحون ، وان كانت هذه تردد بصفة خاصة في الحفلات الدينية ، والواقع ان وجود عدد كبير من الاسر الاندلسية الاصل ربَّى هذه الحاسة الموسيقية في نفوس سكان فاس الذين اضفت الطبيعة عليهم حلة من جمالها تستلهم فيها الموسيقى والأدب الشيء الكثير من مضمونها وشكلها . ومن ثم استطاعت فاس ان تجمع بين الاصالة والمؤثرات الاندلسية الرفيعة .

على ان حب التثقيف والاستفادة من المعارف لم يكن دائما خاليا من أهداف شخصية مادية ، بل نجد عكس ذلك ، رأسا ادلى به في هذا الشأن أبوزيد عبد الرحمن الفاسي[٤٧]، وهو ان اهل فاس لم يكونوا يسعون في دراستهم الى أهداف علمية محضة ، بل كانوا يسعون فحسب الى الحصول على المناصب ، ومن ثم لايتعاطون من الدراسات الا مايبلغهم الى هذه المناصب ، لاسيما النحو والفقه ، غير انه لم يكن لطلاب المعرفة كلهم مثل هذه الغاية .

كذلك فان الطلبة الأفاقيين كانوا يعملون بجد ، سعيا في تكوين ثقافي متين قبل ان يهتموا بمطامح مادية فقد كانت المباهاة بالعلم خارج المدن هدفا في حد ذاتها ، وفي الوقت الذي يطوي فيه الطلبة الفاسيون مراحل الدراسة طيا لينعموا بمنصب رسمي او يمتهنوا بعض المهن التي تتطلب اساسا دراسيا معينا كالعدالة مثلا (حرفة الماذون) ، نجد الطلبة الأفاقيين يطيلون مقامهم بالمدارس حتى يحصلوا على اكبر قدر ممكن من المعرفة ، وهذا علي بن ميمون الغماري الذي سيصبح رائدا كبيرا للتصوف قبيل قيم الدولة السعدية يقدم لنا مثالا بارزا عن جدية الدراسة التي كان يقوم بها كطالب مع زملائه فيقول[٤٨] :

"كنت مع ابناء جنسي في الاجتهاد والمطالعة والدرس والحفظ والمكابدة ليلا ونهارا ، فكان دأبنا في زمن الشتاء لانأكل طعاما من الليل الى الليل لكثرة المجالس ، وكثرة ترددنا عليها من صلاة الصبح الى صلاة العصر" .

ولعل هذه الصورة كافية عن حركة الثقافة والتعليم بفاس في العصر الذي نعالجه .

سوس

تكون سوس مجموعة مراكز ثقافية منبثة في انحاء هذه المنطقة الواسعة . وبسوس اختار السعديون عاصمتهم الثانية (تارودانت) بعد تيدسي التي هي منطلق دعوتهم ، وقد انشأ محمد المهدي الشيخ بتارودانت مسجدا كبيراً كان له اثر بارز في حقل التعليم والاشعاع الفكري ، وانضمت جهود الافراد الى جهود المسؤولين في توسيع دائرة نشاط هذا المركز الذي لم يخل من حركة ثقافية منذ العهد الادريسي او الزياني كما سجل ذلك البكري في وصفه لتارودانت ، وتميزت الحركات الثورية التي شهدتها منطقة سو ايام انحطاط الدولة السعدية بكون قادتها جميعا من المثقفين المرموقين كأبي حسون السملالي وابن عبدالمنعم الحاحي .

ومن بين المراكز التي شهدت نشاطا ثقافيا واسعا ، إيليغ وتارودانت وتَمَنارت وأَكْلُوُ وتَازْروالتَ وغيرها من المراكز التي حفلت بالزوايا والمدارس والمساجد والخزائن . وشمل التكوين العلمي والادبي فروعا عديدة من المعرفة وهي كما ذكر مؤلف "سوس العالمة" [٤٩] : الفقه والفلك والرياضيات والفرائض والحديث والتفسير والاصول والجدل والمنطق والطب واللغة والادب والعروض .

على ان الاحداث السياسية التي عرفتها المنطقة ايام انحطاط السعديين لم توقف ركب التقدم الفكري ولن تعق المؤسسات الثقافية والتعليمية عن ممارسة نشاطها المعتاد . ويرجع الفضل بصفة كلية تقريبا في هذه

الفترة ، الى الاسر الشعبية التي تنافست في حقل الاشعاع الفكري وبث التعليم ، ونذكر منها على سبيل المثال :

١ ـ الاسرة الواحدية ، نسبة الى عبدالواحد بن حسين ، وينتمي اليها عدد من القضاة والاساتذة الذين اسهموا بكبير حظ في الاشعاع الثقافي[٥٠] .

٢ ـ أيت عباس [٥١] .

٣ ـ الاسرة الأغضيضية ، ومنها الفقيه عمر بن يعزي [٥٢] .

٤ ـ الطالبيون ، نسبة الى طالب محمد بن ابراهيم الذي قيل عنه انه من اواخر الذين حفظوا كتاب سيويه [٥٣] في القرن ١٦/١٠ .

٥ ـ المزواريون وهم من شرفاء جزولة ، ومن بينهم الفقيهان محمد عبد الملك ومحمد ايكيك [٥٤] .

واشتهر مركز أكلو بكونه ضم احدى اقدم المدارس المغربية ، وهي مدرسة وكاك بن زلو التي درس بها عبدالله بن ياسين قبل تأسيس دولة المرابطين .

وفي العهد السعدي احتفظت تارودانت بنشاطها العلمي حتى بعد انتقال الدولة الى مراكش ، واستقبلت عددا من المثقفين القادمين من تلمسان كمحمد الوقاد الذي شغل منصب استاذ وامام وخطيب بالجامع الأعظم .

ومن المغاربة الذين درسوا بتارودانت سعيد بن عبدالله العياشي ، وعبد الرحمن التمنارتي مؤلف "الفوائد الجمة" الذي ترجم لكثير من شخصيات سوس ، وابوزكريا عبدالمنعم الحاحي الذي تدل مراسلاته مع زيدان على علو كعبه في الثقافة الاسلامية[٥٤] .

وساهمت ايليغ عاصمة ابي حسون السملالي بدور ايجابي في النشاط الفكري بوجه عام ، وكان للادب مقام مرموق في عهد هذا الزعيم الشعبي حيث كانت البربرية مع ذلك ، لاتزال غالبة في منطقة ايليغ ، ومن ادبائها باللسان العربي أمحاولو الايسي الذي القى قصيدة بين يدي بودميعة [٥٥] على اثر تنصيبه اميرا بالمنطقة السوسية ، وفي هذه القصيدة يعدد الشاعر مزايا ممدوحه ويدعو الى تشجيع العلوم الدينية في منطقة نفوذه [٥٦] ، وقد اصبح أمحاولو فيما بعد رئيس الكتاب في بلاط أبي حسون .

وينتمي كثير من المثقفين الى مركز ايليغ ، وبينهم من قاموا بنشاط خصب في حدود اختصاصاتهم وميولهم ، كمحمد بن سعيد العباسي وعبدالعزيز الرسموكي وسعيد ابن محمد [٥٧] .

واذا كانت الدراسة في الجوامع والمدارس بسوس تتناول بصفة عامة علوما وفنونا متعارفة في عدد من المراكز الثقافية الاخرى ، فان انتاج المؤلفات لم يكن يتجاوز نطاق بعض المعارف والعلوم ، فيما عدا كتب المبادىء :

١ ـ كانت الكتب المدرسية في الغالب توضع على شكل أراجيز ، وهذا المنهج اشتهر بالمغرب في العصر المريني وانتقده ابن خلدون في المقدمة نظرا لان هذه الاراجيز تصبح لاختصارها وتعابيرها الضيقة أشبه بالرموز منها بكتب مدرسية مبسطة ، وقد شملت الاراجيز كل العلوم والفنون حتى التاريخ إذا اعْتُبر ان مايُنظَم ويُغَنَّى أسهل حفظا وأرسخ في الذهن من الكلام المنثور ؛ ومن ثم أصبح التلاميذ يحفظون أكثر مما يفهمون أو يُنتجون .

٢ ـ كتب الفقه والنحو هي على العموم شروح لمتون قررت رسميا كشروح خليل ورسالة القيرواني وألفية ابن مالك .

٣ ـ الانتاج الأدبي لابأس به كما وكيفا .

٤ ـ المؤلفات في الفلك تثير الانتباه بعددها وأهميتها ، ونفس الشيء ايضا بالنسبة لكتب النوازل ، ومن بينها

ماألفه احمد بن مسعود الهوزالي وعبدالسميح الأوزالي وعبدالله التاملي . ومن أهم كتب الفلك ، الأرجوزة المسماة بالمقنع لمحمد بن سعيد المرغيتي ، وشرح السيارة المنسوب لعبدالرحمن بن عمرو البعقيلي المعروف بالجرادي [٥٨] .

درعة

درعة مدينة وناحية ونهر ، جمعها نفس المكان ، ولم يكن لها سوى أهمية محدودة قبل العصر السعدي فيما يخص النشاط التعليمي والثقافي ، ولكنها كانت منطقة زراعية ذات أهمية كبيرة [٥٩] ، وبميلاد الدولة السعدية بدأ انفتاحها على النشاط الفكري في أوسع نطاق عرفته ، ولما كانت مهدا لهذه الدولة فقد ساهمت في تزويد البلاد بالأطر الادارية كما كان الأمر بالنسبة لسوس ، ونذكر من بين رجالات الفكر الذين ينتمون الى هذه الناحية في القرنين ١٠/١١ (١٦/١٧) :

١ ـ أحمد البوسعيدي الدرعي الملقب بأكحيل تلميذ أبي القاسم التفونتي ، وكان ضليعا في الفقهيات قاصرا في النحو [٦٠] ، لان مادة النحو ظلت تلعب دورا بالغ الأهمية في الدراسات اللغوية اطلاقا ، عبر العصور .

٢ ـ أحمد بن محمد الدرعي الملقب بأدفال [٦١] . وشيوخه كثيرون ومشهورون كعبدالوهاب الزقاق وعلي بن هرون وأحمد بن موسى الجزولي ، وتابع دراسته بالمشرق حيث اجازه عدد من اساتذته ، ثم توفي بدرعة سنة ١٠٢٣/١٦١٤ .

٣ ـ أبوعبدالله الحساني[٦٢] مفتي مراكش ومؤلف ديوان قبائل سوس . وقد توفي بالطاعون سنة ٩٦٥/١٥٥٧ . وتلقى معظم اساتذة درعة بفاس دراستهم قبل القرن ١١/١٧ ، لكن ابتداء من انشاء زاوية تمكروت أصبح هذا المركز كافيا لتغطية الدراسات العليا بالمنطقة ، خصوصا مع وجود خزانة عظيمة توفرت عليها الزاوية .

٤ ـ محمد بن علي الجزولي البكري (ت : ٩٦٠/١٥٥٢) وكانت له زاوية بتمكروت وكانت له مراسلات مع عبدالرحمن التاجوري شيخ العلوم الفلكية بمصر [٦٣] ، وهو والد السفيرين ، محمد الجزولي الدرعي الذي كان سفيراً للغالب الى القسطنطينية[٦٤] ، وعلي الجزولي الدرعي الذي انتقل الى مراكش وكان سفيرا للمنصور الى تركيا ايضا [٦٥] .

وتدل لائحة الكتب والمواد التي كان يتعاطاها الطلبة ، على الاتجاهات التي يختارها طلاب الفكر . من ذلك مثلا :

١ ـ الكتاب لسيبويه

٢ ـ صحيح البخاري وصحيح مسلم

٣ ـ الاحياء للغزالي في التصوف

٤ ـ شرح حكم ابن عطاء الله ، لابن عباد .

٥ ـ المفصل للزمخشري في التفسير . ونلاحظ ان المفصل قلما كان يقرر تدريسه في معاهد اخرى بالمغرب .

سجلماسة

كانت سجلماسة منطقة عمرانية تمتد مسافة عشرين ميلا على ضفاف وادي زيز وكانت في اول العهد السعدي تشتمل على ٣٥٠ قصرا وقرية آهلة بالسكان [٦٦] ، وسجلماسة في الاصل مدينة ناها خوارج بني مدرار سنة ١٤٠/٧٥٧ . ثم استمرت تنمو وتتوسع عبر القرون في الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

ومنذ نشأتها اصبحت من اوائل المراكز الثقافية المغربية في الاسلام . على ان التقهقر الاقتصادي الذي عرفته في القرن ٩/١٥ والذي استمر بعد ذلك (٦٧) بالرغم من العناية التي وجهها المنصور الذهبي الى المنطقة ، كان له اثر بارز في ضيق النشاط التعليمي والفكري ، الا ان سجلماسة احتفظت مع ذلك بنشاط ثقافي لابأس به حيث بقيت عدة معاهد تقليدية بالمنطقة تواصل اداء مهمتها ، وهكذا نجد من بين الذين تلقوا دراستهم بجلماسة العالم اليوسي الذي درس علي أحمد الدراوي امام جامع قصبة جلماسة وعبدالعزيز الرسموكي وغيرهما (٦٨) ، واتيح لبعض المثقفين من سجلماسة ان يتسنموا بعض المناصب السامية في الدولة ، كعبد الواحد الحسني الذي كان مفتيا ومستشارا لأحمد المنصور .

ونوه المقري (٦٩) بشخصية علي بن الزبير السجلماسي الفقيه النحوي الذي شغل مدة ، منصب كاتب في بلاط زيدان . ومن المؤكد ان جل الشخصيات السجلماسية المثقفة استكملت دراستها في هذه الفترة بمراكش أوفاس ، ونلاحظ ان لفظ سجلماسة بدأ يضمحل شيئا فشيئا خلال القرن ١١/١٧ ليحل محله اسم "تافيلالت" الذي لايعرف مصدره على وجه التحقيق .

تادلا

كان لهذه المنطقة نشاط ديني كبير في القرنين ١٠/١١هـ . وكانت المدينة الرئيسية بها قبل السعديين بوقت طويل هي نفزة التي كانت لها أهمية ادارية واقتصادية اكثر منها ثقافية . وفي العصر السعدي لعبت مدينة "الصومعة" القريبة من بني ملال دورا بالغ الاهمية في الاشعاع الفكري لاسيما في الدراسات الفقهية والصوفية التي لمعت فيها اسماء شخصيات كثيرة كأحمد ابن ابي القاسم التادلي تلميذ ابي عبدالله الخروبي ، ويعزي الجزولي (٧٠) ، وعبدالرحمن الصومعي مؤلف "التشوف الصغير" وهو مجموع تراجم لرجالات الفكر الاسلامي بالمغرب(٧١).

غمارة

هذه المنطقة تكون جزءا من الريف ، شمال المغرب ، وقد عرفت عبر القرون احداثا تاريخية ذات طابع خاص . فهي قبل كل شيء منطقة ظهر فيها عدد ممن ادعوا النبوة دون ان يخلفوا اثرا بعدهم . كما شهدت مولد أشهر رجال التصوف المغربي وهو أبوالحسن الشاذلي المتوفي سنة ١٢٥٨/٦٥٦ .

وابتداء من القرن ٨/١٤ ساهمت المنطقة اكثر من اي وقت مضى في تزويد الفكر العربي المغربي بالعديد من العناصر المثقفة كما انجبت العديد من الاطارات القضائية والمتخصصة في الفقه المالكي ، وذكرت بعض المراجع الكثير منهم (٧٢) ، وفي العصر الذي ندرس له نشطت الحركة الثقافية بغمارة ، بفضل العديد من العائلات التي استقرت بالمنطقة وافدة من الأندلس ، ولاتزال عدة اسر منها تحافظ على بعض الكتب التي اصطحبها اسلافها من الديار الاندلسية .

وقد انجبت غمارة العديد من مؤلفي كتب "النوازل" الرئيسية التي تحتفظ بأصالتها ، وقيمتها ليس في الدراسات الفقهية فحسب بل وفي الدراسات الاجتماعية ايضا . وممن الفوا في هذا الباب :

١ ـ عبدالعزيز بن الحسن المهدي الزياتي (ت . ١٠٥٥/١٦٤٦) مؤلف الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة .(٧٣) .

٢ ـ ابن عرضون الذي اشتغل بالتدريس في شفشاون .

ومن رجالات الفكر بالمنطقة ايضا :

١ - عبدالله القسطلي مفسر القرآن[٧٤] .
٢ - عبد الوارث اليلصوتي[٧٥] مؤلف "المسلك القريب" في التصوف ، والمؤلف من كبار رجالات التصوف في القرن العاشر/السادس عشر . اسس ببني زروال زاوية بهادفن سنة ١٥٦٣/٩٧١ .
٣ - علي بن ميمون الحسني مؤلف "رسالة الاخوان" الذي درس بغمارة مسقط رأسه حتى بلغ العشرين من عمره ، وتدل لائحة المواد التي تلقاها هناك على نوع الاهتمامات التي كانت تشغل الطلاب بالمنطقة ، فقد درس رسم القرآن في منظومة الشيخ خرزوز ، وقراءة ورش [٧٦] وقراءة قالون [٧٧] ، والاجرومية ورسالة القيرواني ومنظومة ابن اسحق التلمساني في الفرائض ، كما درس الفلك والحساب . غير ان ميوله تكشفت في النهاية عن الاهتمام بالدراسات الصوفية والنقد الاجتماعي والصوفي .

ومهما يكن من امر ، فمنطقة غمارة جديرة بدراسات متخصصة في النطاق الاجتماعي والفكري ، بالنظر لميزاتها التاريخية والاثنولوجية .

تطوان

تعد تطوان من المدن الوطنية الاولى . خربها الادارسة [٧٨] سنة ٩٤٩/٣٣٨ ، ويبدو انها كانت من معاقل الثورة المحلية واحد المراكز النشيطة في الميدان السياسي عبر الأحقاب ، ولذلك نراها تخرب مرارا وتجدد مرارا [٧٩] ، وبالنظر لنشاط اهلها في عمليات المقاومة البحرية خربها الاسبان في القرن ٩/ ١٥ ، ثم اعاد بناءها مهاجرة الاندلس في اواخر هذا القرن . ولما كانت اهم مراكز المقاومة في الشمال ، فقد ازدهر فيها خلال القرنين ١٠/١١(١٦/١٧) نشاط رجال المقاومة يواكبه نشاط صوفي سمح للفكر الاسلامي بتأكيد وجوده في شتى المجالات على يد اشخاص قدموا في الغالب من خارج تطوان قبل أن تسفر جهودهم عن تكوين العناصر المثقفة محليا ، ومن بينهم :

١ - أبوالعباس أحمد أنوار[٨٠] (ت ١٠٠٦/١٥٩٧) .
٢ - أبو الحسن علي بن مسعود الجعيدي [٨١] (ت١٠٣٢/١٦٢٢) . وقد بني بتطوان مسجد للصلاة والتعليم .
٣ - أبوعبدالله محمد مخشن (ت .١٠٥٢/١٦٣٢) وهو نحوي ومفسر .
٤ - العربي بن يوسف الفاسي[٨٢] (ت .١٠٥٢/١٥٤٢) وهو مؤلف "مرآة المحاسن" . على ان هناك عدة مراكز اخرى ساهمت بشكل أو بآخر ، في مجال النشاط الثقافي ، نذكر منها على الخصوص :
١ - الزاوية الدلائية ، وقد قامت في مجال الاشعاع الفكري بعمل واسع النطاق[٨٣] .
٢ - ناحية الهبط ، ومركزها الرئيسي القصر الكبير .
٣ - توات ، وهي منطقة نائية بالصحراء الشرقية ، وكان لها نشاط دائب في حقل المعرفة والدين [٨٤] . ومن اشهر شخصياتها محمد بن عبدالكريم المغيلي الذي هو من ابنائها وتولى بها القضاء حيث توفي سنة ١٥٣٣/٩٤٠ . وهو مؤلف "جزية اهل الذمة" واثارت مواقفه بشأن بيع اليهود ردود فعل من بعض الفقهاء .

على ان معظم مراكز الثقافة الشعبية يتواكب فيها النشاط الديني والثقافي في الوقت الذي نجد فيه المراكز الرسمية أو التي تهيمن الدولة على تسييرها لاتمنح الدراسات الصوفية نفس الاهتمام الذي نجده في المراكز الشعبية . ومن جهة اخرى ، فالمراكز الشعبية لم تعن في معظمها بالثقافة العلمية ، غير ان سوس تعد في الدرجة الاولى بين جميع المراكز الشعبية التي اهتمت بتخريج الرياضيين والفلكيين .

٥ ـ التعليم

ليس هناك تطور ذوبال في اتجاه التعليم ومحتواه باستثناء الانكباب بصورة خاصة على دراسة التصوف في عدة مناطق ، بالاضافة الى المواد التقليدية الاخرى ، وبالطبع يحتل القرآن مكانا خاصا في كل مراحل التعليم ، فهو منطلق كل ذي علم ، سواء أكان نحويا أم فقهيا أم أديبا أم فلكيا ، والقرآن يحفظ عن ظهر قلب في الكُتَّاب ويفسر في المدرسة أو الزاوية أو المسجد ، وتعد كل أنواع المعرفة الشرعية مكملة للقرآن . غير أن طرق التعليم تختلف حسب المعاهد والأساتذة والطلبة أيضا :

أ ـ الكتاتيب

من أجل تكوين فكرة عن التعليم الذي يلقن في هذه المؤسسات ، نرى من الفائدة ان نعود الى المعلومات التي زودنا بها الحسن الوزان [ليون الافريقي(٨٥)] عن كتاتيب فاس ، حيث يصفها كشاهد عيان ، ويذكر أن عددها كان مئتين "وقد خصصت للأطفال الراغبين في الدراسة ، وكل كُتَّاب يحتوي على حجرة كبيرة بنيت على شكل مدرج يجلس عليه التلاميذ . والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة ليس في كتاب ما ، ولكن بواسطة لوح يكتب فيه الأطفال . والدرس اليومي هو عبارة عن آي من القرآن ، فاذا ختم القرآن في سنتين أو ثلاث استؤنفت الدروس من جديد حتى يحفظه الطفل حفظا جيدا عن ظهر قلب" .

والواقع ان القرآن كان يحتل مكان الصدارة في جميع معاهد البلاد وقد بنى عبدالله الغالب بالقسم الغربي من القرويين خلوة خاصة لقراء القرآن "الحزابة" سميت بخلوة الحزابين (٨٦) ، وكان أطفال الكتاتيب يطلب منهم اولياؤهم ومعلموهم المواظبة على الحضور في حلقات الحزابين حتى يزدادوا حفظا لكتاب الله ويسهل عليهم فهمه والاهتداء بهدية في المستقبل . وليس من شك في ان حفظ القرآن كان عاملا اساسيا في بث الروح الدينية لدى المغاربة عبر القرون .

وتزودنا المصادر والوثائق بأسماء عدد من المعلمين الذين كان لُجُلِّهم تكوين دراسي لابأس به . ونذكر منهم على سبيل المثال :

١ ـ محمد بن يوسف الترغي (نسبة الى ترغة ، من جبال الريف) . وهو مؤدب الاسرة المالكة ، وكان له الفضل في نشر تعليم القراءات بالمغرب عن طريق تلاميذه العديدين . وكان فقيها ضليعا ونحويا مجيدا ، وأصله من فاس التي تلقى بها دراسته ، ثم تولى بعض الوظائف بمراكش قبل ان يعود الى الاستقرار بفاس (٨٧) حيث توفي سنة ١٠٠٩/١٦٠٠ .

٢ ـ عبدالله بن عبدالرازق العثماني (ت . ١٠٢٧/١٦١٧) وكان يلقن القرآن بكُتَّاب دراس بن اسماعيل (٨٨) بفاس ، ونسخ اكثر من ٧٠ مصحفا كما الف كتابا في التصوف(٨٩).

٣ ـ علي ملوك كان معلما بكتاب دراس المذكور ايضا(٩٠) .

٤ ـ علي السلاسي وعبدالله بن موسى الورتني ، وقد ذكرا في وثيقة عدلية يعود تاريخها الى سنة ٩٢٩هـ ، وكلاهما كان معلما بمدرسة الصفاح بفاس (٩١) .

وكان لمعلم الكتاب الحق في اجر عن تعليم الاطفال الذين وكلت اليه تربيتهم وتعليمهم ومن رأي من الآباء أن ابنه لم يتقدم في تعليمه أو أن المعلم لايؤدي مهمته باخلاص فانه ملزم بأداء أجر المعلم عن المدة التي وكل اليه خلالهما تعليم الطفل مهما كانت نتائجه(٩٢) . كما كان من المعمول به ان التلميذ المريض لايؤدي اجراً عن تعلميه خلال ايام تغيبه(٩٣) .

على انه اذا روعيت الحقوق المادية والمعنوية للمعلم بهذه الصورة أو تلك فان هناك من يرى ان التعويض المادي عن تحفيظ القرآن لايتفق مع قداسة كتاب الله[٩٤] ، غير ان اغلب الفقهاء لايعارضون التعويض المادي خشية تناقص الحفاظ[٩٥].

اما التأديب البدني فمقبول ، ولكن لايلجأ اليه حسب رأي محمد بن ابي بكر الدلائي الا من اجل تربية الطفل . ومن ثم فلا يمارس العقاب البدني في حالة غضب كمالا يضرب التلميذ على رأسه أو وجهه أو في مقتال منه ، فاذا توفي الطفل على اثر ضرب قاتل عوقب المعلم بالقصاص [٩٦] .

وهكذا نرى ان العناية بأطفال القرن ١٠/١٦ وآراء المربين في هذه الفترة لاتختلف في كثير من حيث المبدأ عما ينصح به الفلاسفة والمربون المعاصرون .

وينصح المربون في العصر الذي نعالجه باحترام عطلة يومي الخميس والجمعة من كل اسبوع ، لأن التلاميذ يبدأون دراستهم باكرا بعد الفجر في الايام العادية غير ان مربيا من هذا العهد يرى انه ينبغي صرفهم بعد صلاة العصر ، لأن الكتاتيب اعتادت ان تستمر في نشاطها الى اقتراب صلاة المغرب [٩٧] . وهناك بالطبع مهلة راحة للغذاء المنزلي .

ب ـ المدارس

وجدت المدارس في كل المدن الرئيسية والمتوسطة ، وكانت تخضع لمراقبة دقيقة لانها كلها تقريبا من بناء الاوقاف ، بينما الكتاتيب بنيت جلها من الاموال الخاصة . وقد تم تشييد معظم المدارس في العهد المريني ، واذا كانت توجد مدارس خاصة على شكل زوايا في الغالب فلم يكن لها بوجه عام ، نظام قانوني كنظام المدارس الرسمية ، وقد حدد أبو علي اليوسي شروط بناء المدارس في كتابه "القانون" [٩٨] ... ومن اهمها :

١ ـ بناء المدرسة يجب ان يكون من مال الحلال (من الكسب المشروع) .

٢ ـ كل طالب يجب ان يطلع على الشروط الخاصة بنظام المدرسة ، والتي اوصى بها المحبس ومن الواجب احترامها شرعا ، واذا خصصت المدرسة لايواء الطلبة أو لطبقة معينة كطلبة العرب أو الأجانب أو الفقراء أو النحاة أو الشيوخ أو البالغين سنا معينا . فليس لاحد غيرهم السكني بها وإلا عُدَّ ذلك غصبا .

وكان يسمح لبعض الاساتذة بالمقام في المدرسة فيتخذون من حجرتهم مكانا للراحة ومستودعا لمتاعهم دون ان يشتغلوا بالتدريس ولا بقراءة القرآن الجماعية[٩٩] ، ولذلك اوصى بعض الفقهاء بمنعهم من احتلال الحجرات المدرسية في هذه الحال .

ومن المرغوب فيه ان يسكن شخص واحد في كل غرفة ولايتخلى عنها لاي طالب ، ولكن في عصر الانحطاط والأزمات السياسية تتضاءل موارد الأوقاف فلا تكفي للقيام بشؤون المدارس ويعمد بعض الطلبة الى بيع حق استغلال غرفهم لطلبة آخرين[١٠٠] .

ومما يذكر كنموذج لعناية السلطات بالمدارس الرسمية في ايام ازدهار الدولة ان مدرسة "علي بن يوسف" بمراكش كانت قد اهملت قبل السعديين فلما استقروا بمراكش استأنفت المدرسة نشاطها حيث يتحدث عنها الوزان بقوله : [١٠١] .

"يوجد بالمدينة مدرسة رائعة اعدت للدراسة وسكنى الطلبة على اختلافهم ويحتوي طابقها السفلي على ثلاثين غرفة وقاعة كانت تستخدم من قبل الدراسة وكل طالب قبل في المدرسة أعفى من المصاريف (؟) ومنح كسوة سنوية اما الاساتذة ففيهم من يتقاضى مائة دوكة ومن يتقاضى مائتين راتبا حسب الدروس التي يتعين عليهم القيام بها ، ولايقبل بالمدرسة طالب اذا لم يكن يتقن مباديء العلوم .

على انه يتعذر الحصول على عدد دقيق أو تقريبي للطلاب في مدينة ما . ولكن احد خريجي القرويين في القرن ١٣/١٩ قدر عدد طلبة هذه المؤسسة بسبعمائة الى الف طالب [١٠٢] ، ولعل هذا هو نفس العدد تقريبا ، الذي كان يتابع الدراسة بالقرويين في العهد السعدي ؛ وهو يمثل مجموع الطلبة الداخليين والخارجيين اي القاطنين بالمدارس وخارجها[١٠٣] .

اما المدارس المطلوبة من اوساط الطلبة فيأتي في المقام الاول بينها مدرسة باب الجيسة ، والعطارين ، والصفارين ، والمصباحية[١٠٤] ، اي نفس المؤسسات التي كان الطلب عليها بكثرة في العهد المريني .

لكن اهم مشكل يعترض الطلبة ، هو قبل كل شيء مشكل الغذاء الذي لم يكن مضمونا الا في ايام الاستقرار السياسي ، بل لم يحظ الطلبة بمساعدة محترمة سوى في عهد أحمد المنصور ، وبعده لم يعد لهم الحق في اكثر من خبزة يومية لايسمح لهم القانون ببيعها على بخس مبلغها ، وذلك احتراما لبنود الوصية المتعلقة بهذا الوقف[١٠٥] . وبالمقابل ، فاعتباراً لقيمة الطالب ومستقبله لايقدم امام المحاكم الا اذا اثبتت عليه جريمة مقدما . غير ان قليلا من الطلبة كانوا يخلون بواجباتهم الدينية والأخلاقية ، حتى ليعد سلوكهم من هذه الناحية مثاليا بالنسبة لعامة الشباب .

ج ـ المساجد

كانت المساجد بمثابة معاهد متوسطة وعالية ، اي تجْمَع بين مستويين متفاوتين ، لكن احدهما يهيء للآخر ، ولذلك لم يكن من الممكن متابعة الدراسة بها الا بعد اجتياز المرحلة الابتدائية التي تختص بها الكتاتيب عادة . ومهما يكن من امر فلم يكن هناك من تفرقة بين مراحل التعليم المعروفة في الأنظمة الحديث فكان من الممكن للطالب ان يحضر مثلا ، درسا في الفقه بالاعتماد على متن ابن عاشر ، ودرسا آخر في نفس المادة بالاعتماد على شرح خليل ، لكن لايمكن فهم هذا دون دراسة لذاك . على ان متن خليل ، كثيرا مايتم تحفيظه في الكتاتيب والزوايا للتلاميذ الذين يتجاوز سنهم عادة ، الثانية عشرة . ومن ثم لم تكن مستويات التلاميذ قبل الدخول في مرحلة الدراسات العليا متشابهة كما أو كيفاً ، فهناك من يدرس عدة كتب ومواد قبل الشروع في المرحلة ، كما ان اخرين يكتفون بدراسة محدودة قبل ان يتابعوا دراستهم العليا ، وربما قد يقتصرون على مواد دون غيرها ، وقد شهدت القرويين تقلبات في وضعها التربوي والتثقيفي حسب الظروف السياسية .

وهكذا فان الطلبة الذين كانوا يتابعون دراستهم بها في عصر الانحطاط لم يكن مطلوبا منهم في الالتحاق بها سوى ان يكونوا حافظين للقرآن . غير ان قليلا منهم كانت سنه دون العشرين . ولما كانت المواد من الصعوبة بمكان كان التقدم في السن والذكاء ضروريين لمتابعة الدراسة بهذه الجامعة التقليدية ، وتبعا لذلك ، كان فيهم من لايتجاوز مقامه بها خمسة أعوام ، كما قد يطول مقام بعضهم خمس عشرة سنة أو عشرين[١٠٦] . وكان في الطلبة نجباء لايستنكف بعض زملائهم عن الجلوس بين ايديهم كتلاميذ وقد حبذ بعضهم اختيار الاساتذة من بين الشباب لانهم يقبلون المناقشة بصدر رحب . بينما يخجل الطلبة من القاء الاسئلة على كبار السن[١٠٧] .

اما افضل وقت لمذاكرة الدروس فهو الليل أو الفجر . وللتفرغ للدراسة يجب استبعاد كل عائق يحول دونها [١٠٨] . وفيما يخص المنهاج التربوي المتبع في عملية التعلّم والتلقين فلم يتغير عما كان عليه قبل قرون . فالطلبة يتحلقون حول الاستاذ ، ويتقدمهم ساردٌ يقرأ المتن بينما يقوم الاستاذ بشرحه او بالتعليق على الشرح الوارد في الكتاب . والدروس الصباحية تخصص في الغالب لتفسير القرآن ، حيث يقوم

الاستاذ بعرض آراء المفسرين في شرح الآيات ومعانيها معلقا عليها أو ناقدا لبعضها حسب اجتهاده ، بينما يتتبعه الطلبة باهتمام ولايقاطعونه او يوجهون اليه استفسارات اثناء عرضه الشفوي .

ومن غمضت عليه مسألة انتظر نهاية الدرس ، حتى اذا وقف الأستاذ لينصرف ، تحلق حوله السائلون واستفسروه بأدب واحترام [١٠٩] . وقد يفتح بعض الاساتذة باب المناقشة من تلقاء انفسهم خلال الدرس .

ولما كان لبعض المواد اساتذة متعددون لكل منهم حلقاته الخاصة يبقى للطلاب الحق في متابعة دروس اي منهم شاءوا . واذا كان هذا النظام معروفا في المعاهد التقليدية منذ القرون الاولى للاسلام فان الحضارة الغربية الحديثة لم تهتد الى قيمته الا في اعقاب القرن الثالث عشر (١٩م.) .

ومتى اختار الطالب استاذه في الحلقات الاولى ورضي عن طريقته فانه يكون من غير اللائق العدول عن حلقته الى حلقة استاذ آخر ، وان لم يكن هناك مايمنع من تغيير الاختيار .

ومن الطبيعي ان الاستاذ مطالب بتنمية معارف طلبته بمعلومات اضافية غير التي وردت في الكتاب المستعمل ، لان التعليم التقليدي يبنى على دراسة الكتب لا المواد أو الموضوعات ، ولكي يبرهن الاستاذ عن مقدرته العلمية ، يتعين عليه ان يحسم بآرائه الخاصة بعض المسائل الشائكة أو التي توارد الخلاف حولها من غير وضوح حجة أو رجحانها [١١٠] كما ان على الاستاذ ان يضع يد طلبته على مثل هذه المسائل ويوجههم الى النقد الهاتف والمناقشة البناءة حتى يساعد على تكوين شخصيتهم العلمية . غير ان قليلا من الاساتذة كانوا على هذه الدرجة من التفتح .

د ـ المواد الدراسية

اقتصر التعليم في الكتاتيب المغربية عبر القرون ، على تحفيظ القرآن وتعليم مبادىء الكتابة والقراءة ، باضافة تحفيظ المتون . وفي الكتاتيب من يلقن مبادىء الحساب ايضا ، ولما كان لكل مادة كتب معينة ، فضلا عن تنوع الكتب احيانا بحسب المعاهد ، فسنقتصر على ذكر المواد الدراسية والكتب المتداولة اكثر من غيرها في المساجد والمدارس والزوايا ، اما في الكتاتيب ، فالتلاميذ لا يتداولون الا قليلا جدا من الكتب ، على رأسها المصحف الكريم ، ثم متن ابن عاشر وألفية ابن مالك . وهذه لائحة الكتب الدراسية المستعملة في المرحلتين المتوسطة والعليا :

١ ـ التفسير والقراءات :

ـ تفسير الكشاف للزمخشري [١١١]

ـ تفسير الرازي [١١٢]

ـ أنوار التنزيل ، للبيضاوي [١١٣]

ـ تفسير الواحدي [١١٤]

ـ الشاطبية : لمحمد بن سليمان الشاطبي (ت . ٦٧٢/١٢٧٤) في القراءات

٢ ـ الحديث

ـ صحيح البخاري
ـ صحيح مسلم
ـ الشفاء للقاضي عياض[١١٥]
ـ الموطأ لمالك بن أنس
ـ الألفية في مصطلح الحديث للحافظ العراقي (ت . ١٤٠٣/٨٠٦) .

٣ ـ الفقه المالكي

ـ مختصر خليل وشروحه ، خصوصا شفاء الغليل في حل مقفل خليل لابن غازي[١١٦]
ـ مدونة سحنون
ـ التهذيب للبراذعي[١١٧]
ـ تحفة ابن عاصم الأندلسي[١١٨]
ـ رسالة ابن ابي زيد القيرواني[١١٩]
ـ مختصر ابن الحاجب[١٢٠]

٤ ـ النحو

استعمل في المرحلة الأولية ، مختصر ابن آجروم المعروف بالأجرومية . ومؤلفه ابن آجروم الصنهاجي ، توفي سنة ١٣٢٣/٧٢٣ . اشتهر مختصره هذا منذ العصر المريني ، وكان من اوائل الكتب التي تم طبعها بروما بعد القرآن خلال القرن ١١/١٠ .

اما الكتب الدراسية الاخرى فهي :

ـ ألفية ابن مالك[١٢١] بشرح المكودي (ت . ١٤٠٤/٨٠٧) وابن عقيل .
ـ كتاب سيبويه .
ـ مغني اللبيب لابن هشام[١٢٢]
ـ التسهيل لابن مالك .

٥ ـ اللغة واسرارها

ـ مقصورة المكودي
ـ مقامات الحريري (قاسم بن اسمعيل ، ت . ١١٢٢/٥١٦)
ـ تلخيص التفتازائي (سعد الدين مسعود بن عمر ، ت ، ١٣٩٠/٧٩٣)

٦ ـ الأدب

ـ لامية العرب للشنفري (شاعر جاهلي)
ـ مقامات الحريري
ـ المعلقات
ـ ديوان المتنبي

٧ ـ التوحيد وعلم الكلام

ـ عقيدة أهل التوحيد ، المدعوة بالعقيدة الكبرى للسنوسي [١٢٣]

ـ أم البراهين المسماة بالعقيدة الصغرى .

وقد استعمل هذان الكتابان منذ القرن ١٠/١٦ الى سنة ١٩٥٨م .

ـ اللامية الجزيرية لأحمد بن عبدالله الجزائري الزواوي (ت . ١٤٧٩/٨٨٤) مع شرح السنوسي .

٨ ـ الحساب

ـ تلخيص ابن البناء [١٢٤]

ـ المنية ، لابن غازي المكناسي

ـ كتب القلصادي[١٢٥] ، ومن بينها منظومة الياسمينة ، وقانون الحساب الخ .

٩ ـ التصوف

ـ احياء علوم الدين للغزالي[١٢٦]

ـ الحكم العطائية ، لابن عباد أحمد بن محمد بن عطاء الله الاسكندري (ت . ١٣٠٩/٧٠٩) .

ـ كتب أحمد زروق ، ومن بينها : عدة المريد ، والنصيحة الكافية ، الخ ..

ـ المدخل ، لابن الحاج العبدري (محمد بن أحمد . ت . ١٣٣٦/٧٣٧) .

ـ مجالس رسالة القشيري[١٢٧] .

١٠ ـ الفلك

استعملت بصفة خاصة كتب ابن البناء كرسالته في ذكر الجهات وبيان القبلة ، وشرح نظم ابي مقرع ، والانواء وصور الكواكب ، الخ ...

على ان كتبا اخرى قد استعملت في فروع العلم المتداولة ، لأن بعض الطلبة كانوا يفضلون الدراسة في كتب غير مقررة ولا متداولة [١٢٨] . ولكن من المؤسف ان معلوماتنا قليلة عن الكتب المستعملة في بعض العلوم الاخرى كالطب والعلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا ، وان كان من المفروض انه لم يقع استبدال كتب ابن سينا والرازي في الطب . اما التاريخ فلا يهم منه الا السيرة النبوية وحدها ، وتدرس في عدد من الكتب ، سيما كتاب ابن سيد الناس لليعمري واسمه ، عيون الاثر في فنون المغازي والسير . ومؤلفه عاش في القرن الثامن الهجري (ت . ١٣٣٤/٧٣٤) ، واصله اندلسي ولكنه توفي بالقاهرة .

وهكذا فلم يكن للتاريخ ولا للجغرافيا ما يستحقانه من مكانة في وقت بدا فيه ان المغرب تفتح سياسيا على العالم الخارجي اكثر من اي وقت مضى .

واذا كانت الجغرافيا تختلط الى حد ما بعلم الهيئة فان التاريخ الذي يتناول النقد السياسي وديانات الشعوب وعقائدها ومصائرها وقع التملص منه باطراحه كمادة دراسية ليس في العصر الذي نعالجه فحسب ، بل قبله ايضا . وهذا في الوقت الذي اسهم فيه مؤلفو الجغرافيا من المغاربة بنصيب بالغ الاهمية في بناء التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لعدد كبير من دول العالم .

ومهما يكن من شيء ، فباعادة النظر في لائحة الكتب الدراسية المتداولة في المعاهد ، نجد قسما كبيرا منها حديث العهد اولا يتجاوز قرنا قبل الفترة التي نؤرخ لها ، وبينها كتب مشرقية ومغربية ، ومن جهة اخرى فقد

قل استعمال مدونة سحنون عما كان عليه الامر سابقا . فلا جدال اذا في انه بالرغم من التقدم الذي حصل في تعميم التعليم ، فان الميدان العلمي البحت لم يتجاوز الحساب والتوقيت في جل الاحيان ، ومن الواضح ان المثل الذي ضربه احمد المنصور بترجمة الكتب التقنية الى العربية كما بينا ذلك في الفصل السابق لم يجد صدى على الصعيد العام لانه ظل عملا خاصا لم يصل الى الطبقات التي كان يجب ان تستفيد منه .

وفيما يرجع الى اختيار الطلاب للكتب الدراسية ، فقد ظل هذا التقليد معمولا به الى عهد قريب ، وننقل فيما يلي ، المعلومات التي زودنا بها خريج جزائري من القرويين وترجمها دلفان الفرنسي[١٢٩] .

يقول المصدر المذكور :

ان الاساتذة لأبعدُ ما يكونون عن اظهار نفس عواطف الحقد والحدة ازاء طلبتهم ، بل من المدهش ان نراهم يتركون لهؤلاء حظا كبيرا من المبادرة في تعليمهم . فالطلبة هم الذين يحددون المصنفات التي يودون دراستها ولا يعترض استاذ ابدا على اختيارهم . وهكذا جرت العادة لا في جامعة القرويين وحدها ، بل في كل المعاهد الاسلامية بالمغرب . وهذا التنازل من العلماء يذهب الى حد ان يحدث لهم ازعاجا اذا كانوا في سفر ، فيعترض الطلبة سبيلهم ويسألونهم ان يدرسوا لهم فصلا أو فصلين من كتاب ، ويكون الاستاذ سعيدا اذا لم يطالبوا بتدريس الكتاب كله[١٣٠] .

هـ ـ الامتحانات والعطل

لم تكن هناك ضوابط خاصة بالامتحانات ، لان مبدأ الامتحانات نفسه لم يكن معمولا به بصفة نظامية ، ولا يصبح الامتحان الزاميا الا عندما يتقدم المرشح لشغل منصب التدريس ، وان كان في المدرسين من يفرض نفسه بما لديه من مقدرة علمية وتربوية ، لكن بناء على رغبة يبديها الطالب نفسه يمكن ان يحرر الاستاذ او مجموع الاساتذة الذين يدرس عليهم ، كل على حدة ، اجازة خطية تشهد بحصوله على مستوى جيد في المادة والكتب التي درسها عليه وتأذن له بالرواية عن استاذه ، وكل ذلك بعد ان يثبت الطالب مثابرته وذكاءه في القاء الاسئلة وتقبل المعلومات وتحصيلها . ومن المعتاد ان ترخص له الاجازة تصريحا بتدريس الكتب التي سبق ان درسها هو على استاذه الذي اجازه ، اما مضمون الاجازة فيختلف حسب الاساتذة وأهمية المواد التي تلقاها المرشح [١٣١] .

ويمكن الحصول على الاجازة بالمراسلة اذا كانت شخصية المرشح معروفة وهذا ما يعادل نظام الدكتوراه الفخرية في العصر الحديث ، وان كانت هذه تمنح بالتزكية لا بطلب المرشح ، وهكذا حصل التمنارتي مؤلف "الفوائد الجمة" على الاجازة من احمد بابا بعد عودة هذا الفقيه الى السودان ودون ان يجرى بينهما اتصال قط[١٣٢] .

ومن نصوص الاجازات التي احتفظت بها المصادر ، اجازة ابي القاسم الغساني قاضي فاس ، لعبد القادر الفاسي الصوفي المعروف[١٣٣] ، والاجازة التي منحها هذا الى عبدالرحمن بن محمد الفاسي[١٣٤] سنة ١٠٣٢/١٦٢٢ .

اما العطل الرسمية فهي العطل الدينية : عيد الفطر ، الاضحى ، عاشوراء ، وذكرى مولد النبي ﷺ (عيد المولد) .

وكانت الدروس بالقرويين تتوقف مدة اربعين يوما في الصيف[١٣٥] . وفي عهد بني مرين لم تكن السنة الجامعية تتجاوز فصل الشتاء ، على ان العطل لم تستقر على حال دائما ، بل تتغير حسب الظروف والدول .

فبعد السعديين مثلا ، نجد القرويين لا تتوقف بصفة نهائية الا مدة شهر رمضان مع امتداد العطلة الى منتصف شوال[١٣٦] . اما العطلة الاسبوعية فيوما الخميس والجمعة .

و ـ حقوق وواجبات الطلبة نحو الاساتذة

ان سلوك الطالب وتأدبه ازاء اساتذته يعد كعامل حقيقي للنجاح وبلوغ افضل النتائج في ميدان المعرفة ، وقد تعد دراسة مسألة واحدة ما على استاذ تلمذا عليه [١٣٧] ، والحق ان السكان عموما كانوا يحيطون الاساتذة بالتقدير لجديتهم ونكران ذاتهم وتقشفهم الذي كان نتيجة لفقرهم بقدر ما كان من مميزاتهم على الرغم من عناية السلطات بعدد منهم . وفي ايام توافر الموارد على الدولة يمنح الاساتذة رواتب جيدة ، حتى عد الحسن الوزن ان مبلغ مائتي دوكة الذي كان يعطي لبعضهم مرتفع[١٣٨] . وكان بينهم من يتقاضى نصف هذا المبلغ أو دونه على ان هناك بعض الامتيازات العينية كالكسوة السنوية والمسكن [١٣٩] ، بالاضافة الى ان لعدد منهم وظائف اضافية كالامامة والخطبة ، وربما بعض التعويضات من مصالح الاوقاف ، الا ان التكاليف العائلية وكثرة الزوار وما يتطلب استقبالهم من مصاريف ، مما يثقل كاهلهم ولا تسده العلاوات المحدودة على تعددها .

ومع ذلك فالمدرس الراتب ، اي النظامي لا يستنكف عن اعطاء دروس اضافية مجانية خارج الدروس الرسمية .

اما الطلبة فانما لقوا امجد ايامهم في الحصول على رعاية السلطة ايام بني مرين ، لان الدولة كانت تضمن معاشهم وكسوتهم مدة سبع سنوات [١٤٠] ، ثم لم يبق لهم بعد ذلك الا السكنى والخبزة اليومية .

اما الكسوة المخصصة للاساتذة فلم تتغير منذ القرن ١٣/٧ ، وهى عبارة عن "كساء" اي رداء ابيض وبرنس من الملف الرهيف الابيض ، وقفطان من الملف . اما العمامة التي كانت خضراء في العهد المريني ، فقد صارت بيضاء بعدهم [١٤١] .

كذلك كان من ابتكار المرينيين احداث منصب استاذ كرسي لاول مرة [١٤٢] بالمغرب وصار هذا المنصب مطمحا وغاية للمرشحين للتدريس خلال العصر السعدي ، لا سيما العزوفين عن المناصب القضائية التي تمثل مسؤوليتها في نظرهم مغامرة حقيقية في الميدان الديني[١٤٣] .

واساتذة الكراسي يباشرون مهمتهم في التدريس بالاعتماد على كتاب معين يرد في نص الوصية الحبسية المخصصة للكرسي الموقوف . ومن اساتذة الكراسي في القرنين ١٠/١١(١٦/١٧) :

١ ـ عبدالواحد العالم ، استاذ الحديث الذي كان يدرس صحيح مسلم .

٢ ـ ابو القاسم بن سودة الذي كان يشرح ابن الحاجب والعقيدة الصغرى للسنوسي[١٤٤] . وكان كرسيه عن يمين الداخل لقاعة الجنائز بالقرويين .

٣ ـ القاضي ابن ابي نعيم استاذ كرسي رسالة القيرواني والعقيدة الصغرى وكل هؤلاء الاساتذة كانوا يمارسون عملهم العلمي بالقرويين[١٤٥].

٤ ـ ابو العباس احمد المنجور استاذ التفسير ، وكان كرسيه عن يسار الباب المجاور لمنار القرويين[١٤٦]، غير انه بالرغم من سعة معارفه كان الحاضرون في حلقته قليلين لضعف صوته وكثرة تدخلاته واعتراضاته التي قيل انها كانت تعوقهم عن تتبعه وكان يخصص يومي الخميس والجمعة لتدريس علم الكلام حسب منظومة ابن زكرى وكان لها كرسي خاص من نصيب المنجور ايضا ، ومكانه عن يمين المستودع بالنسبة للداخل الى القرويين من باب الحلفاء[١٤٧] واخيرا كان له كرسي ثالث قرب باب الكتبيين ، لتدريس صحيح مسلم[١٤٨].

٥ ـ محمد الشريف المري السلماني ، استاذ رسالة القيرواني ، وكان ممن يحضر دروسه ابو حفص عمر الخطاب الذي كانت مناقشاته الطويلة مع الاستاذة تثير تذمر الطلبة[١٤٩]، وكان يلقي احيانا دروسا في الالفية بشرح المكودي ، او العقيدة الكبرى للسنوسي حسب رغبة الطلبة ، وذلك بعد القاء الدرس الرسمي المخصص لرسالة القيراوني[١٥٠].

٦ ـ عبدالواحد الحامدي الذي كان استاذا للتفسير ، وكرسيه قريب من الباب المقابل لدار ابن حيون[١٥١].

٧ ـ احمد بن علي الزموري استاذ التفسير الذي خصص كرسيه لتفسير الفخر الرازي[١٥٢]، وكان له كرسي آخر بمدرسة العطارين[١٥٣].

ومن الخواص الذين وقفوا موارد معينة لفائدة كراس علمية مسعودة الوزكيتية والدة المنصور[١٥٤]، وابراهيم الحساني الذي تبرع بمعمل نسيج سنة ١٠٤٢/١٦٣٢ لكرسي الرسالة بجامع علي الجعيدي بتطوان[١٥٥].

والتزم جل الاساتذة جانب التواضع والاستقامة الخلقية ، وقد ذكروا عن محمد ابن ابي القاسم بن سودة (ت . ١٠١٣/١٦٠٤) الذي كان يدرس بالقرويين انه كان من عادته اذا شكلت عليه مسألة ان ينزل عن كرسيه ثم يتوجه الى احد اساتذته فيستفسره عن حلها ويعود بعد ذلك الى درسه[١٥٦].

وكان عبدالقادر الفاسي يتعيش احيانا من نسخ صحيح مسلم ودلائل الخيرات وسيرة اليعمري وغيرها[١٥٧]، كما كان احمد بن عاشر يتعيش من نسخ كتاب "عمدة الأحكام" .

ولم يكن الاساتذة يستنكفون من حضور دروس زملائهم لاسيما اذا كان هؤلاء ممن حازوا اعجاب الطلاب والمثقفين . وهكذا كان احمد بابا اثناء مقامه بمراكش يلقي دروسا بجامع الشرفاء (المواسين) فيحضر حلقته المفتي ابو عبدالله الرجراجي قاضي فاس وابونعيم الغساني قاضي مراكش[١٥٨].

وكان عبدالقادر الفاسي يحترم الشخصيات العلمية ويحاول ان يجد عذرا مقبولا لترددهم اذا القي عليهم سؤال فاحتاروا في الرد عنه[١٥٩].

وكان محمد الحاج الدلائي لا يخيب رجاء من يدعوه من الطلبة والمبتدئين لتزويدهم بمزيد من المعلومات والدروس صباحا ومساء وتختلف دروسه لذلك ، من مستوى "الاجرومية" الى تفسير القرآن فينتقد ويشير الى هفوات الشيوخ من معاصريه[١٦٠].

وكان الشيخ الهبطي معاصر محمد المهدي الشيخ يحض على نشر التعليم داعيا ارباب الاسر الى تعليم نسائهم واطفالهم وخدمهم[١٦١].

وذكر عن ابي القاسم بن منصور الغمري وهو رجل ذكر ودين ، توفي قبل نهاية القرن ١٠/١٦ بنحو ثلاثين سنة ، انه كانت له زاوية يتردد عليها الطلبة الممنوحون الذين يتقاضون منحتهم من ماله ، كما كان يؤدي رواتب اساتذتها من دخله[١٦٢].

ز ـ اساتذة مغاربة بالمشرق

كان كثير من الطلبة يقومون باداء فريضة الحج ، ويستغلون هذه الفرصة لزيارة بعض اقطار المشرق ثم يتابعون دراستهم هناك ، وقد يحلو لهم المقام فيشتغلون بالتدريس او غيره من الاعمال التي تناسب مستواهم الفكري ومنهم على سبيل المثال :

١ ـ محمد بن محمد بن سليمان بن طهر السوسي الروداني الذي وصفه المحبي بفرد الدنيا في علمه وبانه اتقن

كل العلوم[١٦٠] . ولد بتارودانت سنة ١٦٢٧/١٠٣٧ ودرس على شيوخ هذه البلدة ، كأبي مهدي السكتاني ، ومحمد بن سعيد المرغيتي ومحمد بن ابي بكر الدلائي ثم تابع دراسته بمصر وتوجه الى البقاع المقدسة حيث زاول التدريس سنوات وبلغ فيه مرتبة لم ينلها غيره قبله . ولا ريب انه كان على جانب كبير من الاستقامة والورع فقد عهد اليه بالاشراف على شؤون الحرمين ، المكي والمدني . والف الروداني هذا في عدة علوم كالفلك والرياضيات والموسيقى والهندسة والتاريخ والكيمياء واللغة .

وذكر الشيخ عبدالقادر بن عبدالهادي استاذ المحبي[١٦٣] ان ابن سليمان الروداني كان يعرف الحديث وأصول الشريعة حتى انه لم يعرف قط عالما يضاهيه فيها . وله تلاميذ كثيرون في مكة والمدينة وتركيا[١٦٤]، وتوفي بدمشق سنة ١٦٨٢/١٠٩٤ حيث دفن بسفح جبل قاسيون ، ومن ابتكاراته كرة ارضية ضخمة واسطرلاب انتشر في الهند واليمن والحجاز وغيرها[١٦٥] وعاصر ايضا بداية الحكم العلوي بالمغرب .

٢ ـ عبدالعزيز بن عبدالواحد المكناسي[١٦٦] استاذ القراءات بالمدينة وهو عالم مشارك نبغ في علوم الشريعة، والبلاغة والحساب والمنطق . وتوفي سنة ١٥٥٦/٩٦٤ .

٣ ـ علي بن ميمون الغماري (ت . ١٥١١/٩١٧) وكان استاذا للتصوف والمنطق في عدة بلاد بالمشرق . وكان كما سبقت الاشارة الى ذلك من قبل نقادا في علم التصوف . ومن مؤلفاته :

ـ غربة الاسلام في مصر والشام وما والاهما من بلاد الروم والعجم[١٦٧].

ـ الرسالة الميمونية في توحيد الاجرومية[١٦٨].

ـ رسالة الاخوان من اهل الفقه وحملة القرآن[١٦٩]. وقد وجه بها الى فقهاء فاس ، من دمشق وكانت وفاة المؤلف بلبنان .

وهناك عدة مثقفين مغاربة تابعوا دراستهم بالمشرق ، كاليستيثني (ت . ١٥٥٢/٩٥٩) وأحمد بن القاضي وسعيد المغوسي[١٧٠].

ح ـ المشاركة العلمية

من اهم مميزات التكوين الثقافي والدراسي لرجال الفكر الذين اصطلح على تعريفهم بالعلماء في العرف التقليدي ان الكثير منهم كانوا مشاركين في عدة فنون من المعرفة[171]، ولذلك كان المشاركون الذين يفدون من اقطار المغرب الأخرى يجدونْ في البيئة المثقفة ولدى ارباب السلطة تقديرا كبيرا لأنهم يساهمونْ بكفاءة في تكوين الأطر المحلية التي تحتاج بالضرورة الى معارف عامة متينة قبل تخصصها . وكانت الدراسة على مثل هذه الشخصيات تعد شرفا يؤكده ما تحظى به من تنويه في فهارس بعض المثقفين الذين اهتموا بالحديث عن دراستهم وشيوخهم .

وعلى اي حال، نلاحظ ان سمة المشاركة العلمية تطبع باستمرار مرحلة اوج النهضة الفكرية في عصر اي دولة اسلامية . وبالنظر للدور الكبير الذي لعبته بعض الشخصيات المشاركة بالمغرب والتي قدم بعضها من خارجه نذكر فيما يلي تعريفا موجزا بها :

١ ـ محمد بن قاسم القصار الفاسي[172].

قدم جده من غرناطة سنة ١٤٩١/٨٩٧ ، واستقر بفاس ، وبها ولد القصار . وقد درس على اليستيثني ومحمد بن خروف التونسي (ت. ١٥٥٨/٩٦٦) ورضوان الجنوي وغيرهم ، اما تلاميذه فيعدون بالمئات . ومن بينهم عبدالرحمن بن محمد الفاسي وعبدالواحد بن عاشر والحسن الزياتي وآخرون . وهو محد بارز وفقيه قدير تعد فتاويه مرجعاه ولما توفي الفقيه يحيى السراج مفتي فاس وخطيب القرويين اسندت اليه نفس المهام بالاضافة الى نظارة احباس الضعفاء . واحتفظ بهذه المهام حتى وفاته سنة ١٦٠٣/١٠١٢ حيث كان في طريقه الى مراكش . ويكر المحبي انه احيى بالمغرب الأصول والمنطق والبلاغة بعد فترة ركود طويلة ..

احمد بابا[173]

أحمد بابا الصنهاجي السوداني اصله من قبيلة مسوفة[174]. ولد بتومبوكتو من عائلة مثقفة ، سنة ٩٦٣/ ١٥٥٥ . واساتذته الأولون هم والده الذي يدعى احمد ايضا ، وعمه ابوبكر البغيغ ، من ابرز الشخصيات الفكرية بالسودان . واعتمد في دراسته على كتب مغربية وشرقية ، منها مؤلفات زروق والمدخل لابن الحاج ، وشملت دراسته كل الفنون المتعارفة في عصره تقريبا ، كاللغة والمنطق والعلوم الدينية والفلك .

وعندما حل الجيش السعدي بتومبوكتو كان احمد بابا ممن اتهمتهم السلطة العسكرية بالتحريض على التمرد وعدم الرضوخ للحكم السعدي ، فالقي عليه القبض بامر من القائد العام زرقون ، واقتيد سنة ١٠٠٢ / ١٥٩٣ الى مراكش مع اسرته ، وبقي منفيا بها الى سنة ١٦٠٣/١٠١٢ حيث عاد الى السودان . وليس في مختلف المصادر ما يدل على ان حملة تضامن قد نظمت بالمغرب لارجاعه الى بلاده . غير انه لقي تقديرا كبيرا من الأوساط الشعبية والمثقفة ، وكلها الحت عليه في القيام بالقاء دروس بمراكش ، استفادة من مواهبه الفكرية ، فقبل بعد تردد ، وبدأ يلقي دروسا في جامع الشرفاء بمراكش . على ان قسوة احمد المنصور تجاه احمد بابا تعد من شواذ مواقفه تجاه الطبقة المثقفة بوجه عام فقد كان يرعاها اكثر من اي ملك سعدي آخر .

وهكذا قام احمد بابا بتدريس عدة مواد علمية كالحديث والنحو والفقه المالكي، ومن المؤلفات التي اعتمدها تسهيل ابن مالك وكتب الصحاح ، وتحفة ابن عاصم ، وتلاميذه كثيرون من بينهم ابن القاضي ، والمقري ، والراجي مفتي مراكش وقاضيها . وقد حصل المقري على اجازة شيخه احمد بابا ، وبين تلاميذ هذا العالم من كان اسن منه . وترك احمد بابا عدة مصنفات ، نذكر منها :

١ — نيل الابتهاج بتطريز الديباج الذي يشتمل على حوالي سبعمائة ترجمة وضعها كذيل للديباج لابن فرحون[١٧٥]. ويوجد هذا المجموع في عدة نسخ مخطوطة بالرباط . وهو مرجع كثير من الباحثين .
٢ — تحفة الفضلا ببعض فضائل العلماء وهو أيضا مجموع تراجم لايزال مخطوطا .
٣ — معراج الصعود الى نيل مجلب السود ، وهي رسالة حول نظر الاسلام في الرق بوجه عام ، وفي السودان خاصة .

وقد ذكر المقري في «روضة الآس» عدة شروح وتعاليق لأحمد بابا حول مؤلفات في الفقه والكلام والتفسير .
وتعتبر آراء احمد بابا في المسائل الفقهية مرجعا للمغاربة الذين الفوا في الفقه والنوازل . وكانت وفاته سنة ١٠٣٦ / ١٦٢٦ .

أبوالعباس أحمد المقري[١٧٦]: احمد بن محمد بن يحيى المقري ولد بتلمسان سنة ٩٨٦ / ١٥٧٧ من اسرة اشتهرت منذ العصر المريني الذي ظهر فيه جدها محمد المقري[١٧٧] (ت. ٧٥٠ / ١٣٤٩) .
درس احمد المقري بتلمسان في وقت كانت فيه الجزائر تحت النفوذ العثماني . وقد كانت اسرة المقري ضمن العائلات التي لم تستطب الحكم العثماني فهاجرت الى فاس او مراكش ، واختار احمد المقري المقام بفاس نظرا لتشابه المناخ الطبيعي والفكري بين تلمسان وفاس ، وكان استقراره بها سنة ١٠٠٩ / ١٦٠٠ . وقد استقبله المنصور في السنة نفسها ، وحصل على الاجازة من احمد بابا ، ثم بقي يتنقل فيما بين فاس ومراكش الى سنة ١٢٠٧/ ١٦١٧ ، ولما كانت الأحوال السياسية لم تعد ملائمة لنشاطه الفكري فقد غادر المغرب آسفا .
ويبدو انه لم يكن من العناصر المهتمة بالعمل السياسي والتعامل مع الحكام حسب الطلب ، ولذلك نجده يشد الرحال الى المشرق تائقا الى فرصة استقرار افضل بالمغرب ليعود اليه ، غير ان امله لم يتحقق ، وتولى مهام التدريس بكل من المدينة ودمشق ومصر ، حيث توفي سنة ١٠٤١/ ١٦٣١ ، كما انه زاول مناصب رئيسية في القضاء المالكي . ومن تلاميذه ، محمد بن ابي بكر الدلائي واحمد بن علي البوسعيدي وعبدالقادر الفاسي وغيرهم .

واهم انتاج المقري هو موسوعته الأدبية «نفح الطيب» الذي يمكن اعتباره امتدادا لعمل ابن بسام في الذخيرة ، والفتح بن خاقان في قلائد العقيان . ولاشك ان «نفح الطيب» تتجاوز اهميته الميدان الأدبي لتشمل الجانب التاريخي والاجتماعي ، بقدر ما شمل رقعة جغرافية واسعة تمثل مجموع اقطار المغرب الاسلامي .
ومن مؤلفاته الأخرى: ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض ، وروضة الآس الذي هو مجموع تراجم واخبار ادبية تتناول ادباء ذوي صفة رسمية في بلاط الدولة السعدية .
وهكذا فان النماذج الثلاثة المذكورة : القصار واحمد بابا والمقري لها نقطة التقاء مشتركة هي كونها تمثل المشاركة العلمية في صورتها التقليدية . واذا كان احمد بابا سودانيا والمقري من تلمسان فان استفادة المغاربة منهما كانت بالذات للصفة الموسوعية التي تميزا بها ، على ان اثرهم جميعا لم تكن له نفس الصبغة :
١ — لأن القصار اكتسب سمعته بفضل آرائه التي سجلها تلاميذه والذين تلقوا فتاويه المحررة .
٢ — كانت شخصية احمد بابا تمثل الصراحة والجرأة ، وهي شخصية مثقف لم يكن يتردد في التعبير عن آرائه بالرغم من وضعيته كرجل فكر منفي .
٣ — نال المقري بالمشرق من حسن الذكر والاقبال مالم ينله بالمغرب ، ذلك ان المشارقة كانوا يقدرون المغاربة المبرزين في الفقه المالكي ويسندون اليهم ارقى المناصب القضائية والتعليمية ، وهم اذا كانوا يتوفرون بكثرة في اقطار المغرب ، فان الأمر لم يكن كذلك بالمشرق حيث تتعدد المذاهب ويتضاءل الاختيار .
ولا تزال مؤلفات المقري واحمد بابا وابن القاضي وابن زيد عبدالرحمن الفاسي وابي القاسم الغساني وغيرهم من الشخصيات المشاركة مرجعا للباحثين والدارسين مما يدل على قيمتها في تاريخ الفكر خاصة .

٦ ــ العلوم والمؤلفون

١ ــ العلوم الدينية :

فرض المذهب المالكي نفسه بالمغرب بصورة نهائية منذ العصر المرابطي على الرغم من فترة تقهقر في العهد الموحدي استمرت ٨٠ سنة ، وان كانت عقيدة المهدي بن تومرت والمذهب الظاهري لم يمنعا المذهب المالكي من اثبات ذاته حتى في هذه الفترة ، اذ ظل المرجع الرئيسي في الأقضية الشرعية لاسيما بعد المنصور الموحدي .

اما العهد المريني فقد تميز بنشاط كبير في تأليف الكتب الفقهية ، سيما ما يتعلق منها بشرح المدونة ومتن خليل ، ومن ثم اكتفى الفقهاء في هذا العصر بقصر دراساتهم واعمالهم على فروع المذهب المالكي دون غيره مما يعد نقصا كبيرا في النشاط الفقهي عبر التاريخ المغربي الاسلامي جملة ، وما عدا ذلك ، فقد ابتكر عمل اهل فاس او اعُتبر على الأصح ، مصدرا تشريعيا جديدا مكملا ، لكنه غير كاف مع ذلك . اما في القرنين (١٠ــ١١و١٦ــ١٧) فقد تواصل الاهتمام بتأليف الكتب الفقهية كما ازدادت العناية بالقراءات والتفسير والرياضيات والتصوف . ومن الواضح ان جميع فروع المعرفة ظلت منصبة كما كانت قبل ألف سنة على الدين والشريعة فالحساب والهيئة هما علمان قبل كل شيء في خدمة الدين ، من حيث معرفة الأوقات والمنازل والمواريث وما الى ذلك . كما ان دراسة القراءات والتفسير انما هي توضيح للنصوص القرآنية التي هي أول مصدر تشريعي . وبأية صفة لا يمكن اعتبار العصر السعدي عصر خدمة العلوم البحت لذاتها ، فلم يتطور الاعتبار العلمي عما كان عليه ، وان كان هذا الحكم صالحا لجل العصور والدول الاسلامية .

ولامراء في أن العهد السعدي بعد هذا هو عهد النوازل والفتاوي اكثر مما كان عليه الأمر في أي وقت سابق ، ذلك انه بالاضافة الى تعدد الأحداث والوقائع المحلية التي ترتبط بحياة الناس اليومية ، جدت اشياء كثيرة استوجبت رأي الفقهاء وفتاويهم على اختلاف وجهات نظرهم وتأويلهم للاسانيد الشرعية .

ومن الأباب التي اقتضت وجوزد، حركة فقهية واسعة ، قضايا الأسرى والجهاد وتناول التبغ وصرف السكة وما الى ذلك .

كذلك وجدت القراءات القرآنية اقبالا منقطع النظير ، موازية في ذلك لدراسة التفسير والعلوم الفقهية . وقائمة القراء الطويلة والتي نقتصر على ذلك بعضها تدل بحق على مدى الاهتمام الذي اختصت به القراءات بوصفها من العلوم التي تسهل فهم النص القرآني . ومن القراء المبرزين :

١ ــ محمد بن يوسف الفاسي[١٧٨] الذي ازداد بالقصر الكبير سنة ٩٥٩ / ٥٥١ وتوفي بفاس ٩٩٨/ ١٥٨٩ .

٢ ــ محمد بن يوسف التدغي تلميذ رضوان الجَنُوي وابي عبدالله الخروبي[١٧٩]

٣ ــ ابوفارس عبدالعزيز الزياتي (ت. ١٠٥٥/ ١٦٤٥)

٤ ــ ابوالعباس احمد بن القاسم القدومي الغساني[١٨٠] (ت. ٩٩٢/ ١٣٨٤) ويعد مرجعا في القراءات .

٥ ــ محمد بن عبدالرحمن بن يوسف الوازروالي[١٨١] المعروف بابن الفقيرة ، وتلميذ ابي عمرو المراكشي والخروبي ، وهو نحوي ضليع في القراءات العشر . توجه الى المشرق ، وقضي بقية حياته بمكة ، وكانت له بها مناظرات مع الشيخ الحطاب احد شيوخ المالكية بمكة[١٨٢] .

٦ ــ محمد بن محمد بن مجبر المساري[١٨٣]

٧ ــ الحسن بن احمد الهداجي الدراوي[١٨٤] (ت. ١٠٠٦/ ١٥٩٧) بفاس .

٨ ــ محمد بن يعقوب الترغي العالم بالقراءات السبع[١٨٥] ، ولد بفاس واصله من ترغة بالريف ، ثم درس بمراكش ، واصبح مؤدبا للعائلة الملكية مع اشتغاله بالتدريس الحر . وقد لقي اقبالا كبيرا بوصفه خبيرا في القراءات السبع التي يبدو انه كان له الفضل في نشرها بالمغرب . وهو تلميذ للخرمي الطرابلسي وابي القاسم الدكالي ورضوان الجنوي . ومن تلاميذه ابن القاضي ، مؤلف درة الحجال ومحمد بن يوسف التاملي وغيرهما .

٩ ــ احمد بن علي الصنهاجي الزموري(١٨٦) الذي ازداد بفاس حوالي سنة ٩٣٠/ ١٥٢٣ . وكان الى جانب تخصصه في القراءات عارفا بالفقه والنحو والتفسير ، ومن شيوخه ابن غازي ومحمد بن ابراهيم الدكالي واليستيثني . حصل على الاجازة من نجم الدين الغيطي احد شيوخ مصر البارزين ، وتوفي بفاس سنة ١٠٠١/ ١٥٩٢ . ومدفنه بضريح عبدالله بن الخياط .

١٠ ــ محمد بن يوسف التاملي من اصل سوسي(١٨٧) . تابع دراسته بمراكش ثم بفاس . ومن شيوخه محمد بن يوسف الترغي وابوالعباس المقري والحسن الدراوي ويبدو انه خلف هذا الأخير كمؤدب للعائلة المالكة بمراكش ، كما قام بالتدريس في مدرسة ابن يوسف التي جددها عبدالله الغالب ، واعتمد في تدريسه للقراءات على الشاطبية كغيره من الاساتذة . ومن تلاميذه محمد الرحماني الذي نذكر موجزا لترجمته فيما يلي والمرغيتي وعبدالعزيز الزياتي .

١١ ــ محمد بن محمد الرحماني(١٨٨) الذي تابع دراسته بفاس وتخصص في القراءات العشر . ومن شيوخه محمد البوعناني ، ومحمد العمري ومحمد التاملي وآخرون . وتوجد بخزانة الأوقاف بفاس بعض الاجازات التي حصل عليها الرحماني . وهو احد قراء العهد السعدي المتأخرين ، وعاش الى منشأ الدولة العلوية . وقد الف منظومة في القراءات ، خصوصا قراءة ابن كثير ، سماها : «الهداية المرضية لطالب القراءة المكية» . وتشمل على ٢٦٤ بيتا .

واذا كان اساتذة القراءات كثيري العدد فانهم لم يكونوا جميعا من المؤلفين او من واضعي الدراسات في هذا الباب ، كذلك فان كتب القراءات التي هي في الغالب منظومات او شروح ، كثيرة العدد ، ومنها بالاضافة الى ما ورد سابقا :

ــ اتقان الصنعة في القراءات السبعة (كذا) ، لأحمد بن شعيب(١٨٩) (ت. ١٠١٥/ ١٦٠٦) ، ولم تظهر منه نسخة للوجود في الخزائن الرسمية حتى الآن .

ــ شرح فتح المنان على مورد الظمآن لعبدالواحد بن عاشر الفاسي(١٩٠)(ت. ١٠٤٠/١٦٣١) . اما «مورد الظمآن» فمن وضع محمد الخراز الأموي (ت. ٧١٨/ ١٣١٨) . وموضوعه خط المصحف الذي يعتبر في اطار القراءات .

ــ تقييد في وقف القرآن لمحمد السوماتي الهبطي(١٩١) (ت. ٩٣٠/ ١٥٢٤) ، وكان من الكتب الدراسية المتداولة بالمغرب في نقط المصحف .

وعلى الرغم من كثرة الدراسات والمنظومات التي وضعت في علم القراءات فليس يمكن الحكم مقدما على قيمتها ومدى ما يمكن ان تكون قدمته من جديد لهذا العلم اذ لابد لذلك من دراسة تجميعية لما كتب في الموضوع ، واستخلاص النتائج ، بمقارنة الشروح والمنظومات بما ألف سابقا في هذا الباب .

اما تفسير القرآن فقد تجلى الاقبال عليه فيما استنسخ من الشروح التي غصت بها الخزائن العامة والخاصة . واذا كان التفسير يلقن دروسا للجمهور في المساجد ، فان تقريره كمادة للدراسة المركزة اقتصر على المستوى العالي من التعليم ، لما يتضمنه من معلومات شاملة للفقه والأصول والبلاغة وغيرها . واهم التفاسير الموضوعة لهذا العهد :

١ ــ اللباب المختصر لأهل العبادات والنظر(١٩٢) للحاج الشطيبي محمد بن علي البرجي (ت. ٩٦٣/ ١٥٥٥) ومدفنه بتازكدارت ببني زروال . اما شرحه هذا فمختصر لشرحه : اللباب في حل مشكلة الكتاب .

٢ ــ تفسير الفاتحة(١٩٣) لعبدالرحمن بن محمد الفاسي (ت. ١٠٣٦/ ١٦٢٦) .

٣ ــ حاشية على تفسير الجلالين(١٩٤)، لنفس المؤلف .

من بين المفسرين : ابوالقاسم بن ابراهيم الدكالي المشترائي الذي تخصص في القراءات السبع(١٩٥)، وعلي بن محمد الأنصاري السجلماسي (ت. ١٠٥٤/ ١٠٤٤) .

اما الحديث الذي يعد تكميلا لتعاليم القرآن فقد ازداد الاقبال عليه لا كعلم فقط ، بل باعتبار مقام صاحبه الرسول عليه السلام ايضا ، وذلك لأن كل ما يتصل بالرسول قد اصبحت له مكانة خاصة في هذا العصر ، حتى ان الدولة السعدية نفسها وهي تنتمي الى الأسرة النبوية لعبت دورا كبيرا في ترسيخ هذه المكانة وهكذا صار صحيحا البخاري ومسلم يقرآن في كل مكان . وقد تحدث التمكروتي عن كونه قرأ صحيح البخاري بتطوان وهو ينتظر وصول الباخرة التي كانت مستنقلة الى المشرق قادمة من الجزائر(١٩٦).

ومن كتب الحديث الأخرى التي كانت لها مكانة ممتازة في التدريس : العمدة(١٩٧)، والشفاء للقاضي عياض . اما ابرز المحدثين فهم ، اليستيثني (ت٩٥٩/ ١٥٥١) . وتلميذه القصار ، واحمد ابوالمحاسن الفاسي (ت. ١٠٢١/ ١٦١٢) وكان يحفظ صحيحي البخاري ومسلم(١٩٨)، وقد كان حفظ الصحيحين بمثابة احاطة بالحديث واسانيده .

ومن المؤلفين في الحديث :

١ ــ محمد بن ابي بكر الدلائي القذي شرح موطأ عياض ، والذي وصف بانه آخر نحاة العرب (١٩٩) .

٢ ــ عبدالرحمن بن محمد الفاسي (ت. ١٠٣٦/ ١٦٢٦) ، وله شرح على صحيح البخاري يحتوى على مسائل مفيدة كما ما ذكر صاحب نشر المثاني (٢٠٠) . وله كتب اخرى في الفقه والأصول وتفسير القرآن والحديث .

٣ ــ ابن حرزوز المكناسي (ت. ٩٦١/ ١٥٥٣) ، وقد وضع: «الكوكب الساري في اختصار صحيح البخاري» ومنه نسختان بالرباط(٢٠١).

وفي علم الكلام ، او التوحيد كما اصطلح عليه المغاربة ، وضعت رسائل ومنظومات ومصنفات عديدة ، وقد اشتهر هذا العلم المزوج بالدلائل المنطقية والفلسفية ، منذ العهد الموحدي على يد المهدي بن تومرت لاثبات فكرة التوحيد التي قام عليها المذهب الموحدي والتي نجد صورها تتجدد بالمغرب بعدهم ، كما نجد الوهابيين في شبه جزيرة العرب يجددونها بطريقة لا تبعد عما عرف في العصر الموحدي بعد مرور سبعة قرون على قيام دعوة المهدي بن تومرت .

وقد وضعت كتب كثيرة في التوحد جلها خصصت للطلبة ، ونذكر من بين المؤلفين والمؤلفات في هذا الباب :

١ ــ محمد بن عبدالله الهبطي (ت. ١٠٠٩/ ١٢٩٢) وله تقييد يتعلق بمعنى كلمة (توحيد) ولا يتجاوز صفحتين ، ولكنه يتضمن معلومات لغوية(٢٠٢) مفيدة .

٢ ــ الحسن بن محمد الهداجي الدراوي ، (ت، ١٥٩٨/ ١٦٢٦) له تقرير على شرح عقيدة السنوسي(٢٠٣).

٣ ــ عبدالرحمن بن محمد الفاسيي (ت١٠٣٦/١٦٢٦) له تقرير على شرح عقيدة السنوسي .

٤ ــ محمد المأمون الحفصي المراكشي (ت. ١٠٣٧/ ١٦٢٧) له شرح على العقيدة الصغرى(٢٠٤).

٥ ــ عبدالرحمن بن محمد التمنارتي (١٠٦٠/ ١٦٥٠) له شرح على منظومة كفاية المريد .

٦ ــ احمد التزركيني (بكسر التاء) ، له منظومة في العقائد ، ومنظومة في التوحيد(٢٠٥).

٧ ــ ايبورك بن عبدالله(٢٠٦) له شرح عقيدة سعيد بن محمد الهبطي وشرح عقيدة المهدي بن تومرت .

٨ ــ احمد بن عبدالله(٢٠٧)، له شرح على العقيدة الصغرى .

ان ما يلفت النظر حقا ، هو هذا الاهتمام الشديد بدراسة التوحيد بعد ركود طويل لم نشهد فيه نشاطا يذكر في تأليف كتب العقائد ومنظوماتها . اليس تكاثر اليهود والمسيحيين واختلاط العناصر الاسلامية بهم من دواعي هذا الاهتمام ؟ لكن الراجح اكثر من ذلك هو تفشي العقائد الجديدة التي تعد منحرفة عن الاسلام والتي مثلتها طائفة العكاكز ، وغيرهم ، في الوقت الذي تستقر فيه جاليات برتغالية واسبانية على طول السواحل ، وتهدد السكان في دينهم بشتى الوسائل .

ونعود هنا الى الاشارة الى التقدم الذي حققه الفقهاء في ميدان الفتيا والنوازل مراعين الأوضاع والأعراف المحلية ومتشبثين في نفس الوقت باصول الشريعة التي لا يكاد احدهم يتهاود فيا ، غير اننا نلاحظ ان مدونة

سحنون[٢٠٨] التي فرضت نفسها في الفقه المالكي بالمغرب الغربي لعدة قرون ، قد بدأت تختفي في العصر السعدي من المؤسسات الدراسية ليستأثر بالرجوع اليها كبار الفقهاء والمفتون والمؤلفون . وكذلك يعد خليل[٢٠٩] في رأس قائمة الفقهاء الذين درست كتبهم في هذا العصر في كل المؤسسات التعليمية المعنية . ومن مصادر المؤلفين كتاب «المعيار» للونشريسي التلمساني احمد بن يحيى (ت. ٩١٤/ ١٥٠٨) وقد ضم الكثير من نوازل اهل المغرب والأندلس ، وهو في عدة مجلدات[٢١٠].

واهم المؤلفين في الفقه هم :

١ ــ ابوالعباس احمد بن علي المنجور الفاسي[٢١١] وصفه احمد بابا بانه آخر علماء المغرب ، وهو استاذ احمد المنصور وابن القاضي واحمد بابا ، وله اطلاع واسع في الفقه والأصول والأدب والتاريخ والبلاغة والقراءات والحساب والفرائض . اختار حياة التقشف والارتباط المتين بالسنة . وهو من اسرة البلديين الذين كانوا يهودا ثم اسلموا ، وله عدة مؤلفات منها : شرح على قواعد الزقاقية ، وشرح «المنهج المنتخب» في الفقه المالكي .

٢ ــ عبدالواحد بن عاشر الأنصاري[٢١٢] (ت. ١٠٤٠/ ١٦٣٠) ، درس على القصار وابن ابي نعيم وابي عبدالله الجنان الخ ... وقد جمع بين التخصص في الفقه والرياضيات . وكان لمنظومته : «المرشد المعين على الضروري من علوم الدين . مقام رئيسي في الكتب الدراسية بالمغرب الى عهد قريب ، وقد شرحها الفقيه محمد ميارة الفاسي (ت. ١٠٧٢/ ١٦٦١) ، وبالخزانة العامة بالرباط نسخة من هذا الشرح ترجع الى سنة ١٠٤٤/ ١٦٣٤ .

ولابن عاشر مؤلفات اخرى ، منها :

ــ شرح متن خليل

ــ متن في الفقه على طراز متن خليل .

ويمتاز هذا العهد بانتاج مذكرات ودراسات في موضوعات فقهية خاصة ، مع تعددها . من ذلك ان يحيى بن محمد الرعيني الحطاب (ت.٩٩٥/ ١٥٨٦) وضع كتابا حول اعمال الحج بمكة والمدينة[٢١٣]، ويعد دليلا للحجاج المغاربة كما نشر عبدالله بن عبدالرزاق العثماني المكناسي (ت. ١٠٢٧/ ١٦١٨) كتابا عن اركان الاسلام الخمسة ، ومن اهم كتب المسطرة القضائية (اوفقه العمل) ، كليات ابن غازي العثماني (ت. ٩١٩/ ١٥١٣) ويشتمل على حوالي اربعين صفحة ، وكثيرا ما يعود اليه القضاة والفقهاء .

وفيما يختص تحرير العقود العدلية وضع احمد بن الحسن الشفشاوني المعروف بابن عرضون (ت. ٩٩٢/ ١٥٨٤) كتابا في علم الوثائق مع صور لها ، سماه: «اللائق لعلم الوثائق» ولم يفتأ هذا الكتاب مرجعا حتى الآن .

وقد سبقت الاشارة الى النوازل المستجدة في هذا العصر والتي تطلبت رأي الفقهاء تحريرا عن طريق فتاو خاصة ثم دراسات مستفيضة وممتعة .

وبالاجمال، فان القرنين العاشر والحادي عشر (١٦ ـ ١٧ م) يمثلان احدى اخصب فترتين في تأليف النوازل بالمغرب[٢١٤]. ومن المؤلفين في هذه الحقبة :

١ ــ عيسى بن عبدالرحمن السكتاني الرجراجي[٢١٥] مؤلف «نوازل الرجراجي» .

٢ ــ محمد العربي الفاسي (ت. ١٠٥٢/ ١٦٤٢) صاحب: سهم الاصابة في حكم طابة[٢١٦].

٣ ــ الزياتي المهدي عبدالعزيز بن الحسن (١٠٥٥/ ١٦٤٦) . له كتاب الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال عمارة[٢١٧].

٤ ــ محمد بن ابراهيم التمنارتي ، له مجموع فتاو[٢١٨].

٥ ــ علي بن ابراهيم اللحياني الذي جمع نوازل ابراهيم بن هلال[٢١٩].

اما علم الأصول فيعزي ادخاله الى المغرب الى اليستيثني الذي تلقى شطرا من تكوينه بمصر ، كما عمل على اشاعته بالبلاد كل من القصار والمنجور والشيخ خروف[٢٢٠] واهم مصدر رجع اليه الاساتذة والمؤلفين هو كتاب : جمع الجوامع تاج الدين عبدالوهاب السبكي (ت. ٧٧١/ ١٣٧٠) . كذلك استفاد الفقهاء بصفة خاصة من

آراء وتعريفات ابن عرفة[٢٢١](ت. ٨٠٣/ ١٤٠٠) الذي ركز اهتمامه على اصول المذهب المالكي وآراء رواده . وينبغي ان يشار هنا الى ان المغاربة لم يؤلفوا كثيرا في علم الأصول على الرغم من اهتمامهم بتدريسه في هذا العهد المتأخر . ونذكر من بين ما انتجوه :

١ ــ قرة العين لمحمد الخطاب (ت. ٩٥٤/ ١٥٤٧) وهو شرح لورقات امام الحرمين[٢٢٢].

٢ ــ تقييد حول بعض مسائل الأصول[٢٢٣]، نسب الى الحسن اليوسي الذي عاصر الدلائيين وتأثر بثقافة العصر السعدي .

ويظهر ان تدريس الأصول سبق العصر السعدي ، زمنا ، حيث نرى عالما بفاس كان يقوم بتدريس الأصول في منتصف القرن ٨/ ١٤م . وهذا الأصولي هو احمد بن قاسم بن البقال كما ذكره ابن الخطيب في الاحاطة (م. ٢. ص٢٨٨) . وهناك آخرون ذكروا في التكملة وغيرها .

ويعد التصوف من اهم العلوم الدينية التي حظيت باوفر نصيب من المؤلفات التي تشتمل على تقاييد ورسائل وتراجم ودراسات متنوعة . وبالرغم من كثرة هذه المصنفات فقد كانت من اعز ما يقتنيه الدارسون والهواة من جامعي الكتب ، ولاسيما من انصار الطرق الصوفية . وفيما يلي نذكر بعضا من المؤلفين والمؤلفات في التصوف :

١ ــ عبدالله بن محمد الغزواني المتوفى بمراكش ٩٣٥/١٥٢٨ ، له تقاييد في التصوف في نحو ٢٧٠ ص[٢٢٤].

٢ ــ عبدالله بن عبدالرزاق العثماني (ت. ١٠٢٧/ ١٦١٨) ، له بداية السلوك في ١٧ ورقة وهو منظومة في التصوف وضع لها شرحا كذلك[٢٢٥].

٣ ــ عبدالوارث اليلصوتي (ت ٩٧١/ ١٥٦٤) دفين بني دركول بقبيلة بني زروال ، له المسلك القريب عالج فيه صفاء النفس وواجبات الشيخ والمريد[٢٢٦].

٤ ــ ابوالعباس احمد الصومعي التادلي[٢٢٧](ت. ١٠١٣/ ١٦٠٤) ، وهو احد اشهر صوفية العصر ، وقد مارس في بداية حياته مهنة معلم بكتاب قرآني ثم انقطع كليا للنسك والعبادة وتأليف عدد كبير من كتب التصوف والمسائل الدينية . وكثيرا ما طلب اليه تلاميذه ان يدرسوا عليه كتبه في التصوف ، وكانت له خزانة تحتوي على اكثر من الف مخطوط . اسس بتادلا زاوية شهيرة قبل ان يستقر بمراكش حيث توفي . ومن اهم ما انتجه .

١ ـ التشوف الصغير[٢٢٨] وهو مجموع تراجم صوفية العهد السعدي خاصة .

٢ ــ مطالع الأنوار ، وهو شرح في اربعة مجلدات للحكم العطائية[٢٢٩].

٣ ــ شرح المنظومة الرائية التي وضعها ابوالعباس الشريشي .

٤ ــ مناقب ابي يعزى .

٥ ــ مناقب ابي مدين وابي العباس السبتي .

ويذكر المقري في «الروضة» انه اطلع على ازيد من ستين مصنفا للصومعي .

٥ ــ محمد بن علي النيجي الزروالي (ت. ١٠٣٠/ ١٦٢٠) ، له شرح على صلاة ابن مشيش .

٦ ــ محمد بن احمد المسناوي ، من مصنفاته : فوائد في التصوف ، وبالرغم من كثرة المؤلفين في التصوف ، فان الفضل يعود في ذلك الى ما بذلته ثلاث شخصيات او اربع من كبار الصوفية خلال هذا العصر ، فهم الذين توسعوا في دراسة الطرق الرئيسية القديمة وصححوا اخطاء الطرق المعاصرة وصاروا مرجعا لمن بعدهم خلال العصر السعدي ، وهؤلاء هم :

أولا : احمد زروق (٨٩٩/ ١٤٩٣) وقد عاصر العهد الوطاسي ولكن انتاجه اصبح له اثر كبير بعده ، وقد سبق الحديث عن هذه الشخصية .

ثانيا : محمدبن علي الخروبي الطرابلسي[٢٣١]المتوفى حوالي سنة ٩٦٥/ ١٥٥٧ . وهو ناقد من اصل ليبي عاش بالجزائر قبل ان يستقر بمراكش . وكان مغرما بجمع الكتب واقتنائها ، حظي بتقدير السلطات العثمانية

وكلف مرتين بسفارة لدى الحكومة المغربية ومحمد المهدي ، واكثر اساتذته جزائريون ومغاربة كأحمد زروق وعمر العطاوي ورضوان الجنوي ، وفي كتابه : «الدرة الشريفة في الكلام على اصول الطريقة»[٢٣٢] يحلل المذهب الزروقي الشاذلي الذي ينبني في نظره، على ثلاثة اصول :

١ ــ ان يلتزم سلوك الطريقة ويتمسك باليقين .

٢ ــ الابتعاد عن مخالطة الناس كما كان الأصل في الانسان نفسه .

٣ ــ الاقتداء بشيوخ الطريقة العارفين .

اما زروق نفسه فيضع لمذهبه خمسة مبادىء لا تتناقض في حال مع الأصول المذكورة وهذه المبادىء هي :

١ خوف الله في السر والعلانية .

٢ ــ اتباع تعاليم السنة قولا وفعلا .

٣ ــ الابتعاد عن مخالطة الناس سواء في سرائه او ضرائه .

٤ ــ الرضا بما قسم الله قليلا او كثيرا .

٥ ــ الالتجاء الى الله في الشدة والرخاء .

ثالثا : علي بن ميمون الحسني الغماري (ت ٩١٧/ ١٥١١) الذي وضع لتوضيح مذهبه وآرائه حول الطرق الصوفية المعاصرة ، رسالة الأخوان التي تلقي اضواء كاشفة على هذه الطرق . وما دمنا بصدد عرض المؤلفات التي اثرت في الانتاج الصوفي في العصر الذي نعالجه ، نشير هنا الى ان من بين النقط التي عالجها في الرسالة المذكورة[٢٣٢]: الاخلاص لله ، وصفات العالم ، والأعمال الظاهرة ، والباطنة الخ ــ ومن افكاره ان اصل الأعمال القبيحة هو العجب ، وهي فكرة سبقه بها الغزالي في بعض مصنفاته ، فالانسان لا يكون منافقا الا لأنه معجب بنفسه مرتاح الى شخصه ، والحاسد لا يحسد الا لأنه يرى نفسه اولى من غيره بما فاز به ، وهكذا فالغضب والحقد والبخل والطمع كلها ناتجة عن مجرد اعجاب بالنفس ، اما الاخلاص لله فهو عند ابن ميمون نتيجة كل عمل فيه تقوى الله ، كالصوم والصلاة والجهاد والتعليم والقضاء والشهادة واعمال البر[٢٣٣].

وقد يقارن ابن ميمون احيانا بين المشارقة والمغاربة[٢٣٤] وهؤلاء في نظره قد طهرت نفوسهم من مساوىء الآخرين ، وكون المغاربة يسلكون طريق التصوف انما نتج عن جهلهم بالنفس ، وكل ما يقود الانسان الى الجهل بنفسه يمنعه من النجاة من سوء عاقبة جهله .

وهكذا عرف القرن العاشر والحادي عشر نشاطا واسعا في ميدان النقد والاجتماع الديني والتقاليد المحلية والطائفية ومن أمثلة الرسائل والدراسات الموضوعة :

١ ــ ابوالقاسم بن سلطان القسنطيني نزيل تطوان والمتوفي في نهاية القرن العاشر : رسالة حول العكازين[٢٣٥] وهم من الطوائف المناهضة للسنة ، واصول الاسلام ، وكان منهم في هذه الفترة فريق ببني حسن ، شمال البلاد .

٢ ــ تقييد حوب العكازين ، لابي العباس أحمد الصغير تلميذ المنجور[٢٣٦].

٣ ــ محمد الصباغ البوعقيلي : كشف قناع الالتباس عن بعض بدع مدينة فاس[٢٣٧].

٤ ــ احمد بن عبدالله بن ابي محلي ؛ منجنيق الصخور ، وهورد عنيف على الموقف المعادي لحركته ، والذي وقفه احد خصومه عبدالله الحكم الجراري[٢٣٨].

٥ ــ نفس المؤلف في نفس الموضوع[٢٣٩] : سُمٌ ساعة في تقطيع امعاء مفارق الجماعة . وبقطع النظر عن الطرق الدينية التي تختلف معالجتها عمقا واهمية ، فان الفترة التي نعالجها لم تشهد ظهور اي مبادرة في الدراسات الفلسفية الخارجة عن التصوف . ذلك ان الفقهاء والصوفية انفسهم ما كانوا ليتسامحوا في تناول هذه الدراسات تلقينا ولا بحثا او كتابة ، ومن ثم فميدان الفلسفة يبقى منبوذا بالمغرب مثلما كان من قبل .

ب ـــ الأدب

لم يوجد اي تطور حقيقي لمفهوم الأدب بالنسبة لما كان عليه في العصور السالفة ، فادب القرنين العاشر والحادي عشر ، لا يمكن والحالة هذه ، تمييزه عما كان عليه خلال ثمانية قرون مضت ، فهو مجرد تعبير بليغ بالنثر او الشعر يكون الحصول عليه بعدد راسة اخبار العرب والعلوم التقليدية[٧٠] فالأدب الشعبي القطري لا يدخل في هذا النطاق ، ومن ثم فالأدب مقصور على طبقة تحسن الكتابة والشعر العربي حتى وان كانت لا تعبر عن احاسيس الشعب ولا عن احاسيسها الحقيقية . وكان يطلب من اديب المستقبل ان يتقن البلاغة ويحفظ فنون الأدب القديم كاشعار الحماسة والحرب والرثاء والمدح ، وعليه ان يميز بين طالح الشعر وصالحه ، وهكذا فان كان يرغب في ان يصبح شاعرا لزمه ان يحفظ اشعار ذي الرمة وجرير وابي نواس على ان يتوفر على ظروف زمانية ومكانية لتناول الشعر . ولكن قلما يحصل الأديب على موهبة في الشعر والنثر معا . وكانت موضة العصر ان يساهم اكبر عدد ممكن من الفقهاء في قرض الشعر وخاصة المديح ، للتعبير عن ولائهم لملك أو أمير أو ذي قوة ، ومادام القضاة بمثابة اعضاء برلمان يمثلون الأمة ويعبرون عن رغباتها ومصالحها فقصائدهم ذات قيمة موضوعية كبيرة بالنسبة لذوى المسؤولية العليا في الدولة وان كانت من حيث اسلوبها وصورها الشعرية دون قصائد الأدباء المتميزين . وفي هذا الاطار التقليدي ، الذي لم يخل من ثراء ، بما طفح به الأدب من شعر المقاومة وشعر الملحون ، على الرغم من فقدان هذا الأخير في معظمه ، كانت الظروف مواتية لازدهار الأدب بسبب النزعة الأدبية للملوك والأمراء انفسهم ، وقد كان لهم في هذا الباب ذوق رفيع ، بل شارك بعضهم بإنتاجه ، وان كان لا يمكن التمييز دائما بين مالهم ومانحلوه ، وفي عهد احمد المنصور توفرت الوسائل المادية لتشجيع الفكر والثقافة عامة ، فحظي الأدب والأدباء برعاية فائقة واغدقت المكافآت بصورة خاصة على السائرين في ركاب الدولة وان لم يحرم منها غيرهم .

وقد وجد شعر النضال والمقاومة اروع حقبة له شاهدها خلال ثلاثة عشر قرنا ، فسقوط المملكة الاسلامية بالاندلس وما تلاه او تخلله من تساقط المراكز المغربية في يد الأسبان والبرتغال فجر عواطف رجل الشارع الأمي وذلك الأديب البائس والقابع في بيته ، والفقيه الذي يجابه في ميدان القتال او يلهب في الداخل حماس الأمة والقادة .

اما المديح الديني الذي انتشر خلال العصر المريني فقد احتل مكانة مشرفة في ادب القرنين العاشر ـ الحادي عشر وجمع الشعراء بين مدح الرسول والتنويه بمزايا الملوك في المولديات[٢٤١](التي تلقى في المولد النبوي) . ومهما يكن من شيء فان التشبيهات والأوصاف المبالغ فيها ليست من سمات هذا الأدب عامة ولا هي من سمات ادب مغاربة الشمال الافريقي في الجملة ، والأمثلة عديدة في كل من روضة الآس للمقري ومناهل الصفا لعبد العزيز الفشتالي ، ونذكر منها :

١ ـــ لعبدالواحد الشريف[٢٤٢] مخاطبا الرسول ثم منتقلا الى مدح احمد المنصور :

لازلت من مخصوصا بحسن ثَنَا ... على المدى وباجلالي واكباري
انَي بكمْ وبآلكم لمغتبط ... ومدحُهُم هير أورادي وأذكاري
قوم على غيرهم بالأحمدِين لهم ... فخر واي فخر في الورى جار
ذاك رسول وهذا من خلائفه ... لله من شرف جم ومقدارِ

٢ ـــ لمحمد بن علي الشتالي[٢٤٣]:

اقطب الوجود في حماك مخيم ... رجائي وهل جار النبي يضام؟
وانت الذي لولاه ما هز ذابل ... ولاشد في ركب الجهاد حرام
ولولاك ماكان الوجود ولابدا ... كثيف الغمام صيب وجهام
ولا كان في امر الخليفة احمد ... على الخلق فرض ليس فيه خصام

٣ ـ لمحمد بن علي الهوزالي[٢٤٤]:

مازال روح الله يعبق عرفه … بحمى مدينته المنيع حريمتها
وصلاته ابدا يصاعقها له … حتى القيامة لا يزال يديمها
وادام تأييدا لوارث مجنه … اسنى الخلائف فخرها وعظيمها
ملك نمته دوحة نبوية … وسمت به اقبالها وقرونها

كان المدح اذا اضمن وسيلة لدى الشعراء في سبيل الحصول على رضى وتشجيع الملوك وذوي الجاه ، وبالمقابل فان اشهر الشعراء دكراهم من الموظفين السامين الذين يحظون بعطف خاص من البلاط ، وفي الغالب يتقنون الشعر والنثر معا .

ومهما يكن من شيء، فان المدح لم يقدم اي جديد في صفات الممدوح التقليدية والتي عرفت منذ العصر العباسي ، حيث كان الخلفاء يوصفون بالبطولة والدفاع عن حوزة الاسلام والكرم وما الى ذلك ، على ان انتصار العاهل في معركة او صراع على الملك مع منافسيه يكون عادة موضع تنويه الشعراء الذين يهيبون بالملك الى القضاء على آثار الكفار والشاقين عصا الطاعة ، ويعد ابو فارس الفشتالي من اقدر الشعراء في هذا الباب . من ذلك انه القى بين يدي المنصور على اثر فتحه لأصيلا قصيدة قال فيها[٢٤٥]:

بكر الفتوح لكم تهلل بشرها … وافتر عن شنب المسرة ثغرها
وعقيلة الأمصار وهي اصيلة … انت العزيز لذا اطاعك مصرها
وأتى بها الفتح المبين يزفها … لكم وليس سوى قبولك مهرها
خضعت لكم بخضوعها الدنيا وقد … لباك من بحطاء مكة حجرها
اوطيء جيوشك ارض اندلس فقد … آن الحصاد لها وارطب بسرها

ولم تخل الامارات والجمهوريات المستقلة ذاتيا من شعراء يمدحونها او يحسونها وهكذا كان للزاوية الدلائية مثلا ، شاعرها احمد الدغوغي[٢٤٦] وله فيها عدة قصائد . وبرع من رؤساء الزاوية انفسهم عدد ممن لهم باع في الأدب كمحمد بن الحاج آخرهم الذي خطاب اهل فاس وكانوا ضد الحكم الدلائي بقوله[٢٤٧]:

يا أهل فاس فيكم خصلة … لم يحترف بها سوى من أسا
للكيد قد اظهرتهم ودكم … وذاك امر من امور النسا
اقسم بالله وآياته … والطبل لا يضرب تحت الكسا
ان لم تردوا النفس عن غيها … لاضربن وتينكم والنسا

اما المديح النبوي فقد تعزز على الخصوص بمساهمة الملحون (المألوف في تونس) ويعد عبدالعزيز المغراوي اكبر شعراء هذه الحقبة في فن الملحون ، وقد ضرب الشعب له مثلا كانت له شهرة حيث كان يقول : كل طويل خاوي ، غير النخلة والمغراوي[٢٤٨]:

ونالت حركة الجهاد التي ساهمت فيها الدولة والشعب نصيبا كبيرا من اهتمام الشعراء وهكذا يعد شعر المقاومة والنضال اهم سمات ادب القرنين العاشر والحادي عشر[٢٤٩].

على ان اعظم معركة خاضها المغرب الاسلامي قاطبة منذ معركة الأرك في عهد المنصور الموحدي ، ونقصد هنا معركة وادي المخازن لم يخلد من ادبها الجياش سوى القليل . وبعد داود الوجاني السوسي ممن ساهم بشعره في هذا الباب . اما فتح السودان الذي لم تتكافأ فيه قوى الطرفين فقد تمددت القصائد التي انشئت فيه حيث كان المغرب يعيش في الواقع فترة تطلع الى افتتاح الأندلس .

واثر فتح تيكوراراين القى عبدالعزيز الفشتالي قصيدة من ابياتها[٢٥٠]:

تبدى هلال السعد من مطلع النصر ... ولاحت بروق المجد من علم الفخر
فمن همم اضحى الثريا لها ثرى ... ومن عسكر يقتاده رائد النصر
مقام ملوك الأرض من سطواته ... مقام بغاث الطير من مخلب الصقر

ولقد تحقق للمغرب من امجاد منذ وقعة المخازن الى مطلع القرن ١١هـ/ ١٧م ما جعله يضاهي في قوته العسكرية وسمعته السياسية درجة الدولة العثمانية المعاصرة . ولعل الشعوب العربية كانت تطمح في ان يكون للمغرب اكبر نصيب في اعادة امجاد الخلافة العربية القديمة ولولا ذلك ما كان لأحمد المنصور الذهبي ان تراوده احلام فتح الأندلس والبلاد العربية كما تدل على ذلك تنويهات الشعراء انفسهم ، وهكذا نجد الأديب علي بن احمد المسفيوي يدعو الى تحرك احمد المنصور نحو اسبانيا والأراضي الاسلامية بعد فتحه للسودان[٢٥١]:

فملكت اقطار الجنوب وما سمت ... لمنال ذلك همة الاسكندر
وتنال اندلسا يجود ربوعها ... برد المنية من قتام العثير

ويقول بعد ذلك :

فكان بمصر اعتاض من بعد المدى ... من جوهر[٢٥٢] بحسام بأسك جوذر[٢٥٣]
فيلسوف يطوى مغربا ومشارقا ... ويزور دجله والفرات بعسكر

ومن المعارك التي خاضها المنصور وهو امير ، ضد المتوكل الذي كان يسانده الأتراك ، موقعة اساطس التي وصفها علي بن منصور الشيظمي في قصيدة يقول فيها[٢٥٤]:

والجيش قد جاش وارتجت جوانبه ... وهاله الخطب وسط الشعب فاضطربا
ثم تقدم كالليث الهزبر وقد ... هاجت حفيظته وارعدت غضبا

واذا تركنا جانبا ، الشعراء الرسميين ومن في حكمهم ، والذين يتوجهون بقصائدهم الى العاهل ، نجد طبقة الشعراء الأحرار يتوجهون مباشرة الى الشعب المغربي وسائر الأمة الاسلامية قصد احياء امجادها ورفع الذل عنها ، وهذا ابن يجبش التازي في تائيته الرائعة يحض على الجهاد والتضامن ويقول[٢٥٥]:

ايا معشر الاسلام يا امة الهدى ... ترقوا الى اعلى مقام الأخوة
فقد شاع في الأقطار حال افتراقكم ... وما بان في الاسلام من سوء ثلمة
فلم يطمح الملعون فيما اصابه ... من القوم الا باختلاف وفرقة
على البر والتقوى جميعا تعاونوا ... وما هو الا باجتماع والفة

وقد عاصر ابن يجبش ظروف تأسيس الدولة السعدية في ظروف انقسام المغرب الى عدة دويلات ولذلك كان خطابه للأمة ودعوته الى النضال دعوة جماعية .

وتحتل المرثيات مقاما كبيرا في الشعر العربي بالمغرب ، لأنها تشغل ذلك الجانب الأخروي الذي يفكر فيه المواطن المسلم تفكيرا متلاحقا في حياته كمؤمن موقن بالموت والبعث ولعل قبور الملوك والأمراء السعديين بمراكش ، تمثل الأشعار المنقوشة عليها صدى عميقا لهذه الذكرى التي لا يوقفها الا الموت ، على الرغم من كل ما قد كان يحيط بحياتهم الخاصة أو السياسية ، من ذنوب واخطاء ، ومما رثي به محمد الحران نجل المهدي الشيخ ، المتوفي سنة ٩٥٥/ ١٥٤٨ من شعر سعيد الجزولي[٢٥٦]:

نعي اتاني والنعي محمد ... رددت عليه والدموع جواب
بكاء لمن شدت عرى الملك كفه ... ومن رأيه في المعضلات شهاب
فتى نيط حب المكرمات بلحمه ... فهن صلاة والمديح ثياب

كذلك كان للمدن التي احتلها العدو نصيبها من رثاء الشعراء لاسيما العرائش التي سلمها محمد المأمون بن المنصور هدية سائغة ، الى الأسبان ، فرثاها قاضي القصر الكبير محمد بن عبدالله الزيات بقصيدة مطلعها[٢٥٧] :

الا ياملوك الغرب نالت شموسكم ... وألبستم ثوب الردى والفضيحة

ومن مميزات الأدب في هذا العصر الجمع بين الشعر والنثر في المراسلات . وهذا مالا نجده الا نادرا فيما سبق[٢٥٨]. اما الغزل الذي لم يكن له ان يخصب تحت رقابة الصوفية والفقهاء ، فقد وجد على كل حال نصيرا له في وسط المتأدبين من الملوك والأمراء وان كان مجرد هواية بالنسبة لبعضهم اكثر مما مثل حياتهم الخاصة . ومن هؤلاء واولئك المنصور والمتوكل وزيدان[٢٥٩]. ومن الطبيعي ان براعة هؤلاء في هذا الميدان ، انما هي من وجهة نظر اخرى ، انعكاس لطبيعة الحياة الاجتماعية داخل القصور الملكية التي تتوافر فيها عناصر الجمال والاغراء اكثر مما تتوفر في البيئات الخاصة والشعبية[٢٦٠].

والحق ان العصر الأدبي الذي نعالجه يتسم بسمة اخرى مميزة ، هي ما لقيته القصور والمبايني الفخمة والحدائق المترفة من وصف دقيق اخاذ تمثله النقوش الشعرية التي ازدانت بها جنبات قصر البديع ، جدرانا وابوابا وسقوفا . وان شطرا كبيرا من هذه الأشعار وضعه. شاعر الدولة الرسمي ابوفارس عبدالعزيز الفشتالي[٢٦١].

ومما لا يدع مجالا للشك ان اجمل فترة للنثر الفني بالمغرب ، هي هذه الفترة التي تستغرق جل القرن العاشر وشطرا كبيرا من القرن الحادي عشر ، بينما كان هذا النثر بالمشرق لا يزال يعاني فترة انحطاط كبير منذ عدة قرون ، فحتى اسلوب الظهائر والمناشير يتميز بالدقة والعناية بعيدا عن الزخرف والتصنع مع ايجاز العبارة وادائها لمعنى محدد[٢٦٢].

ونجد اسلوب الجدل يدخل في النثر الفني منطلقا من روعة الاستدلال وحسن الاقتناع والانسجام بين اللفظ والمعنى[٢٦٣] . وما يكتبه الأدباء من مؤلفات يتميز في الغالب برشاقة الأسلوب والاطلاع الواسع على اسرار اللغة كما يتجلى ذلك في «مناهل الصفا» للفشتالي والذي يتأثر بكيفية عميقة باسلوب ابن خلدون في «العبر» ذلك الأسلوب الذي تفرد به قبل غيره[٢٦٤].

وفيما يلي نورد ترجمة موجزة لعدد من الأدباء البارزين :

١ ــ ابوفارس عبدالعزيز بن ابراهيم الفشتالي : ازداد سنة ٩٥٢/ ١٥٤٥ أو ٩٢٦/ ١٥٤٩ بفشتالة وهي مكان وقبيلة بناحية فاس التي ينتمي اليها ايضا محمد بن علي الفشتالي ، من الشخصيات المذكورة البارزة في بلاط المنظور ، واحد المثقفين المرموقين في ظل الدولة السعدية . وقد كان ابوفارس بالاضافة الى كونه رئيس كتاب المنصور يحمل لقب وزير القلم الأعلى ، حتى ان المقري يرى انه لو لم يكن للدولة السعدية من شاعر سوى ابي فارس الفشتالي لكفاها ذلك فخرا[٢٦٥]. وكان ابوفارس فقيها اديبا تلمذ على المنجور وعبدالواحد الشريف واساتذة آخرين بفاس . ومن انتاجه :

ــ مناهل الصفا في اخبار موالينا الشرفا في عدة مجلدات ظهر الجزء الثاني منها ملخصا بعض الشيء على يد المحقق الاستاذ عبدالله كنون بالرباط (المركز الجامعي للبحث العلمي ١٣٨٤/ ١٩٦٤) ونفس المجلد نشر سنة ١٩٧٣ على يد الدكتور عبدالكريم بالرباط (الأوقاف) .

ــ مدد الجيش وهو تقليد لجيش التوشيح لابن الخطيب ويضم موشحات مغربية بينها موشحات لأحمد المنصور[٢٦٦] .

ـ شرح المقصورة للملودي .
كما رتب ابو فارس ديوان المتنبي حسب الحروف الهجائية بامر المنصور .
وقد نقل المقري الكثير من رسائل الفشتالي واشعاره[٢٦٧]التي ورد عدد منها ايضا في «مناهل الصفا» لأبي فارس .
وكان الفشتالي يحظى بتقدير كبير في بلاط المنصور الذري كان هو نفسه ينوه به ويعده في درجة ابن الخطيب[٢٦٨] غير ان الفشتالي تأثر بثقافته الأدبية حتى في كتابته للتاريخ كما يدل على ذلك «مناهل الصفا» . وقد سبقت الاشارة الى ان مؤلفه يتأثر الى حد كبير بابن خلدون على الرغم من ان هذا اشتهر كمؤرخ لا كأديب .
وكانت وفاة الفشتالي سنة ١٠٣٢/ ١٦٢٢ في ايام زيدان ولكن يبدو ان شخصيته لم تعد لامعة كما كانت ايام المنصور ، اما لتقدمه في السن او لاضطراب الأحوال العا[٢٦٩]؟ .
٢ ـ محمد بن علي الهوزالي[٢٧٠]المعروف بالنابغة وهو شاعر الدولة الرسمي . وتكوينه الثقافي شبيه بتكوين ابي فارس الفشتالي ، تولى قضاء المحمدية (تارودانت) . ولكن نزعته الأدبية والشعرية قربته من البلاط السعدي ، وقد تناول شعره مختلف الفنون حيث تتجلى شخصيته كأديب وشاعر مخلص للدولة ، ويشهد على ذلك قصيدة له وجهها الى المأمون يقول فيها[٢٧١] :

ابلـغ المـأمـون انـي قـد كسـانـي الـدهـر ضيمـا
وانتـهـى حـالي الى حـال زوي لحمـا وعظمـا
في بنـين غـادروا مـن فـرط مـا يلقـون نـومـا
علـه يسخـر بمـا مـن دأبـه يسـديـه حلمـا
ان لي في مـدحـه مـا يمـلأ الأسفـار نظمـا

ومهما كان من هذه الروح الانتفاعية التي تنم عنها هذه الأبيات فان له من الصور الجيدة والرائعة في قصائد اخرى ، مالا يخل بقيمته الأدبية ، ومن ذلك قصيدة القاها امام المنصور سنة ١٩٨٧/ ١٥٧٩ بعد ابلاله من مرض طويل كان هناك تخوف من مصيره . ومن قوله في هذه القصيدة :

تردى اذى من سقمك البر والبحر وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر
فلمـا اعـاد الله صحتـك التـي أفاق بها من غمه البدو والحضر
تراءت لنا الدنيا بـزينة حسنهـا وعادت الى الايناع اغصانها الخضر

وقد وضع الهوزالي شرحا لديوان المتنبي ، وكانت وفاته سنة ١٠١٢/ ١٦٠٣ . ومن[٢٧٢] الأدباء المرموقين في هذا العصر :
١ ـ سعيد الماغوسي[٢٧٣] .
٢ ـ محمد بن علي الفشتالي (ت١٠٢١ / ١٦١٢) .
٣ ـ عبدالخالق بن محمد بن ابي بكر الدلائي[٢٧٤] .
٤ ـ احمد بن محمد المعروف بابن الغرديس التغلبي[٢٧٥] .
اما دواوين الشعر فنذكر منها على سبيل المثال :
١ ـ طلائع اليمن والنجاح لعبدالعزيز التاملي (ت ١٠٣٠/ ١٦٢٠) وهو ديوان يشتمل على امداح خصصها التاملي للمأمون ابن المنصور[٢٧٦] .
٢ ـ ديوان محمد امحاولو .
٣ ـ ديوان سعيد بن علي الحامدي .
٤ ـ ديوان محمد بن علي الرسموكي[٢٧٧] .
٥ ـ ديوان عبدالعزيز الفشتالي[٢٧٨] .

٦ ـ ديوان اشعار المعلويين نسب لأحمد المنصور الذهبي ويتضمن ازيد من الف ترجمة[٢٧٩] .

٧ ــ ديوان عبدالله بن علي بن طاهر (ت ١٠٤٤/ ١٦٣٤)[٢٨٠] .

اما في النثر فبالاضافة الى ما كتبه الفشتالي تعد رسالة ابن يجبش في الجهاد[٢٨١] من اروع ما كتب في ادب القرن العاشر عامة . وهي تعاصر الفترة الأولى من نشأة الدولة السعدية ونورد فقرات منها فيما يلي ، وبها نختم هذا العرض عن موضوع الأدب . ومعلوم ان الكاتب عاصر الدولة الوطاسية وفترة قليلة من قيام الدولة السعدية .

«عباد الله ... ما هذه الغفلة العظيمة ، التي اضحت على القلوب مقيمة وركنت اليها النفوس ، فاصبحت من التوفيق والرشاد عديمة ؟ اما علمتم ان اعداءكم باحثون عليكم مشغولون بكل حيلة في نيل الوصول اليكم ؟ قد جمعوا من العدد مالا يحصى له عدد وارسلوا عيونهم وجواسيسهم في كل بلد، ليخبروهم بما عندكم من عدة ، ومالكم فيه من قوة او شدة . فأخبروهم بما انتم عليه من الاستهزاء والغفلة ، وان عدتكم بالنسبة لعدتهم في غاية الضعف والقلة وانكم مفترقون مع اخوانكم المسلمون لم تبالوا بما اتفق عليه من اذلال دين سيد المرسلين ، واخذ عباد الله المؤمنين ، فلما عرفوا جميع احوالكم وما انتم من عدم اعتباركم بهم واشتغالكم ، طمعوا لا بلغ الله لهم املا منكم في نيل المراد ، واجمعوا ، بسدد الله شملهم ، فيما بلغنا عنهم من الخروج لهذه البلاد ، ولم يقنعهم ما تملكوه في تلك القضية من الأموال والعباد ، الذين هم الآن عندهم الجهد العظيم والعذاب الأليم . قد ابدلوا بعد الهز والفرح ذلا وحزنا ، واسترسل عليهم الكرب والترح حسا ومعنى ... كانوا بالأمس اغنياء آمنين فاصبحوا اليوم فقراء خائفين ...»

ج ـ علوم اللغة

لم يحدث اي تجديد يستحق الذكر في هذا الميدان ، ذلك ان المصنفات والمنظومات التي وضعت في العصر المريني ظلت تستعمل بعده الى وقت متأخر ، على ان هذه المصنفات كانت لها فضل لا ينكر في تقويم اللسان العربي والاهتمام بعلوم النحو واللغة بالمغرب . والواقع ان الجهود تركزت حول الأجرومية والألفية شرحا وتدريسا اما كتاب «سيبويه» فقد قل الاهتمام به في الوقت الذي استمرت العناية فيه بشرح المرادي على الألفية والمغني لابن هشام ، والتلخيص لابن البناء ، وكلها مصادر اصيلة للاساتذة والمؤلفين المغاربة .

وبوجه عام قلما وجد متخصصون متفرغون للنحو وحده او علوم اللغة وحدها فنحن الآن في عصر تعطش الى الجمع بين الدراسات الدينية واللغوية وتركيز اكثر ما يمكن من المعلومات في اذهان الطلبة ، حتى ان عددا من الملوك والأمراء يعتبرون نموذجا في هذا الباب كما سبق ايضاح ذلك .

ومن بين الذين تعاطوا للدراسات النحوية واللغوية :

١ ــ احمد بن الحسن بن عوضون قاضي شفشاون ومؤلف مجموعة الوثائق العدلية[٢٨٢] الشهيرة عند المغاربة .

٢ ــ يوسف التدغي[٢٨٣] .

٣ ـ محمد بن محمد بن ابي بكر الدلائي الملقب بالمراقط والذي وصفه اليوسي بخاتمة النحاة[٢٨٤] .

٤ ــ ابو الحسن علي بن الزبير السجلماسي الذي وصفه المحبي بامام النحاة في عصره[٢٨٥] . وقد برز في علوم اللغة عامة وزاول التدريس بفاس وكان يستند الى شواهد لا توجد في الكتب المتداولة . وهو تلميذ ابن مجبر المساري واحمد المنجور ، ومن بين طلبته السكتاني[٢٨٦] ، وقد توفي علي بن الزبير سنة ١٠٣٥/ ١٦٢٥ .

٥ ــ القاسم بن محمد بن ابي العافية المعروف بابن القاضي ، وكان استاذ كرسي بجامعة القرويين[٢٨٧] وقد وصف بانه فريد عصره في معرفة المذاهب النحوية والشواهد المتعلقة بها ، وكان يحفظها عن ظهر قلب ، ومن مؤلفاته :

ــ شرح الألفية .

— شرح الأجرومَية .
— تقاييد دقيقة حول شرح المرادي .
وكانت وفاته سنة ١٠٢٢/ ١٦١٢ .
ومن المصنفات الأخرى في هذا العهد :
١ — معجم طبي يوضح خصائص النباتات والعلاج بها — فهو كتاب لغوي طبي في آن واحد واسمه: حديقة الأزهار في شرح ماهية العشوب والعقار ، لابي القاسم الغساني رئيس الأطباء بمراكش في عهد المنصور ، وقد وضع المؤلف ملخصا لمعجمه هذا سماه: كشف الرموز[٢٨٨] .
٢ — فتح اللطيف في علم التصريف لمحمد المرابط الدلائي ، وقد نشر هذا المؤلف بفاس خلال القرن الماضي (المطبعة الحجرية) .
٣ — شرح التسهيل لنفس المؤلف .
٤ — تقرير على شرح المرادي للقدومي .
على ان قائمة الكتب التي تدور في جلها حول شرح الألفية طويلة ويصعب حصرها ، ولكنها لا تقدم جديدا في علوم اللغة والنحو .
ومن جهة اخرى فان مساهمة المغرب وسائر اقطار المغرب على العموم ضعيفة في ميدان المعاجم اللغوية سواء في هذا العصر او فيما سبق . بيد ان المغاربة (في المغرب الأقصى) لم يبدأ اهتمامهم بعلوم اللغة بصفة جدية الا ابتداء من القرن ٨/ ١٤ اي بعد وضع معظم المعاجم اللغوية بالمشرق والتي هي نفسها لم تأت بجديد يذكر بعد القرن الرابع الهجري .
ونلاحظ ان الخط وهو من وسائل تحسين اللغة من حيث الشكل ، كان له مقام ملحوظ في القرن العاشر/ ١٦ فقد كان هناك عدد من اساتذة الخط ، حتى كان له كرسي خاص بالقرويين[٢٨٩] . ولا ريب ان ذلك من تأثير احتكاك السعديين بالمشرق لا سيما بالعثمانيين . غير انه لم يصلنا اي مصنف عن الخط المغربي على الأقل .

د — التاريخ والجغرافيا

لم تخل الدولة السعدية من مؤرخين يهتمون بتاريخها السياسي ، والى حد ما بتاريخها الفكري ، وهم على العموم يتجهون الى محاسن الدولة دون ان يذكروا شيئا من مثالبها ما لم يكن ذلك بصفة عرضية تفرضها الأحداث نفسها ، وهم مؤرخون رسميون كفلوا او تكلفوا بوضع تاريخ للدولة او لبعض ملوكها مركزين الأحداث في اشخاص الملوك والأمراء دون ان يطلعونا على ما يشفي الغليل من بعض الأحداث المحلية الرئيسية ، كثورة ابن ابي محلي، ونشاط رجال حركة الجهاد البحري ، ومواقف فأن الشعب وزعمائها من الأحداث العامة . ويمثل عبدالعزيز الفشتالي في «مناهل الصفا» وابن القاضي في «المنتقى المقصور» مثالا لهؤلاء المؤرخين الذين اهتموا بالجوانب الحسنة من اعمال الدولة السعدية ، غير انهما عاشامعا في فترة امجاد هذه الدولة ، ولم يشهدا الا قليلا من فترة ضعفها ، ولعلهما تأثرا بمظاهر القوة في تاريخ السعديين من حيث لم يمتد بهما العمر ليقوما بمقارنة افضل من ما لهؤلاء وما عليهم .
ولقد تألم اليوسي[٢٩٠] لعدم اهتمام المغاربة كما يرى ، بالتاريخ والأخبار المرتبطة بماضيهم ، على ان القرنين ، العاشر والحادي عشر ، وبصورة خاصة ، النصف الأول من القرن الحادي عشر شهدا مولد دويلات وامارات وحركات انتقلت كليا او جزئيا عن السعديين ، ومن ثم فهذه الفترة التي تمتد قرنا ونصفا تتضمن احداثها :
١ — تاريخ الدولة السعدية
٢ — تاريخ الدلائيين .
٣ — تاريخ المقاومة الشعبية التي تزعمها العياشي وحركة الجهاد البحري .

٤ ـــ تاريخ سائر الامارات والثورات الشعبية الداخلية كامارة ابن حسون وثورة ابن ابي محلي .

وتتنوع الوثائق والمصادر التي اهتمت بالتاريخ او تعد مساعدة له ، فهناك مؤلفات في التاريخ العام لهذه الفترة ، كما توجد كتب المناقب والتراجم وفهارس الشيوخ .

وهكذا فان كتب التاريخ العام او التي تساعد على التعرف على التاريخ العام للدولة هي :

١ ـــ مناهل الصفا لابن فارس عبدالعزيز الفشتالي وهو يشمل تاريخ الدولة السعدية حتى عهد زيدان ، ولكن لم يعثر حتى الآن الا على مجلد يتعلق بعصر المنصور .

٢ ـــ الجمان في تايخ اخبار الزمان للحاج محمد الشطبي (ن ٩٦٣/١٥٥٥) وقد اشار مؤلف معاصر الى وجود نسخة منه في قبيلة بني زروال بضواحي فاس[٢٩١] .

٣ ـــ المدود والمقصور من سنا ابي العباس المنصور ، لمحمد بن عيسى الذي توفي بالسجن سنة ٩٩٠/١٥٨٢ .

٤ ـــ المنتقي المقصور على مآثر مولانا المنصور لابن القاضي (خ عامة الرباط، ٧٦٤٥) .

٥ ـــ لمحة من تاريخ الدولة السعدية لأبي زيد عبدالرحمن الفاسي[٢٩٢] .

٦ ـــ تقاييد حول الدولة السعدية لابراهيم الورياغلي[٢٩٣] (ن ١٠٤٧/١٦٣٧) .

٧ ـــ روضة الآس العطرة الأنفاس لأحمد المقري (ن ١٠٤١/١٦٣١) وهو يقدم لنا معلومات قيمة عن حياة الدولة السعدية والنشاط الفكري الرسمي[٢٩٤] .

٨ ـــ ديوان قبائل سوس لابراهيم الحساني معاصر المنصور ، يأتي بتفاصيل هامة عن قبائل سوس ونشأة الدولة السعدية[٢٩٥] .

ويمكن ان نضيف الى هذه اللائحة كتاب تاريخ السودان ، لعبد الرخمان السعدي (ت ١٠٦٦/ ١٦٥٥)[٢٩٦] وهو المصدر الوحيد الذي يزودنا بمعلومات وافية عن نشاط الجيش السعدي بالسودان الى جانب تاريخ الفتاش وهو ايضا سوداني ومن اهم تراجم الملوك والشخصيات :

١ ـــ مرآة المحاسن[٢٩٧] الذي يعالج حياة وافكار يوسف الفاسي واسرته ، لمحمد العربي الفاسي . والكتاب متداول حيث طبع بفاس على الحجر .

٢ ـــ دوحة الناشر لابن عسكر محمد بن علي (ت ٩٨٦/ ١٥٧٨) وهو مجموع تراجم لعدد من الصوفية وغيرهم من شخصيات القرن ١٠/١٦ .

٣ ـــ مجموعة من مناقب سيدي احمد أدفال الدرعي[٢٩٨](ت ١٠٢٣/١٦١٤) .

٤ ـــ روضة التحقيق ، لعلي بن محمد الدوماني الصحراوي[٢٩٩] وهو مجموع تراجم .

٥ ـــ ثلاثة معاجم في التراجم لابن القاضي :

ـــ جذوة الاقتباس ، المطبوع على الحجر بفاس .

ـــ غنية الرائض ، في تراجم الحيسوبيين والرياضيين .

وابن القاضي هو صاحب «المتنقي المقصور» الذي تقدم ذكره ، وهو احمد بن محمد من اسرة موسى بن ابي العافية الزناتية والتي انجبت عدة شخصيات في ميدان الثقافة والفكر والقضاء ، فضلا عن الدور الذي قام به جدها موسى هذا والذي عاصر فترة انحطاط الدولة الادريسية . ومن شيوخ ابن القاضي ، احمد المنجور ويحيى الخصيبي وعبدالواحد الشريف وغيرهم ، كما ان له تلاميذ كثيرين ، كالشيخ ميارة ، واحمد المقري واحمد ابن يوسف الفاسي ... وكانت له ثقافة واسعة في عدد من فروع المعرفة . وقد كان المنصور يقرأ جل مؤلفاته . وخلال بعض اسفاره خارج المغرب ، وقع اسيرا في يد القراصنة المسيحيين وظل في قبضتهم مدة ١١ شهرا ثم افتداه المنصور بمبالغ ضخمة وبعد مساع طويلة .

وكان احمد المقري يقدره كثيرا وقد حضر جنازته ١٠٢٥/ ١٦١٦ بفاس[٣٠٠] واخيرا نشير الى مجموع تراجم آخر خاص بكبار المالكية ، الفه عبدالله بن يعقوب[٣٠١] .

اما فهارس الشيوخ التي تتضمن عادة اسماء الكتب التي درسها مؤلفو هذه الفهارس ، فهي تختلف قيمة ، اذ بينها ما يكتفي بسرد الشيوخ والكتب ، كما ان فيها ما يعطي تفاصيل مفيدة عن الحياة الاجتماعية والتقاليد في بعض المناطق ، وقد يرد فيها ما يفيد عن طرق التعليم وظروفه ونذكر من بينها :

١ ــ فهرست شيوخ المنصور ، لأحمد المنجور .
٢ ــ الفوائد الجمة لعبد الرحمان التمنارتي .
٣ ــ فهرست ابن يعقوب اليوسي معاصر احمد المنصور .
٤ ــ بذل المناصحة للبوسعيدي (ت. ١٠٦٠) .
٥ ــ فهرست عبدالواحد الشريف (ن ١٠٠٣/١٥٩٤) وتوجد نسخة منه في مكتبة الشيخ الكتاني بالرباط[٣٠٢] .
٦ ــ تنوير الزمان بقدوم مولانا زيدان للقاسم بن محمد بن القاضي (ت ١٠٢٢/١٦١٣) وهو عبارة عن فهرست شيوخ زيدان بن المنصور[٣٠٣] .
٧ ــ فهرست عبدالواحد الونشريسي (ت. ٩٥٥/١٥٤٨)[٣٠٤] .
٨ ــ فهرس الحسن بن خرزوز المكناسي[٣٠٥] (ت. ٩٥٥/١٥٤٨) .
٩ ــ فهرس المنصور ، وقد ذكره صاحب دليل مؤرخ المغرب الأقصى[٣٠٦] نقلا عن الافرني في الصفوة «الذي نقل عنه فقرات ، فهل يكون هو الفهرس الذي وضعه المنجور والذي يتضمن اسماء شيوخ احمد المنصور الذهبي وقد سبقت الاشارة اليه ؟.
١٠ ــ فهرس محمد القصار[٣٠٧] الذي انجز سنة ٩٩٨/١٥٨٩ .
١١ ــ فهرس احمد التادلي الصومعي[٣٠٨] .
١٢ ــ فهرس محمد بن ابي بكر الدلائي[٣٠٩] .

اما المؤلفات والأخبار عن الحركات الشعبية والشورية فقد كتبت غالبا بعد سقوط الدولة السعدية بزمن متأخر، ونذكر منها على سبيل المثل : الخبر عن ظهور المجاهد الحياشي لابي املاق من القرن ١٣/١٩ ، والبدور الضاوية لسليمان الحواث في اخبار الدلائيين ، ولا نقول في تاريخهم لأنه يهتم بالأوضاع الدينية للزاوية بالدرجة الأولى، ولابد من التذكير هنا بما الفه ابن ابي محلي في الدفاع عن دعوته كما اوضحنا ذلك سابقا[٣١٠] .

وبينما تميز القرنان السابع والثامن ١٣ و ١٤م بتعدد كتب الرحلات التي كانت الغاية السياسية منها وصف البقاع المقدسة ومراحلها ذهابا وايابا نجد هذه الرحلات التي من شأنها المساهمة بكيفية مجدية في الجغرافيا التاريخية والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي ، تقل بعد ذلك بسبب انعدام الأمن والاستقرار ، وان ما حدث لكل من الحسن الوزان واحمد بن القاضي لأوضح دليل على ذلك[٣١١] .

غير ان العصر الذي نعالجه ، تميز بكتابين كل منهما قيم في موضوعه وهما :

١ ــ رحلة التمكروتي الى الديار التركية .
٢ ــ وصف افريقيا للحسن الوزان .

والأول متأخر زمنا ، غير ان رحلة التمكروتي ذات هدف سياسي بالدرجة الأولى ، وواضعها هو محمد بن علي التمكروتي الجزولي (ت ١٠٠٣/١٢٩٣) وكان موظفا ساميا في بلاط احمد المنصور ، واسم رحلته: النفحة المسكية في السفارة التركية ، وهي معروفة لدراسي موضوع الرحلات في القرن العاشر ، والمؤلف قام بسفارة لدى البلاط العثماني ثم دون مشاهداته خلال سفره واثناء مقامه بتركيا ، وقد وصف بدقة كبيرة مشاهداته خلال سفره واثناء مقامه بتركيا ، ووصف بدقة كبيرة مشاهداته هناك لاسيما كنيسة اياصوفيا التي حولها الأتراك الى جامع ، كما وصفها من قبل ابن بطوطة وغيره ، وقد اعجب بما بذله العثمانيون من جهد لتجميع القوانين المدنية والعسكرية وضبطها ، وهم اول دولة اسلامية قامت بهذا العمل .

ورافق التمكروتي خلال سفارته التي امتدت عامين حتى سنة ٩٩٩/ ١٥٩٠ محمد بن علي الفشتالي ، وهو ايضا شخصية مثقفة ولامعة في الأوساط الرسمية وقد قام بتسليم هدايا قيمة باسم احمد المنصور الى السلطان مراد سليم[٣١٢] .

اما الحسن الوزان فيعد من اساطين الجغرافيين في مطلع العصر الحديث[٣١٣] ، وهو من اصل اندلسي ، ولد بغرناطة فيما بين ١٤٨٩ و ١٤٩٥م ووالده محمد الزياتي . وكان احد اجداده يشتغل بوزن البضائع فلقب بالوزان وانتقل اللقب الى سلالته . وقد انتقلت عائلة الحسن الوزان بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م الى المغرب واستقرت بفاس التي تلائم طبيعتها الاجتماعية ، وبها درس الحسن على شيوخ القرويين ، مشتغلا في نفس الوقت بمهمة كاتب في المستشفى الرئيسي بالمدينة حتى يقوم بأوده .

ويبدو ان مواهب الحسن الوزان تكشفت وهو بعد موظف بسيط ، فقد طلبه السلطان الوطاسي محمد البرتغالي عن طريق بعض الموظفين السامين الذين اخبروه باجادته للاسبانية والبرتغالية فكلفه بمهمة داخل المغرب ، واثناء تنقلاته سجل في مذكراته ما نقش على القبور التي يمر بها من كتابات ، وقدمها بعد ذلك الى اخي السلطان .

وفي سنة ١٥١٤ كلفه هذا السلطان بمهمة لدى حاكم آسفي البرتغالي ثم تعددت اسفاره ومهماته عبر المناطق المغربية ، وتوجه بعد ذلك مصر التي زارها وتعرف على اوضاعها العامة وكان سفره اليها برا عن طريق تشاد ، وفي سنة ٩٢٢/ ١٥١٥ ذهب الى البقاع المقدسة ، وكان قد زار تركيا مع احد اقاربه قبل ذلك وهو حدث .

ومن المهمات التي كلف بها الوزان داخل المغرب ، مشاركته في المفاوضات التي جرت بين السلطان الوطاسي وامير هنتاتة الناصر بن يوسف ، كما اجرى مفاوضات باسم محمد البرتغالي مع الأمير السعدي بسوس وحاحا احمد الأعرج ، وامير دبدو ، وامير تلمسان ، والمجاهد عروج . ثم قصد تونس دون ان يحصل على مقابلة سلطانها الحفصي ، ومن تونس ذهب الى القسنطينية ، وفي عودته توقف بمصر ثم بطرابلس سنة ٩٢٥/ ١٥١٨ ، ولما وصل الى جربة اعترض القراصنة الايطاليون السفينة التي كان على متنها فاقتادوه هدية الى البابا ليون العاشر وكان ذلك سنة ٩٢٧/ ١٥٢٠ وقد لمسوا من الوزان مواهب علمية فلم يروا غير البابا احق بهذا الأسير العالم وهناك سمي الحسن بيوحنا ليون دي ميديسيس Johannis leo de Medicis ثم دعي فيما بعد بليون الافريقي ، وقد استقبله البابا استقبالا حسنا ، اذ رأى فيه شخصية علمية واسعة المعارف ، فاحاطه بالرعاية والعناية ، وتذكر الروايات المسيحية انه تنصر ودخل في خدمة احد الكاردينالات الذي تعلم العربية على يديه . ثم اصبح ليون الافريقي استاذا للعربية بجامعة بولونيا (بايطاليا) بينما كان قد اتقن اللاتينية والايطالية وهو مقيم بروما والف كتبا قيمة منها :

١ ــ قاموس عربي عبراني ايطالي ، وضعه استجابة لرغبة طبيب يهودي سنة ١٥٢٤م .

٢ ــ معجم لتراجع ابرز الشخصيات العربية الفه سنة ١٥٢٧م .

٣ ــ كتاب حول تاريخ افريقيا عثر على قسم كبير منه بايطاليا .

٤ ــ وصف افريقيا وهو الكتاب الوحيد الذي نشر حتى الآن من مؤلفات الوزان ، وقد لقي عند ظهوره اقبالا كبيرا في الأوساط المسيحية وكان نشره سنة ١٥٥١م بالبندقية على يد مثقف ايطالي هوجان باستيت راموسيو. Jean Baptiste Ramusio ويبدو ان المؤلف الذي حرره بالايطالية قد اعتمد على مذكرات كتبها بالعربية ثم ضاعت منه فيما بعد . وفي سنة ١٥٥٦ ظهرت ترجمة للكتاب باللاتينية واخرى بالفرنسية ، غير ان الترجمة اللاتينية بدت مشوهة[٣١٤] .

والكتاب يتألف في الأصل من ثلاثة مجلدات احدها عن آسيا والثاني عن اوروبا والثالث عن افريقيا وهو الذي اكسب المؤلف شهرة واسعة كجغرافي لم يصف احد قبله مناطق افريقيا بمثل دقته وشموله .

ويشتمل كتاب وصف افريقيا على تسعة اقسام :

١ ــ لمحة جغرافية اجتماعية عن افريقيا .

٢ ــ وصف مناطق الجنوب الغربي من المغرب : حاحا ، سوس ، مراكش جزولة ، دكالة ، هكسورة ، تادلا .

٣ ـ وصف المناطق الشمالية والشرقية من المغرب ، مع ادخال تامسنا . ويشمل هذا القسم فاس وازغار والهبط والريف والصحراء والشرقية والحوز .
٤ ـ وصف تلمسان .
٥ ـ وصف بجاية وتونس .
٦ ـ الصحراء المغربية عموما .
٧ ـ السودان .
٨ ـ مصر .
٩ ـ الثروات الطبيعية بافريقيا : الانهار والنباتات ، الحيوانات ، السمك ، المعادن .

وتمثل الأقسام الأولى لاسيما القسم الثاني والثالث ما يعادل نصف الكتاب المخصص لافريقيا .

ومن عادة المؤلف ان يقدم لكل ناحية بوصف جغرافي مجمل ، ثم يأتي بتفاصيل مركزة عن مختلف المراكز الحضرية والقروية بما في ذلك تقدير السكان وهو شيء لم يسبقه اليه جغرافي غيره ، ونوع الحياة الاجتماعية للسكان والثروات الطبيعية بالمركز ونشاطاته الاقتصادية ، وحتى نوع الحكم المحلي عند الاقتضاء ، والتشريع الاداري والمعالم الاثرية ، واجمل وصف وادقه ، خصصه لفاس التي صور حياتها العلمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية تصويرا في منتهى الدقة . ويؤلف «وصف افريقيا» مع كتاب مرمول «افريقيا» وكتاب ليفيوسانوطو «Liuo Sanuto» في نفس الموضوع اهم الوثائق التي اعتمدها الأوروبيون في اكتشاف مجاهل هذه القارة .

اما مصير ليون الافريقي فلا يزال مجهولا من الوجهة التاريخية حتى الآن . فهناك من يذكر انه عاد الى تونس سنة ١٥٢٨ واعتنق الاسلام من جديد ، كما ان فريقا يذكر ان وفاته بروما قبل سنة ١٥٥٠ ، وهذا ما ورد في الطبعة الرابعة لراموسيو . ويذكر مؤلف من القرن ١٣/١٩م ان الوزان توفي بتونس سنة ١٥٥٢م في ايام السلطان الحفصي الذي سبق آخر ملوك الحفصيين بتونس[٢١٥] .

هـ ـ الطب :

كان المختصون في الطب وحده قليلين . فقد درج المغاربة منذ قديم على ان يجعلوا من الدراسات الطبية تكميلا لتخصص آخر في العلوم الدينية او غيرها ، ومنهم على سبيل المثال في العصر الذي نعالجه : عبدالواحد بن عاشر ، وابو القاسم الغول الفشتالي ، واحمد بن عبدالله بن يعقوب السملالي وابن سعيد المرغيتي . غير ان مؤلفات هذا الصنف من المثقفين أو خبراتهم في ميدان الطب كثيرا ما تكون ذات اهمية ، وهكذا فقد تحدث المقري عن الحسن بن احم المسفيوي الأديب البارز في بلاط المنصور كعالم قدير في الطب[٢١٦] . لكن من المؤكد ان تقهقرا كبيرا حدث في ميدان الطب منذ انحطاط العهد المريني يوم كان بالمغرب مارستانات مجهزة تجهيزا لائقا ، سواء من حيث الأدوية او الأطباء ، وكانت هذه المارستانات منبثة في عدد كبير من المدن . واذا كان الأطباء الخبراء من المواطنين قد تناقص عددهم في ظل الحكم السعدي ، فان المؤلفات في الطب قد تعددت اي ان عدد الأطباء النظريين تكاثر من ذي قبل .

ولقد بدأ ان الطب باوروبا قد تقدم كثيرا في هذا العصر بفضل المؤلفات الاسلامية التي تمت ترجمتها الى اللاتينية . والتحق بالمغرب عدد كبير من الأطباء الأوروبيين عمل جلهم في البلاط السعدني كغليوم بيرار طبيب عبدالملك المعتصم ، قنصل فرنسا سابقا بالمغرب . وارنول دوليل طبيب المنصور ثم زيدان بعده[٢١٧] .

اما ابرز الأطباء في العهد السعدي نظريا وخبرة ، فهو ابو القاسم الغساني محمد بن احمد ، من اصل اندلسي[١٤٩] ، ومن عائلة متقفة . ولد سنة ١٥٤٨/٩٥٥ . وبعد دراسة عامة تخصص في الطب على يد والده

الذي كان ايضا طبيبا ، وساهم ابوالقاسم في اثراء المكتبة الطبية في هذا العهد بعدد من المؤلفات من اهمها :

١ ــ حديقة الأزهار ، الذي سبق ذكره ضمن المعاجم اللغوية . وقد الفه سنة ٩٩٤/ ١٥٨٥ . وهو يشرح طبيعة ومزايا النباتات المستعملة في العلاج الطبي ورتبه بالحروف الأبجدية[٢١٨].

٢ ــ شرح منظومة ابن عزرون في الحمية ، وقد وضع هذا المصنف سنة ٩٩٩/ ١٥٩٠ بطلب من محمد المأمون بن المنصور . ومنه نسخة بالخزانة بالرباط .

وقد شغل ابوالقاسم الغساني في عهد احمد المنصور منصب الطبيب الرئيسي في الادارة المركزية بمراكش ، كما عين وزيرا ووصفه ابن القاضي بانه احد الأطباء القلائل الذين سلم اعتقادهم لانه لم يكن يتعاطى الفلسفة كما كان الأطباء قديما !.

ومن الأطباء الآخرين او المؤلفين في الطب :

١ ــ عبدالغني بن مسعود بن الحسن الزموري تلميذ الغساني[٢١٩] وهو مؤلف القانون المفيد في علاج امراض البول (خ. ع. الرباط) .

٢ ــ احمد بن عبدالحميد الملقب بالمريد[٢٢٠] (ت ١٠٤٨/ ١٦٣٨) .

٣ ــ ابوعبدالله محمد الطيب[٢٢١] ، وقد نسب اليه انه انقذ المنصور من مرض مهلك سنة ٩٨٧/ ١٥٧٩ .

٤ ــ ابوالقاسم الغول الفشتالي (ت. ١٠٥٩/ ١٦٤٩) . ومن مؤلفاته الطب رسالة تدعى «حافظ المزاج» . وهي منظومة في ١٤١٠ ابيات (خزانة ملكية ، رقم ٣٦٢٠ . الرباط) .

٥ ــ احمد بن عبدالله بن يعقوب ، اشار المرحوم المختار السوسي الى ان له مؤلفا في الطب[٢٢٢] .

٦ ــ محمد بن علي البوعقلي ، له مجموع باسم «طب البوفقيلي»[٢٢٣] .

٧ ــ احمد المنجور (ت. ٩٩٥/ ١٥١٧) ، وله: «مراقي المجد» (خ. م. رقم ٥٥٠٢، الرباط) .

ومن مؤلفات القرن الحادي العشر/ السابع عشر ، معجم بعنوان «تحفة الأحباب»[٢٢٤] لا يعرف مؤلفه ، ويتضمن الأدوية والنباتات الطبية التي كانت مستعملة في هذه الفترة الى اواسط القرن المذكور . كما انه يشتمل على مصطلحات بالعربية الدارجة والبربرية ، لكنه ندر ان يذكر خصائص كل نبات طبي .

وقد وضعت رسائل كثيرة عن الأوبئة التي كانت تظهر بالبلاد . وهي عموما من تأليف فقهاء ، وتعالج مشكل الأوبئة من الوجهة الفقهية والاجتماعية ، ومن ثم فهي لا تقدم جديدا في ميدان الطب .

اما الكيمياء فلم تخل من اقبال عليها ملحوظ ، سيما في مدينة فاس ، وقد ذكر الحسن الوزان ان الكيماويين كانوا يجتمعون بالقرويين لمناقشة مبتكراتهم في هذا الباب ، وكانوا يعتمدون على المؤلفات الرئيسة ككتب جابر بن حيان (قرن٨) وكتب الحسن بن علي الطغرائي (ت. ٥١٦هـ) وكتب المجيريطي[٢٢٥] .

وذكر الوزان ان «الكيماويين قسمان ، بعضهم يتتبع ابحاث مادة الاكسير التي تعطي لكل معدن لونه ، والآخرون يقومون باختبارات على عدد من المواد المعدنية بمزج بعضها ببعض[٢٢٦] » .

ومن مؤلفات القرن ١١/ ١٧ . وصلنا كتاب عن التجليد والتذهيب ، نشره ريكار سنة ١٣٢٩/ ١٩١١ ، وعنوانه: صناعة تسفير الكتب وعلم الذهب لأحمد بن محمد السفياني[٢٢٧] .

و ــ الفلك والرياضيات :

بلغ الاقبال على دراسة الفلك والرياضيات اوجه خلال القرنين العاشر والحادي عشر . فاما دراسة الرياضيات فللحاجة اليها في علم الفرائض ، وتطور بعض المقاييس المعمارية التي تقتضي معرفة دقيقة بالهندسة والحساب كما في بناء الأبراج والأجهزة الدفاعية ، واما دراسة الفلك فلحاجة البلاد الى المؤقتين وتنظيم اوقات الصلاة والصوم والأعياد ، حسب العروض ، ولأول مرة في تاريخ المغرب نسمع عن مؤلف خاص بالحيسوبيين وتراجمهم وضعه ابن القاضي عن حيسوبي هذا العصر[٢٢٨] .

اما منظومة «المقنع» في الفلك لابن سعيد المرغيتي ، فقد تدارسها آلاف الطلبة منذ القرن الحادي عشر الى عقود خلت[٣٢٩] .

وكثيرا من المؤقتين والحيسوبيين من اصل سوسي . ذلك ان هل سوس اهتموا اهتماما خاصا بالفلك والحساب واعطوا للمغرب الكثير من رجالاتهما . واعتماد الدولة على الاطارات السوسية في المجالات الادارية والدينية لا يستغرب ، وقد نشأت الدولة على أكتاف اهل سوس وفي اقليمهم .

ومن اشهر رياضيي المغرب في هذا العصر :

١ ــ محمد بن احمد بن ابي العافية المكناسي (ت. ٩٨١/ ١٥٧٣) والد احمد بن القاضي مؤلف الجذوة ودرة الحجال وغيرهما[١٦٢] .

٢ ــ احمد بن القاضي (ت. ١٠٢٥/ ١٦١٦) . ومن مؤلفاته مقدمة في الهندسة و«غنية الرائض»[٣٣١] وهو معجم عن الحيسوبيين كما تقدم .

٣ ــ ابو عبدالله محمد بن احمد السالمي استاذ المنجور[٣٣٢](ت. ١٠٠٢/ ١٥٩٣) .

٤ ــ محمد بن سعيد الطنجي[٣٣٣] (ت. ٩٩٢/١٥٨٤) .

٥ ــ عمر بن علي الحصيني اللجائي المولود سنة ٩٥٦/١٥٤٩ وهو معاصر ابن القاضي[٣٣٤] .

٦ ــ محمد ابن القاسم بن القاضي ، ابن اخت مؤلف «الجذوة» وكان فلكيا رياضيا ترك مؤلفات في العلمين[٣٣٥] .

ومن الفلكيين نذكر :

١ ــ احمد التوكليتي (بكاف معقودة وشد اللام) ، واعتبره ابن القاضي استاذ الحيسوبيين والفلكيين[٣٣٦] .

٢ ــ احمد الططائي المراكشي (ت. ١٠٦١/ ١٦٥٠) وهو استاذ ابن سعيد المرغيتي وعالم قدير في الفلك . وكان مؤقتا بجامع «الحرة» بمراكش[٣٣٧] .

٣ ــ ابوزيد عبدالرحمن اليوعقيلي الجزولي[٣٣٨](ت. ١٠٠٦/ ١٥٩٧) وقد صنع مزولة شمسية للجامع الأكبر بتارودانت واخرى لجامع القضية بمراكش . ومن مؤلفاته : شرح «السيارة» في الهيئات ، وروضة الأزهار ، وكان يلقب بالجرادي .

٤ ــ محمد بن سعيد المرغيتي صاحب «المقنع» وهو من الفلكيين المتأخرين[٣٣٩] .

٥ ــ احمد بن القاسم بن معيون (ت. ١٠٢٢/ ١٦١٣) ، وله: «اليسارة في تطويق السيارة» ، وهو على ما يبدو نقد لكتاب «اليسارة» لعبدالرحمن الجزولي .

٦ ــ احمد بن حميدة المطرفي[١٧٢] (ت. ١٠٠٠/ ١٥٩٢) بمراكش . وله شرح على روضة الأزهار للجرادي .

وقد سبقت الاشارة الى شخصية الحكيم ابن سليمان الروادني الذي نال شهرة فائقة بالمشرق كفلكي وعالم مشارك[٣٤١] . ولعل شخصيته تمثل الى حد ما شخصية ابن البناء الذي عاصر بني مرين وكان آية من آيات العلم ، وله تأثير تجاوز اقطار المغرب ، كما تعد مؤلفاته بالعشرات .

الهوامش

(١) في كتاب اخبار الحلاج ، ان الحلاج سئل عن الفرق بين الظاهر والباطن ، فأجاب اما باطن الحق فظاهره الشريعة ، ومن يحقق في ظاهر الشريعة ينكشف له مباطنها وباطنها المعرفة بالله . (عن : اخبار الحلاج ، ص١٩ " للحسين بن منصور الحلاج ، تحقيق ، ماسينيون وكراوس" .

(٢) مراكشي، اعلام ، ٤، ١٦٩ .

(٣) ن. م. ص. ١٧١ .

(٤) ن. م. ص.

(٥) مقري، روضة، ص ٣٤

(٦) ن . م ص . ٤٧ - ٥٦

(٧) ن . م . ص . ٥٧

(٨) فشتالى ، مناهل ، ص٢١٥ - ٢١٦

(٩) ن . م . ص . ٢١٦

(١٠) أبو حمو موسى بن يوسف ، ولد بغرناطة حيث كان والده منفيا بعد أن فقد عرشه ، واسترجع أبو حمو ملكه بمساعدة الحفصيين . وكان كاتبه الخاص ، هو يحيى أخو عبد الرحمن بن خلدون ، وتوفى أبو حمو قتيلا في حرب مع بني مرين سنة ١٣٨٩/٧٩١ بقرب تلمسان في مكان يدعي «الجيران انظرزركلي اعلام ، ٨ ، ٢٨٨ .

(١١) فشتالي ، مناهل ص٢١٧ مقرى ، روضه ، ص٥٧

(١٢) فشتالي ، مناهل ، ص٢١٧ ، مقرى ، روضة ، ص٥٧ .

(١٣) مقرى ، ن . م . ص .

(١٤) محمد بن محمد البكري ، احد رؤساء الزاوية البكرية ، ولد سنة ١٥٣٠/٩٣٦ ، وترك عدة مؤلفات في التصوف ، منها : تحفة السالك ، والفتح المبين بجواب بعض السائلين ، وشرح على مختص ابي شجاع ، وتوفي سنة ١٥٨٥/٩٩٤ . انظر زركلي ، اعلام (محمد البكري) .

(١٥) ابن القاضي ، درة الحجال ، ١ . ٥١ ، قادري ، نشر . ج١ أفرني ، نزهة ص٢٢٠ . وانظر ايضا ، ص٢١٦ - ٢٣٧ ، محمد العثماني ، مجلة المغرب ، ربيع جمادي ١٩٣٦/١٣٥٥ .

(١٦) م . م . مختصر في التاريخ ، ص٢٦٤

(١٧) مقرى ، روضة ، ص٥٩ .

(١٨) احمد ابوالعباس السبتي ، ولد سنة ١١٢٩/٥٢٤ ، وتوفي سنة ١٢٢٣/٦٠١ وهو صوفي من العصر الموحدي تقوم تعاليمه على تضحية الاغنياء بمالهم لصالح الفقراء .

(١٩) افرني ، نزهة ، ص٤٠٢ .

(٢٠) فشتالي ، مناهل ، ص١٣٥ .

(٢١) من بين الكتب التي الفت بطلب من احمد المنصور : ١ - شرح رجز ابن زكرى التلمساني في المنطق ، لاحمد بن علي المنجور ، وقد وضع له مختصرا خصصه للاساتذة . ٢ - مؤلفان في الطب لابي القاسم الغساني المتوفي في نهاية القرن ١٦/١٠ ، وهما : حديقة الازهار في الاعشاب والعقار ومغني الطبيب عن كتب اعداء الحبيب . والكتاب الاخير يستدل من عنوانه على التقهقر الذي وصل اليه علم الطب في الدول العربية والاسلامية ، حيث اصبح الرجوع الى الكتب الاجنبية اساسيا . ٣ - شرح مقصورة المكودي لعبد الواحد الشريف . ٤ - شرح المتنبي لمحمد بن علي الهوزالي . ٥ - الهادي في حل مشكل المرادي في اربعة مجلدات للقدومي ويوجد بالخزانة الملكية بالرباط وهو دراسة متعمقة في النحو على هامش الالفية . ٦ - شرح درر السمط في فضائل السبط ، لابي جمعة سعيد المغوسي (انظر : مناهل ، ص٢٢٠ ، روضة ، ص٢١٧ ، وص٧٠) .

(٢٢) مناهل ، ص٢٢٠ .

(٢٣) افرني ، نزهة ، ص٢٢٥ .

(٢٤) ابن عسكر ، دوحة ، ص١٠ .

(٢٥) الجزنائي ، زهرة الآس ، ص٦٨ - ٦٩

(٢٦) مقرى ، روضة ، ص٢٢ .

(٢٧) الجزنائي ، ن . م . ص . كان موقع خزانة ابي عنان بالجنوب الشرقي لجامع القرويين اما خزانة المنصور السعدي فموقعها بجانب خزانة المصاحف العنانية ، ولم يكمل بناؤها الا قبل وفاة مؤسسها بعامين (روضة ، ص٢٢) . وانظر : عبدالهادي التازي ، جامع القرويين ، ج١ .

(٢٨) جل هذه المؤلفات ذو قيمة تاريخية او موضوعية هامة ، ونذكر منها على سبيل المثال :

١ - ابن ابي زمنين محمد بن عبدالله (ت. ١٠٠٨/٣٩٩) : مختصر تفسير القرآن ليحيي بن سلام (ت. ٨١٥/٢٠٠) ، والنسخة تحمل تاريخ ٦١١/٤/١٢هـ .

٢ - بدر الدين محمد بن ابي بكر : شرح المغني لابن هشام (ت. ١٤٣١/٨٣٥) . وقد حبس هذا الكتاب بتاريخ ١٦٠٢/١٠١١ .

٣ - القرطبي ابو عبدالله بن فرح : كتاب التقريب لكتاب التمهيد ، لابن عبد البر في مجلدين كبيرين .

٤ - ابوزيد الجزولي : شرح رسالة القيرواني ، في مجلد واحد .

٥ - القلصادي ابوالحسن ، شرح الفرائض ، لابن الشاط .

٦ - ديوان شعر لابن وفا (ت. ١٤٠٥/٨٠٧) . وصاحب الديوان صوفي شاذلي من الاسكندرية ، توفي بالقاهرة . وقد كتب الديوان بخط شرقي .

٧ - عبدالحق الاسلامي الملقب بالمهدي : الحسام المحدود في الرد على اليهود ويشير المؤلف الى انه اعتنق الاسلام مع زوجته واولاده . هذا ولم يعرف قط عدد الكتب التي كانت تحتوي عليها القرويين ، وقد قدرت بثلاثين الفا في القرن ١٩/١٣ ، ولم يبق منها الآن سوى الربع تقريبا ، وكان بالخزانة كتب بالاغريقية وغيرها .

(٢٩) G. Delphin, Fas, sonuniversite'et l'enseignementsupericur, P. 80 - 87
Deverdun, Marrakech, Antoine de Sainte Marie, P. 434 واسم الراهبا نطوان دوسانت ماري .

(٣٠) مراكشي ، اعلام ، ٤ ، ١٩٤ .

(٣١) تينمل او تينملل ، مدينة تقع على بعد مائة كيلومتر من مراكش وهي منطلق الدعوة الموحدة ، وبها ولد المهدي بن تومرت ، اما جامع تينمل فلا يزال موجودا ولكن بحاجة الى عناية .

(٣٢) Fustinard, Canihlade Tassaft, P. 24

(٣٣) ن. م. ص ١٤٥

(٣٤) وثائق القرويين ، رقم ٩

(٣٥) القادري ، نشر المثاني ، ١ ، ٢٩ ، مراكشي ، اعلام ، ٢ ، ٧٤ .

(٣٦) مقرى ، روضة ، ص١٨٧ ، وقد طبع المعيار بالمطبعة الحجرية بفاس ، كما توجد عدة نسخ مخطوطة منه بالرباط ، انظر فهرس المخطوطات بالخزانة العامة ، قسم ٣ ص٢١٨ - ٢١٩ وطبعته وزارة الاوقاف بالرباط مؤخراً .

(٣٧) محمد مخار السوسي ، سوس العالمة ، ص١٣٢

(٣٨) ن.م.ص. ١٦٩

(٣٩) ن.ص.

(٤٠) ن.م.ص. ١٧٢ - ١٧٣ .

(٤١) ٢٨٥ - ٢٨٤

وانظر ايضا ، قائمة مخطوطات زاوية تمكروت (طبعت بالمكررة) ثم نشرتها وزارة اوقاف المغرب لمحمد المنوني وبالرغم من ان حوالي ١٠ آلاف مخطوط تبقت من زاوية تمكروت ، فان كمية اكبر توارثها شيوخ تزمورت (بسوس) ، كما حصل عدد كبير منها في يد الطلبة

(٤٢) من مخطوطات تمكروت التي بقيت محفوظة :

١ - شرح رسالة ابي زيد القيرواني للانفاسي والنسخة ترجع الى سنة ١٤٧٨/٨٨٣ .

٢ - القاموس المحيط للفيروزيادي ، كتب سنة ١٥٤٧/٩٥٤ .

٣ - شرح صحيح مسلم ، نسخ سنة ١٤١٨/٨٢١ ونسبت النسخة الى يحيى بن شرف النووي .

٤ - فضائل الفلاحة والفلاحين لمجهول .

٥ - شعر بالعربية والتركية لابراهيم الرسموكي .

٦ - خطبة للنبي ابراهيم ﷺ لمجهول .

٧ - عقيدة المرشدة لابن تومرت .

(المنوني ، قائمة مخطوطات تمكروت)

(٤٣) مقريزي : خطط ، ٢ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .
(٤٤) ولالي ، مباحث . ص١٦٠ .
(٤٥) L´eon, 2, 225.
(٤٦) انظر بهذا الصدد الفصل الثالث من كتاب "جامع القرويين" للدكتور عبدالهادي النازي ، والذي خصصه لكراسي التدريس .
(٤٧) أبوزيد الفاسي ، تحفة الأكابر ، ص٢٠٢ .
(٤٨) ابن ميمون ، رسالة الاخوان ، ص٢٣ .
(٤٩) محمد مختار السوسي ، سوس العالمة ، ص٣١ .
(٥٠) ن.م.ص.١٢٢ .
(٥١) ن.م.ص.١٢٥ .
(٥٢) سوس العالمة ، ص١٢٧ .
(٥٣) ن.م.ص.١٣١ .
(٥٤) انظر جملة من هذه المراسلات في الاستقصا ، للناصري . ج ٦ .
(٥٥) لقب لأبي حسون السملالي ، ولابأس بالتذكير هنا بعدم الخلط بينه وبين أبي حسون الوطاسي ، كما يوجد عبدالله بن حسون الصوفي .
(٥٦) ن.م.س.ص.٦٣ .
(٥٧) ن.م.و.ص.
(٥٨) سوس العالمية ن.م.ص١٧٨ - ١٨٧ .
(٥٩) المنوني : قائمة مخطوطات الزاوية الناصرية ص٩ - (وقع الرجوع الى هذه القائمة قبل طبعها) .
(٦٠) مراكشي ، اعلام ، ٢ ، ٣٨ .
(٦١) ن.م.ص.٩١/٩٣
(٦٢) ن.م.ج.١٧١/٤
(٦٣) المنوني ، لائحة مخطوطات الزاوية الناصرية ، ص١٥ .
(٦٤) ن.م.و.ص.
(٦٥) Leon, Description, P. 428

(٦٦) Ibid, 432
(٦٧) اليوسي ، فهرست ، ص 134 - 133
(٦٨) اليوسي ، فهرست ، ص١٣٣ - ١٣٤ .
(٦٩) المقري ، روضة الآس ، ص٣٤٠ .
(٧٠) مقري ، روضة ، ص٣٠٠ - ٣٠١ .
(٧١) يقع في نحو ٣٢ صفحة (م.خ.ع. الرباط ، حرف د ١١٠٣) ورقات : ٧١ - ٨٧ .
(٧٢) انظر على سبيل المثال : شذرات الذهب لابن العماد ، ٦ ، ١٢٤ ، ٣٣١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ الخ .
(٧٣) يوجد مخطوطا بالمغرب . خ.ع. الرباط .ج ٦٦ ود ٢٧٠ .
(٧٤) ابن عسكر ، دوحة ، ص٢٣ .
(٧٥) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال ص٥٥ .
(٧٦) هو عثمان بن سعيد المصري من اصل قيرواني ، مات ودفن بمصر ، سنة ٨١٢/١٩٧ عرف باسم ورش . وانتشرت قراءته بأقطار المغرب من غير منافس منذ عدة قرون ، وان كانت القراءات الاخرى تدرس لهدف علمي .
(٧٧) هو عيسى بن ميناء المدني الملقب بقالون (ت . ٨٣٥/٢٢٠) من اشهر قراء المشرق .
(٧٨) محمد داود ، تاريخ تطوان ، ١ ، ٦٦ و ٦٩ .
(٧٩) أعيد تعمير تطوان في القرن ١٥/٤ حيث يذكر البكري في المسلك ص١٠٧ انها كانت «قاعدة بني سكين ، وبها قصبة للأول (؟) ومنار ، وبها مياه كثيرة سائحة عليها الارحاء» .
(٨٠) داود ، م.س.ص.٣١٧ - ٣٢١
(٨١) ن.م.ص - ٣٣٠ - ٣٣٧

(٨٢) ن.م.ص ٣٣٩
(٨٣) يكون كل من "البدور الضاوية" لسليمان الحوات ، والدراسة التي وضعها الاستاذ محمد حجي فكرة واضحة عن النشاط الفكري للزاوية الدلائية .
(٨٤) ابن المجذوب الفاسي ، تذكرة المحبين ، ص٣٠٨ .
(٨٥) Leon, Description, P. 215
(٨٦) عبدالهادي التازي ، جامع القرويين .
(٨٧) المراكشي ، إعلام ، ٤ ، ٢٠٩ .
(٨٨) دراس بن اسماعيل من طبقة المالكية الاولين بالمغرب والذين كان لهم الفضل في نشر المذهب المالكي بهذه البلاد . وتوفي بمسقط رأسه فاس سنة ٩٦٧/٣٥٧ . وقد ترجم له في مدارك عياض .
(٨٩) القادري ، مختصر التقاط الدرر ، ص١٦ .
(٩٠) ابوزيد الفاسي ، ازهار البستان ، ص١٧ .
(٩١) ن.م. وانظر ايضا ، الوثيقة رقم ٣٠ من وثائق القرويين (لائحة سنة ١٩٧٣) .
(٩٢) رجراجي ، نوازل ، ص٢٦٢ .
(٩٣) ن.م.درعي ، نوازل ، ص٨ .
(٩٤) زروق ، شرح الرسالة ، ٢ ، ١٥٠ .
(٩٥) البلغيثي ، شرح منظومة المساري ، ص١٩٢ .
(٩٦) البدور الضاوية ، ص١٤٨ ، ابوزيد الفاسي ، الأقنوم ، ور ، ١٣٩ ، يرى ان صدر الطفل وظهره مما لا يعرض للضرب .
(٩٧) أبوزيد الفاسي ، م.س. و.ر ١٣٨ - ١٣٩ .
(٩٨) نقلا عن البلغيثي ، م.س.ص.٣
(٩٩) بلغيثي ، م.س.ص.٤
(١٠٠) ن.م.ص.١٢ - ١٣ .
(١٠١) Leon, Description, P. 104
(١٠٢) Delphin, Fas, son university, PP. 22, 86, 87
والمعلومات الواردة في هذا المرجع المترجم ، تمثل صورة حية للقرويين كما ظلت طيلة الف سنة .
(١٠٣) خلال السنوات الاولى من استقلال المغرب لم يتجاوز عدد طلبة القرويين حوالي الفين .
(١٠٤) Delphin, Op. Cit. P. 23
(١٠٥) بلغيثي ، م.س.ص ٣٢ .
(١٠٦) Delphin, Op, Cit. PP. 48 et 52
(١٠٧) البلغيثي ، م.س.ص.٤٠
(١٠٨) ن.م.ص٤١
(١٠٩) Delphin, Op. Cit. P. 28
(١١٠) البلغيثي م.س.ص ٦٦
(١١١) محمد بن عمر جار الله الزمخشري (ت. ١١٤٤/٥٣٨) من كبار المعتزلة ، له عدة كتب .
(١١٢) محمد بن عمر الفخر الرازي (ت. ١٢١٠/٦٠٦) مفسر ، وأحد علماء الكلام البارزين .
(١١٣) Delphin, Faser son universites, P. 30
عبدالهادي التازي ، جامع القرويين ، ج٢ . والبيضاوي من قرية البيضاء بشيراز ، واسمه عبدالله بن عمر . ت. ٧٩١/١٣٨٨ .
(١١٤) علي بن محمد الواحدي ، ت. ١٠٧٦/٤٦٨ وهو فارسي كالبيضاوي والزمخشري والرازي .
(١١٥) عياض بن موسى اليحصبي ، ت. ٥٤٤/ ١١٤٩ فقيه محدث ، اشتهر بكتابيه الشفاء وترتيب المدارك .
(١١٦) ابن غازي محمد بن يحمد العثماني ، ت.١٥١٣/٩١٩ ، فقيه رياضي من مكناس له عدة تآليف .
(١١٧) ابن البراذعي خلف بن أبي القاسم ، ت.١٠١٠/٤٠٠ . من القيروان ، والتهذيب خلاصة لمدونة سحنون .
(١١٨) ابن عاصم محمد بن محمد القيسي ، قاض ومفت ، اشتهرت ارجوزته المذكوورة باسم «العاصمية» ، ت. ٩٩٦/٨٢٩ .
(١١٩) عبدالله بن عبدالرحمن المعروف بابن ابي زيد القيرواني ، من ابرز فقهاء المغرب ت. ٩٩٦/٣٨٦ .

(١٢٠) ابن الحاجب عثمان بن عمر ، فقيه مالكي من مصر . ت. ٦٤٦/١٢٤٩ .
(١٢١) أبوعبدالله محمد بن مالك ، ولد بجيان . بالأندلس ، وهو نحوي قدير تدارس الطلبة والباحثون منظومته «الألفية» مع شروحها العديدة بالمغرب والمشرق ، وتوفي ابن مالك سنة ٦٧٢/١٢٧٤ . والألفية هي خلاصة لمنظومة الكافية التي تشتمل على ثلاثة آلاف بيت .
(١٢٢) ابن هشام عبدالله بن يوسف (ت. ٧٦١/ ١٣٥٩) مؤلف الموضح في النحو ، ومغني اللبيب في النحو واللغة والأدب وللكتابين معا قيمة جامعية ، والمؤلف من مصر .
(١٢٣) محمد بن يوسف السنوسي من تلمسان أصلا . ت. ٨٩٥/ ١٤٩٠ ، اشتهر على الخصوص بكتابيه : العقيدة الكبرى والعقيدة الصغرى . وله مؤلفات أخرى في النحو والحساب وغيرهما ، «زركلي ، اعلام، ٨، ٢٩» .
(١٢٤) أحمد بن محمد الأزدي المعروف بابن البناء المراكشي ، رياضي وفلكي وصوفي لم تنشر جل مؤلفاته ، توفي سنة ٧٢١/ ١٣٢١ .
(١٢٥) علي بن محمد القلصادي ، فقيه رياضي من بسطة (Baza) باسبانيا . وقد عرف بالمشرق حيث أدى فريضة الحج . (ت. بتونس ، وكان بها مدرسا ، سنة ٨٩١/ ١٤٨٦) .
(١٢٦) أبوزيد الفاسي ، ازهار البستان ، ص١٢ .
(١٢٧) اليوسي ، فهرست ، ص ١٣٤ ، م.س. ن.ص.
(١٢٨) انظر مثلا : ابن ميمون ، رسالة الأخوان ، ص ٢٠ . قادري ، نشر ، ١،ور. ٦٦ . فشتالي ، مناهل، ص١٣١ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، يوسي ، فهرست ، ص ١٣١ .
(١٢٩) وردت هذه المعلومات في تقرير محمد الحرشاوي وقد سماه : كتاب الأكياس في جواب الأسئلة عن كيفية التدريس بفاس ، ترجمة G. Delphin ونشـوة : Ernest Leroux, Paris, et Paul Perrier, Oran, 1889
(١٣٠) Ibid, P. 76
(١٣١) عبدالهادي التازي ، جامع القرويين ، فصل ٣ ، وأ ورد الفشتالي في «المناهل» نص الاجازة التي منحها العالم المصري البكري لأحمد المنصور (ص.١٩٢-٣٠٦) .
(١٣٢) التمنارتي ، الفوائد الجمة ، ص٥٢ .
(١٣٣) القادري ، نشر ، ١، ور. ٦٤ .
(١٣٤) أبوزيد الفاسي ، ازهار البستان ، ص١٢ .
(١٣٥) ع. الهادي التازي . م.س.
(١٣٦) Delphin, Op. Cit. P. 53
(١٣٧) البلغيثي ، شرح منظومة المساري ، ص١٢٢ - ١٢٣ .
(١٣٨) Delphin, Op. Cit, PP. 54, 55, 69 (4)
وكان الاستاذ محمد البوعناني المدرس بمدرسة ابن يوسف في عهد زيدان يتقاضي خمس أاق يوميا اي ما يعادل ١٥٠ دوكة شهريا ، ويلقي خمسة دروس في اليوم (مراكشي ، اعلام ، ٤، ٢٩٣) . الكلالي ، تنبيه ، ص١٧ .
(١٣٩) Léon : Op. Cit, P. 76.
(١٤٠) قلقشندي ، صبح ، ٥، ٢٠٣ - ٢٠٥ .
(١٤١) ونشريسي ، معيار ، ٢، ٢٨٠ .
(١٤٢) من اساتذة الكراسي في العهد المريني ، ١ـ سليمان الونشريسي ، ت. ٧٠٥/١٣٠٦ . مدرسة المدونة بجامع الأندلس بفاس . ٢ـ أبوالحسن الصغير لتدريس تهذيب البراذعي بجامع الأزدع بفاس (منوني ، دعوة الحق ، ٤، ١٣٨٥/١٩٦٦) .
(١٤٣) القادري ، نشر المثاني ، و.١٥. الكلالي ، تنبيه، ص١٧ .
(١٤٤) كلالي. ن.ص.
(١٤٥) كلالي ، تنبيه ، ص ١٥ .
(١٤٦) ن.م.وص .
(١٤٧) ص٨ ١٦. م.س .
(١٤٨) ن.م.وص .

(١٥٠) ن.م.ص.
(١٥١) ن.م.ص ١٧ . قادري ، نشر ، ١٢١ . وكان الحامدي يعطي درسا حول التهذيب .
(١٥٢) تنبيه، ص١٧، ١٩، ٢٠ . نشر ، ٩١ .
(١٥٣) نشر، ن.ور.
(١٥٤) مقري ، روضة ، ص٦٣ .
(١٥٥) محمد داود ، وتاريخ تطوان ، ١، ٢٨٧ .
(١٥٦) أبوزيد الفاسي ، أزهار البستان ، ص١٤ .
(١٥٧) أبوزيد الفاسي ، تحفة الأكابر ، ص٢٢٧ .
(١٥٨) التمنارتي ، الفوائد الجمة ، ص٥٢ .
(١٥٩) أبوزيد الفاسي ، تحفة الأكابر ، ص٢٠٣ .
(١٦٠) الحوات ، البدور الضاوية ، ص١٣٣ .
(١٦١) ابن عكسر ، دوحة ، ص١٠ . وقد وضع الشيخ الهبطي عدة كتب ، منها : «الألفية» في المواعظ ونقد بعض العادات ومظاهر من سلوك الطرق الصوفية في عهده ، ومنظومة في «العدة» وقد ظلت تدرس مدة طويلة بالمعاهد الدينية المغربية .
(١٦٢) ن.م.ص ٤٢ .
(١٦٣) المحبي ، خلاصة الأثر ، ٤، ص ٢٠٦ - ٢٠٨ .
(١٦٤) محبي، ن.م.ص.
(١٦٥) ن.م.
(١٦٦) ن.م .
(١٦٧) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٨ ، ٣٤٢ .
(١٦٨) زركلي ، اعلام ، ٥ ، ١٨٠ .
(١٦٩) فهر المخطوطات ، قسم ٣ ، ج ١ ، ٥ ، ٢٨٨ .
(١٧٠) مقري، روضة، ص٢٣٩ - ٢٩٩ و ٢٢٦ - ٢٣٨ .

الهوامش :

(١٧١) عرف عصر التقدم الفكري في الاسلام ظاهرة المشاركة العلمية في ارقى صورها خلال القرن الرابع (١٠م.) وذلك بفضل تشجيع الميزانية المركزية والمحلية ، ومن الأمثلة العديدة في هذا الميدان ، الرازي والطبري ، والتوحيدي والفارابي وابن سيناء .
(١٧٢) المقري ، روضة ٣١٦ - ٣٣١ المحبي . خلاصة الأثر ، ٤، ١٢١. القادري ، نشر ١، و٢٢٠ - ٢٤ . مراكشي، اعلام، ٢، ٢٢٧ - ٢٣٣ .
(١٧٣) مقري، روضة، ٣٠٣ ، ٣١٤، أبوزيد الفاسي ، تحفة الأكابر ، قادري ، نشر، ١ ، ٦٦، ٦٩، مراكشي، اعلام، ٢ ، ٩٩ .
(١٧٤) مسوفة قبيلة بربرية بالصحراء الجنوبية ، من مجموعة دولة المرابطين .
(١٧٥) ابراهيم بن علي بن محمد بن فرحون (ت. ٧٩٩/ ١٣٩٧) مثقف مغربي تابع دراسته بالمغرب ثم انتقل الى المشرق حيث مارس به مسؤوليات قضائية . ومن مؤلفاته : الديباج المذهب ويشتمل على تراجم المالكية ، ودور الغواص في محاضرات الخواص ، ومجموع تراجم للشخصيات المثقفة بالمغرب الاسلامي . (زركلي ، اعلام ، ١)

(١٧٦) القادري مختصر التقاط الدرر ، ص٢٤ . روضة الآس للمقري (مقدمة السيد عبدالوهاب بن منصور) . مراكشي ، اعلام، ٢ ، ٢٩ - ١١١ ، زركلي ، اعلام ، ١ ، ٢٢٦ .
(١٧٧) عين محمد المقري قاضيا للقضاة ، في عهد ابي عنان ، وكان ذا ثقافة واسعة لاسيما في علوم الشريعة ، استنكر تقليد المغاربة لعمل اهل قرطبة ، ودعاهم الى الاجتهاد .
(١٧٨) عبدالرحمن بن زيدان ، اتحاف اعلام الناس، ٤ ، ٣٤ .
(١٧٩) ابن القاضي ، درة الحجال ، ١ ، رقم ٦٢٤ .
(١٨٠) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بن زروال ، ص ٦٤ .
(١٨١) المراكشي ، اعلام ، ٤ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .
(١٨٢) محمد بن محمد الرعيني المعروف بالحطاب فقيه وصوفي مغربي الأصل ، ولد بمكة وتوفي بطرابلس سنة ٩٢٤/ ١٥٤٧ . ومن مؤلفاته : «مواهب الجليل» المذكور في كتب الفقه كمرجع ، ابتداء من القرن ١٠/ ١٦ .
(١٨٣) قادري ، نشر المثاني ، ١ ، ور. ١٢ .
(١٨٤) ن. م. ور. ١٧ .
(١٨٥) ن. م. ور. ٢٣ ، مراكشي ، اعلام ، ٤ ، ص ٢٠٩ - ٢٢٩ .
(١٨٦) مراكشي ، اعلام ، ٤٣،٢ . قادري ، نشر ، ١ ،ور. ٩ . الحُضيكي ، مناقب .
(١٨٧) مراكشي ، اعلام ، ٤ ، ص ٢٨٠ — ٢٨٨ .
(١٨٨) ن. م. س. ص ٣٠٨ .
(١٨٩) القادري ، مختصر التقاط الدرر ، ص ٧ .
(١٩٠) فهرس المخطوطات . قسم ٣ ، ج١ ، ٦ .
(١٩١) انظر ايضا م.س.ص ١٦٦ .
(١٩٢) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بن زروال ، ص٥٤ ، وانظر فهرس المخطوطات ، ص٣٠ وتوجد نسخة من الكتاب ب. خ.ع. رقم د١٦٤٤ .
(١٩٣) القادري ، نشر المثاني ، ١ ، ور. ٦٦ .
(١٩٤) يراجع في خ . ع . الرابط ، د ١٨٣٧ .
(١٩٥) الكتاني سلوة ٢ ، ١٢٨ .
(١٩٦) التمكروتي ، نفحة ، ص٩ .
(١٩٧) ابن ميمون رسالة الإخوان ، ص٢٢ .
(١٩٨) القادري ، مختصر التقاط الدرر ، ص١١ .
(١٩٩) اليوسي ، فهرست ، ص١٣٥ .
(٢٠٠) قادري ، نشر ، ١ ور. ٦٦ . محبي ، خلاصة الأثر ، ٢ ، ٣٧٨ .
(٢٠١) فهرس مخطوطات الكتاني ، رقم ١١٥ ، وفهرس مخطوطات الكلاوي رقم ٨٢٠ ، وفهرس مخطوطات الخزانة العامة رقم ١٨٠ (مطبوع بالمكررة) .
(٢٠٢) فهرس المخطوطات ، ص١٠٠ .
(٢٠٣) ن. م. ص. ١٠٢ .
(٢٠٤) ن. م. ص. ١٠٣ .
(٢٠٥) محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، ص١٧٩ .
(٢٠٦) م. س. ص. ١٨٣ .
(٢٠٧) ن. م. ص. ١٨١ .
(٢٠٨) سحنون هو احد الفقهاء المغاربة الأولين الذين يعتمد على آرائهم وفتاويهم في الفقه المالكي ، واسمه عبدالسلام بن سعيد التنوخي ، ولد بالقيروان سنة ١٦٠/ ٦٦٦ واصله من سوريا ، تولى القضاء ، واشتهر في بلاد الاسلام عامة (مدارك عياض، ٤ ، ٤٤ - ٨٨ . محمد السراج ، الحلل السندسية ، ٣ ، ٧٦٩ — ٨٠٦ . الزركلي ، ٤ ، ١٢٩ .
(٢٠٩) خليل بن اسحق الجندي (ت. ٧٧٦/ ١٣٧٤) فقيه مالكي وضع مختصرا للفقه بالغ التركيز والشمول ، اشتهر باسمه ، ونال حظوة كبيرة بافريقيا الشمالية في حياة صاحبه (زركلي ، اعلام ، ٢ ، ٣٦٤) . ومن فقهاء ، تونس الذين اعتمد آراؤهم في النوازل ، ابوالقاسم البرزلي (ت. ٨٤٤/ ١٨٨٤٠) وهو تلميذ للفقيه ابن عرفة .

(٢١٠) يوجد مختصر لهذا المؤلف بالخزانة العامة بالرباط ، نسبة بعضهم الى ابي محمد عبدالسلام الرندي من القرن ١٢/ ١٨ (ابن علي الدكالي ، الاتحاف الوجيز ، ص٩٧) .
(٢١١) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم ١٨٦ ، احمد بابا ، نيل الابتهاج ، المحبي ، خلاصة الأثر ، ٣، ٩٦ ، الأفرني ، صفوة من انتشر ، ورد، ٢. ابن زيدان ، اتحاف ، ١، ٣١٩ .
(٢١٢) قادري ، نشر، ١ .
(٢١٣) فهرس المخطوطات ، قسم ٣، ج١، ١٦٦ - ١٦٧ .
(٢١٤) الفترة الثانية يمثلها القرنان ١٢ - ١٣ (١٨ - ١٩ م) .
(٢١٥) عيسى السكتاني (ت. ١٠٦٢/ ١٦٥٢) توجد بعض النسخ من نوازله مخطوطة ، كنسخة خ. ع. رقم ق٨٤ . وقد كان السكتاني مفتيا وقاضيا بمراكش . ومن مؤلفاته ايضا حاشية على شرح ام البراهين للسنوسي «زركلي، اعلام ، ٥، ٢٨٨) .
(٢١٦) فهرس المخطوطات ، ص٢٢١ .
(٢١٧) يوجد في عدة نسخ بالمغرب ، لمخطوطتي خ.ع. رقم ج ٦٦ ورقم د ١٦٩٨ . ويبلغ ٥٠٠ ص من القطع الكبير ، والمؤلف من فقهاء تطوان ويوجد قبره بها (محمد داود ، تاريخ تطوان ، ١، ٣٤١) .
(٢١٨) محمد مختار السوسي ، سوس العالمة ، ص١٧٨ .
(٢١٩) ن. م. ص. ١٨٠ .
(٢٢٠) مراكستبي ، اعلام ، ٤، ٢٣١ . المحبي . خلاصة ، ٤ ، ١٢١ .
(٢٢١) محمد بن محمد بن عرفة ولد وتوفي بتونس ، وتولى الفتوى والخطابة والتدريس ومن مصنفاته : «المختصر الكبير» الذي وصفه السراج بكونه لا نظير له في الاسلام ، وهذا التأليف هو الذي خلد اسم ابن عرفة خصوصا من حيث تعريفاته الفقهية التي اصبحت وحدها تقريبا ، جاريا بها العمل بعده في اوساط الفقهاء . انظر ترجمة ابن عرفة عند : «السراج» الحلل ، ٣ ، ٥٧٧ — ٥٩٣) .
(٢٢٢) فهرس المخطوطات ، ص١٤٠ .
(٢٢٣) ن. م. ص ١٤١ . وكان عبدالواحد الحميدي القاضي من المهتمين بالأصول ، وقد عثرت على ورقة بخط يده في علم الأصول في مجموع بالخزانة العامة رقم د ١٨٥٤ ص ٦١ — ٦٢ .
(٢٢٤) خ. ع. رقم د ٢٠٠٢ .
(٢٢٥) خ. ع. رقم ١/د ١٨٢٤ ورقم ٢/د ١٨٢٤ .
(٢٢٦) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال ، ص ٥٤ — ٥٥ .
(٢٢٧) مقري ، روضة ، ص ٣٠٠ ، مراكشي ، اعلام ، ٢، ٧٢ — ٧٨ .
(٢٢٨) خ. ع. د ١١٠٣ .
(٢٢٩) نسبة الى احمد بن محمد بن عبدالكريم بن عطاء الله الاسكندري (ت. ٧٠٩/ ١٣٠٩) . ويحتوي كتابه على نحو ٥٠٠ صفحة وشرح شروحا عديدة ، واختير للتدريس في معاهد المغرب في العصر السعدي (انظر بعض شروحه في فهرس المخطوطات ص٢٨١) .
(٢٣٠) المراكشي، اعلام، ٤، ١٥٠، ٥٢ .
(٢٣١) خ. ع. /ك ٥٧١، ص١٠٩، ١٢٢ .
(٢٣٢) ابن ميمون ، رسالة الاخوان . ص ٦٢ — ٦٩ .
(٢٣٣) ن. م ص ٦٢ .
(٢٣٤) ن. م. ص ٧٦ و ١٠٠ — ١٠٠ .
(٢٣٥) ابن سودة ، دليل ١، ٧٩ .
(٢٣٦) ن م ص ٨٨ .
(٢٣٧) ن م ج ٢، ٤٧١ .
(٢٣٨) ن م ص ٤٨٠ .
(٢٣٩) ن م ص ٤٩٣ .
(٢٤٠) ابو زيد الفاسي ، الأقنوم ، ور. ٥٢ .
(٢٤١) م. س ور، ٥٥ — ٥٨ .

(٢٤٢) مقري روضة ص ٣ - ٥ .
(٢٤٣) م. س. ص ٨ .
(٢٤٤) م. س. ص ١١ .
(٢٤٥) م. س. ص ١٣٣ .
(٢٤٦) الحوات، بدور ضاوية ص١٧٠ ـ ١٨٠ .
(٢٤٧) ن م ص ٢٣٩ .
(٢٤٨) محمد الفاسي ، مجلة البحث العلمي ١، ١٣٨٣/ ١٩٦٤ ، ص ٥٧ .
(٢٤٩) انظر مجموعة الأشعار السعدية ، متحف مناهل الصفا ، ص ٢٦٣ .
(٢٥٠) مقري روضة، ص ١٦٥ .
(٢٥١) مناهل ص ٨٩ - ٩٠ .
(٢٥٢) فاتح مصر في عهد الفاطميين .
(٣١٧)فاتح السودان في عهد السعديين .
(٢٥٤) مناهل ص ١٥٠ .
(٢٥٥) ابوبكر البوخصيبي ابن يجبش التازي ص١٠١ (طبع بالمكررة) .
(٢٥٦) م. مجهول، مجموعة اشعار سعيدة ص٢٩٠ (ملحق المناهل الذي نشره كنون) .
(٢٥٧) قادري نشر ١، ٥٨ .
(٢٥٨) ناصري ، استقصا، ٥، ٥٦ .
(٢٥٩) راجع عددا من النماذج في : مقري ، نفخ ، ٩، ٢٨٢ . فشتالي ، مناهل ٢٠٧ . محبي خلاصة، ١، ٢٢٣ .
(٢٦٠) مقري ، روضة ، ص١٤٦ ، ١٤٨ .
(٢٦١) مقري ، روضة ص ٢٦ ، نفح ٨، ١٥٩ ، ناصري ، استقصا ، ٥، ١٣٦ .
(٢٦٢) انظر مثلا : محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال ، ص٥٦ - ٥٨ .
(٢٦٣) استقصاء ٦، ٣٩ .
(٢٦٤) انظر بحثا لصاحب هذه الدراسة في مجلة آفاق عدد الرباط .
(٢٦٥) مقري روضة ص١١٣ .
(٢٦٦) كانت توجد نسخة منه بالقروين حتى اوائل القرن ١٤/٢٠ (ابن سودة دليل ٢، ٤٠٦) .
(٢٦٧) تشتمل مجموعة رسائل سعدية التي نشرها الاستاذ كنون على ٣٣ رسالة من انشاء ابي فارس .
(٢٦٨) المحبي ، خلاصة الأثر ج، ١ ص٢٢٣ .
(٢٦٩) انظر ترجمة ابي فارس في نزهة الحادي ص٢٦٧ . ابن القاضي ، درة الحجال المحبي خلاصة ٢، ٣٥٢ ، المقري نفح ٨، ١٥٨ . روضة الآس ص١١٢ . كنون ابوفارس الفشتالي (سلسلة مشاهر المغرب) ورسائل سعدية .
(٢٧٠) نسبة الى ايدا وزال بمنطقة اركانه بسوس (تعليق عبدالوهاب بن منصور في الروضة ص٩٩) غير ان المقري يذكر علي الهوزالي وليس محمد بن علي .
(٢٧١) مقري، روضة ١٠٣ .
(٢٧٢) مراكشي اعلام ٤،١ ٢٠ . وانظر ترجمة الهوزالي في هذا الكتاب وفي : مناهل الصفا ص ٢٣٦ وروضة الآس ص٩٩ - ١٠٧ . وانظر بعض اشعاره ايضا في سوس العالمة لمحمد السوسي ص ٧٧ . ومجموعة شعرية لمؤلف مجهول (ملحق مناهل الصفا ص٣٠١) .
(٢٧٣) مقري ، روضة ، ص ٢٦٣ .
(٢٧٤) عبدالودود التازي ، نزهة الأخيار ، ص ١١٥ .
(٢٧٥) روضة ص ١٨٤ .
(٢٧٦) ورد في سوس العالمة ص ٢٢٤ ان المرحوم العابد الفاسي محافظ سابق لخزانة القرويين يتوفر على نسخة من هذا الكتاب وقد توفي هذا الفقيه الخبير بالمخطوطات في اعقاب ١٩٧٥م .
(٢٧٧) ذكر هذا الديوان مع الديوانين السابقين المرحوم محمد مختار السويسي. م س.
(٢٧٨) ابن سودة دليل ص ٣٨٧ .
(٢٧٩) مناهل ص ٢١٦، ودليل ص ٣٨٧ .

(٢٨٠) دليل ٢، ٢٨٧ .
(٢٨١) البوخصيبي ، ابن يجبش ص ٨٥ - ١٠٤ .
(٢٨٢) ابن القاضي درة الحجال ١ رقم ٦٧٩ .
(٢٨٣) ن. م. رقم ٦٢٤ .
(٢٨٤) اليوسي ، فهرست ص ١٣٥ .
(٢٨٥) المحبي خلاصة ١ ، ١١٦ .
(٢٨٦) المقري روضة ص ٣٤٠ - ٣٤١، المحبي م س مراكشي اعلام ٤، ١٩٠ .
(٢٨٧) روضة ص ٣٢٥، ٣٢٦ .
(٢٨٨) روضة ص ٢٢٧ وراجع ما تضمنته هذه الدراسة عن الغسماني في موضوع «الطب» .
(٢٨٩) ابن القاضي م س ٢ رقم ١٠٥٨ .
(٢٩٠) اليوسي - محاضرات ص ٢٨٢ .
(٢٩١) محمد البشير الفاسي ، قبيلة بني زروال .
(٢٩٢) منه نسخة بالخزانة العامة بالرباط عند الفقيه الجليل عبدالسلام بن سودة . (دليل ١ ، ١٤٤) وقد انتقل هذا الفقيه الى عفو الله سنة ١٤٠٠/١٩٨٠ .
(٢٩٣) محمد المكي الناصري ، الدرر المرصعة ص١٤٢ ، و٢٥٨ وابن سودة دليل ١، ١٤٤ .
(٢٩٤) طبع بالرباط ١٣٨٣/١٩٦٤ (المطبعة الملكية) تحقيق اليد عبدالوهاب بن منصور .
(٢٩٥) نشرة الكولونيل جوستينارفي ١٩٣٣/ Archives matct eines nv
(٢٩٦) نشره مترجما الى العربية هوداس ١٩٠١ .
(٢٩٧)محمد مختار السويس ، سوس العالمة ص ٢١٣
(٢٩٨) ن م ص ٢١٩ .
(٣٩٩) سوس العالمة ص ٢١٩ .
نشرة علوش بالرباط ١٩٣٦ .
(٣٣٠) راجع ترجمة ابن القاضي في مناهل الصفا ص١٥٣ وروضة الآس للمقري ص ٢٣٨ - ٢٩٩ ونشر المثاني للقارين ١. ور ٥٦ - ٥٧ ، ومختصر لقط الفرائد له ايضا ص١٥ ، والاعلام للمراكشي ٢، ٩٣ .
(٣٠١) سوس العالمة ص ١٨٣
(٣٠٢) ابن سودة ، دليل ٢، ٢٨٨ .
(٣٠٣) ن. م. ص ٢٩٥ .
(٣٠٤) ن. م. ص ٣١١ .
(٣٠٥) ن. م. ث ٣١٢ .
(٣٠٦) ن. م. ص ٣١٣ .
(٣٠٧) ن. م. ص
(٣٠٨) ن. م. ص
(٣٠٩) ن. م. ص
(٣١٠) ن م ص وانظر فهارس اخرى في نفس المصدر ٣١٤ - ٣١٥ .
(٣١١) بالنسبة للمؤلفات التي وضعت بعد السعديين والتي تعالج تاريخ الأحداث المعاصرة لهم عموما فهي متعددة ، كنزهة الحادي للأفرني (ت. ١١٤٠/١٧٢٨) ، والترجمان المعرب لابي القاسم الزياني (١٢٤٩/١٨٠٩) .
(٣١٢) انظر حالات اخرى ذكرها محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة ص ١٤٢ و ٢٥٨ .
(٣١٣) من الرحلات التي وضعت في القرن ١١/١٧ : انيس الساري لمحمد بن احمد السراج القيسي الملقب بابن المليح الذري الف رحلة عن البقاع المقدسة التي زارها سنة ١٠٤٠/١٦٣٠ سالكا اليها طريق الصحراء . وقيل انه توجد منها نسخة بالخزانة الكتانية (ابن سودة، دليل ٢ ، ٣٣٤) كما اشار الكتاني في سلوة الانفاس ج٣ (حسب المصدر المذكورة ص ٣٤٣) الى رحلة لمحمد بن ابي القاسم بن القاضي(ت ١٠٤٠/١٦٣٠) .
(٣١٤) راجع عن حياته :

Walemena, Recherches geogtaphique; P 42

— Leon l'Africain, Deseription de L'Afrique

— Mas Latries, Relations et counmeae, P 528

— J'caille, la petite histoire du Mavoc. I,48

ـ محمد المهدي الحجوي : حياة الحسن الوزان .

(٣١٥) لقد كان المخطوط الذي حرره الوزان بالايطالية هو الذي نشره راموسيو ، غير ان المخطوط ضاع وفي سنة ١٩٣١ نشرت المكتبة الوطنية بايطاليا طبعة جديدة للكتاب كتبت بايطالية رديئة وبالرجوع الى هذه الطبعة مع الطبعة الأصلية لراموسيو تمكن Epaulard من اعداد نص جيد بالفرنسية مع تعاليق قيمة ثم نشره بباريس وفي جزأين وعلى هذا النص نعتمد .

(٣١٦) Maslatries, Relationset cimmerce وهذا السلطان هو ابن العباس الثاني (٩٤٢ ـ ٩٨٠/١٥٣٥ ـ ١٥٧٢) الذي احتل الأسبان في عهده الشاطىء التونسي .

(١٤٧) المقري ، روضة الآس ، ص١٧١ .

(١٤٨) J. Caille, La petialicae Maioe, 1, 44 .

(٣١٨) روضة الآس ، ص٢١٧ ـ ٢٢٣ . ابن القاضي ، درة الحجال ، ٢ ، رقم ١٣٤٧ . الكانوني ، مجلة المغرب ربيع جمادي ، ١٣٥٥/ ١٩٣٦ ، ص١٥ .

(٣١٩) وضع المؤلف مختصرا لكتابة هذا اسماء كشف الرموز . وقد عثر على نسخة تعود الى العصر السعدي ، واثارت انتباه صاحب هذه الدراسة ، ضمن وثائق معرض المخطوطات بالرباط لسنة ١٩٧٤م .

(٣٢٠) الكانوني، م. س. مجلة دعوة الحق ، يناير، ١٩٦٦، ص١٣٧ .

(٣٢١) روضة الآس. ص٢١٢ ـ ٢١٥ . مراكشي، اعلام، ٢، ١١٤ .

(٣٢٢) افرني ، نزهة ، ص١٤٦ . ناصري ، استقصاء ٥، ٩٢ .

(٣٢٣) م. مختار السوسي ، سوس العالمة، ص١٨٤ .

(٣٢٤) ن م. ص ١٨٥ .

(٣٢٥) نشره المستشرق كولان في ٧٥ ص، وضمنه ترجمة وفهارس ، فصار في ٢١٨ ص (١٥٧) Leon, P 226

(٣٢٦) Ibid. P 227

(٣٢٧) ابن سودة ، دليل، ٢، ٤٦١ .

(٣٢٨) سماه «غنية الرائض» كما في روضة الآس ، ص ٢٩٨ .

(٣٢٩) ذكر الولائي في المباحث ص ١٣٤ ان «المقنع» كان يدرس في عموم المدن والقرى .

(٣٣٠) ابن القاضي ، درة الحجال ، ١، رقم ٦٩٨ .

(٣٣١) روضة الآس . ص ٢٩٨ .

(٣٣٢) مراكشي، اعلام، ٤، ٢٠٦ .

(٣٣٣) ابن القاضي ، لقط الفرائد ، ص١٨٠، ودرة الحجال ، رقم ٦٥٩ .

(٣٣٤) ابن القاضي ، درة الحجال ٢، رقم ١١٦١ .

(٣٣٥) ابن زيدان ، اتحاف ، ٤، ٤٠ .

(٣٣٦) درة الحجال، ج١ .

(٣٣٧) الافرني ، صفوة من انتشر ، ص٨٠ .

(٣٣٨) محمد المختار السوسي ، سوس العالمة ، ص ٥١ و ١٨ . افرني ، نزهة ، ص ٢٢١ .

(٣٣٩) السوسي م. س. ص١٨٢ .

(٣٤٠) المراكشي ، اعلام ، ٢ر٤٢ .

(٣٤١) انظر بعضا من مؤلفاته «في سوس العالمة» ص١٨١ .

المصادر والمراجع(*)

ابن زيدان عبد الرحمان :
ــ اتحاف اعلام الناس بجمال اخبارها حاضرة مكناس . الرابط ١٩٢٩ ــ ١٩٣٣ .
ابن سودة عبدالسلام :
ــ دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٦٠ ــ ١٩٦٥ .
ابن عسكر محمد بن علي :
ــ دوحة الناشر في اخبار من كان بالمغرب من اهل القرن العاشر، خزانة عامة ، الرباط ، مخطوط رقم ٧٣ .
ابن العماد الاصفهاني ابو الفلاح عبدالحي :
ــ شذرات الذهب ، القاهرة، ١٣٥١ ــ ١٩٣٢ .
ابن القاضي احمد المكناسي :
ــ درة الحجال في غرر اسماء الرجال، الرباط ١٩٣٤ .
ــ لقط الفرائد ، مخطوط بالخزانة العامة ، رقم٢٧٠ ، الرباط .
ابن ميمون الغماري علي الادريسي :
ــ رسالة الاخوان، خ. ع. مخطوط رقم ٩٥ ، الرباط .
الافرني ابو محمد الصغير :
ــ نزهة الحادي (نص فرنسي) ، ترجمة هوداس ، باريز ، ١٩٦٥ .
البكري ابوعبيد عبدالله :
ــ المسالك والممالك (القسم الخاص بالمغرب) نشرة وترجمة دوسلان ، باريز، ١٩٦٥ .
البلغيثي احمد بن المأمون :
ــ شرح منظومة العربي المساري، القاهرة، ١٣١٩/ ١٩٠١ .
البوخصيبي ابوبكر :
ــ اضواء على ابن يجبش التازي (مخطوط ، طبع على المكررة) .
التازي عبدالهادي :
ــ جامع القرويين ، طبعة اولى ، بيروت .
التمكروتي (كاف معقودة) ابوعبدالله محمد بن علي :
ــ النفحة المسكية في السفارة التركية ترجمة فرنسية لدوكاستري ، باريز ١٩٢٩ .
التمنارتي عبدالرحمن الجزولي :
ــ الفوائد الجمة باسناد علوم هذه الأمة . شارتر ، فرنسا ١٩٥٣ .
الحوات ابوالربيع سليمان :
ــ البدور الضاوية في التعريف باهل السادات ، الزاوية الدلائية . مخطوط خ. ع. الرباط .
داود (محمد...) :
ــ تاريخ تطوان، ج١، المطبعة المهدية ، تطوان، ١٣٧٩/ ١٩٥٩ .
الدرعي الدليمي محمد بن محمد :
ــ نوازل الدرعي، مخطوط خ. ع. رقم ١٠٧٢ ، الرباط .
الرجراجي عيسى بن عبدالرحمن الكستاني :

(*) ذكرت مصادر ومراجع اخرى في بعض التعاليق بقصد الاستئناس او التوسع لمن يرغب في ذلك من القراء .

ـ نوازل الرجراجي، م. خ. ع. رقم ٨٤، الرباط .
الزركلي خير الدين :
ـ الاعلام ، القاهرة، ١٣٧٣ ـ ١٣٧٨ (١٩٥٤ ـ ١٩٥٠) .
- زروق احمد البرنونسي :
ـ شرح رسالة ابن ابي زيد القيرواني ، القاهرة، ١٣٣٢/ ١٩١٤ .
السراج محمد بن محمد :
ـ الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تونس ١٩٧٠ .
السوسي محمد المختار :
ـ سوس العالمة. المحمدية ١٣٨٠/ ١٩٦٠ .
العثماني محمد بن اسحاق :
ـ تقييد حول الدولة العثمانية (ملحق بمناهل الصفا . انظر الفشتالي) .
عياض بن موسى اليحصبي :
ـ ترتيب المدارك (في تراجم المالكية) . وزارة الأوقاف ، المغرب ، ١٩٦٥ ـ ١٩٨٣ .
الفاسي ابوزيد عبدالرحمان :
ـ ازهار البستان في مناقب ابي محمد عبدالرحمان (العارف الفاسي) ، مخطوط خ. ع. رقم ٢٠٧٤ . الرباط .
ـ الأقنوم في مبادىء العلوم . مخطوط خ. ع. رقم ٢١. الرباط .
ـ تحفة الأكابر في ترجمة الشيخ عبدالقادر (والد المؤلف) ، مخطوط خ. ع. الرباط .
الفاسي عبدالكريم بن المجذوب :
ـ تذكرة المحبين (او المحسنين) في وفيات الأعيان وحوادث السنين . مخطوط خ. ع. رقم ٢٧٠ ، الرباط .
الفاسي محمد :
ـ الأدب الشعبي المغربي الملجون . مجلة البحث العلمي ، عدد ١ ، الرباط ، ١٣٨٤/ ١٩٦٤ .
الفاسي محمد البشير :
ـ قبيلة بني زروال. منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ، ١٩٦٢ .
الفشتالي ابوفارس عبدالعزيز :
ـ مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفا ، تحقيق عبدالله كنون ، المركز الجامعي للبحث العلمي . الرباط ، ١٣٨٤/ ١٩٦٤ .
القادري محمد بن الطيب :
ـ نشر المثاني في اعيان القرن الحادي ، مخطوط خ. ع. رقم ٢٢٥٣ ، الرباط .
ـ مختصر التقاط الدرر ، مخطوط خ. ع. ١٨٤ ، الرباط .
القلقشندي ابوالعباس احمد بن علي :
ـ صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية ، القاهرة .
الكانوني محمد العبدي :
ـ الطب بمراكش ، مجلة المغرب ، ربيع ـ جمادى ١٣٥٥/ ١٩٣٦ ، الرباط .
الكتاني محمد بن جعفر :
ـ سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ، فيمن اقبر من العلماء والملحاء بفاس ، طبع حجري . فاس ١٩١٦ .
الكلالي (كاف معقودة) الورياغلي ابوسالم ابراهيم :
ـ تنبيه الصغير من الولدان ، مخطوط خ. ع. رقم ٥٧١ ، الرباط .
مؤلف مجهول :

ـ مجموعة شعرية لأدباء مغاربة ، من العصر السعدي ، ملحق بمناهل الصفا (انظر الفشتالي) .
مؤلف مجهول :
ـ مختصر في التاريخ ، مخطوط خ. ع. رقم ٢١٥٢ ، الرباط .
المحبي محمد :
ـ خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر . القاهرة، ١٢٨٤/ ١٨٦٧ .
المراكشي عباس بن ابراهيم :
ـ الاعلام بمن حل بمراكش من الاعلام . فاس ١٣٥٥/ ١٩٣٦ . وقد جدد طبعه في السنوات الأخيرة باشراف الاستاذ عبدالوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، الرباط .
المقري التلمساني احمد بن محمد :
ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . القاهرة ، ١٣٦٩/ ١٩٤٩ .
ـ روضة الآس، بتحقيق عبدالوهاب بن منصور، الرباط ١٣٨٣/ ١٩٦٤ .
المنوني محمد :
ـ لائحة مخطوطات الزاوية الناصرية (زاوية تمكروت) ، مطبوع بالمكررة . وقد تم نشره مؤخرا على يد وزارة الأوقاف المغربية .
الناصري احمد بن خالد :
ـ الاستقط لدول المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦ .
الناصري محمد المكي الدرعي :
ـ الدرر المرصعة باخبار اعيان درعة ، مخطوط خ. ع. رقم ٢٦٥ ، الرباط .
الولائي احمد بن يعقوب :
ـ مباحث الأنوار ، مخطوط خ. ع. رقم٢٣٠٥ ، الرباط .
الونشريسي احمد بن يحيى:
ـ المعيار (في فتاوي المالكية) . طبع حجري ، فاس . وقد نشرته وزارة الأوقاف المغربية مؤخرا .
اليوسي ابو علي الحسن بن مسعود :
ـ الفهرست ، مخطوط خ. ع. الرباط ، رقم ٣٢ .
ـ المحاضرات ، مخطوط خ. ع. الرقاط، ١٢٣٤ .
ـ من اهم فهارس المخطوطات والوثائق المرجوع اليها : فهرس مخطوطات الخزانة العامة بالرباط ، وهو مطبوع . وفهارس مخطوطات الكلاوي ، والكتاني ، ووثائق القرويين . وكلها طبعت بالمكررة سنة ١٩٧٣ (مديرية الشؤون الثقافية/ وزارة الثقافة حاليا) .

Bodin (Marcel) :
— La Zawiyade Tamagrout, in Archives Berberes, Vol. 3/1918
Caillé (J.)
— La petite histoire du Gbaror, Casoblance Delphin (G.)
Deverdun (Gaston) :
— Marrakech des origines à 1912, Rabat, 1959
Justinard (Colonel) :
— La rihla du marabout de Tassaft, Paris, 1942
Léon l'Africain (J.) :
— Description de l'Afrifue, 2 Vol. Paris, 1959
Mas Latric (L. De —) :
— Traités de paise et de Commerce... Paris, 1866
Walckenaer (C.A.) :
— Recherches géographifues sur l'Afrique Septentrionale, Paris, 182.

المحتويات

بحوث التاريخ الحديث والمعاصر :

بحوث التاريخ العربي الاسلامي

بحوث الارشيف والوثائق والتراث والمخطوطات

١٣ـ المحافظة على الارشيف
د. محمد ابو سليم

١٤ـ التعليم والمعلومات في مجال الأرشيف في الوطن العربي
السيد فهد ابراهيم العسكر /مدير مركز الوثائق/ معهد الادارة العامة الرياض

١٥ـ الوثائق في المملكة المغربية
السيد سالم عبود الالوسي مدير المركز الوطني للوثائق سابقا /بغداد

١٦ـ رسالة في اوجاع الاطفال/ لابى على بن احمد بن عبد الرحمن بن مندوية تحقيق ودراسة
الاستاذ الدكتور داود مزبان الثامري كلية الطب جامعة بغداد

سيرة مؤرخ

١ ـ الدكتور حسين على محفوظ

عروض الكتب ونقدها

١ ـ ذكر بلاد الاندلس — عرض : د. محمد عبد الحميد عيسى

٢ ـ اثر الاقطاع في تاريخ الاندلس السياسي — عرض : ابراهيم القادري يوبتشنيش

٣ ـ الحضارة العربية طابعها ومقوماتها العامة — عرض : فؤاد فزانجي

٤ ـ موارد بيت المال في الدولة العباسية — عرض : د. محمد جاسم المشهداني

٥ ـ التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي — عرض : ندى نعمان السعدي

٦ ـ علاقات الدولة الغزنوية بالبويهيين والخلافة العباسية — عرض : علاء ادهام فاصل

٧ ـ جمهورية الريف في مراكش ١٩١٩ ـ ١٩٢٦ — عرض : كفاح كاظم الخزعلى

٨ ـ الخدمات الصحية في العراق خلال العصر العباسي — عرض : جعفر حسن صادق

٩ ـ المدن القديمة في الجزائر — عرض : سامي سعيد الاحمد

بيان اتحاد المؤرخين العرب حول الحرب العراقية الايرانية .

الوضع السياسي - العسكري للدولة العثمانية عام ١٨٣٦
في ضوء تقرير الجنرال الألماني
Helmuth Von Moltke(١٨٠٠ - ١٨٩١)

ترجمة وتعليق
د. نظام العباسي
دائرة التاريخ / جامعة اليرموك

منذ قيام بروسيا في القرن السابع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، لم يستطع اي مواطن الماني خارج اطار ما يسمى بـ«دائرة الأفراد المرغوب بهم سياسيا Personalpolitische erwunschten Kreise»[١] ، الذي يضم بشكل اساسي ابناء الأسر الاقطاعية (Adel) ، اللحاق باحدى الوظائف الرفيعة في السلك الدبلوماسي الألماني او الارتقاء الى مرتبة عالية في الجيش . ويمكن معرفة نسب الفرد بسهولة عند قراءة كلمةvon بعد اسمه الأول . ويبدو ذلك واضحا عند ملاحظة اسماء الشخصيات الألمانية التي لعبت دورا بارزا في تمثيل بلادها في الشرق ، وخاصة لدى الباب العالي خلال القرن الماضي حتى نهاية الحرب العالمية الأولى[٢] .

واشهر هذه الشخصيات على الاطلاق الجنرال Helmuth von Miltke ، مبعوث بروسيا لدى الباب العالي في ثلاثينات القرن الماضي . ولم يكتسب هذه الشهرة للدور المهم الذي لعبه في خدمة بلاده فحسب ، بل لأنه فوق ذلك كان احد اهم الشخصيات الألمانية التي لفتت انتباه المانيا نحو الدولة العثمانية من خلال تقاريره المشهورة التى تسمى «بالرسائل» الى الوطن .

وقبل الحديث عن رسائله لابد من التمييز بين هذه الشخصية وولده الذي يحمل الاسم نفسه والذي وصل الى مرتبة جنرال في الجيش الألماني ايضا . ويميز الألمان بينهما من خلال وضع كلمة الكبير في نهاية اسم الأب[٣] . والصغير في نهاية اسم الابن الذي عاش بين عامي ١٨٤٨ و١٩١٦م .

كانت تقارير Von Moltke الى الوطن تأخذ صورة رسائل موجهة الى والدته واصدقائه ونشرت هذه التقارير تحت عنوان : رسائل حول الأحوال والمعطيات في الدولة العثمانية بين عامي ١٨٣٠ و١٨٣٩[٤] . وقد رأيت ان اقدم للعربي الذي يعني بالتاريخ وخاصة الحديث منه ، تقريرا حول الأحوال السياسية العسكرية للدولة العثمانية عام ١٨٣٦ ، لأهمية التقرير في حد ذاته من جهة ولأهميته في معرفة احوال الدولة العثمانية في ذلك العام من جهة اخرى . ولا عجب فهو نتاج شاهد عيان محنك شارك في صنع الأحداث وفهم من خلال ذلك طبيعة الصراع التاريخي بين الشرق والغرب وعرف كيف يخدم بلاده باخلاص .

استطاع محمد علي باشا في عام ١٨٣٦ السيطرة على الغالبية العظمى من املاك السلطان العثماني العربية ، واستطاعت فرنسا السيطرة على قلب الساحل العربي لشمال افريقيا ، ناهيك عن ثورات البلقان واستقلال اليونان بالاضافة الى التغيرات الجذرية في السياسة الداخلية اذ القيت الانكشارية وبدأ السلطان محمود الثاني بناء جيش جديد وليس من شك في ان هذه التطورات والأزمات لم تكن لتتم بمعزل عن تأثير القوى الأوروبية في املاك دولة الرجل المريض .

اما المانيا فكانت حتى ذلك الوقت من اصغر القوى الأوروبية نتيجة لما كان بين امراء اقاليمها المختلفة من فرقة ونزاع الى ان استطاع بسمارك بروسيا توحيدها ، فغدت قوة يحسب حسابها . وهكذا تزداد قيمة هذه التقارير التي كتبها Von Moltke بعد ان توحدت المانيا واصبحت قوة فاعلة تطالب بمستعمرات اسوة ببقية الدولة الأوروبية - تحت شعارها المعروف . مكان تحت الشمس ، والذي بلا شك كان Von Moltke قد ساهم في صياغته[٥] .

يقول Von Moltke في تقريره الذي كتبه في pera[6] في ٦ نيسان عام ١٨٣٦ : «شغلت جيوش الغرب منذ زمن بعيد بايقاف زحف القوات العثمانية بينما ينصب اهتمام السياسة الأوروبية الآن على تحديد مدة بقائها ، وحتى وقت قريب ، كان المرء ينتابه الخوف بان يكتسح الدين الاسلامي الغرب بنجاح باهر كالنجاح الذي حققه في الشرق . لقد اجتاح خلفاء الرسول دولا متعددة كانت المسيحية منذ مئات السنين متجذرة فيها ، حتى ان عواصم الرسل كورينت (Korinth) وافيسوس (Ephesus) الكلاسيكية كنيشا (Nicaa) ، ومدن المعابد والكنائس كأنتيوخين (Antioehien) ونيكوميدين (Nikomedien) والاسكندرية رضخت لهم .

بل ان بلاد مهد المسيح وقبر اليشوع ـ فلسطين والقدس اطاعت الكفار[7] رغم انف فرسان الغرب آنذاك ولم يبق عليهم آنذاك سوى انهاء الدولة الرومانية وكنيسة صوفيا ، التي اجل فيها السيد المسيح والروح القدس حوالي الف عام ، ان يعبد فيها الله ويصلي على الرسول[8] .

كان ذلك الوقت الذي استمر فيه النزاع الديني وفشل الاصلاح بين الكاثوليك واليونان وبذلك خرج حوالي ٤٠ مليون مسيجي من سلطة البابا . في ذلك الوقت تقدم المسلمون بنجاح حتى وصلوا الى مدينة شتاير مارك Steiermark وسالتسبورغ Saltzburg وقد هرب امام زحف المسلمين اهم امراء ـ الملك الروماني ـ من عاصمته ، وكاد ان يقام للمصطفى مسجد في فينا باهمية صوفيا لبيزنطة .

في ذلك الوقت ، حكم الباشا العثماني المنطقة الممتدة من الصحراء الافريقية في الجنوب حتى البحر الكاريبي ، ومن المحيط الهندي حتى الأطلسي . اما فينيسيا والامبراطورية الألمانية فدفعتا الجزية للباب العالي . لقد خضع لهم ثلاثة ارباع محيط البحر المتوسط ، بالاضافة الى نهر النيل والفرات حتى ان نهر الدانوب كان قد خضع لهم تقريبا ، وسلكوا بحر الأرخبيل والبحر الأسود وبعد ذلك باقل من مائتي عام ترتسم امام أعيننا صورة انحلال هذا الرايخ عن قريب كما هو ملحوظ .

في كلتا عاصمتي العالم العظيمتين استنبول وروما عمل المرء بالوسيلة نفسها للوصول الى الغاية نفسها : وحدة العقيدة للوصول الى القوة اللا محدودة . ولكن نرى سانت بيتر St. Peter وورثة الخلفاء العظام يتساوون بالغرق في ضعفهم .

لقد فازت اليونان باستقلالها ، اما امارات ملداو Moldau وفلخاي Walchei وصربيا Serbien فلا تتبع الا شكليا للباب العالي ، حتى ان العثمانيين يرون قدراتهم محجمة للسيطرة على ولاياتهم . وهكذا فمصر دولة عدوة اكثر من كونها قطرا مستقلا عن السلطان العثماني . اما بلاد الشام واضنة وكريت التي كلف احتلالها العثمانيون حوالي خمسة وخمسين هجوما وسبعين الف روح مسلم فقد ضاعت اليوم بدون مقاومة وسيطر عليها احد الباشاوات الثائرين .[10] .

ان السلطة التي فرضها العثمانيون من جديد في طرابلس مهددة بالضياع ، اما بقية الدول الافريقية التي تطل على البحر المتوسط فقد قطعت علاقاتها تقريبا مع الباب العالي ، وليست فرنسا بحاجة لأكثر من ارادة لكي تحتفظ باجمل بلدان هذا الساحل[11] . وهكذا يتطلع الفرد الآن الى برلمان St. James[12] لمعرفة مستقبل هذه المنطقة وليس الى ديوان استانبول .

واخيرا لا حول ولا قوة للسلطان العثماني في السيطرة على المنطقة العربية ـ حتى ولا الاماكن المقدسة فيها . وقد خفت حدة احترام الناس لهذه السلطة حتى في المناطق التي مازالت خاضعة للسلطان . ففي بلاد الرافدين يبدي الناس عدم اهتمام واحترام للسلطة العثمانية . فالايانز Ayans[13] على ضفاف البحر الأسود وموسينيا يهتمون برغباتهم اكثر من اهتمامهم بارادة السلطان ورغبته . وفي المدن البعيدة عن استانبول صكت عملة محلية وجرى العمل بقوانين محلية تجعل هذه المناطق مستقلة تماما (عن السلطان العثماني ن.ع) وهكذا تتألف الدولة العثمانية في الواقع هذه الأيام من ممالك وامارات وجمهوريات متنازعة لايربطها رابطة سوى العادات والتقاليد ، اضافة الى وحدة الدين (القرآن) ولو رغب احدهم الرضوخ الى قوة اخرى لما فكر بالرضوخ الى السلطان .

منذ زمن طويلة شغلت الدبلوماسية الأوروبية الباب العالي بحروب بعيدة عن مصالحهم واجبرته في كثير من الأحيان على معاهدات سلام كلفته التخلي عن بعض مقاطعاته ، ولكن الدولة تعرف ان عدوها الرئيسي في الداخل[14] هو الذي يخيفها اكثر من الجيش والأساطيل الخارجية .

ولم يكن السلطان سليم الثالث اول سلطان عثماني يضحي بعرشه وحياته في نزاعه مع الانكشارية ، بل ان خليفته عانى المشكلة نفسها لذلك حبذ القيام بمخاطرة الاصلاحات بدل ان يحمي نفسه من الانكشارية من خلال التعاون معهم ، ولم يصل لهدفه الا بعد ان اراق دماء كثيرة .

فالسلطان العثماني يفتخر بانه استطاع القضاء على الجيش التركي[15] ، ولكن القضاء على الانتفاضات في شبه جزيرة (Hellenischen) في البلقان اجبرته على البحث عن قوة اخرى ، وهنا نسيت ثلاث قوى اوروبية مشاكلها المذهبية وضحت بجزء من اساطيلها ورجال بحريتها لتحطيم اسطول السلطان العثماني[16] وبذلك فتحت الطريق امام روسيا القيصرية للوصول الى قلب الدولة العثمانية وكان ذلك على عكس ما تمنته هذه الدول[17] وقبل ان تضمد الدولة العثمانية جراحها ، نرى باشا مصر[18] يقتحم بلاد الشام مهددا حفيده بالفناء .

كما ان الجيش الجديد الذي تصدى للمتمردين اضعفه الجنرالات الذين انغمسوا في ملذات نساء القصر (Harem)[19] ونتيجة لذلك طلبت تركيا مساعدة فرنسا وبريطانيا ، الدولتين اللتين عدتا انفسهما الصديقتين الطبيعتين للباب العالي لكن الباب العالي لم يحصل منهما الا على مساعدة كلامية ، لذلك طلب السلطان محمود الثاني مساعدة عدوته روسيا القيصرية التي ارسلت له سفنا ونقودا وجيشا .

في ذلك الوقت توجهت انظار العالم قلقة الى لعبة الخمسة عشر الف روسي الذين عسكروا في مرتفعات القسطنطينية لحماية السلطان العثماني من المصريين وقد سيطر القلق على الجميع : فالعلماء عدوا التحديث تقليصا لنفوذهم ، وضج الجميع من ارتفاع الضرائب ، كما ضج آلاف من جنود الانكشارية الذين كانوا يخافون حتى من ذكر اسمائهم، وآلاف من اقاربهم واصدقائهم الذين تضرروا وطردوا وتوزعوا في البلاد وخاصة في العاصمة .

اما الأرمن فلم ينسوا بعد ملاحقة الدولة لهم ، وقد عد مسيحيوا اليونان - وهم نصف سكان تركيا قديما - السلطان العثماني عدوا ، بينما الروس اخوانا في الدين . لذلك لم تكن تركيا تستطيع بناء جيش (تعتمد عليه بعد ن.ع) .

في هذا الوقت وقفت فرنسا وبريطانيا الى جانب تركيا محذرتين لروسيا ، بينما ازداد التفاهم اكثر ، نتيجة (تدهور) الموقف في غرب اوروبا مع روسيا اكثر من اي وقت مضى . وقد اوصلت جيوش عربية الرايخ العثماني الى الهاوية واخرى انقذته . واراد السلطان العثماني ، في هذه الحال ، بناء جيش وطني، فاستطاع بمشقة كبيرة تجنيد سبعين الف رجل في جيش نظامي . ولكن الى اي مدى يستطيع هذا الجيش حماية ممتلكات الباب العالي او استردادها ؟ توضح الخريطة ذلك[20] ان حقيقة توزيع (القوات العثمانية ن.ع) حال دون تحقيقها مهاما صعبة ، فالوحدات العثمانية في بغداد - تبعد ٣٥٠ ميلا عن سكودر Skodro في البانيا . ومن هنا تكمن حقيقة اهمية بناء قوات شعبية Miliz في الدولة العثمانية الأمر الذي يتطلب عدم تناقض مصالح الحاكم والمحكوم .

ان الجيش العثماني الآن هو بناء جديد على قديم ، ولذا فقواعده ، مخلخلة والباب العالي يعتمد في هذه الأيام على المعاهدات (مع الدول الأجنبية ن.ع) لا على هذا الجيش لحماية نفسه وحماية مقاطعاته في الأردينين Ardennen او في جبال الولاداي Waldai من الضياع .

تحتاج الدولة العثمانية قبل كل شيء الى جهاز اداري منظم ، اذ ان الجهاز الحالي لا يمكنه على المدى البعيد تنظيم حتى تغذية جيش ضعيف تعداده سبعون الف رجل . ان فقر البلاد قد عكس نفسه على دخل الدولة .

فعلى الرغم من جبايتها لا لأموال غير مباشرة (من الشعب ن.ع) فهناك ضريبة الذبح . وطحن القمح التي فرضت وتجبى من قبل الدولة في شوارع العاصمة . ويدفع صيادي الأسماك ٢٠ ٪ من ناتج صيدهم ، ويجب ان يصادق على المقاييس والأوزان كل عام [٢١] وكذلك يجب ان تصادق الدولة على جميع المنتوجات المهنية من الشال حتى الحذاء . ويبدو ان هذه الضرائب كانت تثري جباتها فقط .

ومحصول هذه الضرائب لا يعود الى الدولة بل الى الادارة الجشعة ولا يحصل المسيطر على ثلاثة اجزاء من العالم[٢٢] الا على الحسد . والحد من اطماع هؤلاء الجشعين لم يبق امام الحكومة سوى مصادرة ميراثهم[٢٣] واقتطاع جزء من املاكهم ، ثم بيع هذه الوظائف ، واخيرا بيع مخزون هداياهم[٢٤] للحد من التضخم .

ما يخص ميراث وظائف موظفي الدولة فقد اقر السلطان منع توريثها . ولكن غير ان ذلك لم ينفذ على ارض الواقع . اما في السابق فكانت السيطرة على الأملاك تقر حال الحكم على المعنى بالاعدام . ولكن الصيغ الآن اختلفت بشكل انتهازي للسيطرة على جزء من املاك الأثرياء الكبار بدون اعدامهم .

مدخول الدولة الكبير مازال يأتي من بيع الوظائف وكان على من يرغب في الحصول على وظيفة ان يدفع مبلغا اكبر للدولة يودعه في احد متاجر الأرمن ، وكانت الدولة لا تتدخل في شؤون الجنرال - الذي يتصرف بهذه الأرض او كيفية حصوله على الأموال عن طريق الابتزاز . ولكن الدولة كانت لا تفسح له الوقت الكافي ليصبح ثريا ، لأنهم سيخشونه اذا اصبح غنيا . وكانت الولايات المتحدة تعرف بان قدوم الباشا الجديد يعني نهبا اكثر من السابق ولذك كانوا يستعدون لمثل هذا الأمر ، وعند قدوم الوالي الجديد كان يبدأ محادثاته معهم وفي حال عدم الوصول الى اتفاق كان يعلن الحرب عليهم ، وبذلك تزداد القلاقل اتساعا . وحين كان الباشا (الوالي الجديد ن.ع) يتفق مع اعيان المقاطعة ، كان يبدو تخوفه من الباب العالي . وهكذا كان يسعى الى عقد اتفاقيات مع زملائه في المرتبة ليساعدوا بعضهم بعضا . وكان السلطان يفاوض الولاة المجاورين عند تعيين وال عليها قبل اقراره . وفي بعض البشالك ، وعلى الرغم من انفصال الادارة التنفيذية الحربية ، الا انهم كانوا يتلاقون في تحايلهم على دفع التزاماتهم من الضرائب للخزينة العامرة .

ان الهدايا هنا عادة شرقية ، ولا يستطيع الأقل مرتبة الوصول الى الأعلى الا من خلال تقديم الهدايا[٢٥] ، ومن يرغب في الحصول على حقه ، عليه تقديم هدية للحاكم . كان الضابط والموظفون يكتفون بالهبات . بينما كان السلطان هو اكثر من يتقبل الهدايا .

وقد استغل تخفيض قيمة العملة أسوأ استغلال[٢٦] فقبل اثنى عشر عاما كان التالر Taler الأسباني يساوي ٧ قروش ، بينما يشتريه المرء اليوم بواحد وعشرون قرشا . ومن ملك آنذاك ثروة بقيمة ١٠٠ الف تالر يرى اليوم بانه يملك ثلاثة وثلاثين الفا فقط .

ان هذه الخاصية في تركيا ذات اثر ملموس اكثر مما يلمس في البلدان الأخرى ، لأن الرأسمال لم يستمثر عادة في الأرض[٢٧] والثراء هنا يتوقف على مدى كمية الفلوس (التي يملكها المرء ن.ع) . في البلدان الأوروبية تقيم الثروة من خلال الأشياء الثمينة التي يملكها المرء ومن يحصل على ذلك بهذه الطريقة فانه يثري الدولة ايضا ، وثراء المرء يعبر عنه بحجم الحاجيات التي يمتلكها . ففي تركيا فان قطعة العملة Munze هي القيمة نفسها ، والثراء هو حجم كمية الفلوس التي قد تتواجد عند هذا او ذاك بالصدفة .

ان قدم الفوائد المرتفعة جدا والمحددة قانونيا بـ٢٠ ٪ لا يدل على نشاط الرأسمال المتداول وتأثيره ، انه يرى الخطر المرتبط به وهو ان النقود لا تخرج من يد مالكها . ان تهريب العملة هو شرط من شروط الثراء . فالرياح[٢٨] (Rajah) مستعد ان يدفع لشراء قطعة معدن ثمين مائة الف قرش على ان يدفع هذا المبلغ لشراء شركة او مطحنة او مصنع . لا يوجد مكان ما يرغب الناس فيه بشراء قطع الحلي اكثر من هنا ، فالجواهر التي يحملها[٢٩] اطفال صغار لعائلات غنية دليل ساطع على فقر هذه البلاد[٣٠] .

اذا كان أهم شروط نجاح الحكومة هو الحصول على ثقة الشعب ، فان الادارة العثمانية تفتقر الى ذلك .

فتعاملها مع اليونان ، وملاحقتها غير العادلة والمجرمة للأرمن ـ هؤلاء القوم الأغنياء والمخلصون للباب العالي ، وغير ذلك من الاجراءات العنيفة مازالت ماثلة للأذهان ، وتجعل المرء يفكر في استثمار رأسماله بطريقة تتناسب مع الظرف . ففي بلد ينقص فيه عنصر النشاط المهني يتحول النصيب الأكبر من اقتصاده الى تجارة يبادل فيها الانتاج الخارجي للمصنع بخامات اولية محلية .

وهكذا تدفع تركيا ١٠ اوقة[٣١] حرير خام مقابل اوقة واحدة مصنعة من المادة نفسها المنتجة على ارضها ونجد الحالة أسوأ عند النظر الى الانتاج الزراعي : يسمع المرء كثيرا في استانبول الاتهامات بان اسعار المواد الغذائية ارتفعت اربعة اضعاف ، منذ القضاء على الانشكارية ، كلعنة ربانية بسبب القضاء على هؤلاء القوم ، حماة الاسلام . ان الواقع صحيح (بان اسعار المواد الغذائية ارتفعت اربع مرات ن.ع) ولكن السبب واضح وهو انه منذ ارتفاع الأسعار لم يصل مخازن القمح في العاصمة شيء من مولداو Moldau وفلخاي Walachei ومصر بينما كانت هذه المناطق من قبل مجبرة على توريد نصف محصولها الى البسفور .

وفي داخل البلاد[٣٢] لا يهتم كثيرون بزراعة القمح ، لأن الدولة تحدد اسعار بيعه . ان اجبار الحكومة الفلاحين على بيع حبوبهم لها هو الشر الكبير لهذه الدولة ويؤدي الى ما ينتج عن الحريق والطاعون معا . وبذلك لا يهدم الثراء فقط ، بل يحبط كل نبع ينتجهما .[٣٣] .

وهكذا يحدث حين تجبر الدولة على ابتياع الحبوب من اوديسا[٣٤] بينما تبقى مساحات خصبة من الأرض تحت سماء مباركة تبتعد (مسافة ن.ع) ساعة عن ابواب مدينة يقطنها ٨٠٠ الف نسمة بدون زراعة .

لقد ماتت العناصر الخارجية لجسم هذه الدولة العظيمة ، وتقلصت امكانية الحياة واحاطت بالقلب[٣٥] ، فان اضطرابات في شوارع العاصمة ستؤدي الى جعل الدولة العثمانية جثة هامة .

وسيرى المستقبل ما اذا استطاعت دولة تغرق بهذه الصورة ان توقف انهيارها وتعيد الحياة الى اجهزتها ، فاذا كان الرايخ المحمدي ـ البيزنطي مثل المسيحي[٣٦] ـ البيزنطي سيواجه القدر نفسه (وهو النهاية ن.ع) بسبب ادارته السيئة ويبدو ان نهاية تركيا على يد دولة اجنبية لا يقلق مضاجع اوربة ، وانما ضعفها الشديد وخطر انهيارها من الداخل .

هوامش البحث

(١) زيادة على ذلك انظر :

Gonze, W.und Lepsins, M.R. (Hrsg) :
Sozialgeschichte der Bundrsrepublik Seutschlanc,
Stuttgart, 1983, S. 401.

(٢) ومن هؤلاء مثلا Max von Oppenheimer مبعوث القيصر الألماني في نهاية القرن الماضي في القاهرة و Werner O.von Hentig المفوض السياسي الألماني في افغانستان والدولة العثمانية رئيس القسم السياسي التابع لوزارة الخارجية الألمانية منذ مطلع القرن العشرين حتى عام ١٩٣٧ . انظر :

(٣) الذي يعد من اكبر ابطال المانيا ويضعه المؤرخ الألماني Van Kampen بانه متساوي في وعي الرأي العام الألماني مع عظام المانيا الأبطال في مرتبة القياصرة والمستشارين ومارشالات الميدان : وقال عنه اللورد الانجليزي Morly في نهاية القرن الماضي في البرلمان «ان ما استطاع Von Moltke انجازه لشيء مبهر اما كتاباته فلها موقع عجيب في التأثير في ابناء بلده»
انظر :

ولو القينا نظرة سريعة على مراحل حياته العملية فاننا نجد انه بدأها ضابطا في الجيش الألماني ، ثم مستشارا وخبيرا عسكريا في الجيش العثماني بناء على طلب السلطان العثماني عام ١٨٣٠ وقد شارك في معركة نيصيب ضد ابراهيم باشا ـ مستشارا ـ لقائد الجيش العثماني حافظ باشا . وهو الذي وضع الخطط العسكرية للجيش البروسي في حرب الوحدة الألمانية ضد فرنسا والنمسا بين عامي ١٨٦٨ و ١٨٧٣م . وما زالت خططه العسكرية في هذا الاطار تدرس في الكليات الحربية الألمانية . انظر :

(٤) صدرت هذه الرسائل على شكل مجلد لأول مرة عام ١٨٤١ تحت نفس العنوان ، ولكنها في ذلك الوقت لم تلفت انتباه الجمهور الألماني ، الا بعد أن اصبح Von Moltke من اشهر اعلام وابطال المانيا من خلال عمله كرئيس للقيادة العامة الألمانية ، حيث طبعت في عام ١٨٩٣ ستة مرات وصدرت الطبعة السابعة عام ١٩١١ وطبعة مرة اخرى عام ١٩١٧ و١٩٢٣ و١٩٦٨ و١٩٨١م . انظر المقدمة :

(٥) انظر :

(٦) من اعمال الأناضول

(٧) ويعني بذلك المسلمين

(٨) يعني بذلك تحويل كنيسة ايا صوفيا المشهورة الى مسجد من قبل الأتراك العثمانيين .

(٩) وتقع ضمن اطار دولة النمسا حاليا .

(١٠) ويعني بذلك محمد على باشا .

(١١) المعني بذلك الجزائر .

(١٢) المقصود بذلك البرلمان الفرنسي .

(١٣) أي الأعيان ـ او الاقطاعيين في المناطق .

(١٤) المقصود بذلك محمد علي باشا والانتفاضات من قبل الاقليات في الدولة العثمانية (مثل ثورات البلقان وغيرها) .

(١٥) المقصود بذلك الانكشارية .

(١٦) المقصود بذلك معركة نافارين البحرية ١٨٢٧ التي حطم فيها الاسطول العثماني بالاضافة الى الاسطول المصري الذي هب لنجدة القوات الفرنسية التي عملت آنذاك على اخضاع ثورة اليونان .

(١٧) على الرغم من ضعف الدولة العثمانية بعد هزيمتها في معركة نافارينو على يد القوى الأوروبية الا ان هذه الدول لم تنظر بعين الارتياح لاطماع روسيا القيصرية في جسم الدولة العثمانية .

(١٨) اعني بذلك محمد علي باشا حاكم مصر ١٨٠٣ ـ ١٨٣٧ .

(١٩) كما حدث في معركة كونيا Konia في آسية الصغرى في شتاء عام ١٨٣٢ م .

(٢٠) ويعني بذلك واقع الدولة العثمانية على الطبيعة .

(٢١) اي ان تحصل الدولة على ضرائب هذه المنتجات .

(٢٢) المعني بذلك هو السلطان العثماني الذي تمتد املاكه على ثلاث قارات : آسية وافريقية واوروبا .

(٢٣) كانت بعض الوظائف تورث من الآباء الى الأحفاد مع كل ما يتبع ذلك من امتيازات مادية ومعنوية .

(٢٤) كانت الدولة تحتفظ بمخزون كبير من الذهب وهذا هو المقصود كما يبدو لي من كلمة هدايا .

(٢٥) المقصود هنا الرشوة .

(٢٦) تعبيرا عن التضخم .

(٢٧) يتعارض ذلك مع التطورات التاريخي الاقتصادي العثماني في القرن التاسع عشر حيث يري Flores في كتابة

ان الرأسمال المتوفر لدى الفرد كان عادة يستثمر في الأرض . . الخ

(٢٨) مستخدمين اتراك من غير المسلمين كانوا يحكمون جزء هام من الثروة في الدولة العثمانية .

(٢٩) الزينة .

(٣٠) قارن ما قاله السفير التونسي عن بيع قطع حلي النساء من قبل التجار الأجانب/ دليل الفقر في كتاب السياسة الداخلية .

(٣١) وزن تركي يساوي ١٢٥٠ غراما .

(٣٢) المقصود بذلك اسية الصغرى .

(٣٣) المعني هنا الأفراد الراغبين في الانتاج .

(٣٤) التابعة لروسيا القيصرية .

(٣٥) المعني بذلك عاصمة الدولة .

(٣٦) المعني بذلك الكاثوليك (الباب في روما او الدولة الرومانية) .

فصل من الصراع بين الديمقراطية الدستورية والأوتقراطية الملكية من ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣

د. مصطفى النحاس جبر
مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

تمهيـــد :

اعلان ١٩٢٢ والمتغيرات السياسية في البلاد حتى ١٩٣٠

كان اعلان او تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ يخفي وراءه الخط السياسي لانجلترا ، ذلك ان لها مصالح معينة في مصر وهي بالتالي سبب وجودها الحقيقي في البلد . ومن سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٩١٨ كانت انجلترا تحمي هذه المصالح بالاحتلال الفعلي لمصر ، ولكن احداث ثورة ١٩١٩ وما تلاها كشفت عن ان «طبقات» الموظفين المصريين لم تعد ترغب في الاستكانة للسيطرة البريطانية .[١]

ورأت انجلترا انه اذا اراد المصريون ادارة شؤونهم فلا ينبغي ان يحول دون ذلك مانع منها ، مادامت مصر تعترف بالمصالح البريطانية وتؤمنها ومن هنا كان الاعلان ـ ٢٨ فبراير ـ وتحفظاته[٢] . والمقصود بمصر ... ليس البلاد كلها بطبيعة الحال وانما فئات معينة من السكان ، ذلك ان «الليثي» ـ وهو صاحب فكرة الاعلان ـ اراد توفير الفرصة امام «القومية المعتدلة»[٣]وهم مجموعة «ثروت» ... واصحابه الذين كانوا يتوقون الى الدستورية والبرلمانية سواء عن اقتناع او عن رغبة في تقييد سلطة الملك وتعزيز سلطتهم[٤] .

والواقع ان اعلان ١٩٢٢ كان في الصورة التي وضعها «الليثي» يقول : «ان انجلترا تنظر بعين العطف الى قيام برلمان له الحق في الرقابة على سياسة البلاد وادارتها كما تتمثل في حكومة مسؤولة دستورية[٥] وغاب النص السابق عن الاعلان في صورته النهائية ، لكن هذا لم يغير من الأمر شيئا[٦] . اذ انه كان على «الليثي» ان يتأكد من «بعض التأييد المصري» والزمه هذا بالتأييد لقيام الدستور . فمصر لم تكن واحدة من ممتلكات التاج ، وانما هي محمية لها حكومتها الأهلية فلا حكم للمندوب السامي بدون وزراء وطنيين . ومن هنا كان على انجلترا بعد اعلان ١٩٢٢ . كما كان على «الليثي» ان يؤيدا «ثروت» واصحابه الذين كانوا في الحكم يؤيدهم النفوذ البريطاني[٧] .

كانت انجلترا تعتمد في حكم البلاد على تأييد الأسرة المالكة ، واكد الملك فؤاد هذا حين سأل سير «دافيد كيلي» بان مصالح انجلترا في مصر هي مصالح استراتيجية بحتة ، «فماذا كان علينا ـ اي الانجليز ـ لو أننا تركناه يحكم بلاده كما يعرف على خير نحو مادام بوسعه ألا تمس مصالحنا الاستراتيجية ومواصلاتنا الامبراطورية»[٨] كان «فؤاد» يعني بالسؤال السابق لماذا الدستور ؟ ولماذا مشاركة الآخرين من سكان البلاد في الحكم ؟!.

وواقع الأمور في مصر كان غير ما يتصوره «فؤاد» او الأسرة الحاكمة ... فالانجليز يعلمون ان الملك وحده ليس القوة الوحيدة في البلاد والقادرة على حماية المصالح البريطانية . وانما كان هناك ايضا كبار الأعيان ... او كبار الملاك الذين عادوا في عهد «عباس حلمي» ـ الخديو ـ يطالبون بتقييد سلطة الحاكم عن طريق دستور . على ان هؤلاء بزعامة مصطفى كامل لم يكونوا دستوريين ، وهم في ذلك يشبهون الوطنيين بزعامة «عرابي» ، الذي لم يعارض الخديو لأنه كان يحكم حكما مطلقا ولكن لصلاته الأجنبية[٩] اما المعارضة التي نقصدها لحكم الخديو فجاءت من اعيان الريف الذين اصطدمت رغبتهم في السلطة المحلية في اقاليمهم مع سلطات الخديو

المطلق ، واستطاع هؤلاء استخدام «الانشقاق» بين دار المندوب السامي والخديو بما فيه مصلحتهم ، فقد اعطتهم الجمعية العمومية والمجلس التشريعي اللذان انشأهما «جورست» فرصة المعارضة المنظمة للسلطة التنفيذية[١٠] .

ولم يمض وقت طويل حتى آلت زعامة المجلس التشريعي الى المحامين بدل الأعيان وكان هؤلاء قد عينوا الأولين في بادىء الأمر ، ولكن الأمور انتهت بالمحامين حتى اصبحوا «محترفي» سياسة ، ورغبت لهم نجاحاتهم وشهرتهم الشعبية ان يستقلوا عن زعمائهم الأولين واصبح المجلس التشريعي مجال تدريب سياسيي المستقبل الدستوريين .[١١] .

والحقيقة ان هؤلاء المحامون الذين وصفوا «بمحترفي السياسة» كانوا يمثلون الطبقة الوسطى ـ البرجوازية ـ التي رأست حركة المقاومة ضد الانجليز لأسباب خاصة بطبقتهم ذاتها[١٢] .

ويفسر هذا الانفصال الذي تم بين الأعيان والمحامين او المثقفين ان التغيير الاجتماعي في القرن التاسع عشر ترتب عليه تدمير الاطار الاجتماعي ـ الاقتصادي تماما ، وأنه نتيجة لذلك فان الفصل الشديد بين وحدات التركيب الاجتماعي الاقتصادي قد اختفى تماما وتلاشى ، ولقد رأينا جماعات مختلفة من الطبقات الراقية تدمج في طبقة واحدة ، وبالمثل فقد تمت خفة الحركة بين الطبقات .[١٣] .

وبعد الحرب ـ الأولى ـ واجه الأعيان في مواجه قيام دستور ، الاختيار بين تأييد القصر والتعاون ـ مع ما يسمى ـ السياسيين المحترفين ، الذين ترعرعوا في ظل المجلس التشريعي ، والذين اصبحوا علما على القومية المصرية ـ ومال معظم الأعيان وخوفا من عهد اسماعيل جديد ، الى الوطنيين املا في التسلط على سعد زغلول والمحامين ، فتكون للأعيان السيادة مرة اخرى . وفي وجه هذا التحالف اضطر القصر الى قبول دستور ديمقراطي . وشرع الملك يستميل اليه بعض الأعيان وتوابعهم لتمكين نفسه من ان يلعب دور السيد مرة اخرى[١٤] .

ولقد تكونت لجنة لوضع الدستور ... انطلاقا من المذكرة التى ارفقها «الليسي» للسلطات في صحبة اعلان ١٩٢٢ . وقالت هذه المذكرة : ان ايجاد برلمان له الحق في الرقابة على سياسة وادارة حكومة مسؤولة دستوريا امر تقريره من شأن «السلطات» والشعب المصري وحدهما .. وبناء على ذلك اقيمت لجنة لوضع صحب اعلان ١٩٢٢ نفي سعد زغلول «حتى تتوفر الفرصة امام ما يسمى القومية المعتدلة[١٥] . وسيطر هؤلاء المعتدلون على لجنة الدستور التي رأسها حسين رشدي وهاجم سعد تكوين لجنة وضع الدستور فقال ان الدستور هو من عمل جمعية تأسيسية وليس من عمل لجنة[١٦] .

وكان رشدي رغم قبوله للحريات العامة يميل الى أن ينزل الملك عن حقوق معينة ، وكان ذلك قائما في عقول بعض اعضاء لجنة وضع الدستور الذين كانوا على صلة بعيدة بثروت ووزارته . واما عن رشدي فانه هدف الى اثنتين : اولاهما ، انه وقد انتهت المشكلة الدستورية فان مصر تستطيع ان تجادل مع بريطانيا في النقاط ـ التحفظات ـ الأربعة ، والثانية : انه اذا وقع صدام بين المعتدلين والمتطرفين كما حدث بين سعد وعدلي ١٩٢١ فان الملك ببعض السلطة الدستورية يستطيع ان يبذل نفوذه في جانب المعتدلين .[١٧] .

والواقع ان الملك لم يرد على الاطلاق ان يرتد حاكم دستوريا حتى يتمتع ثروت واصحابه بمزيد من السلطان والنفوذ . فالقصر الملكي قد درج مع الزمن ان يكون قوة في البلاد ، وطالما لم يعلن دستور فالملك محتفظ بسلطات واسعة في المبادرة والتدخل والرعاية وكلها سلطات مضى «فؤاد» يستخدمها للاطاحة برئيس وزرائه ... وناور الملك حول لقب ملك مصر والسودان ، وناور ايضا حول قضية الافراج عن سعد ، وكان في الواقع يظهر غير ما يبطن ، واطيح بثروت واشتد جدل «الليثي» مع الملك . ثم جاءت الوزارة الجديدة ـ توفيق نسيم ـ وعملت على عدم مساس الدستور بسلطة القصر قدر الامكان ثم جاءت الأزمة حول لقب مصر والسودان وارغم «فؤاد» على التنازل عنه ، وسقط «نسيم» وخلفه «يحيى» بعد اكثر من شهر من ازمة وزارية ... وفي النهاية صدر الدستور في ١٩ ابريل ١٩٢٣[١٨] .

والحقيقة ان الدستور المعدل والذي صدر في ١٩ ابريل اختلف عن مشروع الدستور في اكتوبر ١٩٢٢[١١ع] ، فقد اعطى الدستور المعدل سلطات تشريعية وتنفيذية للملك ، والذي يعد من اكبر الملاك حظا من الأرض ، ووفر الدستور السيطرة لكبار الملاك في مجلس الشيوخ[٢٠] .

«ويمكن تخيل مدى المطالب الملكية الأصلية من الامتيازات العريضة التي امنتها له هذه الوثيقة[٢١]» اي الدستور .

وكان اختيار احمد فؤاد ليخلف «حسين كامل» بعد موته عام ١٩١٧ ، جاء على عجل ولم يكن هذا الاختيار نابعا من انه صاحب مواهب خاصة ، ولكن لأنه ليس لديه اصدقاء كثيرين في البلاد ، ومن ثم فهو سيضطر الى الاعتماد على الانجليزي من اجل تأييده[٢٢] .

ومع فترة الحماية ، بعد عزل عباس حلمي ، لم يكن للقصر نفوذ ، ولكن بالغاء الحماية عاد التنافس القديم بين القوميين والسراي[٢٣] .

ومن هنا كان لاعلان ١٩٢٢ ميزة اخرى في تخفيف التوتر ، لا بفعل الاعلان نفسه وانما بظهور السراي كقوة معارضة للقوميين فحاد بنشاط القوميين عن مهاجمة انجلترا[٢٤] .

وكان الملك ذكيا بحيث أدرك ان تصميمه على أن يحكم لا يتحقق الا عن طريق الدس الطويل وحده[٢٥] . ونجح الملك رغم قصر فترة ملوكيته في تعيين وعزل وزرائه وعقد البرلمان وحله ، ونجح الملك باستخدام سلطاته الدستورية بحذق في بلوغ هواه . وهكذا اصبح تاريخ مصر من سنة ١٩٢٣ الى سنة ١٩٣٦ صراعا بين ثلاثة اطراف : القصر والانجليز والوفد . كان هدف القصر هدم الدستور واستعادة اوتوقراطية العائلة المالكة ، وهدف الانجليز الحصول على الموافقة على التحفظات من حكومة مصرية شرعية دستوريا واما هدف الوفد فكان الغاء التحفظات وتحديد سلطة الملك والحد منها[٢٦] .

الملك يتآمر على الدستور :

بعد ان فشلت مفاوضات سعد مكدونالد عام ١٩٢٤ عاد الأول وكان قد اصطدم قبل سفره للمفاوضة مع الملك حول قضية تعيينات الشيوخ وانتصر سعد دستوريا . فلما عاد من المفاوضة ادرك ضرورة تقوية سلطاته ازاء الملك بعد صدامه مع الاحتلال وسعى سعد الى تعيين ما اسماه «ويفل» باشد المتطرفين للقبض على السلطة في البلاد وشل يد السراي . ووقف سعد ضد اجراءات الملك في الدس والتآمر وعدم دستورية بعض الاجراءات .[٢٧] .

غير ان سعدا استقال بعد حادثة السردار وجاء الملك بوزارة غير ذات باع تخفي عقمها وراء سلطان دار المندوب السامي ـ وعلا كعب السلطة البريطانية مع الوزارة الجديدة . ولكنه مع الزمن لم يكن الموقف مما يبعث على ارتياح انجلترا فبديل الوفد الوحيد هو قصر اوتوقراطي يسنده تأييد بريطاني كثيرا او قليل ، لا يلبث ان يسبب المتاعب الداخلية الشديدة ساعة ان يجمع الوفد شمله مرة اخرى . كان يصعب على انجلترا ان تتغاضى عن تحطيم الدستور كرد فعل لما «اقترف» ـ على زعم مارلو ـ سعد وعن عودة اوتوقراطية كانت سبب قدومها الى مصر واحتلالها(*) وبات هدف السياسة البريطانية تشجيع قيام حزب وسط بين الوفد والقصر يستطيع مواجهة الوفد دون حاجة للتحالف مع القصر . وشجعت دار المندوب السامي «زيور» ـ رئيس الوزراء على توسيع قاعدة الوزارة بضم «الأحرار الدستوريين» ولم يكن «عدلي» ولا «ثروت» ولا «محمود» على استعداد لهذا العمل الحساس الدقيق ، قتال الوفد من ناحية ، ومقاومة املاء القصر ودار المندوب السامي من ناحية اخرى .

على ان رجلا واحدا في حزب الأحرار الدستوريين شعر بقدرته على ذلك كله ، هو «صدقي» الذي قبل الوزارة مع «زيور» كوزير للداخلية ، وكان هو رئيس الوزراء الحقيقي . وصمم «صدقي» على حل مجلس النواب باغلبيته الوفدية وبدأ يخلص ادارات الاقاليم من اتباع سعد ، ويعين اتباعا له مكانهم ليضمن الاشراف المناسب على الانتخابات الجديدة .[٢٨]

ورغم حل البرلمان ـ الوفدي ـ في ٢٤ ديسمبر ١٩٢٤ واجراء انتخابات جديدة ، فقد ظهرت المفاجأة حين اجتمع المجلس الجديد في ٢٣ مارس ١٩٢٥ اذ انتخب المجلس سعد زغلول رئيسا . فاستقال «زيور» على الفور ورفض الملك الاستقالة واعلن حل البرلمان الجديد .

وبين حل البرلمان الأخير ومجيء آخر ، اي خلال فترة احد عشر شهرا كانت مصر يحكمها اولا الملك يساعده «زيور» ثم بعد ذلك السراي ودون اعتبار للمسؤوليات الدستورية .[٢٩]

واصطنع الملك حزبا هو «الاتحاد» الذي استهدف احداث تغييرات في الدستور[٣٠] . وحين سافر «زيور» الى اوروبا في اجازة وسافر صدقي ايضا بشأن مهمة تتعلق بالحدود المصرية ـ الليبية . اغتنم الملك الفرصة فدبر دسيسة ادت الى استقالة «صدقي» والوزيرين من حزب الأحرار ، ونبهت هذه المسألة حزب الأحرار الدستوريين ، وكل من يخشى دكتاتورية القصر الى ضرورة التصالح مع الوفد والنظر اليه منقذا للبلاد من الأوتوقراطية الملكية[٣١] . وانتهى هذا الوضع من تحكم السراي المطلق حين قدم المندوب السامي الجديد «جورج لويد» الذي ادرك ان مقدرة «نشأت» ـ رئيس الديوان الملكي ـ ومطامعه تستخدم على نحو ليس فيه خدمة لخير الحكومة وسمعتها[٣٢] .

واغرى «لويد» فؤادا بعزل «نشأت» وتعيينه في وظيفة خارج البلاد . ولكنه فشل في فصل الأحرار الدستوريين عن التضامن مع الوفد واشتراكهم في الوزارة[٣٣] . فقد نجح الوفد في اعادة التأييد الشعبي وهيبته الأولى وعقد اجتماعا للبرلمان ـ المنحل ـ في فندق «الكونتننتال» .. في اكتوبر ١٩٢٥[٣٤] .

وقد تحالف الوفديون مع الدستوريين من اجل اعادة الانتخابات[٣٥] . وحين اذاع «زيور» قانونا جديدا للانتخاب للحيلولة دون نجاح الوفد ، اعلن الأخير عزمه على مقاطعة الانتخابات وعندئذ دفع لورد «لويد» «زيور» ... الى سحب القانون فاستقال[٣٦] . وفاز الوفد في سنة ١٩٢٦ بعد اجراء الانتخابات ، فوزا ساحقا[٣٧] . ولكن الانجليز لم يوافقوا ورغم فوز الوفد الكاسح ، على ان يكون سعد زغلول رئيسا للحكومة ، وضغطوا في ذلك بارسال بارجة بريطانية الى الاسكندرية[٣٨] .

الانجليز يسقطون حكومة الوفد :

وفيما بعد ادت التطورات السياسية الى تولى «ثروت» فقام بمفاوضة البريطانيين في ظل حكومة وفدية ـ حردستورية . وحين لاحت بوادر رفض البرلمان ـ واغلبيته للوفد ـ لمشروع المعاهدة الذي قدمه «ثروت» تلقى المندوب السامي توجيها بماذا سيفعل اذا رفض الوفد المعاهدة المعروضة على «ثروت» وقيل له انه ينبغي توجيه مذكرة رسمية بما يلي: «كانت حكومة صاحب الجلالة تتوجس خيفة لفترة مضت حيال بعض المقترحات التشريعية التي قدمت للبرلمان المصري والتي هي ان اصبحت قوانين فان من المحتمل ان تضعف بشدة يد السلطات المسؤولة عن الحفاظ عل النظام وعن حماية الأرواح والممتلكات في مصر[٣٩]» . وتولى «مصطفى النحاس» الحكم بعد ثروت في ١٥ مارس ١٩٣٨ ، وكان الوفد قد رفض مشروع المعاهدة فتلقى «لويد» اوامر برقية بتبليغ انذار شفوي الى رئيس الوزراء ـ مصطفى النحاس ـ وسلم الانذار الى النحاس في ١٩٢٨/٤/٢٩ ونصه :

«ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تأمرني بان اطلب الى سعادتكم بوصفكم رئيسا للحكومة المصرية ان تتخذوا مباشرة الخطوات الضرورية لمنع مشروع القانون المنظم للاجتماعات العامة والمظاهرات من ان يصبح قانونا»[٤٠] .

وحين وجد الملك فؤاد هذه الأزمة اغتنمها ووقعت الحكومة الدستورية تحت رحمته .

وذهب النحاس كما جاء في عام ١٩٢٨ واعلن الملك حل البرلمان وحربا صريحة على الدستور ، وكانت اداته هذه المرة حكومة محمد محمود[٤١] . اذ تآمر محمد محمود الذي كان عضوا بوزارة النحاس الائتلافية على هذه الوزارة ، وحين سقطت حكومة النحاس وتولى محمود اعلن حل البرلمان وتعطل الدستور للمرة الثانية في خلال اربع سنوات[٤٢] .

ومضت حكومة محمد محمود مدعومة بتأييد دار المندوب السامي واحسان مؤقت للقصر . ولكن الخارجية البريطانية لم يرق لها او لبعضها تعطيل الدستور المصري . وظن البعض ان للورد «لويد» دخل في هذا . كان المسؤولون البريطانيون تواقون الى عقد معاهدة مع مصر ولم يتعاطفوا مع «لويد» في نظرته الى التحفظات بانها مقدسة . ونظروا الى المصالح الاستراتيجية . وبقي الخلاف طالما كان المحافظون في الحكم . فلما جاء العمال تخلص «هندرسون» من لورد «لويد» وجاء «برسي لورين» ووجه محمد محمود باصرار بريطانيا على انتخابات جديدة جتى يعرض مشروع المعاهدة التي كان يناقشها محمود مع البريطانيين ووافق عليها مع وزرائه من الأحرار والاتحاديين ورفضها الوفد ... وبين المعارضة الوفدية واصرار بريطانيا على انتخابات جديدة اضطر محمد محمود الى الاستقالة وجاءت وزارة «عدلي» الذي كانت مهمته اجراءات الانتخابات ... وقاطع الأحرار الدستوريون الانتخابات ولكن الوفد حصل على اغلبية كبيرة(٤٣) . وتولى الوفد ومصطفى النحاس الحكم في عام ١٩٣٠ حيث اعلن الوفد في خطاب تشكيل الوزارة عن عزم حكومته على تثبيت قواعد الدستور ونصوصه واحكامه(٤٤) . بما اذن بفصل جديد من الصراع في البلاد .

فصل من الصراع بين الديمقراطية ـ الدستورية والأوتوقراطية الملكية من ١٩٣٠ ــ ١٩٣٣

لم تكن تجربة ١٩٢٨ التي مرت بالوفد حين اطاح الملك فؤاد الأول وبالدستور معا ، لم تكن هذه التجربة هي الوحيدة الماثلة امام الوفد حين عاد الى الحكم منتصرا في عام ١٩٣٠ . بل سبق هذه التجربة تجارب اخرى ترجع الى سنوات ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، ١٩٢٦ . وعلى اية حال فان دار المندوب السامي هي التي اطاحت ... بعد ان هددت بالخطر الشعبي ، بدكتاتورية «زيور» والأوتوقراطية الملكية عام ١٩٢٦ وهي التي اطاحت ايضا بدكتاتورية الملك ـ محمد محمود في عام ١٩٢٩ بعدما رأى البريطانيون ان حماية المصالح الاستراتيجية العليا يقضي بالتنازل عن ضرورة اعتلاء وزارة دستورية تحظى بالتأييد الشعبي الى مقعد الحكم .

كان البريطانيون يريدون الاتفاق حول معاهدة مع القوى الشعبية الوطنية تتيح لهم استقرارا في البلاد . فلما جاء الوفد الى الحكم عام ١٩٣٠ ودخل مع الجانب البريطاني في المفاوضات اسفرت هذه عن عدم الاتفاق بين الجانبين وآثر الانجليز اعلان سياسة ما يسمى بالباب المفتوح للعودة الى المفاوضات(٤٥) .

ولكنه بعودة الوفد من لندن وبعد فشل المفاوضات اثر الوفد ان ينفذ برنامجه الديمقراطي بعد ان فشل في انتزاع حقوق البلاد . والواقع ان الوفد في هذه الخطوة كان يحاول تثبيت نفوذه في البلاد ، بل كان يحاول نقل السلطة او بمعنى اصح المشاركة فيها وحتى يستطيع مقارعة الانجليز دونما خشية من طعنات الملك ودسائسه .

حقيقة موقف الملك
من وزارة الوفد عام ١٩٣٠

وقف الملك موقف العداء من تولي حكومة الوفد مقاعد الحكم عام ١٩٣٠ ذلك ان الملك مال الى الاحتفاظ «بعدلي يكن» بعد فوز الوفد في الانتخابات ثم بعد ذلك حاول تعيين على الشمسي ـ باشا ـ بدلا من النحاس لرئاسة الوزارة(٤٦) .

وبعد فشل الملك في خطوتيه السابقتين ، مال الى محاولة استخدام التوريط السياسي فوافق على تشكيل الوزارة الوفدية على الفور وبالرغم من ان بعض الوزراء كانوا لا يروقون له(٤٧) . كان غرض الملك الأساسي ان «تتطرف» هذه الوزارة فيطيح الانجليز بها انفسهم او تنشأ الأزمة منذ البداية مع الانجليز فيعترضون على

بعض اسماء الوزراء ممن لا يرتاح الجانب البريطاني اليهم . وهذا ما تفصح عنه الوثائق البريطانية اذ اشارت الى عدم ارتياحها الى بعض وزراء الوفد عام ١٩٣٠ ومنهم «عثمان محرم» الذي سبق وان ندد باتفاقيةمياه النيل مع الانجليز . وكذلك كان الانجليز لا يرتاحون الى «حسن حسيب» الذي عين وزيرا للحربية ويعتبرونه من رفاق «سعد» وممن لا يرتاح اليهم «سبنكس» باشا ، وهنالك ايضا مكرم وواصف غالي ممن كانوا موضع عدم الارتياح لدى البريطانيين[٤٨] .

وثمة مسألة ثانية حددت موقف الملك فؤاد من وزارة الوفد عام ١٩٣٠ . وهذه المسألة تتعلق بموقف فؤاد نفسه من مفاوضة ابرام معاهدة ١٩٣٠ . فقد اختلف الرأي حول هذا الموقف وطرح المندوب السامي في مصر - لورين - سؤالين بصدد هذا الموضوع وأول السؤالين هو: هل اراد الملك ان يبرم الانجليز المعاهدة؟ والثاني : ان لم يكن الملك قد فعل هذا فهل فعل شيئا يعوق ابرام المعاهدة؟[٤٩] .

وقد اجاب «لورين» عن هذين السؤالين فقال : المعتقد عموما ان جلالته - فؤاد - كان لا يرغب في عقد المعاهدة من ناحية مصلحته الذاتية . ذلك ان التدخل البريطاني المسلح منذ نصف قرن مضى قد انقذ عائلة «محمد علي» الأجنبية من ان يطيح بها رعاياها المصريون . واضاف لورين: وصاحب العرش الحالي بالاضافة الى كراهية اسرته من جانب الشعب عليه مواجهة عدم حب الشعب لشخصه عموما . ثم قال لورين : ويقال ان عرش فؤاد يتعرض للخطر الباكر ان ازيح تأثير وجود القوات البريطانية في القاهرة والاسكندرية[*] . وهذه العوامل فيما يعلن عموما ، لابد وان توحي للملك ان يطول الاحتلال البريطاني الى اجل غير مسمى[٥٠] . غير ان ثمة من كانوا يقولون بان الملك كان من مصلحته ابرام المعاهدة . ويحاجي هؤلاء بان الملك واثق من قوته للغاية وانه سأم تكرار تدخل الحكومة البريطانية في جانب الرقابة الدستورية على سلطاته ، فهو يعتقد ان المعاهدة وتوقيعها هو وحده الكفيل بوقف مثل هذا التدخل ، ويطلق يده في تناول معارضيه الشعبيين ، والملك واثق وفقا لهذا الرأي من انه يستطيع النجاح في اخضاع الحزب الشعبي في مثل هذه الظروف[٥١] .

على ان «لورين» انتهى الى ترجيح الرأي الأول - القائل بعدم رغبة الملك في ابرام المعاهدة - ولكن «لورين» نفى وجود دليل على عمل قام به الملك لاعاقة ابرام المعاهدة .[٥٢]

ولكن تقارير المخابرات السرية البريطانية اكدت ان الملك كان يعمل بصفة مضطردة ضد المعاهدة لأن خططه لا تنطوي كما هو حال الوفد على تصفية النفوذ البريطاني ، بل الاحتفاظ بهذا النفوذ[٥٣] .

ونحن نرى صدى ذلك الموقف بالفعل بمجرد ان لاحت تباشير تنبيء بفشل المفاوضات فقد ذكر «محمد محمود» ان ثمة تقاربا بين الملك واسماعيل صدقي وقال «سمارت» السكرتير الشرقي - الآن وقد فشلت المفاوضات بالفعل فسيعمل الملك على التخلص من حكومة الوفد فور استطاعته ذلك .[٥٤] .

الخلاف بين الوفد والسراي :

والواقع انه قبل فشل المفاوضات بوقت طويل ، بل قبل ان تبدأ هذه المفاوضات . كان الوفد قد حدد نقاط الصراع المقبل مع الملك ، امتثالا - لما سبق ان قلناه - لتجاربه التاريخة . فعند القاء النحاس «لخطاب العرش تحت قبة البرلمان بدأ النحاس - في ١١ يناير ١٩٣٠ - بالاشارة الى الاجراءات التشريعية التى ستسنها حكومة الوفد مستقبلا لحماية النظام الدستوري[٥٥] .

ورغم ان «لورين» قد اشار الى الاجراءات التشريعية هذه بانها مجرد قوانين عادية وليست تضمينات في الدستور نفسه ، الا ان «لورين» اضاف: انه على ضوء طرد مصطفى النحاس - يقصد عام ١٩٢٨ - واصدار المرسوم الملكي بتعطيل النظام البرلماني بعد ذلك فان الفقرة - التي جاءت في خطاب العرش - كلها هي قرص يصعب على الملك ابتلاعه[٥٦] .

وحين فشلت المفاوضات شعر الوفد - كما يذهب الانجليز - ان هناك قلقا كبيرا لدى البريطانيين ورغبة في الوصول الى تسوية مصرية - انجليزية[٥٧] وبما ان ذلك كذلك فان الوفد قد أحس أيضا أن الانجليز لن يلقوا

راضين بتقلهم في الشئون الداخلية لمصر ومن ثم فإن الوفد سيلقى الملك وجها لوجه وانه سيكون لديه الفرصة لتقييد الامتيازات الملكية وتعديل الدستور ـ بحيث يستحيل على الملك ان يطرد الوزارة . وسيدفع الوفد حين عودته ـ من لندن ـ بالتشريعات المشار اليها في خطاب العرش في الدورة البرلمانية الحالية(٥٨) .

وبالفعل ، اثيرت مسألة التشريعات بعد عودة الوفد المفاوض من لندن ، وطلب الملك الى توفيق نسيم ـ رئيس الديوان ـ ان يذهب لمقابلة «لورين» حتى يسأل الأخير «النحاس» عن سبب تعجله اصدار قوانين معاقبة من يخالفون الدستور وقانون الصحافة وقانون القذف ... غير ان «النحاس» رد على هذا السؤال بان القانونين لابد من تنفيذهما هذا العام . واضاف «النحاس» بانه يعجب وقد ارسل قانون معاقبة مخالفي الدستور ليأذن الملك بعرضه على البرلمان ، يعجب لماذا لم تتم هذه المسألة الرسمية ؟ .

واضاف «النحاس» بان الملك لم يقدر اهمية استعجال القانون ، وان ثمة ما وصل الى «النحاس» بان الملك غير راض عنه وانه اذا كان الأمر كذلك فيستسقيل(٥٩) .

الخلاف حول بعض القوانين الديمقراطية

والحقيقة ان القانون الذي كان يريد «النحاس» تمريره من البرلمان كان له اثره الأدبي الكبير فهو يوقف الحكام المصريين الذين قد يكون لديهم استعداد في الظروف الاستثنائية بقبول تعطيل الدستور بالتعاون مع الملك(٦٠) . والحقيقة ايضا ان تعطيل الدستور كما تم في السابق لم يكن اطلاقا بسبب ظروف استثنائية .

ومن العجيب ان يهاجم ديمقراطيو الانجليز ... هذا القانون الديمقراطي ويبررون هذا بان القانون يتجه في الواقع الى استمرار وبقاء سيادة الوفد . ويقول «لورين» ما هو اكثر من ذلك بان الطبيعة الفاشية (!!) لسياسة الوفد قد لفتت انظار المراقبين ، فهذه السياسة تقوم بمحاولة لوضع الدولة تحت سيطرة تنظيم حزبي يختلف ويتميز عن جهاز الدولة الرسمي(٦١) .

وبجانب القانون المشار اليه كان ثمة قانون آخر يستهدف حماية الأغلبية البرلمانية باعتبار ان اهانة هذه الأغلبية اساءة تستحق العقوبة ويلزم تضمينها في قانون العقوبات(٦٢) . واضافة الى القانونين السابقين كان هناك قانون آخر لانشاء محكمة للنقض(٦٣) . وهو ما يحقق المزيد من العدالة . على ان من القوانين الخطيرة التي كان الوفد يريد عرضها على البرلمان ... هي التعديلات المقترحة في القانون الجنائي ، قال عن تلك التعديلات ... البريطانيون بان لها خلفية سياسية قد اوحت بها تجارب الوفديين البارزين في الماضي حين مثلوا امام الاتهام . وان الغرض الظاهري منها مزيد من الاستقلال والحيدة في سير التحقيق ومزيد من الحماية للمتهم بالنسبة لحجزه . واضاف البريطانيون : بانه من الناحية النظرية قد يكون ذلك صحيحا ، ولكن المعتقد ان لها عمليا اثرا عكسيا على قمع الجريمة بصورة فعالة وانها ستزيد من فرص المتهم للهروب والتحايل وصنع الدليل لمواجهة القضية التي تبني ضده . وانتهى البريطانيون الى انها قوانين ستعقد الأمور كثيرا امام النيابة(٦٤) .

لكن لب المشكلة في القوانين جميعا كان هو قانون المسؤولية الوزارية ... وقال عنه المستشار القضائي البريطاني : انه تشريع غير عادي لا يوازيه آخر في البلاد الأخرى(٦٥) . واضاف المستشار القضائي فقال : ان الجزاءات في القانون غير مناسبة ثم قال : انها مسألة مبدأ على اي حال اكثر منها مسألة درجة. وان هذه الجزاءات ولو انها تستهدف عقاب مقلدي محمد محمود باشا ـ الذي عطل الدستور ـ الا انه واضح ان الملك نفسه هو المسؤول عن ظهور مثل هذا «الديكتاتور» فالقانون لو اجيز لكان صفعة ادبية للملك ، بعيدا عن اثره العائق امام السياسيين الذين تساورهم نفوسهم فيتعاونون مع نظام لا دستوري ـ انه قانون يخدم الى درجة كبيرة تعزيز سيادة الوفد على الأمة ودوامها(٦٦) .

وبعيدا عن الناحية السياسية كان رأي المستشار القضائي : ان ما يستطيع قوله بعيدا عن الناحية السياسية ان القانون لا وجود له في بلاد العالم المتدنية ، وان قالت دساتيرها بقانون يحدد المسؤولية الوزارية . هناك بلاد يوجد فيها القانون لكن نصه لا يوجد في اي مكان(٦٧) .

الانجليز يتهمون الوفد بمحاولة السيطرة على الجيش

وعلى اية حال فان الانجليز او على الأقل المندوب السامي في مصر قد بالغ اكثر من اللازم في تصوير اهداف هذه القوانين فقال «لورين» في رسالة مؤرخة ١٢ يونيو ١٩٣٠ الى وزير الخارجية البريطانية :

ان هذا التغيير - يقصد محاولة الوفد انفاذ القوانين المشار اليها - لابد وان تقف وراءه القوات المسلحة وان الوفد يفضل السيطرة على الجيش الحالي من انشاء جيش جديد - يقصد ميليشيا - وانه لو شعر القوم بان الوفد ثابت في الركاب ، فان استيلاءه على الجيش يكون مسألة وقت[٦٨] . واكد «لورين» اتهامه للوفد هذا بان «صدقي» قد انهى الى السكرتير الشرقي في اكتوبر الماضي ان قبول مقترحات المعاهدة البريطانية سيكون سباقا بين الملك والوفد للاستيلاء على الجيش ويبدو ان الوفد بدأ قبل نزول الراية[٦٩] .

ومضى «لورين» في «تخويف» الخارجية البريطانية فقال: يحق لى القول بأن قمع حكم الطغيان للأسرة المالكة نتيجة لا مفر منها نتيجة التطور الشعبي والقومي في مصر وتشكيل هيئة حزب استبدادية قوية على غرار الفاشست الخ... وسيلة ضرورية لنقل السلطة دون فترة فوضى . ثم قال: انه وان بدت الحجة لا تتفق والأفكار البريطانية عن الحكم الدستوري الا انها سليمة في ظل الأوضاع في الشرق[٧٠] .

على اننا لا نرى في كلام «لورين» هذا اكثر من تعاطف مع صدقي والملك ذلك التعاطف الطبيعي في المصالح وانطلاقا من حقد «لورين» على الوفد الذي يراه متعنتا - من وجهة نظر المستعمرين - ازاء المطالب الوطنية والديمقراطية معا .

ان «لورين» الذي كال الاتهامات للوفد سرعان ما عاد فاعترف بان الوفد قد دفع الى الظرف ، وان الملك انهى الأمر برفض عرض القانون على المجلس[٧١] .

بل ان «لورين» عاد بعد ذلك وبعد الاطاحة بدستور ١٩٢٣ فقال : ان المادة ٢٣ من الدستور القديم - اي دستور ١٩٢٣ - جاءت كما هي في دستور «صدقي» وتنص هذه المادة على ان جميع السلطات مصدرها الأمة - ولادخال هذه المادة في دستور سنة ١٩٢٣ والمواد التي تنص على انتخاب الملك او موافقة البرلمان على تعيينه يفترض ان نظاما مغايرا كان موجودا من قبل . وقبل ذلك التاريخ لم يكن المصريون في مركز يختارون فيه حاكمهم او كانت سلطات هذا الحاكم نتيجة ارادة الشعب .

ومع ذلك نصح الملك وزراؤه سنة ١٩٣٠ ، وهم لا يملكون اغلبية برلمانية ولا هم جاءوا ممثلين لحركة شعبية . نصحوه بالغاء الدستور واذاعة دستور جديد في وجه معارضة الحزبين الرئيسيين [الوفد والأحرار الدستوريين] ويثبت هذا بصورة مطلقة الوضع الذي اتخذته حكومة «محمد محمود» سنة ١٩٢٨ التي قصرت نفسها على تعطيل مواد معينة في الدستور لأجل غير مسمى بنية في الظاهر اعادة هذه المواد مع تعديلات قليلة في قانون الانتخاب . فاذا اصبح بعد ذلك القول بان تصميما لا رجعة فيه يقوم في صدور المصريين الا يحكمون حكما اوتوقراطيا . فيجب ان نعلق اهمية اكبر على القول بان ما يعطيه الأوتوقراطي يستطيع رده . ثم قال «لورين» ولقد كانت في الواقع الأهمية التي علقتها حكومة الوفد الماضية على ايجاد وسيلة تمنع تكرار الاجراء الذي اتخذه «محمد محمود» هي التي سببت الخلاف الرئيسي بين تلك الحكومة وبين الملك[٧٢] .

وهكذا فرغم ان القانون - المسؤولية الوزارية - هو قانون ذو طبيعة ثورية فهو يحاول موضوعيا نقل الوفد الى السلطة وليس مجرد الحكم وهذا حقه باعتباره صاحب الأغلبية الشعبية ، وهو يطاح به لا نتيجة لعمل ثورة - كما شرح لورين من قبل - ولا حتى نتيجة لانقلاب عسكري ولكنه يطاح به لأن السلطة بيد الاحتلال والسراي من بعده - فاذا شاء الوفد ان يشارك في هذه السلطة او يغيرها نتيجة اعتداءها على دستور البلاد فهو عمل يستند الى الشرعية تماما .

حقيقة ان الوفد اراد الانتقال الى السلطة ووضع الملك في اطاره الطبيعي «يملك ولا يحكم» وحقيقة ان هذا

قد يعتبره البعض لاشيء ... طالما ان الاحتلال باق ... ولكن الوضع سيكون اخطر بكثير على الاحتلال اذا حاول - ودون الملك - خلع الوفد .

وثمة ناحية هامة ارادها الوفد من وراء تثبيت دعائم وجوده - ذلك ان مصلحة الوفد كممثل للحركة الوطنية ان يسهر على تطبيق نصوص المعاهدة اذا نجح في توقيعها أما ان يبرم هذه المعاهدة ويضاح به فمعنى ذلك شيء واحد ان تصبح المعاهدة في صالح الاحتلال وحده .

وهكذا ايضا فان هموم «لورين» خاصة على الوفد ... جاء منطقيا مع شرح السراي للموقف فقد قال «فؤاد» انه لا احد يتنبأ اين يمكن ان يقف هذا - اذا بدأ تغيير المكتوب ... ان التغيير الذي يريده الوفد نتيجته ان يستحيل على احد التفكير او العمل بغير ما يرى الوفد . وان الأمر في النهاية لابد وان يؤثر على المصالح البريطانية[٧٣] .

وكانت الأخيرة بالنسبة «للورين» هي لب المشكلة .

دار المندوب تحمي

العدوان على الدستور

اطيح بالوفد بعد ان رفض الملك عرض القانون على البرلمان فقدم «النحاس» استقالته .

واستدعى الملك «اسماعيل صدقي لتشكيل الوزارة ... وكان صدقي» بطل وزارة «زيور» ١٩٢٥ وأول صانع للانتخابات المزيفة في البلاد ... كان «صدقي» بغيضا لدى الوفد حتى ان رجلا مثل «علي ماهر» قد ادان الملك في هذا العمل وقال ان «صدقي» بدأ بخطأ لا يأتيه الا معتوه حين اغلق مجلس النواب .[٧٤]

لكن «علي ماهر» الذي شجب مثل هذا الاعتداء على الدستور ، لم ير مانعا من مراجعة الدستور نفسه بل اكد وجوب ذلك حتى يكون الدستور المعدل حسب زعم «علي ماهر» اكثر قابلية للعمل به وكذلك ان يعدل قانون الانتخاب حتى تزول سيادة من اسماهم «ماهر» بالأميين[٧٥] .

وبدأ العزف من جانب الرجعية على عزل الشعب بدعوى تجنب سيادة الأميين .

واضطر الوفد لمواجهة اجراءات «صدقي» الذي جاء بنية العمل على تغيير الدستور وحل البرلمان ولجأ الوفد الى عقد جلسة تاريخية لمجلسي النواب والشيوخ وبرغم انف الحكومة[٧٦] .

وعقد الوفد اجتماعا كبيرا في اليوم التالي لجلسة البرلمان التاريخية . فدافع امام حشد من النواب والشيوخ وممثلي الأقاليم ، دافع عن اجراءات حكومته المستقيلة . وبصدد تعيين الملك لصدقي لم يعترض «النحاس» على حق الملك في تعيين الوزراء ولكنه قال ان هذا التعيين مشروط بحصول هؤلاء على ثقة البرلمان ، والا فان هؤلاء ودون هذه الثقة يعملون في سبيل السلطة المطلقة . وشرح «النحاس» كيف ان احداث سنتي ١٩٢٥ - ١٩٢٩ اضطرت الوفد الى ضرورة الترتيب للعمل على محاكمة الوزراء صيانة لحقوق الشعب . وكرر «النحاس» بان الوزارة الجديدة لو فعلت ان تقدمت الى البرلمان للحصول على الثقة لكان شيئا حسنا ولكنها لو اجلت هذا البرلمان او حلته فهي تعمل في سبيل حكم الطاغية ، وانه ليس من حق الحكومة الحالية تعيين الشيوخ او سن القوانين[٧٧] .

ثم اتخذ الوفد في الاجتماع المشار اليه قرارا بالمحافظة على الدستور وتشكيل لجنة للدعوة الى عدم التعاون مع الحكومة اذا لم تطرح الثقة بها في البرلمان[٧٨] وواضح من موقف الوفد انه كان متسما بهدوء الأعصاب او كما قال «لورين» بان موقف «النحاس» كان معتدلا حين سلم بحق الملك في تعيين الوزراء من حيث المبدأ كما ان الجلسة التي عقدت للمجلس - برغم انف الحكومة - خلت من مناقشة المرسوم الملكي لتعيين الوزارة او طرح الثقة بها او مهاجمة الوزارة كما ادعى «صدقي» في تبريره لرفض اجتماع البرلمان .[٧٩]

وعلى اية حال فان «صدقي» مالبث ان عطل البرلمان ... وقامت في اثر ذلك احداث جسيمة في البلاد وخاصة الاسكندرية[٨٠] .

وتبع تلك الأحداث ان الحكومة البريطانية على لسان «ماكدونالد» حملت مسؤولية الأحداث في مصر لكل من رئيس الوزراء واسماعيل صدقي ومصطفى النحاس زعيم الوفد واستقال «صدقي» على اثر تلك التصريحات التي اعلنها «ماكدونال» في مجلس العموم البريطاني(٨١) .

ولم يستبعد المندوب السامي نتيجة لتلك الأحداث ، اجراء مثل التدخل العسكري لحماية مرافق البلاد التي يبحث الوفد في تعطليها بالاضراب(٨٢) .

والواقع ان السياسة البريطانية تجاه خطوة الملك ظلت مضطربة ومتناقضة فوقف «برسي لورين» موقف المعارض للوفد اساسا وواظب على كتابة التقارير التي تدين الوفد ، وكان يعارض آراء وزير الخارجية «هندرسون» واحيانا بشدة .

كانت السياسة البريطانية المعلنة عامة هي الحياد(٨٣) . ولكن هذا الحياد كان موضع شك قوى سياسية كثيرة في البلاد بما فيها الوفد اساسا .

ويبدو ان المندوب السامي في مصر كان يستخدم ورقة الحياد في صالح السراي وصدقي اذ ان رجلا كعدلي يكن حاجي «لورين» وواجهه بانهم ـ اي الانجليز ـ هم الذين اخرجوا «محمد محمود» غير ان «لورين» رد على محاجاة «عدلي» بانه وضح له في ذلك الوقت انها كانت المرة الأخيرة «وانه لا يجب ان نفعلها ثانية»(٨٤) .

غير ان «لورين» لم يكن مستوحى من سياسة حكومته اذ كيف يتفق هذا مع ما بعث به «هندرسون» الى «لورين» فقال : «انه بين في العام الماضي الأسباب التي جعلت استحالة المضي مع حكومة «محمد محمود» واضاف «هندرسون» : ويبدو لي ان نفس الأسباب تقوم بالنسبة لوزارة «صدقي» وقد تحاجى ـ اي لورين ـ بانها ليست مسألة تأييد «صدقي» ولكن استمرار في حياد يتفق وما بعثت اليك من تعليمات . وعمليا كما بين «هور» فان وجود قوات بريطانية في القاهرة تجعل من المستحيل البقاء على الحياد فعليا(٨٥) .

ثم مضى «هندرسون» في تعليماته الى «لورين» فقال :

ان علينا ان نعقد فكرنا على انه في النهاية لابد من حكومة تمثل اغلبية برلمانية ساحقة نتعامل معها ، فهي وحدها كفيلة بالأمر ومن ثم فهدفنا الاستراتيجي يجب ان يكون اعادة الحكومة الماضية واخراج حكومة «صدقي» دون ما عقاب . ولابد من حفظ ماء وجه الملك . ولكنه ينبغي ان يحفظ الدرس لا اقل من الوفد(٨٦) . غير ان «لورين» رفض حجج «هندرسون» وبين اسباب ذلك في انه ليس لديه قناعة بان الانجليز سيصلون الى هدفهم معه وهو المعاهدة كما انه قال بان ثمة خطورة ان يتورط الانجليز فى شؤون مصر الداخلية(٨٧) .

ومضى «لورين» فقال بان اي تدخل سيكون لمصلحة الوفد الذي يبدو متعنتا في شروطه من اجل المعاهدة في مسألة السودان والذي يبدو في موقفه داخلية كما لو انه يطلب الجمهورية(٨٨) .

واضاف «لورين» بان الصراع في مصر هو صراع ثوري على الوجود بين لملك والوفد ... ثم برر عدم تدخله اخيرا بانه يبدو وحتى الآن الا مخالفة للدستور(٨٩) .

والحقيقة ان «لورين» كان يردد مزاعم الملك فيما ادلى به الأخير لشخصية بريطانية كبيرة اذ قال الملك انه اذا عاد الوفد منتصرا فان من المشكوك فيه انه يستطيع البقاء على العرش(٩٠) .

وعلى اية حال فقد مضى الملك وصدقي تحت مظلة دفاع المندوب السامي فاعد «صدقي» دستورا جديدا وقانونا للانتخاب غير المباشر .

الانجليز والدستور الجديد :

كان رأي السلطات البريطانية في مصر على لسان المستشار القضائي ـ في دستور «صدقي» الجديد هو الآتي :

١ ـــ أنه يضع مزيدا من القيود الفعالة على سلطة البرلمان في التدخل في شؤون السلطة التنفيذية .

٢ ـــ انه في الممارسة لن يهمل الملك او رئيس الوزراء اية ثغرة في الدستور الجديد لجعله اقل ديمقراطية .

٣ ـــ ان الدستور الجديد قد وضع في يد الملك تعيين رؤساء الطوائف الدينية .

٤ ـ انه من الأهمية اكثر من غيرها ان اسلوب اذاعة الدستور الجديد وظروفها تبلغ درجة تأكيد اقصى حدود الامتيازات الملكية ، والمذهب القائل بان ما اعطاه الملك يستطيع اخذه[٩١] .

اما «لورين» فقد صاغ انتقاداته للدستور الجديد في قالب الدفاع عنه فقال : انه بصدد المزيد من القيود التي جاءت في الدستور الجديد على سلطة البرلمان فلا يجب ان نقول انه ـ اي الدستور ـ قد نال حقيقة من مبادىء المسؤولية الوزارية وخضوع السلطات جميعا في النهاية لارادة الشعب . (كذا!!)

واضاف «لورين» وأما بصدد زيادة عدد الأعضاء والمعينين من قبل الملك بالنسبة لمجلس الشيوخ فإنه يعادلها ان مسؤولية مجلس الوزراء هي قبل مجلس النواب وليس مجلس الشيوخ[٩٢] .

ودافع المسؤولون البريطانيون كذلك عما تضمنه قانون الانتخاب فقال المستشار القضائي : ان القانون الجديد اذا افترضنا اعماله بامانه[٩٣] فانه احسن من سابقه بكثير ، وانه في بلد كمصر حيث ٨٨ ٪ من السكان اميون ، يكون قانون الانتخاب غير المباشر ، مناسبا بوضوح اذا جرى بصورة عادلة ، فهو يمكن الفلاحين البسطاء واختيار نواب انتخاب موضع ثقتهم لمعرفتهم لهم ، فيعكس الانتخاب النهائي افضلية حقيقية . ولا يخفي ان الجهل يجعل من السهل على اي تنظيم قوي ان يدفع مثل هذه القطعان التي لا حول لها ولا قوة الى حظيرة واحد او آخر.. الخ[٩٤] .

ولا نريد هنا ان نناقش الدستور الجديد او قانون الانتخاب فقد سبق لنا مناقشة ذلك كله في مكان آخر[٩٥] . وانما الملاحظ ان المسؤولين البريطانيين في مصر كانوا يتناقضون في دفاعهم عن دستور «صدقي» ففي الوقت الذي تكلم فيه «لورين» عن خضوع السلطات جميعا لارادة الشعب عاد غيره من امثال المستشار القضائي ليتكلم عمن اسماهم «القطعان» ... ويقصد بذلك الأميون والفلاحون الذي قال عنهم انهم يمثلون ٨٨ ٪ من الشعب ... وكأن هؤلاء مسؤولون عن اميتهم ... وكأن الديمقراطية هي ممارسة ١٢ ٪ من سكان البلاد فقط لحقوقهم وجل هؤلاء من اقطاعيي البلاد ووكلاء الشركات الأجنبية والمرابين وغيرهم! .

وعلى اية حال فان الدستور الجديد وقانون الانتخاب كليهما لم يكونا حربا على ما اطلق عليهم بالقطعان من الأميين وانما كان الدستور الصدقي وقانون الانتخاب حربا كذلك على مثقفي البلاد وبرجوازية المدن وعزلا لفئات اجتماعية واسعة[٩٦] .

الدستور الجديد يوسع من قاعدة المعارضة: وقد ادى اعلان الدستور الجديد الى اثارة «الأعيان» الذين يمثلهم حزب الأحرار الدستوريين والذين شاركوا اساسا في وضع دستور ١٩٢٣ للحد من سلطة الملك .[٩٧] .

بل ان الدستور الجديد بما اضفاه على الملك من ميزات تؤكد حكمه الأوتوقراطي قد دفع بالمعارضين من داخل الأسرة المالكة الى معارضة الوضع الجديد الذي تهدد به بالامتيازات الملكية مصالحهم ـ لذلك تجد اميرا مثل «عمر طوسون» يعارض الملك ونبيلا مثل عباس حليم يكسب فيه الوفد حليفا مخيفا[٩٨] . كما عبرت الوثائق البريطانية .

وكانت جبهة الملك في مواجهة تلك المعارضة التى امتدت من الوفد الى الأحرار الدستوريين الى بعض امراء البيت المالك ... كانت «جبهة» الملك ضعيفة جدا ... حاول «صدقي» صناعة حزب جديد حتى يضمن سندا في المستقبل ضد الملك نفسه ـ كما سنرى ـ وحتى يضمن للانتخابات الجديدة شكلا دستوريا ولكن حزبه الجديد او حزب الشعب جاء مسخا ومعزولا فلم يضم الحزب ـ كما اكدت الوثائق البريطانية ـ أية شخصيات بارزة في البلاد ، بل ضم بعضا من الانتهازيين الوصوليين وآخرين ممن مست سمعتهم السيئة[٩٩] .

وكان للملك ايضا حزبه ـ وهو الاتحاد ـ واستعد نظام صدقي بهذين الحزبين الباهتين اضافة الى «الحزب الوطني» لخوض الانتخابات التي امل الملك منها مسبقا الحصول على ٨٠ ٪ للحكومة . لكن «لورين» اوضح للملك صعوبة التنبأ بمثل هذه النتائج فان الوفد لم يخسر افكارا وانما خسر زعماؤه ارضا فحسب وان افكار الوفد لا يمكن ان تعتبر وقد خسرت سيطرتها على البلاد .[١٠٠] . ولكن الملك رد على «لورين» فقال : ان العناصر

اليهودية والسورية في البلاد تبدو اكثر اطمئنانا بالنسبة للمستقبل[١٠١] . وكان تعقيب «لورين» على قول الملك كما كتب به الى الخارجية البريطانية : ان لملاحظة «الملك» دلالتها وما تثيره من الاهتمام[١٠٢] .

اي ان الملك لم يجد حجة في اقدامه على العبث بدستور البلاد ولا العزم على تزييف الانتخابات الا مقابل طمأنينة العناصر المالية والصهيونية في مصر .

تزييف الانتخابات :

كان تزييف الانتخابات في ١٩٣١ ثاني سابقة خطيرة في مصر بالنسبة للحياة الديمقراطية واحدى سمات الحكم الأوتوقراطي . الدكتاتوري في مصر ويعتبر الأسلوب الكريه الذي لجأ اليه «صدقي» عام ١٩٢٥ ثم كرره في عام ١٩٣١ هو المنهج الموروث في الحياة السياسية في مصر واسلوب من الفساد لجأت اليه ومازالت تلجأ قوى الأوتوقراطية والديكتاتورية في مصر .

واعلن الملك عزمه وصدقي على هذا التزييف حين ادلى الى «لورين» بان نجاح «صدقي» في الانتخابات هو الأمل الأخير لما اسماه استقلال مصر (!!) وطلب الملك الى «لورين» ان يترك «صدقي» وشأنه في تحديد انسب وقت لاجراء الانتخابات[١٠٣] (١١) .

وكان الريف هو ما يعول عليه النظام في التزييف اكثر من المدينة ... فنجاح الضغط الاداري اكبر فرصا في المدن عنه في الريف . وطاف «صدقي» في الأرياف مانعا في الوقت نفسه الوفديين والأحرار الدستوريين من زيارة الأقاليم بحجة ترويجهم لمقاطعة الانتخابات وتهديد الأمن[١٠٤] . وتمثل تدخل الحكومة في الريف في شكل توزيع الأسلاب على الأنصار وتسهيل مهمة التابعين ومعاكسة المعارضين حتى في الشؤون الفردية ومنع الوظائف عنهم وغير ذلك[١٠٥] .

ومن المثير للانتباه ذلك التقرير الذي كتبه «سمارت» السكرتير الشرقي بعد جولته في الاقاليم فقد ذكر «سمارت» ان معظم البلاد وفدية ، وان الوفديين من سلالة عدلي «كرومر» الروحية وكلهم يتحدثون عن دينهم لانجلترا باخلاص ظاهر[١٠٦] وهو ما يعني ايا كان ماعناه «سمارت» بالوفديين ان كبار ملاك الأرض هم الذين على ولاء انجلترا ذلك ان «سمارت» قد قال بعد ذلك «لا تعني روح الصداقة الوفدية لنا في الاقاليم مقاومة الوقع المضاد لبريطانيا من عصابة الأمر والنهي في الوفد في العاصمة فعامة الوفديين كالخراف والماشية يمشون بتوجيه بيت الأمة»[١٠٧] .

وهذا ما يؤكد ان الفلاحين كانوا تحت تأثير مثقفي العاصمة وليس تحت تأثير كبار الملاك .

وعلى اية حال فالمستخلص من تقارير «سمارت» ان قليلا جدا هم يؤمنون باستمرار النظام الحاضر[١٠٨] اي نظام صدقي الملك .

ورغم هذه الحقيقة فقد بعث «لورين» يقول لهندرسون: ان ثمة عدم اكتراث بالقضية السياسية التي يعتبرها الناس صراعا بين الباشوات على السلطة ، بينما يريد الناس ان يتركوا وشأنهم يرعون مصالحهم ولا يرغبون في زيارة يقوم بها اليهم «صدقي» او «النحاس»[١٠٩] .

ولم يكن «لورين» صادقا كعهده في نقل الصورة الحقيقية الى «هندرسون» لذلك كتب الأخير اليه يقول : «في وجه اتحاد بين زعماء سياسيين يؤيدهم الشعور في الاقاليم على نحو ما ينعكس في تقارير «سمارت» وغيره الأخيرة ، ما كان بوسع حكومة مصرية سابقة ان تأمل او ان تجرؤ على الاستمرار في الحكم لأي مدة من الوقت حتى ولو كانت دار المندوب تؤازرها[١١٠] .

وعلل هندرسون اسباب نجاح تنفيذ الحكومة لخططها ، تعليلا صحيحا بانها تلجأ الى المزيد من اعمال القمع[١١١] .

وكما اكد «هندرسون» اعمال القمع هذه فان دار المندوب اعترفت ايضا بتزوير الانتخابات اذ توالت عليها بعد انتخابات صدقي في مايو ١٩٣١ الشكاوي الكثيرة ، وتقدم الكثيرون يقولون بانهم تقدموا الى النيابة العامة ولكن هذا لم يسفر عن شيء فقد رفضت النيابة النظر في هذه الشكاوي[١١٢] .

اثر الأوتوقراطية على حياة البلاد

لم يقتصر اثر الأوتوقراطية والديكتاتورية على افساد مثل تزييف الانتخابات وعنف مثل عمليات القمع وانما امتد اثر هذا الافساد الى كثير من اوجه الحياة في مصر ... فعمل النظام الأوتوقراطي ـ الديكتاتوري على السيطرة على كافة اوجه النشاطات سواء كانت اجتماعية او اقتصادية او دينية ـ وتوجيه هذه النشاطات في صالح الأوتوقراطي في قصره . فأنشأت حكومة «صدقي» ما يسمى بمكتب العمل في حوالى آخر نوفمبر ١٩٣٠ وادار هذا المكتب المدعو «جريفز» من الادارة الأوروبية وكان الغرض اجتذاب النقابات العمالية وخاصة اتحاد نقابات عمال مصر واستغلاله سياسيا[١١٣] . كما عملت على اخضاع اتحاد النقابات لسيطرة الملك باستخدام المدعو داوود رابق وهو من عائلة تركية عينه كرئيس للاتحاد مقابل الف جنيه شهريا[١١٤] .

كما وجهت الحكومة النظام للعمل على صالح الفئات المالية الكبيرة من اليهود والأجانب فانتزعت الملكيات الصغيرة بلا رحمة لصالح بنوك الرهونات المحلية الكبيرة[١١٥] وكان نظام «صدقي» الاقتصادي يسير الى حد الكارثة تحل بصغار الملاك[١١٦] . بل اكثر من ذلك هددت المحنة الفلاحين ممن يملكون من ٥ ـ ٥٠ فدانا بان تذهب املاكهم الى اليهود وغيرهم من الأجانب[١١٧] .

على ان من اخطر الآثار التي ترتبت على الحكم الأوتوقراطي هو التدخل الملكي في شؤون الكنيسة المصرية والاقباط المصريين وهو ما هدد الوحدة الوطنية في البلاد ... تلك الوحدة التي رسخت اسسها ثورة عام ١٩١٩ التي حاربت التفرقة والتعصب الديني فحل الوفد مشكلة الدين في البلاد واحرز الوحدة الوطنية[١١٨] . والمثال الصارخ على تدخل الملك في الأمور الكنسية كان حين ثار النزاع في تلك الفترة بين بطريرك الأقباط والمجلس الملي . وكان من رأي البطريرك ان الحل الوحيد في هذا النزاع هو العودة الى التعديل الذي اصدره «كتشنر» عام ١٩١٢ . وكان قانون «كتشنر» هذا يقضي بان يتألف المجلس الملي من ثمانية اعضاء عاديين واربعة من رجال الكنيسة برئاسة البطريرك[١١٩] . واما المجلس الملي في وقت النزاع فكان يتكون من ١٢ عضوا اصليا و ١٢ عضوا اضافيا وكلهم عاديون ويرأسهم البطريرك[١٢٠] .

وقد اعترف «صدقي» بتدخل الحكومة في شئون النزاع ولصالح البطريرك وبرر هذا فاعلن بصراحة ان تدخل الحكومة هو بهدف حل المجلس الملي الحالي واحلال مجلس آخر اقل ديمقراطية على اساس قانون عام ١٩١٢[١٢١] . اي قانون كتشنر .

وكان تدخل حكومة «صدقي» هو تدخل في صالح العصبة الكنسية الفاسدة التي تسود الكنيسة[١٢٢] . واما اساس الخلاف بين البطريرك والمصلحين هي مسائل معقدة ودقيقة . وكان البطريرك نفسه ـ كما كتب لورين ـ هو اساس البلاء فهو فاسد رجعي متهور وزعم المصلحون أن طريقة انتخابه غير سليمة ... وقالوا ان الملك فؤاد تدخل لانتخابه[١٢٣] . وادت تدخلات «فؤاد» الى تدخل هندرسون» وزير الخارجية البريطانية فطلب من «لورين» الوقوف الى جانب المجلس الملي والضغط على الملك «فؤاد» ضغطا عنيفا[١٢٤] .

ودلت مسألة الكنيسة والمجلس الملي على ان الشكاوي من الاضطهاد الديني هو ملمح مألوف للادارة المصرية آنذاك وان ثمةمواقف مماثلة في عام ١٩٢٨[١٢٥]وكان مصدر تخوف الأقباط هو تبعية كنيستهم للحاكم المسلم[١٢٦] .

والربط بين احداث الاضطهاد عام ١٩٢٨ وعام ١٩٣٢ يدل على خطر الأوتوقراطية على وحدة البلاد الوطنية وان المستفيد الوحيد هو السراي والمعادون لأي تقدم ديمقراطي او اصلاح في البلاد .

وكما وقفت الأوتوقراطية ضد الاصلاح الكنسي وتدخلت في شؤون الاقباط . فقد وقفت ايضا ضد اصلاح الأزهر وتطوره وأسف السراي المتنور من ان مشروع اعادة تنظيم الأزهر لا يهيىء الافادة من الجهود الطويلة للمسلمين اصحاب النزعة الحديثة للاصلاح[١٢٧].

وكان تدخل الملك في شؤون الأزهر هو وفق الدستور الجديد ـ دستور صدقي ـ فقد اعطت المادة ٤٢ من هذا الدستور السلطة للملك في تعيين شيخ الأزهر ووكيله وعلمائه وكذلك مديري المعاهد الدينية الست التالية له . واما السلطة الادارية التي كانت لهؤلاء الشيوخ فصلت بحيث كان القانون الجديد يضع الأزهر ونظام التعليم الديني كله تحت السيطرة التامة للملك[١٢٨] .

وحتى الجامعة المصرية لم تسلم من تدخل الأوتوقراطية للحد من الحريات الأكاديمية فقد وضع مشروع قانون جديد ومذكرة تفسيرية وهذا القانون كان معدلا للائحة الجامعة المصرية المقررة بقانون رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٧ .

وقد ادخلت تعديلات رئيسية على لائحة الجامعة ومالت هذه التعديلات الى الحد من الحريات الاكاديمية ... وكان واضحا منها انها تضع الجامعة تحت سيطرة الحكومة التامة . ووفر القانون الجديد رقابة قانونية على الجامعة يمكن للحكومة ممارستها بالطرق الغير قانونية ان لم تستطع ان تفعل بصورة قانونية[١٢٩] .

على ان من اكثر الدلالات على الميزات الملكية وهيمنة القصر في تلك المرحلة هو انه كان قادرا على ضرب بعض امراء البيت المالك الكبار ممن ليسوا محل رضاء الملك ومن امثلة ذلك تدخل الملك في شؤون الأوقاف .

وكانت الأوقاف نوعان : خيرية وخاصة والقصد من الوقف الخاص ان يخدم غرضين ، منع تبديد الأملاك على يد ورثة مبذرين وحماية الملك الخاص من طغيان الحاكم عليه . وكانت هناك ايضا اوقاف اخرى مختلطة بمعنى ان ريعها يذهب لبعض الأغراض الخيرية وبعضه الآخر يذهب للأشخاص[١٣٠] . وتدخلت المحكمة الشرعية ووزارة الأوقاف ـ في تلك الفترة ـ فاستدعت بعض نظار الأوقاف المختلفة لمحاسبتهم ـ وهذا كان من حقها ـ ومن بين هؤلاء النظار كان الأمير «محمد علي» ولما كان هؤلاء ليسوا محل رضاء الملك ، فان الغرض من استدعائهم كان هو ان السراي اوحت بمحاسبتهم بما يخشى معه ان يتم الاستيلاء على بعض الأوقاف الخاصة والسيطرة عليها من جانب القصر على نفس المنوال . فقد كانت وزارة الأوقاف آنئذ ، رهن اشارة القصر[١٣١] .

الصدام بين القصر وحكومة «صدقي» مضى اسماعيل صدقي بعد تزييف الانتخابات والحكم بالقمع ... مضى في حكمه معتمدا على برلمان تابع له من ناحية ، وعلى قصر محسن كريم من ناحية اخرى[١٣٢] . واذا كان الملك لا يؤمن أصلا بالدستور أو البرلمان . فان «صدقي» كذلك كان لا يؤمن بالنظام البرلماني ذلك انه طلب بعد انقلاب ١٩٢٨ ضرورة ايجاد البديل[١٣٣] .

لكنه من ناحية اخرى كان «صدقي» ومن خلال صعابه السابقة مع الملك ـ كما حدث في وزارة ١٩٢٥ ـ لا يؤمل في مستقبل اعتماد غير محدد على تأييد القصر في سكينة ـ وبالنسبة له ، كانت المسألة ، برلمانا مروضا لا يكون فقط بداية ما يراه من الوجهة العملية نظاما مستقرا اكثر يناسب مصر ، بل كذلك يجد فيه مؤيدا قويا له هو نفسه[١٣٤] . ازاء الملك .

لكن الملك نظر هو الآخر الى ان «صدقي» وقد فرغ من تهيأة البلاد لهذا النوع من الديكتاتورية المقنعة ، فانه كان قد ادى الغرض وبقي على الملك ان يحكم وحده ، ووحده فحسب . وكان «فؤاد» كما عبر عنه «تشمبرلين» بانه ماكر خبيث مغرض فاسد واتوقراطي[١٣٥] .

لم يكن الملك في الحقيقة يريد ان يدمر دستور سنة ١٩٢٣ ليمكن «صدقي» من الحكم الديكتاتوري ، وانما هو الملك ، اضطر لخدمة رجل قوي ليتخلص من الوفد ، وبقي ان يتخلص من الرجل القوي[١٣٦] .

ومن جانب آخر ففي سنوات الصراع بين الديمقراطية الدستورية وبين الملك منع وجود قوات الاحتلال الالتجاء الجدي الى العنف ، ولما كان ذلك كذلك ، وكان الملك وصدقي لا يمكن لأحدهما مناشدة الشعور الوطني ، لم يكن بد من اللجوء الى الدس الخلفي وهيأت حكومة «صدقي» رغم كفايتها في الكثير ـ حسب زعم لورين ـ فرصا كثيرة للسراء ، لحملات الهمس ضدها[١٣٧] .

والواقع ان اكثر الفرص التي اتيحت للملك لكي يقوى من قبضته على البلاد والحكومة ذاتها . كانت عندما

سافر «صدقي» في مايو ١٩٣٢ حتى عاد في سبتمبر . ولاحظ المندوب السامي بالنيابة عند عودته ان الوزارة تفقد قبضتها على الموقف في شكل بعض الاجراءات وكلها مقيدة للحريات[١٣٨] .

فمنذ سفر «صدقي» يمكن القول بان الوزراء كانوا يعملون تحت امرة «الابراشي» ـ ناظر الخاصة الملكية ـ رغم اعتراض «شفيق» ـ باشا ـ نائب رئيس الوزراء وانه اثناء هذه الفترة نشأ التوجيه من السراي[١٣٩] .

وقد ذهبنا من قبل الى القول بان الانجليز قد اعطوا الاشارة بالانتهاء من «صدقي»[١٤٠] بعد عودته من اجازته الصحية في اوروبا .

على ان ماذهبنا اليه من قبل لم يكن دقيقا ، فالحقيقة ان الملك هو الذي اراد الانتهاء من صدقي .

حقيقة ان «لورين» قد قابل «صدقي» في باريس وان «سيمون» وزير الخارجية قد بعث الى المندوب السامي بالنيابة يقول بان «صدقي» ينوي الاستقالة فور وصوله الى مصر وانه بعث الى الملك «فؤاد» يخبره بذلك المعنى[١٤١] . لكن «سيمون» ذكر ايضا بان «صدقي» ولو انه يبدو مؤكدا انه ينسب استقالته لأسباب صحية . الا انه يريد ان ينسبها الى الدسائس المختلفة التي شارك فيها الملك منذ مغادرته مصر[١٤٢] .

وكانت تعليمات «سيمون» الى المندوب السامي بالنيابة بانه اذا استشاره الملك قبل او بعد وصول «صدقي» فعليه ان يوضح له بان الحكومة البريطانية التي كانت بالطبع تعلم باحتمال استقالة «صدقي» باشا نظرا لصحته ، لا نية لديها في محاولة التأثير على قرار جلالته . ولكنه في نظرها ان اقصى ما ترغب فيه ان تكون الادارة المصرية متمتعة بالتأييد الشعبي ، وبقدر منه يضمن عدم التضحية بالادارة الطيبة والحفاظ على النظام[١٤٣] .

وفكرة وزارة من هذا النوع كان «سيمون» قد حدث «صدقي» عنها في اثناء مقابلته له في الخارج وهي فكرة قوامها تعريض قاعدة الوزارة وقال «صدقي» انه في ذلك الحين ـ سنة ١٩٣٢ ـ كان ثمة مشكلة في التفاهم مع الأحرار الدستوريين والوفديين المنشقين ، ولكنه رأى بعد عودته ـ سبتمبر ١٩٣٢ ـ انه يمكن التعاون مع هؤلاء الآن وانه ينظر في كيفية تدبير مثل هذا التعاون[١٤٤] .

ومعنى ذلك ان «صدقي» رأي بعد عودته امكانية تحقيق ما يريده الانجليز بتشكيل وزارة ذات وزن شعبي ، وبالتالي فانه عدل عن استقالته المزمعة ذات الطابع المبرر باسباب صحية ، بينما تعود حقيقتها الى الخلافات بين الملك و«صدقي» .

ويقول «صدقي» في هذا الصدد :

انه بعد عودتي اردت ان اختبر قدرتي على العمل والموقف فيما يتعلق بتدخل القصر ، وبالنسبة للأمر الأخير قررت السير على مهل حتى اضع حدا نهائيا له في آخر الأمر . فان لم استطع ، فانني في هذه الحالة لن استطيع المضي في عملي ويجب ان استقيل[١٤٥] .

وقام «صدقي» باخبار الملك في المقابلة الثانية بعد عودته من اوروبا بانه راغب في مواصلة العمل فسر الملك لذلك ـ ظاهريا ـ وحسب رواية ذوالفقار ، ولكن «صدقي» حين طلب الى الملك اجراء بعض التعديل في مجلس الوزراء ، قال الملك ان هذا الأمر ينظر فيه فيما بعد[١٤٦] . ويؤكد ان الملك كان ترحيبه باستمرار «صدقي» ظاهريا فحسب انه ذكر كامبل ـ المندوب بالنيابة ـ ان لديه تشكيلاته الخاصة ـ لتشكيل الوزارة الجديدة بدون «صدقي» ـ في رأسه وكرر هذا امام «كامبل» مرتين وان الأخير في المقابلتين اللتين تمتا مع الملك لاحظ ان الأخير اقل حماسة في اشاراته الى «صدقي» على غير عادته[١٤٧] .

ويذكر «صدقي» كذلك ان الملك لم يطلب منه حين قابله عند عودته ان يستمر في الحكم وحين شكا ذلك الى رئيس الديوان عاد الملك ليؤكد له الرغبة عنده في استمراره في الحكم فادرك ـ اي صدقي ـ ان الملك غير مستعد بعد بمن يخلفه[١٤٨] .

كان هجوم «صدقي» على السراي يرتكز على تدخلات «الابراشي» الذي كان يسعى لكبار الموظفين

وصغارهم . هذا التدخل كان معناه ارهاب الموظفين ازاء مطالب السراي وقال «صدقي» مضيفا انه يريد القضاء على هذا التدخل لكي يقترب من شكل الحكومة الدستورية التي تريد الحكومة البريطانية التعامل معها[١٤٩] .

كما هاجم «صدقي» إنفاق السراي الباذخ مثل اقامة تمثالين للملك في القاعة الكبرى بالجامعة المصرية تكلفا الوف الجنيهات . كما ان الملك طلب يختا جديدا في حين انه يملك افخم يخت لدى حاكم في العالم[١٥٠] .

واتهم «صدقي» الملك كذلك بانه لديه اطماع في الخلافة وراغب في الظهور بمظهر حامي الاسلام وانه اوعز الى كبار العلماء بنتيجة هذه الأفكار وان عمل هؤلاء كان سيصبح خطيرا جدا لولا ان حد منه «صدقي» بتدخله[١٥١] .

نهاية «صدقي» والاتهامات المتبادلة مع السراي

كانت استقالة «صدقي» في النهاية هي نتيجة طبيعية ازاء رغبة الملك في السيطرة على كل شيء . والسبب المباشر لهذه الاستقالة هي ان «صدقي» قدم الى الملك اسم «حافظ عفيفي» مرشحا لوزارة المالية ـ فحمل الابراشي اليه ردا مقتضبا من الملك برفض حافظ عفيفي . وترشيح الملك لاسم «حسن صبري» الذي يريده الملك . وعندئذ صمم «صدقي» على تقديم استقالته قائلا : انه لا يستطيع العمل في مواجهة المعارضة والدسائس ضده معا . ففي بلد دستوري ـ على زعم صدقي ـ اذا اقترح رئيس الوزراء احد رجال حزبه على الملك لشغل منصب وزاري ، ثم ان المرشح حافظ عفيفي هو رجل كفء ومحترم للغاية ، لا ينبغي للملك ان يرد باجابة مقتضبة ترفض الاقتراح بلا اسباب مبينة[١٥٢] .

وهكذا تفجر الخلاف بين رأس الأوتوقراطية في مصر ورئيس وزراءه الذي مهد له الأرض . واعترف «صدقي» ـ كما اشرنا ـ بان القضاء على تدخل «الابراشي» والملك هو اقتراب من الحكم الدستوري ... اي ان النظام كاله لم يكن دستوريا .

واعترف «لورين» كذلك بان «صدقي» حين اقام النظام الحاضر وراجع الدستور وقانون الانتخاب واقام «برلمان» جديد على اساسهما انما كان يأمل فقط الى ان تميل السراي الى تأييده ، وان «صدقي» كان شخصية استطاعت ان تعطي النظام «مظهر» الدستورية[١٥٣] .

والواقع ان «صدقي» في النهاية فضل الاستقالة حيال مسألة يستطيع فيها كسب ـ ما يسمى ـ الوضع الدستوري الى جانبه من ان يدع نفسه محوطا بالملك والابراشي تدريجيا[١٥٤] .

وايا كان الأمر فان «صدقي» الذي جاء بنظام لا يملك تأييدا شعبيا ولا تأييدا معقولا من المثقفين ، لابد وانه تحقق من انه يعتمد كلية على الملك ، الا حيث يكون بوسعه النجاح بادارته «الناجحة» لمليكه ، ان يحتفظ بدرجة كافية من حرية العمل بالنسبة لشخصه . كذلك لابد من ان «صدقي» تحقق من انه كلما قل الخطر من المعارضة ، عادت السراي تؤكد وجودها بالطريقة الأولى تدريجيا وتوسع من نطاق تدخلها في الادارة[١٥٥] .

والواقع ان المندوب السامي في مصر ـ برسي لورين ـ قد بذل اقصى الجهد في مساندة نظام «صدقي» حتى ان «كامبل» المندوب بالنيابة حين اخبر الملك بنبأ ترقية «لورين» ونقله الى «انقرة كاد فؤاد ان يبكي ولم تنتعش روحه الا بعد ان طمأنه «كامبل» بأن لا تغيير في السياسة[١٥٦] .

كان البريطانيون يريدون وزارة ذات قاعدة اعرض ، او تأييد شعبي ما وحين استجاب «صدقي» لهذا ... سارع الملك للاطاحة به .

وعلى نفس الطريقة التي اطاح بها بالوزارات السابقة دستورية كانت او ذات مسحة دستورية . وكانت القشة التي قصمت ظهر وزارة «صدقي» ان تجاهل الملك الأخير في تعيين الوزراء وتفاوض مع «حسن صبري» من وراء «صدقي»[١٥٧] .

وذهب «صدقي» ليأتي واحد من رجاله السابقين هو «عبدالفتاح يحيى» الذي كان ما يزال نائب رئيس حزب

الشعب الذي صنعه «صدقي» ودلت الأحداث ان حزبا العوبة كحزب الشعب لا يستطيع ان يساند صانعه في ازمة كهذه . فعندما اشرك «يحيى» في وزارته الجديدة اثنين من حزب الشعب هذا ... اعترض «صدقي» اذ رأى ان يمثل الحزب باربعة تبعا لنسبته البرلمانية ولكن الوزيرين آثرا الوزارة على الحزب فاستقالا منه[١٥٨] .

ودلت الأحداث على ان حزب الشعب الذي صنعه «صدقي» ليوازن نفوذ الملك ، قد اخترقه الأخير وكان يعمل منذ فترة على اجتذاب اعضاء حزب الشعب ، وكان ذلك طبيعيا ، كما يقول «كامبل» : اذ ان هذا الحزب لم يقم على مبدأ وانما كان من نتاج فكر «صدقي» وحده . والآن وقد خرج الأخير من الحكم ، فلن يبق له وجود ، خاصة ان النكرات الكثيرة فيه لن يضمن «صدقي» بقاء ولائها ان بقي هو في الحياة العامة[١٥٩] .

وهكذا انتهى فصل التعاون بين الملك وصدقي وادار كل سلاحه ضد الآخر . فاتهم الملك صدقي بحب السلطة واستغلال النفوذ[١٦٠] . واضاف «الابراشي» الى ذلك اتهاما الى «صدقي» بالعمل لصالح كبار الماليين والمصالح البلجيكية ، وبأنه غامر باموال الدولة[١٦١] .

ورد «صدقي» الهجوم فاتهم القصر بالتدخل في تفصيلات الادارة وقال بان ثمة غيبة للرادع الدستوري الفعال للتصرفات الملكية ونشاطات صاحبها[١٦٢] .

وانتهى الأمر بانتصار الأوتوقراطية واعتزال «صدقي» للسياسة[١٦٣].. آنذاك واحكمت السراي على البلاد قبضتها بما اذن لفصل جديد من الصراع لانهاء حكم الأوتوقراطية .

الهوامش

(*) نفضل نحن استخدام تعبير «فئات» وليس طبقات .

ونحن لا نوافق «مارلو» على ان الوطنيين العرابيين كانوا لا يعارضون السلطة المطلقة

k(1) Kedourie, E, The Chatham House version and other Middle Eastern Studies London 197 p. 162
(2) Ibid.
(3) marlowe, J., Anglo egyptian Relations 1800 - 1953 London 1954, p. 260
(4) Kedourie, Op. cit. p. 168
(5) Ibid
(6) Kedourie. Op. cit. P. 162
(7) Kedourie, Op. cit. P. 160
(8) Marlowe, Op. cit. p. 289
(9) Ibid.
(10) Marlowe, Op. cit. p.p. 289 - 290
(11) Lacouture, I., and S., Egypt in Transition, London 1958, p.p. 87 - 88.
(12) Marlowe, Op. cit P. 290
(13) Royal Institute of International Affairs. Great Britain and Egypt, 1914 - 1936, London 1936 p. 15
(14) Marlowe, Op. cit. p. 260
(15) Kedoutie, Op. cit. P. 165
(16) Ibid p.p. 167 - 168
(17) Kedourie, Op. cit. p.p. 168 - 173
(18) Kedourie, Op. cit. P. 175
(19) Kedourie, Op. cit. p. 175
(20) Chirol, V., The Egyptian Problem. London 1920 p. 133

(٢١) مصطفى النحاس جبر: سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية من ١٩١٤ - ١٩٣٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ - ص٢٥٩ - ٢٦٠ .

(*) لم يكن هذا هو السبب في الاحتلال الانجليزي للبلاد، بل كان السبب هو المطامع الاستعمارية في مصر .

(21) Marlowe, Op. cit. p. 260
(22) Marlowe, Op. cit p. 259
(23) Marlowe, Op. cit. p. 260
(24) Richmond, I, C.B. Egypt 1798 - 1952. London 1977 p. 192
(25) Marlowe, Op. cit. p.p. 271 - 275
(26) Royal Institute - Op. cit. p.p. 81 - 85
(27) Richard, Op. cit. p. 193
(28) Marlowe, Op. cit. p. 271 - 275
(29) Royal Institute, Op. cit. Loc. cit
(30) Marlowe, Op. cit. p.p. 275 - 277
(31) Ibid
(32) Richard, Op. cit. p. 193
(33) Marlowe, Op. cit. Loc. cit.
(34) Richmond, Op. cit. p. 195
(35) Marlowe, Op. cit. Loc cit.
(36) Lloyed, Lord, Egypt since Cromer. Vol. II. London 1934 p. 266
(37) Loyed, Op. cit. p.p. 267 - 274
(38) Ibid
(39) Richmond, Op. cit. p. 193
(40) Marlowe, Op. cit. p.p. 280 - 282
(41)F.O. Part CV II 407/210. Loraine to Hendereon No. 22
(42) F.O. Op. cit. No. 12. L. to H. Jan, 4, 1930
(43) F.O. Op. cit. No. 12
(44) F.O. Part CV II. 407/210. L. to H. No. 857. 16-8-1930

(٤٥) للمزيد من التفاصيل حول المفاوضات ١٩٣٠ ـ ونتائجها راجع: مصطفى النحاس جبر: المرجع السابق ص٣٢٣ وما بعدها .
ومصطفى النحاس: المرجع السابق ص ٣٢٥
(*) كانت مفاوضات المعاهدة مطروحا فيها جلاء الانجليز عن العاصمتين .

(45) F.O. No. 857 Op. cit.
(46) Ibid.
(47) Ibid.
(48) F.O. Part CV III. 407/212 Loraine to H.
(49) Memorandum by J. Murray inc in No. 304, July 4, 1930.
(50) F.O. Part CV II 407/210. Hoar to H. No. 460, May 10, 1930
(51) F.O. Op. cit. No. 51 Loraine to H. Jan 16, 1930
(52) Ibid
(53) F.o. Op. cit. Hoar to H. No. 476. May, 17, 1930
(54) Ibid.
(55)F.O. Op. cit. Loraine to H. No. 249. Jan 2, 1930
(56) F.O. Op. cit. L. to H. No. 569
(57) Ibid
(58) Ibid
(59) F.O. Part CV III 407/212 L. to H. No. 664 July 15, 1930
(60) F.O. part CV II 407/210 No. 569 L. to H. June 12, 1930
(61) F.O. Op. cit. Inc in No. 651 L. to H. Jan 27, 1930
(62) Ibid.
(63) Ibid
(64) F.O. 407/210 No. 569 Op. cit.
(65) Ibid.
(66) Ibid.
(67) F.O. 407/210 No. 278 L. to H. Jan 18, 1930
(68) F.O. Part CV III. F.O. 407/412 L. to H. No. 1115 Nov. 30, 1930.
(69) F. O. Part VII. F.O. 402/410 L. to H. No. 253 Jan 6, 1930
(70) F.O. 407/212 No. 664 Op. cit.
(71) Ibid.
(72) F.O. Part CV II. F.O. 407/210. L. to H. No. 620. Jan 27, 1930.
(73) F.O. 407/210 No. 628. L. to H. Jan 28, 1930.
(74) F.O. 407/210. No. 628 Op. cit.
(75) F.O. 407/210. No. 620 Op. cit.
(76) F.O. Part CV III F.O. 407/212. L. to H. No. 341 July 30, 1930
(77) F.O. Part cx. F.O. 407/213. L. to H. No. 228 Jan 2, 1931
(78) Ibid
(79) Ibid
(80) F.O. Part CV II 407/210. H. to L. No. 211 Jun 29, 1930.
(81) Ibid.
(82) F.O. 407/210. L. to H. No. 292 Jan 28, 1930
(83) Ibid.
(84) Ibid.
(85) F.O. Part CV III. F.O. 407/212. Hoar to H. No. 980. Oct 18, 1930.
(86) F.O. Part CV III.407/212. L. to H. Inc in No. 1115. Nov 30, 1930.
(87) F.O. 407/212. L. to H. No. 1164 Dec 14, 1930.
(88) F.O. 407/212 L. to H. No. 980 Oct. 18, 1930.
(89) F.O. 407/212 L. to H. No. 1084 Nov. 21, 1930.
(90) Ibid.
(91) Ibid.
(92) Ibid.
(93) F.O. Part CV IV. 407/213. L. to H. No. 322 A 2, 1931
(94) F.O. Op. cit. No. 284 Mar 20, 1931
(95) Ibid.
(96) Ibid.

(97) Ibid.
(98) F.O. Op. cit. L. to H. No. 188 May 11, 1931.
(99) F.O. Op. cit. H. to L. No. 140 May 11, 1931.
(100) Ibid.
(101) F.O. Op. cit. L. to H. No. 603 Jun 18, 1931.
(102) Ibid.
(103) F.O. Part CX II 407/216. L. to H. No. 1086 Dec 14, 1932.
(104) F.O. Part CX II 407/216 No. 1086 Op. cit.
(105) F.O. Part CX IV 407/217 Campbell to Simon No. 647. July 1, 1933
(106) Lacouture, 1, Op. cit. p. 90.
(107) F.O. Part CX 907/213 L. to H. No. 1187 Jan 6, 1931.
(108) Ibid.
(109) F.O. Op. cit. L. to H. No. 380 Op. cit.
(110) F.O. Op. cit. No. 245 H. to L. Mar 12, 1931.
(111) F.O. Part CX I. 407/215. L. to Simon No. 462 may 21, 1932.
(112) Ibid.
(113) F. O. Part CV II 407/212 L. to H. Nov 7, 1930 No. 1047.
(114) F.O. 407/217 L. to S. No. 107. Feb 3, 1933.
(115) F.O. 407/217 L. to S. No. 1048 Dec. 2, 1933.
(116) Ibid.
(117) Marlowe, Op. cit. p.p. 291 - 293.
(118) F.O. 407/213 L. to H. No. 189 Feb. 21, 1931.
(119) Ibid.
(120) Kedourie, Op. cit. p. 90
(121) Marlowe, Op. cit. p. 292
(122) Ibid
(123) F.O. 407/216 L. to S. No. 940 Oct. 10, 1932
(124) F.O. 407/217 L. to S. No. 1044 Dec 2, 1933
(125) F.O. 407/217 S. to L. No. 168 Aug 28, 1933
(126) Ibid.
(127) Ibid.
(128) F.O. 407/217 C. to S. No. 847 Sep. 16, 1933
(129) Ibid.
(130) Ibid.
(131) F.O. 407/217 C. to S. No. 799 Aug 19, 1933
(132) Ibid.
(133) F.O. 407/217 No. 847 to 799 Op. cit.
(134) F.O. No. 847 Op. cit.
(135) Ibid.
(136) F.O. 407/217 C. to S. No. 177 Sep. 21 1933
(137) F.O. 407/217 C. to S. No. 1044 Dec 2, 1933
(138) F.O. 407/217 C. to S. No. 272 Sep. 23, 1933
(139) Ibid.
(140) F.O. No. 799 Op. cit.
(141) F.O. no. 872 Op. cit.

المصادر والمراجع:

أولا:

الوثائق الأجنبية غير المنشورة :

- Further Correspondence Egypt and Sudan. Foreign Office Nos. :

407 210	
407 212	Concerning Egypt
407 213	during the years
407/214	From : 1930 - 1933.
407 215	
407 216	

ثانيا : المراجع الأجنبية :

- Chirol, V., The Egyptian Problem, London, 1920.
- Elgood, P.G., The Transit of Egypt London 1928
- Holt, P.M. (edited by), Political and Social change in Modern Egypt, London, 1968.
- Kedourie, E., The Chatham House Version and other Middle Eastern Studies London 1970.
- Lloyd, Lord, Egypt since Cromer Vol. II. London 1934.
- Marlowe, I, Anglo Egyptian Relations 1800 - 1953. London 1954.
- Richmond I.C.B. Egypt 1978 - 1952. London 1977.
- Royal Institute of International Affairs R.I.I.A. Great Britain and Egypt 1914 - 1936 London 1936.

ثالثا :

المراجع العربية :

- مصطفى النحاس جبر: سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية من ١٩١٤ ـ ١٩٣٦ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٥ .

دبلوماسية حرب القرم
١٨٥٣ ـ ١٨٥٦

الدكتور / هاشم صالح التكريتي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

الوضع الدولي عشية حرب القرم :

قفزت المسألة الشرقية بعد فترة قليلة من اخماد ثورات ١٨٤٨ في اوروبا وتسوية مشكلة اللاجئين البولنديين والهنغاريين الى الدولة العثمانية الى مركز الصدارة في العلاقات بين الدول الأوروبية الكبرى ، فلقد توفر لتلك الدول بعد ان ابتعد خطر الثورة عن اوروبا ما يكفي من الوقت والهدوء للعودة الى الاهتمام بتحقيق مصالحها التوسعية في الشرق الأدنى ـ المنطقة التي كانت ككل منها فيها نوايا توسعية محددة ، فالحكومة الروسية كانت تسعى لأن تعزز النظام الرجعي المستبد القائم في روسيا عن طريق تحقيق نجاحات خارجية والى ترسيخ النفوذ الروسي في الدولة العثمانية بينا سعت الحكومتان البريطانية والفرنسية الى بسط نفوذهما السياسي والاقتصادي على الدولة العثمانية وعلى منطقة الشرق الأدنى عموما ولهذا فقد اصطدمت المصالح الاستعمارية للجانبين وتعمقت المنافسة بينهما . وكان هؤلاء المتنافسون يرتابون ببعضهم ويخشى احدهم الآخر ، فالأوساط الحاكمة في بريطانيا وفرنسا كانت تخشى من ان تستولي روسيا على المضايق العثمانية بينما كان الخوف يسيطر على القيصر الروسي من انهيار الدولة العثمانية فجأة فتتمكن بريطانيا في اثناء ذلك من بسط نفوذها وسيطرتها في الشرق الأدنى ولذلك فقد كان كل مظهر جديد من مظاهر ضعف الدولة العثمانية يشدد من خشية الجانبين وكل حادثة تخص الدولة العثمانية تثيرها .

وكان نيقولا الأول يدرك ان العقبة الأساس التي تعيق تحقيق مخططاته تجاه الدولة العثمانية هي بريطانيا ولهذا فان حاول ان يتفق معها بطريقة ما ، وسعى في ١٨٥٢ الى ان يستوضح موقف الحكومة البريطانية من امكانية الاتفاق بين روسيا وبريطانيا حول مصير الامبراطورية العثمانية . وهكذا انتهز فرصة وجوده في احدى الحفلات التي حضرها السلك الدبلوماسي في بطرسبورغ في كانون الثاني ١٨٥٣ فاقترب من السفير البريطاني هاملتون سيمور وأجرى معه حديثا حول الموضوع كان الأول من اربعة احاديث بينهما جرت الثلاثة الأخرى منها في شباط من العام نفسه . لقد اكد القيصر للسفير في هذه اللقاءات بانه لا يطمع باراضي جديدة لأن روسيا واسعة لدرجة كافية وانه لا شيء افضل لمصالح روسيا من وجود الدولة العثمانية الى جوارها ولكنه استدرك قائلا بان الدولة العثمانية رجل مريض «وانا مثلكم راغب في استمرار حياته ... انه يمكن ان يموت فجأة بين ايدينا ، اننا لا نستطيع ان نحيي الموتى . اذا سقطت الامبراطورية التركية فانها ستسقط لكي لا تقوم بعد ذلك ابدا . ولهذا افلا يكون من الأفضل ان نكون مستعدين مسبقا لهذا الاحتمال من ان نجلب لانفسنا الفوضى والارتباك وحتمية حرب اوروبية...» «ان من الأهمية بمكان ان يفهم احدنا الآخر وان لا نسمح للحوادث ان تفاجئنا» . ثم واصل القيصر حديثه قائلا : «اريد الآن ان اتحدث معك كصديق وجنتلمان . اذا استطعنا انا وانجلترا التوصل الى اتفاق في هذه القضية فان الباقي ليس مهما بالنسبة لي . لا فرق عندي فيما يفعله الآخرون او يفكرون به . وهكذا فانني اعلن لك مباشرة وبصراحة بانه اذا فكرت انجلترا في المستقبل القريب بان ترسخ نفسها في القسطنطينية فانني لن اسمح بذلك . انني لا انسب لكم هذه النوايا ولكن في مثل هذه الحالات من الأفضل التحدث بوضوح . انا من جانبي ميال بشكل متساو لان التزم بعدم الترسيخ هناك على شكل مالك طبعا ، اما بشكل الحامي المؤقت فتلك مسألة اخرى ، ربما سيحدث ان تجبرني الظروف على

احتلال القسطنطينية اذا لم يكن كل شيء قد بحث مسبقا واذا ما توجب علينا ان نترك كل شيء للصدفة . فان الروس والانجليز والفرنسيين لن يمتلكوا القسطنطينية ، كذلك لن تحصل عليها اليونان . انني لن اسمح في يوم ما بذلك» . بعد ذلك طرح القيصر على السفير ما يمكن ان يكون خطة لاقتسام اجزاء واسعة من الدولة العثمانية حيث قال: «لتدخل ملدافيا وولاكيا وصربيا وبلغاريا تحت جماعة روسيا . اما فيما يتعلق بمصر فانني افهم تماما اهمية تلك المنطقة لانجلترا . هنا انا استطيع فقط ان أقول بانكم ستمتلكون القسطنطينية عند تقسيم الارث التركي حيث ستسقط الامبراطورية [العثمانية] وانا لن يكون لدي اعتراض على ذلك . الشيء نفسه سأقوله عن كانديا [جزيرة كريت] ايضا . ان هذه الجزيرة ربما ستذهب لكم وانا لا أرى لماذا لا تكون ملكا لانجلترا» . وعند الوداع قال القيصر للسفير: «حسنا ادفع حكومتكم لأن تكتب عن هذا الموضوع بتفصيل اكثر ودون تردد . اننى اثق بالحكومة الانجليزية وانا لا اطلب منها التزاما او اتفاقية . انه مجرد تبادل حر للآراء وكلمة جنتلمان في حالة الضرورة ان هذا يكفي بالنسبة لنا(١)» .

لقد ارتكب نيقولا الأول في موقفه هذا ثلاثة أخطاء كبيرة كان لها انعكاساتها على تطور الأحداث فيما بعد اولها انه اسقط فرنسا من حسابه لأنه كان مقتنعا بانها ما تزال ضعيفة بعد الأحداث الثورية والانقلابات التي عاشتها في ١٨٤٨ ـ ١٨٥١ وبان الامبراطور الفرنسي لن يخاطر بدخول حرب في منطقة بعيدة اذا لم تلجئه الى ذلك ضرورة ملحة ، وثانيها اقتناعه بان النمسا لن تبدي اي اعتراض مهما كان ضعيفا على مشاريعه تلك بسبب ضعفها وحاجتها اليه وضرورة عرفانها له بالجميل الذي اسداه لها في ١٨٤٨ باخماده للثورة في هنغاريا «مع انه ليس ثمة وسيلة، في الشؤون الدولية تستطيع بها الدولة ان تضمن لنفسها تعويضا في المستقبل لقاء خدمة تقدمها في الحاضر(٢)» .

اما ثالث هذ الأخطاء واهمها فهو انه لم يستطع ان يكون لنفسه تصورا صحيحا عن كيفية استقبال الحكومة البريطانية لمقترحاته هذه . قد اعتقد ان هذه المقترحات ستصادف قبولا لديها طالما ان ابردين المتعاطف مع روسيا والذي استمع اليه باهتمام اثناء محادثاته معه في ١٨٤٤ يقف الآن على رأس الوزارة البريطانية ، لقد ضللته في هذه القضية الحفاوة التي قابله بها المسؤولون البريطانيون وعلى رأسهم الملكة فكتوريا عند زيارته الأخيرة لبريطانيا ولم يدرك أن الذي يقرر السياسة البريطانية ليس العواطف الشخصية لهذا المسؤول او ذاك بل مصالح النظام القائم في بريطانيا التي كانت انذاك تقضي بالمحافظة على كمال الامبراطورية العثمانية وحصانة اقاليمها . والواقع ان تقويم نسيلوديه ، وزير الخارجية الروسي لموقف بريطانيا كان اكثر واقعية من تقويم القيصر فقد اعتقد وزير الخارجية الروسي بأن «الأمل ضعيف في اننا سنجد في حالة قيام الحرب حليفا في شخص انجلترا انها سوف تساعدنا على المحافظة على السلام ولكنها ستنقلب ضدنا او تتخذ موقف الحياد المسلح في اقل تقدير بعد ان تكتشف باننا ذهبنا في مطاليبنا بعيدا جدا(٣)» .

على أي حال جاء رد الحكومة البريطانية ليؤكد خطأ توقعات نيقولا الأول فقد انطوى على موقف سلبي واضح من مقترحات القيصر . لقد جاء في هذا الرد الذي وقعه وزير الخارجية البريطاني اللورد رسل ان «.... تقرير مصير اقاليم واقعة تحت سيادة السلطان بشكل مسبق سيكون قليل الانسجام مع شعور الصداقة الذي يكنه امبراطور روسيا . له بدرجة لا تقل عن ملكة بريطانيا» وانه سيكون من مجافاة العدل اخفاء مثل هذا الاتفاق عن النمسا وفرنسا كما ان الاتفاق ، لو عقد فانه لن يبقى سرا لوقت طويل ولذلك فانه في الوقت الذي سيخيف السلطان وينفره «سينبه اعداءه ويدفعهم الى زيادة العنف ويزيد من تعقيد النزاع(٤)» .

حاول نسيلروديه بعد تسلم رد الحكومة البريطانية هذا ان يلطف في محادثاته مع سيمور من وقع تصريحات القيصر السابقة مؤكدا ان القيصر لم يقصد ابدا ان يهدد الدولة العثمانية وانما كل ما اراده هو ان يضمنها بالاشتراك مع بريطانيا ضد اعتداءات محتملة من جانب فرنسا(٥) . غير ان القيصر قرر رغم ذلك ان يمضي في مشروعه قدما مدفوعا باعتقاد مفاده ان النمسا وفرنسا لن تنضما الى بريطانيا ضده وان بريطانيا لن تحاربه

لوحدها دون حلفاء . ومع ان القيصر كان محقا في اعتقاده بان بريطانيا لن تدخل حربا لوحدها الا انه كان مخطئا في الشق الأول من اعتقاده ونعني تقويمه لموقف النمسا وفرنسا ، وهنا ايضا كان تقرير نسيلروديه للأمور اصوب من تقدير القيصر ففي الوقت الذي كتب فيه نيقولا يقول تعليقا عن جواب الحكومة البريطانية المشار اليه: «اما فيما يتعلق بالنمسا فانني واثق منها لأن معاهداتنا تحدد علاقاتنا[٦] كان وزير خارجيته اكثر وعيا لحقيقة الموقف الذي ستتخذه النمسا فقد كتب يقول «.... على الرغم من كل قربها [النمسا] منا وعلاقاتها المتوترة مع الباب العالي فهل ستستطيع ، مع كونها دولة كاثوليكية ، ان تساند في الشرق قضية معادية للكاثوليكية؟[٧] .

كذلك اسقط نيقولا الأول من حسابه فرنسا وكان ذلك خطأ كبيرا من جانبه فهو لم يفهم الوضع في فرنسا بعد انقلاب كانون الأول ١٨٥١ ولم يدرك نزعات عاهلها الجديد . وكان السبب الأساسي في ذلك هو المعلومات الخاطئة التي كان سفراؤه في عواصم الدول الكبرى ووزير خارجيته يزودونه بها فهؤلاء جميعا كانوا يزينون الوضع للقيصر و«... يكتبون له لا ما يرونه فعلا وانما ما كان القيصر يرغب في معرفته[٨] .

ولكن القيصر لم يلبث ان بدأ يعي حقيقة الأمور وكان ذلك مرتبطا بالنزاع الذي قام بينه وبين نابليون الثالث حول الأماكن المقدسة . وكان هذا النزاع الذي قام به ١٨٥٠ قد بدأ على شكل خلاف بين رجال الدين الكاثوليك والأرثوذكس في فلسطين حول حماية الأماكن المقدسة هناك ولكن تحول الى قضية دولية عندما قامت فرنسا باسناد الكاثوليك وروسيا بدعم الأرثوذكس[٩] . فقد طلب لويس نابليون في آيار ١٨٥١ ، وكان ما يزال رئيسا للجمهورية الفرنسية ، من الحكومة العثمانية ان تؤكد بوثيقة رسمية الوضع الأفضل لرجال الدين الكاثوليك ولجميع الكاثوليك الذين يتمتعون بنظام الحماية[١٠] ، مؤكدا بذلك رغبته في احياء الامتيازات التي اقرتها لهم المعاهدات القديمة ولا سيما معاهدة ١٧٤٠ والتي لم يعد رجال الدين الكاثوليك يتمتعون بها وتفوق عليهم في ذلك الارثوذكس بسبب اسناد روسيا لهم وانشغال فرنسا بمشاكلها الداخلية وحروبها الخارجية طيلة اواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر . وحظيت مطاليب نابليون هذه باسناد الدول الكاثوليكية الأخرى وهي النمسا واسبانيا وسردينيا والبرتغال وبلجيكا ونابولي فاضطر الباب العالي الى الاستجابة للطلب الفرنسي . لكن ذلك اثار امتعاضا شديدا لدى القيصر الروسي الذي بادر وطلب من الحكومة العثمانية العدول عن ذلك على الفور[١١] وابدت الحكومة الروسية استعدادها لابداء المساعدة المسلحة للدول العثمانية في حالة تعرضها لهجوم من جانب فرنسا وذلك لتشجيع الحكومة العثمانية على الصمود امام فرنسا التي قام سفيرها في اسطنبول لافاليت بتهديدها بادخال الاسطول الفرنسي الى الدردنيل وتوجيه سفن حربية الى سواحل الشام[١٢] .

والواقع ان قضية الأماكن المقدسة لم تكن تهم لويس نابليون او نيقولا الأول بل كانت بالنسبة للاثنين ستارا لقضايا اعمق واكثر اهمية . وقد كشف وزير خارجية لويس نابليون عن ذلك فيما بعد عندما صرح قائلا: «ان قضية الأماكن المقدسة وكل ما يتعلق بها ليست لها اهمية حقيقية بالنسبة لفرنسا . ان كل هذه القضية الشرقية التي اثارت مثل هذه الضجة الكبيرة كانت بالنسبة الى الحكومة الامبراطورية [الفرنسية] مجرد وسيلة لتفكيك الحلف القاري الذي ظل يشل فرنسا طيلة نصف قرن تقريبا . لقد سنحت الفرصة اخيرا لزرع الشقاق في التجمع القوي فتشبث بها نابليون بكلتا يديه[١٣]» . وهكذا فقد اراد نابليون ان يتخذ من هذا النزاع الذي حصل في الشرق الأدنى وسيلة لابعاد بريطانيا والنمسا عن روسيا وذلك لأن الشرق الأدنى بالذات هو المنطقة التي تتصادم فيها بشدة مصالح هاتين الدولتين مع مصالح روسيا ، يضاف الى ذلك ان المعاهد الفرنسي اراد ايضا ان يستغل هذه القضية لترسيخ وضعه وتوطيد اركان حكمه في فرنسا . اما نيقولا فقد رأى في النزاع حول الأماكن المقدسة حجة ملائمة ومقبولة لتأمين وتوسيع النفوذ الروسي في الدولة العثمانية وكان رعايا الدولة العثمانية المسيحيون ولاسيما الأرثوذكس يؤلفون في نظر القيصر والحكومة الروسية وسيلة ملائمة لتحقيق هذا

الهدف ولهذا فقد كانت روسيا دائبة على توسيع نفوذها ورفع مكانتها فيما بينهم بمختلف الوسائل فقامت في هذا الوقت بالذات بتوزيع مبالغ نقدية لا يستهان بها على الأرثوذكس وعمدت الى تعمير الكنائس والأديرة القديمة وشرعت ببناء اخرى جديدة وافتتحت عدة معاهدة دينية وغير ذلك من الاجراءات[١٤] . وهذا هو في الواقع ما جعل نيقولا الأول لا يكتفيِ بالمطالبة بحماية حقوق الكنيسة الأرثوذكسية في القدس وبيت لحم فقط بل يتعدى ذلك الى المطالبة بان تعترف الحكومة العثمانية به حاميا لجميع رعاياها الأرثوذكس . ومعنى ذلك ان يكون له حق التدخل الدائم في الشؤون العثمانية الداخلية .

اما عن الدول الأخرى فتبدو ان أيا منها لم يأخذ النزاع بين القيصر الروسي والعاهل الفرنسي مأخذ الجد في اول الأمر ولم يعطه الأهمية التي اصبحت له فيما بعد ، فبريطانيا التي كانت اهتماماتها الدينية في الشرق تقتصر على حماية مصالح البروتستانت لامت فرنسا على موقفها الذي يعرض الدولة العثمانية للخطر لأنه يعطي لروسيا فرصة للضغط عليها ، والنمسا التي كانت لها مصالحة في توسيع نفوذها في الشرق والتي ساندت فرنسا في البداية عادت واتخذت موقفا حياديا في الظاهر على الأقل[١٥] .

على كل حال تفاقم النزاع في بداية ١٨٥٣ وأخذ العثمانيون يبدون ، باسناد من الدبلوماسية الفرنسية ، تصلبا واضحا في محادثاتهم مع الروس في الوقت الذي استجابوا فيه لأغلبية المطالب الفرنسية بشأن الأماكن المقدسة ، ومع ذلك ظل القيصر الروسي اسير تصوراته الخاطئة بان فرنسا لن تحارب من اجل الدولة العثمانية وان النمسا لن تجرؤ على ذلك ايضا وبريطانيا لن تتحرك بدون فرنسا والنمسا بل لقد اعتقد بانه «مهما حدث فان ابردين [رئيس وزراء بريطانيا انذاك] سوف يمنع زملاءه من الوصول الى حد الحرب[١٦]» . ولهذا فقد قرر حتى بعد ان رفضت بريطانيا مقترحاته على النحو الذي اشرنا اليه المضي قدما في مخططاته تجاه الدولة العثمانية فامر بارسال بعثة كبيرة برئاسة عضو مجلس الدولة الأميرال منشيكوف الى اسطنبول وفوضه ان يقدم الى الحكومة العثمانية انذارا باسم الحكومة الروسية في حالة عدم الاستجابة للمطاليب التي سيطرحها

النزاع الروسي ـ العثماني في ١٨٥٣ .

وموقف الدول الكبرى :

فوض منشيكوف بان يحسم النزاع حول الأماكن المقدسة وذلك بدفع السلطان الى ان يوقع مع الامبراطور الروسي معاهدة بهذا الشأن تتضمن ايضا الاعتراف بحق الامبراطور في حماية جميع رعايا السلطان الأرثوذكس[١٧] . وكان القيصر يتوقع النجاح لبعثة منشيكوف مستندا في ذلك الى موافقة السلطان قبل ذلك بقليل على طلب المبعوث النمساوي لينينكين الذي ارسلته الحكومة النمساوية الى اسطنبول في بعثة خاصة ليحمل الحكومة العثمانية على ابعاد الجيش العثماني في عن الجبل الأسود فنجح في ذلك[١٨] ، ولم يدرك الاختلاف بين الحالتين فالجبل الأسود لم تكن تخضع للدولة العثمانية من الناحية الفعلية واقتصرت تبعتها لها على الناحية الشكلية فقط ولهذا فان الدولة العثمانية لن تخسر شيئا في واقع الأمر اذا استجابت لطلب النمسا بينما كانت استجابتها لمطاليب منشيكوف تؤدي الى تفويض سلطة السلطان في جميع ممتلكاته التي يقطنها الأرثوذكس . ولابد ان نشير هنا الى ان قضية الجبل الأسود اثرت على موقف القيصر الروسي في النزاع حول الأماكن المقدسة من ناحية اخرى ، ذلك ان روسيا كانت قد تضامنت مع النمسا ضد الدولة العثمانية في تلك القضية الأمر الذي حدا بوزير خارجية النمسا بوول الى ان يشكرها بحرارة على جميلها هذا ويؤكد لها «بان النمسا سوف ترده لها اذا ما اصبح نزاع روسيا مع تركيا جديا[١٩]» ، واسهم موقف بوول هذا في تضليل نيقولا الأول لأنه عمق يقينه في ان النمسا ستقف موقفا وديا من روسيا في حالة قيام الحرب بينها وبين الدولة العثمانية . وكان هذا اليقين واحدا من الأسباب التي جعلت القيصر الروسي بتشدد في موقفه ويمضي في تنفيذ مخططاته حتى لو ادى ذلك الى الحرب . ولهذا فقد زود منشيكوف بصلاحيات واسعة وافهمه «... بانهم لن يغضبوا منه في قصر الشتاء [مقر الامبراطور الروسي] حتى لو ادى نشاطه الدبلوماسي الى حرب بين روسيا

والدولة العثمانية[٢٠] ، وضم الى بعثته ضابطان كبيران هما الأميرال كورنيلوف والجنرال نيبكويتشتسكي قاما بدراسة ضفاف البسفور والدردنيل ووصلا حتى سميرنا وبيريه في مهمة تجسسية واضحة[٢١] .

وصل منشيكوف اسطنبول في ٩ آذار ١٨٥٣ واستقبل هناك بحفاوة زائدة عن الحد رغم انه كان يتصرف بتعال وبمجرد ان وصل اعلن بانه لا يريد التعامل مع وزير الخارجية فؤاد افندي الذي يساند الفرنسيين في قضية الأماكن المقدسة فبادر السلطان الى اقالة فؤاد افندي وعين بدلا منه رفعت باشا الذي اراده منشيكوف وذلك بعد ان وصلته اخبار تحشيد فيلقين من القوات الروسية في بسارابيا . وقد شجع ذلك منشيكوف على على الاستمرار في تعاليه وصلفه في التعامل مع السلطات العثمانية .

على اية حال اصبح واضحا منذ البداية ان منشيكوف يصر على مطلبين اساسيين لا يتنازل عنهما تحت اي ظرف اولهما هو ان لا يعترف لروسيا بالحق في حماية الكنيسة الأرثوذكسية فقط بل ينبغي ان تشمل حمايتها رعايا السلطان الأرثوذكس ايضا وثانيهما ان تؤكد موافقة الدولة العثمانية على ذلك بصيغة معاهدة بين الدولتين وليس عن شكل مرسوم او فرمان يصدرة السلطان لرعاياه يعلمهم فيه بحقوق الكنيسة الأرثوذكسية وبالدولة التي تولت حمايتها . وهكذا فقد تعدى الأمر قضية الأماكن المقدسة التي كان السلطان عبدالمجيد مستعدا الآن لأن يستجيب لمطاليب روسيا بشأنها ولكن القيصر لم يعد يهتم لذلك .

قدم منشيكوف لرفعت باشا في ٢٤ آذار مشروع ميثاق حول وضع الكنيسة الأرثوذكسية اكد على ان تمنح روسيا بشكل محدد الحق في حماية السكان الأرثوذكس في الامبراطورية العثمانية بنفس الشكل الذي ورد في الامتيازات الممنوحة لفرنسا في ١٧٤٠ فيما يتعلق بالسكان الكاثوليك[٢٢] ، وتضمن جملة من الامتيازات لروسيا تجعل القيصر الروسي «سلطانا تركيا ثانيا[٢٣]» .

في هذه الأثناء كان ستراتفورد كاننغ الذي اصبح يعرف الآن باللورد ردكليف بعد ان انعم عليه بهذا اللقب قد عاد الى منصب السفير البريطاني في اسطنبول فوصلها في ٥ نيسان ١٨٥٣ . وستراتفورد هذا يعتبر من اشد مناهضي النفوذ الروسي في الدولة العثمانية بالاضافة الى كونه خصما شخصيا لنيقولا الأول منذ ان وجه له القيصر اهانة شخصية في ١٨٣٢ عندما رفض قبوله سفيرا لبلاده في روسيا فكان هذا الرفض سببا اضافيا زاد من نزعات ستراتفورد المعادية لروسيا «وساعد على تحويله الى واحد من اشد خصوم روسيا عنفا ومن ابرز اصحاب المبادرة في [قيام] حرب القرم[٢٤]» . وكان ستراتفورد هذا «مقتنعا بانه لن تكون هناك تسوية حقيقية في الشرق الأدنى الى ان تحبط ادعاءات روسيا علنا والى ان يتكبد القيصر اندحارا دبلوماسيا او عسكريا واضحا...[٢٥]» ولهذا فقد استغل الصلاحيات الواسعة التي زوده بها كلارندون الذي حل محل رسل وزيرا للخارجية البريطانية في حكومة ابردين فعمل بذكاء ومهارة على ايصال الأمور الى الحرب . فقد استطاع هذا الدبلوماسي المحنك ان يخدع منشيكوف الذي لم يكن بمقدوره مجاراته في مؤهلاته الدبلوماسية وخبرته الواسعة . لقد تأكد رد كليف باستقرائه لتصرفات منشيكوف من طبيعة التعليمات التي زود بها وحقيقة الأهداف التي كان القيصر يسعى الى تحقيقها لا سيما وانه كان قد علم وهو في طريقة الى اسطنبول بمحتوى الميثاق الذي تريد روسيا ان تعقده مع الدولة العثمانية من الترجمان الروسي ستيفان بيزاني الذي قابله في تريستا[٢٦] . ولهذا فقد نصح السلطان ووزراءه بان تقدموا اكثر ما يمكن من التنازلات في القضية التي كانت مثار النزاع بين روسيا وفرنسا اي قضية الأماكن المقدسة ولكنه كان صلبا فيما يتعلق بمطلب روسيا الاساسي ونعني تأكيد حق روسيا في حماية الأرثوذكس بميثاق او معاهدة وكان صريحا في هذا الشأن حيث بادر فور وصوله الى اسطنبول ، باخبار القائم بالأعمال الروسي بان مطلب روسيا هذا «لا يثير معارضة الباب العالي فقط بل معارضتنا جميعا نحن جيرانها الغربيين ... ان عصبة ستتكون ضد روسيا[٢٧]» .

لقد كان ردكليف يعلم جيدا بان منشيكوف لن يقنع بقضية الأماكن المقدسة لأنه لم يأت لهذا الغرض بل سيبدأ بالالحاح على مطاليب عدائية ظاهرة ، الأمر الذي سيوفر لبريطانيا وفرنسا الحجة لاسناد الدولة

العثمانية . وبما انه كان يعلم بان ابردين رئيس الوزراء البريطاني ، لم يكن يرغب في توتير الوضع فانه لم يتورع عن اللجوء الى التحريف في سبيل ان يحقق هدفه في دفع الحكومة البريطانية الى الوقوف من روسيا موقف المجابهة الصريحة ، فعندما ارسل الى لندن نص مشروع الميثاق الذي اقترحه منشيكوف على رفعت باشا اجرى فيه تحريفا باتجاه يثير حفيظة الحكومة البريطانية حيث قام باستبدال عبارة «ان يكون للحكومة الروسية ، كما في السابق ، الحق في ان تقوم بتمثيلات [دبلوماسية] لصالح الكنائس» التي وردت في المادة الأولى من الميثاق المقترح بعبارة: «ان يكون للحكومة الروسية ، كما في السابق ، الحق في اصدار أوامر للكنائس» .

واضح ان هذا التحريف غير طابع الميثاق من اساسه فاثار ، كما اراد ردكليف ، استياء شديدا لدى الكومة البريطانية واثار حنق حتى العناصر المعتدلة فيها التي لم تكن تريد للأمور ان تتأزم وبذلك حقق ردكليف هدفه في دفع الحكومة البريطانية الى اتخاذ موقف اكثر حزما في مجابهة روسيا .

اما عن الحكومة العثمانية فقد رفضت مطلب منشيكوف مستندة الى تأييد السفير البريطاني وتحريضه ، والواقع ان المطلب الروسي كان مثار استياء كل الساسة العثمانيين ، فحتى رفعت باشا الذي كان يعد من انصار روسيا لم يرضه الالحاح الروسي في هذه القضية . فاعلن للترجمان الروسي قائلا «بالله عليكم كونوا معتدلين ولا تدفعونا الى الشطط . انكم تجبروننا على الارتماء في احضان الآخرين[٢٩] ..» .

وبعد ان اقتنع منشيكوف بان ردكليف يشجع العثمانيين ويحرضهم سرا تراجع عن موقفه السابق بعض الشيء وقدم في ٥ آيار الى رفعت باشا مسودة جديدة للميثاق المقترح حذف منها مطلب حماية الكنيسة الأرثوذكسية وكذلك البنود الخاصة بانتخاب البطارقة الأرثوذكس ولكنها تضمنت حق روسيا في انشاء كنيسة جديدة مع ملحقاتها في القدس وتأكيد جميع المعاهدات المعقودة في السابق بين روسيا والدولة العثمانية[٣٠] .

وجاء رد الحكومة العثمانية عن هذا الاقتراح الجديد في ١٠ آيار . وفي هذا الرد وعد الباب العالي باحترام حقوق رعاياه الأرثوذكس وحصانة الكنيسة اليونانية ولكن رفض التوقيع عن الاتفاق الذي طلبه منشيكوف لأن ذلك يعرض استقلال الدولة العثمانية الى الخطر[٣١] . وفي الوقت نفسه عقد في ١٧ آيار اجتماع موسع لمجلس الاصلاحات في الدولة العثمانية اشترك فيه جميع الوزراء وقادة المناطق العسكرية البارزون وولاة اكبر خمس ولايات في الامبراطورية وناقش المجلس مطاليب روسيا وقرر رفضها . وعلى اساس قرار المجلس هذا علم منشيكوف بان الحكومة العثمانية عازمة على المحافظة على الوضع القائم في الأماكن المقدسة وان اي تغيير تجريه السلطات العثمانية هناك ينبغي ان يجري الاتفاق عليه مع فرنسا وروسيا اللتين اعترف بهما ، تبعا لذلك ضامنين للكنيسة المسيحية في الامبراطورية العثمانية لا ترجح احداهما عن الأخرى في هذا المجال ، واعلم منشيكوف ايضا بان السلطان عبدالمجيد سيصدر فرمانا بخصوص حماية الرعايا الأرثوذكس ولكنه لن يوجهه الى روسيا وانما الى بطريرك اسطنبول وهو من رعايا الدولة العثمانية[٣٢] . وفي ١٩ آيار عقد ردكليف اجتماعا مع سفراء فرنسا والنمسا وروسيا واقر الاجتماع موقف الدولة العثمانية هذا وفوض سفير النمسا لإخبار منشيكوف بذلك . ورد منشيكوف على ذلك بان قدم للحكومة العثمانية مشروع مذكرة جديدة جاء فيها فيما يخص علاقة روسيا برعايا الدولة العثمانية الأرثوذكس ان السلطان «يتكرم بتقدير التمثيلات الصريحة والمخلصة التي يقوم بها السفير الروسي لصالح الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ويأخذها بنظر الاعتبار الجدي» غير ان الحكومة العثمانية رفضت ذلك لأنها اخذت بوجهة نظر ردكليف الذي رأى ان المشروع بصيغته الحالية له صفة المعاهدة ولهذا فانه مرفوض بشكله الحالي[٣٣] . وفي ٢٠ آيار قدم منشيكوف الى وزير الخارجية العثماني اقتراحا جديدا يقضي بان تعلن الحكومة العثمانية وثيقة رسمية (لم يحدد المبعوث الروسي شكلها) تلتزم بموجبها بتأكيد جميع حقوق وامتيازات الأرثوذكس السابقة وتمنحهم جميع الحقوق التي يحصل عليها اصحاب المعتقدات الأخرى في المستقبل[٣٤] . وعندما لم يتسلم منشيكوف ردا على ذلك قرر قطع اتصالاته

بالمسؤولين العثمانيين ومغادرة العاصمة العثمانية . وبالفعل غادر اسطنبول مع بقية افراد بعثته في ٢١ آيار ١٨٥٣ ملقيا على الجانب العثماني مسؤولية ما يمكن ان يترتب على ذلك من عواقب ، وتبعه في ٢٧ آيار القائم بالأعمال الروسي في اسطنبول . وفي ٣١ آيار ارسل نيسلروديه الى الحكومة العثمانية بامر من القيصر مذكرة طالب فيها بقبول مذكرة منشيكوف الأخيرة خلال ثمانية أيام والا فان القوات الروسية ستدخل الى امارتي الدانوب لا لاشعال الحرب بل ليكون ذلك ضمانا ماديا لتغيير الباب العالي للمطاليب التي قدمتها روسيا[٣٥]. وفي اليوم نفسه فوض وزير الخارجية البريطاني سفيره في اسطنبول ردكليف باتخاذ التدابير اللازمة لحماية السلطان باستخدام القوة كوسيلة اخيرة لا يمكن تلافيها للمحافظة على الدولة العثمانية . وفي ١٣ حزيران وصل الى مدخل الدردنيل اسطول بريطاني انضم الى الاسطول الفرنسي المتواجد هناك وقد شجع ذلك العثمانيين فارسلت الحكومة العثمانية في ١٦ حزيران الى الحكومة الروسية ردها برفض مذكرة منشيكوف الأخيرة[٣٦] . وردت روسيا على ذلك بان امرت قواتها باحتلال امارتي الدانوب فقام فيلقان روسيان في ٣ تموز بعبور نهر بروت والمباشرة بإحتلال الامارتين دون اعلان الحرب وذلك على الرغم من ان الحكومة العثمانية كانت قد اصدرت في ٤ حزيران ١٨٥٣ ، استجابة لنصيحة ردكليف ، فرمانا ضمنته حقوق وامتيازات الكنائس المسيحية وركزت بشكل خاص عى حقوق وامتيازات الكنائس المسيحية وركزت بشكل خاص على حقوق وإمتيازات الكنيسة الأرثوذكسية[٣٧] . واحتجت الحكومة العثمانية على احتلال روسيا لامارتي الدانوب واكدت في مذكرة الاحتجاج التي ارسلتها للدول الأوروبية في ١٤ تموز ١٨٥٣ حقها كدولة ذات سيادة في ان تحل مشاكلها الداخلية بموجب قوانيها الخاصة[٣٨] .

تباينت مواقف الدول الكبرى من النزاع بين روسيا والدولة العثمانية فما ان علم نابليون الثالث باولى خطوات منشيكوف في اسطنبول حتى بادر فاصدر في اذار ١٨٥٣ امرا الى الاسطول الفرنسي بالابحار الى بحر ايجه والبقاء هناك على اهبة الاستعداد ، ومنح السفير الفرنسي في اسطنبول صلاحية استدعائه الى داخل الدردنيل بل والى اسطنبول نفسها في حالات معينة[٣٩] . لقد قرر الامبراطور الفرنسي محاربة روسيا وكان التحفظ الذي تميز به موقف ابردين يثير لديه الشك في حقيقة الموقف الانجليزي ويجعله يفكر في احتمال كون بريطانيا تسعى الى استغفال فرنسا فتتفق مع روسيا على اقتسام الدولة العثمانية من وراء ظهر الحكومة الفرنسية . وجاء امر الحكومة البريطانية لاسطولها بالابحار الى شرق البحر المتوسط ليعزز لديه هذه الشكوك . وادت هذه التحركات العسكرية الى تفاقم الوضع فبدأت نذر الحرب تطل واستثير الرأي العام في اوروبا الغربية الذي كان يكن لنيقولا الأول كرها شديدا باعتباره سند الرجعية الأساسي في اوروبا . وكان هذا الكره شديدا الى درجة بحيث «ان اي حرب لن تكون في فرنسا وانجلترا انذاك اكثر شعبية من حرب ضد الحكومة القيصرية[٤٠]» . وقد اراد الامبراطور الفرنسي ان يستغل ذلك لتعزيز نظام حكمه في الداخل فقد رأى في الحرب ضد روسيا وسيلة لكسب المجد لعرشه من جهة ولتخفيف المعارضة الداخلية من جهة اخرى . يضاف الى ذلك ان نابليون الثالث رأى في الحرب فرصة مناسبة لتعزيز النفوذ الفرنسي في اقطار الشمال الافريقي وصرف اهتمام الدولة العثمانية عن مساعيها لتعزيز الوجود العثماني هناك . فقد قامت الحكومة العثمانية في ١٨٥١ ـ ١٩٨٣ باتخاذ عدد من التدابير لترسيخ السلطة العثمانية في طرابلس وتعزيز الصلات مع حاكم تونس . ولهذا فقد عمل نابليون الثالث على اشعال الحرب ليجعل الدولة العثمانية تركز كل جهدها عليها فيخلو له الجو لنشر النفوذ الفرنسي في افريقيا الشمالية . كما انه اراد ان يستغل تحالفه مع الدولة العثمانية لتلافي امكانية عودة الجزائر الى السلطة العثمانية لاسيما وان القوات الفرنسية كانت منهمكة في اخماد ثورة قام بها الجزائريون في ذلك الوقت وكان الثوار خلالها على صلة بعبدالقادر الجزائري في المنفى .

اما بريطانيا فبالاضافة الى الاعتبارات الاقتصادية التي تحتم عليها اسناد الدولة العثمانية[٤١] ، فانها ارادت ان تستغل الحرب لتحقيق اهداف سياسية بعيدة المدى منها تحجيم النفوذ الروسي في المشرق والقضاء

عليه وتهدئة الوضع المتفجر في الهند التي لم ينته الانجليز من السيطرة عليها واخضاعها نهائيا الا منذ قليل اي في ١٨٤٩ . ولهذا فقد ارادت بريطانيا بوقوفها الى جانب السلطان - خليفة المسلمين - ترضية المسلمين الهنود وجذب تعاطفهم . يضاف الى ذلك ان الحكومة البريطانية ارادت استخدام الحرب لتعزيز تواجدها في الخليج العربي لاسيما وان معاهدة الهدنة التي عقدها شيوخ الساحل العماني لمدة عشرة سنوات كانت تنتهي في ١٨٥٣ وان منازعات قامت بين شيخ البحرين الموالي للانجليز من جهة وشيخي نجد والقطيف التابعين من الناحية الرسمية للدولة العثمانية من جهة اخرى . ولهذا فقد اصبح التدخل في النزاعات المحلية هناك تحت ستار المحافظة على كمال الامبراطورية العثمانية وحصانة اقاليمها واحدة من المهمات الملحة للدبلوماسية البريطانية في الامبراطورية العثمانية .

ومع ذلك فقد حاول نابليون الثالث وابردين ان يلقيا عن عاتقهما مسؤولية اشعال الحرب التي اصبح قيامها متوقعا في اي يوم فقدم كل منهما في اواخر ١٨٥٣ خطة لحل النزاع بين روسيا والدولة العثمانية ولكن روسيا رفضت ذلك متذرعة بالمبادرة التي قامت بها النمسا لهذا الغرض ايضا . كذلك اتخذت الحكومة العثمانية هذه المبادرة النمساوية عذرا مناسبا لرفض مناقشة الخطتين الانجليزية والفرنسية(٤٢) .

لقد اتخذت النمسا في اول الأمر موقفا يتسم بالازدواجية فاجرى وزير خارجيتها بوول محادثات مكثفة على جبهتين حيث كان يسعى لاقناع القيصر الروسي بضرورة التوصل الى اتفاق مع الدولة العثمانية من جهة ومن الجهة الأخرى كان يحاول ان يعرف من الحكومتين البريطانية والفرنسية ما الذي سيحصل عليه مقابل انتهاجه سياسة معادية لروسيا . ولكنه لم يلبث ان غير موقفه فقد اثارته مطاليب منشيكوف التي عدها «انتهاكا للوعود المعتدلة التي قطعتها روسيا للنمسا(٤٣)» ، وبدأ الامبراطور النمساوي يتخذ ابتداء من ١٨٥٣ مواقف معادية لروسيا ، ولكنه كان من الجانب الآخر يخشى من نابليون الثالث الذي كان يلمح باستمرار الى امكانية اخراج النمسا من لومبارديا والبندقية والذي لم يكن يروقه وقوف النمسا على الحياد . وهكذا كان على النمسا اما ان تنضم الى فرنسا وبريطانيا فتحقق بذلك ما تريده من ابعاد القوات الروسية عن ولاكيا وملدافيا واما ان تنضم الى روسيا فتفقد في حالة الأنتصار وضعها كدولة من الدرجة الأولى وتتحول الى المرتبة الثانية بعد روسيا علما بانها ستفقد في الحالين لومبارديا والبندقية .

اما بروسيا فقد كان وضعها مغايرا لوضع النمسا في هذه القضية فاحتمال انهيار الامبراطورية العثمانية لم يكن يمس المصالح الحيوية للدولة البروسية كما هي الحال بالنسبة الى النمسا ، وبالاضافة الى ذلك بدأ منذ ذلك الوقت يتضح في بروسيا الخط السياسي الذي انتهجه فيما بعد بسمارك عندما تولى السلطة فيها ونعني السعي لتعميق العداء بين روسيا والنمسا . صحيح ان بسمارك لم يكن يلعب في فترة حرب القرم دورا قياديا في السياسة البروسية اذ لم يكن اكثر من ممثل لبروسيا في مجلس الاتحاد الألماني في فرانكفورت ولكن وجهة نظره القائلة بعدم وجود ما يبرر وقوف بروسيا ضد روسيا في النزاع المتفاقم في الشرق بل على العكس كلما ازداد ضعف النمسا كلما كان ذلك افضل لبروسيا ، هي التي انتصرت في النهاية ، على اية حال انقسمت الأوساط البروسية المالكة في هذه القضية الى فريقين احدهما يتعاطف مع بريطانيا والآخر يساند روسيا(٤٤) .

واتضح اخيرا بان بروسيا لن تنضم الى بريطانيا وفرنسا وبما ان النمسا لم تكن تحبذ الانضمام اليها بدون بروسيا فقد سعت لحل النزاع بالوسائل الدبلوماسية فوضع وزير خارجيتها بوول لهذا الغرض مذكرة كانت في الواقع ثمرة لمؤتمر غير رسمي عقده مع سفراء فرنسا وبريطانيا وبروسيا في فينا . لقد اكدت هذه المذكرة التي عرفت بمذكرة فينا الحقوق والامتيازات الخاصة التي تتمتع بها الكنيسة الأرثوذكسية ونصت على ان تتعهد الدولة العثمانية بالالتزام نصا وروحا بجميع بنود معاهدتي كجك كيفارجة وادربانوبل المتعلقة بحماية المسيحيين وتضمنت التزام الدولة العثمانية بعدم اجراء اي تغيير في الوضع القائم في هذا المجال دون تفاهم مسبق مع حكومتي فرنسا وروسيا وبحيث لا يؤدي ذلك الى الحاق اي ضرر بالطوائف المسيحية المختلفة(٤٥) .

وقد تقرر ان ترسل المذكرة الى القيصر الروسي اولا ثم الى السلطان العثماني بعد ذلك وقد ارسلت الى نيقولا الأول بالفعل فوافق عليها ثم ارسلت الى السلطان العثماني فرفضها بصيغتها الحالية وطالب باجراء تعديلات فيها تقضي بان تعترف الدول بحقوق السلطان الثابتة وبانه كان على الدوام يحترم التزاماته الدولية وينفذ واجباته تجاه الرعية وبان حقوق وامتيازات روسيا فيما يتعلق بحماية الرعايا السلاف لم تكن نتيجة لعلاقات التعاقد بين روسيا والدولة العثمانية فقط كما جاء في مذكرة فينا بل انها كانت ايضا تعبيرا عن ارادة السلطان الذي يهتم بخير رعاياه(٤٦) . وقد رفض القيصر الروسي مطاليب السلطان هذه فعادت الأمور الى نقطة البداية .

في هذه الأثناء كان نيقولا الأول قد تسلم من كسيليوف سفيره في باريس اخبارا مطمئنة تشير الى انتفاء احتمال قيام فرنسا وبريطانيا بعمل عسكري مشترك الأمر الذي شجعه على المضي في قراره بمحاربة الدولة العثمانية .

ويبدو ان السلطان رأى من جانبه ، ان الفرصة قد حانت للتخلص من الضغوط التي يتعرض لها من جانب روسيا ومن الالتزامات التي فرضتها عليه بموجب المعاهدات التي اضطر الى ان يوقعها معها مستفيدا من الاسناد الذي وفرته له دول اوروبا الغربية ولاسيما فرنسا وبريطانيا ، فقدم الى روسيا في ٩ تشرين الأول ١٨٥٣ انذارا طالبها فيه بسحب قواتها من امارتي الدانوب وعندما لم تستجب روسيا لذلك اعلن عليها الحرب في السادس عشر من الشهر نفسه . وفي ٢٢ تشرين الأول دخل الاسطولان البريطاني والفرنسي الى الدردنيل استجابة لطلب كان السلطان قد وجهه الى الحكومتين البريطانية والفرنسية في الثاني من ذلك الشهر . وردت روسيا على ذلك بالاعلان عن قيام الحرب بينها وبين الدولة العثمانية وذلك في ١ تشرين الثاني ونشرت هذا الاعلان في الصحيفة الرسمية في ٣ تشرين الثاني ١٨٥٣ ، مع ان العمليات العسكرية كانت قد بدأت قبل ذلك .

وهكذا قامت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية وقد رجحت فيها كفة القوات الروسية منذ البداية حيث تمكنت من ايقاف العمليات الهجومية التي قامت بها القوات العثمانية واحبطت محاولاتها لاخراج الجيش الروسي من امارتي الدانوب وانتصرت على العثمانيين في ضواحي فارحي فيما وراء الفغناس وتمكن الاسطول الروسي في ٣٠ تشرين الثاني ١٨٥٣ من تدمير الاسطول العثماني واغراقه في ميناء سينوب الذي استولى عليه الروس وازالوا تحصيناته(٤٧) .

دخول بريطانيا وفرنسا الحرب :

كانت معركة سينوب التي اثارت ضجة صحفية كبيرة ضد روسيا في بريطانيا السبب المباشر الذي افضى بالنتيجة التي تحول الحرب الروسية ـ العثمانية الى حرب اوروبية دخلتها الى جانب الدولة العثمانية كل من فرنسا وبريطانيا ثم مملكة سردينيا ايضا . لقد طرحت معركة سينوب مسألة تنفيذ الاتفاقية البريطانية ـ الفرنسية التي كانت الدولتان قد وقعتاها في شباط ١٨٥٣ اي بمجرد ان وصلت تقارير هاملتون سيمور من بطرسبورغ عن محادثاته التي اشرنا اليها مع القيصر ، فقد التزمت الدولتان في هذه الاتفاقية بأن لا تقوما بأي نشاط يخص المسألة الشرقية الا باتفاق مسبق فيما بينهما . واستنادا الى ذلك اعلم نابليون الثالث اللورد كوولي السفير البريطاني في باريس بانه ينوي اصدار اوامره للاسطول الفرنسي بالدخول الى البحر الأسود . واثر ذلك على ابردين فتخلى عن تردده ووافق على اصدار اوامر مشابهة الى الاسطول البريطاني . وقد ساعد على ذلك موقف الرأي العام الانجليزي الذي نقم على روسيا بعد معركة سينوب بدرجة لم يسبق لهامثيل حتى ان الصحافة الانجليزية بدأت توجه الانتقاد الى الملكة فيكتوريا نفسها وتلمح الى تواطئها مع روسيا(٤٧) . وهكذا بدأ الاتجاه يميل نحو الحرب في بريطانيا وكان بالمرستون من ابرز دعاة الحرب فقد كتب في رسالة له الى رسل يقول: «انني ، مع اخذي بنظر الاعتبار آفاق الحل السلمي ، ارى ان موقفنا القائم على الانتظار التكتيكي المستكين على الباب الخلفي في الوقت الذي تقتحم فيه روسيا الدار بتهديدات حانقة ووقحة ، اراه موقفا احمقا ومهينا لسمعة ووضع وكرامة الدولتين [بريطانيا وفرنسا]» وجاءت استقالة بالمرستون في ١٥ كانون الأول

١٨٥٣ ، وكان انذاك وزيرا للداخلية لتزيد من موجة الغضب ضد الحكومة . ومع ان الاستقالة كانت لسبب داخلي ولم يكن لها علاقة بالسياسة الخارجية او بالمسألة الشرقية الا ان الرأي العام في بريطانيا وخارجها اعتقد ان بالمرستون استقال احتجاجا على الموقف المتردد الذي وقفته الحكومة البريطانية من روسيا انذاك(٥٠) واثاره ذلك الى درجة بحيث لم يمض اسبوع واحد على استقالته حتى اضطر ابردين الى ان يلتمس منه العودة . وقد وضعت عودة بالمرستون الى الوزارة حكومة ابردين في قبضته وكان ذلك يعني ، بحكم ما عرف عنه من عداء لروسيا وحماس في منع توسيع نفوذها ، ان الحرب ضد روسيا قائمة لا محالة .

ومع ذلك قامت الحكومتان الانجليزية والفرنسية بوضع مقترحات جديدة لتسوية النزاع العثماني ـ الروسي تقوم على اساس المحافظة على كمال الامبراطورية العثمانية وضمان ذلك من جانب الدول الغربية بصورة مشتركة وتحقق اصلاحات في وضع الرعايا المسيحيين تحت اشراف الدول التي تجري تحت اشرافها ايضا تسوية النزاع بين الدولة العثمانية وروسيا في مؤتمر دولي . وقد وافقت روسيا من حيث المبدأ على هذه المقترحات ولكن الدولة العثمانية وقفت منها موقفا سلبيا فقد اعتقد السلطان عبدالمجيد بان معاهدة لندن لعام ١٨٤١ تؤلف ضمانا كافيا لكمال واستقلال الدولة العثمانية ، كما انه احجم عن اعطاء جواب رسمي حول قضية الاصلاحات ، وطالب الجانب العثماني بريطانيا وفرنسا مساعدة الدولة العثمانية بالمال والسلاح طالما ان المحادثات التي كانت تجري لمنحها قرضا ماليا قد طالت دون ان تؤدي الى نتيجة . وكانت الدولتان مستعدتان لمنحها القرض المطلوب بشرط ان تعقد معهما حلفا عسكريا(٥١) ، وذلك لأن حكومتي الدولتين كانت قد قررتا محاربة روسيا رغم تظاهرهما ببذل الجهود للتوسط من اجل انهاء الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا . فقد اعتقدت الأوساط الحاكمة في بريطانيا بان الفرصة قد سنحت لتزعم الدول الأوروبية الأخرى وتوجيه ضربة قاضية لروسيا ـ عدوها اللدود ومنافسها الرئيسي في المشرق ، فكلارندون كان يرى «ان ما نحتاجه الآن هو تدمير سيفاستيبول واسطول البلطيق [الروسي] » وان «الوقت قد حان لافهام روسيا بان الغرب لا يخشاها(٥٢) . اما رسل وكان رئيسا لمجلس العموم في هذا الوقت فقد كان يرى «وجوب انتزاع انياب الدب ، فطالما ان اسطوله وترسانته في البحر المتوسط لم يجر تدميرهما فلن تكون لا القسطنطينية ولا السلام في اوروبا في مأمن(٥٣) . ولهذا لم تلتفت الحكومتان البريطانية والفرنسية الى المذكرة الجديدة التي ارسلتها الدولة العثمانية في ٣١ كانون الأول ١٨٥٣ الى النمسا كآخر محاولة لاعادة السلام على الرغم من ان فحوى هذه المذكرة يطابق بشكل عام مقترحات الدولتين الأخيرة المشار اليها اعلاه . ولهذا ايضا اصدرت الحكومتان أوامرهما الى اسطوليهما باجتياز البسفور والدخول الى البحر الأسود وقد فعل الاسطولان ذلك في ٤ كانون الثاني ١٨٥٤ واعلن قائداهما للسلطات الروسية بان مهمتهما هي حماية السفن والموانىء العثمانية . وقد اثار ذلك القيصر الروسي الذي بادر فطلب من سفيره في لندن وباريس ان يستوضحا من الحكومتين البريطانية والفرنسية عن الكيفية التي ينبغي فيها فهم ما صرح به قائدا الاسطولين وان يتأكدا هل ان هذا التصريح الذي يعني في واقع الأمر منعا للملاحة في البحر الأسود يخص السفن الروسية فقط ام انه يعني السفن العثمانية ايضا وطلب منهما بان يقطعا العلاقات الدبلوماسية مع الحكومتين ويغادرا البلدين اذا ظهر ان هذا المنع يشمل السفن الروسية فقط(٥٤) . وقد تسلم كسيليوف السفير الروسي في باريس في بداية شباط مذكرة رسمية من وزير الخارجية الفرنسي دروين دي لويس جوابا عن استضاحه ، صيغت بشكل استفزازي مقصود واوضحت بان منع الملاحة في البحر الأسود يشمل الاسطول الروسي فقط ولا ينطبق على الاسطول العثماني ، عند ذلك اعلن كسيليوف قطع العلاقات الدبلوماسية بين روسيا وفرنسا(٥٥) . وكذلك كان الأمر في بريطانيا حيث قطعت العلاقات بينها وبين روسيا ايضا .

ولكن ذلك لم يكن يعني قيام الحرب بين الجانبين بعد وفي ٢٢ شباط لمحت النمسا التي كان يقلقها وجود القوات الروسية في امارتي الدانوب الى انها ستسند الدول الغربية اذا ما قامت بتقديم انذار تطلب فيه اخلاء

ولاكيا وملدافيا في تاريخ محدد(٥٦) . وتلقفت كل من بريطانيا وفرنسا هذا الاقتراح وبادر كلارندون فارسل الى تيسيلروديه في ٢٧ شباط انذارا جاء فيه ان بريطانيا ، وقد استنفذت كل مسعى للمفاوضات ، مضطرة لأن تدعو روسيا «الى ان تحصر نقاشها القائم مع الباب العالي منذ بعض الوقت في حدود دبلوماسية صرفة» و«ان توافق على اخلاء اقليمي ولاكيا وملدافيا اخلاء تاما حتى ٣٠ نيسان(٥٧) . وقدمت فرنسا في الوقت نفسه انذارا مماثلا وان كانت المدة التي فرضتها له اقصر حيث جعلتها تنتهي في ١٥ نيسان(٥٨) . وقبل ان تنتهي مهلة الانذار وقعت بريطانيا وفرنسا مع الدولة العثمانية في ١٢ آذار حلفا تعهدتا فيه بالدفاع عن الأراضي العثمانية ضد روسيا وتعهد السلطان بالمقابل بعدم عقد صلح منفرد مع الحكومة الروسية(٥٩) . وبعد ذلك باسبوعين قامت الحرب بصورة رسمية بين الجانبين فقد اعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على روسيا في ٢٧ و ٢٨ آذار ١٨٥٤ ثم عقدتا فيما بينهما في ١١ نيسان معاهدة تتعلق باشتراكهما في الحرب ضد روسيا .

النشاط الدبلوماسي في اثناء الحرب :

ركزت الدول الكبرى نشاطها الدبلوماسي بعد قيام حرب القرم على فينا فقد احتدم الصراع بين الجانبين المتحاربين كل يريد كسب النمسا الى صفه . وكانت النمسا من جانبها تسعى لانجاز مهمة صعبة للغاية حيث كانت تهدف الى اجبار نيقولا الأول على سحب قواته من ملدافيا وولاكيا بدون ان تعلن الحرب على روسيا وبدون ان يؤدي نشاطها لتحقيق هذا الهدف الى اغضاب نابليون الثالث او الى النزاع مع القيصر .

لقد رأى بالمرستون ، وكان العامل المحرك لوزارة ابردين وانشط اعضائها قبل ان يصبح رئيسا للوزراء في شباط ١٨٥٥ ان الحرب يمكن ان تضعف روسيا لدرجة كبيرة وان بريطانيا لديها في هذه الحرب حليف قوي هو فرنسا وبامكانها الحصول على ثلاثة حلفاء اخرين هم النمسا وبروسيا والسويد اذا وعدتهم بتعويضات اقليمية مناسبة على حساب روسيا . ولهذا فقد وضع بالمرستون مشروعا لتسوية اقليمية تنسجم مع افكاره هذه واراد تنفيذه من خلال الحرب القائمة ضد روسيا . لقد كان هذا المشروع يقضي بان تعاد فنلندا وجزر الاند الى السويد وتعطي المنطقة المتاخمة للبلطيق الى بروسيا ويعاد احياء الدولة البولندية لتكون حاجزا بين روسيا والمانيا وتذهب ولاكيا وملدافيا ومصب الدانوب باجمعه الى النمسا تعويضا لها عن لومبارديا والبندقية التي ستتنازل عنهما لسردينيا ، وتعود القرم الى الدولة العثمانية وتقام في القفقاس دولة مستقلة او تابعة للسلطان العثماني(٦٠) .

ومع ان نابليون الثالث لم يكن راضيا منذ البداية عن خطة بالمرستون هذه لأنه لم يكن يريد لروسيا ان تضعف اكثر من اللازم ولبريطانيا ان تتقوى بالمقابل فانه تجنب الاعتراض عليها في بداية الأمر لأنه اراد ان يستغلها لجذب حلفاء جدد كالسويد والنمسا وبروسيا وسردينيا ولتشجيع البولنديين على الثورة واسناد ثوار القفقاس ضد روسيا لأن ذلك من شأنه ان يساعد على التعجيل باحراز النصر الذي كان الامبراطور الفرنسي يسعى اليه .

وهكذا فقد جابهت روسيا في الفترة الأولى من الحرب حلفاء متحدين لا توجد خلافات جوهرية بينهم . ولما كان موقف النمسا التي ازعجها جدا الاحتلال الروسي لامارتي الدانوب يثير لدى القيصر الروسي الريبة فقد قرر ان يجري مع الامبراطور النمساوي محادثات يحاول من خلالها التوصل الى الاتفاق مع الحكومة النمساوية فيدفعها بذلك بعيدا عن معسكر اعدائه وارسل الى فيينا لهذا الغرض في كانون الثاني ١٨٥٤ اي قبل ان تدخل بريطانيا وفرنسا الحرب ، واحدا من المع الدبلوماسيين الروس في ذلك الوقت هو الكونت ارلوف الذي كان يتميز بقابليات دبلوماسية مشهودة استطاع ان يدلل عليها منذ ان تمكن في ١٨٣٣ من اقناع السلطان بتوقيع معاهدة اونكيار اسلكرسي التي مثلت قمة النفوذ الروسي في الدولة العثمانية في حينها . لقد اقترح ارلوف على الامبراطور النمساوي ان تلتزم النمسا بالحياد الودي تجاه روسيا وفي مقابل ذلك يتعهد القيصر باشراكها مع روسيا في حماية المناطق التي يجري تحريرها ويوافق على احتلالها للبوسنه والهرسك ويتعهد بمنع الحركات القومية من

تهديد الامبراطورية النمساوية ويعدها بالمساعدة المسلحة ضد الغرب[61] ، غير ان الثمن الذي طلبته النمسا لحيادها كان باهظا جدا بالنسبة لنيقولا الأول فقد طلبت ان يضمن كمال الامبراطورية العثمانية رسميا وان يحافظ على السيادة العثمانية كاملة على الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية[62] ، مما يعني تقويض الأسس التي تقوم عليها السياسة الروسية في البلقان .

وهكذا لم تحقق بعثة ارلوف الآمال التي علقها عليها القيصر بل على العكس ادت الى ان يتوصل هذا الدبلوماسي المجرب الى قناعات جديدة سجلها في رسالة بعث بها الى القيصر ونصحه فيها بان يبتعد عن الدول الألمانية ويسعى الى التقارب مع فرنسا[63] . ولكن نيقولا الأول لم يكن على استعداد لسماع نصيحة مبعوثه اولا لأن الاتفاق مع نابليون الثالث في تلك المرحلة كان يعني التخلي نهائيا عن الحرب ضد الدولة العثمانية وعن السياسة الروسية في الشرق برمتها وثانيا لأن القيصر لم يكن مستعدا لأن يصدق بانه لم يفهم اسس السياسة النمساوية عندما انقذ الامبراطورية النمساوية في ١٨٤٩ وعد فرانسيس جوزيف ، لفترة طويلة ، افضل اصدقائه واكثرهم اخلاصا له . ومع ذلك فقد كانت وجهة نظر ارلون صحيحة فبمجرد ان غادر مبعوث القيصر فينا امر الامبراطور النمساوي ان يتحرك الى ترنسلفانيا فصيل من القوات العسكرية تعداده ١٣ الف مقاتل الأمر الذي شكل تهديدا لقوات الاحتلال الروسية في الدانوب .

وقد دفع ذلك القيصر الروسي الى الاهتمام بمجاملة بروسيا غير انه لم يحقق شيئا من وراء ذلك فقد ظل التردد هو الطابع السائد للموقف البروسي وظلت بروسيا تفضل البقاء بمعزل عن الحرب فعندما قام السفير البريطاني في بطرسبورغ هاملتون سيمور وهو في طريقه الى بلاده بعد قطع العلاقات بين بريطانيا وروسيا ، بمحاولة لجر بروسيا الى الحرب ضد روسيا اجابه الملك البروسي قائلا: «انا لا اريد ان تقوم بدل المعارك الجارية على الدانوب معارك في بروسيا الشرقية»[64] . ولم يغير فردريك وليم الرابع موقفه هذا حتى بعد ان الح عليه بالاتجاه نفسه السفير الفرنسي في برلين المركيز دي موستيه . ان اقصى ما ذهب اليه بروسيا في هذا الشأن هو انها وقعت مع بريطانيا وفرنسا والنمسا في ٩ نيسان ١٨٥٤ بروتوكولا تعهدت فيه الدول الأربع بعدم عقد اتفاقيات منفردة مع روسيا والتزمت بالعمل المشترك لاعادة امارتي الدانوب الى السلطان العثماني ومراعاة الكمال الاقليمي للممتلكات العثمانية واجراء اصلاحات لرعاياها المسيحيين[65] . ثم اضطرت بروسيا تحت ضغط بريطانيا وفرنسا الى الاستجابة لطلب النمسا فوقعت معها في ٢٠ نيسان ١٨٥٤ معاهدة اتفق فيها الجانبان على التعاون لاجبار روسيا على الانسحاب من امارتي الدانوب ولكن المعاهدة لم تنص على ان يدخل الطرفان المتعاقدان الحرب ضد روسيا الا في حالة واحدة وهي عبور جيوشها لجبال البلقان وهو احتمال شبه مستحيل في الظروف القائمة انذاك[66] . وقد شجعت هذه المعاهدة النمسا فطلبت من روسيا في ٣٠ حزيران سحب جيوشها من امارتي الدانوب ثم عقدت مع الباب العالي بعد ذلك بثلاثة عشر يوما ميثاقا تعهدت فيه «باستنفاذ كل الوسائل» بما في ذلك القوة «للتوصل الى اخلاء امارتي الدانوب ولاعادة الوضع الشرعي للأمور[67] هناك . وقد اغضب تصرف النمسا القيصر الروسي واثار حفيظته ضدها حتى انه كتب الى القائد العام لجيش الدانوب في اواسط ايار يقول: «... وهكذا فقد حان الوقت للنضال ضد الأتراك وحلفائهم . ولكن ينبغي ان نوجه كل اهتمامنا ضد النمسا الغادرة ومعاقبتها بشدة على نكرانها الوقح للجميل[68] . ومع ذلك فان هذه التطورات الى جانب تحشد قوات الحلفاء في فارنا ، دفعت القيصر الى ان يقرر اخلاء امارتي الدانوب ، وبدأت قوات الاحتلال الروسية تنسحب منهما بالفعل في نهاية تموز وفي ٢٠ آب أخذت القوات النمساوية تحل محلها .

منذ هذه اللحظة اخذت روسيا تحس ببوادر الهزيمة في الحرب التي تحولت بالنسبة لها مع انزال قوات الحلفاء في أيلول ١٨٥٤ الى القرم الى حرب دفاعية .

ومن الناحية الأخرى كان النصر الدبلوماسي الكبير الذي احرزته النمسا بانسحاب القوات الروسية من امارتي الدانوب وحلول القوات النمساوية محلها قد زاد من حاجة النمسا الى انهاء الحرب بسرعة قدر

الامكان ، ذلك ان هذا النصر قد ولد في روسيا شعورا من العداء الشديد للنمسا الأمر الذي زاد من اخطار الحرب على هذه الأخيرة . فاستمرار العمليات العسكرية قد يؤدي الى اعلان روسيا الحرب على النمسا وهذا من شأنه ان يسبب للنمسا الكثير من الضرر لاسيما اذا ما اخذنا بالحسبان ان الحدود النمساوية مكشوفة لروسيا وان هذه الأخيرة تستطيع الاعتماد على تعاطف السلاف القاطنين في الامبراطورية النمساوية . ولهذا كله اصبحت النمسا تسعى الى السلام اكثر من السابق وكثفت جهودها في هذا السبيل وادى بها ذلك الى الدخول في مفاوضات مع الحكومة الفرنسية جرت في باريس من تموز ١٨٥٤ وتمخضت عما يسمى بالبنود الأربعة التي اصبحت من الآن تؤلف الأهداف الأساسية التي تتوخاها الدول المعادية لروسيا في الحرب والتي صيغت على النحو الآتي[٦٩] :

١ ــ تخلي روسيا عن حقوقها الخاصة في صربيا وامارتي الدانوب على ان تمتنع هذه الامارات الثلاث بضمان جماعي من قبل الدول .

٢ ــ حرية الملاحة في الدانوب .

٣ ــ اعادة النظر بميثاق المضايق لسنة ١٨٤١ «لصالح توازن القوى في اوروبا» .

٤ ــ تخلي روسيا عن اي ادعاء بحماية المسيحيين الأرثوذكس في الامبراطورية العثمانية .

ارسلت النمسا هذه البنود الى بطرسبورغ باسم الدول الثلاث النمسا وبريطانيا وفرنسا اما بروسيا فقد تحفظت في قبولها مدفوعة بخشيتها من روسيا من جهة وبرغبتها في عدم تقوية النمسا من جهة اخرى ، غير ان هذه البنود لم تصادف قبولا في بروسيا ولم يشأ نيقولا الأول في البداية ان يجب عليها لاسيما وان المذكرة التي ارسلت فيها البنود اليه لم تحدد مدة معينة للجواب . ولهذا السبب ولأن القوات الروسية انسحبت من امارتي الدانوب وحلت محلها القوات النمساوية قررت بريطانيا وفرنسا تغيير خطة الحرب وذلك بالتحول الى مهاجمة القرم بهدف الاستيلاء على سيفاستيبول والقضاء على القوة البحرية الروسية في البحر الأسود . وقد اضر تنفيذ الدولتين لخطتهما الجديدة وانزالهما لقواتهما في القرم في ١٨ ايلول ١٨٥٤ بالنمسا لأنه تركها تواجه روسيا في البلقان لوحدهما الأمر الذي كان سيسبب لها الكثير من الحرج فيما لو اعلنت روسيا الحرب عليها ، فكان ذلك من جملة الأسباب التي حدت بها لأن تعقد مع بريطانيا وفرنسا في ٢٠ كانون الأول ١٨٥٤ معاهدة تحالف اشير فيها الى انه اذا لم تتراجع روسيا حتى الأول من كانون الثاني ١٨٥٥ فان النمسا ستشترك مع التجمع المعادي لها في القيام باعمال من شأنها ان تجبرها على عقد الصلح[٧٠] . لقد وقعت النمسا هذه المعاهدة على الرغم من ان روسيا اضطرت في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٥٤ الى الموافقة من حيث المبدأ على البنود الأربعة مدفوعة الى ذلك بالاندحار الذي اصاب قواتها في آلما وانكرمان[٧١] وبالالحاح الذي كانت تتعرض له من جانب بروسيا .

كان من نتيجة موافقة روسيا مبدئيا عن البنود الأربعة ان اشترك السفير الروسي الجديد في فينا جورتشاكوف في اجتماعات السفراء التي اخذت تعقد في العاصمة النمساوية ابتداء من كانون الأول ١٨٥٤ لمناقشة البنود الأربعة والتوصل الى اتفاق بشأنها . وقد اشترك في هذه الاجتماعات سفراء كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا والدولة العثمانية الى جانب وزير الخارجية النمساوي بوول .

وفي هذه الاثناء كانت تجري في جبهات القتال معارك دامية[٧٢] حيث تمكن الحلفاء من ضرب حصارهم على سيفاستيبول وكانوا يأملون بالاستيلاء عليها بسرعة . ولكن المدينة لم تستسلم فطال حصارها وبدأت قوات الحلفاء التي تحاصرها تجابه صعوبات لم تكن في الحسبان كالبرد الشديد والأمراض المهلكة التي كانت تفتك بقوات الحصار وتزيد من نسبة الوفيات بينها .

في مثل هذه الظروف توفي نيقولا الأول في ٢ آذار ١٨٥٥ فتجدد الأمل بالسلام وكانت الظروف توحي بانه سيكون سلاما على حساب النمسا ذلك ان اخبارا انتشرت حول اتصالات سرية تجري بين فرنسا وروسيا عن طريق مبعوث سكسونيا في باريس فون زيباخ الذي كان صهرا لنسيلروديه . وقد اثارت هذه الأخبار قلق

الحكومتين النمساوية والبروسية اللتين كانت تعتقدان بان اخطر ما يمكن ان تجابهه دول اوروبا الوسطى هو تحالف الامبراطوريتين الروسية والفرنسية . وازداد قلق النمسا عندما وصلتها اخبار مفادها ان نابليون الثالث اعياه طول حصار سيفاستيبول فاخذ يفكر برفعه ، والواقع ان الامبراطور الفرنسي جاءه وقت تولاه فيه التردد في هذه القضية لكن اخبارا سرية وصلته[٧٣] فعلم منها حقيقة الموقف في المدينة والوضع اليائس الذي تعانيه القوات الروسية المحاصرة والصعوبات التي تكتنف تجهيزها بالمؤن والذخيرة فدفعه ذلك الى التخلي عن فكرة الدخول في محادثات للصلح قبل ان تسقط المدينة وبدأ يكثف من جهده للاستيلاء عليها لاسيما وانه لم يكن بمقدوره انهاء الحرب قبل ان يحقق نصرا لامعا يناسب التضحيات والخسائر الكبيرة التي تكبدتها قواته في الحرب .

على اية حال عززت وفاة نيقولا الأول وتولى العرش الروسي الكسندر الثاني الذي كانت الدول الغربية تعتقد بانه اكثر تساهلا من ابيه الأمل لدى بريطانيا وفرنسا في التوصل الى صلح مناسب لهما ولهذا عمدت الحكومتان من اجل زيادة الضغط على القيصر الجديد الى المطالبة بتحويل اجتماعات السفراء التي كانت تعقد في فينا الى مؤتمر رسمي فتم لها ذلك وافتتح المؤتمر في ١٥ آذار مارس ١٨٥٥ . لقد طالب الحلفاء في المؤتمر بان تجرد روسيا سيفاسيتبول من السلاح وان تلتزم بضمان كمال الامبراطورية العثمانية وتقر بتمديد اسطولها الحربي في البحر الأسود . لكن الحكومة الروسية لم توافق الا على «احترام» كمال الامبراطورية العثمانية ورفضت فكرة الضمان كما رفضت رفضا قاطعا فكرة تحديد حجم قوتها البحرية في البحر الأسود الأمر الذي دفع بوول الى ان يقدم لبريطانيا وفرنسا اقتراحا مفاده ان ترسل الدول المتحالفة الى البحر الأسود عددا معينا من السفن تستطيع زيادته عند الضرورة بمقدار الزيادة التي تحصل في عدد السفن الروسية هناك ، غير ان الدولتين رفضتا هذا الاقتراح[٧٤] ، وهكذا وصل المؤتمر الى طريق مسدود ولم يلبث ان انفض في حزيران ١٨٥٥ .

سقطت ستفاسيتبول في ٨ ايلول ١٨٥٥ فكان ذلك سببا في استئناف الاتصالات الدبلوماسية وكان بالمرستون الذي اصبح رئيسا للوزراء في بريطانيا في شباط ١٨٥٥ يرى ان سقوط سيفاستيبول ينبغي ان يكون مقدمة لحرب واسعة ضد روسيا ولهذا فانه كان سعيدا بعناد الحكومة الروسية وعدم قبولها بكل ما يريده الحلفاء لأن ذلك من شأنه ان يطيل الحرب مما يفسح له المجال لأن يحقق نواياه وينفذ خطته السابقة في اقتطاع اجزاء من الامبراطورية الروسية . وظهرت الأيام الأولى التي اعقبت سقوط سيفاستيبول ان كل شيء يسير بالاتجاه الذي يريده بالمرستون لاسيما وان نابليون الثالث لم يكن انذاك يفكر بالصلح بل دخل في مفاوضات مع ملك السويد اوسكار الأول وهدفه دفع السويد الى الدخول في الحرب ضد روسيا .

لقد اشترط ملك السويد في هذه المحادثات ان ترسل فرنسا وبريطانيا الى فنلندا جيشا للمساعدة تعداده ٥٠ الف مقاتل وان تضمنا للسويد استيلاءها على فنلندا وضمها اليها[٧٥] . ولم ير بالمرستون بأسا في تطمين هذه المطاليب على ان لا تشترك بريطانيا في الجيش المطلوب ارساله الى فنلندا ولم يشأ الامبراطور الفرنسي ان يضطلع بهذه المهمة الصعبة لوحده لذلك لم تؤد المحادثات مع ملك السويد الى النتيجة التي توخاها الحلفاء بل كان ما افضت اليه هو ان الدول الثلاث اتفقت في ٢١ تشرين الثاني ١٨٥٥ على ان لا تتخلى السويد لروسيا عن اي منطقة او تسمح للقوات الروسية باحتلالها وان اي طلب بهذا الشأن سوف تنقله السويد الى الحكومتين البريطانية والفرنسية اللتين ستقومان بمساعدة السويد على رفضه[٧٦] .

وكان الامبراطور الفرنسي يفقد مع الوقت اهتمامه بخطط بالمرستون الخاصة ببولندا واقطار البلطيق والقرم والقفقاس . والواقع ان نابليون الثالث بعد ان حقق هدفه باحراز نصر كبير على روسيا وكلل عرشه بالغار وعزز سلطته في وجه المعارضة نتيجة لذلك ، اصبح ميالا لانهاء الحرب وتخلى حتى عن اثارة موضوع بولندا لانه «وجد ان اثارة هذا الموضوع سيضم!! بروسيا والنمسا الى جانب روسيا ويعيد!! الحلف المقدس من جديد»[٧٧] .

وهكذا اتضح لبريطانيا بانها لو اصرت على استمرار الحرب فانها ستواصلها لوحدها . ولهذا فانها انضمت

مضطرة الى الامبراطور الفرنسي في رغبته بانهاء الحرب وقررت الدولتان الرجوع الى فكرة استخدام النمسا في الضغط على روسيا لتحقيق هذا الهدف لاسيما وانها ، اي النمسا ، لم تفعل شيئاً ضد روسيا تنفيذاً لما التزمت به بموجب معاهدة كانون الأول ١٨٥٤ . وكانت النمسا تشك في نوايا نابليون الثالث وترتاب في نشاطه فقد اثار قلقها لدرجة لم يسبق لها مثيل عندما عقد مع سردينيا في ٢٦ كانون الثاني ١٨٥٥ اتفاقية ارسلت سردينيا بموجبها ١٥ الف مقاتل للاسهام في العمليات العسكرية في القرم[٧٨] مستغلا لذلك رغبة ملك سردينيا فكتور عمانوئيل الثاني ووزيره كانور في استرضائه على امل ان يساعدهما في اخراج النمساويين من ايطاليا . فعلى الرغم من ان مملكة سردينيا لم تحصل على شيء مقابل ذلك الا ان الأمر كان يدعو الى الافتراض ان نابليون الثالث التزم في مقابل مشاركة سردينيا في الحرب بمساعدتها عسكريا على اخراج النمسا من فينيسيا ولومبارديا وضم هذين الاقليمين اليها . وزاد قلق الحكومة النمساوية الآن عندما علمت بالمحادثات السرية الجارية بين فرنسا وروسيا[٧٩] لأن هذه المحادثات ستؤدي في حالة نجاحها وتوصل الدولتين الى اتفاق ، الى عزلة النمسا عن المسرح الدولي . ولهذا كله فقد قبلت النمسا فكرة الضغط على روسيا فوقع وزير خارجيتها بوول مع السفير الفرنسي في فينا في ١٤ تشرين الثاني ١٨٥٥ بروتوكولا تضمن شروط الصلح التي كان على النمسا ان تقدمها الى روسيا بصيغة الانذار[٨٠] .

وكانت روسيا من جانبها متلهفة لانهاء الحرب فوفاة نيقولا الأول وموقف التهديد الذي وقفته النمسا وانضمام سردينيا الى معسكر اعداد روسيا وموقف السويد المتعاطف مع الدول الغربية واستنفاذ طاقات البلاد والجيش ، كل ذلك دفع اولي الأمر في بطرسبورغ وعلى رأسهم القيصر الجديد الكسندر الثاني الى البحث عن حل سلمي ، وجعل الجو في روسيا مهيئا لقبول الانذار النمساوي .

قدمت النمسا انذارها لروسيا في ٢٨ كانون الأول ١٨٥٥ وكان يتضمن الشروط التالية ، الى جانب مطاليب اخرى قال الانذار انه ربما ستضاف الى هذه الشروط في مؤتمر الصلح اذا تطلبت ذلك «مصلحة اوروبا[٨١]» :

١ ــ استبدال الحماية الروسية لولاكيا وملدافيا بحماية الدول الكبرى باجمعها .

٢ ــ اقرار حرية الملاحة في مصب نهر الدانوب .

٣ ــ عدم السماح لاساطيل اي كان بالمرور خلال الدردنيل والبسفور الى البحر الأسود ومنع روسيا والدولة العثمانية من ان يكون لها اسطول حربي في هذا البحر او ترسانات وتحصينات على سواحله .

٤ ــ تخلي روسيا عن حماية رعايا السلطان المسيحيين .

٥ ــ تنازل روسيا لصالح ملدافيا عن الجزء المتاخم للدانوب من بسارابيا .

ولابد ان نشير الى ان هذه المطاليب وضعت دون مشاركة بريطانيا وان الحكومة البريطانية اضطرت الى التخلي عن مطاليبها الخاصة والموافقة في ٥ كانون الأول على هذه الشروط التي وضعتها فرنسا والنمسا منفردتين ، مما يؤلف دليلا اضافيا على هشاشة التحالف الفرنسي ـ البريطاني وتلك حقيقة كان لها دور اساسي في تحديد القرارات التي اتخذها مؤتمر الصلح كما سنرى . ومما له دلالة في هذا الشأن ايضا ان هذه الشروط التي تمس الدولة العثمانية في قضايا مصيرية مثل قوتها في البحر الأسود ورعاياها المسيحيين قد جرت صياغتها دون ان تستشار الحكومة العثمانية باي شكل من الأشكال وذلك على الرغم من ان فرنسا وبريطانيا كانتا تؤكدان على الدوام بانهما دخلتا الحرب دفاعا عن الدولة العثمانية ورغم انهما مرتبطان مع الدولة العثمانية بميثاق رسمي تعهدتا فيه بعدم السعي لعقد صلح منفرد .

على اية حال بادر الكسندر الثاني بمجرد ان تسلمت الحكومة الروسية الانذار النمساوي فعقد في ١ كانون الثاني ١٨٥٦ اجتماعا للمجلس الامبراطوري في مكتبه في قصر الشتاء وقرر المجلس في هذا الاجتماع بالاغلبية قبول شروط الانذار باستثناء البند الخاص ببسارابيا وحق الحلفاء في ان يقدموا لروسيا مطاليب اخرى في مؤتمر الصلح ؟ واخبرت الحكومة النمساوية بهذا القرار في ٥ كانون الثاني وبعد ذلك بأسبوع أخبر بوول

السفير الروسي في فينا جورتشاكوف بأن الرد الروسي لا يؤلف قبولا غير مشروط وهو ما يتطلبه الانذار ولهذا فان النمسا ستقطع علاقاتها الدبلوماسية مع روسيا اذا لم تقبل الحكومة الروسية جميع المطاليب الواردة في الانذار دون استثناء في مدة لا تتجاوز ١٨ كانون الثاني . عند ذلك عقد القيصر اجتماعا اخر للمجلس الامبراطوري في ١٥ كانون الثاني وقرر المجلس في هذه المرة بالاجماع قبول بنود الانذار النمساوي شروطا مبدأية للصلح ، واخبرت الحكومة النمساوية بذلك ووقع الصلح المبدأي في ١ شباط[٨٢] . وفي ١٨ شباط اصدر السلطان العثماني مرسوم الاصلاح الشهير خطي همايون الذي اقر حرية المعتقد والمساواة المدنية لجميع رعايا الدولة العثمانية وعمم الخدمة العسكرية على المسيحيين واعاد تنظيم النظام المالي[٨٣] ... الخ . وقد اراد السلطان بذلك ان يسلب الدول الحجة التي كانت تتذرع بها للتدخل في شؤون الدولة العثمانية .

مؤتمر باريس :

بدأ مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس اعماله في ٢٥ شباط ١٨٥٦ برئاسة وزير الخارجية الفرنسي الكونت فاليفسكي وهو ابن غير شرعي لنابليون الأول من الكونتيسه البولندية ماريا فاليفسكايا . اما الوفد البريطاني فقد تألف من وزير الخارجية كلارندون والسفير الانجليزي في باريس اللورد كوولي، في حين كان الوفد الروسي برئاسة الدبلوماسي المجرب ارلوف يساعده السفير الروسي السابق في لندن برونوف .

دخل ارلوف بمجرد وصوله الى باريس في محادثات منفردة مع نابليون الثالث واستطاع ان يقنعه بان التقارب بين روسيا وفرنسا اصبح الآن ممكنا لا سيما وانه لا توجد خلافات اساسية بينهما . وقد ساعده على ذلك ان نابليون الثالث كان قد حقق كل ما كان يتوخاه من الحرب فقد ترسخ النفوذ الفرنسي في الدولة العثمانية واحرز السلاح الفرنسي مجد الانتصار فانتقم لهزيمة فرنسا على ١٨١٤ وتعزز النظام الفرنسي في الداخل واصبح نابليون الثالث اقوى عاهل في اوروبا الغربية .

اما بريطانيا فكان موقفها مغايرا لذلك فقد كانت «تريد ان تضعف روسيا استراتيجيا بكل طريقة ممكنة[٨٤]» وقد اتضح ذلك حتى قبل انعقاد المؤتمر عندما نوقشت مسألة مشاركة بروسيا في المؤتمر فقد اراد الكسندر الثاني ان تشترك بروسيا فيه لأنه كان يأمل في ان يحصل على اسنادها في القضايا المختلفة التي سيناقشها المؤتمرون ، غير ان بالمرستون لهذا السبب بالذات لم يكن يريد لها ان تشترك في المؤتمر . ومع ان نابليون الثالث ساند بالمرستون في هذه القضية الا ان مساندته هذه كانت فاترة الأمر الذي فهم منه بالمرستون ، على الرغم من ان القضية انتهت بان تقتصر مشاركة بروسيا في المؤتمر على مناقشة الأمور الخاصة بالتعديلات التي يراد ادخالها على ميثاق المضايق لسنة ١٨٤١ باعتبارها احدى الدول الموقعة عليه ، بان موقف بريطانيا سيكون صعبا في المؤتمر وقد تحقق ما توقعه بالفعل . ويمكن ان نحكم على صعوبة الموقف الذي وجد الوفد الانجليزي الى المؤتمر نفسه فيه مما كتبه كلارندون بهذا الشأن الذي وجد الوفد الانجليزي الى المؤتمر نفسه فيه مما كتبه كلارندون بهذا الشأن فقد جاء في رسالة له كتبها في ٣ آذار ١٨٥٦ قوله «... ان الوزارة يمكنها ان تكون متأكدة من شيء واحد هو انني لم اقم بأي تنازل ابدا في اية مناسبة وفي اية مسألة ... وطبيعي ان ذلك اصبح معروفا كاللهجة التي اعتمدها في الاجتماعات ، ان الذنب في المقاومة الضارية التي ابديت للنعاج الروس وفي عرقلة عقد الصلح تقع علي بشكل كلي» ومع ذلك فان افشال المؤتمر شيء خطر لأن «النباح دون عض» امر غير مستحب بسبب من ان «فرنسا قررت الصلح ومهما قال بالمرستون في خيلائه فاننا لا تستطيع ان نحارب منفردين لأن كل اوروبا ستتوجه على الفور ضدنا ولن تلبث الولايات المتحدة ان تتبعها[٨٥]» . صحيح ان نابليون الثالث لم يسيء الى صداقته مع حلفائه امام ارلوف ولم يقل شيئا يمكن للمندوب الروسي ان يستند عليه في تعامله مع مندوبي بريطانيا الا ان ارلوف استطاع من خلال المحادثات الخاصة التي اجراها معه على انفراد ان يفهم حقيقة الموقف الفرنسي من مختلف القضايا المطروحة على المؤتمر . وبما انه كان يعلم بان بريطانيا لن تواصل الحرب لوحدها فقد كان يوافق على جميع القضايا التي تتفق فيها وجهتا النظر الفرنسية والبريطانية ويرفض ويصر على الرفض في الموضوعات التي يوجد فيها خلافات بينهما فينتهي الأمر على النحو الذي يريده رغم معارضة

مندوبي بريطانيا . وبهذه الطريقة حقق ارلوف مكاسب لا يستهان بها لروسيا ولولا ذلك لكانت قرارات المؤتمر اكثر سوءا بالنسبة لها[٨٦] .

اما عن الوفد العثماني فعلى الرغم من ان وجوده في المؤتمر يؤشر اول حضور لدولة شرقية ذات سيادة في مؤتمر دولي تعقده الدول الأوروبية وبالرغم من ان الدبلوماسية العثمانية استطاعت ان تدافع عن مصالحها وتحمل الدول الكبرى على ان تعير وزنا لهذه المصالح ، فان احدا من المشاركين الآخرين في المؤتمر لم يعني باسناده الا في الأمور التي تستجيب لما يريده هو ، بل انه لم يدع لحضور بعض الجلسات التي اقتصرت على ممثلي الدول الأوروبية[٨٧] .

على اية حال انهى المؤتمر اعماله في ٣٠ آذار ١٨٥٦ بالتوقيع على معاهدة باريس التي كانت من اهم ما تضمنه[٨٨] :

١ ــ حرية الملاحة في نهر الدانوب على ان تشكل لجنة خاصة من مندوبي الدول الموقعة على المعاهدة لتأمين تنفيذ ذلك .

٢ ــ تخلي روسيا عن حمايتها على ولاكيا وملدافيا واعادتهما الى سلطة الدولة العثمانية على ان تتمتعا بامتيازاتهما السابقة بضمان من الدول .

٣ ــ ضمان الدول الموقعة على المعاهدة لاستقلال صربيا الذاتي على ان تبقى تحت السيادة العليا للسلطان .

٤ ــ تخلي روسيا عن الجزء الجنوبي في بسارابيا لصالح امارة ملدافيا .

٥ ــ اعادة قارص الى الدولة العثمانية وسيفاستيبول وبعض الموانئ الأخرى في القرم الى روسيا .

٦ ــ حياد البحر الأسود ومنع كل من روسيا والدولة العثمانية من ان يكون لهما في اكثر من ستة سفن تجارية حمولة كل منها ٨٠٠ طن واربعة سفن حمولة كل منها ٢٠٠ طن ومنعت الدولتان من ان يكون لهما تحصينات على سواحله .

٧ ــ تعهد الدول باحترام استقلال الدولة العثمانية وكمالها الاقليمي وقبولها عضوا في المحفل الأوروبي .

٨ ــ امور اخرى منها منع اشتراك السفن العائدة الى اشخاص من المشاركة في الحروب وضمان السفن التجارية المحايدة ضد غارات الدول المتحاربة ونصح الدول المتنازعة باللجوء الى وساطة الدول الصديقة تلافيا للصدام المسلح وما اشبه .

وهكذا انتهت حرب القرم التي كلفت الدولة العثمانية غاليا فقد بلغ مجموع مصاريفها الحربية النقدية فقط خلال الحرب عشرة ملايين جنيه استرليني (اكثر من مليار قرش) الأمر الذي ادى الى حصول عجز في ميزانية الدولة مقداره ٥٫٨ مليون جنيه استرليني (ما يقرب من ٦٤٠ مليون قرش[٨٩]) . وقد اضطرت هذه المصاريف الباهظة الحكومة العثمانية الى التوجه الى حلفائها فحصلت منهم خلال الحرب على قرضين استغلهما الدائنون الانجليز والفرنسيون لاحكام سيطرتهم على مالية الدولة وتعزيز نفوذهم السياسي فيها .

اما روسيا فقد اخذت تنهج بعد معاهدة باريس ١٨٥٦ خطا جديدا في سياستها الخارجية ، فقد اشار نسيلروديه في المذكرة التي وضعها بأمر من القيصر وارسلها في ١٧ نيسان ١٨٥٦ الى ارلوف في باريس الى ان الحلف المقدس ، كما اظهرت الحرب ولاسيما تصرف النمسا اثناءها ، ولم يعد له وجود ، ولهذا فان على روسيا ، لكي تتلافى احتمال قيام تجمع جديد معاد لها ان تحافظ بكل وسيلة ممكنة على تعاطف الامبراطور الفرنسي معها «دون الالتزام بالسير خلفه في مشروعاته[٩٠]» . وقد جرى الالتزام بخط التقارب مع فرنسا هذا لسنوات عديدة بعد مؤتمر باريس ١٨٥٦ .

ولابد ان نشير الى ان عقد الصلح لم يؤد الى ازالة التوتر السائد في العلاقات العثمانية ـ الروسية . فقد ظلت الأهداف الروسية تجاه الدولة العثمانية قائمة ولكن معاهدة باريس اشرت مع ذلك مرحلة جديدة في المسألة الشرقية تميزت بتضاؤل دور روسيا فيها بسبب الضعف الذي اعتراها نتيجة لحرب القرم من جهة وانهماكها بشؤون الشرق الأقصى من جهة ثانية وانشغالها بالمشاكل الداخلية التي نجمت عن اصلاح ١٨٦١

فيها من جهة ثالثة ، ولهذا فقد برزت الى مركز الصدارة في المسألة الشرقية دول جديدة وبرزت مشاكل جديدة في اصقاع اخرى من الدولة العثمانية مما يعني حلول مرحلة جديدة في تاريخ المسألة الشرقية .

الهوامش:

M. S. Anderson, (ed), the Great Powers (1) and the near east 1774 - 1923, documents of modern history, London 1970, PP 71-72; V. P. Potemkin i drugie, Istoria Diplomatic, Tom 1, Moskva 1959, str. 643; N. V. Vinogradov, Velikoleritaniya i Balkany at Benskovo Kongressa do krymskoy voyny, moskva 1985, str. 242.

(٢) أ. ج. ب. تايلر ، الصراع على السيادة في أوروبا ١٨٤٨ - ١٩١٨ ، ترجمة كاظم هاشم نعمة وبونيل يوسف عزيز ، ساعدت جامعة الموصل على طبعه ، ص٥٩ .

(3) Quoted in Vinogradov, op. cit. P. 240
(4) Anderson, The Great Powers. . P. 74
(5) Potenkin i drugie, op. cit. vol. 1 P. 644
(6) Quoted in Ibid P. 644
(7) Quoted in Vinogradov, op. cit. P. 240
(8) Potenkin i drugie, op. cit. Vol. 1 P. 645

انظر حول ذلك ايضا: Vinogradov, op. cit. PP 240 — 241.

(٩) انظر تفاصيل هذا النزاع وملابساته في :

H. Temperly, England and The Near East, The Crimea, London 1964, PP 280 — 300.
(10)
(11) J. A. R. Marriott, the Eastern Question. An Historical study in European diplomacy, Oxford 1958, P. 254
(12) Sheremet, op. cit. PP 158 — 157.
(13) Quoted in Potemkin i drugie, op. cit. Vol. 1, P. 645
(14) M. N. Todorova, Angliya Rossiya i Tanzimat, Moskva 1983, str. 110

(١٥) انظر:

Paul W. Schroeder, Austria, Great Britain and the Crimean war, London, 1972, P. 24
(16) Temperley, op. cit. P. 300
(17) Marriott, op. cit. P. 256

(١٨) انظر تفاصيل هذه القضية في :

Schroeder, op. cit. PP 24 — 27; Sheremet, op. cit. PP 158 — 159
(19) Schroeder, op. cit. P. 28
(20) Potemkin i drugie, op. cit. vol. 1, P. 647
(21) Vinogradov, op. cit. P. 247
(22) Sheremet, op. cit. PP 165 — 166
(23) Potenkin i drugie, op. cit. vol. 1, P. 647
(24) Vinogradov, op. cit. PP 147 — 148
(25) Marriott, op. cit. P. 260
(26) Vinogradov, op. cit. P. 253
(27) Sheremot, op. cit. P. 167
(28) Vinogradov, op. cit. Footnote P. 245

(29) Quoted in ---id. P. 253
(30) Sheremet, op. cit. P. 168
(31) M. A. Anderson, the Eastern Question
1774 - 1923, A study in International relations, Glasgow 1970, P. 122
(32) Sheremet, op. cit. P. 169
(33) Vinogradov, op. cit. PP 258 — 259
(34) Sheremet, op. cit. P. 169
(35) Anderson, the Eastern Question. . . P. 124
(36) Vinogradov, op. cit. 259 — 260
(37) Potemkin i drugie, op. cit. Vol 1, P. 649
(38) Sheremet, op. cit. P. 177
(39) Schroeder, op. cit. P. 31
(40) Potemkin i drugie, op. cit. Vol 1, P. 650

(٤١) انظر حول ذلك: بيير انوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ ـ ١٩١٤ ، تعريب دكتور جلال يحيى ، دار المعارف بمصر ، د. ت.، ص٣٣٢ .

(٣٢) انظر : Sheremet, op. cit. PP 172 — 173, 174 — 175
(43) Schroeder, op. cit. P. 31
(٤٤) انظر حول ذلك:

Potemkin i drugie, op. cit. Vol. 1, P. 651
(45) Anderson, The Great Powers. . . P. 78
(46) Sheremet, op. cit. P. 179
(٤٧) انظر: I. V. Bestuzher, Krymskaya Voyna :
1853 — 1856 —, "Sovetskaya istoriches — Kaya entsiklopidiya", Tom 8, Moskva 1965

(48) Potenkin i drugie, op. cit. Vol 1, P. 652
(49) Quoted in Vinogradov, op. cit. P. 268

(٥٠) كتب كلارندون حول ذلك يقول : «ان بامكاننا ان تقسم الى ان تسود وجوهنا [بان] الاستقالة ليست لها علامة بالمسألة الشرقية . . . ومع ذلك فان احدا لن يصدقنا لا في داخل الوطن ولا خارجه» .

Quoted in Ibid. P. 272
(51) Sheremet, op. cit. PP 196 — 197
(52) Schroeder, op. cit. PP 129 — 130
(53) Quoted in Vinogradov, op. cit. P. 273
(54) Potemkin i drugie, op. cit. Vol. 1, PP 652 — 653

(٥٥) اعقبت قطع العلاقات بين روسيا وفرنسا مجاملات زائدة عن الحد وغير مألوفة في مثل هذه الحالات ، بين المسؤولين في البلدين الأمر الذي يشير الى ان الجانبين كانا ينظران الى قطع العلاقات بين بلديهما على انه سوء تفاهم عرضي لن تلبث الأمور بعده ان تعود الى مجاريها بينهما .

(56) Marriott, op. cit. P. 264
(57) ----- P. 264
(58) Vinogradov, op. cit. P. 277
(59) W. Miller, the ottoman Empire and its successors 1801 — 1927,
London and Edinburgh 1966, P. 214
(60) K. Bourne, the Foreign policy of victo — rian England 1830 — 1902, Oxford 1970, P. 78
(61) Schroeder, op. cit. P. 140
(62) Vinogradov, op. cit. P. 276

(63) Schroeder, op. cit. P. 141
(64) Quoted in Potemkin i drugie, op. cit. Vol. 1, P. 658
(65) Scheremet, op. cit. PP 202 — 203
(66) Anderson, the Eastern Question. . . PP 132 — 133
(67) Miller, op. cit. P. 216
(68) Quoted in Potemkin i drugie, op. cit. Vol. 1, P. 658
(69) Anderson, the Eastern Question. . . P. 134
(70) A. L. Narochnitskiy, Mezhdunarodnye otssoshenie —, "Novaya istoriya", Tom vtoroy 1789 — 1870, Pod red. I. S. Galkina i drugikh, Moskva 1958, str. 727.

(٧١) ألما اسم لنهر في القرم وانكرمان اسم لموضع هناك ، وقد وقعت في هذين الموضعين في ٢٠ ايلول و ٥ تشرين الثاني ١٨٥٤ على التوالي معركتان كبيرتان بين القوات الروسية والقوات التي انزلها الحلفاء في القرم . وخسرت القوات الروسية المعركتين وتكبدت نتيجتهما خسائر كبيرة مما اضطرها الى التراجع .

(٧٢) لم نضع في اعتبارنا بحث معارك حرب القرم وتطورات الوضع في ساحات القتال ويمكن لمن يريد الاطلاع على ذلك الرجوع الى المصادر المعنية ومنها على سبيل المثال :

W. B. Pemherton, Battles of the crimean war, London 1962; P. Warner, the crimean war, A reappraisal, Newton Alihot, 1973.

(٧٣) انظر تفاصيل ذلك في : Potemkin i drugie, op. cit. vol. 1, PP 660 — 661
(74) Diplomaticheskiy slovar, Tom, 1 Moskva 1960, str. 263
(75) Potemkin i drugie, op. cit. Vol. 1, P. 662
(76) Anderson, the Eastern Question. . . P. 139

(٧٧) محمد مصطفى صفوت ، محاضرات في المسألة الشرقية ومؤتمر باريس ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٤٨ .

(٧٨) لم تشارك هذه القوات في القتال الفعلي فبعد ان مات عدد لا يستهان به من افرادها بسبب المرض جري استخدام الباقين في اعمال الحصار والامدادات والأعمال الادارية وما شابه ذلك :-

Narochnitskiy, op. cit. P. 727

(٧٩) انظر تفاصيل ذلك في : Potemkin i drugie op. cit. Vol. 1, P. 664
(80) Anderson, the Eastern Question. . . P. 139
(81) Potemkin i drugie, op. cit. Vol. 1, P. 665
(٨٢) انظر: Anderson, the Eastern Question. . . PP 140 — 141

(٨٣) انظر نص المرسوم في محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ١٩٧٧ . ص٢٥٦ - ٢٦٠ .

(84) Anderson, the Eastern Question. . . P. 141
(85) Quoted in Vinogradov, op. cit. P. 305

(٨٦) انظر حول ذلك : Potemkin i drugie, op. cit. Vol. 1, PP 667 — 669

(٨٧) حول نشاط الوفد العثماني في المؤتمر نظر : Sheremet, op. cit. PP 242 — 259

(٨٨) انظر نص المعاهدة في محمد فريد ، المصدر السابق ، ص ٢٧٦ - ٢٨٢ ، انظر ايضا:

Anderson, the Great Powers. . . PP 81 — 84
(89) Scheremet, op. cit. P. 224
(90) Diplomaticheskiy slovar, Tom II Moskva 1961, P. 493.

الظهير البربري عام ١٩٣٠
نموذج للسياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي

كفاح كاظم الخزعلي
معهد الدراسات القومية والاشتراكية
الجامعة المستنصريـة

استطاعت فرنسا بعد احتلالها المغرب عام ١٩١٢ ، ان تتغلغل بشكل عميق في كل ميادين الدولة الادارية والقضائية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية مستهدفة من وراء ذلك سيطرتها التامة على امكانيات المغرب المادية والبشرية وبالتالي تسخيرها لخدمة اطماعها فيه .

ولتسهيل مهمة السيطرة على البلاد لجأت فرنسا الى سياسة «فرق تسد» في المغرب ، وتمثل السياسة البربرية[١] ابرز مظاهرها .

كانت الادارة الفرنسية[٢] الاستعمارية في المغرب ترغب في فرض الحكم الاداري المباشر ، الا انها واجهت مقاومة من قبل المخزن[٣] والمغاربة ، لذا اتخذت هذه السياسة بهدف تجريد المخزن من ادارته للمناطق البربرية[٤] . ويوضح (علال الفاسي) اسلوب هذه السياسة بقوله «ترمي لفرنسة المغرب لغويا وسياسيا وقضائيا وتتخذ لذلك وسائل التفرقة بين عنصرين كبيرين في البلاد فتعتمد الى من تظنه اقرب اليها فتحول بينه وبين الثقافة العربية والاسلامية . وتعمد للجماعات القبلية التي كانت مهمتها الدفاع عن القبيلة وتدبير مصالحها المحلية وتمثيلها امام ولاة الملك فتقلبها الى محاكم وتجعل ما بقي من بعض الأعراف الجاهلية قانونا ثابتا ويصل بها الغلو لرفع قضايا الجنايات التي تقع في البلاد من سلطة الملك الدينية والزمنية التي تتجلى في القضاء الشرعي والمخزني . وتعمد الكتاتيب القرآنية والمساجد فتقفلها وتحول بين الفقهاء ورجال الدين وبين التجول لتعليم الناس احكام دينهم[٥] .

برزت السياسة البربرية بوضوح منذ عام ١٩١٤ عندما صدر قانون في ١١ ابريل اكد على احترام ومراعاة العرف لدى القبائل البربرية[٦] . وفي العام التالي شكلت الاقامة العامة الفرنسية لجنة خاصة للأبحاث البربرية هدفها اعداد ابحاث عن تلك القبائل لتسهيل تنظيمها وادراتها بشكل يخدم المصلحة الفرنسية[٧] .

وبلغت السياسة البربرية اوجها في ١٦ مارس ١٩٣٠ عندما اصدرت الاقامة العامة الفرنسية قانونا اكد على تقسيم البلاد على اساس العرق . ووضح نظام قضائي يعزز ذلك عن طريق جعل رؤساء القبائل قضاة ووضعها ما يعرف بمحاكم العرف التي تحكم حسب الأعراف القبلية[٨] .

فكان الهدف من هذا الظهير[٩] هو فصل البربر عن العرب في المجتمع المغربي كخطوة اولى ، ومن ثم فصله عن الاسلام كتشريع وثقافة ودين حتى يرتبط بفرنسا ثقافيا وحضاريا ربطا عضويا وبالتالي تركيز الوجود الفرنسي في المغرب[١٠] .

في الوقت نفسه ، ظهرت فكرة اخرى مع فكرة السياسة البربرية واعتبرت مكملة لها ، وهي فكرة تنصير البربر ، فصرح نائب كنيسة الرباط في مؤتمر للمبشرين عام ١٩٢٩ «الى انه في العام القادم ستقوم بالمغرب اعظم حملة من قبل المبشرين لتنصير البربر[١١] وفي العام نفسه بدأ المبشرون بتوزيع اناجيل باللغة البربرية في مناطق الجبال . ومنذ اصدار الظهير البربري تدفق عدد كبير من المبشرين الى المغرب واخذ القسس والرهبان والراهبات يتجولون في مناطق البربر يبنون الكنائس ويبشرون بالمسيحية[١٢] . ولقد دعمت الادارة الاستعمارية

النشاط التبشيري ، فاجبرت الطلبة البربر الذين يدرسون في المعاهد الاسلامية على العودة الى مناطق[13] . كما منعت السلطات الاستعمارية في الخمسينات قبيلة زمور من بناء المساجد واسست في الوقت نفسه كنيسة كبيرة[14] . فكان هناك توافق بين السياسة البربرية وسياسة التنصير (التبشير) ، وتمثل هذا التوافق في دعم السلطات الاستعمارية للمبشرين .

ازاء ذلك ، وقف المغاربة ضد هذا التوافق عن طريق تصديهم لهذه السياسة الاستعمارية ويوضح ذلك أحد قادة الحركة الوطنية الأوائل ابوبكر القادري بقوله/ «كان الظهير البربري بداية الانطلاقة السياسية لمقاومة الاستعمار الفرنسي ، مقاومته من خلال تقسيم الشعب المغربي الى عرب وبربر ، ومقاومته لالغاء اللغة العربية وابدالها بالفرنسية والبربرية ، ومقاومته لمحاولته في خلق قوة مسيحية تحارب المسلمين المغاربة[15] .

وكرد فعل لهذه السياسة الاستعمارية تجمع الوطنيون في مساجد سلا والرباط وفاس وغيرهامن المدن المغربية . ففي فاس امتلأ جامع القرويين بآلاف المسلمين وكانوا يرددون «اللهم يالطيف، نسألك اللطف بما جرت به المقادير والا تفرق بيننا وبين اخواننا البربر[16]» .

فكان للخطب التي القاها الوطنيون دور في تأجيج حماس المصلين الذين خرجوا الى الشوارع في حزيران ١٩٣٠ متجهين صوب مقر الحاكم العسكري في فاس للتعبير عن احتجاجهم[17] . ان هذه الظاهرة (اي انطلاق المظاهرات من المساجد) كانت اسلوب اغلب التظاهرات التي حدثت في المغرب حتى عام ١٩٥٦ حيث كان المسجد نقطة الانطلاق ، وهذا الأمر يكشف اثر العامل الديني في نفوس المغاربة وامكانية استغلاله في اعداد الجماهير اثناء المواجهة بين قادة الحركة الوطنية والسلطات الاستعمارية[18] .

وكانت هذه السلطات على اتم الاستعداد لمواجهة تظاهرة فاس ، فاحاطت قوة من الجيش جامع القرويين وكل الطرق الموصلة اليه كما وضع مدفع هاون فوق احد سطوح المنازل «كل ذلك كان القصد منه الارهاب والتخويف فكان الخطباء في المسجد يوضحون المقصود من الظهير البربري لعامة الشعب وخرجت المظاهرة في مظهر ادهش المستعمرين ولم يقف بهم السير الا بدار باشا المدينة الذي يسجل له التاريخ ما ارتكبه من خزي وعار ضد الطبقة الواعية من ابناء المغرب الذين استجلبهم لداخل المحكمة فجلدهم وانتقم منهم . كما القي القبض على عدد من الوطنيين[19] .

وأكد ذلك (علال الفاسي) احد قادة التظاهرة[20] بقوله :

«لما وصل المتظاهرون لدار شيخ المدينة عمدت اليهم السلطة فاعتقلت منهم خمسة وعشرين شابا جلدتهم بالسياط ، من بينهم اصدقائي عبدالعزيز بن ادريس والهاشمي الفيلالي ومحمد الوزاني ، وفي مساء اليوم بعثت السلطة فاعتقلتني ، وكانت الادارة الفرنسية قد اعتقلت قبلنا السيد عبداللطيف الصبيحي بسلا والسيد عبداللطيف العنابي بالرباط[21] .

وشكل في فاس وفد ضم محمد بن عبدالسلام الحلو وحمزة الطاهري واحمد مكوار واحمد ابي عياد للتفاوض مع الادارة الاستعمارية ولكن لم يحرز اي تقدم[22] ، مما دفع ذلك الى عقد مؤتمر ضم المجلس البلدي في فاس ، تقرر فيه تشكيل وفد يمثل العلماء والأعيان وقادة الحركة[23] ، توجه الى الرباط في ٢٦ آب ١٩٣٠ ، حيث قابل السلطان محمد بن يوسف وقدم اليه عريضة تحتوي على المطالب التي اقرها المؤتمر والمتعلقة بالموقف من السياسة البربرية . وتضمنت هذه المطالب «الغاء قانون ١٦ مارس ١٩٣٠ وتكوين قضاء موحد للمغاربة ، وربط جميع الموظفين بسلطة الملك الشخصية ، والتأكيد على عدم وجود دين رسمي غير الاسلامي واليهودية في المغرب ، ومنع الهيئات الأجنبية وادارة المعارف من استعمال وسائل التبشير ، وتعتبر اللغة العربية وحدها لغة البلاد الرسمية[24]» .

ولما علمت الاقامة العامة الفرنسية بهذه التطورات وزعت بيانا اعلنت فيه «قبولها اخراج قبيلة تطالب بالقضاء الشرعي من حظيرة القبائل التي يشملها الظهير» . ولكن سلطات الحماية لم تنفذ ذلك[25] .

بقي الوفد بضعة ايام في الرباط ولكن الاقامة العامة الفرنسية اجبرته على العودة . وعند وصوله الى فاس القي القبض على محمدبن عبدالسلام الحلو وعلال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني وعبدالعزيز بن ادريس والهاشمي الفيلالي وغيرهم من قادة الحركة[٢٦] .

واجهت السلطات الاستعمارية المتظاهرين بالعنف مما ادى الى زيادة حدة المواجهة ، اذ قرر الوطنيون في فاس الاضراب لمدة عشرة ايام مما ادى الى صدام عنيف بين السلطات الاستعمارية والوطنيين ، وبالتالي احتلال قوات الحماية لجامع القرويين والمساجد الكبرى والشوارع الرئيسية في المدينة واعلان الأحكام العرفية والقاء القبض على المئات من الوطنيين ونفيّ قادة الحركة[٢٧] ولم يطلق سراحهم الا بعد شهرين من النفي[٢٨] .

وفي مدينة سلا ، قام وفد برئاسة احمد الجريري وعضوية ابو بكر زنيبر واحمد الصابونجي واحمد بن احمد بن عبدالله حجي ومحمد الطالبي وابوبكر الصبيحي[٢٩] ، برفع عريضة الى الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) محمد المقري يستنكرون فيها الظهير البربري ويطالبون بالغاء الأحكام الواردة فيه والتأكيد على اسلامية البربر[٣٠] .

ولعب عبداللطيف الصبيحي دورا مهما في حركة سلا من خلال مساهمته في النادي الأدبي السلوي الذي تأسس في عام ١٩٢٧ في عقد الاجتماعات والقاء المحاضرات والمناظرات العلمية والأدبية والفكرية ومناقشة الأوضاع السياسية وخصوصا سياسة الادارة الاستعمارية والموقف المتخذ اتجاه السياسة البربرية[٣١] .

وكانت في سلا لجنة خاصة عرفت بلجنة اللطيف ضمت عبدالكريم حجي وسعيد حجي ومحمد حصار واحمد معنينو وعبدالسلام عواد ومحمد اشماعو ازداد[٣٢] . فعقدت اجتماعا في سلا ضم الوطنيين السلاويين وحضره محمد اليزيدي شكلت على اثره وفدا ، قابل رئيس الشؤون الادارية المسيو بينازي في ١٧ تموز ١٩٣٠ للتعبير عن سخطهم ضد الظهير البربري[٣٣] .

وكان الاتصال يتم بين المدن المغربية بترديد كلمة «اللطيف[٣٤]» فكان محمد اليزيدي برأس وفد الرباط ويتصل مع الوطنيين في سلا ، وكان يربط الصلة بين وطنيي سلا وفاس الهاشمي الفيلالي .

بالاضافة الى المعارضة السياسية ، اتخذ الوطنيين اسلوبا آخر في مواجهة السياسية الاستعمارية ، هو المقاطعة الاقتصادية ، عن طريق مقاطعة البضائع الفرنسية كالمنسوجات والسكر ، وبرز ذلك في مدن فاس والرباط وسلا وفي قبيلتي زمور وزعير البربريتين .كما امتدت الانتفاضة الى القبائل البربرية كقبيلة (ايت حمو) البربرية وشرق تافيلالت ومنطقة جبال الأطلس[٣٦] .

لقد وقف الرأي العام والاسلامي والدولي[٣٧] مؤيدا للمغاربة في نضالهم ضد الظهير البربري عن طريق المظاهرات الاحتجاجية وتأسيس اللجان وعقد المؤتمرات لتأييد قضية المغرب .

ففي مصر ، وصل مندوب الحركة الوطنية المغربية الحسن بوعياد وعقد سلسلة اجتماعات ولقاءات وضح فيها حقيقة السياسة البربرية . فاسفر ذلك عن احتجاج جمعية الشبان المسلمين وجمعية الهداية الاسلامية ورفع علماء الأزهر عريضة استنكار للملك فؤاد الأول . مما اضطر القنصلية الفرنسية في القاهرة الى محاولة انكار الحقيقة ، فكان ذلك دافعا للحسن بوعياد لتنفيذ ذلك من خلال محاضراته التي كان يلقيها في الأندية العربية[٣٨] . وجندت المنار والفتح في مصر صفحاتهما لنشر اخبار المغرب والمقالات المعادية للسياسة البربرية واصدرتا اعدادا خاصة في ذكرى الظهير البربري[٣٩] .

ونشر اغلب العلماء والجمعيات الدينية العربية في فلسطين[٤٠] والعراق[٤١]وتونس[٤٢] والجزائر[٤٣] وليبيا[٤٤] احتجاجهم على السياسة البربرية في صحيفة (الفتح) المصرية .

وكان لموقف شكيب ارسلان المفكر العربي اثر كبير على القضية المغربية (الظهير البربري) ، فكان على صلة باحداث المغرب منذ انتفاضة عبدالكريم الخطابي المسلحة عن طريق ما قام به من حملة تأييد وتبرعات لصالحه . كما كان على صلة مع محمد بن الحسن الوزاني واحمد بلفريج في جنيف[٤٥] . وفي عام ١٩٣٠ قام

برحلة الى اسبانيا والمغرب والتي منع من دخول منطقة الاحتلال الفرنسي فبقي في طنجة بضع ساعات غادرها الى تطوان التي امضى فيها عشرة ايام ، التقى خلالها بعدد من الوطنيين [٤٦] حيث عرف عن قرب ابعاد السياسة البربرية التي تطبقها الادارة الفرنسية في المغرب[٤٧] . ولعب شكيب ارسلان دورا مهما في الترويج للقضية البربرية عن طريق ما كتبه من مقالات[٤٨] وبعثه من رسائل الى المفكرين وقادة الأحزاب السياسية العربية[٤٩] . وطلب من الحركات الوطنية والاسلامية في العالم عدم الاكتفاء بارسال احتجاجاتهم للصحف العربية بل ارسالها الى عصبة الأمم وفرنسا والدول الكبرى[٥٠] . كما دعا الى مقاطعة البضائع الفرنسية[٥١] .

كما لعب الطلبة المغاربة في فرنسا دورا مهما في توضيح ابعاد السياسة البربرية للرأي العام الفرنسي عن طريق اقامة المهرجانات والندوات[٥٢] . فكان ذلك دافعا لتنديد بعض الصحف اليسارية الفرنسية بهذه السياسة البربرية المتمثلة بالظهير البربري الذي اصدرته السلطات الاستعمارية في المغرب[٥٣] .

لذا كان الظهير البربري يشكل مظهرا بارزا من مظاهر السياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب التي تهدف الى تفتيت مجتمع المغرب العربي عن طريق اثارة قضية الاقليات . حيث كان الظهير البربري مؤثرا في تطور الحركة الوطنية المغربية من خلال المؤشرات التالية :

١ ــ دفع الظهير البربري الحركة الوطنية المغربية لتتخذ مسارا جديدا ، فبعد ان كانت الحركة أسيرة اروقة المساجد ، نزلت الى الشارع المغربي لتعبر عن احتجاجها ضد السياسة الاستعمارية .

٢ ــ كان الظهير دافعا ايضا لقيام تشكيلات سياسية عرفت بكتلة العمل الوطني استطاعت تنظيم النشاط الوطني السياسي لمواجهة الادارة الاستعمارية في المغرب .

٣ ــ اتسمت هذه الحركة بالطابع العفوي والسلمي في مواجهتها للسياسة الاستعمارية وكانت هذه السمة هي الغالبة على اغلب الحركات السياسية التي برزت على الساحة العربية خلال هذه الفترة في تحديها للاستعمار الأجنبي وبشكل خاص الانكلوفرنسي .

الهوامش :

(١) استقر البربر في شمال افريقيا منذ عهد سحيق ، وعرفوا في التاريخ باسماء عديدة منها «الأمازيخ» وتعني في اللغة البربرية (الأحرار ـ الأشراف) والماسيد والنوميديون والموريتانيون والليبيون . وقد اختلف المؤرخون في اصولهم ، منهم من ارجعهم الى عروق اوروبية ، ومنهم من قال بانهم ينحدرون من اصول سامية شرق اوسطية . ولكن الأرجح انهم مغرقون في القدم على هذه الرقعة من العالم وهو ما تتجه نحوه الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة والاكتشافات الأثرية . وقد كان للبربر ممالك قوية كمملكة نوميديا ، وقفوا ضد الغزاة الأجانب كالفينقيين واليونان والرومان والوندال . وعند مجيء الدين الاسلامي ، تقبل البربر الدين الجديد ، وساهموا بصورة فعالة في بناء الحضارة والفكر الاسلاميين ، اي انهم وجدوا هويتهم في الحضارة الجديدة. فقامت للبربر ممالك عديدة فاما ان تكون مستقلة او تدين بالولاء بصورة او بأخرى للخليفة العباسي في بغداد أو للخليفة الفاطمي في القاهرة . ومن ابرزها دولة المرابطين ودولة الموحدين التي وحدت المغرب حتى حدود مصر . للبربر قبائل عديدة اشهرها / زناتة وصنهاجة وكتامة تعربت اغلبها ، واصبح من العسير التميز بين البربر والعرب بعد اربعة عشر قرنا من التاريخ المشترك وتؤكد اغلب المصادر التاريخية العربية وكذلك اغلب كتابات المؤرخين الأوروبيين الى انه لا وجود لعرق او عنصر باسم البربر ، فكلمة البربر مشتقة من الاصطلاح الذي اطلقه الرومان ومن قبلهم اليونان على الشعوب التي تقل عنهم حضارة . فكلمة البربر اصطلاح روماني BARBARUS كان يطلق على جميع الشعوب المتخلفة ، بمستعمراتهم سواء بالشرق الأدنى او بشمال افريقيا أو اوروبا . والغريب ان الذي اوجد الفرق في الكتابة بين التسمية الرومانية هذه ، وتسمية البربر هم بعض المؤرخين الأوروبيين ، فاستبدلوا حرف (A) في كلمة BARBARS بحرف (E) في كلمة BERBERE وهو استبدال مفتعل كما هو واضح ، وضع لتكريس انفصال البربر عن العرب في المغرب العربي .

لمزيد من التفاصيل ، تراجع :

موسوعة السياسة (بيروت ـ ١٩٧٩) الجزء الأول ، ص٥١٢ ، رينيه باسيه ، «البربر» ، دائرة المعارف الاسلامية (طهران ـ د.ت) المجلد الثالث ، ص٥٠١ ـ ٥٢٢ .

وحول عروبتهم : ينظر :

انور الجندي ، الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا (القاهرة - ١٩٦٥) ص٩٥ - ٩٩ .
عثمان سعدي ، الأصول العربية للبربر ، مجلة «افاق عربية» ، العدد (٩) ، السنة الخامسة ، آيار/ ١٩٨٠، ص ٦ - ٢٥ .
حميد المصمودي، شرقية البربر، مجلة «تاريخ المغرب» ، العدد الثاني ، السنة الثانية ، نيسان/ ١٩٨٢ ، ص٥ - ٣٠ .
(٢) هناك مصطلحان يتعلقان بالنظام الاداري الفرنسي في المغرب ، الاقامة العامة الفرنسية والادارة الفرنسية ، فالمقصود بالأول الجهاز الاداري الفرنسي المركزي المتمثل بمكتب المقيم العام وهو ممثل فرنسا في المغرب وبيده السلطة الفعلية في المغرب ومقره الرباط . اما الادارة الفرنسية فهي الجهاز الاداري الفرنسي في المدن المغربية وهو تابع الى الاقامة العامة الفرنسية .
(٣) المخزن/ اصطلاح مغربي يقصد به الجهاز الاداري للدولة .
(٤) محمد خير فارس ، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب ١٩١٢ - ١٩٣٩ (د. ط - ١٩٧٢) ص ٤٥٠ .
(٥) علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي (الرباط - ١٩٨٠) ص ١٤٣ .
(٦) يراجع نص هذا القانون والآراء التي رافقت اصداره والتي توضح الابعاد التي رمت اليها السياسة الفرنسية الاستعمارية من اصدارها هذا القانون محمد المكي الناصري ، فرنسا وسياستها البربرية (تقرير مقدم الى المؤتمر الاسلامي العام في القدس عام ١٩٣١ من اللجنة الشرقية للدفاع عن المغرب القاهرة - د.ت) ص٨ ومابعدها .
(٧) تراجع تفاصيل ذلك في التقرير الذي اعده المكي الناصري «فرنسا وسياستها البربرية» ورفعه للمؤتمر الاسلامي العام في القدس عام ١٩٣١ ، ص ١٦ وما بعدها .
(٨) يراجع نص هذا القانون في كتاب الحسين بوعياد ، وفيه نلاحظ توقيعي الصدر الأعظم محمد المقري والمقيم الفرنسي لوسيان سان .
الحسن بوعياد ، الحركة الوطنية والظهير البربري (الدار البيضا - ١٩٧٩) ص١١ - ١٢ .
(٩) الظهير/ القانون الذي يصدر به مرسوم ملكي يحمل توقيع الملك .
(١٠) محمد عابد الجابري ، تطور الانتليجانسيا المغربية ، مجلة «دراسات عربية» العدد ١ - ٣ ، تشرين الثاني/ كانون الأول ١٩٨٣ ، بيروت ، ص ٣٦ .
روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين (بيروت - ١٩٨٠) ص ١٧٩ وكذلك :
(١١) محمد خير فارس ، المصدر السابق ، ص٤٥٠ .
ويؤكد هذه الفكرة ، شكيب ارسلان في رسالة له الى رئيس جمعية الشبان المسلمين في مصر : «وقد علمت بتطوان - سرا - ان بعض الاسبانيول اخبر احد المسلمين بانهم اطلعوا على كتابات من الفاتيكان نفسه الى بعض الرجال الرسميين من الفرنسيين بانه ان كان تم العمل ولزمت المباشرة بتنصير البربر ، فالفاتيكان حاضر لانشاء المكاتب والمدارس وارسال الدعاة وبذل الأموال . . . الخ» .
يراجع نص الرسالة في :
اكرم زعيتر، (دعم الحركة الوطنية المغربية في الكفاح من اجل الحفاظ على الهوية الاسلامية) ، مجلة «دعوة الحق» ، العدد ٢٣١ ، ايلول - تشرين الأول/ ١٩٨٣ ، الرباط - المغرب، ص١٨ .
(١٢) محمد خير فارس ، المصدر السابق، ص ٤٥٠ وما بعدها . ويبين (ملين) انه في عام ١٩٣٢ صار لهم نحو ١٣٨ مركزا تبشيريا ينظر : محمد الرشيد ملين ، وضال ملك (الرباط - د. ت) الجزء الثاني ، ص ٣٠٧ .
(١٣) محمد خير فارس ، المصدر السابق ، في ٤٥٠ وما بعدها .
(١٤) الحسن بوعياد ، المصدر السابق، ص٢٥٧ .
(١٥) ابوبكر القادري - مقابلة شخصية مع الباحث في ١٢ تشرين الثاني ١٩٨١ ، الرباط ، المملكة المغربية .
(١٦) علال الفاسي ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ .
كذلك :
(١٧) علال الفاسي ، المصدر السابق ، ص ١٤٥ .
(١٨) كفاح كاظم الخزعلي، حزب الاستقلال ودوره السياسي في المغرب (١٩٤٤ - ١٩٥٦) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة البصرة - ١٩٨٣ ، ص ٢٤ .
(١٩) يراجع نص حديث احمد معنينو وابوبكر الصبيحي في : صحيفة الأنباء (المغربية) ، العدد ١٠٥٢ ، ١٦ مارس ١٩٦٧ ، ص ٢ - ٣ .
(٢٠) قاد حركة المعارضة في فاس ثلاث اشخاص ينتمون الى عوائل الأعيان في فاس وهم علال الفاسي وعمر عبدالجليل ومحمد بن الحسن الوزاني .

ينظر :

(٢١) علال الفاسي ، المصدر السابق ص ١٤٥ .
(٢٢) المصدر السابق ص ١٤٥ - ١٤٦ .
(٢٣) تشكل الوفد من ١٣ عضوا وابعد الفرنسيون ٦ منهم فبقي (٧) اعضاء برئاسة عبدالرحمن القرشي .
ينظر : عبدالكريم غلاب، المصدر السابق ، ص٧٥ .
(٢٤) علال الفاسي ، المصدر السابق ص ١٤٦ .
(٢٥) لقد تقدمت قبيلة (اية يوسى) من نواحي صفرو وقبيلة (زمور» في الخميسات وغيرها بارسال وفود تطالب بتحقيق ذلك ولكن الادارة الفرنسية عملت على اعتقال افرادها .
ينظر المصدر نفسه ، ص ١٤٦ .
(٢٦) المصدر نفسه ، ص ١٤٦ .
(٢٧) نفي علال الفاسي وسبعة من قادة التظاهرة الى تازة ، كما نفي محمد اليزيدي الى قلعة السراغنه ومحمد عبدالسلام الحلو الى فجيج .
ينظر : علال الفاسي، المصدر السابق ص ١٤٧ .
(٢٨) وبشكل خاص بعد وصول رئيس الجمهورية الفرنسية لزيارة المغرب بحجة تهدئة الخواطر ، فاطلق سراح القادة الذين نفوا الى تازة بينما استمر اليزيد في قلعة السراغنة شهور اخرى .
ينظر : المصدر نفسه ، ص ١٤٧ .
(٢٩) يراجع نص حديثي احمد معنينو وابوبكر الصبيحي في :
صحيفة الأنباء (المغربية) ، العدد السابق الذكر ، ص ٤ .
(٣٠) يراجع نص عريضة سلا واسماء الموقعين عليها في :
صحيفة الأنباء (المغربية) ، العدد السابق الذكر ، ص ٢ - ٣ .
(٣١) الصحيفة نفسها ، ص ٣
(٣٢) الصحيفة نفسها ، ص ٣ .
(٣٣) من ذكريات سعيد حجي كما رواه ابوبكر القادري في :
ابوبكر القادرة ، سعيد حجي - دراسة عن حياته ونشاطه الثقافي والسياسي (١٩١٢ - ١٩٤٢) ، الدار البيضاء ١٩٧٩ ، ص٧٨ .
(٣٤) تنظر صفحة (٣) من هذا البحث .
(٣٥) صحيفة الأنباء المغربية ، العدد السابق الذكر ، ص٦ .
(٣٦) الحسن بوعياد ، المصدر السابق ، ص٢٥٨ - ٢٥٩ .
(٣٧) لعب ابوبكر المالقي دورا مهما في نقل الوثائق والتعليمات الى مدريد وجنيف وباريس ، فعن طريقه انتقلت انباء الأحداث المغربية في الرباط وسلا الى الأوساط السياسية في اوروبا .
تنظر : صيحفة الأنباء ، العدد السابق الذكر .
(٣٨) علال الفاسي ، المصدر السابق، ص١٤٧ .
(٣٩) محمد خير فارس ، المصدر السابق ، ص ٤٥٦ .
حول موقف الرأي العام العربي والاسلامي والدولي من الظهير البربري ، يراجع كتاب الحسن بوعياد (الحركة الوطنية والظهير البربري) فيه تفاصيل هذه المواقف وخاصة المقالات والبرقيات التي كانت تنشرها مجلة (الفتح) المصرية المتعلقة بالموقف من هذا الظهير والتنديد به .
(٤٠) ويتمثل موقفها باحتجاج جمعية الشبان المسلمين في نابلس وبرقية احتجاج جمعية الشبان المسلمين في سلوان الى عصبة الأمم .
ينظر : الحسن بوعياد ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ وكذلك ص ٣١٣ ومن الجدير بالذكر ان محمد المكي الناصري احد الوطنيين المغاربة حضر المؤتمر الاسلامي المنعقد في القدس عام ١٩٣١ وضع فيه ابعاد السياسة البربرية ونضال المغاربة ضدها .
يراجع نص حديث احمد معنينو وابوبكر الصبيحي في :
صحيفة الأنباء (المغربية) ، العدد السابق الذكر ، ص٤ .
ولقد استنكر المؤتمر السياسة البربرية ، يراجع نص التقرير المرفوع الى عصبة الأمم والموقع من قبل الحاج محمد امين الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الاسلامي العام .

ينظر: الحسن بوعياد، المصدر السابق، ص ٥٨٥ - ٥٨٦ .
(٤١) وبشكل خاص من مسألة تنصير البربر ويتمثل في برقيات احتجاج اهالي العمارة وعلماء النجف وكذلك علماء ووجهاء مدينة الزبير في البصرة .
ينظر : الحسن بوعياد، المصدر السابق، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ وكذلك ص ٢٦٢ .
(٤٢) تراجع برقية احتجاجهم في :
المصدر نفسه، ص ٢٥٧ .
(٤٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٠ .
(٤٤) تراجع برقية علماء واشراف ليبيا (طرابلس المغرب) في:
المصدر نفسه ، ص٣٠٧ .
(٤٥) في عام ١٩٣٠ افتتح شكيب ارسلان مكتبا في جنيف التي اصبحت ملتقى القوميين العرب القادمين من المشرق العربي وشمال افريقيا . وقد تأثر بنفوذ شكيب ارسلان عدد كبير من وطني شمال افريقيا .
ينظر : دوغلاس اي. اشفورد، التطورات السياسية في المملكة المغربية .
(بيروت - ١٩٦٣ - ترجمة/ عائدة سليمان عارف واحمد مصطفى ابو حاكمة)
ص٤٧ .
(٤٦) قابل شكيب ارسلان اثناء وجوده في تطوان عبدالحميد الصفريوي «هو احد (المجلودين) بفاس وحكى له القضية (الظهير البربري) من اولها الى آخرها فتأسف وشجعه واوصاه بالثبات وامره ان يرفع سلامه الى الشبيبة المغربية جمعاء» ، تراجع نص رسالة محمد بنونة التي تحدث عن تفاصيل زيارة شكيب ارسلان الى تطوان والمؤرخة في ٢ ايلول ١٩٣٠ .
الطيب بنونة ، نضالنا القرمي (طنجه - ١٩٨٠) ص ٢٢ .
كما التقى مع بعض الوطنين الرباطيين كاحمد بلفريج ومحمد بن العباس القباح ومحمد بن احمد الزبدي .
المصدر نفسه ، ص ٢٢ .
(٤٧) ومما لاشك فيه انه خلال زيارته الى تطوان اتفق مع الوطنين على توحيد العمل لمواجهة الظهير البربري عن طريق التظاهر والقيام بنشاطات فعالة في الداخل والقيام بحملة واسعة في الخارج .
ينظر : محمد بن عزوز حكيم ، زيارة الأمير شكيب ارسلان للمغرب (تطوان - ١٩٨٠) ص ٦٤ - ٦٥ .
(٤٨) كان شكيب ارسلان يعبر عن افكاره المؤيدة للقضية المغربية وضد سياسة الظهير البربري الفرنسية من خلال مجلته (الأمة الغربية) .
يراجع حديث احمد معنينو وابوبكر الصبيحي في :
صحيفة الأنباء (المغربية) ، العدد السابق الذكر ، ص٤ .
(٤٩) تنظر نص رسالتيه الثانية والثالثة الى الحاج عبدالسلام بنونة في :
الطيب بنونة ، المصدر السابق ، ص١٠٣ - ١١٥ .
(٥٠) محمد خير فارس ، المصدر السابق، ص٤٥٧ .
(٥١) الطيب بنونة، المصدر السابق، ص ٨٤ .
(٥٢) علال الفاسي ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ .
من الجدير بالذكر ان طلبة المغرب في فرنسا اصدروا كتيبا بعنوان (زوبعة المغرب) وضحوا فيه السياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب ورد الفعل لدى الشعب المغربي اتجاهها .
يراجع نص حديثه احمد معنينو وابوبكر الصبيحي في :
صحيفة الأنباء (المغربية) ، العدد السابق الذكر، ص٤ .
(٥٣) روم لاندو ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

حول النشاط الصهيوني في مجال
الهجرة اللامشروعة الى فلسطين

عبد التواب احمد سعيد

كلية الآداب / جامعة الموصل

مقدمة :

رغم كثرة البحوث والدراسات التي تناولت مختلف اوجه القضية الفلسطينية ، يبقى امام الباحثين جوانب تستحق البحث والتقويم ، ومنها موضوع ما يسمى بالهجرة اليهودية غير القانونية الى فلسطين .

والهجرة كانت وما زالت اخطر دعامة للصهيونية في تثبيت موقفها وكيانها وتقديم المادة الأساسية للعدوان المستمر على الاقطار العربية منذ اقامة ذلك الكيان في فلسطين .

وهدف هذا البحث تعريف القارىء الكريم ببعض الأنشطة اليهودية بشأن الهجرة اليهودية السرية ، وكشف بعض اساليب التنظيمات الصهيونية في زيادة عدد الغزاة اليهود المتوجهين الى فلسطين لتهويدها وطمس معالمها العربية والاسلامية ، ومن تلك الأساليب استغلال حوادث غرق عدد من السفن الناقلة لليهود ، كان لها آثار اعلامية وسياسية ونفسية واسعة النطاق .

واني لأرجو ان يجد فيه القارىء وطالب البحث معلومات مفيدة ومثيرة .

ومن الله التوفيق ،،،

أولا : الهجرة اليهودية الى فلسطين . أبعادها السياسية والقانونية حتى قيام الحرب الثانية :

جاء في المادة السادسة من صك الانتداب البريطاني على فلسطين ضمان قيام الادارة البريطانية بتسهيل هجرة اليهود في احوال ملائمة ومساعدتهم على الاستيطان[1] .

وخلال الفترة التي ظل فيها الانتداب مفروضا والهجرة مستمرة ، شهدت فلسطين انتفاضات وثورات قام بها ابناء الشعب الفلسطيني ، وقد كانت الهجرة اليهودية احدى العوامل المحركة لتلك الأحداث كما اقرت بذلك لجان عديدة للتحقيق ارسلتها بريطانية الى فلسطين[2] .

لقد اولت الزعامة الصهيونية ومنذ البداية اهتماما خاصا للهجرة والمهاجرين ، ذلك انه لا وطن بدون مواطنين ، وكانت تلك الزعامة واضحة في هدفها وهو غزو فلسطين بالمهاجرين اليهود حتى تصبح يهودية باكثرية السكان ، وللوصول الى تلك الغاية اتبعت الحركة الصهيونية مختلف الأساليب بالتعاون مع بريطانية الدولة المنتدبة والتي كان من «مصلحتها واهدافها ان يتدفق المهاجرون بشتى السبل وتحت جميع الظروف وباقصى مالديها من مقدرة للتنفيذ»[3] فقد ارتبطت المصالح البريطانية بالأهداف الصهيونية من قبل ان يصدر تصريح بلفور .

والصهيونيون يعتبرون الهجرة ، تجميع للمنفيين كما يقولون وذلك يمثل منطق وجود اسرائيل ، كما تمثل الهجرة صعودا والمقصود بذلك الصعود الجغرافي لليهود الخارجين من مصر والصعود الروحي في نظر الذين يتركون الشتات[4] .

ولعل من المناسب ان نلحظ احد كبار الصهيونيين ، وهو بن غوريون يتحدث عن تصميم في العمل لأجل نقل ملايين اليهود من البلدان التي يعيشون فيها الى فلسطين المحتلة[5] ، وعبّر احد الباحثين الأمريكيين عن رأيه بان هدف الصهيونية هو ايصال عدد اليهود في فلسطين الى اربعة ملايين شخص ، وقد جاء ذلك الرأي عندما لم يكن اليهود قد وصلوا بعد الى ٢/١ مليون شخص ، وذلك في اواخر الحرب العالمية الثانية[6] ، لكن البرنامج الصهيوني سار قدما وتم تنفيذه حتى اصبح الاستبدال الفعلي للسكان العرب باجناس من الدخلاء حقيقة واقعة ، وتم احداث تغيير شامل للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وغيرها بوصول اعداد متزايدة من

المستوطنين اليهود يشكلون اليوم قرابة اربعة ملايين شخص مازالوا بازدياد وهم خليط غريب من شعوب وقوميات ولغات وثقافات شتى ، وهو خليط حمل معه الحقد والأطماع التوسعية وجمعت بينه الأهداف الصهيونية البعيدة المدى[٧] ، ومن المفيد الاشارة هنا الى آخر نشاط صهيوني تمثل ف نقل آلاف من يهود اثيوبيا الى فلسطين المحتلة ، مما سيكون له اثر خطر على المستقبل العربي .

لقد اشرفت بريطانية من خلال ادارتها في فلسطين على اجراءات الهجرة اليهودية تمشيا مع مواد صك الانتداب ، فكانت الهجرة تلك ضمن القانون ، فهي هجرة مشروعة كانت تتم عبر قناة صهيونية هي الوكالة اليهودية ، ووفق برنامج اخذ بنظر الاعتبار قدرة فلسطين الاقتصادية على الاستيعاب حسبما اورده الكتاب الأبيض البريطاني لعام ١٩٢٢ ، والذي اكد ضرورة تمكين اليهود من زيادة عددهم في فلسطين عن طريق الهجرة[٨] .

تلك الهجرة اعتبرت مشروعة الا انه وجد الى جانبها هجرة كانت تتم سرا فسميت بالهجرة اللامشروعة ، على ان المسألة من وجهة النظر العربية تتلخص في اعتبار الهجرة اليهودية باجمعها لا مشروعة لأنها جرت ضمن مخطط استعماري استهدف فلسطين والوطن العربي .

لقد ازدادت الهجرة منذ عام ١٩٣٢ ، وسجلت السنة التالية ، حيث بدأ الحكم النازي المعادي لليهود في المانية ، بداية هجرة يهودية ضخمة[٩] اظهر الانكليز نحوها قدرا كبيرا من العطف ، مما دفع العرب نحو الثورة والضغط على الانكليز الذين حاولوا الحد من عدد المهاجرين ، مما جعل الحركة الصهيونية وتنظيماتها تتجه الى اسلوب التهريب او الهجرة اللا مشروعة التي سارت بخط مواز للهجرة اليهودية حتى عام ١٩٣٩ حينما ازدادت واصبحت اكثر وضوحا وتنظيما[١٠] .

لقد اتخذت الهجرة اللامشروعة اشكالا عديدة للاحتيال على القانون ، فكان كثيرون يدخلون فلسطين لفترة مؤقتة ثم يظلون فيها بعد زواجهم زواجا صوريا حيث يتيح لهم ذلك البقاء بشكل دائم ، كما كانت تقام دورات رياضية يحضرها مئات المشجعين واللاعبين ، لكنهم لا يغادرون البلاد بعد انتهاء الدورة ، اضافة لقيام اليهود بزيارة فلسطين على اساس انهم سياح ومشاركون في معارض خاصة ثم يقومون هناك ولا يغادرون[١١] ، هذا الى جانب عمليات نقل اليهود سرا عن طريق البحر المتوسط .

لقد اشارت لجنة بيل في تقريرها عام ١٩٣٧ الى مسألة المهاجرين اليهود بشكل لا مشروع فاتهم التقرير الوكالة اليهودية بانها مسؤولة عن ذلك النوع من الهجرة ، بينما كان الواجب يقضي بان تحترم القانون لأنها تشكلت بموجب القانون (كذا) وذكر التقرير ان الهجرة اللامشروعة شكلت احدى الظواهر البارزة عام ١٩٣٤ مقترحا استخدام اجراءات معينة للحد من عمليات التهريب[١٢] ، ولقد حققت سياسة الهجرة نجاحا اكيدا خلال اعوام ١٩٣٨ و ١٩٣٩ وازداد عدد المهاجرين عما ذكرته الحكومة البريطانية ، فقد جاء في احصائية رسمية ان العدد يصل الى حوالى ١٥ الف مهاجر بينما كان العدد الحقيقي لا يقل عن ٣٥٫٠٠٠ الف مهاجر[١٣] .

ومن الواضح ان الفرق في العدد ناجم عن كثرة عدد المهاجرين اليهود الداخلين الى فلسطين سرا وليس مستبعدا ان تغفل بعض الدوائر البريطانية ذلك بشكل متعمد لكيلا تثير الجانب العربي بصورة اكبر .

ومع تصاعد الاستياء العربي والنشاط الصهيوني الواسع وتوتر الحالة في اوروبا ، اصدرت الحكومة البريطانية سياستها الجديدة تجاه فلسطين فيما عرف بالكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ والذي حدد الهجرةاليهودية خلال خمس سنوات فجاء الرد من التنظيمات الصهيونية بشكل نشاط واسع المدى لاغراق فلسطين بالغزاة اليهود عن طريق التهريب[١٤] .

لقد تحدث الكتاب الأبيض عن الهجرة اليهودية ، اذ ورد في الفقرة الرابعة من المادة الرابعة عشرة من الكتاب ، عزم الحكومة البريطانية على قمع الهجرة اللامشروعة ، واتخاذ اجراءات لمنعها ، وانه «اذا نجح عدد

من المهاجرين اليهود غير الشرعيين في دخول البلاد ... وكان هؤلاء ممن لا يمكن ابعادهم ، ينزل عددهم من الحصص السنوية»(١٥) .

لكن اللهجة القوية التي استخدمت في الفقرة اعلاه لم تكن لتثني الوكالة اليهودية او غيرها عن متابعة نشاطها المحموم لاستقدام المزيد من اليهود الى فلسطين وتوطينهم ، وبينما تمكنت الادارة البريطانية في فلسطين خلال ثلاثين سنة ان تتابع التحركات المناوئة لها ، وللصهيونية في فلسطين وماجاورها ، فانها لم ترد على ما يبدو ان تتابع بنفس القدر من الدقة والقوة تحركات سفن كثيرة حملت عشرات الألوف من يهود اوروبا للتعجيل بعملية تهويد فلسطين وطرد اهلها ، واكتفت تلك الادارة وفي ظل ظروف خاصة بتطمين العرب تجاه (تصميم وعزم) الحكومة البريطانية على قمع الهجرة اللامشروعة مستهدفة من ذلك ايضا اضفاء الشرعية على الهجرة اليهودية التي كانت تجري تحت رعايتها املا في احداث تغيير محسوس في الموقف العربي الرافض دوما للهجرة اليهودية الى فلسطين .

وهكذا فان سلطات الانتداب اخذت تتابع بحذر تحركات سفن تنقل يهودا مهاجرين الى فلسطين ليس معهم تصريح قانوني بالدخول اليها ، وكانت مدفوعة في ذلك باسباب منها «وضع حد لتسلل العملاء الألمان مع اولئك المهاجرين»(١٦) ، وخلال تلك الفترة (١٩٣٩) وما بعدها ، خاصة اشار مسؤول بريطاني كبير وهو لورد موين وزير المستعمرات الى ان عملية انتقال اليهود من منطقة البلقان قد لقيت تشجيعا من رجال الغستابو الألمان محذرا من امكانية توغل عملاء لألمانية الى فلسطين وايده في ذلك صحفي امريكي ، عندما اشار الى ان احدى استراتيجيات المانية انما كانت العمل على التخلص من يهود البلقان بجمع اعداد كبيرة منهم ودفعهم الى منطقة يخلقون فيها ازمات لبريطانية(١٧) ، غير ان تصريح موين ورأى الصحفي الأمريكي لم يمنعا وزارة الخارجية البريطانية من انتقاد الرأي القائل بوجود مندسين من العملاء الألمان بين المهاجرين اليهود(١٨) ، وقد كانت هناك وجهات نظر مختلفة بشأن التعامل مع المشكلة الفلسطينية بين وزارتي المستعمرات والخارجية البريطانية ، الا انه اختلاف في الأسلوب لافي الهدف وليس هنا مجال التفصيل .

على اي حال ازداد تدفق المهاجرين اليهود الى فلسطين بشكل لا مشروع ، ويشير نيفيل باربر الى ان اعداد المهاجرين كانت كبيرة خاصة مع بدء الحرب العالمية الثانية ، وان الادارة البريطانية في فلسطين لم تقم بالتفتيش عن معظم هؤلاء المهاجرون ، بينما احالت الذين فتشت عنهم الى الوكالة اليهودية لاستيعابهم(١٩) .

والواقع ان المنظمة الصهيونية لم تعتبر اسلوب ايصال اليهود الى فلسطين سرا ، على انه عمل ينتهك القانون لذلك ظل الصهيونيون معارضين بشكل صلب للقيود المفروضة على الهجرة حتى انتهى الانتداب البريطاني بعد ذلك بسنوات(٢٠) ، ولأجل اعطاء الدليل العملي على ذلك بادرت مؤسسات ومنظمات صهيونية عديدة الى تنظيم عملية الهجرة السرية والاشراف عليها وتشجيعها وتشكيل لجان سرية للاسهام في ذلك النشاط تنطلق في عملها من اوروبا بينما نشطت الوكالة اليهودية ومنظمة هافاناه «الدفاع» في استيعاب المهاجرين الداخلين الى فلسطين وبالتعاون مع المنظمات اليهودية السرية في اوروبا(٢١) ، وللغرض نفسه تم انشاء منظمة خاصة للاشراف على عملية تهريب المهاجرين عرفت بالموساد ولقيت رعاية خاصة من بن غوريون(٢٢) ، بينما اشرف موشي دايان على تنظيم صهيوني عرف باسم «وحدة المهمات الخاصة» وقام بعمليات ارهابية ضد من يعترض السفن التي تنقل المهاجرين اليهود سرا الى فلسطين(٢٣) ، وقد ابتدأت المقاومة الصهيونية للاجراءات البريطانية كما يذكر احد المصادر قبيل الحرب العالمية الثانية ، واتخذت تلك الصورة من النشاط الواسع لتهريب اليهود من اوروبا الى فلسطين(٢٤) .

ثانيا : الهجرة اليهودية اللامشروعة الى فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية :

وضعت المنظمة الصهيونية العالمية بواخر عدة في خدمة اليهود المهاجرين سرا الى فلسطين في اعقاب نشوب الحرب ، وردت السلطات البريطانية بتشديد المراقبة عند السواحل حيث تصاعد النشاط الصهيوني في البحر

المتوسط من خلال تنظيم رحلات عديدة تتم بعد تجميع اليهود في مختلف موانىء اوروبا المطلة على البحر الأبيض المتوسط والتوجه بهم الى فلسطين حيث كانت شرطة خفر السواحل بانتظارهم لضربهم «اي ضرب البواخر» عند الامتناع عن التوقف من عدم اكتراث منظمي تلك الرحلات عن الاستمرار في تشجيع اليهود على التوجه الى فلسطين سرا عن طريق البر والبحر واستخدام اية انواع من السفن الجيدة او الردئية وفي ظروف سفر غير آمنة(٢٥) .

لقد ادت العمليات الصهيونية النشطة في تهريب المزيد من اليهود عبر البحر ومحاولات السلطات البريطانية عرقلة ذلك النشاط في بعض الحالات ، الى حوادث غرق سفن تنقل المهاجرين ، ومن تلك السفن التي غرقت ، وكان لذلك تأثير واسع في اماكن عدة ، باتريا وستروما وسلفادور .

غرق باتريا وستروما :

استمرت الهجرة اللامشروعة الى فلسطين على الرغم من استمرار الادارة البريطانية في سياستها القاضية بمنع نزول المهاجرين الذين يصلون سواحل فلسطين عبر المتوسط حيث كانت تصل سفن كثيرة محاولة انزال ركابها سرا ، وحدث ان وصلت تلك السواحل ثلاث سفن تحمل اسماء : باسيفك ، ميلوس ، واتلانتيك ، وذلك في خريف عام ١٩٤٠ ، وهي تنقل اعدادا كبيرة من يهود اوروبا الشرقية دون ان يكون معهم اية تصاريح قانونية لدخول فلسطين ، وقامت زوارق حربية بريطانية باعتراض السفن الثلاث واحتجازها ، ومن ثم اصدرت السلطات من جانبها امرا بابعاد ركاب السفن الثلاث مع اعداد من المهاجرين كانوا محتجزين في معسكر خاص بهم وذلك تمشيا مع سياسة الكتاب الأبيض واحتمال ان يكون بين الركاب عدد من العملاء الألمان المندسين ، اضافة الى سوء الأحوال الاقتصادية التي كانت قائمة في فلسطين آنذاك ، واخيرا لحمايتهم من مخاطر الحرب ونشاط الجيوش المتحاربة ، واعلنت السلطات ان مصير هؤلاء لن يتقرر الا بعد انتهاء الحرب ، وهكذا تم نقلهم الى سفينة كبيرة تحمل اسم باتريا Pateria تمهيدا لابعادهم الى احدى الجزر التابعة لبريطانية في المحيط الهندي ، وخلال عملية النقل الى السفينة اعلنت الوكالة اليهودية الاضراب العام ، وبدأ عدد من سكان ميناء حيفا بمراقبة الموقف ، وبينما الاستعدادات تجري لرحيل باتريا حدث انفجار كبير داخلها صبيحة يوم ٢٥ تشرين الثاني ، وقام بعض الركاب برمي انفسهم الى الماء ، ثم ما لبثت السفينة ان غرقت بعد فترة وجيزة وغرق معها اكثر من ٢٣٠ شخصا رغم الانذار الذي كان قد صدر لجميع الركاب قبل حصول الانفجار بوقت قصير(٢٦) .

ولكن لماذا وقع الانفجار ومن هم الذين قاموا به ، وما الدوافع التي دفعتهم لذلك العمل الاجرامي ؟ .

ناقش كريستوفر سايكس في كتابه ذلك الحادث بتفصيل واضح ، فبعد ان ذكر تفصيلاته اورد ادعاء الوكالة اليهودية في حينه بان الانفجار والغرق يمثلان عملا من اعمال الانتحار الجماعي والاحتجاجي اليهودي الجماهيري على قرار الابعاد المتخذ ضد المهاجرين ، ويفند الكاتب ذلك ويستنكر اكذوبة الانتحار الجماعي التي صدقها اليهود بفعل الارهاب والضغط الصهيوني حتى يقبلوا باساليب الحركة الصهيونية ، ثم يشير الى تقرير لجنة تحقيق خاصة بالحادث توصل الى ان الغرق نجم عن تفجير قامت به جماعة صهيونية نفذت خطة مرسومة بدقة من قبل منظمة أرغون الارهابية وبمشاركة الهاغاناه ، وان الوكالة اليهودية سارعت الى اخفاء جريمتها عندما وقعت ضحايا باختلاق قصة الانتحار الجماعي كي تركز الغضب العام على الادارة البريطانية التي يمثلها المندوب السامي في فلسطين(٢٧) .

بعض المصادر الصهيونية او المتعاطفة معها فسرت الحادث بشكل يخلو من التحديد او التوضيح ومن ذلك القول بان أسباب (المأساة) غير معروفة(٢٨) أو ان الانفجار حدث من قبل المسافرين او المتعاطفين معهم ، مما ادى الى (تعطيل الجهد الحربي البريطاني بخسارته لسفينة ثمينة)(٢٩) ، هذا بينما نسب الى مصادر اسرائيلية توضيحها بان قيادة منظمة الهاغاناه اعدت خطة هدفت الى «تعطيل» السفينة لا اغراقها ، وكلفت واحدا من

كبار ضباطها واسمه مريدور لتنفيذ الخطة حيث قام بوضع مواد ناسفة موقوتة داخل السفينة وبمعرفة عدد قليل من ركابها ، وادى انفجار المواد الى غرق السفينة مع اعداد كبيرة من اليهود[٣٠] .

والواقع ان مصادر عديدة تشير الى الحادث ولا تطيل كما فعلت مع حوادث غرق السفن الأخرى التي سنشير لها ، وتركز على آثار الغرق ونتائجه وهو امر منطقي لأن اغراق باتريا يمثل حقيقة الصهيونية ورجالها الذين لا يتورعون عن ارتكاب جريمة قتل متعمدة حتى بحق ابناء جلدتهم اليهود من غير وازع اخلاقي او انساني وهو عمل يظهر مدى ما يمكن ان يرتكبه هؤلاء من جرائم بحق شعب آمن مسالم هو الشعب العربي .

ورغم الخسائر البشرية التي اصابت اليهود على ايدى الصهيونيين ، فان هؤلاء حققوا بعض الأهداف التي كانوا يعملون من اجلها ، فقد اجبرت الضجة التي اعقبت غرق باتريا ، اجبرت الحكومة البريطانية على التدخل السريع وذلك بالسماح لمن بقي حيا من ركاب السفينة ان يظلوا في فلسطين رغم كونهم مهاجرين بشكل لا قانوني[٣١] ، وقد ساعد في ذلك الضغط الشديد للعناصر الموالية للصهيونية في بريطانيا وحملة الاحتجاجات الكبيرة التي واجهت الحكومتين البريطانية والأمريكية ضد عمليات ابعاد المهاجرين اليهود الذين وصلوا فلسطين بشكل غير قانوني[٣٢] .

ذلك التطور مثل تراجعا عمليا من قبل بريطانيا عن سياستها المعلنة بشأن الهجرة اللامشروعة ، رغم انه تراجع مؤقت ولا شك انه كان نجاحا للزعامة الصهيونية رسخته بكسب تعاطف متزايد في اوساط الرأي العام الأوروبي والأمريكي حيال دعاويها بوجود اضطهاد بريطاني الماني لليهود وضرورة العمل على خلاصهم بتكوين دولة لهم في فلسطين باسرع وقت ممكن ، وساعد ذلك العطف المتزايد في استمرار الصهيونيين بالعمل الدؤوب لتحقيق غاياتهم مدعومين بقوة من اوساط الرأي العام الأمريكي خاصة وباسناد سياسي واعلامي فعال في قارتي اوروبا وامريكا شارك فيه رجال ذوي شأن في الحكومات والأحزاب والصحف وغيرها[٣٣] .

ولم يؤد حادث غرق باتريا الى امتناع الصهيونيين عن تنظيم المزيد من الرحلات البحرية للمهاجرين اليهود الى فلسطين بشكل لا مشروع ، فقد استمرت السفن في تحركها عبر البحر المتوسط حاملة المزيد من اليهود الفارين من الاضطهاد النازي لكي يصلوا فلسطين ويمارسوا مع اهلها دونما ذنب او مبرر الأساليب الوحشية التي تعلمها الصهيونيون من النازيين ، وهكذا فقد وصلت سواحل فلسطين سفينة اسمها دارين Darien وذلك في آذار من عام ١٩٤١ وكانت تنقل حوالي ٨٠٠ يهودي معظمهم من رومانية ، وحال وصولهم قامت السلطات البريطانية باعتقالهم ووضعهم في معسكر خاص حيث ادى ذلك الى احداث واحدة من المشاكل الكبيرة التي واجهت المندوب السامي البريطاني في فلسطين ، كما اشار لذلك وزير المستعمرات آنذاك اللورد موين[٣٤] .

وفي معرض حديثه عن الهجرة اليهودية ، اشار حاييم وايزمن «أول رئيس للكيان الصهيوني» الى القيود التي وضعتها الحكومة البريطانية حول الهجرة وان تلك القيود قد دفعت اليهود نحو اليأس فكانت جهودهم الأساسية منصبة على الوصول الى شاطيء الأمان في فلسطين كما قال مما قادهم الى «ظاهرة السفن التي تحمل نعوشهم»[٣٥] .

كانت السفينة التالية التي حملت نعوش اليهود سفينة غرقت في شباط من عام ١٩٤٢ ، وكان لغرقها تأثير اوسع بكثير من ذلك الذي حدث في اعقاب غرق باتريا حتى ان مراسل صحيفة المانشستر البريطانية يصف ما حدث بانه وضع اخاذ ذلك ان اليهود الذين كانوا على شاطيء الفناء الجسدي اثر بهم حادث ستروما في الصميم[٣٦] .

في أواخر عام ١٩٤١ غادرت سفينة ترفع علم بنما واسمها ستروما Struma احد الموانيء الرومانية متوجهة الى اسطنبول وهي في طريقها الى فلسطين حاملة حوالي ٨٠٠ شخص ، بينما لم تكن لتتسع لأكثر من ١٠٠ راكب وتقدمت ببطء شديد حتى وصلت اسطنبول يوم ١٦ كانون الأول مع ركابها الذين كانوا من يهود البلقان المهاجرين الى فلسطين بشكل لا مشروع اذ لم يكن مع اي احد منهم تصريح بالدخول ، ومع وصولها المينه

التركية رغب قائدها في اجراء اصلاحات عليها قبل مواصلة رحلتها وطلب رسوها الا ان سلطات الميناء التركي رفضت ذلك واشترطت حصولها على تأكيدات بريطانية بان ركابها سيتوجهون الى فلسطين ويسمح لهم بدخولها ، لذلك سارعت الوكالة اليهودية الى الاتصال بالقنصل البريطاني في الميناء كي يوافق على المطلب التركي لكيلا تغرق ستروما مثلما غرقت سفينة قبلها اسمها سلفادور غرقت اواخر عام ١٩٤٠ في المياه التركية وغرق معها ٢٠٠ يهودي من مهاجري البلقان بعدما قامت السلطات التركية بابعادها الى البحر ، لكنه رفض لأسباب امنية تتعلق بالحرب مع المانية والتقى السفير البريطاني في تركيا في العشرين من ذلك الشهر مع وزير الخارجية التركي لبحث المشكلة التي خلقتها ستروما للحكومة التركية ولمس الأتراك ان السفير راغب في ان تعود ستروما من حيث أتت بينما لمح الأتراك الى احتمال غرقها في بحر مرمرة (وهو احتمال وقع فعلا) لكن السفير رفض اعطاء موافقة رسمية على توجه السفينة الى فلسطين ، ولم تقبل اية سفارة في تركيا ان تستقبل بلادها ركاب السفينة بينما اكدت السفارة الرومانية ان السفينة لن يسمح لها بالعودة الى رومانية لأنها غادرت بشكل غير قانوني وهكذا اصبحت السفينة مشكلة بحد ذاتها لكل من السلطات التركية والحكومة البريطانية حيث نقل السفير البريطاني في تركيا طلب اللورد موين وزير المستعمرات البريطاني من الأتراك معالجة الموقف باعادة السفينة الى البحر الأسود[٣٧] .

غير ان المشكلة ظلت تقلق المسؤولين البريطانيين واستحوذت على تفكيرهم تماما لأنهم كانوا غير راغبين حقيقة في ان تصل ستروما الى فلسطين وفي نفس الوقت لم يكونوا راغبين في ان تعلن الحكومة التركية ان بريطانية طلبت رسميا ابعاد السفينة الى البحر بينما كانت مسألة موقف الحكومة البريطانية من المهاجرين اليهود قد خلقت مشاكل سياسية للانكليز مع الأمريكان في ظرف احتاجت فيه بريطانية بقوة الى مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية[٣٨] ووسط ذلك الاحراج تصرفت الحكومة البريطانية تصرفا يؤدي الى قيام الحكومة التركية عبر سلطاتها بابعاد ستروما الى البحر ، ففي التاسع من شباط ١٩٤٢ تم ابلاغ السفير البريطاني في انقرة بأن الأتراك مجبرون على اعادة ستروما من حيث أتت طالما ان الحكومة البريطانية لا تسمح لها بالتوجه الى فلسطين ولا تقدم حلا آخر ، وخلال ذلك تقدم احد مناصري الصهيونية في بريطانية وهو سكرتير وزير الخارجية انطوني ايدن باقتراح الى حكومته يدعو الى اتخاذ قرار انساني يخفف من الحالة المأسوية لركاب ستروما كما زعم محذرا من انهم سيموتون جميعا ان عادت سفينتهم الى البحر ، وزاد المأزق البريطاني حينذاك بين مواجهة كارثة مشابهة لما حدث لباتريا او مواجهة مشاكل صعبة جدا في حال توجه ستروما لفلسطين وابرزها خرق السياسة البريطانية المعلنة ، كما ان وضعهم (اللاجئون اليهود) في معسكر يكلف غاليا ونقلهم الى جزيرة موريشيوس مستحيل بسبب حاجة بريطانية للسفن في مجهودها الحربي ، وتخوف المسؤولون الانكليز من ان السماح لستروما سيؤدي الى وصول سفن جديدة وبالتالي مشاكل جديدة متكررة ، ولذلك تم الوصول الى قرار وهو السماح لأطفال ستروما بالتوجه الى فلسطين وبينما علمت الوكالة اليهودية بالقرار في ١٥ شباط ، كان الاتراك قد توصلوا الى قرار يقضي بابعاد السفينة والتخلص من مشاكلها ، ودون ان يعلم احد ما حدث بالضبط فان السفينة ما ان ابتعدت مسافة خمسة اميال عن مضيق البسفور باتجاه البحر الأسود وانظار المشاهدين وبينهم عدد من مراسلي وكالات الأنباء العالمية متجهة صوبها، حتى انفجرت وابتلعتها مياه البحر بشكل سريع مذهل وغرق ركابها جميعا وذلك يوم ٢/٢٤ فيما عدا شاب وشابة نجيا من الغرق وهما ديفيد ستولير وميديا سالا موفيس ، ونجم الانفجار عن طوربيد او لغم بحري ، وربما حصل الانفجار من داخلها ، او ان سوء الأحوال الجوية كان السبب في تعطل محركاتها وغرقها .

ومع سماع اليهود بالحادث اعلنوا الاضراب العام وعلقوا لافتات تقول بان بريطانية مسؤولة عن غرق اليهود واتهموا المندوب السامي البريطاني في فلسطين بانه سفاح وقاتل ، ووصل الاحتجاج حد التمرد والعمل ضد الانكليز واجتمع اليهود او عدد منهم في اكبر فندق في نيويورك للتعبير عن الأسى والألم لحادث غرق ستروما

والاحتجاج عما اسموه السياسة البريطانية المناقضة للعدالة والانسانية ، وأدى الحادث الى اصابة السمعة البريطانية الجيدة في الولايات المتحدة بأذى شديد وناقشت الصحف البريطانية ما حدث باسهاب ، كما نظر مجلس الوزراء البريطاني ايضا فيما حدث وقرر ضرورة معاملة اي يهودي يصل فلسطين بشيء من اللين واعلن نائب وزير المستعمرات بان بريطانية ستعمل جاهدة على منع حدوث كارثة اخرى مثل ستروما ، خاصة وان الحادث قد ادى الى حقد يهودي بالغ ضد بريطانية تم استغلاله في امريكا لكسب التأييد الأمريكي ، لكن الحادث وما تلاه ايضا جعل البريطانيين يشعرون بثقل الابتزاز الصهيوني والعمليات الاجرامية ليهود فلسطين ضد السلطة البريطانية ، وأخذ المسؤولون الانكليز يتخوفون من مواجهة التأثير اليهودي العالمي ضدهم وبشكل خاص في الولايات المتحدة لكنهم اطمأنوا الى ان الهجرة اللامشروعة قد اوقفت قدر المستطاع[٤٠] .

وفي أعقاب غرق ستروما ارسل حاييم وايزمن خطابا للجنرال يمطس (مناصر بريطاني للصهيونية) كرر فيه القول بمقتل ملايين اليهود في اوروبا وغرق المئات في البحر ، كما حدث لباتريا وستروما وغيرهما وموت آخرين في جزيرة موريشيوس لكي يبرر الافعال التي صدرت عن الصهيونيين فيما بعد بقوله: «ان العذاب النفسي الذي عاناه يعود فلسطين يفسر لنا تصرفاتهم والمنحى الذي ساروا فيه»[٤١] .

ويعكس قول وايزمن الأثر الذي تركه حادث ستروما في التفكير الصهيوني والغربي عموما حيث لم تترك المنظمة الصهيونية العالمية فرصة الا استغلتها لمصلحتها مستفيدة من آثار غرق ستروما على الرأي العام الأوروبي والأمريكي ، وكان الهدف الرئيسي لها تحقيق نصر سياسي واعلامي وفكري واسع ومن ذلك توجيه ضغط شديد على الحكومة البريطانية لكي تتراجع عن سياستها بشأن الهجرة اليهودية ، وقد حصل الصهيونيون على تأييد واضح من عدد من اعضاء مجلس العموم البريطاني حملوا بشدة على سياسة بلادهم ووصفوها بالغباء والانسانية[٤٢] ، بينما نظمت الوكالة اليهودية حملة قوية من الاحتجاجات والمظاهرات والاضرابات في العديد من بلدان العالم وقامت بالدعوة للصوم واعلن الحداد مع توقيع عرائض كثيرة تطالب السلطات البريطانية بفتح ابواب فلسطين امام المهاجرين اليهود ، واحرجت تلك الأنشطة والضغوط حكومة لندن فخففت اجراءاتها المضادة للهجرة اللامشروعة واصدرت اوامر بالسماح لسفن المهاجرين بالرسو في الشاطيء واحتجاز ركابه لفترة مؤقتة ثم السماح لهم بدخول فلسطين ، كما انها وافقت في ربيع عام ١٩٤٢ على تهجير الأطفال ونسبة من رجال الدين والأطباء ورجال الأعمال ممن تختارهم الوكالة اليهودية[٤٣] .

ومع النجاح الذي حققته المنظمة الصهيونية بكسب تأييد واسع لها فانها استغلت ذلك الظرف المناسب في تكثيف نشاطها وتوسيع عملها من اجل تهجير اليهود الى فلسطين ليشمل اضافة الى اوروبا اجزاء اخرى في آسيا وافريقيا وبشكل خاص يهود الأقطار العربية والاسلامية .

ولأجل ذلك قامت الباغاناه شبكات سرية لها في العديد من عواصم الأقطار العربية في المشرق مع تزويد تلك الشبكات بالأسلحة واجهزة البث قبل البدء بالعمل السري لتهجير اليهود والذي اخذ يزداد عام ١٩٤٣ ، وخاصة من العراق وسوريا عن طريق سفرهم الى بيروت بحجة الدراسة او التجارة مثلا والتسلسل من هناك الى فلسطين ، والطريقة الثانية هي ارتداء اليهود ملابس الجنود الانكليز واستخدام السيارات العسكرية البريطانية لعبور الحدود العربية الى فلسطين ، وكانت هناك طريقة اخرى وهي استخدام الطائرات المدنية (الأمريكية خاصة) في تهريب اليهود كما حدث في فترة لاحقة حينما تم تهريب بضع مئات من يهود بغداد بطائرات امريكية واشرف على العملية التي تمت في مطار بغداد آنذاك (مطار المثنى حاليا) واحد من قادة الماغاناه في العراق[٤٤] ، وقد تولى فيما بعد وزارة الشرطة الاسرائيلية .

ثالثا : الفاشيون والهجرة اليهودية اللامشروعة الى فلسطين :

ان الرأي السائد لدى كثيرين هو الرأي القائل بأن العلاقات بين اليهود عموما والقوى الفاشية في اوروبا كانت علاقات سلبية سادها الاضطهاد النازي الواسع لليهود حتى نهاية الأنظمة الفاشية في اوروبا ، غير ان

الدراسات الحديثة اظهرت وجود علاقات طيبة جمعت بين الصهيونيين والفاشيين نحاول تبيان جانب منها بقدر ما يتسع البحث .

ففي ايطاليا حيث استولى موسوليني وحزبه ألفاشي على السلطة عام ١٩٢٢ جرت اتصالات مبكرة بين الفاشيين والصهيونيين بهدف التوصل الى علاقات تضمن لايطاليا مصالح في المشرق العربي وتضمن للحركة الصهيونية قوة اوروبية تملك امكانيات الدعم اللازم ، وبعد مراسلات بين الطرفين تم اول اتصال مباشر بين بعثة صهيونية ورئيس الوزراء الايطالي اعقبه عدد من اللقاءات بين موسوليني وحاييم وايزمن استمرت حتى نشوب الحرب الثانية واثمرت منذ عام ١٩٣٤ عن اتفاق استهدف دعم الآمال الصهيونية بتسهيل مرور اللاجئين اليهود من اوروبا الى فلسطين عبر الموانيء الايطالية وهكذا تم مرور آلاف اليهود وهم في طريقهم الى فلسطين وجاء ذلك انسجاما مع توجهات الحزب الفاشي الذي كان يرى ان الوطن القومي اليهودي اصطلاح غامض وان المطلوب هو اقامة دولة يهودية في فلسطين[٤٥] .

اما الاتصال الأهم فقد تم مع النظام الفاشي في المانية في اعقاب وصول الحزب النازي الى السلطة عام ١٩٣٣ حيث اهتم الصهيونيون لوصول هتلر الى الحكم في المانية ورأوا ان افضل حل لمشكلة اليهود الألمان انما يكمن في تشجيعهم على الهجرة الى فلسطين وأيد ذلك الحل قنصل المانية في القدس[٤٦] ، وبهذا الصدد يشار الى حقيقة ان السنة الأولى من حكم هتلر شهدت وصول اعداد من يهود وسط أوروبا الى فلسطين اكثر من جميع اليهود القادمين من الأقطار الأوروبية الأخرى[٤٧] .

وبدأت المانية بعملية التخلص من اليهود بتشجيعهم على الهجرة وباشراف مؤسسات صهيونية مختصة الى جانب عملاء الغستابو الألمان (الشرطة السرية) فكان هناك نشاط واسع لاخلاء وسط اوروبا من اليهود بشكل سري وبتنظيم دقيق اظهر رجال الغستابو خلاله «براعة فائقة في تنظيم الهجرة اللامشروعة وتسهيل عملية خروج اليهود عبر السفن الى فلسطين وانزالهم الى البر ليلا او اعادتهم ان انكشف امرهم»[٤٨] ، ويشير احد المصادر الحديثة الى ان اعلانات شوهدت بكثرة في المانية والبلاد التي احتلتها القوات النازية بعد نشوب الحرب ومنها رومانية تحث اليهود على الهجرة الى فلسطين حتى وان كانت هجرة غير قانونية[٤٩] .

في عام ١٩٣٥ ابرم الحزب النازي الألماني اتفاقية النقل مع الهستدروت تم بمقتضاها هجرة يهود المانية الى فلسطين مقرونا بتصدير بضائع المانية الى فلسطين ، حيث كانت اثمانها تؤخذ من اليهود الألمان المهاجرين ويقوم هؤلاء باسترداد اموالهم من الشركات الصهيونية عند وصولهم الى فلسطين ، وبلغ عدد المهاجرين في السنة الأولى من وصول هتلر الى السلطة ٣٧٫٠٠٠ مهاجر يهودي الماني واصبح العدد بنسبة ٢٣٫٠٠٠ مهاجر كل عام بعدئذ حيث ظلت الاتفاقية سارية المفعول حتى عام ١٩٣٨ أو اكثر[٥٠] .

ومع استفادة الصهيونيين من تلك الاتفاقية فانها لم تكن الأمر الوحيد في العلاقات الايجابية مع النازيين ذلك ان الموساد تعاونت مع عدد من النازيين بغرض مساعدتهم اياها لتهريب اليهود الى فلسطين وتوسيع ذلك ان امكن وجرى ذلك الاتصال عام ١٩٣٨ وتركت السلطات النازية لتلك المنظمة الصهيونية امر تدبير هجرة اليهود[٥١] .

والى جانب ذلك قامت شخصيات يهودية في هنغاريا وبمعرفة الوكالة اليهودية باجراء اتصال مع ادولف آيخمان عرض خلاله اتفاقا على ممثل اليهود ينص على تهجير عدد كبير جدا منهم مقابل حصول الألمان على شاحنات عسكرية واغذية من دول الحلفاء ، غير ان الاتفاق لم يتم بسبب معارضة ابدتها بريطانية[٥٢] .

اخيرا نشير الى محاولة حثيثة قام بها زعيم من زعماء التنظيمات الارهابية وهو ابراهام شتين للاتصال بالنازيين وذلك عام ١٩٤٠ عندما التقى احد معاونيه مع احد رجال الاستخبارات النازية في بيروت واسمه فون هنتغ من اجل التوصل الى اتفاق يقضي بتحالف التنظيم الصهيوني الذي يقوده شتين مع المانية حتى تنتصر في الحرب مقابل تعهدها باقامة (دولة يهودية) في فلسطين ثم اقترح شتين على الحكومة الألمانية قيام الألمان

بتقديم حل جذري للمسألة اليهودية عن طريق تهجير اليهود مبينا التقارب الأيدلوجي بين منظمته الصهيونية من جهة والأنظمة الفاشية في اوروبا من جهة اخرى(٥٣) .

وعلى الرغم من ان الاتفاق الصهيوني مع آيخمان لم يتم ، ورغم ان تعهدات شتين للألمان لم تجد نفعا وأدت الى مقتله فان مجرد حصول مثل تلك الاتصالات دليل على الطبيعة الماكرة والفاسدة للصهيونية وهو يمثل «وضعا مذهلا» كما قال كريستوفر سايكس وهو يستعرض أمثلة من العلاقات النازية الصهيونية(٥٤) ، ذلك ان الصهيونيين ومعهم كثيرون في الغرب خاصة نشروا على نطاق واسع ومازالوا دعوى تعرض اليهود لعمليات ابادة لا مثيل لها في التاريخ على ايدى الألمان النازيين(٥٥) وكسبوا من دعواهم عطفا واسعا مكنهم في النهاية من تحقيق اول واكبر اهدافهم ، وهو اقامة كيان سياسي كامل في فلسطين .

رابعا : الهجرة اليهودية اللامشروعة بعد الحرب الثانية:

مع اقتراب الحرب العالمية الثانية من نهايتها بفوز الحلفاء ، ازداد النشاط الصهيوني واتسع ليشمل مجالات شتى اهمها وابرزها تنظيم وزيادة الهجرة اللامشروعة الى فلسطين وقد اشرفت عدة تنظيمات صهيونية على تلك العملية ومنها تنظيمات عرفت باسم الفرقة اليهودية المقاتلة وهافاناه وهبريحاه (الهروب) حيث تعاونت جميعا في ايصال المهاجرين من اوروبا الى فلسطين واحرزت نجاحا واضحا في عملها بما بلغته من درجة عالية في التنظيم والتطوير لا يقارن بمستوى واساليب المنظمات الصهيونية في تهريب المهاجرين اليهود قبل الحرب ، وقد شاركت سلطات الاحتلال الأمريكي في اوروبا في الارتقاء بمستوى واساليب تهجير اليهود من اوروبا بعيد الحرب الثانية ، اضافة الى تغاضي الانكليز وادارتهم في فلسطين عما كان يحدث(٥٦) ، وهو امر يعود على الأرجح الى تفوق النفوذ الأمريكي سريعا وايصال بريطانية خلال اكثر من ربع قرن ، الوطن القومي اليهودي الى مراحله المتقدمة وبدء تحركها لسحب نفسها من المشكلة قبل ان تتطور بشكل لا تستطيع معه بريطانية التصرف الحسن حيالها .

نتيجة لذلك فان الصهيونيين كثفوا من انشطتهم لتهريب اليهود وقد زادت معدلات الهجرة اللامشروعة بعد سماح الحكومة البريطانية لليهود المبعدين الى خارج فلسطين بالعودة اليها ، وتصميم الصهيونيين على مقاومة اية اجراءات مضادة لنشاطهم المحموم بتهريب اليهود حتى اصبحت غالبية الهجرة بعد الحرب هجرة لا مشروعة وقدر عدد المهاجرين الذين وصلوا فلسطين بذلك الاسلوب اكثر من ٦٠ الفا(٥٧) واسهم وجود آلاف اللاجئين اليهود في اوروبا في النشاط الصهيوني لتهجيرهم الى فلسطين بدعم كامل من الادارة الأمريكية ، وهو دعم شمل الرئيس ترومان واعضاء الكونغرس وغيرهم مما قدم مساعدة كبيرة للمخطط الصهيوني .

فيما يلي فقرات من القرار الاجماعي للكونغرس الأمريكي في اجتماعه التاسع والسبعين اواخر عام ١٩٤٥ بقدر تعلقها بهذا البحث .

«حيث ان اضطهاد اليهود المجرد من الرحمة في اوروبا قد بين بوضوح الحاجة الى وطن لهم ... وحيث ان هذه الحاجة الماسة قد أيدها طلب الرئيس بالسماح حالا لمائة الف لاجيء يهودي اضافي بالدخول الى فلسطين ، وحيث ان تدفق المهاجرين اليهود الى فلسطين قد ادى الى تحسن احوالها بصورة عامة ، لذلك فان المجلس يقرر بان الولايات المتحدة سوف تستعمل مساعيها الحميدة لدى السلطة المنتدبة لجعل ابواب فلسطين مفتوحة لدخول اليهود بحرية الى ذلك القطر(٥٨)» .

ان ذلك القرار يظهر بوضوح مدى تعاطف الادارة الأمريكية مع التطلعات الصهيونية والتضليل الذي مارسته تلك الادارة مع الشعب الأمريكي للوصول الى اهدافها الاستعمارية المتطابقة مع البرنامج الصهيوني الخاص باستيطان اليهود لفلسطين ، وهو تضليل ابتدأ منذ قرر الكونغرس الأمريكي عام ١٩٢٢ تحبيذ انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين معتبرا المسلمين الذين كانوا يشكلون آنذاك ٩٨ ٪ من سكان فلسطين مجرد (طوائف) ينبغي مراعاة حقوقها الدينية والمدنية(٥٩) .

لقد ازداد النشاط الصهيوني بمساعدة الأمريكيين ، وازداد معه الضغط على السلطات البريطانية واتسعت عمليات نقل اليهود بالبواخر من اوروبا الى فلسطين عبر البحر المتوسط ووصلت عشرات منها حملت ونقلت آلاف اليهود المهاجرين ومع ان سلطات الانتداب البريطاني ابعدت معظم تلك البواخر الى قبرص ، فانها قامت في الحقيقة بدورها ايضا في التضليل لأن المبعدين وصلوا فعلا الى فلسطين على دفعات فيما بعد[٦٠] .

ورغم ان عشرات السفن نقلت اليهود سرا الى فلسطين بعد الحرب فان سفينة واحدة نالت اهتماما اكبر من حجمها بكثير ، فقد وصلت شواطيء فلسطين في تموز من عام ١٩٤٧ سفينة ضخمة تدعى اكسودس Exodus وكانت تنقل اكثر من ٤٥٠٠ مهاجر يهودي بينهم عدد من مسؤولي الهجرة اليهود ، ورتب المسؤولون عن الهجرة اليهودية مع الصهيونيين وصول هذا العدد الكبير من المهاجرين على سفينة واحدة ، مع وصول لجنة التحقيق الدولية التي شكلتها الأمم المتحدة وارسلتها الى المنطقة وهي اللجنة المعروفة باسم آونسكوب[٦١] ، بهدف تحقيق اكبر قدر ممكن من الدعاية ، وقد شاركت عناصر اجنبية في خلق مثل تلك الدعاية ومن ذلك اسهام الأموال الأمريكية في شراء الباخرة ومساعدة السلطات الفرنسية في ابحارها من احد الموانيء الفرنسية ، ولدى وصولها المياه الاقليمية الفلسطينية رافقتها عدة سفن حربية بريطانية . واشتبكت مع ركابها وارغمتهم على التوجه الى ثلاث سفن ابحرت بهم الى الميناء الفرنسي الذي كانوا قد غادروه اصلا ، وهم مزودين بسمات دخول مزورة الى جمهورية كولومبيا ، كما انهم كانوا من خيرة المدربين على حرب العصابات ، ورفض هؤلاء النزول في الميناء الفرنسي فتوجهت بهم السفن الى ميناء هامبورغ الألماني حيث كان يرافق رحلتهم دعاية واسعة جدا قامت بها الصحافة الأمريكية وغيرها من الصحف المؤيدة للصهيونية واستخدم الصهيونيون جميع مالديهم من وسائل لشن حملة عاتية من الدعاية في أرجاء العالم عن (ظلم) البريطانيين بحق اللاجئين اليهود الناجين من (الاضطهاد) النازي ونجحت تلك الحملة في اقناع المزيد من الأوروبيين والأمريكيين بمزاعمها بأحقية اليهود في مغادرة اوروبا الى فلسطين عبر الهجرة اللامشروعة ، ولم يلبث هؤلاء ان عادوا مرة اخرى الى فلسطين بعد اقل من عام باعداد كبيرة وبجوازات مزورة[٦٢] ، ليسهموا بشكل فعال في العدوان المسلح على العرب بعد انهاء بريطانية رسميا لانتدابها على فلسطين واعلان زعماء الصهيونية قيام ما اسموه دولة «اسرائيل» .

خاتمة:

كانت الهجرة اليهودية الى فلسطين سواء تمت بمعرفة الانكليز او بدون معرفتهم خطرا حقيقيا ثبت من خلال اقامة الكيان الصهيوني العدواني ، واوضح البحث نجاح التنظيمات الصهيونية في استغلال ظروف خاصة لتهجير اعداد غفيرة من اليهود بشكل لا مشروع في غياب الفعل العربي المناسب لوقف ذلك النشاط الناجح الذي تم بمساعدات قدمتها القوى المعادية لابناء فلسطين واشقائهم .

ولقد اظهر البحث الأسلوب الماكر للتنظيمات الصهيونية في استغلال وافتعال الحوادث لمصلحة الحركة الصهيونية بما في ذلك نشر تلفيقات على نطاق واسع لكسب التأييد العالمي للادعاءات اليهودية في حق امتلاك فلسطين وعدم استغلال العرب لفرص اتيحت لهم خلال الحرب لتقوية موقفهم حيال السياسة البريطانية والأمريكية المؤيدة لليهود .

المصادر والهوامش

١ ــ حول صك الانتداب ومواده ، يمكن الرجوع الى:
الجامعة العربية ، الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين ، المجموعة الأولى: القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٢٨ - ١٣٧ .
د. كامل محمود خلة : فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩ بيروت ١٩٤٧، ص ٩٣ - ١٠٣ .

١ - حول صك الانتداب ومواده ، يمكن الرجوع الى :
الجامعة العربية : الوثائق الرئيسية في فلسطين ، المجموعة الاولى ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٢٨ - ١٣٧ .
د. كامل محمود خلف : فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢ - ١٩٣٩ بيروت ١٩٤٧ ، ص ٩٣ - ١٠٣ .
٢ ـ ذكرت عدة لجان ان الهجرة اليهودية واستمرارها كان سببا لشكوى ابناء فلسطين ، ومن تلك اللجان : لجنة هيكرافت (١٩٢١) ولجنة سمبسون (١٩٣٠) ولجنة بيل (١٩٣٧) انظر حولها :

Nevill Barb our : Nisi Dominus Beirut 1969, P. 120 - 2
Ben Halpern : The Idea of the Jewish State, London 1976, P. 323

وثائق الجامعة العربية : المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، وص ٢٠٣ .
٣ ـ د. فلاح خالد زكي: فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٣٩ - ١٩٤٨ - ط١، بيروت، ص١٣٦ .
٤ ـ موريس برنسون: اسرائيل البنى السياسية والاجتماعية ، ترجمة: فارس غريب ، دار الخلود ، بيروت ١٩٧٩، ص٧٩ - ٨٣ .
٥ ـ عقيل هاشم وسعيد العظم: اسرائيل في اوروبا الغربية ، مركز الابحاث ، بيروت، ص ٧٢ - ٧٣ .
٦ ـ انظر فردريك بانيتون ـ تقرير عن فلسطين ـ مجلة المختار من ريدرز دايجست ـ تموز ١٩٤٤ ، ص٧٣ وقد جاء في احد المصادر المهمة عن تاريخ فلسطين الحديث ان عدد اليهود عام ١٩٢٢ كان حوالي ٨٤٫٠٠٠ الف نسمة اصبحوا عام ١٩٤٢ حوالي ٤٨٥٫٠٠٠ الف نسمة شكلوا نسبة ٢٩٪ من السكان ، انظر :

Esco Foundation for Palestine Second Printing, 1949, Vol. II P. 665 Yale University Press

٧ ـ د. ابراهيم ابولغد (اعداد وتحرير) - تهويد فلسطين - ترجمة: د. اسعد رزوق ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٤٨ .
نجيب صدقة : قضية فلسطين - بيروت ١٩٤٦ ، ص١٠٥ - ١٠٧ وص٢٩٢ .
٨ ـ صدر الكتاب الأبيض عام ١٩٢٢ ويمثل سياسة الحكومة البريطانية تجاه فلسطين ، انظر مثلا :
وثائق الجامعة العربية: م١/ص١٩٥٦ - ١٩٥٩ .

Ben Halpern : Op. cit P. 3/315

وعن الوكالة اليهودية هناك العديد من المصادر منها :
د. محمد عبدالرؤوف سليم : نشاط الوكالة اليهودية لفلسطين منذ انشائها وحتى قيام دولة اسرائيل ١٩٢٢ - ١٩٤٨ ، بيروت ١٩٨٢ د انظر ايضا :

Nicholas Bethell :
The Palestine Trianngle
The struggle between the British, the Jews and the Arabs 1939 – 48, London 1979, PP 189 - 190, 251-3
Ben Halpern : Op. cit PP 177 - 211

٩ ـ حول زيادة الهجرة اليهودية بعد عام ١٩٣٢ ، انظر مثلا :

Barbour : Op. cit P. 203
Esco : Op. cit PP. 676-7

١٠ ـ كريستوفر سايكس: مفارق الطرق الى اسرائيل ، تعريب: خيري حماد ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ١٥٧ .
١١ ـ د. كامل خلة: المصدر السابق ، ص٥١٠ - ٥١٢ .

Barbour : Op. cit P. 136

١٢ ـ حول تقرير اللجنة ، يمكن الرجوع الى :
وثائق الجامعة العربية : المصادر السابق ، ص٢٠٣ وما بعدها .

Esco : Op. cit PP. 680 - 4
Barbour : Op. cit PP. 172 - 4

١٣ ـ

Barbour : Op. cit P. 207

١٤ ـ انظر بشأن بعض تلك الأنشطة

Michael J. Cohen : Palestine :
Retreat from the Mandate Q
London 1978 PP. 85 - 87

١٥ ـ يمكن الرجوع الى المصادر التالية فيما يتعلق بمواد الكتاب الأبيض :

Esco : Op. cit PP 76 - 955
Bethell : Op. cit PP. 39 - 75

وثائق الجامعة العربية: ص٣١٠ - ٣٢٣ .

١٦ ـ د. رؤوف سليم ، المصدر السابق د ص٣٢٤ .

١٧ ـ Nicholas Bethell : Op. cit P. 114

١٨ ـ Bethell : Op. cit P. 114

١٩ ـ Nisi Dominus : Op. cit P. 227

وقد ذكر مسؤول بريطاني في مجلس العموم اواخر عام ١٩٤٠ ، بأن ٢٣ سفينة نقلت مهاجرين غير شرعيين الى فلسطين خلال تلك الفترة مما اضعف السياسة البريطانية وشجع العناصر المتمردة بين اليهود :

انظر : Nicholas Bethell : P. 94 - 5

٢٠ ـ كريستوفر سايكس : المصدر السابق ، ص٣٦١ .

٢١ ـ انجلينا الحلو: عوامل تكوين اسرائيل ، بيروت١٩٦٧ ، ص٩٨ .

فلاح خالد : المصدر السابق ، ص١٤٠ .

منظمة هاغاناه: تنظيم عسكري صهيوني تم انشائه عام ١٩٢٠ ، وقد خضعت للهستدروت (النقابة العامة للعمال اليهود) التي نشأت في نفس العام ، انظر حولها :

د. حمدان بدر : تاريخ منظمة الهاغاناه في فلسطين ١٩٢٠ - ١٩٤٥ منشورات فلسطين المحتلة (دون تاريخ او مكان نشر)

Nicholas Bethell : Op. cit P. 79 - 81

٢٢ ـ دينيس ايزنبرغ: الموساد جهاز المخابرات الاسرائيلية السري ، مترجم عن النص العربي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨١ (بلا اسم مترجم) .

٢٣ ـ حمدان بدر : المصدر السابق، ص١١٦ .

٢٤ ـ Ben Malpern : Op. cit P. 357

٢٥ ـ كريستوفر سايكس: المصدر السابق ، ص٣٧٢ .

Esco Foundation : Op. cit P. 943
Nicholas Bethell : Op. cit PP. 76 - 100

٢٦ ـ السفينة باتريا في الاصل سفينة فرنسية ، لكن الانكليز سيطروا عليها ووضعوها لخدمة مجهودهم الحربي .

وقد اعتمدنا في سرد احداث غرقها على المصادر التالية :

1. Esco Foundation : Op. cit, Vol. II P. 945
2. Nevill Barbour : Op. cit P. 216
3. Robert John, Sami Madawi The Palestine Diary 1914 - 1945 Beiryt, 1970, Vol. I, P. 337
4. Michael Cohen : Op. cit P. 95

وقد اشار هذا المصدر الى غرق عدد من رجال الشرطة الانكليز ايضا .

5. Nicholas Bethell : Op. cit P. 95

٠٦ كريستوفر سايكس: المصدر السابق، ص٣٧٢ - ٤ .

٢٧ ـ مفارق الطرق الى اسرائيل: ص٣٧٤ - ٣٧٥ ، ص٤٢٠ .

٢٨ ـ Esco Foundation : Op. cit P. 945

٢٩ ـ Barbour : Op. cit P. 216

٣٠ ـ عبدالحفيظ محارب: هاغاناه ، اتسل اليحيى ، بيروت ١٩٨١ ، ص٩٧ .

٣١ ـ Michael Cohem : Op. cit P. 213

٣٢ ـ Esco : Op.Cit 945.

٣٣ - صدرت خلال الحرب تصريحات عبرت عن مواقف التأييد للصهيونية من قبل اعضاء في حزب العمال البريطاني وآخرين من الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي في الولايات المتحدة ومن اعضاء في الكونغرس الأمريكي ، انظر مثلا : وثائق الجامعة العربية : ص ٣٣٥ - ٣٣٧ ، ثم الصفحات ٣٤٠ - ٣٤٤ ، وفيها نصوص بيانات الأحزاب ، وانظر ايضا :

Andrew Sharf: The British Press and Jews Under Nazi Rule. London 1964. PP 191-2.

٣٤ — Nicholas Bethell : Op. cit P 114

Esco : Op. cit P 947
Robert John : Op. cit Vol I, P. 338

ويقدم Esco وصفا مثيرا عن احوال المعتقلين اليهود في معسكر عتليت من ذلك ان هؤلاء فقدوا عقولهم وتم جرهم عراة حفاة الى السفن التي كانت تنقلهم الى جزيرة نائية مليئة بالمخاطر ليموتوا فيها . ومثل ذلك الوصف يثير الشفقة على اليهود بين القراء في اوروبا وامريكا خاصة .

٣٥ — Chaim Weizman, Trial and Error, London 1949 P. 495

٣٦ — Andrew Shorf : Op. cit P. 190

وبسبب شدة تأثير غرق ستروما فان مناحيم بيغن اشار لها في اول خطاب القاه امام الكنيست بعدما اصبح رئيسا لوزراء اسرائيل عام ١٩٧٧ كما يشير لذلك :

Nicholas Bethell : Op. cit P. 94 - 5

٣٧ — اعتمدنا في سرد وثائق غرق ستروما على المصادر التالية :

1. Esco : Op. cit P. 948
2. Barbour : Op. cit P. 216
3. Robert John : Op. cit Vol. I, P. 34
4. Sami Hada Wi : Bitter Harvest Palestine between 1914 - 1979, New York 1979 P. 58
5. Nicholas Bethell : Op, cit PP. 114 - 121

٣٨ - كريستوفر سايكس: المصدر السابق ، ص ٣٧٧ - ٨ ، وحول غرق السلفادور ، انظر :

Nicholas : Op. cit P. 96 - 7
Nicholas Bethell : Op. cit P. 155

٣٩ — تحدثت المصادر التي ذكرناها اعلاه عن حادث الغرق باسهاب واعطت تفسيرات مختلفة لأسباب الغرق وما تلاه ، انظر بشكل خاص :

Nicholas Bethell : Op. cit PP 116 - 119

٤٠ — حول بعض نتائج غرق ستروما ، انظر :

Nicholas Bethell : Op. cit PP. 117 - 121
Barbour : Op. cit P. 216

وتفسر تلك النتائج بعض اسباب التحول الصهيوني نحو امريكا بعد الحادث مباشرة .

٤١ — The Essential Chaim Weizmann Compiled and edited by : Barnet Litvinoff London 1982 P. 144

٤٢ — Robert John : Op. cit Vol. I, P. 345

٤٣ — محمد رؤوف سليم : المصدر السابق ، ص٢٢٩ - ٢٣٠ .

٤٤ — يوسف ميئر : الحركة السرية الطلائعية في العراق ، ترجمة عن العبرية : حلمي عبدالكريم ، مركز الدراسات الفلسطينية ، بغداد ١٩٧٦ (محدود) ، ج٢ ، ص٣١٩ - ٣٢٧ .

٤٥ — عبدالحفيظ محارب : هافاناه ، المصدر السابق ، ص١١٧ ، وقد نسب معلوماته الى مصادر اسرائيلية .

٤٦ — دكتور على المحافظة : العلاقات الألمانية الفلسطينية ١٨٤٠ — ١٩٤٥ ، بيروت ١٩٨١ ، ص١٩٧ - ٨ .

٤٧ ـ Ben Halpern : Op. cit P. 357

٤٨ ـ كريستوفر سايكس: المصدر السابق ، ص٣٧٠ - ١ .

٤٩ ـ Nicholas Bethell : Op. cit P 114

٥٠ ـ د. علي المحافظة : المصدر السابق ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، ثم ص٢١٠ . ويقول شارف ان الاتفاقية ابرمت عام ١٩٣٣ ،
The Britis Press : Op. cit P. 113
والغاها الألمان عام ١٩٣٨ .

٥١ ـ كلاوس بولكن: اتصالات الصهاينة السرية بالمانية النازية ، بحث منشور في المختار من مجلة الدراسات الفلسطينية ، مراجعة واشراف د. شاكر مصطفى ، بيروت ١٩٧٧ - ص٢٩٣ - ٤ .

٥٢ ـ قيل ان آيخمان مسؤول عن قتل وابادة آلاف اليهود ، وقد اختطفته عناصر الموساد فيما بعد حيث اعدم في اسرائيل .
عبدالحفيظ محارب: المصدر السابق ، ص١٥٥ - ١٥٦ .

٥٣ ـ عبدالحفيظ محارب : المصدر السابق ، ص١١٩ ـ ١٢١ .
وحول شتيرن ونشاطه ومقتله على ايدى الانكليز ، انظر :

1. Nicholas Bethell : Op. cit PP. 120 - 129
2. Barbour : Op. cit P. 220

٥٤ ـ مفارق الطرق : المصدر السابق ص٢٤٣ .

٥٥ ـ انظر بشأن (مأساة) اليهود في ظل الحكم النازي :

1. Andrew Sharf : Op. cit PP. 70 - 100
2. Nicholas Bethell : Op. cit PP. 76 - 80

٥٦ ـ اتحاد الجامعات العربية : القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني : الموصل ١٩٨٣ ، ج١ ، ص٤٤٩ - ٥٠٠ .

٥٧ ـ اتحاد الجامعات : المصدر السابق ، نفسه ، ص ٤٩٢ .
د. رؤوف سليم : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

٥٨ ـ وثائق الجامعة العربية : م١/ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

٥٩ ـ حول سكان فلسطين وتطور اعدادهم ، انظر مثلا :
د. ابولغد: تهويد فلسطين ، بحث فيه بعنوان :
«التحول الديمغرافي في فلسطين، ص١٥٥ - ١٨١» .

٦٠ ـ عبدالحفيظ محارب : المصدر السابق ، ص٢٧٧ .

٦١ ـ فيما يتعلق باعمال وتقرير تلك اللجنة ، انظر :
Ben Halporn : Op. cit PP. 364 - 366

٦٢ ـ د. فلاح خالد : المصدر السابق ، ص٢٤٦ .
اتحاد الجامعات العربية : المصدر السابق ، ص٥٢١ .
عبدالحفيظ محارب : المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .

محاولات «اسرائيل» العودة الى افريقيا ، وعلاقتها باتفاقية التعاون الاستراتيجي مع الولايات المتحدة

الدكتور : خليل ابراهيم الطيار
مركز الدراسات الفلسطينية
جامعة بغداد

مقدمة :

اهداف «اسرائيل» في القارة الافريقية ، اهداف قديمة العهد ، وبعيدة المدى . ولا تقتصر على تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في هذه القارة الغنية بالموارد المعدنية الثمينة ، وانما تتعداها الى التأثير في التكوين الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري للدول الافريقية الناشئة ، وكذلك التأثير في سياساتها ، وخياراتها التي تخدم المصالح الاسرائيلية اولا ، ومصالح الدول الغربية التي تتوافق مصالحها مع «اسرائيل» ثانيا .

وعند الحديث عن العلاقات بين «اسرائيل» والقارة الافريقية لابد لنا من الاشارة الى حقيقتين :

ـــ الحقيقة الأولى : ان حوالي ١٥ ٪ من تعداد «اسرائيل» هم من المهاجرين من افريقيا .

ـــ الحقيقة الثانية : هي استمرار وجود جاليات يهودية لازالت تعيش في ست دول افريقية ، وخمس دول عربية ـ افريقية (نحو ١٧٧ الفا و٧٧٠ يهوديا طبقا للتقديرات الاسرائيلية[١]) . وهذه الجاليات تتفاوت اعدادها من دولة الى اخرى ، الا انها ترتبط بشبكة واسعة من التنظيمات الصهيونية .

لقد استطاعت «اسرائيل» منذ الخمسينات ، اقامة شبكة واسعة من العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية مع معظم الدول الافريقية ، وازدهرت تلك العلاقات في الستينات . وفيماب بين حرب حزيران ١٩٦٧ ، وحرب اكتوبر ١٩٧٣ قطعت معظم تلك الدول علاقاتها الدبلوماسية مع «اسرائيل» بصورة تدريجية ، مع تطور النزاع العربي ـ الصهيوني .

وتستغل «اسرائيل» ظروف التنافس الدولي في القارة لاعادة علاقاتها الدبلوماسية مع دولها ، خاصة بعد ان تعهدت لها الولايات المتحدة بموجب اتفاقية التعاون الاستراتيجي بتشجيع الدول الافريقية ، وخاصة ذات التوجهات الغربية في اتجاه اعادة العلاقات ، وتطوير تعاون عسكري امريكي ـ اسرائيلي مع تلك الدول . ومن اجل الاحاطة بمحاولات «اسرائيل» ، اعادة علاقاتها الدبلوماسية مع الدول الافريقية ، وعلاقة ذلك باتفاقية التعاون الاستراتيجي مع الولايات المتحدة ، وطبيعة التحركات ، والاتصالات والمصالح والخطط العسكرية الاسرائيلية في القارة ، والنتائج التي تمخضت عن تلك المحاولات ، ارتأينا تقسيم هذه الدراسة الى ثلاث مباحث :

أولا : واقع العلاقات الاسرائيلية ـ الافريقية .
ثانيا : البعد الافريقي في اتفاقية التعاون الاستراتيجي .
ثالثا : نتائج المحاولات الاسرائيلية للعودة الى القارة الافريقية .
١ ـــ اعادة العلاقات الدبلوماسية مع زائير .
٢ ـــ اعادة العلاقات الدبلوماسية مع ليبريا .

أولا : واقع العلاقات الاسرائيلية ـ الافريقية :

حتى عام ١٩٧٩ ، لم يكن لـ«اسرائيل» علاقات دبلوماسية رسمية مع القارة الافريقية ، باستثناء جمهورية جنوب افريقيا التي تحكمها الاقلية البيضاء ، واربع دويلات صغيرة تدور في فلكها ، وفلك النفوذ الغربي هي : ملاوي ، وسوازيلاند وليسوتو ، وبوتسوانا[٢] . فقد قطعت معظم الدول الافريقية ، علاقاتها الدبلوماسية مع

«اسرائيل» فيما بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣ احتجاجا على العدوان الاسرائيلي على الدول العربية . وكانت غينيا تحت حكم احمد سيكوتوري ، الدولة الوحيدة التي قطعت علاقاتها الدبلوماسية ، معها بعد عدوان حزيران ١٩٦٧ ، ثم راحت بقية الدول الافريقية تنتقد بانتظام ذلك العدوان ، و«تغيير الحدود بالقوة» وتطالب «اسرائيل» بـ«الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة ، والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني» . وبدأت موجة قطع العلاقات بعد ان اتخذت اوغندا في آذار ١٩٧٢ نفس الخطوة ، اعقبتها سبع دول اخرى هي: تشاد ومالي والنيجر والكونغو برازافيل وبوروندي ، وتوغو ، وزائير ، حيث قطعت هذه الدول علاقاتها الدبلوماسية مع «اسرائيل» قبل حرب اكتوبر بعدة ايام . وبعد نشوب هذه الحرب تصاعدت تلك الموجة حينما قطعت عشرون دولة افريقية اخرى علاقاتها مع «اسرائيل» ، وبذلك وصل عدد الدول الافريقية التي قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع الكيان الصهيوني ـ آنذاك ـ الى ٢٩ دولة[٣] .

لقد توجت هذه المقاطعة الدبلوماسية بصدور العديد من قرارات منظمة الوحدة الافريقية التي تدين عنصرية «اسرائيل» وعدوانها على العرب ، ومن تلك القرارات القرار رقم ٧٧ (د ـ ١٢) الذي يعتبر «الحكم العنصري في فلسطين ، والحكم العنصري في روديسيا وجنوب افريقيا ، ذا اصل امبريالي مشترك يشكل كلا لا يتجزأ ، ويقوم على نفس الهيكل العنصري ، ويترابط عضويا في سياسته التي تستهدف القضاء على كرامة الانسان وسلامته[٤]» . وساهمت اصوات هذه الدول في اصدار القرار الشهير الذي اصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة في العاشر من تشرين الثاني ١٩٧٥ الذي ينص على «ان الصهيونية تعتبر شكلا من اشكال العنصرية والتمييز العنصري» ، ويندد تنديدا قويا بـ«التحالف الآثم بين عنصرية جنوب افريقيا والصهيونية[٥]» .

لقد بذلت «اسرائيل» في الواقع مجهودات واسعة منذ انشائها للتغلغل في افريقيا ، واستطاعت نشر شبكة واسعة من البعثات الدبلوماسية في معظم الدول الافريقية[٦] . الا انه يمكن القول ان جهودها الدبلوماسية تكللت بالفشل ، ذلك ان صدور عشرات القرارات من جانب الدول الأعضاء في منظمة الوحدة الافريقية بادانة «اسرائيل» ، مشفوعة بمقاطعتها من قبل معظم دول العالم ، قد شكل مقياسا واضحا لمدى عزلتها الدولية . واصبحت «غالبية الدول ، فيما عدا الولايات المتحدة ، تدين السياسة التوسعية لاسرائيل ، وتطالبها بالانسحاب من الأراضي المحتلة ، وتصر على الاعتراف بحق تقرير الفلسطينيين»[٧] .

التطور الجديد الذي حصل في مسألة اعادة العلاقات الدبلوماسية مع «اسرائيل» ، هو اعادة زائير وليبريا لتلك العلاقات ، الأولى في أيار ١٩٨٢ ، والدولة الثانية ، وهي ليبريا في ١٣ آب ١٩٨٣[٨] . وسنتحدث في الفصل اللاحق عن الدوافع التي حدت بهذين البلدين الى اعادة علاقاتهما مع «اسرائيل» . ومن تلك الدوافع صلة هذين البلدين القديمة مع «اسرائيل»، وتأثير الولايات المتحدة عليهما في اتجاه اعادة العلاقات . وعلى ذكر علاقات «اسرائيل» القديمة في القارة الافريقية[٩] ، فان قدم هذه العلاقات قد ساعدها على الاحتفاظ بشبكة من المصالح والعلاقات الاقتصادية والاتصالات السرية مع بعض دول القارة ، رغم عدم وجود علاقات دبلوماسية معها ، معتمدة في ذلك على نفوذها السابق ، ودعم الدول الغربية لها . وبذلك فانها لم تعول على وجود الصلات الدبلوماسية فقط ، وانما كانت تحرص في تغلغلها في القارة الافريقية على اقامة ، وتطوير علاقات اقتصادية ، واتصالات خفية ، وقد اتبعت «اسرائيل» في علاقاتها الاقتصادية مع عدد من الدول الافريقية ، اسلوب التجارة المقنعة وعلى سبيل المثال استوردت «اسرائيل» عام ١٩٧٠ من دول القارة بضائع بقيمة ١ر٣٠ مليون دولار (ثلثها من جنوب افريقيا) وصدرت اليها ما يعادل ٥ر٤١ مليون دولار . وشهد حجم التبادل التجاري مع القارة ، ازديادا بمقدار اربع مرات ونصف عام ١٩٨٠ ، وبلغ استيراد «اسرائيل» ٧ر١٣٥ مليون دولار في حين بلغت صادراتها الى دول القارة ، ٩ر١٩٠ مليون دولار . وكانت نيجيريا السوق الأفضل للبضائع الاسرائيلية في عام ١٩٨٠ (فيما عدا جنوب افريقيا) حيث بلغت مشترياتها ما قيمته ٣ر٤٤ مليون دولار (انظر الجدول رقم (١)[١٠] .

جدول رقم (١) بملايين الدولارات

البلد	الاستيرادات الاسرائيلية الى افريقيا			الصادرات الاسرائيلية الى افريقيا		
	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠
اثيوبيا	٢ر٠٠	٥ر٦	١ر٨	٩ر٣	٤ر٤	١ر٢
الغابون	١ر٦	٤ر٨	١ر٥	—	١ر٢	٠ر٦
غانا	٠ر٦	٠ر٤	—	٢ر١	٢ر٠	٢ر٠
جنوب افريقيا	١٠ر٢	٤٠ر٢	١١٧ر١	١٠ر٧	٣٤ر٧	٧٩ر٢
ساحل العاج	٠ر٩	١ر٨	٤ر٨	١ر٢	٤ر٢	٧ر٠
تنزانيا	١ر٠	٠ر٩	١ر٤	١ر٩	١ر٩	٨ر٦
ليبريا	١ر٢	—	—	٠ر٢	٢ر٦	٠ر٣
نيجيريا	—	—	١ر٠	٣ر٦	١٣ر٤	٤٤ر٣
كينيا	١ر٢	٢ر٩	٤ر٧	٣ر٦	٣ر٨	١٥ر٢
بلدان اخرى	١٢ر٣	٨ر٨	٠ر٧	١٣ر٩	٥ر٣	٢٢ر٥
المجموع	٣٠ر١	٦٧ر٧	١٣٥ر٧	٤١ر٥	٧٣ر٥	١٩٠ر٩

من جهة أخرى أعلن رئيس غرفة التجارة المشتركة بين «اسرائيل» وجنوب افريقيا ، ان «اسرائيل» صدرت الى جنوب افريقيا في الأشهر العشرة الأولى من سنة ١٩٨١ ، بضائع تقدر قيمتها بأكثر من ٧٠ مليون دولار ، في مقابل ٧٩ر٣ مليون دولار في كل سنة ١٩٨٠ . وتقدر الزيادة في صادرات «اسرائيل» الى جنوب افريقيا في سنة ١٩٨١ بنحو ١٧٪ . أما في جنوب افريقيا فقد صدرت الى «اسرائيل» في سنة ١٩٨٠ ما قيمته ١١٧ مليون دولار ، في حين بلغت هذه الصادرات في الأشهر العشرة الأولى من سنة ١٩٨١ ، ٨٥ر٩ مليون دولار[١١] . وهنا لابد لنا من الاشارة الى ان الأرقام والبيانات المعلنة الخاصة بالتجارة بين «اسرائيل» والقارة الافريقية لا تعطي صورة كاملة عن مقدار تغلغلها الاقتصادي في اقتصاديات الدول الافريقية وذلك لاتباع «اسرائيل» اسلوب التجارة المقنع في تعاملها .وهي على سبيل المثال تعتم على الأرقام الخاصة باستيراد واستغلال المواد الخام الثمينة من افريقيا كالماس والذهب والنحاس الخ . علماً بأن القارة الأفريقية تشكل أكبر منجم للماس في العالم ، وان «اسرائيل» هي أكبر مركز لصقل الماس في العالم ، ويشكل الماس المصقول أكبر مصدر للنقد الأجنبي عندها ، وقد بلغت صادراتها منه في عام ١٩٨٢ «١٥٨ر١ مليار دولار[١٢] . كذلك فان «اسرائيل» لا تذكر الأرقام الخاصة بمبيعات الأسلحة التي بلغت قيمة مبيعاتها في عام ١٩٨١ ، ربع الصادرات الاسرائيلية ، أي حوالي مليار ونصف المليار دولار[١٣] .

ومن ذلك نتبين ان «اسرائيل» استطاعت في فترة انقطاع علاقاتها الدبلوماسية التعويض عن ذلك بتطوير علاقات اقتصادية مع عدد من الدول الأفريقية[١٤] . ومن الجدير ذكره ان «اسرائيل» تغلف في العادة نشاطاتها بالسرية ، وهي تمزج ما بين نشاطاتها الاقتصادية والثقافية والعسكرية والاستخبارية لتخدم بالتالي أهدافها السياسية والاستراتيجية .

وتعتمد في نشاطاتها على تنسيق دائم بينها وبين الجاليات اليهودية والتنظيمات الصهيونية المنتشرة في انحاء القارة ، فضلاً عن اعتمادها على المصالح والصداقات القديمة مع بعض المسؤولين الأفارقة . وهي أي «اسرائيل» تعلق في الوقت الراهن أهمية كبيرة على الولايات المتحدة التي تعهدت لها بموجب اتفاقية «التعاون الاستراتيجي» على تشجيع الدول الافريقية ذات التوجهات الغربية على اعادة علاقاتها الدبلوماسية معها . وبالفعل لعبت الولايات المتحدة دوراً مهماً في قراري زائير وليبيريا باعادة علاقاتهما الدبلوماسية مع «اسرائيل» . وتأمل الأخيرة ان تحذو دول افريقية الأخرى حذوها .

ثانياً : البعد الافريقي في اتفاقية التعاون الاستراتيجي :

في ١٩٨١/١١/٣٠ وقع وزيرا دفاع الولايات المتحدة و«اسرائيل» كسبارواينبرغر وارئيل شارون على «مذكرة التفاهم للتعاون الاستراتيجي» . وتعتبر هذه الاتفاقية أول وثيقة توقعها الولايات المتحدة مع دول أخرى تذكر صراحة ان هدفها هو دفع تهديد سوفياتي ، حيث ان هذه الاشارة لا ترد حتى في الوثائق الأساسية لحلف شمال الأطلسي . وذكرت مصادر عليمة ان هناك ملحقاً سرياً لهذه المذكرة ، ومن أجل تطمين الدول العربية أعلن ان هذا «التعاون الاستراتيجي» ليس موجه ضد أية دولة أو مجموعة دول في داخل الشرق الأوسط ، وأهدافه دفاعية فقط»[١٥] .

ان هذا التعاون الاستراتيجي ، أو ما يدعوه البعض بالتحالف الاستراتيجي يتيح لـ «اسرائيل» تخزين معدات وأسلحة أمريكية متطورة تجعلها قادرة على الاستعاضة عن الجسور الجوية الأمريكية على غرار ما حصل في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، فضلاً عن توفير مزايا عسكرية واقتصادية كبيرة جداً لها . ومن بين تلك المزايا التعاون في جوانب ثلاثة :

ـ الجانب اللوجستي بما في ذلك اقامة مستودعات طوارىء لتخزين الأعتدة والذخائر والمؤن والأدوية الخ في «اسرائيل» ، وشراء جزء إساسي من الذخائر والمؤن والأدوية من الصناعة الاسرائيلية المحلية . وتتحمل كلفة الانتشار اللوجستي الميزانية العامة للجيش الأمريكي ، وتذهب مباشرة الى «اسرائيل» دون ان تعود هذه الذخيرة كل سنة لتفاوض على حجم المعونة العسكرية التي تقدمها الولايات المتحدة .

ـ الجانب الاستخباري يتضمن انخراط «اسرائيل» في النشاط الأمريكي على المستوى الدولي عبر اجهزة مخابراتها المختلفة ، وعن طريق المؤسسات الصهيونية المنتشرة في العالم .

ـ على الصعيد العملياتي : عرض الوفد الاسرائيلي توسيع دائرة النشاط العسكري الاسرائيلي الى حد تقديم غطاء جوي لأية قوة أمريكية تتحرك الى المنطقة للقيام بعمل سريع .

ان أطماع «اسرائيل» لم تعد محصورة في المنطقة العربية ، وانما تتجاوزها الى مناطق تبعد آلاف الأميال عن فلسطين المحتلة . وفي هذا المجال أعلن ارئيل شارون ان «مجال الاهتمام الاستراتيجي والأمني لاسرائيل في الثمانينات» سيشمل على حد تعبيره «افريقيا وبشكل خاص دول افريقيا الشمالية والوسطى[١٧]» فضلاً عن دول مثل «تركيا ، باكستان والخليج ، وسواحل البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر» . فكيف يمكن لـ «اسرائيل» ان تنهض بهذه المهمات الواسعة بدون مزيد من الدعم والتنسيق العسكري والاقتصادي الذي تقدمه لها الولايات المتحدة ؟ يجيب شارون «ان سياسة رئيس الولايات المتحدة هي ربط (اسرائيل) كحليف بتشكيل لردع الاتحاد السوفياتي عن تهديد الشرق الأدنى وافريقيا[١٨]» ، ويضيف بأنه «تم التوصل الى تفاهم مع الولايات المتحدة للعمل معاً لترسيخ التعاون في المجالين الجوي والبحري ، وفي مناورات مشتركة واقامة مخازن طوارىء من الصناعة الاسرائيلية[١٩]» .

على صعيد القارة الأفريقية ، تشجيع اتفاقية التعاون الاستراتيجي التقارب الاسرائيلي ـ الافريقي ، وتتيح بيع أسلحة اسرائيلية تتضمن معدات أمريكية . وتؤكد المادة الثالثة من مذكرة «التعاون الاستراتيجي على قيام واشنطن بوضع الأرصدة تحت تصرف اسرائيل لتمويل البرامج العسكرية في افريقيا[٢٠]» وتعترف المصادر الاسرائيلية ان «اسرائيل» تعتزم ربط نشاط اتها العسكرية بالساحة الافريقية على غرار ما فعلته عند اشتراكها في الحرب الكورية عام ١٩٥٠ . كما «تعتزم ان تلعب دوراً شبيهاً بالدور الكوبي في افريقيا» ـ على حد تعبير المصادر الاسرائيلية[٢١] . ولم تكن مصادفة ان يعلن رئيس زائير موبوتو سيسيكو ، اعادة العلاقات الدبلوماسية مع «اسرائيل» في واشنطن بعد يوم من زيارة ارئيل شارون وزير الدفاع الاسرائيلي للعاصمة الأمريكية . كما انه ليس صدفة ان يختار بيغن وزير دفاعه شارون وليس وزير الخارجية للقيام بجولة سرية في العديد من العواصم الافريقية من بينها كينشاسا عام ١٩٨١ .

في بداية عام ١٩٨٢ ، زار شامير ، زائير أيضاً ، وحاول اظهار زيارته وكأنها تحمل وعوداً سخية لتنمية التعاون الاقتصادي ، إلا ان المعلومات أفادت انه وقع اتفاقية عسكرية تتضمن منح زائير قروضاً لشراء الأسلحة ، واعداد الضباط الزائيريين في «اسرائيل» وزيادة عدد «المستشارين العسكريين» الاسرائيليين العاملين في الجيش الزائيري زيادة كبيرة بحيث يصل عددهم الى ألف شخص في مطلع عام ١٩٨٤[٢٢] . وتهدف هذه التحركات الاسرائيلية أيضاً ، الى سبر نوايا بعض الحكومات الافريقية التي يمكن ان تكون مستعدة لاستئناف العلاقات الدبلوماسية معها والبحث عن أسواق لتصدير الأسلحة . ومن الدول التي زارها شارون الى جانب زائير ، الغابون ، جمهورية افريقيا الوسطى ، وجنوب افريقيا[٢٣] وفي تموز ١٩٨٣ أجرى وزير الخارجية ـ أنذاك ـ اسحاق شامير ، جولة سرية قصيرة في أوروبا ، وتسربت معلومات مفادها ان شامير قابل

خلال جولته هذه ، رئيس ساحل العاج هوفويت بوانييه وقد حاول شامير التكتم على هذه الزيارة ، إلا ان الصحافة الاسرائيلية هي التي سربت خبر الزيارة . ويستفاد من المعلومات ان شامير قابل ممثلين من عدة بلدان افريقية احتفظت «اسرائيل» معها بعلاقات سرية رغم عدم وجود علاقات دبلوماسية معها . وأمام الكشف عن هذه الزيارة من مصدر مقرب من الحكومة ، تم تفضيل اعطاء الانطباع ، بأن هذه المقابلات لم يكن هدفها «إلا الحفاظ على الاتصالات بهدف التقليل من أهمية الزيارة ، وان مثل هذا قد حدث في الماضي في أوقات منتظمة تقريباً ، وان الموضوع يتعلق بـ «العلاقات الثنائية» ولا دخل لهذه المحادثات مع الوضع في تشاد ، مع العلم ان «اسرائيل» جهزت زائير بمساعدات عسكرية . كما قدمت أيضاً مساعدات الى الحكومة التشادية[٢٤] .

وضمن نطاق التنسيق الأمريكي ـ الاسرائيلي ، أجرى ديفيد كيمحي المدير العام بوزارة الخارجية الاسرائيلية مفاوضات في واشنطن (حزيران ١٩٨٣) وتم خلال تلك المفاوضات وضع برنامج يرمي الى تقوية الوجود الصهيوني في القارة الافريقية ، وفي مناطق أخرى من العالم وخاصة في آسيا وأمريكا اللاتينية . وأفادت بعض المعلومات ، ان الولايات المتحدة وضعت في حوزة «اسرائيل» ، وسائل اتصالات بالسفارات الأمريكية ، كما ان رئيس القسم الافريقي بوزارة الخارجية الاسرائيلية ، سافر مرتين الى واشنطن لحضور مناقشة القضايا المتعلقة بافريقيا[٢٥] . وعلى الرغم من تكتم الجانبين الامريكي والاسرائيلي على بنود اتفاقية «التعاون الاستراتيجي» فان كل الدلائل تشير الى عودة «اسرائيل» الى القارة الأفريقية ، هي جزء من تلك الاتفاقية . قد فعلت واشنطن المستحيل لاقناع هوفويت بوانييه رئيس ساحل العاج بتمهيد الطريق لاعادة العلاقات الدبلوماسية ، ليس مع بلاده فقط ، انما مع بلدان افريقية أخرى[٢٦] . وتعهدت واشنطن أيضاً لـ «اسرائيل» بموجب تلك الاتفاقية بتنسيق خطط التعاون معها ، وفي تنفيذ صفقات مع عدد من الدول الافريقية في مجالات مختلفة يصل حجمها بضع سنوات الى مئات ملايين الدولارات[٢٧] وكذلك تطوير علاقات أمنية معها تشمل تلك الدول ، ودولاً أخرى في العالم .

ويأتي التحرك الاسرائيلي في فترة تشهد فيه القارة الافريقية صراعاً دولياً حاداً بين الشرق والغرب ، ومحاولات اعادة تقسيم النفوذ الذي تشارك فيه الولايات المتحدة وفرنسا والاتحاد السوفياتي ، بالاضافة الى الحلفاء الاقليميين والمحليين : كوبا ، مصر وخاصة في عهد السادات ، المغرب ، الغابون ، وليبيا ، جنوب افريقيا .. الخ . وتستخدم تلك الدول سياسات تقديم المعونة والطعام وبيع السلاح والقروض لانجاح عمليات التقسيم أو تصفية حسابات الصراع الدولي[٢٨] : صراع في اقليم شابا الغني بالمعادن الثمينة في عامي ١٩٧٧ و١٩٧٨ ، قتال عنيف في الصحراء الغربية ، وفي تشاد ، والقرن الافريقي ، والحرب بين الصومال واثيوبيا ، والثورة في ارتيريا ، وانغولا ، وموزمبيق .

ان هذه الصراعات وغيرها تشكل ارضية مناسبة للتحرك الاسرائيلي ، وقد ضاعفت «اسرائيل» بالفعل اتصالاتها السرية مع الأمريكان ، وعدد من الأقطار الافريقية من أجل اعادة علاقاتها الدبلوماسية معها . واعتمدت في تحركاتها على عدد من الاعتبارات ومن بينها :

ـ محاولة «اسرائيل» اقناع الدول الافريقية بعدم جدوى ابقاء العلاقات الدبلوماسية مقطوعة فيما بينها وبين هذه الدول ، خاصة بعد ان أقامت مصر ، الدولة العربية ـ الافريقية علاقات دبلوماسية معها[٢٩] .

ـ ابداء استعداد «اسرائيل» مساعدة الدول الافريقية وخاصة تلك الدول الخاضعة للنفوذ الغربي ، أو ذات التوجهات الغربية . والتعهد لها بارسال الأسلحة والخبراء لـ «مجابهة التهديدات السوفياتية والكوبية والليبية» .

ثالثا: نتائج المحاولات الاسرائيلية للعودة الى القارة الافريقية :

اثمرت التحركات الاسرائيلية في اعادة العلاقات الدبلوماسية مع اثنتين من الدول الافريقية هما:زائير وليبريا . ولازالت المحاولات جارية لاقناع عدد من الدول الافريقية الأخرى للحذو حذو زائير وليبريا . وتوحي الأوساط الحكومية الاسرائيلية ان جمهورية افريقيا الوسطى يمكن ان تكون الدولة القادمة ، التي يمكن ان تعيد سفارتها في «اسرائيل» . وتفيد المعلومات ان وفدا من جمهورية افريقيا الوسطى قام بزيارة سرية الى (القدس) خلال شهر تموز ١٩٨٣[٣٠] . وقد اشار اسحاق شامير في ١٤ آب بانه اجرى مؤخرا «محادثات مشجعة مع شخصيات افريقية رفيعة المستوى» جاءت الى «اسرائيل» . وقال خلال مقابلة اذاعية بانه «لا يمر اسبوع تقريبا دون ان يزورنا ممثلون افريقيون» . كما توحي المصادر الاسرائيلية ان ساحل العاج ، والغابون، وتوغو ، وغانا ، يمكن ان تعيد علاقاتها الدبلوماسية مع «اسرائيل»[٣١] .

ومن الملاحظ ان الدول الأفريقية لازالت بشكل عام تتردد في اعادة العلاقات الدبلوماسية ، رغم وجود اتصالات سرية بين بعض قليل منها وبين «اسرائيل» . ومصدر ذلك التردد ناجم من الخشية من ردود فعل الدول العربية ، وامكان فقد مساعداتها المالية والاقتصادية ، فضلا عن عدم ارتياح الدول الافريقية لتعاون «اسرائيل» تعاونا وثيقا مع الحكام العنصريين البيض في جنوب افريقيا ، واستمرار هؤلاء باحتلال «ناميبيا» المجاورة والغنية بالموارد الطبيعية وخاصة اليورانيوم . خلافا لارادة الدول الافريقية والمجتمع الدولي ، وتدخلهم في الدول المجاورة ، لكبح جماح حركات التحرير بدعم عسكري اسرائيلي .

من العوامل التي ساعدت «اسرائيل» في اعادة علاقاتها مع زائير وليبيريا ، ارتباطهم ارتباطا وثيقا بالولايات المتحدة ، لقد استغلت «اسرائيل» علاقاتها مع زعماء واشنطن ، لافهام زعماء هاتين الدولتين ، والدول الافريقية الاخرى التي ورد ذكرها ، تلبية حاجاتها المتزايدة للمعونات المالية والاقتصادية الأمريكية ، عن طريق التدخل لدى الأمريكان ، واستعمال نفوذها في الكونغرس من اجل زيادة المساعدات الاقتصادية الأمريكية . وتضرب «اسرئيل» كذلك على وتر حساس ، هو تخويف الأنظمة الافريقية من ازدياد النفوذ السوفياتي ، والتهديد الذي يمثله التدخل الليبي في تشاد ، والدول الافريقية الأخرى . وتعتمد مهمة الدبلوماسية الاسرائيلية على الادعاء بان «اسرائيل» يمكن ان تطور تعاونا اقتصاديا وفنيا وعسكريا مع الدول الافريقية .

١ ـ اعادة العلاقات الدبلوماسية مع زائير :

في آيار ١٩٨٢، اعادت زائير علاقاتها الدبلوماسية مع «اسرائيل» وبذلك فانها تعتبر الدولة الافريقية الأولى التي تعيد العلاقات معها . وقد ادعى موبوتو في معرض تبريره لاعادة علاقات بلاده مع «اسرائيل» بان الأمر يتعلق بـ«المبدأ» مشيرا الى «انسحاب اسرائيل من الأراضي المصرية» وهي نفس الحجة التي تحتج بها اسرائيل من اجل اعادة العلاقات الدبلوماسية مع الدول الافريقية الأخرى . والغريب ان موبوتو يدعي ان قطع بلاده لعلاقاتها مع «اسرائيل» «كلف زائير غاليا» رغم اعترافه بان البلاد العربية وخاصة دول الخليج نفذت مشاريع مختلفة في بلاده وصلت قيمتها حسب الرقم الذي اورده «٦٠٠» مليون دولار[٣٢] .

لاشك ان موبوتو المعروف بارتباطاته بالولايات المتحدة والاحتكارات الدولية لم يتصرف وفقا لمصالح بلاده او المصالح الافريقية ، وانما انطلق من حقيقة تلك الارتباطات ومصالحه الشخصية . وقد حصل موبوتو بعد اعادة علاقات زائير الدبلوماسية مع «اسرائيل» على «مساعدات عسكرية امريكية» بلغت قيمتها عام ١٩٨٣ مبلغ ٥٠ مليون دولار ، بزيادة قدرها ٢٠ مليون دولار عن العام ١٩٨٢[٣٣] . وتفيد المعلومات ان «اسرائيل» جهزته بمساعدات عسكرية تضمنت اسلحة ومعدات وخبراء . ومن بين تلك الأسلحة والمعدات ، ما غنمته في لبنان اثناء غزوها له . واعترف موبوتو بوجود «بعثات عسكرية وزراعية اسرائيلية» و«مشاريع مختلفة

للاستثمار في طور الدراسة وخاصة في المجال الزراعي والصناعي» في زائير . اما «اسرائيل» فتحرص من جانبها على تكذيب وجود مدربين اسرائيليين متورطين في تدخل زائير في تشاد ، محاولة منها للتستر على الدور الذي تلعبه في القارة الافريقية ، في حين اعترف موبوتو امام الصحفيين في واشنطن بوجود «تنسيق بينه وبين واشنطن[٣٤]» ودول اخرى في مسألة تشاد .

وفي تطور لاحق ، زار موبوتو «اسرائيل» في منتصف أيار ١٩٨٥ . ورافقه في زيارته ، وفد مؤلف من ١١٠ اعضاء . واشاد الزعماء الاسرائيليون بـ«شجاعة موبوتو بوجه الضغط العربي القوي» ، وعقدوا معه صفقات احيطت بالسرية . وتفيد المعلومات ان موبوتو الذي سبق له ان درب جنود مظلاته في «اسرائيل» منذ عشرين عاما تلقى وعدا بزيادة المساعدة السنوية الاسرائيلية المقدمة له الى ثمانية ملايين دولار ، وتدريب حرسه الخاص ، بالاضافة الى قيام الخبراء الاسرائيليين الموجودين في زائير بتدريب وحدات عسكرية خاصة ، وفتح خط جوي بين كنشاسا وتل ابيب ، ومنح بعثات دراسية لشبان زائيريين في «اسرائيل» . وتباحث موبوتو بشأن ضمان الاستثمارات الاسرائيلية في زائير ومنها قيام شركة ليون تامان الاسرائيلية باستثمار ٤٠٠ مليون دولار في كنشاسا ، علما بان زائير غنية بالموارد المعدنية ومنها النحاس الذي تحاول «اسرائيل» جعله ضمانة لاستثماراتهم . لقد تباحث موبوتو خلال زيارته لـ«اسرائيل» ايضا مع اسحاق رابين وزير الدفاع ولم تكشف تفاصيل المباحثات ، وقام بزيارة احدى القواعد الجوية الاسرائيلية[٣٥] .

٢ ــ اعادة العلاقات الدبلوماسية مع ليبريا :

في ١٣ آب ١٩٨٣ ، اعلنت ليبريا عن اعادة علاقاتها الدبلوماسية مع «اسرائيل» . وقد حرصت الأخيرة على دعوة رئيس ليبريا صاموئيل دو ، لزيارة «اسرائيل» ، ونظمت له استقبالا مبالغا به ، بما في ذلك تخصيص طائرة بوينغ ٧٠٧ تابعة للجيش الاسرائيلي لنقله ومرافقيه وكانت حصيلة زيارة دو ان قبلت ليبريا فتح سفارتها في القدس ، وليس في تل ابيب . وقد هنأ بيغن الذي كان رئيسا للوزراء ـ انذاك ـ الرئيس الليبري على «قراره الشجاع» مشيرا باصرار الى انه «يحتفظ بالمثل بالنسبة لرؤساء الدول الافارقة» . ووقع الرئيس دو مع «اسرائيل» اتفاقية شملت النواحي العسكرية .

ومن الاشارات التي وردت من قبل وزير الدفاع الاسرائيلي عن الجوانب العسكرية لهذه الاتفاقية علم انها تضمنت ارسال مستشارين عسكريين الى منروفيا عاصمة ليبريا ، من اجل «تحسين تدريب الجيش الليبري» ، وامكان قيام الاستخبارات الاسرائيلية بتجهيز ليبريا بمعلومات مفيدة عن توجهات ليبيا الحالية في افريقيا» .

واكدت صحيفة لوموند الفرنسية ان ليبريا ابدت استعدادها «لشراء بعض نماذج الأسلحة من اسرائيل» على الرغم من معرفة الاسرائيليين بان ليبريا تستفيد لحد الآن من المساعدات العسكرية المهمة التي تجهزها بها الولايات المتحدة[٣٦] .

لقد وافقت ليبريا على اعادة فتح سفارتها في القدس وليس في تل ابيب . ومع ذلك اعلن الرئيس الليبري بانه «من الضروري الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني ، بما في ذلك حقه في الحصول على دولة[٣٧]» .

هذا وتوحي الأوساط الحكومية الاسرائيلية بان جمهورية افريقيا الوسطى يمكن ان تكون الدولة القادمة التي يمكن ان تعيد سفاراتها في «اسرائيل» . ونقلت المعلومات ان وفدا من جمهورية افريقيا الوسطى زار سرا «القدس» خلال شهر تموز ١٩٨٣ . وفي هذا المجال اشار شامير في ١٤ آب ١٩٨٣ بانه اجرى قبل ذلك التاريخ بقليل «محادثات مشجعة مع شخصيات افريقية رفيعة المستوى» جاءت الى «اسرائيل» . وقال خلال مقابلة اذاعية بانه «لا يمر اسبوع تقريبا دون ان يزورنا ممثلون افريقيون[٣٨]» .

الخلاصة والاستنتاجات

منذ الخمسينات استطاعت «اسرائيل» اقامة شبكة من العلاقات السياسية والاقتصادية مع معظم دول القارة الافريقية . وقد قطعت معظم الدول الافريقية العلاقات الدبلوماسية معها فيما بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣ . وعملت «اسرائيل» على تعويض ذلك بتطوير علاقات اقتصادية وعسكرية وثيقة مع جنوب افريقيا وابقت على اتصالات سرية مع بعض البلدان الافريقية ، واستخدمت في تجارتها مع نيجيريا وليبيريا وكينيا وساحل العاج وجنوب افريقيا وغانا والغابون وافريقيا الوسطى وزائير واثيوبيا ، استخدم اسلوب التجارة المقنعة . وطبقا للمصادر الاسرائيلية ازداد حجم تجارتها مع هذه البلدان اربع مرات ونصف في عام ١٩٨٠ عما كان عليه الأمر في ١٩٧٠ .

لقد اعتمد اسلوب عمل «اسرائيل» في القارة الافريقية على مزج نشاطاتها السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية والاستخبارية . كما اعتمد على نشاط الجاليات اليهودية ، والتنظيمات الصهيونية الموجودة في عدد من الدول الافريقية لادامة الاتصالات .

ومع ذلك فان «اسرائيل» تهدف الى كسر طوق العزلة الدولية عن طريق اقناع الدول الافريقية وخاصة ذات التوجهات الغربية لاعادة العلاقات الدبلوماسية معها . وقد اعتمدت تحركات «اسرائيل» من أجل تحقيق ذلك الهدف على الولايات المتحدة التي وقعت معها اتفاقية للتعاون الاستراتيجي . وهذه الاتفاقية تشجع التقارب الاسرائيلي الافريقي ، وتتيح بيع اسلحة ومعدات عسكرية للدول الافريقية ، ودول اخرى يعتبر بيع الأسلحة لها حساسا من الناحية السياسية مثل جنوب افريقيا ، وعدد من الدول الأخرى ليس في افريقيا فحسب وانما تايوان وعدد من منطقة الكاريبي .

كما تحاول «اسرائيل» ايضا اقناع الدول الافريقية بعدم جدوى ابقاء العلاقات الدبلوماسية مقطوعة معها بعد ان انسحبت من الأراضي المصرية ، وهي اراض افريقية وبعد ان اعترفت مصر بها . ومن الحجج الأخرى التي تعتمدها «اسرئيل» هو ابداء استعدادها لمساعدة الدول الافريقية في مجال تقديم الأسلحة والخبراء لها لمجابهة «التهديدات الليبية والكوبية والسوفياتية» بدعم من الولايات المتحدة .

لقد اثمرت الاتصالات والتحركات الاسرائيلية اعادة كل من زائير وليبريا لعلاقاتهما الدبلوماسية مع «اسرائيل» . وتأمل الأخيرة ان تحذو بلدان افريقية اخرى حذوهما . وعقدت مع هاتين الدولتين اتفاقيات تشتمل بيع صفقات اسلحة ومعدات عسكرية لهما ، وتزويدها بالخبراء والمستشارين العسكريين . ومع ذلك فان الدول الافريقية لازالت تتردد في اعادة العلاقات الدبلوماسية مع «اسرائيل» رغم وجود اتصالات سرية مع عدد منها . ومصدر التردد ناجم عن الخشية من رد فعل الدول العربية وامكان فقد مساعداتها المالية ، بالاضافة الى تعاون «اسرائيل» الوثيق مع الحكام العنصريين البيض في جنوب افريقيا . واستمرار هؤلاء باحتلال «ناميبيا» الغنية بالموارد الطبيعية واليورانيوم ، وتدخلها في الدول المجاورة .

من ذلك نستنتج:

— ان استمرار قطع العلاقات الدبلوماسية بين الدول الافريقية و«اسرائيل» هو امر مهم جدا لأنه يشكل مقياسا لعزلتها الدولية . الا ان ذلك وحده يبقى ناقصا اذا لم يدعم بنشاط عربي لتعزيز التعاون العربي الافريقي ، سواء على مستوى العلاقات الثنائية او عن طريق مؤسسات الجامعة العربية ، او بالتنسيق مع منظمة الوحدة الافريقية .

— ضرورة مساعدة الدول الافريقية في التخلص من النفوذ الاستعماري بتعزيز فكرة الاستقلال وعدم الانحياز ويعطي تماثل المشكلات العربية والافريقية دفعا كبيرا للتعاون العربي - الافريقي . خاصة وان العرب والافارقة يعانون من النير الاستعماري الاستيطاني الذي تمثله «اسرائيل» ، وجنوب افريقيا .

ـ ان «اسرائيل» تعتمد في تحركاتها في القارة الافريقية على الجاليات اليهودية ، وقوى محلية افريقية ودولية لذا فان الرد العربي يجب ان يتضمن مزيجا من النشاطات الدبلوماسية والاقتصادية بالاعتماد على الجاليات العربية الكبيرة في الاقطار الافريقية ، ويساعد العرب في تحركهم ، انتشار الدين الاسلامي في الأقطار الافريقية انتشارا واسعا . ويمكن ايضا تطوير علاقات مع القوى المحلية المؤثرة في تلك الدول .

ـ خلق كوادر افريقية متعاطفة مع العرب عن طريق الاهتمام بتدريب الافارقة ، والاهتمام بانشاء المدارس لتعليم العربية ، وتزويد الدول الافريقية بالمعلمين والمدرسين وكذلك الاهتمام بانشاء المراكز والمساجد الاسلامية .

ـ واخيرا لابد من الاشارة هنا الى ضرورة التركيز على ايجاد المصالح المشتركة الدائمة بين العرب والافارقة والقيام بمشروعات ذات قيمة ومردودات طويلة الأمد . اما سياسة شراء المواقف الحكومية فعلى الرغم من فوائدها الآنية ، فهي سياسة غير مجدية على المدى الطويل .

الهوامش :

(١) يتوزع هؤلاء اليهود الذين يعيشون في القارة الافريقية في الدول التالية : جنوب افريقيا (١١٨ الف يهودي)، و(٢٨ الفا) في الحبشة ، و(٣٨٠٠) في زيمبابوي ـ روديسيا سابقا ، و(٧٥٠) في زائير ، و(٤٠٠) في كينيا ، و(٤٠٠) في زامبيا ، و(١٠٠٠) في الجزائر ، و(٤٠٠) في مصر ، و(١٨ الفا) في المغرب ، و(٧٠٠٠) في تونس ، و(٢٠) يهوديا في ليبيا . انظر الكتاب السنوي الصهيوني لعام ١٩٨٠ منشورات الاتحاد الصهيوني في بريطانيا ، العدد(٧) ، المجلد الثالث ، لندن ١٩٨٣ .

(٢) انظر الفصل الخاص بـ«التمثيل الدبلوماسي في اسرائيل» الوارد في الموسوعة السنوية الانكليزية :

The Middle East and North Africa 1979 - 80 (twenty sixth edition), ed, Europa Publications Limited, London, 1979, PP. 452

(٣) التطور الذي ظهر في الموقف الافريقي العام تجاه قضية النزاع العربي ـ الصهيوني تعبر عنه قرارات منظمة الوحدة الافريقية ابتداء من عام ١٩٧٠ حتى مؤتمر القمة الافريقي في آيار ١٩٧٣ . وقد بدأت موجة قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل في الفترة من آذار ١٩٧٢ حتى تشرين الثاني ١٩٨٣ . انظر : الدكتور عبدالملك عودة ، «تقويم تجربة التعاون العربي ـ الافريقي» ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ١٩٨٣/٧ ، ص٨٥ . حول تسلسل قطع العلاقات الدبلوماسية انظر ايضا : عواطف عبدالرحمن ، «اسرائيل وافريقيا» منظمة التحرير الفلسطينية «مركز الأبحاث» ، آب ١٩٧٤ .

(٤) صدر هذا القرار عن اجتماع رؤساء دول وحكومات منظمة الوحدة الافريقية الذي عقد للفترة من ٢٨ تموز الى الأول من آب ١٩٧٥ في كامبالا باوغندا . انظر : ريتشارد ب . ستيفنز وعبدالوهاب المسيري ، «اسرائيل وجنوب افريقيا» ، ترجمة وزارة الاعلام (الهيئة العامة للاستعلامات ، سلسلة كتب مترجمة برقم ٧٢٤) بلا تاريخ ولا اشارة الى مكان الصدور .

(٥) نفس المصدر .

(٦) لقد كانت «اسرائيل» تسارع الى الاعتراف بالدول الافريقية المستقلة . ومهدت لذلك باقامة علاقات قنصلية قبل الاستقلال بدعم من الدول الاستعمارية الغربية التي كانت تهيمن على القارة . وقد تحولت قنصلياتها فور اعلان الاستقلال الى سفارات كما حصل في ليبيريا «١٩٥٤» واثيوبيا «١٩٥٦» ونيجيريا «١٩٦٠» وسيراليون وساحل العاج وداهومي (١٩٦١) . وطبقا للكتاب السنوي للحكومة الاسرائيلية ٦٩ ـ ١٩٧٠ تمكنت «اسرائيل» من اعتماد بعثات اسرائيلية في ٣٢ دولة افريقية . وبالمقابل بلغ عدد البعثات الدبلوماسية الافريقية لدى «اسرائيل» ، ١١ بعثة ، عواطف عبدالرحمن ، المصدر السابق ، ص٥٤ .

(٧) هذا ما اعترف به ناحوم غولدمان مؤسس المؤتمر اليهودي العالمي في مقال كتبه في صحيفة (لوموند دبلوماتيك) حذر فيه من مخاطر عزلة «اسرائيل» الدولية ، ومن ازدياد التناقضات ايضا بين مواقف الحكومات الأجنبية من مواطنيها اليهود ، وامكانية ان تقود تلك التناقضات الى «صراعات واحداث شكوك بالنسبة لاخلاص ووطنية اليهود» . وهذا يمثل كما يضيف غولدمان «خطرا على وجود اليهود في هذه البلدان نتيجة مواقف اسرائيل ، وتحديها للعالم» . انظر مقال غولدمان في:

— Le Monde Diplomatique, Sept., 1982, P. 10.

— Le Monde, No. 11999, 26 - 8 - 1983, P. 3.

(٩) قبل عام ١٩٥٧ ، لم يكن في القارة الافريقية الا ثلاث دول افريقية مستقلة ، هي جنوب افريقيا تحت حكم الاقلية البيضاء ، وليبريا تحت النفوذ الأمريكي ، واثيوبيا الوثيقة الصلة بالغرب ، ومن عام ١٩٥٧ الى ١٩٦٢ راحت معظم القارة الافريقية تتخلص من السيطرة الاستعمارية القديمة . اما البلدان الافريقية التي كانت قد استقلت حديثا قبل هذا التاريخ فهي بلدان عربية : مصر ، ليبيا ، المغرب ، تونس . وبذلك فقد استفادت «اسرائيل» من وجود السلطة الاستعمارية للقيام بنشاط واسع في القارة ، وبناء

اسس قوية لعلاقاتها مع الدول الافريقية . ومهد الاستعمار الغربي وخاصة بريطانيا وفرنسا ، الطريق للتغلغل الاسرائيلي في تلك الدول التي لم تكن الا مستعمرات . وقد دعمت الكثير من المؤسسات الغربية جهود «اسرائيل» في افريقيا ، وتلقى المعهد الافرو- آسيوي في تل ابيب الذي انشىء خصيصا لخدمة النشاط الاسرائيلي في القارة ، مساعدات مالية كبيرة من الاتحادات العمالية الأمريكية والألمانية والبريطانية . وتعاونت «اسرائيل» مع فرق السلام ، والمخابرات الأمريكية في مجال محاربة الشيوعية . حول ظاهرة استقلال البلدان الافريقية ، والبلدان الأخرى في الخمسينات والستينات انظر :

— J. B. Duroselle, « Histoire Diplomatique De 1919 À Nos Jours, Je ēdition, Dalloz, Paris, 1978, PP. 663 - 669.

ويرى دوروزيل ان تلك الظاهرة ارتبطت بارادة كل البلدان الجديدة في تسريع الاستقلال لكل الأراضي التي بقيت تحت السيطرة الاستعمارية ، وكان مؤتمر باندونغ (عام ١٩٥٥) يمثل رمز هذه الحركة . وان القوتين العظميين ، ولأسباب مختلفة ، شددتا العمل لصالح ازالة الاستعمار البريطاني والفرنسي والبلجيكي ، ولم تتخلف عن هذه الظاهرة الا المستعمرات البرتغالية .

وحول «النشاط الاسرائيلي في افريقيا» انظر د. عبدالملك عودة منشورات معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، وعواطف عبدالرحمن ، المصدر السابق حول الأرقام الخاصة بالتبادل التجاري بين «اسرائيل» والقارة الافريقية .

انظر : تيدي برويس ، «العلاقات الاسرائيلية - الافريقية بين الأمس واليوم» ، دافار ، ١٩٨١/١٢/١٣ ، ترجمة (ن.م.د.ف.) ، بيروت ، العدد (١) ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠ - ٢١ .

+ نفس المصدر .

(١٠) حول الارقام الخاصة بالتبادل التجاري بين «اسرائيل» والقارة الافريقية .

(١١) دافار ١٩٨٢/٢/٥ ، نشرة (م.د.ف.) ، العدد (٢) ، شباط ١٩٨٢ ، ص ١١٩ .

(١٢) انظر :

— E.I.U. Quarterly Economic REview of Israel, London, No. 3, 1983, P. 2

(١٣) على الرغم من معاناة الاقتصاد الاسرائيلي منذ سنوات من ازمات خطيرة فان الانتاج العسكري يتقدم بشكل يلفت الأنظار ، وقد اصبحت مبيعات السلاح تمثل اهم مورد من موارد العملة الصعبة ، وتفوق موارد الحمضيات او حتى الماس . انظر :

— Le Monde Diplomatique No. 337, April, 1982.

(١٤) تشير المعطيات الاسرائيلية الى شركة (سوليل بونيه) التي تعتبر من كبريات الشركات الاسرائيلية لديها اعمال تصل الى مئات الملايين وتعتبر نيجيريا وكينيا ، اهم المشترين لأعمال البناء التي تنفذها الشركة . وقد شهد تصدير المنتجات لهذين البلدين نموا كبيرا بفضل هذه الأشغال من جهة اخرى قام بعض الموظفين والمندوبين بتأسيس شركات خاصة بهم من خلال اتصالاتهم الرسمية في سبيل جني ارباح خاصة . ومع ذلك هناك من يعتبر شركة (كور للتجارة) البائع الأهم لدول افريقيا . وتمارس شركة (مثير اخوان) وهي شركة خاصة نشاطا كبيرا في ساحل العاج ، كما هو الحال بالنسبة لشركات خاصة اخرى . وقد ظل المعهد الافرو- آسيوي يستضيف المئات من الدارسين والطلبة من افريقيا ، رغم عدم وجود علاقات دبلوماسية مع بعض الدول الافريقية . وتجمع المصادر المختلفة على ازدياد عدد الخبراء وممثلي الشركات الاسرائيلية في الدول الافريقية بما في ذلك الذين يعملون من خلال الشركات الغربية . وتقدر صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية ، عدد الاسرائيليين العاملين في القارة الافريقية باربعة آلاف شخص .

انظر تيدي برويس ، المصدر السابق ، وصحيفة الأخبار المصرية ١٩٧٥٢ ، ١٩٨٣/٩/١٣ التي تنقل عن صحيفة دافار ، ونيويورك تايمز ان الأربعة آلاف اسرائيلي الموجودين في افريقيا يقومون بمهام مختلفة واعمال متنوعة دون الاشارة الى طبيعة اعمالهم واماكن وجودهم . هذا وتدعي صحيفة دافار ان البلدان الافريقية الوحيدة في القارة التي ليس لـ«اسرائيل» علاقات واتصالات خفية معها هي ثمان دول فقط . وهذه الدول هي ١- انغولا ٢- موزمبيق ٣- تنزانيا ٤- مدغشقر ٥- بنين ٦- مالي ٧- الكونغو ٨- اوغندا . ومع ذلك ينبغي لنا الاشارة هنا الى ان «اسرائيل» تحرص على تغليف نشاطاتها بالسرية .

(١٥) انظر صحيفة هاآرتس العدد)١) ، ٢(١٢(١٩٨١ ترجمة نشرة (م.د.ف) ، العدد ١٢ كانون الأول ١٩٨١ ، ص٧٦٨ .

(١٦) انظر د. الياس شوفاني ، «بيغن يحقق حلم بن غوريون الكبير» ، نشرة (م.د.ف) ، العدد ١٠ تشرين الأول ١٩٨١ ص٥٨٨ . وكذلك صحيفة هاآرتس ، ١٩٨١/١٠/٢ ، ترجمة نشرة (م.د.ف) بيروت ، العدد (١٠) ، تشرين الأول ١٩٨١ .

(١٧) انظر محاضرة ارئيل شارون ، «مشكلات اسرائيل الاستراتيجية في الثمانينات» ، صحيفة معاريف ١٩٨١/١٢/١٨ ، ترجمة (م.د.ف.) العدد (١) ، كانون الثاني ١٩٨٢ ، ص٢٥ .

(١٨) من تصريحات شارون في المؤتمر الصحفي الذي عقده بمكتبه في تل ابيب . هاآرتس ١٩٨١/٩/١٥ ، (م.د.ف) ، العدد (١٠) ، تشرين الأول ١٩٨١ ، ص٦٣٩ .

(١٩) نفس المصدر .
(٢٠) وكالة نوفوستي ، الرأي الأردنية ، العدد (٤٨٦٠) ، ١٩٨٣/١٠/٢ .
(٢١) نظمت صحيفة يديعوت احرونوت ندوة عن (مخاطر وفرص التعاون الاستراتيجي) واستضافت فيها عدد من المختصين . وقد طرحت في الندوة مسألة (تحويل اسرائيل الى ما يشبه كوبا بالنسبة للولايات المتحدة ، والمخاطر الكبيرة الناجمة عن ذلك، ليس فقط داخل الاتحاد السوفييتي ، بل داخل الولايات المتحدة نفسها ، وتأثير ذلك على معنويات وانضباط وحوافز الجيش الاسرائيلي ، وكذلك مخاطر تعرض «اسرائيل» للزوال في حالة صدام ذري بين الدول الكبرى . يديعوت احرونوت ، ١٩٨١/٩/٢٨ ، ترجمة (ن.م.د.ف.) ، العدد (١١) ، تشرين الثاني ، ١٩٨١ ص٦٦٧ - ٦٧٨ .
(٢٢) النشرة الصحيفة لمكتب الملحق الصحفي بسفارة الاتحاد السوفييتي في بغداد ، المجموعة (٢٤) ١-١٩٨٣/٢/٢ .
(٢٣) النشرة الاستراتيجية ، لندن، العدد ٢٦٢٥ ، ١٩٨٢/١/٢٩ .
(٢٤) Le Monde, No. 11966, 19-7-1983.
(٢٥) وكالة نوفوستي ، الوطن الكويتية ، العدد ٣٠٦٩ ، ١٩٨٣/٩/٦ .
(٢٦) سبق ان اشرنا الى ان عودة «اسرائيل» الى القارة الافريقية هي جزء من اتفاقية التعاون الاستراتيجي مع الولايات المتحدة ، وتؤكد مجلة (جون افريك) ان واشنطن عملت بشكل مباشر او عن طريق الوسطاء لاعادة العلاقات مع «اسرائيل» . وان هو فويت بوانييه فضل ان يكون معه في تصرفه باعادة العلاقات ، عدد من رؤساء الدول من اصدقائه ، وتضيف المجلة بان علاقات بوانييه ، واتصالاته السرية لم تنقطع مع المسؤولين الاسرائيليين ، كذلك فانه قابل موبوتو في ١١ آب عند عودة الأخير من الولايات المتحدة . وبين حزيران وايلول ١٩٨٣ ، قابل بوانييه رجال سياسة واعمال كثيرين منهم التابعون للمؤتمر اليهودي العالمي او من لجنة تمثيل المؤسسات اليهودية في فرنسا (الكريف) . ويبدو ان رئيس ساحل العاج بوانييه يريد الموازنة بين مدى رضاء العرب ان هو اعاد العلاقات السياسية مع «اسرائيل» ، وبين مدى رضاء واشنطن واسرائيل . لذا فانه قابل ايضا مسؤولا فلسطينيا ، وصرح له بانه لا يعترض على فتح مكتب لمنظمة التحرير في عاصمة بلاده . كما قابل الشاذلي القليبي في آيار ١٩٨٣ . انظر مجلة (جون افريك) الفرنسية . ترجمة صحيفة الرأي ، العدد ٤٨٦٥ ، ١٩٨٣/١٠/٧ .
(٢٧) انظر هاآرتس ١٩٨١/١٢/٢٢ (م.د.ف) ، العدد (١) كانون الثاني ١٩٨٢ . ص٥٣ .
(٢٨) انظر حول هذا الموضوع ، مجدي حماد (صراع القوى الكبرى في افريقيا) ، القاهرة ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ١٩٧٧ . د. عبدالملك عودة (تقويم تجربة التعاون العربي الافريقي) مجلة المستقبل ، بيروت ، العدد ١٩٨٣/٧ ، ص٩٤ .
(٢٩) في آذار ١٩٨١ ، زار مدير التعاون الدولي بوزارة الخارجية الاسرائيلية ساحل العاج ضمن مهمة سرية شملت كينيا وليسوتو وملاوي ونيجيريا . وقد جرت اتصالات اخرى تهدف الى اعادة العلاقات الدبلوماسية ، وكانت الحجة عندما ينسحب الجيش الاسرائيلي من سيناء ، آخر ارض افريقية محتلة لن يكون للافريقيين العذر في معاداة «اسرائيل» . حول تفاصيل الاتصالات السرية انظر : مجلة جون افريك ، المصدر السابق .
(٣٠) انظر :
— Le Monde, No. 11990, 16-8-1983.
— Le Monde, No. 11999, 26-8-1983.
(٣١) خلال انعقاد المؤتمر العاشر للقمة الافريقية - الفرنسية في باريس التي حضرها ممثلو ٣٧ بلدا افريقيا الى جانب الرئيس ميتران ، استغلت اسرائيل وجود ٢٢ رئيس دولة افريقية و١٤ وفدا مراقبا في هذا المؤتمر ، من اجل الاتصال بعدد منهم بهدف اعادة العلاقات ، وخاصة مع ساحل العاج وتوغو وغانا وافريقيا الوسطى . وتولى القيام بهذه المهمة أفي بريمور مسؤول افريقيا في وزارة الخارجية الاسرائيلية . انظر صحيفة :
(٣٥) لقد حاولت «اسرائيل» التكتم على تفاصيل المحادثات ، والاتفاقات التي تمت مع موبوتو . وقد تسربت المعلومات عنها من قبل بعض المصادر الغربية انظر في هذا الصدد :
وكذلك مجلة (جون افريقك) الفرنسية ، ترجمة جريدة الثورة ، العدد ٥٤٩٨ ، ١٩٨٥/٦/٦ .
(٣٦) حول تفاصيل الزيارة انظر : Le Monde, No. 11999, Op. cit P. 3
(+) فيما عدا كوستاريكا وزائير فان كل السفارات الأجنبية الأخرى موجودة في تل ابيب .

(37) Ibid

صفحـــة من تاريـــخ
الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود

د. عبد الله بن يوسف الشبل *
وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الريـــاض

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين وأشهد أن لا اله الا الله الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ورحمته للعالمين ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ونصح الأمة ، وجاهد في الله حقد جهاده ، حتى أكمل الله به الدين ، وأتم به النعمة على المسلمين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحابته أجمعين .

هذه الصفحة من تاريخ الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود أعدت بمناسبة انعقاد «ندوة العلاقات المصرية السعودية» في رحاب جامعتي «الزقازيق وقناة السويس ـ بالاسماعيلية» ، في الفترة من ١٦ ـ ١٩ شعبان ١٤٠٧هـ / ١٤ ـ ١٧ أبريل عام ١٩٨٧م .[١]

يتكون هذا البحث من موضوعين رئيسين :

الأول : الجذور التاريخية لحكم آل سعود .

الثاني : الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود : من حيث نشأته وصفاته القيادية ، والأسس التي بني عليها المملكة العربية السعودية .

راجيا أن يكون في معالجة الموضوع ما يحقق الهدف الذي أعد هذا البحث من أجله ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

الجذور التاريخية لحكم آل سعود

ينتسب آل سعود الى جدهم : سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن ابراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع بن ربيعة .[٢]

ومع أن بني حنيفة وعنزة أبناء عمومة ـ لأنهم يلتقون في نسبهم في (بكر بن وائل) من بنى أسد بن ربيعة ، وربيعة احدى القبائل العدنانية الرئيسية ـ فاذ أخذنا بأظهر قولي المعنيين بأنساب أهل هذه البلاد وتاريخها في انتساب آل سعود الى بني حنيفة فإن جذورهم التارخية في قلب المناطق التي تكونت منها الدولة السعودية ترجع الى ما قبل ظهور الاسلام بحوالي قرنين من الزمان[٣]؛ حيث سكن هؤلاء اليمامة في قصة رواها بعض المؤرخين وأول من سكن هذه المنطقة منهم التي كانت تعرف ـ في ذلك الوقت وحتى عهد قريب ـ باليمامة هو : (عبيد بن ثعلبة)[٤] وهو الأب الثلاثون للملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ حسب سلسلة النسب المتداولة .

وعند ظهور الاسلام كان يتولى زعامة المنطقة :

* ثمامة بن أثال في أعالى وادي حنيفة وقاعدته (حجر)[٥].

* ـ هوذة بن علي في جوّ أسفل وادي حنيفة وقاعدته (الخضرمة)[٦].

ولما انتشر الاسلام إنصهرت هذه المنطقة في بوتقة الدولة الاسلامية وصار الخلفاء يعينون عليها ولذة من قبلهم إما مستقلين أو يعهد بولايتها الى والي البصرة أو الى والي المدينة .

حين ضعف شأن الجزيرة العربية بانتقال مركز الخلاقة عنها ، وبإسقاط العرب من ديوان العطاء وإقصائهم عن الحكم أصبح تعيين ولذة اليمامة أمرا شكليا مما تسبب في وجود فراغ سياسي وقيادي ونتج عنه انفصال المنطقة واستقلال الأخيضريين بحكمها في القرن الثالث الهجري[٧].

زامن انحلال الدولة الأخيضرية بعيد منتصف القرن الخامس الهجري سقوط دولة القرامطة في البحرين (المنطقة الشرقية) على يدى «عبدالله بن علي العيوني» وتأسيس الدولة العيونية عام ٥٦٧هـ (١٠٧٤م) ، وقد مدت هذه الدولة نفوذها الى بلاد نجد (اليمامة)[٨].

وبزوال الدولة الأخيضرية أصبحت اليمامة أو بلاد نجد مجزأة الى امارات صغيرة متفرقة ، خضع بعضها للدويلات التي حكمت الاحساء مثل : الدولة العيونية ـ كما سلف ـ ، والدولة الجبرية[٩] (آل أجود) ولحكام بني خالد . وسجلت أحداث القرون الثلاثة التي سبقت قيام الدولة السعودية أن هذه الامارات كانت دائما في صراع مستمر ، وتنافس على السلطة ، ومرابطة دائمة ، وثأر لاينقطع يتحين أهل كل قرية الفرصة للانقضاض على القرية الأخرى ،[١٠] فأصبحت الحياة في نجد حياة قلق وذعر وخوف ، وعُدِم الاستقرار والأمن ، وتفكك المجتمع نتيجة لتلك الحروب والفتن التي تطحنه عسكريا واقتصاديا وخلقيا ونفسيا وفكريا تردى بسببها الى مستوى قد يضاهي مستوى الجاهلية أو يزيد عليه .[١١]

وفي ظل هذه الظروف العصيبة كان قيام الدولة السعودية الأولى على أساس من الدعوة الاسلامية التي جدد معالمها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله ـ وقد بايعه الامام محمد بن سعود ـ رحمه الله ـ على نشر الدعوة الاسلامية الصحيحة وتوحيد البلاد تحت راية الاسلام[١٢] ، فوجد المجتمع في هذه الدولة المخرج السليم من الهلاك الذي تردى فيه دون أن يعرف للنجاة منه سبيلا .

وليس من منهج هذا البحث الدخول في تفاصيل تاريخ الدولة السعودية في دوريها الأول والثاني لكن تجدر الاشارة الى أن «الدرعية» التى انطلقت منها دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأصبحت عاصمة الدولة السعودية في دورها الأول قد أنشأها (امنع بن ربيعة) الأب الثالث عشر للملك عبدالعزيز وظل ابناؤه وأحفاده يتوارثون حكمها حتى وصل عام ١١٣٩هـ /١٧٢٦م الى (محمد بن سعود) الذي بايع الشيخ محمد بن عبدالوهاب إماما للمسلمين[١٣] عند انتقال الشيخ الى الدرعية في عام ١١٥٧هـ (١٧٤٤م) واذا ما قورنت هذه القرية بالقرى الأخرى في تلك الفترة فإنها تعد مركزا مهما : لاستقلال صاحبها عن أي سلطة خارجية ولايمانه بالدعوة ولاستتباب القوة الداخلية فيها مما أهلّها لتكون بيئة صالحة لنمو الدعوة ومركزا لانطلاقها ، حيث بدأ الامام محمد بن سعود كفاحه لنشر الدعوة وتوحيد البلاد وقد توفي في ربيع الأول ١١٧٩هـ (١٧٦٥م) وتولى بعده ابنه عبدالعزيز بن محمد فسار على نهج والده في مناصرة الدعوة وصاحبها وتأصلت في نفسه الرغبة في مواصلة الجهاد لنشرها فأخذ على عاتقه اتمام البناء الذي بدأه والده ؛ فانتشرت الدعوة وتوحدت بلاد نجد جميعها ومنطقة الاحساء في ظل دولة الدعوة والعقيدة .

قتل الامام عبدالعزيز بن محمد بن سعود غيلة في أواخر شهر رجب عام ١٢١٨هـ[١٤] (١٨٠٣م) وخلفه ابنه الامام سعود الذي واصل مسيرة أسلافه في نشر الدعوة وتوحيد البلاد وعُدَّ عهده العصر الذهبي من حيث القوة والاتساع والاستقرار واصبحت حدود الدولة تمتد من الشام شمالاً الى اليمن جنوباً ومن البحر الأحمر غرباً حتى الخليج شرقاً في ظل حكومة تؤمن بالاسلام عقيدة ومنهجا وتطبيق شرعته في كافة شؤون الحياة .

ونتيجة للدعاية المغرضة ضد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وحاملي لواء نشرها من آل سعود ، وخوف الدولة العثمانية من اتساع نفوذ الدولة السعودية ـ بعد أن امتدت حدودها ـ كما أشرنا ـ وأصبح الجيش السعودي على أبواب أجمل ولاياتها وأغناها[١٥] ، اذا وصلوا الى حوران والكرك وحاصروا دمشق ـ نتيجة لذلك دخلت الدولة السعودية في صراع مع الدولة العثمانية .

وفيما كانت رحى الحرب دائرة توفي الامام سعود بن عبدالعزيز في ١١ من جمادي الأولى عام ١٢٢٩هـ[١٦] الموافق ٢ من مايو عام ١٨١٤م .

وتولى بعده ابنه عبدالله وكانت المعارك بين السعوديين وجيش الدولة العثمانية ـ بقيادة محمد علي ورجاله ـ حامية الوطيس وحققت هذه الجيوش انتصارات ساحقة حيث وصل (ابراهيم باشا) الى الدرعية عاصمة الدولة

السعودية فحاصرها أكثر من ستة أشهر استبسل عبدالله بن سعود اثناءها في الدفاع عن عاصمة بلاده الا أن الحصار أجهده فسلم نفسه الى ابراهيم حيث أرسله الى مصر فوصلها في ١٧ محرم ١٢٣٤هـ[١٧] (١٦ نوفمبر ١٨١٨م) ولم يلبث فيها سوى يومين ؛ اذ أرسل مع اثنين من رجاله الى الأستانه فقتلوا هناك شنقا رحمهم الله وعفا عنهم .

* * *

وقد أعقب سقوط الدرعية فترة فوضى واضطراب استمرت حتي ظهور الامام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود ـ الأب الثالث للملك عبدالعزيز ـ مستأنفا الكفاح لبناء الدولة السعودية الثانية عام ١٢٣٨هـ / ١٨٢٤م .

وقد تداول الحكم في هذه الفترة عدد من الحكام من آل سعود كان أبرزهم الامامان تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود وابنه فيصل وقد حاولا الوصول الى الأهداف التي حققها قادة الدولة السعودية الأولى ، إلا أن الظروف العصيبة التي جابهتهما حالت دون وصولهما الى ما وصل اليه أسلافهما في بناء الدولة من حيث القوة والاتساع واستقرار الأوضاع الداخلية .

قتل الامام تركي في آخر يوم من عام ١٢٤٩هـ[١٨] / ١٨٤١م ، أما الامام فيصل فتوفي في رجب عام ١٢٨٢هـ[١٩] / ديسمبر ١٨٦٥م ، وبعد وفاته عصفت الفتن بالبلاد وتعرضت لسلسلة من الصراعات الداخلية مكنت المتربصين بها من تفتيت وحدتها فأستولى العثمانيون على منطقة الاحساء (المنطقة الشرقية) عام ١٢٨٨هـ[٢٠] ١٨٧١م وأستأثر آل رشيد بحكم بلاد نجد عشر سنوات (١٣٠٩ ـ ١٣١٩هـ = ١٨٩٢ ـ ١٩٠٢م) ، الا أن هذه المحنة انتهت بظهور الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ الذي أخذ على عاتقه توحيد البلاد في ظل دولة اسلامية فاستطاع بتوفيق الله له ثم بصدق عزيمته ، وصلاح نيته ان يبنى ـ على أساس متين من العقيدة الاسلامية ـ صرحا شامخا أصبح مضرب المثل في استتباب الأمن والاستقرار والعدل والرخاء والتقدم .[٢١]

الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود

*** ـ نشأته :**

ولد عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله ابن محمد بن سعود في شهر ذي الحجة من عام ١٢٩٣هـ (ديسمبر ١٨٧٦م) في الرياض ، ونشأ كما ينشأ أمثاله في هذا الوسط فتعلم القراءة والكتابة وأخذ يتلو القرآن ويحفظ منه . أما العلوم الشرعية ـ أصولها وفروعها ـ فقد درسها على العلامة الشيخ «عبدالله بن عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ» وقد وضع كراسا خاصا بها في العلوم المذكورة .[٢٢]

نشأ عبدالعزيز في الوقت الذي تكالبت فيه الشدائد على أسرته وأحاط به المتربصون من كل جانب ، فعاش تلك الاحداث المؤلمة مما كان له أثر في تغلبه على الصعاب التي لاقاها في مستقبل حياته .

ولما خرج والده من نجد رافقه في تنقله بين لادها وقبائها فأورثته خشونة العيش تقشفا وجلدا وصبرا على المكاره ، ووجد نفسه ـ قبل أن يكتمل شبابه ـ يدخل في المفاوضات ويقوم بالسفارات ، ويختبر تقلبات الزمن وطباع الناس[٢٣].

وعندما استقر في الكويت كانت في ذلك الحين ميدانا للتنافس السياسي بين الدول الكبرى التي تسعى لاكتساب ود أمير الكويت واستمالته الى جانبها ، ونتيجة لهذا الصراع أصبحت الكويت مدرسة من مدارس السياسة العالمية ، وكانت الفرصة مهيأة لعبدالعزيز ليتلقى دروس السياسة في هذه المدرسة فقد مكث عبدالعزيز مدة ليست قصيرة شاهد فيها جوانب من هذا التنافس وأفاد منها .

* * *

* ـ صفاته القيادية :

توافر لعبدالعزيز من صفات القيادة ومقومات الزعامة الكثير الكثير ، ولعل من العسير في حدود الوقت المحدد لالقاء البحث والفترة المتاحة لاعداده أن نحيط بهذه الصفاة ، أو أن نتناول بعضها بالتفصيل ، ولهذا سيقتصر البحث على المامة بجوانب من بعض هذه الصفات .

١ـ التدين :

الملك عبدالعزيز رجل موحد خالص التوحيد في خاصة نفسه . ملتزم منهج السلف الصالح في توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات . لايدعو غير الله ، ولا يسأل غيره ، ولا يشرع مالم يأذن به الله .[٢٤]

وهو مؤمن بالإسلام عقيدة وشرعة ومنهاجا ، وملتزم باداء الفرائض والواجبات ؛ فهو يؤدي الصلوات الخمس جماعة ، ويصلى الكثير من الرواتب والسنن ، وله ورده من الليل .

ويذكر من كتبوا عن سيرته الذاتية أن من عادته أن يقوم من الليل قبل الفجر بأكثر من ساعة فيتطهر ويصلي ما كتب له ، فإذا أذن الفجر صلى الصبح ثم جلس يذكر الله بأذكار الصباح والمساء المشروعة[٢٥] . وله كتاب في ذلك سماه : «الورد المصفى» استخلصه من كتاب «الكلم الطيب» لشيخ الاسلام ابن تيمية و «الوابل الصيب» لابن قيم الجوزية وقد طبع هذا الكتاب .

هذا الى جانب ادائه للشعائر الاسلامية ـ فرضا ونفلا ـ كالصيام والزكاة والصدقات والحج والعمرة ، وحرصه على فعل الطاعات التي تقرب الى الله ، وأجتنابه جميع المنهيات تعبدا لله وطلبا للاجر والثواب ، وخلاصة القول : أنه ملتزم باحكام الاسلام فيما يأتي ومايذر .

٢ـ الكرم :

«والملك عبدالعزيز مشهور في بلاد العرب بكرم الخلق وبسط اليد ، لا يعرف قيمة للدراهم الا أنها وسيلة لبناء المجد أو حسن الذكرى فقلما يرد سائلا يطلب معونته ، أو محتاجا قصد بابه ، وهو يشرف بنفسه على اعطاء القاصدين حسب منازلهم التي لاتخفى عليه وقلما يعتمد على أحد آخر في ذلك ، وديوانه مفتوح للقادمين يقابل زائريه مهما صغر مقامهم بوجه باش ويأخذ ألبابهم بابتسامته التي قلما تفارقه» .[٢٦]

إن الحديث عن كرم الملك عبدالعزيز وسخائه مهما أفيض فيه فهو أقل كثيرا مما هو معروف عن جوده وكرمه ؛ ولذا سنورد قصتين كأنموذج لما يتصف به من الكرم والجود .

عندما فتح عبدالعزيز الرياض وفد عليه «محمد بن هندي» شيخ عشيرة برقاء من عتيبة وكان عبدالعزيز لا يملك شيئا من المال عندما وفد عليه هذا الرجل ، الا أنه في اليوم الثاني من مجيىء الوافد اليه وصلت زكاة بلدة الخرج فوهبا كلها لابن هندي قبل أن ينظر اليها .[٢٧]

أما القصة الثانية فقد حدثت بعد ما دخل عنيزة ـ في منطقة القصيم ـ في محرم ١٣٢٢هـ (مارس ١٩٠٤م) عندما كان مدعوا في منزل أحد وجهاء البلد «عبدالرحمن بن محمد آل حماد ـ العبدلي ـ» وكان المجلس يضم نخبة من أعيان البلد ودار الحديث حول ما منّ الله به على البلاد من ظهور عبدالعزيز وتوحيد معظم بلاد نجد تحت حكمه . وسألوه عما اذا كانت له في تلك اللحظة أي أمنية ؟ وتوقعوا منه ـ وهو في هذا السن ويعيش نشوة النصر ـ أن يتمنى الزواج من فتاة جميلة ، فكان رده أنه يتمنى أن لديه مبلغا من المال ، لا ليدّخره ، وإنما ليوزعه على (خوياه) رجاله ورفاقه ، فما كان من (العبدلي) الا أن أقرضه المال الذي تمناه فقام عبدالعزيز من فوره بتفريقه على أصحابه ولم يدخر لنفسه أو لأسرته شيئا .[٢٨]

وقد اخترت هذا الانموذج من جود الملك عبدالعزيز وكرمه ؛ لأنه اذا كانت هذه حاله وهو معدم فمن المتوقع أن يبلغ سخاؤه منتهى مراتب الكرم والجود اذا كان موسرا ، وهو ما حدث فعلا .

٣ـ الشجاعة:

شجاعة الملك عبدالعزيز شجاعة المتزن المفكر ، لا شجاعة المتهور[٢٩] ، شجاعة القائد العسكريّ الموهوب الذي يستطيع أن يملك مواهبه ويسيطر عليها ؛ فلا يفقد انضباطه ويغامر مغامرة انتحارية يدفع فيها حياته رخيصة بلا ثمن ، ولا يتخلى عن خوض المعركة ـ اذا كان عدوه يفوقه عدد أو عدّة ـ فيبدو بصورة تجعل خائر الاعصاب من الرجال يلوذ بالفرار يائسا من النصر[٣٠] .

فلم تقف شجاعته النفسية والبدنية عند مغامرته البطولية في فتح الرياض ، وماكان ليقوم بما قام به من جهاد في توحيد المملكة لو لم يكن محاربا من الدرجة الأولى[٣١] ، واذا كانت الجزيرة العربية قد انجبت الكثير من البواسل فإن عبدالعزيز يعد من أعظمهم .

وهناك قصص كثيرة عن شجاعته المتزنه التي تبرز عند الحاجة مثل ماحدث في معركة الدلم عام ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م[٣٢] ، وكنزان عام ١٣٣٣هـ/١٩١٥م[٣٣] ، وقد خاض أكثر من مائة معركة .

ولما توفي وجدوا في جسده ثلاثا واربعين ندبة وأثر جرح[٣٤] .

ولعل أبرز الأدلة على اتزان شجاعته المتسمة بالحكمة وبعد النظر ادراكه منذ البداية أنه لا يخطط لمعركة واحدة تنتهي بنهايتها سيرته سلبا أو ايجابا بل يخطط لحكم واسع مستمر ، ولذا كان يحاول تفادي الحرب ـ ما أمكن ـ ويفضل أن يكسب الآخرين بدون حرب بدلا من أن يحاربهم لينتصر عليهم ، ولم تكن هذه السياسة ناتجة عن رغبته في حقن دماء من ناصروه فقط ؛ بل رغبته ـ ايضا ـ في الابقاء على أرواح من كانوا ـ لظروف خاصة ـ مع خصومه ؛ لادراكه أنه سيكسب هؤلاء ـ كما كسب أنصاره الأوائل ـ عاجلا أو آجلا ، وأن كلا من هؤلاء وأولئك سيصبحون شعبه المرتقب .[٣٥]

هذه صفات ثلاث تعد في مقدمة صفاته القيادة التي يتعذر ـ الآن ـ حصرها وأستقصاؤها كالوفاء ، واصطناع الرجال الذين كانوا في يوم من الأيام خصوما له أو ليسوا على وفاق معه ، وهذا ناتج عن معرفته بالبلاد وأهلها فهو يعرف قبائلها وأفخاذها وطبقات سكانها الى جانب معرفته بعاداتهم وأعرافهم فيضع كل واحد منهم في مكانه اللائق به وينزل الناس منازلهم .

بالاضافة الى قوة شخصيته وهيبته في نفوس الناس مهابة اجلال واحترام لا هيبة خوف وارهاب ، كما يتمتع بارادة قوية ، فلا النصر يطغيه ، ولا الهزيمة تثنيه أو تفل من عزيمته .

وعلماؤها عنها ، الا أن هذه النكسة لم تدم طويلا ، فقد انتهت بظهور الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ الذي أخذ على عاتقه تجديد ما اندثر من معالم هذه الدعوة ونشرها والدفاع عنها ومن قوله في المجال :

«يسموننا بالوهابيين ، ويسمون مذهبنا بالوهابي ، باعتبار أنه مذهب خاص ، وهذا خطأ فاحش ، نشأ عن الدعايات الكاذبة التي يبثها أهل الأغراض . نحن لسنا أصحاب مذهب جديد ، أو عقيدة جديدة . ولم يأت محمد بن عبدالوهاب بالجديد ، فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه السلف الصالح .[٣٨]

ويقول : «أنا مبشر أدعو لدين الاسلام ، ولنشره بين الأقوام» .[٣٩]

وكما عرفنا ـ فيما سبق ـ أن الملك عبدالعزيز رجل موحد خالص التوحيد في خاصة نفسه ، فقد أسس هذه الدولة على العقيدة الاسلامية الصحيحة والتوحيد ، وألزم من ولى أمرهم بتوحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ؛ لانه يعلم أن توحيد الله وعبادته هي جوهر دعوة المرسلين «وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فأعبدون» .[٤٠] ويعلم أن هذه البلاد موطن الدعوة الاسلامية الصحيحة ومنبع التوحيد : لذا لم يفكر أن يأتي قومه بمذاهب فكرية (ايديولوجيات) مستوردة غريبة على عقول امته ومعتقداتهم كما فعل بعض الزعماء المسلمين ـ ممن عاصروه أو جاؤا بعد ـ فكان نصيب هذه المبادىء والمذاهب الافلاس في جميع جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ، بل تمسك ـ رحمه الله ـ بالاسلام كافة ودعا اليه ـ كما مر ـ ودعا الى عقيدة السلف الصالح المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله : «أنا داعية لعقيدة السلف الصالح ، وعقيدة السلف الصالح هي التمسك بكتاب الله وسنة رسوله وماجاء عن الخلفاء الراشدين . اما ماكان غير موجود فيها فأرجع بشأنه الى أقوال الأئمة الأربعة فآخذ منها مافيه صلاح المسلمين» .[٤١]

٢ـ تطبيق الشريعة الاسلامية :

عندما كان الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ يقوم بتشييد هذه القلعة السامقة كانت صورة الحكم الاسلامي مهتزة في أذهان بعض الناس ؛ لأنهم نظروا الى الاسلام من خلال واقع المسلمين وأعمالهم وما ارتكبوه من أخطاء ، وكانت حملات التشكيك في قدرة الشريعة على مواكبة الحضارة الحديثة ووفائها بمتطلبات الحياة العصرية المتطورة ترن في آذانهم ، وقد انساق وراء هذا الوهم طائفة من زعماء المسلمين وقادتهم فطبقوا القوانين الوضعية في بلادهم ، وسنوا أنظمة واعرافا غريبة على ثقافتهم ومألوفاتهم ، بعيدة عن دينهم وتراثهم الاسلامي وطبيعة مجتمعهم ، مثلهم كمثل من يغرس شجرة في غير بيئتها وفي تربة غير صالحة لنموها فيكون مصيرها الهلاك أو تنمو هزيلة معرضة للآفات .

أما الملك عبدالعزيز فلم يصغ الى ذلك ؛ لأنه يؤمن بالاسلام عقيدة وشريعة ونظاما للحياة ، وأن التمسك بالاسلام يعصم من الضلال الفكري ، والانحلال الخلقي ، وأن تطبيق الحدود يحد من وقوع الجرائم ، ويحقق الأمن والاستقرار .

لم يخف من نتائج تطبيق الشريعة ، لأنه لايخاف هذه النتائج الا من نوى الظلم والفساد في الأرض ، والملك عبدالعزيز رجل عرف ـ من سيرته ـ بأنه محب للعدل مقيم له ، كاره للفساد مقاوم له .[٤٢]

عندما بدأ مرحلة التنظيم أعلن : «ان مصدر التشريع والاحكام لايكون الا من كتاب الله ، ومما جاء عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أو ما أقره علماء الاسلام الأعلام بطريق القياس ، أو اجمعوا عليه مما ليس

وكما منحه الله حسن الخلق فقد أحسن خلقه ؛ فهو طويل القامة ، مشرق المحيّا ، له عينان ناطقتان بالذكاء والعزم ، وله صوت رخيم مملوء بالثقة والقوة ، كما كان حاضر البديهة قويّ الاقناع .(٣٦)

* * *

* الأسس التي بنى عليها الملك عبدالعزيز المملكة العربية السعودية :

إن الأسس التي أشاد عليها الملك عبدالعزيز هذا الصرح الشامخ كثيرة ومتنوعة ، وكما سلف التنويه اننا محكمون بالوقت المقرر لإلقاء البحث واعداده فسيقتصر الحديث على ما أراه أقوى هذه الأسس وأبرزها وهي :

١- العقيدة الاسلامية :

المملكة العربية السعودية مهبط الوحي ، ومنبع الرسالة الاسلامية الخالدة ومهوى أفئدة الناس يأتون اليها من كل فج عميق لحج بيت الله الحرام وزيارة مسجد النبي ﷺ ، ومن هنا تحملت مسؤولية نشر الاسلام والدعوة اليه ، وخدمة الحرمين الشريفين .

لقد بلغ محمد رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، حتى أكمل الله به الدين ، وأتم به النعمة على المسلمين ، فترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك .

ورغم المحاولات التي بذلها أئمة المسلمين وقادتهم للحفاظ على كيان الأمة الاسلامية وتمسكها بدينها ومبادىء وحدتها ، فقد دبت فيها عوامل التفكك والضعف مما أطمع اعداءها فيها ، وتعرضت لحملات شرسة كالحروب الصليبية ، والغارات المغولية التي نشرت الفوضى والاباحية ، وقضت على جانب كبير من تراث الأمة ، وأضعفت ارتباط المسلمين بأصول منهجهم الرباني ، ثم جاء ضعف الدولة العثمانية ضغثا على ابالة ، فانتشر الجهل ، وفشت الأمية ، ووقعت الأمة الاسلامية تحت وطأة الجمود الفكري والتخلف العلمي ، وسيطرت البدع والخرافات على عقول الناس وأذهانهم ، وأصبحوا في حيرة من أمرهم التبس فيها الحق بالباطل ، حتى أذن الله بظهور الشيخ «محمد بن عبدالوهاب» معلنا دعوته ليطهر العقيدة الاسلامية مما شابها من أدران الشرك والبدع والخرفات ويعيد لها صفاءها ونقاءها ويعود بالاسلام الى ماكان عليه في عهد النبي ﷺ وأصحابه وصالح سلف هذه الأمة .

وكان أهم العوامل التي أسهمت في نجاح هذه الدعوة وانتشارها تأييد آل سعود لصاحبها الذين آمنوا بدعوته ، واقتنعوا بصحة ماتدعو اليه ، وجاهدوا في سبيل نشرها بين الناس حتى كتب الله لها النجاح ، وأستطاعوا•أن يوحدوا معظم أجزاء الجزيرة في دولة اسلامية واحدة تؤمن بالاسلام عقيدة وشريعة ونهجا للحياة .

ولذا نجد أن فترات الضعف التي مرت بها الدولة السعودية قد أثرت في مسار الدعوة ، وفقدت العنصر الاساسي في تماسكها والتزام الناس بها وهو قوة آل سعود وتأييدهم لها ، فعندما دمرت الدرعية عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م مرت البلاد بفترة ضياع واضطراب عانت فيه من الفوضى الأمنية والاجتماعية ، ومن انحراف الناس عن عقيدتهم وضعف التزامهم بأحكام الاسلام ، ومن العزوف عن العلم وتلقيه .(٣٧)

وفي أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر (١٩م) عصفت الفتن بالبلاد فأصيبت الدعوة ـ أثناء غياب الحكم السعودي ـ بنكسة كادت تطفىء نورها في النفوس ، وأهمل تدريس مبادئها وماكتبه امام الدعوة

في كتاب ولا سنة ، فلا يحل في هذه الديار غير ما احله الله ، ولا يحرم فيها غير ما حرمه» .[43]

وقد اتبع القول بالعمل فطبق الشريعة السمحاء بحذافيرها وليس في المقدور تتبع جميع مظاهر تطبيق الشريعة الاسلامية واستقصاؤها ، ولعل من المناسب الاكتفاء بنماذج تعد من أهمها وأبرزها :

● اقامة الصلاة جماعة ، وتفقد المتخلفين عنها ومعاقبتهم حسب الحال .
● جباية الزكاة وصرفها في مصارفها التى أمر الله بها .
● صيام شهر رمضان ، ومنع أي مظاهر تتناف مع طبيعة هذا الركن العظيم من اركان الاسلام .
● اداء فريضة الحج والزام الناس بها اذا كانوا مستطيعين .
● اقامة العدل ـ والعدل أساس الملك ـ وقد أنشأ لتحقيق ذلك المحاكم الشرعية وعين القضاة الأكفياء ، وفي ذلك يقول :

«لا كبير عندي الا الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا ضعيف عندي الا الظالم حتى آخذ الحق منه» .[44]

● الشورى : والشورى أصل من أصول الشريعة الاسلامية ، ولذا عنى الملك عبدالعزيز بهذا الأصل وأنشأ في عام ١٣٤٥هـ /١٩٢٦م مجلس الشورى وأدخلت على نظامه عدة تعديلات حسب مقتضيات الحاجة .[45]

كان الملك عبدالعزيز يطبق الشورى في المجلس العام ، وفي مجلس العلماء ، ويطبقها حين يجتمع برؤساء القبائل والعشائر ، ويطبقها حين يلتقى بمستشاريه ، ويطبقها باستدعاء القضاة والاداريين والعسكريين والاقتصاديين والسياسيين ومحاورتهم في تصريف أعمالهم ومهماتهم ، وكان ينوع الاساليب في تطبيق الشورى ؛ فأسلوب التشاور مع رؤساء القبائل والعشائر غير أسلوب التشاور مع ممثلي المملكة في الخارج .[46]

وحتى الأمور الادارية اليومية كان له مجلس استشاري خاص يضم أخاه الأمير عبدالله بن عبدالرحمن ، ومستشاريه ورئيس الديوان والشعبة السياسية ومساعديهم ويسمى هؤلاء (الجماعة أو الربع) وكانوا يجلسون متربعين بين يديه ، ويتشاورون فيما يحتاج الى مداولة ثم يقرر مايترجح له من الرأي .[47]

● تطبيق الحدود الشرعية مثل : القصاص في القتل ، وقطع يد السارق ، وحد قطاع الطريق ، وحد الزانى ، وحدود التعزيز وغير ذلك . وفي ذلك يقول : «وليس عندي في اقامة حدود الله هوادة ولايقبل فيها شفاعة ، فمن التزم حدود الله ولم يتعدها فأولئك من الأمنين ، ومن عصى وأعتدى فإنما اثمه على نفسه ، ولا يلومن الا نفسه» .[48]

وقد كان من ثمار تطبيق الحدود توطيد الأمن واستتبابه بشكل لم يسبق له نظير ، وعدّ من المفاخر التي سجلها التاريخ لهذه الدولة ، وكان موطن اعجاب الناس في جميع أنحاء العالم .

● الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : وقد عين لهذا الغرض هيئات من المحتسبين يأمرون الناس بالمعروف كالمحافظة على صلاة الجمع والجمعات ، والالتزام بآداب الاسلام في شؤون حياتهم الظاهره ، وينهونهم عن كل منكر يتناف مع أحكام الشريعة أو الآداب العامة ومنح هذه الهيئات سلطات مناسبة لردع المسيىء ، وحمل الناس على الحق .

٣ـ الحفاظ على الأمجاد :

قصة انهزام المسلمين وانكسارهم وتراجعهم ـ في التاريخ والواقع ـ هي ذاتها قصة التفريط في المجد ، وتضييع ما في اليد ، غفلة او ضعفا . لقد صنع الأولون امجادا عظيمة ، فخلف من بعدهم خلف عجزوا عن الحفاظ على ما تركه الأولون سواء كان ما تركه الأولون أرضا ، أم مهابة ، أم وحدة .[49]

ويروي بعض المؤرخين في هذا الموضوع أي «أبا عبدالله محمد بن علي بن نصر» أخر ملوك بني الأحمر في الاندلس اثناء خروجه من غرناطة وقف على «تل البذول» ينظر الى مدينة غرناطة ويجيل طرفه في تلك الربوع

التي ترعرع فيها ، وشهدت ارضها ومعالم حضارتها أيام مجده وسلطانه ، فانهمرت دموعه ، وأجهش بالبكاء فصاحت به امه : «أجل ، أبك كالنساء ، ملكا لم تحافظ عليه كالرجال» .

عندما بدأ الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ خطواته الأولى لتوحيد هذه البلاد كان نصب عينيه تاريخ حكم ضربت جذوره في أعماق التاريخ ، وأرث من المجد تمثل فيما حققه أسلافه من آل سعود من وحدة لهذه البلاد في ظل دولة تؤمن بالاسلام عقيدة وشريعة ومنهجا للحكم وتنشر العقيدة الاسلامية الصافية وتدافع عنها . لكن هذا الانجاز ضاع في زحمة التنافس والضعف والتفريط .

لذا كان من أهم أهدافه الأساسية استعادة هذه الامجاد والمحافظ علييها ، وقد عبر عن هذا المعنى بقوله : «كل أمة تريد أن تنهض لابد لكل فرد فيها أن يقوم بواجبات ثلاثة : أولها واجباته نحو الله والدين ، وثانيها واجباته في حفظ أمجاد اجداده وبلاده ، وثالثها واجباته نحو شرفه الشخصي» .[٥٠]

لقد أفنى الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ زهرة شبابه ، وسنيّ كهولته وأعوام رجولته حتى استطاع أن يستعيد هذه الأمجاد ويعمقها ويضيف اليها فبنى دولة قوية موحدة على أسس من العقيدة والشريعة توافرت لها كل مقومات الدولة العصرية الحديثة ، وتحقق لها من الرخاء والأمن والاستقرار ما أصبح مضرب الأمثال في العالم ، كما استطاع ان يعيد صياغة الواقع الذي تعامل معه دون اهدار لاصوله ومكوناته ، وأن يطور عناصره القادرة على العطاء والاستجابة ؛ لتواكب طموحاته ، وتلبي متطلبات الحياة الجديدة .

* * *

رحم الله الملك عبدالعزيز وغفر له فقد كان أنموذجا فريدا في شخصيته وفكره وعبقريته السياسية والعسكرية ، ونمطا متميزا في القيادة والحكم والادارة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

هـوامـــش

(١) تم القاء هذا البحث يوم الاربعاء ١٩٨٧/٤/١٥م الموافق ١٤٠٧/٨/١٧هـ مساءً الساعة ٨ر٣٠ بقاعة المحاضرات بكلية التجارة ـ جامعة القناة ـ الاسماعيلية ـ جمهورية مصر العربية .

(٢) ابن بشر : عنوان المجد ٨٠/٢ ؛ وابن عيسى : تاريخ بعض الحوادث ص ٤٥ .

(٣) حمد الجاسر : مدينة الرياض عبر اطوار التاريخ ، ص ٤١ .

(٤) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص ٣١٢ .

(٥) حجر اليمامة : بفتح الحاء وسكون الجيم ، مدينة قديمة قامت على أنقاضها مدينة الرياض (العاصمة) .

(٦) الخضرمة : بسكر الخاء وسكون الضاد وكسر الراء وفتح الميم مدينة قديمة يقع مكانها بلدان اليمامة والسلمية والسيح .

(٧) لمزيد من المعلومات عن الأخيضريين يرجى الاطلاع على «الدولة الأخيضرية» بحث لكاتبة نشر في «مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية» (العدد السادس) (١٣٩٦هـ /١٩٨٧٦م).

(٨) محمد بن عبدالقادر : تاريخ الاحساء ، ص ٩٨ ، ١٠٤ .

(٩) السمهودى : وفاء الوفاء ، ٢٢٨/٢ .

(١٠) عبدالعزيز الخويطر (الدكتور) : مقدمة تاريخ المنقور ص ٢٢ .

(١١) الخويطر : المرجع السابق ص ٢٣ .

(١٢) ابن بشر : عنوان المجد (النسخة المخطوطة) الورقة ٨ .

(١٣) ابن بشر : عنوان المجد (النسخة المخطوطة) الورقة ٨ .

(١٤) ابن بشر) ١٣٣/١ .

(١٥) الريحاني : تاريخ نجد وملحقاته ص ٥٨ ـ ٥٩ .

(١٦) ابن بشر : ص ١٧٢ و ١٨٣ .

(١٧) الجبرتي : عجائب الآثار ، ط بولاق / القاهرة ١٢٩٧هـ ٢٩٨/٤ .

(١٨) ابن بشرن : ٢/٥٢ .
(١٩) ابن عيسى : عقد الدرر ص ٤١ .
(٢٠) ابن عيسى : عقد الدرر ص ٥٩ - ٦٠ .
(٢١) عبدالله الشبل : مقدمة تاريخ ابن ربيعة ص ٥٠ .
(٢٢) خير الدين الزركلي : الوجيز ص ١٧ .
(٢٣) الزركلي : المرجه السابق ص ٢٠ .
(٢٤) عبدالله بن عبدالمحسن التركي (الدكتور) : الملك عبدالعزيز - المنهج القويم في الفكر والعمل ص ٣٦ .
(٢٥) منهم على سبيل المثال : فؤاد حمزه : البلاد العربية السعودية ط أم القرى ١٣٥٥هـ ص ٢٢ ؛ والزركلي : المرجع السابق ص ١٨١ .
(٢٦) فؤاد حمزه : المرجع السابق ص ٢٦ .
(٢٧) فهد المارك : من شيم الملك عبدالعزيز ، ط ١ عام ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م ٣/٧٠ .
(٢٨) حدثني بذلك والدي وكان ممن حضر هذا المجلس مرافقا لعمه - رحم الله الجميع - .
(٢٩) عبدالله العثيمين (الدكتور) : عوامل نجاح الملك عبدالعزيز في توحيد البلاد / محاضرة القاها في المؤتمر العالمي لتاريخ الملك عبدالعزيز ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م ص ٥ .
(٣٠) المارك) المرجع السابق ٢/١٢١ - ١٢٢ .
(٣١) محمد المانع : توحيد المملكة العربية السعودية (ترجمة د . عبدالله العثيمين) ص ٣٢٣ .
(٣٢) فؤاد حمزه : المرجع السابق ص ١٧ - ١٨ .
(٣٣) الريحاني : تاريخي نجد وملحقاته ص ١١٧ - ١١٨ .
(٣٤) الزركلي : الوجيز ص ٣٣٠ .
(٣٥) العثيمين : المحاضرة السابعة ص ٦ - ٧ .
(٣٦) العثيمين : المحاضرة السابقة ص ٨ .
(٣٧) ابن بشر : ١/٢١٤ - ٢١٥ .
(٣٨) الزركلي : المرجع السابق ص ٢١٦ .
(٣٩) الزركلي : المرجع السابع ص ٢١٦ .
(٤٠) سورة الأنبياء ، الآية رقم (٢٥) .

(٤١) الزركلي : المرجع السابق ص ٢١٦ .
(٤٢) التركي : المرجع السابق ص ٤٢ .
(٤٣) حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ، ط ٥ ، القاهرة ١٣٨٧هـ /١٩٦٧م ص ٢٧٠ - ٢٧١ ،
(٤٤) حافظ وهبه : المصدر السابق ص ٢٧١ .
(٤٥) فؤاد حمزه : البلاد العربية السعودية ص ٩٤ - ١٠٣ .
(٤٦) التركي : المرجع السابق ص ٧٨ .
(٤٧) الزركلي : الوجيز ص ٢١٠ و ٢١٨ .
(٤٨) حافظ وهبه) المصدر السابق ص ٢٧١ .
(٤٩) التركي : المرجع السابق ، ص ١٠٢ .
(٥٠) الزركلي : الوجيز ص ٧٨ .

بحوث التاريخ العربي الاسلامي

احمد بن عمر العذري
ودوره في كتابة التاريخ العربي والاسلامي في الاندلس

د. عبد الواحد ذنون طه
كلية التربية - جامعة الموصل

تمهيـــــد

عرف أحمد بن عمر بن انس العذري باهتمامه بعلم الحديث وباقراء امهات مصنفاته ، خاصة الصحيحين ، كما ذاع صيته ايضا إشتغاله بالتأليف في الجرافية وقد كتبت المستشرف الروسي كراتشكوفسكي(١) والدكتور حسين مؤنس عن اهتمام العذري بهذا العلم الأخير . وتطرق الدكتور مؤنس الى الملكة الجغرافيـــة عند العذري ، كما تناول بالدراسة والتحليل المادة الجغرافية التي وصلتنا في مؤلفات العذري .(٢) ولم يغفل الذين كتبوا عنه ايضا عن الاشارة الى المادة التاريخية التي وردت في مؤلفه ، وأهميتها في الكشف عن تاريخ الاندلس ، وازاحة بعض الغموض الذي كان يحيط بمعلوماتنا عن تاريخ الثغور الاندلسية في الشمال .(٣) ولكن لم يخصص حسب علمي ، أحد من الباحثين المحدثين دراسة خاصة مفصلة عن المادة التاريخية في كتاب العذري ، أو يتناول الجوانب التاريخية عند هذا الباحث العربي الشهير . وهذا هو هدف هذا البحث الذي يرمي الى الكشف عن دور العذري في كتابة التاريخ العربي الاسلامي في الاندلسي ، وأبراز الناحية التاريخية لديه ، وتبيان أهميتها في ضوء المعلومات المتوفرة لدينا في كتابه «ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى جميع الممالك» .

ولد العذري في اليوم الرابع من ذي القعدة سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م . وتفيو في آخر شعبان سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م ، وهو ينتسب الى قبيلة عذرة العربية التي استقرت في الاندلس بعد أن فتحها المسلمون . وكانت قرية دلاية Dalias التي تقع في محافظة المرية ALmeria الحالية في الجنوب الشرقي من اسبانيا ، من أهم مراكز استقرار هذه القبيلة(٤) . ويذكر العذري انه يرتفع بنسبه الى احد كبار المستقرين الأوائل في دلاية وهو زُغَبيه بن قطبه . فهو احمد بن عمر بن انس بن دلهاث بن ابي الخيار بن فلذان بن عمران بن منيب بن زغبيه ابن قطبه العذري(٥) . كما يعرف ايضا بابن الدلائي نسبة الى قرية دلاية(٦) . وقد ترجم للعذري كل من ابن بشكوال ، والحميدي ، والضبي ، وكذلك ياقوت في معجم البلدان في اثناء حديثه عن مدينة دلاية . ولاتكاد ترجمة الضبي تختلف عن ترجمة الحميدي الا قليلا لأن الأول نقلها عن الأخير(٧) . وتعد ترجمة ابن بشكوال أكثر تفصيلاً من بقية التراجم ، حيث يذكر أن العذري رحل مع ابويه الى المشرق سنة سبع واربع مئة هجرية ، وأقام بمكة ما يقارب تسع سنوات ، سمع فيها الحديث كثيراً من أهل الحجاز ، ومن جماعة من المحدثين من أهل العراق وخراسان والشام ، ولم يكن له بمصر سماع(٨) . ويذكر الحميدي(٩) ، أن العذري كتب في الحجاز قطعة كبيرة من المصنفات والتواريخ . ولا نعلم على وجه التحقيق ماهية هذه المنصفات ، أهي جزء من كتابه المعروف بترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، أم مادة أخرى ؟

وفي الأندلس عرف العذري برواية الحديث واقرائه وضبطه ، وكان موثوقاً لدى المهتمين بهذا العلم ، جليل القدر عالي الاسناد . وقد كتب الأحاديث عن عدد كبير من المحدثين ، من أشهرهم ابوعمر احمد بن محمد بن عفيف الذي كان له إلمام بالحديث والتاريخ[١٠] ، والقاضي يونس بن عبدالله بن محمد بن مغيث ، قاضي الجماعة بقرطبة ومن أعيان أهل العلم[١١] ، والمهلب بن احمد بن أسيد بن ابي صفرة من الفقهاء المحدثين بالاندلس[١٢] . وقد سمع منه ابوعمر يوسف بن عبدالبر النمري[١٣] ، وابومحمد علي بن سعيد بن حزم القرطبي[١٤] ، وابو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري[١٥] ، وجماعة آخرين من كبار الأعيان والشيوخ في عصره .

لقد أشارا الجغرافيون العرب القدماء من امثال ابي عبيد الكبري ، وابي عبدالله محمد الادريسي ، وياقوت الحموي الى اهتمام العذري بالجغرافية ، كما ذكر بعضهم كتابه «نظام المرجان في المسالك والممالك»[١٦] . لكن لم يتطرق غير هؤلاء ممن ترجم للعذري الى اهتمامه بالجغرافية والتاريخ ، أو التأليف فيهما ، بل كان التركيز ، كما رأينا ، على اهتمامه بعلم الحديث والسماع والرواية . وربما يعود السبب في ذلك ، كما يرى الدكتور حسين مؤنس الى ان الناس في ذلك الوقت كانوا لا يرون الاشتغال بالجغرافية وعلوم الأوائل والفلسفة مما يستحق الذكر بين أعمال العلماء ، لأن الاشتغال بذلك كان في رأي الكثيرين مضيعة للوقت فيما لاينفع[١٧] . ومما يؤيد هذا الأمر أن أحد الجغرافيين العرب ، وهو ابن عبدالمنعم الحميري ، اعتذر في مقدمة كتابه : «الروض المعطار في خبر الأقطار» عن اشتغاله بالجغرافية ، وعدّ ذلك من عمل العاطلين ومن لايهمه وقته[١٨] .

مؤلفات العذري :

رأينما فيما سبق اهتمام العذري بعلم الحديث ، ولكن ما ورد من اسماء مؤلفاته في هذا المجال لايشكل الا جزءاً يسيراً تغلب عليه الرواية . وقد ذكر ابن خير الاشبيلي أحد هذه الكتب وعو «افتضاض ابكار اوائل الأخبار»[١٩] . الذي يدل عنوانه على أنه كتاب في موضوع التاريخ ، لكنه ، وكما يفهم مما ذكره ابن خير ، كان عبارة عن مختارات منتقاة من كتب الحديث تتصل بالقضايا الفقهية التي ظهرت في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام[٢٠] . وللعذري كتاب آخر أشار اليه ياقوت عنوانه «اعلام النبوة»[٢١] . ولم يصلنا هذان الكتابان ، كما لم يصل الينا أيضاً إلا قطعة صغيرة من كتابه الجغرافي التاريخي «ترصيع الأخبار وتنويع الآثار...» لا تتجاوز عُشر الكتاب يدور معظم اخبارها عن الأندلس . وقد قام الدكتور عبدالعزيز الاهواني بتحقيق ونشر هذه القطعة الثمينة في مدريد عام ١٩٦٥ ، فاسدى بذلك خدمة تستحق الثناء والتقدير للدراسات الأندلسية .

مادة العذري التاريخية:

تعدّ المادة التارخية التي وصلت الينا في كتاب العذري المذكور في اعلاه عن الأندلس ذات قيمة عالية لأنها تسدّ نقصاً واضحاً في معرفتنا عن تاريخ هذه البلاد ، وبخاصة منطقة الثغر الأعلى . وقد وردت هذه المادة في اثناء الحديث عن كور الأندلس وجغرافيتها .

ومنطقة تدمير ، التي تقع في الجنوب الشرقي من اسبانيا الحالية . هي أول المناطق التي يبدأ العذري بالحديث عنها ، فيذكر فتحها ، ويتعرض الى الاتفاقية التي عقدها عبدالعزيز بن موسى بن نصير مع حاكمها تدمير Theodimer ثم يذكر عرضا الفتنة بين المضرية واليمانية في المنطقة . ويبحث أخيراً في ثوار (تدمير) بالتفصيل . وتعدّ معاهدة الصلح التي أوردها العذري بين المسلين والحاكم القوطي (تدمير) من أهم المواد التاريخية في هذا الجزء من الكتاب . فالعذري من المؤرخين القلائل الذين ذكروا هذه المعاهدة بالنص ، بل هو أقدم من أشار اليها من بين الكتاب العرب .

وقد ذكرها بعده أحمد بن يحيى الضبي في كتابه «بغية الملتمس»[٢٢] وكذلك ابن عبدالمنعم الحميري في كتابه «الروض المعطار»[٢٣] . وهناك اختلافات يسيرة بين نصوص المعاهدة حسبما ذكرت في هذه المصادر الثلاثة[٢٤] ، ولكنها على العموم تتفق في الروح والجوهر ، بل في كثير من الالفاظ . ولو أن نص العذري يتميز بذكر اسماء ثمانية من الشهود الذين وقعوا على الصلح . ان نص المعاهدة يعد من النصوص الفريدة بالنسبة للاتفاقيات التي عقدها العرب مع غير المسلمين في الشرق أو في الغرب ، وهو يدل دلالة قاطعة على مدى التسامح الذي تميز به المسلمون في معاملتهم للشعوب التي حرروها بالفتح ، وإليك نص المعاهدة كما جاء عند العذري :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبدالعزيز بن موسى لتدمير بن عَنْدَريس اذ نزل على الصلح ان له عهد الله وميثاقه وما بعث به انبياءه ورسله ، وان له ذمة الله عزّ وجل وذمة محمد ﷺ الاّ يقدم له والاّ يؤخر لأحد من أصحابه بسوء ، وان لا يُسبَون ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولايقتلون ولا تحرق كنائسهم ، ولا يكرهون على دينهم ، وان صلحهم على سبع مدائن : أورْيولة ، ومُولَة ، ولُورقة ، وبَلَنْتة ، ولقنْت ، وإيْهِ ، وألْش . وانه لا يدع حفظ العهد ، ولا يحل ما انعقد ويصحح الذي فرضناه عليه والزمناه امره ، ولا يكتمنا خبراً علمه وان عليه وعلى أصحابه غرم الجزية ، من ذلك على كل حر : دينار ، واربعة امداء من قمح واربعة امداء من شعير ، واربعة اقساط خل ، وقطأ عسل ، وقسط زيت وعلى كل عبد نصف هذا .

● شهد على ذلك : عثمن بن عبيدة القرشي وحبيب بن ابي عبيدة القرشي وسعدان بن عبدالله الربعي وسليمان بن قيس التجيبي ويحيى بن يعمر السهمي وبشر بن قيس اللخمي ويعيش بن عبدالله الازدي وابوعاصم الهزلي وكتب في رجب سنة أربع وتسعين»[٢٥] .

وبعد الحديث عن تدمير ينتقل العذري الى بلنسية Valencia وسرقطة Zaragoza فيتكلم عن الثوار في المدينة الأخيرة وتوابعها حسب التسلسل التاريخي منذ عهد الامارة الاموية . ويورد ما يقارب عشر صفحات عن بين قسي ودورهم في الثغر الأعلى وكذلك عن دور التجيبيين في تطور الأحداث في المنطقة الى الفترة المعاصرة في كل من سرقطة وقلعة ايوب Calatayud ودورقة Daroca ووشقة Huesca وغيرها من مناطق الثغر الأعلى . ومعلومات العذري عن إعادة بناء مسجد سرقسطة في عهد الطوائف طريفة جدا ، وبشكل خاص وصفه لمحاولة المسلمين الابقاء على المحراب القديم ومحاولة تثبيته في البناء الجديد . وهذه المعلومات تتشابه الى حد كبير مع ما أورده المؤرخ احمد بن ابي الفياض عن هذا الأمر ، وان كان الأخير قد فصل اكثر في سرده للحادث[٢٦] وكذلك فان معلوماته عن فتح وشقة فريدة في نوعها وقد نقلها الحميري بالنص تقريبا[٢٧] . وتفيد هذه المعلومات في الاطلاع على بعض الأساليب التي اتبعها العرب في الفتح . ونَفَسِهم الطويل في تحقيق ضم المدن الى حظيرة الاسلام دون الاعتداء على حقوق اهالي البلاد الأصليين . فقد امتنعوا عن دخول المدينة ضد ارادة اهلها وسمحوا لأهلها بوقت كاف استمر نحو سبع سنوات اقتنع خلاله سكان المدينة بضرورة التعاون السلمي مع الفاتحين ، سواء بالانضمام الى الاسلام أو البقاء على الديانة المسيحية ، واليك نص العذري :

«قال احمد بن عمر : ولما دخل المسلمون الاندلس وتقدموا الى الثغر الاعلى احتل بعض العرب بوشقة . واضطربوا عليها ، ونزلوا فيها بموضع يعرف اليوم بالعسكر ، نسب اليهم انزلوهم فيه ، فحصروا وشقة ، وأهلها نصارى ، وبنوا عليها المساكن ، وغرسوا الكروم ، وحرثوا لمعاشهم ، واتصل ذلك من فعلهم سبعة أعوام ، وأهل وشقة في القصبة القديمة محصورين ، فلما ضاقت لذلك حالهم نزلوا الى هؤلاء العرب مستأمنين لأنفسهم وذراريهم وأموالهم . فمن دخل في الاسلام ملك نفسه وماله وحرمته ، ومن أقام على النصرانية أدى الجزية . فليس اليوم بوشقة عربي صحيح ينتمي من العرب الى اصل صحيح غير من اعتزى الى نسب من أسلم على يديه من العرب»[٢٨] .

ويذكر العذري ايضا معلومات تاريخية عن المنتزين بوشقه وما يجاورها من امثال بني سامة ، وبهلول بن مرزوق ، وخلف بن راشد . وينفرد العذري بمعلوماته عن الأخير حيث لم يرد له ذكر في بقية المصادر التي تؤرخ لهذه الفترة ، خاصة «البيان المغرب» لابن عذاري[٢٩] .

وينتقل العذري بعد انتهاء كلامه على الثغر الأعلى الى تعديد بعض غزوات الحاجب المنصور محمد ابن ابي عامر الى اراضي دول اسبانيا النصرانية ، فيذكر خمساً وعشرين غزوة ، ويورد لكل واحدة منها التاريخ الهجري والميلادي المقابل لقيامها ، وموعد رجوعه منها ، والمدة التي استغرقتها الغزوة ، وقد ضاعت مع الأسف بعض أوراق المخطوطة التي تتضمن حديث العذري عن بقية غزوات الحاجب المنصور . وهناك نقص ايضا في حديث المؤلف عن كورة البيرة Elvira. أما ما بقي من مادة تاريخية ، فهي مكرسة عن الاحداث التي وقعت في البيرة والمرية منذ سنة ٣٢٠هـ /٩٣٢م الى عهد العذري . وهذه المادة بطبيعة الحال من أهم مواد الكتاب ، لأن العذري عاصرها وهي تتعلق بتاريخ مدينته التي عاش فيها .

وتتضمن مادة العذري عن اشبيليه Sevilla الحديث عن أولية المدينة وتاريخها قبل الاسلام ، ثم عن المجوس أو النورمانديين الذين هاجموا منطقة اشبيلية سنة ٢٢٩هـ /٨٤٣م . وبعد ذلك يبدأ الكلام عن الثوار في كل من اشبيلية ، وقرمونة Carmona حسب التسلسل التاريخي منذ عهد الامير الاموي عبدالرحمن الأول (١٣٨ ـ ١٧٢هـ /٧٥٦ ـ ٧٨٨م) .

وهناك ايضا استعراض لتاريخ اشبيلية ، في عهد بني حجاج ، وكذلك عن قيام بني عباد وتوسع نفوذهم في اشبيلية واطرافها حسب السنين حتى وفاة المعتضد بن عباد سنة ٤٦١هـ /١٠٦٨م .

ولا يوجد الا خبر واحد عن الثوار في نبلة Niebla في اوراق المخطوط . ولكن هناك اخبار اخرى عن الثوار في كورتي شذونه Sidonia والجزيرة الخضراء Algfeciras وظهور النورمانديين في المنطقة الاخيرة سنة ٢٤٥هـ /٨٥٩م . ثم يبدأ المؤلف في الحديث عن قرطبة Cordoba ، فيذكر باقتضاب عدد الولاة بالاندلس ، ثم يتطرق الى جباية البلاد ، ومسافة ما يملكه المسلمون منها ، ومعلومات اخرى عن قرطبة تدخل في باب الجغرافية .

واخيرا فان مادة العذري التاريخية تتميز بشكل عام بتوفر معلومات قيمة جدا عن استقرار العرب والبربر في الاندلس ، ومما يزيد في قيمة هذه المعلومات أن قسما منها لم يرد في بقية المصادر بالتفصيل الذي ذكره العذري . مثال ذلك حديثه عن عامر بن ابي جوشن بن ذي النون بن سليمان بن طويل بن الهيثم بن اسماعيل بن السمح الهواري ونزوله في شنتبريه Santaver مع أهله وبني عمه ، ثم ظهوره في الفتنة حيث لم يرد لهذه التفاصيل ذكر في مقتبس ابن حيان ، او عند ابن عذاري ، وقد اكتفى الاخير بالاشارة اليه اشارة عابرة فقط[٣٠] . وكذلك فقد ذكر العذري معلومات مفيدة جدا عن استقرار القائد عبدالجابر بن نذير في الاندلس . وهو الذي نزل اولا في الجانب الغربي من قرطبة حيث نسب اليه احد ابوابها المسمى بباب عبدالجبار ، ثم انتقل الى منطقة تدمير في شرق الاندلس ، وقد تحدث العذري عن انتقاله ومصاهرته لتدمير Theodimer ، حاكم المنطقة القوطي السابق ، وأورد تفصيلات طريفة عن هذا الامر ، منها ذكر ما نحله تدمير لابنته بمناسبة هذا الزواج ، وهو قريتين في المنطقة . كما استعرض احفاد عبدالجبار الذين استقروا وتكاثروا في جنوب شرق الاندلس . وهذه ايضا معلومات قيمة لم ترد بمثل هذا التفصيل في بقية المصادر الاخرى[٣١] .

ولا ننسىٰ في هذا المجال معلومات العذري المفيدة التي أوردها عن استقرار قبيلة عذرة العربية في الاندلس ، والتي اسلفنا الاشارة اليها في أثناء الحديث عن أصل العذري ونسبه .

مصادر مادة العذري التاريخية :

يعتمد العذري في اخباره التارخية جملة مصادر تختلف باختلاف المادة التي يؤرخ لها ، والعصر الذي يكتب عنه . فحين يتحدث عن التاريخ القديم للاندلس وبسرد الاحداث التي وقعت قبل دخول الاسلام الى البلاد يعتمد كتبا أرخت لهذه الأخبار القدمية . وهو ينص صراحة على أخذه من هذه الكتب ، فيقول في حديثه عن تاريخ اشبيلية الأول مثلاً :

«ويذكر في بعض الكتب المؤرخة للأخبار القديمة أن اشبان بن طيطش ...»[٣٢] . ويبدو أن أهم هذه الكتب القديمة التي اعتمدها العذري هي كتاب التاريخ لهروشيش Orosio[٣٣] . الذي ترجمه قاسم بن اصبغ البياني بالاشتراك مع الوليد بن الخيزران قاضي النصاري في قرطبة للحكم المستنصر عندما كان وليا للعهد[٣٤] .

وعلى الأرجح فان العذري استفاد من هذه الترجمة التي كانت معروفة في الأندلس ، أو أنه نقل منها عن طريق احمد بن محمد الرازي (ت ٣٤٤هـ / ٩٥٥م) الذي استخدم كتاب هروشيش ، واستفاد منه في وضع مقدمة جغرافية لتاريخه عن الأندلس[٣٥] . وتشير شروحات العذري لتفاسير اسماء المدن التي يتحدث عنها وعن اصولها الى اعتماده على هذا الكتاب . من ذلك مثلاً حين يتحدث عن سرقسطة يقول ان تفسير أسمها باللسان اللاتيني هو «جَاجَرْ أغشْتا ، وهو مشتق من اسم قيصر أوغسطوس وهو الذي بناها ...»[٣٦] . واسم المدينة باللغة اللاتينية هو Caesarea Augusta ويقابل الفظ «جاجر» كلمة Cesar . وقد ورد ذلك في الترجمة العربية لتاريخ هوشيش[٣٧] . ويذكر العذري ايضا ان تفسير لورقة Lorca باللاتيني هو الدرع الحصين[٣٨] . وتفسير أوريوله Orihuela الذهبية[٣٩] .

ومن الكتب القديمة الأخرى التي اعتمدها العذري ، كتاب سان أزيدور الاشبيلي St.Isidore of Seville عن تاريخ القوط والوندال والسويف . وقد ذكر العذري هذا المؤلف باسم اشيذر . ووصفه بأنه كان عالما بعلم الكتاب[٤٠] . وكلام العذري عن القوط يكاد يتفوق تماماً ما جاء من حقائق تاريخية في كتاب سان ازيدور الاشبيلي . وللتدليل على هذا القول نورد بعض النصوص المتعلقة بتاريخ القوط التي أوردها العذري ، ثم نذكر ترجمة المادة المتعلقة بهذه النصوص كما جاءت في كتاب سان ازيدور .

يقول العذري:

«وولي القوط طُوذْشكلس (Theudiclus) وكان عاهرا شديد البسط الى الخلق . وقتل كثيرا من خيار أهل الاندلس . وكان مستقره بمدينة اشبيليه فبينما هو في لذته ومنادمته اغتاله أحدهم فقتله[٤١] .

«ثم ولى للقوط أثله (Agila) . وهو الذي خرج من مدينة طليطلة غازيا الى قرطبة ، وأقام الحرب عليهما ، وانهزم عنها ، وقتل ولده بها ، وأصيب امواله . ثم خرج من قرطبة منهزما الى مدينة مارده مغلولا وثار عليه من مدينة اشبيلة عامل له يعرف باطنجلد (Athanagild) وادخل مع نفسه أهل قرطبة ، وخاطب ملك روما يسأله تقويته على محاربة أثلة . فبعث اليه بخيل وقوة . وتقدم اطنجلد مع خيل صاحب روما ، واحتل بماردة على أثلة . وحاربه بها وحاصره فيها حتى ضج أهل مادرة من الحصار ، فغاوروه حتى قتلوه واخرجوا الى اطنجلد رأسه»[٤٢] .

رواية سان أزيدور الاشبيلي :

● الفقرة (٤٤):

«... وبعد مقتل Theudis أصبح ملكاً على القوط Theudiclus ، وحكم لمدة سنة . ولأنه دنس زواج الكثير من الرجال ذوي النفود عن طريق اشاعة البغاء ، فقد رغب العديد من الناس في موته . ولقد أطيح به من قبل مجموعة من المتآمرين ، وقتل بطعنة سيف في اشبيليه في اثناء حضوره لاحدى الحفلات»[٤٣] .

● الفقرة (٤٥):

«وبعد موت Theudiclus عين Agila ملكاً وحكم خمس سنوات . وقد شن حربا على مدينة قرطبة . لكنه ابتلي بالانتقام نتيجة لهذه الحروب ، وفقد ولده هناك الذي قتل مع قسم كبير من جيشه ، كما فقد جميع كنوزه الشهيرة بالغنى» .

● الفقرة (٤٦):
«أما هو فقد هُزم واضطر الى الفرار خائفا ذليلا الى ماردة ، وبعد مرور فترة من الزمن حاول Athanagild تولي السلطة ومقاومة الاستبداد ومعارضة Agila ، وبعد أن استطاع Athanagild أن يسحق بقوته العسكرية جيش أخيلا الذي ارسل ضده من اشبيلية ، رأي القوط ، أنهم قد ابتلوا بدمار مشترك ، ومما زاد في خوفهم ايضا احتمال غزو الرومان لاسبانيا تحت ستار المساعدة فقتلوا Agila في ماردة واستسلموا لحكم Athanagild»[٤٤] .

وتختلف المصادر التي استقى منها العذري اخباره عن الاحداث التي وقعت بعد دخول المسلمين الى الأندلس ، وذلك حسب طبيعة هذه الأحداث والفترات التي وقعت فيها ، فبالنسبة الى الأحداث التاريخية التي سبقته ، كان معظم اعتماده على مؤرخين ثقاة لهم باع طويل في كتابة تاريخ الاندلس ، من أمثال احمد بن محمد الرازي ، وابنه عيسى الرازي . ولكنه لا يشير اليهما الا في مناسبات قليلة[٤٥] بل يكتفي أحياناً بذكر اسمه فقط ، فيقول : «قال احمد بن عمر ...»[٤٦] . أو «ذكر أهل التواريخ لأهل الأندلس»[٤٧] . وتكون مصادره في بعض المناسبات غامضة لا يمكن الاهتداء اليها ، لكنها تعتمد على الاتصال المباشر بالناس والنقل الشفوي فيذكر على سبيل العبارات الآتية : «واخبرني جماعة ...»[٤٨] ، أو «حدثني بهذه القصة جماعة من حذاق الناس»[٤٩] ، أو «حدثني بذلك جماعة من أهل سرقسطة»[٥٠] .

ويشير العذري أيضا الى اخذه المعلومات مباشرة من اشخاص يذكر اسماءهم أو ان الخبر وصله عنهم عن طريق جماعات أخرى لا يذكرها بالاسم . فبالنسبة للأمر الأول نرى العذري يقول : «أخبرني الحكيم عبدالملك قال ...»[٥١] . ولا نعرف من هو الحكيم عبدالملك أو لماذا لقب بهذا اللقب . وبالنسبة للأمر الثاني يذكر العذري أخباراً أخرى تتعلق باستقرار بعض احفاد الصحابي المعروف سعد بن عبادة في سرقسطة ، لابد أنها وصلته عن طريق الرواية الشفوية التي نقلت عن محدّث معروف هو محمد بن وضّاح بن بزيغ المتوفي سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩م .

وهناك خبر آخر نقله العذري عما أخبر به ابراهيم بن يعقوب الاسرائيلي الطرطوشي ، يتعلق ببعض المراسلات بين أحد الملوك الأوروبيين والناصر لدين الله بشأن طلب الأول نقل رفات أحد القديسين المسيحيين الى بلاده .[٥٢]

ويوضح العذري كيفية حصوله على بعض الأخبار بالتفصيل وذلك عن طريق التحقيق الشخصي والاستقصاء من العارفين ببواطن الأمور ممن عاصروه . من ذلك مثلاً سؤاله لقاضي سرقسطة ابي عبدالله محمد بن فورتش عن قبرين يقال انهما كانا يعودان لأثنين من التابعين دخلا مع موسى بن نصير الى الأندلس .[٥٤] وكذلك روايته لخبر مؤامرة دبرها بعض أهالي لورقة على عبدالرحمن بن عبدالله بن وضاح ، المتسلط على المدينة ، لتسليمها الى الخليفة الناصر لدين الله ، وكيف ان ابن وضاح استطاع ان يطلع على تلك المؤامرة ، ويعاقب القائمين بها ، يقول العذري : «ولقد سألت الوزير ابا عثمان سعيد بن بشتغير عن ذلك ، فأراني عقداً تضمن هذه القصة فيه شهادة مشاهير مرسية وثقاتها»[٥٥] . وهكذا نجد العذري يحاول التأكد من الخبر وضبطه ، وذلك عن طريق استشارة من لهم صلة بالأمر من أمثال ابي عثمان سعيد بن بشتغير ، الذي كان من وجوه أهل مدينة لورقة وأعلامها[٥٦] .

منهج العذري في كتابة التاريخ:

يتبين من النصوص التي بين ايدينا ان كتاب العذري ما هو في الواقع إلا كتاب تاريخ وجغرافية في آن واحد . فالعذري يمزج التاريخ بالجغرافية على عادة المؤلفين الأندلسيين الذي ساروا على نهج احمد بن محمد

الرازي الذي كان أول من وضع هذه القاعدة ، فسار عليها مؤرخو الأندلس بعد ذلك[٥٧] . ومن هؤلاء المؤرخين أحد المعاصرين للعذري ، وهو ابن ابي الفياض المتوفي عام ٤٥٩هـ /١٠٦٦م . فقد عاش الاثنان في عصر واحد تقريبا ، وسكنا المدينة ذاتها أي المرية ، ولابد أنهما قد التقيا وأثر كل منهما بالآخر خاصة في اتجاههما نحو التاريخ والجغرافيا»[٥٨] .

ان طريقة العذري في تأليف الكتاب تتلخص بذكر المعلومات الجغرافية عن كل موضوع ، ثم سرد تفاصيل الأخبار التاريخية المتعلقة بذلك المكان منذ الفتح ، وأحياناً منذ عهد القوط والعهود التي سبقتهم الى الزمان الذي عاش فيه هو . ولكنه يسير أحياناً في كتابه التاريخ وفق السنوات ، خاصة في ذكر الحادثة الواحدة ، فيلاحق تطورها في عهود الامراء المتتابعين . من ذلك مثلاً حين يشير الى تمرد محمد بن لب سنة ٢٥٨هـ /٨٧١م ، يستمر في سرد غزوات الأمير محمد بن عبدالرحمن عليه في السنوات التالية ، ثم يشرح تطور الأمور في عهد ابني الأمير محمد ، المنذر وعبدالله[٥٩] .

ويراعي العذري التسلسل الزمني في ذكر الأحداث ، فحينما يتحدث عن كورة تدمير على سبيل المثال يذكر اسمها وفتحها ومعاهدة الصلح مع حاكمها ، ثم يذكر عرضا الفتنة بين المضرية واليمانية وبعد انتهاء كلامه عن جغرافية تدمير ، يبحث في ثوارها بالتفصيل أيضا حسب التسلسل الزمني ، فيبدأ بعبدالرحمن بن ابي عبيد بن عقبة بن نافع ، المعروف بالصقلبي ، الذي ثار في زمن الأمير عبدالرحمن الداخل سنة ١٦٣هـ /٧٧٩م[٦٠] ثم يستمر في ذكر الثوار والفتن في تدمير ومرسيه ، والظروف التي رافقت تلك الأحداث حتى عام ٤٧٢هـ /١٠٧٩م ، أي قبيل وفاته بنحو ستة سنوات[٦١] .

وفي اثناء السرد التاريخي لا ينسىٰ العذري أن يسجل الكوارث الطبيعية التي حلت بالبلد الذي يؤرخ له ، من ذلك مثلا الزلازل التي ضربت منطقة تدمير واوريولة بعد سنة ٤٤٠هـ /١٠٤٨م ، وما اعقب ذلك من نتائج مؤسفة وخسارة في الممتلكات والأنفس[٦٢]. وللعذري ايضا نظرات في المجتمع الذي يؤرخ له ، فهو لا يهمل المسائل الاجتماعية بل يهتم بها ، ويعطي انطباعه عن المدينة وأهلها ، فيصف أهل بلنسية مثلاً بقلة الهم فيقول :

«... لا تكاد ترىٰ فيها أحداً من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهم ، مليئاً كان أو فقيراً ، قد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحات والفُرج ، ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شيء من الا وقد اتخذ عند نفسه مُغنية وأكثر من ذلك ، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغاني . يقولون «عند فلان عودان وثلاثة واربعة وأكثر من ذلك» . وقد اخبرت ان مغنية بلغت في بلنسية أكثر من ألف مثقال طيبة ، واما دون الألف فكثيرات ...»[٦٣].

وربما كان في كلام العذري بعض المبالغة في اظهار هذا الجانب ، فلأهل بنلسية ، بطبيعة الحال ، اهتماماتهم الأخرى التي تشمل نواح عديدة من حياة المدينة العلمية والفكرية والفنية[٦٤].

والعذري ، كمعظم مؤلفي القرون الوسطى ، يتلزم في معظم الأحيان جانب الحكام فنراه يميل الى الأسرة الأموية التي حكمت الأندلس ، بل ينظر اليها نظرة فيها نوع من التقدير لأن الأمير هو حامي المسلمين وهو الامام الشرعي . ولهذا نراه يستعمل لقب «الامام» حين يذكر اسم معظم الأمراء الأمويين تقريبا[٦٥] ويشاطره في هذا الاتجاه من المعاصرين له ابن حزم القرطبي الذي كان يميل الى الأمويين ، ويعتقد بصحة إمامتهم[٦٦]. ويبدو ان السبب في هذا يعود الى ظروف العصر الذي كان يعيش فيه هؤلاء المؤرخون ، حيث حلّت النكبات والكوارث بالأندلس بعد سقوط الدولة الأموية والخلافة في قرطبة سنة ٤٢٢هـ /١٠٣١م وما أعقب ذلك من اضطراب وانعدام الأمن ، مما دفع هؤلاء الى النظر الى الوراء بعين التقدير واعتبار عهد الأمويين في الأندلس من العهود الزاهرة التي حققت وحدة المسلمين وجمعت كلمتهم تحت راية إمام واحد ، وهو الأمير الأموي .

ويتميز العذري بالدقة في ذكر التواريخ ، حتى انه يذكر الحادثة أحياناً باليوم والشهر والسنة . ويستعمل التاريخ الهجري عادة ، لكنه يقرن في بعض الحالات التواريخ الميلادية مع التواريخ الهجرية . ويكون

استعماله للتاريخ الميلادي مضبوطاً ، فعلى سبيل المثال حين يتحدث عن تمرد اسماعيل بن موسى بن فرتون بن قسي في الثغر الأعلى يقول :

«ثم ترددت الصوائف على اسماعيل بن موسى بمدينة سرقسطة ، غزته بها صائفة سنة خمس وستين ومائتين ، فاحتلت بموضع يعرف بالكنيسة يوم الخميس لأربع أيام ماضية من يُونْيُهْ الكائن في شوال ، وقوتل ذلك اليوم ، ثم خطرت الصائفة بسرقسطة يوم الاثنين لثمانية ماضية ليُونيُهِ ، ونزل الجيش خلف الصد فوريش فافسد الزروع واحرقها بقرى شلون اثنا عشر يوما . ثم انتقل الجيش من شلون الى بُرْجَه يوم الجمعة لسبعة عشر يوماً ماضية ليونيه فاكتسحت بُرْجَه وطرسونه واسكانية . ثم احتل العسكر بتطيلة يوم الجمعة لثلاثة أيام باقية ليونيه الكائن في ذي القعدة»[٦٧].

وحساب العذري هنا صحيح لأن حزيران أو يونيه سنة ٨٧٩م يقابل بالفعل شوال وذي القعدة من سنة ٢٦٥هـ[٦٨].

أما الأسلوب الذي استخدمه العذري في الكتابة فهو اسلوب جميل يتميز بعبارات موجزة ، لكن فيها حبك وطراوة ، وهي تعطي للحادثة التاريخية مغزاها بحيث يتمكن القارىء من فهمها بسهولة ويسر . ومع هذا فلا يخلو الكتاب من بعض الأخطاء اللغوية والنحوية ، خاصة في ذكر الأعداد ، والتأنيث والتذكير ، وحروف الجر[٦٩]، فيقول على سبيل المثال : «فزوجة عبدالله بن خلف من ابنته سيدة فولد له منها ولداً سماه محمداً...»[٧٠] كما يذكر في مكان آخر «ثم تمادى الحرب»[٧١] ويستخدم العذرى ، كذلك عبارات غريبة فيقول مثلاً :

«استفلك له جميع الموضع»[٧٢] و «استفلك له الرياسة»[٧٣]. يقصد سيطر على الموضوع ، واستقر له الحكم ، أو يقول «فكفحهم وفرقهم فلم يعودوا ...»[٧٤]. ومن تعابيره الأخرى التي تصف الولاء الأسمي لبعض الزعماء المتنفذين في الثغر الأعلى للأمير الأموي قوله كان «على طاعة»[٧٥]، فهو لم يعرّف الطاعة بل جعلها فكرة ليشير الى تذبذبها وزيفها . واستخدم كلمة «نازل» في وصف استقرار شخص ما في منطقة من مناطق الأندلس ، فيقول مثلاً ان فلان «من نازل سرقسطة»[٧٦] ، أي أنه استقر فيها بعد الفتح . كما استخدم كلمة الاستيطان أيضا لهذا الغرض فيقول عن مطروح بن سليمان انه كان «مستوطناً في بسيط سرقسطة»[٧٧] . وللعذي تعبير طريف في وصف التمتع بالملاهي والملذات ، فيقول عن بعض تجار بلنسية مثلاً انهم استعملوا «أسباب الراحات والفَرَج» اشارة الى اقتنائهم للمغنيات وكثرة سماعهم للأغاني»[٧٨].

ويخلو كتاب العذري من الشعر باستثناء قصيدة واحدة وجدت في صفحة مستقلة[٧٩]، وهي عن مدح الخليفة الناصر لدين الله .

ولا يُعرف صلة هذه القصيدة بما قبلها أو بعدها ، لكنها ، كما يقول المحقق ، من خط المخطوط نفسه وحجم الورق[٨٠]. ويغلب الظن أنها ليست من نظم العذري ويؤيد هذا القول خلو الكتاب من الشعر وانعدام الصلة بين القصيدة ومادة الكتاب .

الهوامش

(١) اغناطيوس يولبا نوفتش كراتشكوفسكي ، تاريخي اودب الجغرافي العربي ، ترجمة : صلاح الدين عثمان هاشم ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ٢٧٣/١ - ٢٧٤ .

(٢) حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ، ١٩٦٧ ص ٨١ - ٩٦ .

(٣) انظر مقدمة الدكتور عبدالعزيز الاهواني الذي نشر قطعة من كتاب العذري بعنوان نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى جميع الممالك ، مدردي ١٩٦٥ .

(٤) انظر : ابرن حزم ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٥٠ .
A. D. Taha, Muslim Conquest and settlement of North Aftica and s-ain, Unpublished Ph. D. thesis, University of Extere, 1978, P.213.
وقدم ترجم الكتاب الى اللغة العربية ، عبدالواحد ذنون طه ، الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والأندلس ، بغداد - ميلانو ، ١٩٨٢ ص ٢٣١ .
(٥) العذري ، نصوص عن الأندلس ، ص ٩٠ - ٩٢ .
(٦) ابن بشكوال ، الصلة ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ٦٦/١ .
(٧) انظر : الحميدي ، جذوة المقتبس ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، رقم ٢٣٦ ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .
(٨) ابن بشكوال : ٦٦/١ - ٧٧ ، رقم (٤١)؛ وانظر : ياقوت ، معجم البلدان مادة دلاية ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ٤١٠/٢ .
(٩) جذوة المقتبس ، ص ١٣٨
(١٠) انظر ترجمته عند ابن بشكوال : ٣٨/١ رقم (٧٥) ، الضبي رقم (٣٣٤)، ص ١٥٠ - ١٥١ .
(١١) انظر ترجمته عند الحميدي ، رقم (٩١٠) ، ص ٣٨٤ - ٨٥ ، الضبي رقم (١٤٩٨) ، ص ٤٩٨ .
(١٢) انظر ترجمته عند الحميدي ، رقم (٨٢٧) ص ٣٥٢ .
(١٣) انظر ترجمته عند الحميد ، رقم (٨٧٥) ، ص ٣٦٩ ، ابن بشكوال : ٦٧٧/٢ - ٦٧٩ ، رقم (١٥٠١) .
(١٤) انظر ترجمته عند الحميد ، رقم (٧٠٨) ، ص ٣٠٨ - ٣١١ ، الضبي ، رقم (١٢٠٤) ، ص ٤٠٣ .
(١٥) انظر ترجمته عند ابن بشكوال : ٢٨٧/١ ، رقم (٦٣٣) .
(١٦) راجع : الادريسي ، نزهه ، المشتاق في اختراق الآفاق ، طبعة روما ، ص ٥ . ياقوت ، معجم البلدان : ٢٦٠/٢ ، وقارن :
F. Pons Boigues, 800–1450 A.D., Amsterdem 1972, rerint of Madrid edition, 1898, P. 158-159.
(١٧) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس ، ص ٥٣٢ .

(١٨) الروض المعطار ، تحقيق : احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٥ ص ١-٢ .
(١٩) فهرسة ابن خير ، منشورات دار الآفاق عن الطبعة الأوروبية التي نشرها خليان رايبرا في سرقسطة ١٨٩٣ ، ص ٢٢٢ .
(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٤٧٣ ، وانظر ايضاً : مقدمة الاهواني ، ص د - هـ .
(٢١) ياقوت : ٤٦٠/٢ .
(٢٢) طبعة مدريد ، ص ٢٥٩ .
(٢٣) طبعة احسان عباس ، ص ١٣٣ - ١٣٥ ، وطبعة بروفنسال ، ص ٦٢ ، الترجمة الفرنسية ص ٧٩ .
(٢٤) عن الاختلافات بشأن نصوص المعاهدة انظر : هوامش الاهواني ص ١٣٣ - ١٣٥ .
(٢٥) العذري ، ص ٤ - ٥ .
(٢٦) قارن : المصدر نفسه ، ص ٢٣ ، عبدالواحد ذنون طه ، نص اندلسي من تاريخ ابن ابي الفياض ، مجلة المجمع العلمي العراقي . الجزء الأول ، المجلد الرابع والثلاثون ، بغداد ، ١٩٨٣ ، ص ١٨١ .
(٢٧) الروض المعطار ، طبعة احسان عباس ، ص ٦١٢ ، وطبعة بروفنسال ، ص ١٩٥ .
(٢٨) العذري ، ص ٥٦ - ٥٧ .
(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٦٠ - ٦١ .
(٣٠ البيان المغرب ، نشر : كولان وليفي بروفنسال ، ليدن ، ١٩٤٨ ، اعادت نشره دار الثقافة بيروت : ١٨٦/٢ .
(٣١) انظر : العذري ، ص ١٥ - ١٦ ، وقارن : ابن حيان ، المقتبس ، نشر : ملتشور انطونيا ، باريس ، ١٩٣٧ ، ص ٣٨ ، ابن الابار ، الحلة السيراء ، تحقيق : حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ : ٣٠٨/٢ ، ٣١١ ،
(٣٣) هروشيش او كما يسمى ايضا باولوس أو روسيوس Paulus Horosius مؤرخ اسباني عاش في القرنين الرابع والخامس للميلاد وكتابه المؤلف باللاتينية Historica adversus paganos كان ضمن ما أرسله ملك القسطنطينية البيزنطي ارمانيوس Romanos سنة ٣١٧هـ /٩٤٨م الى الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر . ويوجد في مكتبة جامعة كولومبيا نسخة وحيدة من الترجمة العربية لكتاب هروشيش تحت رقم (X, 893. 712H)

(٣٤) راجع مقدمة كتاب ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد السيد، القاهرة، ١٩٥٥، ص كط - لج، حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس، ص ٣٠ - ٣١ ومقالة:
G. Levi Dell Vida, Talraduzione Arbe Storie di Orosio, AL-ANDALUS, X IX, 1954 Fasc, 2, P.P. 257-265
(٣٥) قارن: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٥٤ - ٥٥؛ عبدالواحد ذنون طه «نشأة التدوين التاريخي في الاندلس، دراسة تطبيقة عن احمد بن محمد بن موسى الرازي» مجلس دراسات، الجامعة الأردنية، م ٧، العدد ١، حزيران، ١٩٨٠، ص ٨١.
(٣٦) العذري، ص ٢١.
(٣٧) انظر تعليق الاهواني، ص ١٤٨.
(٣٨) العذري، ص ١
(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٠
(٤٠) المصدر نفسه، ص ٩٨. وكان سان ازيدور من كبار العلماء في العصور الوسطى، ولد سنة ٥٠٦م، وخلف اخيه الأكبر ليندر Leander على اسقفية اشبيليه وظل في هذا المنصب حتى وفاته في ٤ نيسان ٦٣٦م، واضافة الى كتابه الانف الذكر الذي ينقل منه العذري، كان لسان ازيدور مؤلفات اخرى منها الحولية الكبيرة Chronica Maiora وهي حولية عالمية تبدأ بخلق العالم وتنتهي بسنة ٦١٥م. انظر مقدمة الترجمة الانكليزية لكتاب تاريخ القوط والوندال والسويف، ص ٧١١.
(٤١) العذري، ص ٩٧
(٤٢) المصدر نفسه، ص ٩٨.
(٤٣) St. Isidore of Seville, History of the Goth, Vandals and Suevi, Translated from the latin by: Guido Donin and Gordon, D. Ford, leiden, 1970, P,21

(٤٤) Lbid., P.22
(٤٥) انظر: العذري، ص ٢٥، ٢٨، ٤٢، ٤٩، ٦٤.
(٤٦) المصدر نفسه، ص ٢١، ٤١.
(٤٧) المصدر نفسه، ص ٩٠.
(٤٨) المصدر نفسه، ص ٦.
(٤٩) المصدر نفسه، ص ٦.
(٥٠) المصدر نفسه، ص ٢٤.
(٥١) المصدر نفسه، ص ٧٨.
(٥٢) انظر ترجمته عند ابن الفرضي، تاريخ علماء الاندلس، القاهرة ١٩٦٦، رقم (١١٣٦)، القسم الاول، ص ١٥ - ١٧، والحميدي، رقم (١٥٢)، ص ٩٣ - ٩٤.
(٥٣) العذري، ص ٧ - ٨. والطرطوشي المذكور هو من معاصري احمد بن محمد الرازي وهو يهودي من اهل طرطوشة Tortosa وكان تاجرا متجولا ممن يعملون في جلب الرقيق الاوروبي الى الاندلس، وقد كتب رسالة عن رحلة الى المانيا، انظر: حسين مؤنس، تاريخ الجغراقية والجغرافيين في الاندلس ص ٧٦ - ٨٠.
A.A. EL-Hajji. "Ibrahim Iben Yaqub at- Turtushi Andalusian traveller" Islamic Culture, Hyderabad - Deccan, India, 1966, Vol. XI. No. 1.

(٥٤) العذري، ص ٢٣.
(٥٥) المصدر نفسه، ص ٩.
(٥٦) المصدر نفسه، ص ٢.
(٥٧) انظر: عبدالواحد ذنون طه، نشأة التدوين التاريخي في الاندلس - دراسة تطبيقية عن احمد بن محمد بن موسى الراوي، المرجع السابق، ص ٨١.
(٥٨) انظر: نص اندلسي من تاريخ ابن ابي الفياض، مجلة المجمع العلمي العراقي. الجزء الأول، مجلد ٣٤، ص ١٦٧.
(٥٩) العذري، ص ٣٥ - ٣٦.
(٦٠) المصدر نفسه، ص ١١.
(٦١) المصدر نفسه، ص ١٦.
(٦٢) المصدر نفسه، ص ٨.
(٦٣) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٦٤) انظر : كريم عجيل حسين ، الحياة العلمية في مدينة بلنسية الاسلامية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٦ .
(٦٥) المصدر نفسه ، ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٧ .
(٦٦) انظر رواية ابن حيان التي ينقلها علي بن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، تحقيق : احسان عباس ، القسم الاول ، المجلد الأول ، ص ١٦٩ .
(٦٧) العذري ، ص ٣٣ .
(٦٨) انظر : فريمان ـ جرنفيل ، التقويمان الهجري والميلادي ، ترجمة الدكتور حسام محيي الدين الألوسي ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٣٥ .
(٦٩) انظر هامش الاهواني ، ص ١٥٤ .
(٧٠) العذري ، ص ٣٣ .
(٧١) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .
(٧٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .
(٧٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٧ .
(٧٤) المصدر نفسه ، ص ٤٣ . وانظر ابن منظور ، لسان العرب ، نشر يوسف خياط ونديم مرعشلي ، م ٣ ، ص ٢٧٢ ، مادة (كفح) .
(٧٥) المصدر نفسه ، ص ٢٩ .
(٧٦) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .
(٧٧) المصدر نفسه ، ص ٢٦ .
(٧٨) المصدر نفسه ، ص ١٨ ، وقارن : مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس ، ص ٩٦ .
(٧٩) العذري ، ص ١٢٨ .
(٨٠) انظر هوامش المحقق ، ص ١٨٥ .

«دراسة في كتاب الحيدة للامام عبدالعزيز الكناني»

د. عماد اسماعيل خليل النعيمي
كلية الآداب - جامعة البصرة

التعريف بالكتاب

الكتاب موضوع الدراسة هو «كتاب الحيدة» للامام عبدالعزيز بن يحيى الكناني ، الذي طبع عام ١٩٦٤ ، بثلاثة اجزاء في مجلد واحد ، من قبل المجمع العلمي العربي بدمشق ، بتحقيق وتقديم الدكتور جميل صليبا .

والكتاب هو مناظرة بين عبدالعزيز الكناني وبشر بن غياث المريسي ، في حضرة الخليفة المأمون ، حول خلق القرآن[1].

يبدأ الجزء الأول من الكتاب ، باتفاق المتناظرين ، بتحديد الأصل الذي يجب الرجوع اليه عند الاختلاف في شيء من الفروع ، والمقصود بالأصل هو كتاب الله وسنة رسوله (ص) .

في البداية يسأل عبدالعزيز بشراً : ما حجتك على أن القرآن مخلوق ؟ فيجيبه : بأن القرآن شيء ، وكل شيء مخلوق بنص القرآن . أما عبدالعزيز فيرد على ذلك : بأنه اجرى على كلام الله ما أجراه الله على نفسه ، فهو لم يجعل الشيء اسماً من اسمائه ، بل دلّ على نفسه انه اكبر الأشياء ، اثباتاً للوجود ونفياً للعدم ، ثم اخرج نفسه من الأشياء المخلوقة فقال : «ليس كمثله شيء» ، وما يجري على الله تعالى من الصفات يجري كذلك على كلامه ، فاذا دلّ الشيء على اثبات الوجود ، كان كلام الله شيئاً ، واذا دلّ على الأشياء المخلوقة كان كلام الله خارجاً عنها . ثم انه لا يصح ان نفسر قوله تعالى : «خالق كل شيء» بقولنا : ان هذه الآية لم تدع شيئاً من الأشياء الا أدخلته في الخلق ، لأن كلمة «كل» الواردة في القرآن لا تفيد الحصر دائماً . وعبدالعزيز في كل رأي من هذه الآراء يستدل بآيات من القرآن الكريم .

أما النقطة الأخرى التي تناظرا فيها ، فهي مسألة علم الله ، فيورد عبدالعزيز آيات من القرآن تدل على أن لله علماً ، فيسأل بشراً عن ذلك ، فيحيد بشر عن الجواب ، ويقول : ان معنى علم الله انه لا يجهل ، فمعنى الحيدة هنا ، ان بشراً لم يجب عن سؤال عبدالعزيز ، بل حاد عنه ، ثم يشرح معنى الحيدة في كتاب الله وفي سنة المسلمين وفي لغة العرب . وكان يرمي عبدالعزيز من ذلك الى أنه لابد من اقرار بشر بأن لله علماً ، ذلك أن نفي الجهل عنه لايدل على ان الله عالم ويضرب مثلاً : ان نفي السوء لا تثبت به المدحة ، ثم يورد الأدلة من القرآن على أن الله تعالى لم يمدح ملكاً ولا نبياً ولا مؤمناً بنفي الجهل عنه ليدل على اثبات العلم له . ويرمي عبدالعزيز عند اقرار بشر بأن لله علماً ، ليسأله فيما اذا كان علم الله يدخل في الأشياء المخلوقة فإذا قال نعم ، فقد شبه الله بخلقه ، الذين أخرجهم من بطون امهاتهم لايعلمون شيئاً ، وكل من تقدم وجوده قبل علمه فقد دخل عليه الجهل فيما بين وجوده الى حدوث علمه ، وهذه صفة المخلوقين ، عند ذلك قال له المأمون : أحسنت يا عبدالعزيز ، وإنما فرّ بشر من ان يجيبك عن هذه المسألة لهذا .

بعد ذلك يعود عبدالعزيز الى قوله تعالى «خالق كل شيء» فيقول : ان كلمة «كل» لا تجمع الأشياء كلها ، لأن الله تعالى يقول في موضع «كل نفس ذائقة الموت» ، فلو كان كلمة «كل» تجمع النفوس كلها ، لدخلت نفسه تعالى في النفوس التي تذوق الموت ، وما يصدق على نفسه تعالى ، يصدق على علمه وكلامه ، فلا ندخل علمه وكلامه في الأشياء المخلوقة .

ثم يتطرق عبدالعزيز الى مسألة الخبر الذي مخرجه مخرج العموم ، ومعناه معنى الخصوص فقوله تعالى» ورحمتي وسعت كل شيء» ، فكلمة «كل» لا تعني هنا ان بليس داخل فيمن تسعه رحمة الله ، فصار معنى الخبر

خاصاً بخروج ابليس ومن تبعه من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وهذا يصدق على قوله تعالى «خالق كل شيء» فهو خبر مخرجه مخرج العموم ومعناه معنى الخصوص ، لأن الله ذكر الى جانبه خبراً آخر اعلمنا به انه جعل الأشياء مخلوقة بقوله وكلامه ، وهو قوله : «انما قولنا لشيء اذ اردناه ان نقول له كن فيكون» فصار كلامه تعالى علة الأشياء المخلوقة لا شيئاً داخلاً فيها .

ثم تدور المناظرة بعد ذلك ، على معنى «الجعل» . فيقول بشر المريسي: ان الله تعالى يقول : «انا جعلناه قرآنا عربيا» ، ومعنى جعلناه ، خلقناه . فيجيبه عبدالعزيز ان لجعل عند العرب معنيين ، احدهما خلق ، والآخر صيّر . ثم يستدل من القرآن الكريم على هذين المعنيين ، ويستنتج من ذلك ان الجعل على معنى الخلق والجعل على معنى التصيير ، ان الأول يكون من القول المفصل ، على حين ان الثاني لا يكون الا من القول الموصل ، والأول هو الذي يستغني به السامع اذا أخبر به ، فلا يحتاج الى وصل الكلمة بغيرها من الكلام ، أما الثاني فان المخاطب به لا يفهمه على حقيقته الا اذا وصل الكلمة بما بعدها ، ويستدل بآيات من القرآن الكريم .

وهنا ينقطع بشر المريسي ويقول للمأمون بأن عبدالعزيز يريد نص التنزيل بكل شيء يتكلم به ، وليس كل ما يتكلم به الناس ويحتجون به يجدونه بنص التنزيل ، وانما يجدونه بالتأويل ، ثم بعد ذلك يؤصل المتناظران بينهما أصلاً جديداً ، وهو الرجوع الى النظر والقياس في الأمر الذي كانا يتنازعان فيه .

تنتهي هذه المناظرة في آخر الجزء الثاني من الكتاب ، ويشير الدكتور المحقق الى انه كان بوده ان يتحدث باسهاب في الجزء الثالث «ولكننا امعنا النظر فيه ، فلم نجد ، زيادة على ماقدمنا ، الا وصف عبدالعزيز لما حدث بعد المناظرة من شغب بشر واصحابه عليه ، وتآمرهم واغرائهم المأمون به ، وما كان من استدعائه الى مجلس المأمون ، ودفاعه عن نفسه ، باسلوب جميل تضمن الكثير من الأخبار»[٢].

وفي رأيي ان هذا الجزء من الكتاب مهم جداً ، إذ يستعرض فيه عبدالعزيز وبشكل مبطن اراءه في مسألة الايمان هل يزيد أو ينقص ، وهو بذلك يرد على بشر المريسي ومن معه من فقهاء الحنفية والمرجئة ، الذين قالوا بأن الايمان هو التصديق بالقلب لايزيد ولا ينقص ، هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى ، يرد على المعتزلة الذين قالوا ان الأفعال حسناً ذاتياً وقبحاً ذاتياً ، وسنفصل القول في ذلك فيما بعد .

تحقيق نسبة الكتاب الى عبدالعزيز الكناني

شكك بعض المؤرخين المتأخرين في نسبة كتاب «الحيدة» الى عبدالعزيز الكناني فقال الذهبي[٣]: «عبدالعزيز بن يحيى بن عبدالعزيز الكناني الذي ينسب اليه الحيدة في مناظرته لبشر المريسي» ، وأيده في ذلك السبكي[٤] بقوله : «كان عبدالعزيز الكناني ناصراً للسنة في نفي خلق القرآن ، كما دلت عليه مناظرته مع بشر ، وكتاب الحيدة المنسوب اليه فيه أمور مستشنعة ، لكنه ، كما قال شيخنا الذهبي ، لم يصح اسناده اليه ، ولا ثبت انه من كلامه ، فلعله وضع عليه» .

وقد ناقش الدكتور صليبا ـ محقق الكتاب ـ هذا الرأي مبيناً ، أن الذهبي والسبكي لا يشكان في قيام المناظرة بين الرجلين من جهة ما هي حادث تاريخي ، بل يشكان في اسناد الكتاب الى الكناني ، لأمور مستشنعة ، «وهذا إنما هو استدلال عقلي لا تحقيق تاريخي» ، وإذا علمنا ان ابن النديم والخطيب البغدادي وهما متقدمان على الذهبي والسبكي لم يشكا في اسناد الكتاب الى الكناني ازداد ميلنا الى تفضيل موقف الاثبات في هذه المسألة على موقف النفي ، فقد قال ابن النديم : «وتوفي ـ عبدالعزيز ـ وله من الكتب كتاب الحيدة فيما جرى بينه وبين بشر المريسي»[٥]، وقال الخطيب البغدادي : «وقدم بغداد في أيام المأمون ، وجرى بينه وبين بشر المريشي مناظرة في القرآن ، وهو صاحب كتاب الحيدة»[٦]، ثم يخلص الدكتور المحقق الى القول بأنه «قد صح عندي ان عبدالعزيز الكناني وضع كتاباً اسماه كتاب الحيدة»[٧].

ولكي نناقش هذا الرأي لابد من الرجوع الى من روى كتاب الحيدة ، وبالتالي نتوصل فيما اذا كان هذا الكتاب من تأليف عبدالعزيز أم لا؟.

سلسلة الأسناد :

١- ورد في النسخة من مخطوطة دار الكتب الظاهرية في دمشق (تحت رقم ١٢٩ تصوف) التي استند عليها المحقق من ضمن النسخ التي استند عليها في تحقيقه للكتاب مايلي : «حدثنا ابوبكر محمد بن الحسن بن أزهر بن جنين - خطأ والصحيح جبير - القطايعي ، قال ابوعبد الله العباس بن محمد بن فرقد ، قال حدثني ابي عبدالله بن محمد بن فرقد»[٨].

٢- في النسختين الثانية والثالثة لانجد ذكراً لسلسلة رواة الكتاب . (رقم ١٣٧ توحيد ، ٣٧٣٦ ، دار الكتب الظاهرية) .

٣- أما النسخة الرابعة (نسخة توبنجن بالمانيا) فقد ورد في أولها : «اخبرنا ابومحمد عبدالله بن سعيد الأندلسي بمكة حرسها الله تعالى ... قال : حدثنا ابوبكر محمد بن الحسن بن الأزهر بن جبير القطايعي العسكري الأهم ...»[٩].

٤- وهناك نسخة للكتاب مصورة لدى معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية في الكويت عن نسخة مخطوطة في دار الكتب الوطنية التونسية - التي لم يطلع عليها المحقق - إذ ورد في أولها : «قرأت على ابي عمر بن خالد في ربيع الآخر عام اثنين وخمسين وثلاثماية ، حدثنا ابو عمرو عثمان بن احمد بن عبدالله بن السماك ، قال ابوبكر محمد بن الحسن بن ازهر بن حنين - والصحيح جبير - القطايعي ، قال حدثنا ابوعبدالله العباس بن محمد بن فرقد...»[١٠].

نلاحظ ان سلسلة رواة الكتاب في جميع النسخ التي وردت فيها تلك السلسلة تكرار اسم «محمد بن الحسن بن أزهر بن جبير بن جعفر ، ابوبكر القطايعي» ، فما هي حال هذا الراوي : يذكر عنه الخطيب البغدادي[١١] مايلي : «غير ثقة ، يروي الموضوعات عن الثقات» ، ويضرب مثالين لحديثين عن رسول الله ﷺ ، رواها المحدث المذكور ، قال بعدهما» رجال هذين الحديثين كلهم ثقات ، غير محمد بن الحسن ، ونرى الحديثين مما صنعت يداه»[١٢].

أما الراوي الثاني وهو «عثمان بن احمد بن السماك ابو عمرو الدقاق» ، فإنه «ثقة صدوقاً» ، كما نص على ذلك الخطيب البغدادي[١٣] ، ويؤيده الذهبي ، إلا أن الذهبي يجرحه أيضاً بسبب روايته لتلك البلايا عن الطيور كوصية ابي هريرة مما «ينبغي ان يغمز ابن السماك لروايته هذه الفضائح»[١٤].

أما بقية رواة الكتاب فلم أجد لهم ترجمة فيما رجعت اليه من كتب الطبقات والفرق لمعرفته حالهم .

لقد سبق أن ذكرنا بأن محقق الكتاب أشار الى ان الذهبي قد شكك في نسبة كتاب الحيدة الى عبدالعزيز الكناني ، بسبب ذكره اموراً مستشنعه ، وهذا إنما هو استدلال عقلي لا تحقيقي تاريخي[١٥]. لكن الأكثر احتمالاً - برأيي - ان تشكيك الذهبي يعود الى معرفته بحال راوي الكتاب الذي هو محمد بن الحسن القطايعي نفسه ، فقد أشار عند ذكره ترجمته بأنه «هو الذي انفرد برواية كتاب الحيدة ، رواه عنه ابوعمرو السماك» ، ثم يقول «ورأيت له حديث اسناده ثقات سواه ... ويغلب على ظني انه هو الذي وضع كتبا الحيدة : فإني لا أستبعد وقوعها جداً»[١٦]، ومن ذلك يتضح بأنه غير ثقة من وجهة نظر الذهبي ايضا ، لوضعه كتاب الحيدة على لسان عبدالعزيز الكناني .

ان النقد الخارجي ، إذن ، لا يساعدنا على قبول نسبة كتاب الحيدة الى عبدالعزيز الكناني هذا من جهة ، ومن الجهة الاخرى ان النقد الداخلي يحملنا ، بالتالي ، على ان نشكك ايضا في حصول مثل تلك المناظرة بين

الرجلين في حضرة الخليفة المأمون أساساً ، وسنورد امثلة على وقوع تناقضات ومبالغات ذكرت في الكتاب ، ستكون أدلة اضافية تؤيد ما نذهب اليه :ـ

أولاً :

تشير روايتنا التاريخية الى أن المأمون سافر من بغداد الى خارج العراق لغزو الروم في المحرم من عام ٢١٥هـ /٨٣٠م ولم يرجع الى بغداد الى ان توفي عام ٢١٨هـ /٨٣٣م على نهر البدندون في الجبهة البيزنطية[١٧]. اذن من المتوقع ان تكون المناظرة بين عبدالعزيز وبشر المريسي قد حصلت ما بين عامي ٢١٢هـ /٧٢٧م ـ ٢١٥هـ /٨٣٠م ، خصوصاً وان الكتاب ـ موضوع الدراسة ـ يشير الى ان عبدالعزيز الكناني اتصل بوزير المأمون عمرو بن سعدة[١٨]، الذي توفي عام ٢١٤هـ /٨٢٩م[١٩]، أو عام ٢١٧هـ /٨٣٢م[٢٠]، على اختلاف المؤرخين في سنة وفاته ، إضافة الى ذلك أن الخليفة المأمون اعلن القول بخلق القرآن عام ٢١٢هـ /٨٢٧م[٢١]، دون أن يلزم أحداً بهذا الاعلان ، أي أنه لم يجبر أحداً من العلماء أو الأمة على القول بخلق القرآن ، خصوصاً وان مصادرنا التاريخية تؤكد ذلك ، إذ تشير الى ان سياسة الزام العلماء بالقول بخلق القرآن كانت في نهاية حكم الخليفة المأمون أي في عام ٢١٨هـ /٨٣٣م ، عند ذلك لقيت سياسته معارضة من قبل بعض الفقهاء واصحاب الحديث ، إذ طلب الخليفة من نائبه على بغداد اسحاق بن ابراهيم امتحان العلماء بخلق القرآن[٢٢]، ان ذلك يتناقض مع ما يذكره كتاب «الحيدة» بأن المسلمين كانوا قبل حصول المناظرة قد استتروا في بيوتهم وانقطعوا عن الجمعة والجماعات وهربوا من بلد الى بلد خوفاً على انفسهم واديانهم[٢٣]، ويشير أيضاً الى ان الناس قبل المناظرة كانوا في أمر عظيم و «منع الفقهاء والمحدثون والمذكرون والدعاؤون من العقود في الجامعين ببغداد»[٢٤]، ويتضح لي ان المبالغة في التهويل بأمر تلك المحنة هو لتشويق قارىء الكتاب ولاظهار شجاعة عبدالعزيز تجاه السلطة العباسية دون أن يلاحظ ـ واضح الكتاب ـ السياق التاريخي الذي وقعت فيه ما اصطلح عليه «محنة خلق القرآن» ، مما يدل على أن جزءاً من هذا الكتاب وضع بعد المحنة بزمن ليس بالقصير .

ثانياً :

لقد بالغ كتاب «الحيدة» في اظهار اجراءات الخلافة العباسية القاسية ضد مخالفيهم في الرأي من أهل السنة والجماعة ، إذ يشير الى أن «كل من أظهر مخالفتهم وذم مذهبهم أو أتهم بذلك احضر فإن وافقهم دخل في كفرهم واجابهم الى ما يدعون اليه ترك والا قتلوه سراً وحملوه من بلد الى بلد ، فكم من قتيل لم يعلم به»[٢٥]. في حين ان سياسة الارهاب والاعتقال لم تشمل العلماء الذين ليس لهم نشاطات سياسية معارضة ضد السلطة العباسية ـ باستثناء الامام احمد بن حنبل ـ لكن هددوا باتخاذ وسائل العنف معهم أو هددوا بقطع ارزاقهم ، لكن سياسة الارهاب والاعتقال شملت العلماء من اصحاب الحديث الذين لهم ماضي سياسي ضد الحكم العباسي أو شجعوا وساندوا حركات معارضة للعباسيين ، ويحسن ان نضرب امثلة على من قيل انه سجن بسبب عدم اقراره بخلق القرآن ولم يطلق سراحه من السجن حتى وفاته ، أو اطلق سراحه بعد فترة ليست بالقصيرة ، حتى يتضح لنا فيما اذا كانت مبالغات كتاب «الحيدة» وأمثالها حقيقية أم لأجل التهويل بأمر المحنة .

أـ يذكر الطبري أسباب اعتقال ابي مسهر الدمشقي احد علماء الحديث في الشام ، أنه أرسل من دمشق الى الرقة لمقابلة الخليفة المأمون ، فسأله الخليفة عن القرآن ، فقال ابومسهر : كلام الله ، وأبى أن يقول

مخلوق ، فهدده المأمون بضرب عنقه ، عندها ، قال : مخلوق . ومع ذلك فقد سجنه الخليفة بعد أن أرسله مخفوراً الى بغداد[٢٦]، فهو أخذ بسبب المحنة . لكن لو دققنا بروايات الذهبي ، نجده يوضح المسألة بشكل أكثر قبولاً ، إذ يذكر ان ابا مسهر قال كلاماً مس به الخليفة عندما شاهد ناراً تدلي من الجبل لتضيء المكان الذي نزله الخليفة ، واستشهد بقوله تعالى «اتبنون بكل ربع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون» ، وفي رواية أخرى للذهبي بأن ابا مسهر كان على القضاء لأحد الثوار السوريين الذي تلقب بالسفياني وهو ابوالعميطر[٢٧]. ان سجن هذا المحدث كان لأسباب سياسية وليس كما أشيع عنه بأنه سجن بسبب عدم اقراره بخلق القرآن .

ب ـ والمثال الآخر هو فقيه مصر ومحدثها الحارث بن مسكين ـ من فقهاء المالكية ـ إذ أشار الخطيب البغدادي الى أنه «حمل في أيام المأمون في محنة القرآن الى العراق ، فلم يجب فسجن الى ان ولي المتوكل فاطلقه»[٢٨]، في حين ان اليعقوبي أوضح سبب سجنه ، ذلك ان المأمون استفتاه في ثورة الاقباط في مصر ، وفيما اذا كان يجوز قتل الأسرى ، فأجابه الفقيه : «ان كانوا خرجوا لظلم فلا يحل دماؤهم واموالهم ، فقال المأمون : أنت تيس»[٢٩] فهو لم يوافق الخليفة على قتل الأسرى ، فسجنه الخليفة في بغداد ، وبقي رهن الاعتقال الى ان اطلقه المتوكل فم يكن سجنه بسبب عدم اقراره بعقيدة الدولة حول القرآن .

جـ ـ ان هذا التهويل بأمر محنة خلق القرآن زمن الخليفة المأمون ، يذكرنا بحوادث اخرى مشابهة وقعت زمن الخليفة المعتصم ، ويكفي هنا الاشارة الى سجن نعيم بن حماد الخزاعي ، فقد أشار الخطيب البغدادي ، الى أنه أخذ من مصر الى سامراء بسبب المحنة ، ولم يزل في السجن الى انه مات[٣٠]، والمطلع على احواله ، يجده غير ثقة ، وله مناكير في احاديثه مغمورة وغلطات[٣١]، يضاف الى ذلك أنه ألفّ كتاباً بعنوان «الفتن» يذكر فيه احاديث نبوية تنبؤية عن ظهور المهدي او السيفاني اغلبها موضوع ، ولا يخفي الصفة السياسية لهذه الأحاديث ، وما تشكله من خطر على الدول العباسية[٣٢]، ثم لماذا تأخر امتحانه ، ففي الرواية أنه اخذ الى سامراء اي انه امتحن بعد عام ٢٢١هـ /٨٣٦م ، بينما غيره من العلماء امتحنوا عام ٢١٨هـ /٨٣٣م في حين توجد رواية اخرى تذكر بأن الواثق سجنه وليس المعتصم[٣٣]، مما يزيد من ضعف الرواية التي تقول أنه سجن بسبب محنة خلق القرآن[٣٤].

أما في عهد الخليفة الواثق فقد اعدم المحدث احمد بن نصر بن مالك الخزاعي ، بسبب الشغب الذي قاده في بغداد ، في حين ان الخليفة الواثق اصدر منشوراً أعلن فيه بأن اعدامه كان لعدم اقراره بخلق القرآن[٣٥].

ثالثاً :

هناك زيادة في اغلب نسخ الكتاب ، اشار اليها الدكتور المحقق في الحاشية وهي : «جاء عبدالعزيز الى أبي عبدالله احمد بن حنبل رحمة الله ، وهو في الحبس ، فقال : ان هذا الأمر الذي أنت فيه ليس تطيقه على دقته ، فاذكرني ، فبعث اليه ابوعبدالله ، أنا قد وقعت وأخاف ان اذكرك فأشيط بدمك ، فسيكون قتلك على يدي ، ولأن اقتل أنا أحب الى ، فانصرف بسلام» . يفهم من هذا النص ان الزيارة تمت قبل حصول المناظرة ـ موضوع الكتاب ـ في مجلس الخليفة المأمون ، وهذا يتناقض مع ما ثبت تاريخياً ان الامام احمد بن حنبل سجن قبيل وفاة الخليفة المأمون ، ذلك ان الامام احمد امتحن مع من امتحن من الفقهاء واصحاب الحديث لدس اسحاق بن ابراهيم في بغداد ، ثم ارسل مبكلاً بالحديد الى طرسوس في الجبهة البيزنطية لمقابلة الخليفة المأمون ، وعند وصوله الى «عانه» ورد الخبر بوفاة الخليفة ، فاعيد الى الحبس في بغداد[٣٧]، وبعد مرور (١٤ ـ ١٨) شهراً قضاها في السجن أخرج للمناظرة بين يدي الخليفة المعتصم ، فليس من المعقول ان عبدالعزيز زار احمد بن حنبل في السجن ، ذلك ان المناظرة ـ موضوع كتاب الحيدة ـ من المفترض انها حصلت زمن الخليفة المأمون بين عامي ٢١٢هـ /٨٢٧م ـ ٢١٥هـ / ٨٣٠م ، في حين ان الامام احمد بن حنبل سجن بين عامي ٢١٨هـ

/ ٨٣٣م ـ ٢١٩هـ / ٨٣٤م ، فالرواية التي وردت في كتاب الحيدة غير صحيحة قطعاً ، ومن الممكن ادخالها ضمن محاولة واضع كتاب الحيدة للتشويق من جهة ، ولاظهار عبدالعزيز بمظهر المعارض لعقيدة الدولة ، وان موقفه لا يقل مكانة عن الموقف البطولي والجرىء والمبدئي للامام احمد بن حنبل .

رابعاً :

يلاحظ المتمعن في الأدلة المطروحة على لسان عبدالعزيز الكناني في كتاب «الحيدة» على أساس انها تمثل وجهة نظر أهل السنة والجماعة قبل فترة المنظارة في حضرة الخليفة المأمون واثناءها ، يجدها من الكثرة والتشعب بحيث لا تتفق مع محدودية الأدلة التي طرحها الفقهاء واصحاب الحديث آنذاك في مجادلاتهم مع المعتزلة ومن يؤيدهم . هذا إذا أخذنا بنظر الاعتبار ان الفقهاء واصحاب الحديث من أهل السنة والجماعة يختلفون في نظرتهم الى مسألة خلق القرآن ، فمنهم من يؤيد رأي المعتزلة[٣٨]، ومنهم من يقف في المسألة ، أي لايؤيد رأي المعتزلة ، ولا رأي اهل السنة ، وكان يقول القرآن كلام الله فقط[٣٩]، مما يدل على ان مذهب اهل السنة والجماعة لم يكن متبلوراً بعد تجاه مسألة خلق القرآن في الأقل ، ولأجل ذلك ، يكون من الصعب تحديد أدلة أهل السنة في هذه المسألة في فترة المناظرة ـ موضوع كتاب الحيدة ـ وذلك لعدم وجود كتب تشرح وجهة نظرهم فيها . اذن علينا ان نبحث عن أدلة لأهل السنة ظهر بعد فترة المناظرة ، بشرط أن تكون موثوقة ، عند ذلك تكون المقارنة بين الأدلة التي وردت في كتاب «الحيدة» والأدلة التي وردت بعد المناظرة صحيحة ، وتؤيد ما نذهب اليه .

ان أقدم نص يمثل وجهة نظر أهل السنة والجماعة وأدلتهم القرآنية حول مسألة خلق القرآن ورد في محاكمة الامام بن حنبل في حضرة الخليفة المعتصم عام ٢١٩هـ / ٨٣٤م ، على أن أصح روايتين عن تلك المحاكمة كانت :ـ

١ـ رواية حنبل بن اسحاق بن حنبل (ت ٢٧٣هـ / ٨٨٨م) وهو ابن عم الامام احمد بن حنبل ، حيث وردت في مخطوطة باسم «محنة ابي عبدالله احمد بن حنبل»[٤٠] واعتمد عليها الجواعيلي في مخطوطته «المحنة»[٤١].

٢ـ رواية صالح عن ابيه الامام احمد بن حنبل ، واعتمد عليها كل من : الأزدي (ت ٣٤٥هـ)، في كتابه تاريخ الموصل نقلاً عن حنبل بن صالح بن احمد بن حنبل[٤٢]، والذهبي في ترجمة الامام احمد من كتابه تاريخ الاسلام[٤٣].

تعتبر رواية الأزدي من أدق ما نقل عن تلك المحاكمة ، لكونه من المحدثين الثقات ، ومن المؤرخين المعتدلين ، لذلك سنعتمد عليها في ايراد الأدلة القرآنية لأهل السنة والجماعة كما عرضها الامام احمد بن حنبل اثناء محاكمته :

١ـ في مناقشة قوله تعالى «انا جعلناه قرآنا عربياً» أي خلقناه ، كان رد الامام احمد قال تبارك وتعالى «فجعلهم كعصف مأكول» أفخلقهم ؟

٢ـ قال احد المعتزلة : أن الله تعالى يقول: «خالق كل شيء» فالقرآن شيء ، رد الامام احمد ، قال الله عز وجل : «تدمر كل شيء بامر ربها» فدمرت الا ما أراد الله ؟

٣ـ قال بعض المعتزلة : قال تعالى : «ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث» فلا يكون محدث الا مخلوق ، قال الامام احمد: قال الله عز وجل «والقرآن ذي الذكر» فالقرآن بالذكر هو الذكر ، وتلك ليس فيها الف ولا لام .

هذه ثلاث آيات للمعتزلة[٤٤]، يقابلها ثلاث آيام لأهل السنة ، وهي تمثل آراء الفقهاء وأصحاب الحديث في تلك الفترة .

والآن نستعرض كيفية معالجة كتاب «الحيدة» ـ موضوع دراستنا ـ لأدلة أهل السنة والجماعة ، وهي هنا على شكل مناظرة بين بشر المريسي المرجىء وبين عبدالعزيز ـ كما بينا .

المسألة الأولى:

في معرض رده على قول بشر المريسي ، ان القرآن شيء من ضمن الأشياء التي خلقها الله تعالى في قوله «وخالق كل شيء ، يقول : «ان الله عز وجل اجرى على كلامه ما اجراه الله على نفسه ، فلم يتسم بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسماً من اسمائه ، ولكنه دل على نفسه انه اكبر الأشياء»[٤٥]، بدليل :

أ ـ قوله تعالى «قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم»[٤٦]، فدل على نفسه أنه أكبر الأشياء .

ب ـ قول تعالى «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»[٤٧]، فاخرج نفسه وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة ، ثم أن الله تعالى عدد اسمائه في كتابه ، فلم يتسم بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسماً من اسمائه . ونظراً لوجود آيات اخرى تصف القرآن بأنه شيء[٤٨]، لذلك نراه يوجهها بحيث تتناسب مع ما يطرحه[٤٩]. ولما أكد بشر المريسي بأن عبدالعزيز أقرّ بأن القرآن شيء ، لكنه ليس كالأشياء ، طلب منه ان يأتي بنص من التنزيل على ما ادعاه ، فرد عليه عبدالعزيز بجملة أدلة من القرآن الكريم مثل: قوله تعالى «انما قولنا لشيء اذا اردنا ان نقول له كن فيكون»[٥٠]، وقول تعالى «واذا قضى أمراً فإنما نقول له كن فيكون»[٥١]، وقوله تعالى «الا له الخلق والأمر»[٥٢]، ففرق الله تعالى بين خلقه وامره ، ثم يذكر عبدالعزيز سبع آيات اخرى للتدليل على أن الله عز وجل جمع الأشياء المخلوقة ، فأخبر عن خلقها ، وانه خلقها بقوله وكلامه ، وقوله غيرها وخارج عنها[٥٣].

ولما اعترض بشر المريسي بأن عبدالعزيز ادعى ان الأشياء انما تكون بقوله «ثم جاء بأشياء متباينات متفرقات ، فزعم ان الله عز وجل يخلق بها الأشياء ، فاكذب نفسه ونقض قوله ورجع عما ادعاه من حيث لايدري»[٥٤]، رد عليه عبدالعزيز بأن كل ما ذكر الله عز وجل انه خلق ، ويخلق بها الأشياء فهو شيء واحد وله اسماء متعددة ، وهو كلام الله ، وهو قول الله ، وهو امر الله ، وهو الحق ، فقول الله هو كلامه ، وقوله هو الحق ، وهي اسماء شتى لشيء واحد ، ثم ان الله تعالى سمى كلامه نوراً وهدى وشفاء ورحمة وقرآنا وفرقاناً ، فهذا مثل ذلك ، وذلك مثل هذا[٥٥]. ويستدل على رأيه بعدة آيات قرآنية تؤكد ان الله تعالى سمى القرآن كلامه وسماه قوله واخبر ان قوله هو كلامه[٥٦]، ثم يشير عبدالعزيز الى ان الله تعالى اخبر عن القرآن انه الحق ويذكر عشر آيات تؤكد ان القرآن هو الحق[٥٧] . ثم يذكر بأن القرآن قول الله وان قوله هو الحق وان الحق كلامه وان كلامه الحق وان القرآن امره وان امره كلامه ويذكر ثمان آيات تؤكد ذلك[٥٨]. وبعد كل هذا الاستعراض من الآيات القرآنية ليتوصل الى نتيجة وهي «ان القرآن كلامه وانه الحق وان الحق كلامه وان الحق قوله وان القرآن امره وان امره القرآن ، وان هذه اسماء شتى لشيء واحد وهو الكلام الذي به خلق الله الأشياء وهو غير الأشياء وخارج عن الأشياء وغير داخل في الأشياء ولا هو كالأشياء وبه تكون الأشياء وهو امره وهو الحق»[٥٩].

ان مجموع الآيات القرآنية التي وردت في كتاب «الحيدة» في هذا الموضوع بالذات بلغت ستا وثلاثين آية ، وهي كثيرة جدا بالمقارنة مع ما طرحه الفقهاء واصحاب الحديث من اهل السنة من أدلة في تلك الفترة ، كما رأينا ذلك في محاكمة الامام احمد بن حنبل .

المسألة الثانية :

جرى النقاش حول ما طرحه بشر المريسي عن قوله تعالى «إنا جعلناه قرآنا عربيا» إذ لا فرق بين جعل وخلق ، فيكون القرآن مجعول اي مخلوق ، وجاء ردّ عبدالعزيز ـ بعد أن تركنا جانباً الأسلوب المشوق في تكفير بشر ـ انه ليس من الضروري ان ترد كلمة «جعل» في القرآن بمعنى «خلق» ، بل ان لها معاني أخرى ، كما في قوله تعالى «واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولاتنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا»[٦٠]، أفيكون :

خلقتم الله عليكم كفيلا ، كما يقول بشر[61]. وهكذا يستمر عبدالعزيز في ايراد عشر آيات تشير كلها الى أن معنى جعل فيها غير معنى خلق[62]. ثم يسرد عبدالعزيز أدلة أخرى يفرق فيها بين الجعل والخلق[63]، كقوله تعالى «ولا تجعل مع الله الهاً آخر»[64]. فليس من المعقول ان تكون ولاتخلق مع الله الهاً آخر[64]، ويذكر عشر آيات اخرى على هذا المنوال[65]. ولأن جعل عند العرب يحتمل المعنيين خلق وصيّر ، يذكر عبدالعزيز الفرق بينهما ويضرب امثلة من القرآن الكريم على المعنيين بلغت سبع آيات[66]. وبذلك يكون رد عبدالعزيز في كتاب الحيدة على دليل المعتزلة ومن معهم بآيات قرآنية بلغت تسعا وعشرين آية ليصل الى نتيجة بأن معنى قوله تعالى «وجعلناه قرآنا عربيا» أي صيرناه قرآنا عربيا وليس خلقناه[67].

من هذا الاستعراض لأدلة كتاب «الحيدة» يتضح مدى النضج الذي وصلت اليه أدلة اهل السنة والجماعة بحيث انها لا تتفق مع محدودية الأدلة التي كانت مطروحة في فترة المناظرة وما بعدها ، والتي لم تكن بالنضج الذي ورد في كتاب «الحيدة» . وعلى هذا يمكننا القول بأن كتاب الحيدة كتب بعد محنة خلق القرآن بزمن ليس بالقصير ، وان كان من الصعب تحديد فترة كتابته ، الا انني أرجح بأنه كتب في فترات متفاوتة ، وفي كل فترة يزاد فيه حسب تطور الفكر الذي كان يطرحه علماء اهل السنة والجماعة من جهة وللسياسة الدينية التي انتهجها الخلفاء العباسيون بعد مجيء المتوكل في تأييد وتشجيع مذهب اهل السنة والجماعة من جهة اخرى . وفي الملاحظات التالية توضيح للنقطة الأخيرة التي هي في نفس الوقت لها علاقة بموضوع كتاب الحيدة :

١ـ حاول الخليفة المهتدي (٢٥٥هـ / ٨٧٠م ـ ٢٥٦هـ / ٨٧١م) الدفاع عن سياسة والده الواثق ، فادعى بأنه رجع في أواخر أيام حياته عن القول بخلق القرآن ، وذلك خلال محاورة مع احد العباسيين ، واستشهد بحكاية موضوعة عن الشيخ الذي افحم قاضي القضاة احمد بن ابي دؤاد في حضرة الخليفة الواثق حول خلق القرآن ، كما ان الظروف السياسية التي مرّ بها هذا الخليفة (المهتدي) هي التي املت عليه سياسته الدينية ومحاولته كسب الفقهاء واصحاب الحديث بتأييده مذهب السنة والجماعة الى جانبه تجاه تعاظم نفوذ القادة العسكريين وجلهم من الأتراك[68]، ولهذا نجد توجهاً لدى كتاب «الحيدة» في التركيز على العرب ودورهم في الاسلام كرد فعل على سيطرت الاعاجم على مقدرات الخلافة[69].

٢ـ كذلك نلاحظ موقف الخليفة القادر بالله عام (٤٢٠هـ) ، إذ قام بجمع الأشراف والشهود والقضاة والفقهاء في دار الخلافة ليقرأ عليهم كتاباً طويلاً عمله الخليفة يتضمن الوعظ وتفضيل مذهب السنة والطعن على المعتزلة ، وحكاية ما جرى بين عبدالعزيز وبشر المريسي (كتاب الحيدة) في خلق القرآن[70].

كل ذلك يشعرنا بأن الخلفاء العباسيين منذ مجيء المتوكل ـ باستثناء فترة التسلط البويهي ـ حاولوا تشجيع كل ما من شأنه اسناد مذهب أهل السنة والجماعة تجاه مخالفيهم . وليس من المستبعد ان يكون كتاب «الحيدة» وضع لهذا الغرض ، خصوصاً وانه يركز على مسألة الولاء للخلافة البعاسية ، إذ نلمس أفكاراً شجعها العباسيون دائماً ، فالكتاب يطنب في مدح الخليفة المأمون ، وبني هاشم ، وولد العباس ، ويجعل طاعة أمير المؤمنين واجبة على الخلق ، من خرج عنها خلع ربقة الاسلام من عنقه ، ويستند في ذلك على احاديث للرسول ﷺ في هذا الشأن[71].

مسألة الايمان :

قلنا بأننا سنفصل القول في موضوع الجزء الثالث من كتاب «الحيدة» الذي يستعرض فيه عبدالعزيز وبشكل مبطن اراءه في مسألة الايمان ، هل يزيد وينقص كما قال اهل السنة ، ام ان الايمان هو التصديق بالقلب واللسان فقط ، كما قال به بعض فقهاء الحنفية من المرجئة والمريسية بالذات[72]، بالاضافة الى قدرة العقل على ادراك حكم الله او عدم قدرته رداً على ما قاله المعتزلة ومن معهم .

يبدأ الجزء الثالث في وصف ما حدث بعد المناظرة ، من شغب بشر المريسي واصحابه عليه ، وتآمرهم واغرائهم المأمون به ، وما كان من استدعاؤه الى مجلس المأمون ، ودفاعه عن نفسه باسلوب جميل ، ثم يعتذر للخليفة ويطلب العفو والصفح منه ، ثم يورد امثلة كثيرة على ان الله تعالى يغفر لمن اعترف واستغفر ولم يصر على فعله[٧٣].

بعد ذلك يفصل في موضوع الايمان فيقول : ان الله تعالى لما بعث محمداً ﷺ أمره ان يدعو الناس الى الايمان خاصة ، فاقام الرسول في مكة عشر سنين يدعو الناس الى الايمان ، وليس عليهم في ذلك فرض يؤدونه «وكان ذلك تخفيفاً من الله عز وجل عليهم ، وترفقاً بهم... ولو جعل الله الفرائض كلها مضافة الى الايمان ، وامر نبيه ﷺ ان يدعوهم الى الايمان والفرائض كلها معاً في وقت واحد لنفرت قلوبهم وضاقت بها صدورهم وثقلت على ابدانهم»[٧٤]، فلم يزل المؤمنون كذلك بمكة وخلال اقامتهم في المدينة بعد الهجرة بضعة عشر شهراً فرض عليهم الصلاة[٧٥]، ثم انهم لما اجابوا الله والرسول الى الصلاة واقاموها وصارت عندهم بمنزلة الايمان الذي وجب عليهم فرض عليهم الزكاة واضافها الى الصلاة[٧٦]، فكان الفرض عليهم بعد الايمان اقامة الصلاة وايتاء الزكاة ، وهم مع ذلك يأتون كل ما حرم الله عليهم بعد ذلك غير مأزورين ولا مأثومين . ولنتدبر هذا النص : «وصارت ـ الصلاة ـ عندهم بمنزلة الايمان الذي وجب عليهم ، وانه من تركها كان عاصيا لله مخالفا لأمره ، لا ايمان له»[٧٧]. ثم فرض عليهم الصيام ثم الحج ثم القتال ، ثم تتابع نزول القرآن بالأمر اولاً فأولاً ، كالوضوء والوفاء بالعهد والحكم بالعدل وعدم الشرك وعدم قتل النفس ، وتحريم الخمر والميسر والانصاب والأزلام والربا والزنى وأكل مال اليتامى والفساد في الأرض والسرقة والفواحش كالسخرية والتنابز بالألقاب والفسق ثم اجتناب الظن[٧٨]. ثم يقول : «فوجبت عليهم الطاعة لله فيما أمر والتناهي عما نهىٰ ، كما وجب عليهم الايمان والصلاة والزكاة والصوم والحج لافرق بينهما ، فمن اطاع أمر ربه وتناهى عما نهىٰ عنه كان مطيعاً له مستحقاً للثواب والجزاء ، ومن خالف أمره ، وارتكب نهيه كان مستحقا للعقاب والعذاب»[٧٩].

وكتاب «الحيدة» في ايراده للآيات القرآنية حسب اسباب نزولها على الرسول ﷺ بالأوامر والنواهي يرمي الى التذكير بالمسألة الأخرى دون ان يصرح بذلك ايضا وهي : ان العقل لايستقل بادراك حكم الله ، بل لابد من وساطة الرسول وتبليغه ، فليس في الأفعال حسناً ذاتياً وقبحاً ذاتياً ـ كما قال به المعتزلة ومن معهم ـ فالحسن ما جاء الشرع بطلب فعله والقبيح ماجاء الشرع بطلب تركه[٨٠].

وينبغي ان نشير الى ان موضوعي «الايمان» و «إدراك العقل لحكم الله او عدم ادراكه» ، لاعلاقة لهما اطلاقاً بموضوع كتاب «الحيدة» ، الذي كان ـ كما لاحظنا ـ موضوعه «خلق القرآن» ، مما يشعرنا بأن هذا الجزء اضيف الى الكتاب وحشر فيه حشراً ، مع ملاحظة انه استند على (٤٩) آية من القرآن الكريم لاثبات رأيه ، ولغرض عدم كشف هذا الوضع ، عمد مؤلف هذا الجزء الى شرح وجهة نظر اهل السنة والجماعة بدون حاجة الى انشاء مناظرة اخرى على لسان الرجلين كما حصل في الجزأين الأول والثاني ، واكتفى بشرح الموضوع بشكل مبطن دون ان يصرح بمضمون ما يرمي اليه من الرد على المرجئة والمعتزلة في هاتين المسئلتين .

ان كتاب «الحيدة» يبقىٰ ـ بالرغم من كل ما ذكرته عنه ـ ممتعاً في طرحه للأدلة واستغلالها وتوجيهها التوجيه السليم والمنظم لتأييد الافكار الواردة فيه ، كما أن لأسلوبه المشوق في المناقشة والمجادلة متعة اخرى لمن يطالعه .

الهوامش والتعليقات :

(١) عبدالعزيز الكناني : عبدالعزيز بن يحيى بن عبدالعزيز بن مسلم بم ميمون الكناني المكي ، اتصل بالامام الشافعي وتفقه به ،

واشتهر بصحبته ، زار بغداد في عهد الخليفة المأمون ، وكان يلقب بالغول لدمامته ، انظر ترجمته في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٠/٤٤٩ - ٤٥٠ . الذهبي : ميزان الاعتدال ، /٦٣٩ . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ١/٢٦٥ - ٢٦٦ . العسقلاني : تهذيب التهذيب ٦/٣٦٣ - ٣٦٤ .

بشر بن غياث المريسي : ابن ابي كريمة ابوعبدالرحمن المريسي ، كان يسكن الدرب المعروف به ، ويسمى درب المريسي ، وهو من اصحاب الرأي ، اخذ الفقه عن ابي يوسف القاضي ، الاّ أنه اشتغل بالكلام وجرد القول بخلق القرآن توفي عام ٢١٨هـ أو عام ٢١٩هـ . انظر ترجمته في : الخطيب البغدادي : تاريخ ٧/٦٧ ، الذهبي : ميزان الاعتدال ١/٣٢٢ - ٣٢٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/٢٧٧ - ٢٧٨ . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٢/٢٤٤ .

(٢) كتاب الحيدة : المقدمة ٣٩ .

(٣) ميزان الاعتدال : ٢/٦٣٩ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى : ١/٢٦٦ .

(٥) الفهرست ، ٢٣٦ .

(٦) تاريخ بغداد : ١٠/٤٤٩ .

(٧) الحيدة : المقدمة ١٩ .

(٨) المصدر السابق : ٥٥ .

(٩) المصدر السابق : ٤٥ .

(١٠) نسخة مصورة لدى قسم التاريخ / كلية الآداب بجامعة البصرة .

(١١) تاريخ بغداد : ٢/١٩٣ .

(١٢) المصدر السابق : ٢/١٩٤ .

(١٣) المصدر السابق : ١١/٣٠٣ .

(١٤) ميزان الاعتدال : ٣/٢١ .

(١٥) الحيدة : المقدمة ١٩ .

(١٦) ميزان الاعتدال : ٣/٥١٧ .

(١٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٨/٦٢٣ وما بعدها .

(١٨) الحيدة : ٦ .

(١٩) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ١٦/١٢٧ .

(٢٠) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ٣/٤١٧ .

(٢١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٨/٦١٩ .

(٢٢) المصدر السابق : ٨/٦٣١ وما بعدها .

(٢٣) الحيدة : ٢ .

(٢٤) الحيدة : ٤ .

(٢٥) الحيدة : ٥ .

(٢٦) الطبري : ٨/٦٤٣ .

(٢٧) مخطوطة سير اعلام النبلاء جـ٦ .

(٢٨) تاريخ بغداد : ٨/٢١٦ .

(٢٩) اليعقوبي : التاريخ ٣/٢٠٠ - ٢٠١ .

(٣٠) تاريخ بغداد : ١٣/٣٠٦ .

(٣١) الذهبي : العبر في خبر من غبر ٤١١ .

(٣٢) لاحظ التفاصيل في : بحوث في التاريخ العباسي للدكتور فاروق عمر خوري ٢٠ - ٢١ .

(٣٣) الذهبي : مخطوطة سير اعلام النبلاء جـ٦ .

(٣٤) ولدينا مثال آخر حول أسباب سجن ابي سعيد يوسف بن يحيى البويطي ، انظر تفاصيل ذلك في : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٤/٣٠٠ - ٣٠١ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ١/٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٣٥) الطبري : ٩/١٣٥ وما بعدها . تاريخ بغداد : ٥/١٧٦ وما بعدها ، وفيهما تفاصيل عن هذا الموضوع .

(٣٦) الحيدة : ١١ .

(٣٧) الطبري : ٦٤٤/٨ ، الأزدي : تاريخ الموصل ٤١٣ .
(٣٨) أمثال : احمد بن يحيى الشافعي ، عبدالرحمن بن اسحاق القاضي ، ابراهيم بن المنذر ، اسماعيل بن علية ، شعيب بن سهل المعروف بشعبوية ، وعبدالله بن محمد الخلنجي ، راجع تاريخ بغداد : ٢٠١/٥ ، ٢٦١/١٠ - ٢٦٢ ، ١٨١/٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣/٩ ، ٧٣/١٠ .
(٣٩) امثال : محمد بن شجاع الثلجي ، واسحاق بن ابي اسرائيل ، مصعب بن عبدالله الزبيري ، وابي نعيم الفضل بن وكين ، راجع تاريخ بغداد : ٣٥١/٥ ، ٣٥٩/٦ - ٣٦٠ ، ١١٤/١٣ ، ٣٤٩/١٢ .
(٤٠) نسخة في دار الكتب المصرية رقم ٢٠٠٠ تاريخ .
(٤١) معهد المخطوطات العربية ٤٤٧ تاريخ .
(٤٢) تاريخ الموصل : ٤١٧ وما بعدها .
(٤٣) تاريخ الاسلام - ترجمة الامام احمد منه : ٣٧ وما بعدها .
(٤٤) ذكر هذه الآيات الخليفة المأمون في كتبه عام ٢١٨هـ الى نائبه على بغداد اسحاق بن ابراهيم بامتحان العلماء والفقهاء . لاحظ الطبري : ٦٣١/٨ وما بعدها .
(٤٥) الحيدة : ٣١ .
(٤٦) القرآن الكريم : ٦ - ١٩ .
(٤٧) القرآن الكريم : ٤٢ - ١١ .
(٤٨) القرآن الكريم : ٦ - ١٩ ، ٦ - ٩٣ .
(٤٩) الحيدة : ٣١ وما بعدها .
(٥٠) القرآن الكريم : ١٦ - ٤٠ .
(٥١) القرآن الكريم : ٢ - ١١٨ .
(٥٢) القرآن الكريم : ٧ - ٥٣ .
(٥٣) القرآن الكريم : ٦ - ٧٣ ، ١٥ - ٨٥ ، ٢٩ - ٤٤ ، ٤٦ - ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤٤ - ٣٨ ، ٣٩ ، ٣٠ - ٨ ، ٤٥ - ٢١ . وراجع «الحيدة» : ٣٦ وما بعدها .
(٥٤) الحيدة : ٣٩ .
(٥٥) الحيدة : ٤٠ - ٤١ .
(٥٦) القرآن الكريم : ٩ - ٧ ، ٤٨ - ١٥ .
(٥٧) القرآن الكريم : ٢ - ١٩ ، ٦ - ٦٦ ، ١٠ - ٩٤ ، ١١ - ١٧ ، ١٠ - ١٠٨ ، ١٣ - ١ ، ٣٢ - ٢ ، ٥ - ٨٦ ، ٢٨ - ٥٣ ، وراجع الحيدة : ٤٣ - ٤٤ .
(٥٨) القرآن الكريم : ٢٣ - ٤ ، ٣٢ - ١٣ ، ٣٤ - ١٣ ، ١٠ - ٨٢ ، ٣٩ - ٧١ ، ٤٤ - ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦٥ - ٥
(٥٩) الحيدة : ٤٦ .
(٦٠) القرآن الكريم : ١٦ - ٩١ .
(٦١) الحيدة : ٨٣ وما بعدها .
(٦٢) القرآن الكريم : ٢ - ٢٢٤ ، ١٦ - ٥٧ ، ١٤ - ٣٠ ، ٦ - ١٠٠ ، ١٣ - ٣٥ ، ٧ - ١٨٩ ، ١٣ - ١٨ ، ٤٣ - ١٩ ، ٦ - ٩١ ، ١٥ - ٩٠ ، ٩١ .
(٦٣) القرآن الكريم : ١٧ - ٣٩ .
(٦٤) الحيدة : ٩٧ وما بعدها .
(٦٥) القرآن الكريم : ١٧ - ٢٩ ، ١٧ - ٢٢ ، ٢٦ - ٢٩ ، ٢٤ - ٦٣ ، ٢٨ - ٧ ، ٢٨ - ٥ ، ٣٨ - ٢٦ ، ٢ - ١٢٨ ، ١٤ - ٣٥ ، ٥ - ١٠٦ .
(٦٦) القرآن الكريم : ٦ - ١ ، ١٦ - ٧٢ ، ١٦ - ٧٨ ، ٣٨ - ٢٦ ، ٢٨ - ٧ ، ٧ - ١٤٢ ، ٢ - ١٢٨ .
(٦٧) الحيدة : ١٠٥ .
(٦٨) المسعودي : مروج الذهب ١٠٤/٤ - ١٠٦ ولاحظ حاشية كتاب «الحيدة» : ١٤٠ - ١٤٥ .
(٦٩) راجع كتاب الحيدة : ٨٣، ١٠٥ ، ١٥٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .
(٧٠) ابن الجوزي : المنتظم ٤١/٨ .

(٧١) الحيدة : ١٥٣ - ١٥٧ .
(٧٢) راجع هذا الموضوع في : مقالات الاسلاميين ٢٢٢/١ - ٢٢٣ ، البغدادي : الفرق بين الفرق ١٩٣ ، الشهرستاني : الملل والنحل ١٤٤/١ .
(٧٣) الحيدة : ١٦٥ - ١٩١ .
(٧٤) الحيدة : ١٩١ - ١٩٢ .
(٧٥) القرآن الكريم : ١١ - ١١٥ ، ٤ - ١٠٢ ، ٢٩ - ٤٥ ، ٢ - ٢٣٨ ، ٦٢ - ٩ .
(٧٦) القرآن الكريم : ٢ - ٤٣ ، ٢ - ٨٣ ، ٧٣ - ٢٠ ، ٩٨ - ٥ .
(٧٧) الحيدة : ١٩٤ .
(٧٨) القرآن الكريم : ٢ - ١٨٣ ، ٣ - ٩٧ ، ٢٠ - ٢١٦ ، ٩ - ٧٤ ، ٦٦ - ٩ ، ٢٢ - ٧٨ ، ٩ - ٣٠ ، ٥ - ٧ ، ١٦ - ٩١ ، ١٧ - ٣٤ ، ٢ - ٤٠ ، ٤ - ٥٧ ، ٤ - ٣٥ ، ٣٩ - ٦٥ ، ٧ - ٣٢ ، ٦ - ١٥١ ، ٤ - ٢٨ ، ١٧ - ٣١ ، ١٧ - ٣٣ ، ٤ - ٩٢ ، ٥ - ٩٣ ، ٥ - ٩٤ ، ١٧ - ٣٢ ، ٢٥ - ٦٨ ، ٦٩ ٢٤ - ٢ ، ٢٤ - ٣ ، ٣ - ١٣٠ ، ٢ - ٢٧٨ ، ٢ - ١٨٨ ، ٤ - ٢٨ ، ٦ - ١٥١ ، ١٧ - ٣٤ ، ٤ - ٩ ، ٧ - ٥٥ ، ٨٤ ، ٥ - ٣٦ ، ٥ - ٤١ ، ٢٢ - ٢٣٠ ، ١٦ - ٩٠ ، ٤٩ - ١٢ . ولاحظ الحيدة : ١٩٥ - ٢٠٠ .
(٧٩) الحيدة : ٢٠٠
(٨٠) راجع تفاصيل هذه القضية في : الوجيز في اصول الفقه للدكتور عبدالكريم زيدان . ص ٥٦ وما بعدها الطبعة الثالثة ١٩٦٧ .

مصادر البحث :

١- الأزدي : ابوزكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم (ت ٣٣٤هـ) تاريخ الموصل ، تحقيق د. علي حبيبة ، القاهرة ١٩٦٧ .
٢- الأشعري : ابو الحسين علي بن اسماعيل (ت ٣٣٠هـ) مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ، حققه محمد محي الدين عبدالحميد ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ .
٣- البغدادي : عبدالقادر بن طاهر (ت ٤٢٠هـ) الفرق بين الفرق ، دار الافاق الجديدة ، بيروت ١٩٧٣ .
٤- ابن جنبل : حنبل بن اسحاق (ت ٢٧٣هـ) رسالة في «محنة ابن عبدالله احمد بن حنبل» ، مخطوطة في دار الكتب المصرية ٢٠٠٠ تاريخ .
٥ - الحموي : ابوعبدالله ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ) معجم الأدباء ، دار المأمون ، مصر .
٦ - الخطيب البغدادي : ابوبكر احمد بن علي (ت ٤٦٣هـ) تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
٧ - ابن خلكان : ابوالعباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر(ت ٦٨١هـ) وفيات الاعيان ، حققه احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة .
٨ - ابن الجوزي : ابوالفجر عبدالرحمن (ت ٥٩٧هـ) المنتظم ، الطبعة الأولى .
٩ - الجواعيلي : ابومحمد عبدالغني مخطوطة «المحنة» معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، نسخة مصورة من دار الكتب المصرية رقم ٤٤٧ تاريخ .
١٠ - الذهبي : شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)
أ- ترجمة الامام احمد ، تحقيق احمد محمد شاكر ، دار المعارف ١٩٤٦ .
ب - العبر في خبر من غبر ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٠ (الجزء أ) .
جـ - ميزان الاعتدال في نقل الرجال ، الطبعة الاولى ١٩٦٣ ، دار احياء الكتب العربية .
د - مخطوطة «سير اعلام النبلاء» الجزء السادس ، نسخة مصورة لدى معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، النسخة الثانية ، ٢٨٧ تاريخ .
١١- السبكي : تاج الدين ابي نصر عبدالوهاب ابن تقي الدين ، طبقات الشافعية الكبرى ، الطبعة الاولى ، مصر .
١٢- الشهرستاني : ابوالفتح محمد بن عبدالكريم بن ابي بكر (ت ٥٤٨هـ) الملل والنحل ، تحقيق عبدالعزيز الوكيل ، القاهرة ١٩٦٨ .

١٣ ـ الطبري : ابوجعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .
١٤ـ العسقلاني : شهاب الدين محمد بن حجر (ت ٨٥٢هـ) تهذيب التهذيب ، الطبعة الاولى ، حيدر آباد الدكن ١٣٢٦هـ .
١٥ـ ابن العماد الحنبلي : ابوالفلاح عبدالحي (ت ١٠٨٩هـ) شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، منشورات دار الافاق الجديدة ، بيروت .
١٦ـ عمر : فاروق الدكتور ، بحوث في التاريخ العباسي ، الطبعة الأولى ١٩٧٧ .
١٧ـ الكندي : ابوعمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠هـ) الولاة والقضاة ، صححه رفن جست ، بيروت ١٩٠٨ .
١٨ـ المسعودي : ابوالحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الاندلس ، بيروت ١٩٦٦ .
١٩ـ ابن النديم : محمد بن اسحاق (ت ٣٨٥هـ) الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طبعة طهران ١٩٧١ .
٢٠ ـ اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب (ت ٢٩٢هـ) التاريخ ، قدم له وعلق عليه السيد محمد صادق بحر العلوم ، النجف ١٩٦٤ .

مشكاة مملوكية باسم الأمير حسين بن جندربك
دراسة تاريخية اثرية

أ. د. احمد عبد الرزاق
كلية الآداب - جامعة الامارات العربية المتحدة

تحتوي مجموعة الصباح بدار الآثار الاسلامية[١] بمتحف الكويت الوطني على مجموعة طيبة من التحف المملوكية من بينها مشكاة من الزجاج المموه بالتذهيب والمينا المتعددة الالوان باسم الامير حسين بن جندربك (اللوحات ١-٤) لم تعرف طريقها الى النشر حتى الآن لذلك اخذنا على عاتقنا مهمة القيام بنشرها والتعريف بها نظرا لأهميتها[٢]، وذلك من خلال ما وصلنا من مشكاوات مملوكية معاصرة .

والمشكاة المذكورة مسجلة تحت رقم LNS 5G ومصنوعة من زجاج شفاف مائل الى الصفرة[٣] يتخلله بعض الفقاعات الهوائية التي تعتبر من مميزات الزجاج الاسلامي بصفة عامة والزجاج المملوكي بصفة خاصة ، ويزينها عناصر زخرفية متنوعة ما بين زخارف نباتية وكتابية ورنوك ، ومقاييسها على النحو التالي :-

الارتفاع الكلي	٦٠ر٢٥سم .
ارتفاع الرقبة	٢٥ر١٢سم .
ارتفاع البدن	٢٥ر١٢سم .
ارتفاع بقايا القاعدة	٦٠ر٠ سم .
قطر الفوهة	٥٠ر١٨سم .
محيط البدن	٦٨ سم .
قطر بقايا القاعدة	٦ سم .

والمشكاة في اللغة هي كل كوة او حنية غير نافذة ومع هذا فقد أطلقها علماء الآثار والفنون الاسلامية على الزجاجة او الاناء الذي كان يوضع بداخله المصباح أو القنديل بهدف المحافظة على الشعلة من هبات النسيم ، ولتحويلها في نفس الوقت الى ضوء ينتشر بهدوء في أرجاء المكان[٤]، وذلك نقلا عن الآية الكريمة «الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري»[٥].

وكان هذا المصباح عادة مخروطي الشكل ، ومصنوع أيضا من الزجاج ويثبت داخل المشكاة بواسطة حامل من السلك يمسك بحافة المشكاة من الخارج[٦].

اما المشكاة نفسها فكانت تعلق من المقابض التي تعلو ظاهر بدنها بواسطة سلاسل من الفضة أو النحاس الاصفر تجمعها من أعلى كرة مستديرة أو بيضية الشكل تعرف باسم الثقل وكان عادة اما من الزجاج[٧] أو الخزف أو من بيض النعام وينتهي بسلسلة تثبت في سقف المسجد أو المكان الذي صنعت برسمه المشكاة .

وأغلب المشكاوات التي وصلتنا ، والتي يحتفظ كل من متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ومتحف المتروبوليتان بنيويورك بأكبر مجموعة منها[٨] تنسب الى عصر المماليك ويجمعها صفات مشتركة تتمثل في شكلها العام الذي يتخذ هيئة إناء الزهور أي على شكل بدن منتفخ يعلوه رقبة منفرجة تنهي بفوهة متسعة وقاعدة مرتفعة مخروطية الشكل[٩] ومن أقدم أمثلة هذا النوع من المشكاوات واحدة محفوظة بمتحف الفن الاسلامي في القاهرة ، ترجع الى سنة ٦٩٣هـ /١٢٩٣م ، صنعت برسم تربة السلطان الاشرف خليل بن قلاوون[١٠]، وهي وان كانت مفقودة القاعدة حاليا ، إلا أنها تنفرد برقبتها المرتفعة (اللوحة رقم ٥) . وهناك مشكاة كاملة لهذا

الشكل محفوظة بنفس المتحف ، وتنسب أيضا الى اواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، بيد أننا نجهل شخصية من أمر بصنعها[11].

ووصلنا أيضا مجموعة اخرى من المشكاوات المملوكية التي شكلت كذلك على هيئة المزهرية الا أنها تتميز بقاعدتها المنخفضة التي تبدو على هيئة حلقة مستديرة مسطحة مثل مشكاة الامير علاء الدين ايدكين البندقداري التي تنسب الى سنة ٦٨٤هـ /١٢٨٥م ، والمحفوظة حاليا بمتحف المتروبوليتان في نيويورك[12]، ومشكاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (اللوحة رقم ٦) ، التي ترجع الى سنة ٦٩٨هـ /١٢٩٩م ، والمحفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة[13].

والى جانب هذه الاشكال المألوفة التي شاعت طوال عصري سلاطين المماليك البحرية والجراكسة ، فقد وصلنا أيضا بعض الاشكال النادرة وهي قليلة للغاية ، من بينها واحدة محفوظة بمتحف الفن الاسلامي في القاهرة[14] تذكرنا بأشكال الطسوت المعدنية المملوكية الطراز ، جاءت من قبة السلطان الاشرف شعبان المشيدة في مدينة القاهرة سنة ٧٧٠هـ /١٣٦٨ ـ ١٣٦٩م .

ويزين هذه المشكاوات زخارف متنوعة نقشت بالتذهيب أو بمادة الميناء المتعددة الالوان التي يتم الحصول عليها عن طريق اذابة مسحوق الزجاج مع بعض الأكاسيد الملونة للحصول على اللون المطلوب مع اضافة مادة زيتية ثم يسخن المزيج حتى يتحول الى مادة سائلة ترسم بها الزخارف المطلوبة على ظاهر المشكاوات . وتتمثل هذه الزخارف في العناصر النباتية التي تتألف من الاوراق المحورة والأفرع المتداخلة المتشابكة التي تتخذ عادة كمهاد لبعض العناصر الزخرفية الاخرى مثل الكتابات العربية (اللوحة رقم ٦) بالاضافة الى رسوم الازهار مثل زهرة عود الصليب وزهرة اللوتس والوريدات التي نجدها بكثرة على مشكاوات السلطان حسن[15] من سنة ٧٦٤هـ /١٣٦٣م (اللوحة رقم ٧) وعلى مشكاوات السلطان الظاهر برقوق[16] من سنة ٧٨٨هـ /١٣٨٦م (اللوحة رقم ٨) . كما وجدت أيضا بعض رسوم الطيور التي نجدها إما سابحة بين الاوراق النباتية كما هو الحال في مشكاة الامير آل ملك الجوكندار (اللوحة رقم ٩) من سنة ٧١٩هـ /١٣١٩م[17]، أو على هيئة طائر ينقض على آخر ، حيث مثل هذا المنظر على قاعدة مشكاة صنعت برسم الامير طغيتمر الدوادار (اللوحة رقم ١٠) من سنة ٧٤٥هـ /١٣٤٤م[18].

وشاعت أيضا على مشكاوات هذا العصر الرسوم الهندسية التي تمثلت في الجامات المستديرة أو المفصصة ، وفي الاشكال البيضاوية ، وفي الخطوط المتداخلة ، وفي الجدائل المتشابكة ، التي نراها بوضوح ممثلة على المشكاة السالفة الذكر وعلى بعض مشكاوات القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي[19]، وعلى مجموعة من مشكاوات السلطان حسن والسلطان الظاهر برقوق بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة[20].

ولعبت الكتابات العربية المنقوشة عادة بخط النسخ المملوكي دورا رئيسيا في زخرفة مشكاوات هذا العصر وكانت تؤلف عادة أشرطة أفقية تلتف حول رقبة المشكاة أو حول بدنها وأحيانا حول قاعدتها (اللوحات رقم ٥ ، ٦ ، ١٠) . وتنقسم هذه الكتابات من حيث المضمون الى نوعين ، الاول عبارة عن كتابات ذات طابع ديني تشتمل غالبا على بعض الآيات القرآنية مثل «الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد»[21]، التي نجدها مدونة على أغلب مشكاوات العصر المملوكي[22]، والتي تتناسب في الواقع مع طبيعة استعمالات هذا النوع من التحف . وأقدم أمثلتها مشكاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون المحفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، اذ تتوج هذه الآية الجزء العلوي من رقبة هذه المشكاة (اللوحة رقم ٦) . كما نجد أيضا الآية الكريمة «انما يعمر مساجد الله من امن بالله واليوم الاخر»[23]، مدونة على بعض المشكاوات الاخرى مثل مشكاة الامير احمد المهمندار من سنة ٧٢٥هـ /١٣٢٤ ـ ١٣٢٥م المحفوظة بمتحف المتروبوليتان في نيويورك[24]، ومشكاة الامير تنكز نائب سلطنة الناصر محمد بن قلاوون بالشام المحروس[25]. والحق ان هذه الآية تقدم لنا دليلا قاطعا على أن بعض هذه المشكاوات

صنع خصيصا برسم انارة بعض المساجد المملوكية . وهناك آية ثالثة «وقل الحمد لله الذي لم يتخذ له ولدا ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا»[٢٦]، وان كانت نادرة الوجود على المشكاوات المملوكية ، اذ لم نصادفها الا على مشكاة واحدة من أوائل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، محفوظة بمتحف المتروبوليتان في نيويورك وتنسب الى السلطان بيبرس الجاشنكير[٢٧]، شأنها في هذا شأن آية الكرسي «الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض»[٢٨] التي نجدها مدونة على رقبة مشكاة باسم الامير مبارك الصالحي محفوظة في المتحف الاسكتلندي بادنبره[٢٩].

أما النوع الثاني من كتابات المشكاوات فيتمثل في الكتابات التذكارية وهي عادة ذات أهمية قصوى بالنسبة للدراسات الاجتماعية والتاريخية والاثرية ، اذ أنها تتضمن في كثير من الاحيان اسم من صنعت بأمره المشكاة مصحوبا بالقابه الفخرية والوظائفية وبعض الادعية المناسبة له ، خاصة اذا كان من بين السلاطين أو كبار الافراد ، بالاضافة الى اسم المكان الذي صنعت برسمه المشكاة لتوضع فيه مثل «برسم تربة ..» الذي نجده على مشكاة الامير ايدكين البندقداري بمتحف المتروبوليتان في نيويورك[٣٠] أو «برسم التربة المباركة» الذي نقرأه على مشكاة السلطان الاشرف خليل المحفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة (اللوحة رقم ٥) أو «برسم الجامع المعمور» الذي ورد على مشكاة الماس الحاجب من سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م المحفوظة بنفس المتحف[٣١].

وقد يرد على المشكاة ايضا اسم الصانع الذي قام بصنعها مثل «عمل العبد الفقير علي بن محمد أمكي ..» الذي نراه مدونا على قاعدة المشكاة السابقة وعلى مشكاة اخرى محفوظة بمتحف المتروبوليتان في نيويورك صنعت برسم الامير قوصون الساقي في سنة ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م[٣٢].

ويزين مشكاوات هذا العصر أيضا مجموعة من الرنوك[٣٣] التي تقطع عادة أشرطة الكتابات وتقسمها الى مناطق متساوية (اللوحة رقم ٩ واللوحة رقم ١٠) . والرنك كلمة فارسية بمعنى اللون[٣٤] استعملت في كل من مصر وبلاد الشام منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي للدلالة على الشارة أو الشعار الذي يتخذه المملوك لنفسه عند تأمير السلطان له ، وكان يثبته عادة على الاشياء الخاصة به من عمائر أو ملابس أو أواني أو غيرها[٣٥]. ومن الثابت أن هيئة الرنك كانت غالبا ذات صلة بالوظيفة التي كان يشغلها صاحبه عند تأميره كالكأس شعار الساقي ، والدواة شعار الدوادار ، والبقجة شعار الجمدار وعصوان البولو أو الجوكان شعار الجوكندار وهكذا . هذا بالاضافة الى مجموعة اخرى من الرنوك الشخصية مثل زهرة اللوتس والوريدة وبعض رسوم الحيوانات او الطيور المشهورة بقوتها مثل الأسد أو النسر وذلك كرمز على قوة أصحابها وعظمتهم[٣٦].

من خلال هذا العرض لمشكاوات عصر سلاطين المماليك ، والزخارف التي تزينها يمكننا التعرف الآن على مشكاة الامير حسين بن جندربك موضوع هذه الدراسة ، فهي تمتاز برقبة مرتفعة ذات فوهة كبيرة ، تعادل في ارتفاعها ارتفاع البدن نفسه ، الذي يتميز بشكله البيضاوي المنتفخ وباكتافه الشديدة الانحدار ، التي كانت تنتهي غالبا بقاعدة مرتفعة مخروطية الشكل ، ولم يتبق منها بكل أسف سوى جزء بسيط يبلغ ارتفاعه حوالي ٦٠ر٠سم ، ودليلنا على ذلك ضيق قطر القاعدة الذي يبلغ ٦ سم ، مما يجعلها قريبة الشبه بكل من مشكاوات آل ملك الجوكندار (اللوحة رقم ٩) ، ومشكاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون من سنة ٧٤١هـ / ١٣٤١م[٣٧] المحفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، كما تبدو وثيقة الصلة بكل من مشكاة الامير طغميتمر الدوادار السابق الاشارة اليها (اللوحة رقم ١٠) ومشكاة محمود بن شروين المعروف بوزير بغداد من حوالي سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م[٣٨].

والواقع ان صلة مشكاة الامير حسين بن جندربك بهذه المجموعة من المشكاوات المعاصرة لها لم تقتصر فقط على الشكل العام ، بل نجد شبها آخر بينهم يتجلى في أسلوب توزيع الزخارف داخل مجموعة من الاشرطة

الافقية التي تلتف حول رقبة المشكاة وبدنها ، اذ نشاهد على الرقبة شريطاً عريضا من الكتابة النسخية نقشت بالميناء الزرقاء على حين حددت اطارات الحروف الخارجية بالميناء الحمراء فوق مهاد من زخارف نباتية متداخلة قوامها أفرع متماوجة رسمت بالميناء البيضاء ، يخرج منها أيضا أوراق نباتية نقشت بالتذهيب وبالميناء البيضاء والخضراء والحمراء ، ويقطع شريط الكتابة ثلاث جامات مستديرة الشكل لكل منها اطار دائري يحصر بداخله زخارف نباتية شفافة تتألف من أوراق ثلاثية ووريدات متعددة الفصوص حددت بالميناء الحمراء ويتوسط كل جامة رنك يحتوي على أربعة قضبان أفقية حددت من أعلى الى أسفل على التوالي بالتذهيب وباللون الاحمر والشفاف والاخضر (اللوحة رقم ٢) .

ويحدد شريط الكتابة عند الحافة واسفل الرقبة شريطان ضيقان بكل منهما زخارف شفافة لعناصر نباتية متماوجة قوامها وريدات وأزهار رسمت بحرية تامة بالميناء الحمراء ، نجد نظيرا لها على رقبة مشكاة الناصر محمد بن قلاوون (اللوحة رقم ٦) ، وعلى أخرى مجهولة الهوية من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي[٣٩].

والواقع أن هذا التوزيع الزخرفي على رقبة المشكاة المتمثل في شريط عريض من الكتابة يتخلله ثلاثة رنوك ، ويحده من أعلى وأسفل شريطان ضيقان من الزخارف النباتية ، قد شاع على بعض مشكاوات عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، اذ نجده على مشكاة آل ملك الجوكندار من سنة ٧١٩هـ /١٣١٩م (اللوحة رقم ٩) ، وعلى مشكاة الماس الحاجب من سنة ٧٣٠هـ /١٣٣٠م[٤٠]، وعلى مشكاة ثالثة تنسب الى الامير طغيتمر الدوادار من سنة ٧٤٥هـ /١٣٤٤م (اللوحة رقم١٠) وعلى بقايا مشكاة باسم الامير أصلم السلحدار من سنة ٧٤٦هـ /١٣٤٥م[٤١]. كما يتكرر أيضا على بدن مشكاة الامير حسين بن جندربك موضوع هذا البحث ، اذ نشاهد شريط عريض من الكتابات النسخية المملوكية الطراز ، تقوم على أرضية طليت بمادة الميناء الزرقاء على حين تركت حروف الكتابة شفافة بدون طلاء وان حددت خطوطها الخارجية بالميناء الحمراء ، يتخللها زخارف نباتية متماوجة ليست بكثافة زخارف الشريط الذي يلتف حول الرقبة . ويقطع شريط الكتابة ستة مقابض زجاجية مضافة تتفق مع تصميم المشكاة ، يحيط بكل منها جامة لوزية الشكل مدببة الرؤس ، تركت غفلا من الزخرفة ، نجد نظيرا لها على مجموعة من مشكاوات القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، منها مشكاة باسم الامير احمد المهمندار من سنة ٧٢٥هـ /١٣٢٥م ، محفوظة في متحف المتروبوليتان في نيويورك[٤٢]، ومشكاة باسم لماس الحاجب في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة[٤٣] وثالثة باسم طغيتمر الدوادار (اللوحة رقم ١٠) ، وخامسة باسم محمود بن شروين المعروف بوزير بغداد في متحف اسكتلنده بادنبره[٤٤]، وسادسة باسم مبارك الصالحي محفوظة بنفس المتحف[٤٥]. كما نجد شبيها لها على احدى المشكاوات التي تحمل اسم السلطان الاشرف شعبان في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة[٤٦].

ويكتنف شريط الكتابة من أعلى ومن أسفل شريطان ضيقان نشاهد في العلوي منهما رسوما لازهار اللوتس على الطراز الصيني ، نقشت بالميناء المتعددة الالوان المتمثلة في الازرق والاحمر والابيض والاخضر ، بالاضافة الى بقايا تذهيب تتعاقب مع وريدات سداسية الفصوص حددت بالتذهيب والميناء الحمراء والبيضاء فوق أرضية منثورة بالأوراق النباتية الشفافة المحددة بالميناء الحمراء ، تكررت في الشريط السفلي .

والحق ان كلا العنصرين : اللوتس والوريدة شاعا بكثرة على التحف المملوكية بصفة عامة[٤٧] وعلى المشكاوات الزجاجية المموهة بالميناء بصفة خاصة لا سيما تلك التي تحمل اسم السلطان حسن (اللوحة رقم ٧) ، واسم السلطان الظاهر برقوق (اللوحة رقم ٨) ، وان كانت الاخيرة تفتقر في الواقع الى الدقة والاتقان في رسومها الزخرفية .

أما الجزء الاسفل من بدن المشكاة فيزينه ثلاث جامات دائرية لكل منها اطار مستدير الشكل يحصر بداخله زخارف نباتية شفافة محددة بالميناء الحمراء ، بداخلها رنك يتكون من أربعة قضبان افقية ملونة تشبه تلك

التي تقطع الشريط الكتابي على رقبة المشكاة ، يقوم بينها زخارف نباتية شفافة تتألف من أفرع متشابكة متداخلة نجد وسطها أوراق ثلاثية الفصوص وأزهار لوتس محورة نقشت بالميناء الحمراء والخضراء والبيضاء ، والجميع محصور داخل شريط عريض يتلوه شريط ضيق يتوج الجزء الفاصل بين البدن وبقايا القاعدة وهو بدوره منثور بزخارف نباتية شفافة ، تنتهي باوراق صغيرة محددة اللون الاحمر (اللوحة رقم ٤) .

خلاصة القول أن زخارف مشكاة الأمير حسين بن جندربك تعكس لنا حرص الفنان على توفير نوع من الانسجام الجميل بين الكتابات النسخية وبين الارضية النباتية المتخذة كمهاد لها . كما تعكس لنا أيضا حرصه على موازنة الامتداد الافقي لترتيب الاشرطة الزخرفية حول ظاهر المشكاة عن طريق ايجاد الجامات المستديرة والمناطق اللوزية المدببة الرؤوس ، التي قام بتوزيعها على كل من الرقبة والبدن في مسافات متساوية .

أما فيما يتعلق بمضمون الاشرطة الكتابية المنقوشة على كل من الرقبة والبدن فهي من النوع التذكاري ، اذ نقرأ على الرقبة العبارة التالية في أقسام ثلاثة : هذا ما أوقفه المقر / الكريم العالي / المولوي الاميري .

وعلى البدن نقرأ بقية النص موزعا على ستة أقسام : الشرفي أمير حسين بن / جندربك أمير شكار / الملكي الناصري / أعز الله أنصاره / برسم الجامع المعمور / بذكر الله تعالى .

والمقصود هنا بالشرفي أمير حسين هو الأمير الكبير شرف الدين حسين بن ابي بكر بن اسماعيل[٤٨] بن جندربك الرومي ، الذي قدم الى مصر في سنة ٦٧٥هـ /١٢٧٦م في صحبة أبيه أيام السلطان الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م) في جملة من قدم من أهل الروم . وتذكر المصادر التاريخية أن أباه كان معظما في بلاده ، اذ كان جاندارا[٤٩] لغياث الدين كيخسرو صاحب الروم[٥٠]، وان حسين هذا خدم لدى الامير حسام الدين لاجين أثناء نيابته لبلاد الشام[٥١]، الذي قربه اليه لشجاعته ومهارته في الصيد واللعب بالطير . وبعد اعتلاء لاجين لعرش السلطنة المملوكية في سنة ٦٩٦هـ /١٢٩٦م استدعاه الى مصر وأنعم عليه بامرة عشرة[٥٢] عاد بعدها ثانية الى دمشق بصحبة جمال الدين أقوش الافرم نائب الشام[٥٣] الذي قربه بدوره اليه واختص به حتى نقله السلطان لاجين الى امرة طبلخاناة[٥٤] بدمشق وبقي بها حتى فرار الافرم الى بلاد التتار فتوجه الامير حسين الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون في الكرك[٥٥] وبقي عنده حتى تركها السلطان الناصر طلبا للديار المصرية في سنة ٧٠٩هـ /١٣٠٩م فسار معه اليها وأصبح من خواصه ، بسبب مهارته في الصيد والرمي بالنشاب وأنعم عليه بتقدمه ألف[٥٦] بالديار المصرية واستقر به أمير شكار[٥٧] وأفرد له زاوية من الطيور الخاص . كما ندبه السلطان الناصر في سنة ٧١٤هـ /١٣١٤م لعمارة ترع وجسور مدينتي أسيوط ومنفلوط[٥٨]. وفي سنة ٧١٧هـ /١٣١٧م حج بصحبة الامير سيف الدين قجليس[٥٩] وصارت له حرمة وافرة في الدولة المملوكية بسبب حب السلطان الناصر له ، اذ كان يؤثره ويعجب بكلامه لدرجة أنه اقطعه طبلخاناة جعلها في تصرفه ينعم بها على من شاء من أقاربه ، واصطحبه معه في سنة ٧٢٠هـ /١٣٢٠م الى الحج ، غير أنه تخلف بدمشق بسبب وقوعه وانكسار رجله ، وبقي بها حتى عاد السلطان من الحجاز فرجع معه الى القاهرة[٦٠]. ويفهم من المصادر المملوكية ان سعد الامير حسين لم يدم طويلا اذ سرعان ما أمر السلطان الناصر محمد بنفيه في العام التالي ، ٧٢١هـ /١٣٢١م ، فأخرج من يومه الى بلاد الشام على اقطاع الأمير جوبان ، ونقل جوبان الى مصر[٦١]. وهناك بقي الأمير حسين بضعة سنوات حظى خلالها بعناية الأمير تنكز نائب الشام[٦٢] حتى تخاصما ، فحنق عليه تنكز وكاتب فيه السلطان الناصر محمد الذي أمر بنقله من جديد الى صفد ليقيم فيها على اقطاعه بالشام ، وكتب الى نائب صفد يأمره بأن يظل الامير حسين طرخانا[٦٣] بغير خدمة على ما يريد . وفي صفد بقي الامير حسين مدة سنتين ونصف حتى تصالح مع تنكز نائب الشام ، الذي حاول ان يحصل على اذن من السلطان الناصر باعادة الامير حسين ثانية الى الشام دون جدوى ، بل بعث السلطان في طلبه الى القاهرة ، فوصلها في ١٩ جمادى الاولى سنة ٧٢٧هـ /١٣ ابريل ١٣٢٧م ، وخلع عليه خلعة أطلس

بطراز زركش وكلفتاه[٦٤] زركش وحياصة مجوهرة[٦٥]، كما انعم عليه باقطاع الامير بهاء الدين أصلم الذي كان قد قبض عليه في مستهل هذا الشهر[٦٦] ولم يزل عليه حتى مات في ٦ المحرم سنة ٧٢٩هـ / ١٠ نوفمبر ١٣٢٨م ودفن بجامعة[٦٧]، اذ تذكر المصادر المعاصرة انه عمر جامعا بجوار داره[٦٨] على الخليج الكبير في البر الغربي من القاهرة بحكر جوهر النوبي[٦٩]، كما عمر القنطرة على الخليج خارج القاهرة[٧٠] قريبا من بستان العدة .

ويرتبط انشاء جامع الامير حسين ، الذي وقف عليه مشكاة دار الآثار الاسلامية بمتحف الكويت الوطني ، بقصة نفيه الى بلاد الشام في سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م ، ذلك أنه أراد أن يفتح خوخة[٧١] في سور القاهرة الغربي ليخرج منها الناس الى جامعة فمنعه والي القاهرة علم الدين سنجر المسروري ، المعروف بالخازن[٧٢] الا أن يشاور السلطان الناصر ، فسمح له لمحبته فيه ، فعمل بابا كبيرا وضرب عليه رنكه ، ثم اتفق ان اجتمع الامير حسين بعلم الدين سنجر والي القاهرة فعاتبه على منعه فتح هذا الباب وبالغ في ذلك حتى قال له : «لقد فتحت بابا رغم أنفك» فحنق منه علم الدين وسارع بالدس عليه لدى السلطان بحجة أنه فتح بابا يعادل باب زويله[٧٣] وعمل عليه رنكه بقصد أن يعمل سلطانا على البارد وما جرت عادة أحد بفتح سور البلد . فأثر هذا الكلام في نفس السلطان أثرا قبيحا وغضب غضبا شديدا وبعث الى نائب السلطنة بأن يسفر الامير حسين بن جندر الى دمشق بحيث لا يبيت في القاهرة فخرج من يومه منفيا كما سبق أن أوضحنا من قبل .

ويقع هذا الجامع حاليا في حارة الامير حسين بالقاهرة من جهة باب الخلق ويلاحظ انه فقد اغلب عناصره المعمارية اذ لم يتبق منه سوى أجزاء قليلة من رواق القبلة الشرقي الذي يقع خلفه القبة التي دفن فيها الأمير حسين بعد وفاته بالاضافة الى بقايا واجهته الجنوبية التي يعلوها مئذنة على الطراز المملوكية ، جددت في سنة ٨٦٦هـ /١٤٦١م ، كما قامت هيئة الآثار بفكها واعادة تركيبها مرة ثانية منذ بضع سنوات . ويتوسط هذه الواجهة مدخل منخفض عن أرضية الطريق العام ، ثبت في تجويفه العلوي لوحة حجرية تتضمن نصا تذكاريا يتألف من أربعة أسطر بخط النسخ المملوكي نصها :

١ـ بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من امن بالله واليوم الاخر .

٢ـ وأقام الصلاة وأتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى اولئك ان يكونوا .

٣ـ من المهتدين[٧٤] أمر بانشاء هذا الجامع المبارك من فضل الله وجزيل عطائه العبد .

٤ـ الفقير الى الله تعالى حسين بن جندربك عفا الله عنه وذلك في شهور سنة تسع عشرة وسبعمائة[٧٥].

ولهذا النص أهمية خاصة لانه يشير صراحة الى تشييد الامير حسين لجامعه في شهور سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م ، وذلك في الوقت الذي أغفلت فيه المصادر المعاصرة الاشارة الى تاريخ الانشاء . كما يساعدنا من جهة أخرى على تأريخ مشكاة دار الآثار الاسلامية بمتحف الكويت الوطني . فهل يمكن نسبة هذه المشكاة الى شهور سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م ؟، وهل يعني هذا أنها معاصرة لمشكاة الامير آل ملك الجوكندار (اللوحة رقم ٩) الذي أنشأ مسجده في نفس العام[٧٦]. الواقع أنه من الصعب الرد على هذه الأسئلة بصورة قاطعة نظرا لخلو هذا النص من الالقاب الفخرية والوظائفية الخاصة بالامير حسين بن جندر ، التي نجدها من حسن الحظ مفصلة على المشكاة موضوع البحث وهي «... المقر الكريم العالي المولوي الاميري ... أمير شكار الملكي الناصري ...» اذ لا يخفى على الباحث في مجال الآثار الاسلامية مدى أهمية هذه السلسلة من الالقاب بالنسبة لتاريخ هذه التحفة بصورة قاطعة .

بتحليل هذه الالقاب نجد ان لقب المقر يعتبر من ألقاب الاصول في العصر المملوكي وكان قاصرا في أول الامر على طبقة السلاطين دون غيرهم بيد أنه سرعان ما أصبح مشاعا لكبار الامراء وغيرهم من أعيان الوزراء من العسكريين بعدما انخفض مركزه وتدهورت رتبته[٧٧]. وجرت العادة ان يلحق بهذا اللقب بعض الصفات التي أدخلها أصحاب دساتير الالقاب في العصر المملوكي مثل المقر الأشرف ، والمقر الشريف ، والمقر الكريم[٧٨]. ويعد

هذا الاخير احد التوابع المباشرة للالقاب الاصول زمن سلاطين المماليك ، وكان يتبع عادة ببعض الالقاب الفروع الاخرى مثل العالي والمولوي . وقد اصطلح كتاب هذا العصر على وضع لقب المولوي في سلسلة الالقاب قبل اللقب الدال على الوضع لما له من دلالة خاصة كالاميري . فكان يقال كما في حالة الامير حسين «المقر الكريم العالي المولوي الاميري» . ويفهم من النقوش والكتابات الاثرية على التحف المملوكية ان أول من تلقب به هو الامير بدر الدين بيسرى كما يشير بذلك نقش من سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٥م على مبخرة من النحاس من مصر ، محفوظة بالمتحف البريطاني[٧٩]. كما نصادفه على العديد من التحف المتنوعة[٨٠] يهمنا منها مشكاة من الزجاج المموه بالميناء في احدى المجموعات الخاصة بالقاهرة ، باسم الامير يلبغا الناصري تنسب الى حوالي سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٣م[٨١] وهي تكاد تكون الوحيدة من بين مشكاوات القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي التي تحمل هذه السلسلة من الالقاب .

ويفهم من القلقشندي ان هذه السلسلة من الالقاب الواردة علي مشكاة الامير حسين وعلى غيرها من التحف المملوكية كانت تختص بالطبقة الثانية من أمراء المئين في كل من الشام وحلب وطرابلس ، أما أمراء الطبقة الاولى منهم أي امراء الديار المصرية ، فكان يكتب لهم بالمقر الشريف العالي[٨٢]، وهذا يعني ببساطة ان مشكاة دار الآثار الاسلامية قد صنعت وقت ان كان الأمير حسين بن جندار منفيا الى بلاد الشام على اقطاع الامير جوبان في الفترة الممتدة بين سنتي ٧٢١ ـ ٧٢٧هـ / ١٣٢١ ـ ١٣٢٧م كما سبق ان نوهنا من قبل ، أي بعد تشييده لمسجده ببضعة سنوات ، اذ من غير المعقول ان تكون هذه المشكاة قد صنعت وقت انشاء الجامعة في شهور سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م وينعت الامير حسين في نصوصها بالمقر الكريم بدلا من المقر الشريف[٨٣] خاصة وقد كان من المقربين الى السلطان الناصر ، اذ يقول المقريزي «وكان للامير حسين اقدام على السلطان وله به موانسة»[٨٤].

أما فيما يتعلق بالقسم الثاني من ألقاب الامير حسين على مشكاة دار الآثار الاسلامية ، ونعنى به «... أمير شكار الملكي الناصري...» فمن المعروف ان الامير حسين شغل وظيفة أمير شكار السلطان الناصر محمد أي أمير الصيد المسؤول عن الصيود السلطانية وجوارح الطير وغيرها من حيوان الصيد وأحواش الطيور . والمتبع لهذه الوظيفة زمن سلاطين المماليك سوف يلاحظ بوضوح انها كانت من الوظائف التي شغلها كبار العسكريين من بين امراء المئين اثناء القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي بدليل ان الامير حسين بن جندر كان يشغلها وذلك على الرغم مما ذكره القلقشندي من أنها كانت تحتل المرتبة الثانية والعشرين بين الوظائف العسكرية بالحضرة السلطانية وأنها كانت قاصرة على امراء العشرات في عصره[٨٥] الأمر الذي يدفع الى الاعتقاد بتدهور قيمة هذه الوظيفة في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وان عادت من جديد الى الارتفاع في الربع الاخير من هذا القرن ، اذ يجعلها ابن شاهين الظاهري في المرتبة التاسعة بين الوظائف التي كان يشغلها امراء الطبلخانات[٨٦].

بقيت ملاحظة أخيرة على سلسلة ألقاب الامير حسين بن جندر وهي ان اسم الوظيفة «أمير شكار» يجيء هنا متبوعا بلقب الملكي الذي يتلوه النعت الخاص بالسلطان مضافا اليه ياء النسبة «الناصري» وهذا يعني ببساطة ان هذا الامير كان من أتباع السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وان النص نقش على مشكاة الامير حسين في حياة هذا السلطان وأثناء قيامه في السلطنة ، الامر الذي يتفق تماما مع ماجاء في المصادر التاريخية المعاصرة .

أما عن عبارة «هذا ما أوقفه ...» التي تسبق سلسلة ألقاب الامير حسين ، فهي تعني من غير شك ان هذا الامير قام بحبس هذه المشكاة على جامعة المذكور وهي عبارة فريدة في نوعها اذ لم نصادفها على أي من مشكاوات العصر المملوكي رغم كثرتها باستثناء مشكاة الامير قجليس الناصري ، المحفوظة بمتحف فكتوريا والبرت في لندن ، التي صنعت قبل مشكاة دار الآثار الاسلامية ببضع سنين في الفترة الممتدة بين سنتي ٧١٥ ـ ٧٣٠هـ / ١٣١٥ ـ ١٣٢٠م ، اذ تكرر عليها نفس العبارة[٨٧]. وهذا ينطبق أيضا على عبارة الدعاء للامير

حسين التي تختتم بها سلسلة ألقابه «أعز الله أنصاره» وهي أيضا لا نظير لها على التحف المملوكية التي نعرفها باستثناء سبيل في دمشق شيد في سنة ٧٨٤هـ /١٤٧٩م وينسب الى الامير يونس الدوادار[٨٨].

ويستلفت النظر في مشكاة الامير حسين تلك المجموعة من الرنوك التي تقطع شريط الكتابة على الرقبة والتي تتكرر ايضا على اسفل بدن المشكاة وجميعها ذات شكل دائري مقسم الى اربعة قضبان افقية ملونة تخلو من الرموز الشائعة في علم الرنوك والتي تدل عادة على الوظيفة التي كان يشغلها الامير في البلاط المملوكي . ورغم ان هذا الشكل الغفل من الرموز يعد مألوفا بالنسبة لرنوك العصر المملوكي ، الا أن الرنك الوارد على مشكاة الامير حسين يعد غريبا بالنسبة لعدد القضبان الاربعة التي توجد داخله ، اذ لم نصادفه الا على مثال فريد عبارة عن قاع اناء من الفخار المطلي ينسب الى القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ضمن مجموعة متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ولكنه بدون كتابة تذكارية مصاحبة مما يقلل من اهميته[٨٩]. وذلك في الوقت الذي وصلنا فيه بضعة رنوك من هذا النوع احدها يحتوي على ثلاثة قضبان فقط ويصاحبه كتابة أثرية باسم علاء الدين البريدي[٩٠] ومن ثم فقد ارتبط هذا الرنك في اذهان بعض علماء الآثار بعامل البريد[٩١] رغم ارتباطه أيضا بكل من السلطان حسام الدين لاجين وبعدد من أمراء النصف الاخير من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي مثل سلار ، وأرغون وكجكن وبكتمر وابنه ابراهيم[٩٢]. كما وصلنا شكل آخر لهذا الرنك الغفل من الرموز يتألف من خمسة قضبان على درع مستدير وجد على متعلقات كل من الأمير بهادر المنجكي والامير قشتمر شاد الدواوين والامير طرنطاي الطباخي مما يجعل من الصعب نسبة هذا الرنك الى وظيفة بعينها[٩٣]. وذلك على النقيض من الرنك الوارد على مشكاة الامير حسين الذي يكاد يكون فريدا في نوعه فهل يمكن اعتباره رنكا للامير شكار .

الواقع أنه من الصعب الاجابة على هذا السؤال بصورة قاطعة ونهائية حتى نعثر على تحف أخرى تحمل هذا الرنك بالاضافة الى عبارة أمير شكار ، خاصة وان المصادر التاريخية التي أشارت الى ضرب الامير حسين بن جندر لرنكه على الخوخه التي فتحها في سور القاهرة الغربي ، لم تهتم باعطائنا وصفا مفصلا لهذا الرنك[٩٤] كما أن هذا السور درس منذ زمن بعيد .

والآن ترى أين صنعت مشكاة الامير حسين بن جندار ؟

للاجابة على هذا السؤال ينبغي التوصل أولا الى رأي قاطع بصدد مركز صناعة الزجاج المموه بالميناء زمن سلاطين المماليك ، وهو أمر في غاية الصعوبة لانه لايزال موضع كثير من الجدل بين علماء الآثار الاسلامية ، اذ يرى البعض ان بلاد الشام كانت مركزا لهذه الصناعة نظرا للشهرة التي حازتها كل من دمشق وحلب والرقة أثناء القرنين السابع والثامن للهجرة / الثالث عشر والرابع عشر للميلاد في المصنوعات الزجاجية المموهة بالميناء حتى عدت منتجاتها من أبدع ما خلفته تلك الصناعة على الاطلاق ، كما أنها غمرت اسواق القاهرة نفسها[٩٥].

على حين يرى البعض الاخر ضرورة نسبة المنتجات الزجاجية المموهة بالميناء التي عثر على اعداد كبيرة منها في عمائر عصر سلاطين المماليك الى الصناعة المصرية دون مظنة الوقوع في الخطأ بسبب التقدم الكبير الذي احرزته مصر ، في صناعة الزجاج عامة[٩٦] وبسبب معرفتها بالزجاج المنزّل بالميناء قبل عصر المماليك[٩٧] مما جعلها أهلا للتقدم الصناعي الذي شهدته البلاد في العصر المملوكي خاصة فيما يتعلق بالمشكاوات المزينة بالميناء التي تعد فخر صناعة الزجاج عند المسلمين على الاطلاق[٩٨]. يضاف الى هذا ما ذكره الحسن بن عبدالله في ثنايا كتابه الذي دونه في سنة ٧٠٨هـ /١٣٠٨م عن وجود مسابك الزجاج في أطراف القاهرة[٩٩] وما كشفت عنه الحفائر الأثرية في مدينة الفسطاط وفي غيرها من بقايا تحف زجاجية وبقايا مسابك لصناعة الزجاج[١٠٠].

والرأي السليم عندنا هو أن كلا من الشام ومصر اشتغلت بصناعة الزجاج المموه بالميناء ، وان كلا البلدين كان مبرزا في هذه الصناعة ، وان كليهما كان خاضعا لسلطان واحد في العصر المملوكي ، ولكن نظرا لأن بلاد

الشام قد سبقت مصر في اتقان زخرفة الزجاج بالميناء فليس من المستبعد ان يكون بعض صناع بلاد الشام ممن يحذقون هذه الصناعة قد هاجروا الى مصر واشتغلوا فيها بصناعة الزجاج المموه بالميناء . ومع هذا فنحن نميل الى الترجيح بأن مشكاة الامير حسين بن جندر قد صنعت في بلاد الشام خاصة وقد ارجعنا تاريخ صنعها الى الفترة الممتدة بين سنتي ٧٢١ ـ ٧٢٧هـ / ١٣٢١ ـ ١٣٢٧م ، وهي فترة نفي الامير حسين الى بلاد الشام .

مجمل القول ان أهمية مشكاة الامير حسين بن جندربك الرومي بدار الآثار الاسلامية بمتحف الكويت الوطني لا تقتصر فقط على أنها استخدمت كوسيلة من وسائل الاضاءة زمن سلاطين المماليك البحرية ، ولكنها ايضا بما احتوت عليه من زخارف وكتابات تذكارية تلقى مزيدا من الضوء على انجازات الفنان المسلم في عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وعلى الأحداث التاريخية التي مرت بالامير حسين منذ قدومه الى الديار المصرية بصحبة والده حتى صار من بين مقدمي الالوف المقربين الى السلطان المذكور . يضاف الى هذا أنها احتفظت لنا باسم الوظيفة التي شغلها هذا الامير في البلاط الناصري والرنك أو الشعار الذي يرمز اليها والذي نجده مسجلا للمرة الاولى عليها . كما ساعدت بما احتوت عليه من ألقاب فخرية في تحديد تاريخ ومكان صناعتها ، شأنها في هذا شأن غيرها من تحف التراث الاسلامي ذات الكتابات الاثرية .

الهوامش

١ـ افتتحت دار الآثار الاسلامية بمتحف الكويت الوطني في الخامس والعشرين من فبراير عام ١٩٨٣ وهي تقوم أساسا على مجموعة التحف الاسلامية الخاصة بالشيخ ناصر صباح الاحمد الصباح التي تزيد على ٢٠٫٠٠٠ تحفة متنوعة .

٢ـ أنتهز هذه الفرصة لأسجل شكري للشيخة حصة صباح السالم مديرة دار الآثار الاسلامية لتفضلها بالموافقة على منحي كل التسهيلات اللازمة من أجل نشر هذه التحفة التي لم تشير اليها الزميلة مايسة محمود داود في رسالتها عن مشكاوات العصر المملوكي التي قدمتها الى جامعة القاهرة لنيل درجة الماجستير .

٣ـ يحتفظ متحف الفن الاسلامي بالقاهرة بواحدة من هذا النوع ، تتميز أيضا بزجاجها الشفاف المائل الى الصفرة وهي مسجلة تحت رقم (٢٨١) وتحمل اسم الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة وتؤرخ بسنة ٧٠٣هـ /١٣٠٣م . أنظر :

M. Herz, Catalogue sommaire des monuments exposés dans le Musée national de l'Art arabe du Caire, 1895, p. 76, no. 29

G. Wiet, Lampes et bouteilles en verre émaillé. Catalogue général du Musée arabe du Caire, 1929, p. 24, pl. VII.

٤ـ حسن الباشا ، المشكاة ، بحث منشور في كتاب القاهرة ، تاريخها ، فنونها ، وآثارها ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٥٩١ .

٥ـ سورة النور آية رقم (٣٥) .

٦ـ عبدالرؤوف علي يوسف ، الزجاج ، بحث منشور في كتاب القاهرة ، ص ٣٣٩ .

٧ـ أنظر بعض الأشكال المصنوعة من الزجاج المموه بالمينا في :

G. Wiet, Lampes, pl. XCII; L.A. Mayer, Saracenic Heraldry, Oxford, 1933, pl. XXXI.

٨ـ حسن الباشا ، المشكاة ، كتاب القاهرة ، ص ٥٩١ .

٩ـ من الملاحظ ان هذا الشكل وجد على اناء فاطمي من خزف البريق المعدني محفوظ في مجموعة كليكان ينسب الى القرن الخامس هـ /الحادي عشر م ، أنظر زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ ، لوحة ١/٣٣ . كما ظهر أيضا على قطعة من الورق الملون محفوظة بدار الآثار الاسلامية تحت رقم LNS 48 MS تنسب الى حوالي القرن السادس هـ /الثاني عشر م . ويشاهد كذلك على لوح من الرخام عثر عليه في المدرسة البدرية بالقاهرة ، محفوظ حاليا في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة تحت رقم ١٩ ينسب الى حوالي منتصف القرن الثامن هـ /الرابع عشر م . أنظر E. Atil, Art of the Mamluks, Washington, 1981, P. 218, fig. 111 وظهر بشكل زخرفي على شاهد قبر من الحجر الجيري من سوريا ينسب الى حوالي سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م ، محفوظ بدار الآثار الاسلامية تحت رقم LNS 18 S وعلى سجادة صلاة محفوظة بنفس الدار من صناعة بورسة في تركيا تنسب الى أواخر القرن ١٠هـ /١٦م ، محفوظة تحت رقم LNS 29 R.

١٠ ـ عن هذه المشكاة انظر :
G. Schmoranz, Old Orintal Gilt and Enamelled Glass Vessels, Vienna and London, 1899, pl. XXVI ; G. Wiet, Lampes, pp. 3-4, pl. IV.

١١ ـ G. Wiet, Lampes, pl. V, no. 7163

١٢ـ
Y. Artin, Description de quatre lampes en verre émaillé et armoiriées, BIE, (1907), pp. 69-81, pl. 1; G. Wiet, Lampes, pp. 5, 154; L. A. Mayer, Saracenic, pp. 83-84, pl. XLI.

١٣ـ
M. Herz, Catalogue, 2e ed., Le Caire, 1906, p. 314, no. 3; G. Wiet, Lampes, pp. 68-69, pl. VI;

معرض الفن الاسلامي في مصر القاهرة ، ابريل ١٩٦٩ ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

١٤ـ G. Wiet, Lampes, p.130, pl. LXI.

١٥ـ
Y. Artin, Description de six lampes de mosquée en verre émaillé, BIE, no. 7, (1986), p. 137; M. Herz, Catalogue, 2e éd, pp. 303, 306, 310, 318, 324, no. 39; G. Schmoranz, Old Oriental Gilt, pl. IX; G. Wiet, Lampes, pl. XXII.

١٦ـ
Lamm, Stüdien über die Weinornamentik in der reifen islamischen Kunst, Svenska Orients ällskaptes arsbok, 1926-1927, p. 41, no. 61; M. Herz, Catalogue, 2e éd., P. 330, no. 61; G. Schmoranz, Old Oridental Gilt, p. 71, no. 22; Wiet, Lampes, pp. 15-16, pl. LXIV.

١٧ـ
M. Herz, Catalogue, 2e éd., pp. 316-317, no. 5; G. Schmoranz, Old Oriental Gilt, p. 58, no. XXIV; Y. Artin, Contribution à l'étude du blason en Orient, London, 1902, p. 132, no. 160; G. Migeon, Manuel d'art musulman, Paris, 1927, II, p. 134; G. Wiet, Lampes, p. 67, pl. X; L.A. Mayer, Saracenic, p. 61; A. Abd ar-Râziq, Deux jeux Sportifs en Egypte au tempsdes Mamlûk, AI, XII, (1974), pl. XV/B.

١٨ـ
Deux lampes en verre émaillé de l'émir Toghaitimor, BIE, I/2, (1907), p. 181, pl. 181, pl. I; Catalogue, 2e éd., p. 332. no. 65; M. Briggs, Muhammaden Architecture in Egypt and Palestine, Oxford, 1924, fig. 239; G. Wiet, Lampes, pp. 70 - 72, pl. XIII; L. A. Mayer, Saracenic, p. 233.

١٩ـ G. Wiet, Lampes, pls XV XVII, XIX

٢٠ـ G. Wiet, Lampes, pls. XXIV – XXVI, LXVII, LXX, LXXXVI, LXXXVIII.

٢١ـ سورة النور ، آية رقم ٣٥

٢٢ـ أنظر بعض الأمثلة الاخرى في كل من : G. Wiet, Lampes, pls XX, XXI, XXVIII XLIII, XLV — XLVIII; L.A. Mayer, Saracenic, pl. XXVIII/1

٢٣ـ سورة التوبة ، آية رقم ١٨ .

٢٤ـ
C.J. Lamm, Mittelaltèrliche Gläser, Berlin, 1930, p. 437, No. 37, pl. 197, fig. 4; G. C. Pier, Saracenic Glase in Orientalischès Archiv, Jg. I, Leipzig, 1911, pl. XXXVIII, fig. 8; E. Kühnel, Die Islamische Kunst, Leipzig, 1929, p. 466, fig. 484; G. Wiet Lamps, p. 158. no. 23; L. A. Mayer, Saracenic, p. 51, pl. XLI/3.

٢٥ـ C. J. Lamm, Gläser, p. 439, pl. 196; L. A. Mayer, Saracenic, pp. 221 – 222, pl. XLI/4.

٢٦ـ سورة الاسراء ، آية رقم ١١١ .

٢٧ـ م . س . ديماند ، الفنون الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ترجمة احمد عيسى ، ص ٤٢٣ ، شكل ١٥٧ ،

٢٨ـ سورة البقرة ، آية رقم ٢٥٥ .

٢٩ـ L. A. Mayer, Saracenic, pp. 156 – 157, pl. XXVIII.

٣٠ـ L. A. Mayer, Saracenic, pp. 83 – 84.

٣١-
Y. Artin, Description de six lamps, BIE, (1886), p. 148, pl. II; G. Wiet, Lampes, pp. 122 - 123, pl. VIII; L. A. Mayer, Saracenic, p. 241.

٣٢- G. Schmoranz, Old Oriental Gilt, pp. 66 - 67, 69, figs. 66 - 68, pl. XXXIV; Y. Artin, Description de quatre lampes, BIE, I, (1907), p. 81, pl. IV, M.S. Dimand, A Handbook of Mohammedan decorative Arts, New York, 1930, p. 196 fig. 120; L.A. Mayer, Saracenic, pp. 186 - 187.

٣٣- عن هذا الموضوع انظر التفاصيل في : Y. Artin, Contribution a l'etude du blason en Orient, London, 1902; L. A. Mayer, Saracenic Heraldry, Oxford, 1933;
محمد مصطفى ، الرنوك المملوكية ، مجلة الرسالة ، مارس ١٩٤٠ ، جمال محرز ، الرنوك المملوكية ، مجلة المقتطف ، مايو ١٩٤١ ، احمد عبدالرازق ، الرنوك على عصر سلاطين المماليك ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الحادي والعشرون ، القاهرة ١٩٧٤ .

٣٤- حسن الباشا ، الفنون والظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٧٠ ، جـ ١ ص ١٧٠ .

٣٥ - القلشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ ، جـ ٤ ص ٦٢ .

٣٦ - يحدثنا المؤرخ ابن اياس ان يشبك من مهدى عندما خرج لحرب شاه سوار وضع في رنكه صفة سبع ، أنظر بدائع الزهور في وقائع الدهور ، بولاق ١٣١٢هـ ، جـ ٢ ص ١٢٧ .

٣٧- G. Wiet, Lamps, pp. 140 - 141, pl. XI

٣٨- G. Migeon, Manuel d'art musulman, II, p. 134;
G. Wiet, Lampes, p. 164; L. A. Mayer, Saracenic, pp. 150 - 151, pl. XVIII.

٣٩- G. WIet, lampes, pl XV, no. 3334.

٤٠- Y. Artin, six Lampes, BIE, pl. II; G. Wiet, Lamps, pl. VIII

٤١- G. Wiet, Lampes, pl. XII, No. 4068

٤٢-
L. J. Lamm, Mittelalterliche Glaser, P. 437, No. 37, pl. 197, fig. 4; L. A. Mayer, Saracenic, pp. 50 - 51, pl. XLI/3

٤٣- Y. Artin, Six lampes, BIE, P. 148, pl II; G. Wiet, Lampes, p. 122, pl. VIII.

٤٤- L. A. Mayer, Saracenic, p. 151, pl. XVIII

٤٥- L. A. Mayer, Saracenic, pp. 156 - 157, pl. XXVIII/1

٤٦- G. Wiet, Lampes, pl. LIX, No. 267.

٤٧- ديماند ، الفنون الاسلامية ، ص ٢٤٢ ، شكل ٨٦ .

٤٨- ذكر ابن تغرى بردى انه ابن أسعد ، انظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٠ - ١٩٧٢ ، جـ ٩ ، ص ٢٧٦ .

٤٩- لفظة مؤلفة من مقطعين : جان ومعناها الروح في الفارسية والتركية ، ودار ومعناها ممسك في الفارسية . والمعنى الكلي المسك للروح . وكان الجاندار بمثابة الحارس ، كما كان يقوم بالتحفظ على الاسرى والمسجونين والمعتقلين في الحبوس والسجون . بالاضافة الى قيامه بالخروج الى الاعمال لتوصيل الحقوق الى مستحقيها أو لخلاص الحقوق لاصحابها . وقد عرفت وظيفة الجاندار في الدولة الغزنوية ، وفي بعض الدول المعاصرة لها ، كما عرفت عند السلاجقة والاتابكة وعند الايوبيين والمماليك أنظر ، القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ ١٣ ، ص ٩٣ - ٩٨ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٦٧ ، جـ ١ ، ص ١٩٥ - ١٩٨ ، ٣٤٨ - ٣٥٠ .

٥٠- المقصود ملك السلاجقة بآسيا الصغرى ، انظر المقريزي ، السلوك في معرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى وسعيد عاشور ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٢ ، جـ ٢ ، ص ٣١٣ ، حاشية رقم (٦) .
عنه أنظر H.Laoust, Les gouvernenrs de Damas sous les mamlouks, Damas, 1952, P.6

٥١- عن أمير عشرة نظر القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ١٤ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العربية ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ - ٢٤١ .

٥٢- عنه انظر H. Laouts. Les gourernenrs de Damas, P.7

٥٣ـ عن هذه الوظيفة أنظر القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ١٤ ـ ٣٩ ، حسن الباشا ، الفنون والظوائف على الآثار العربية ، جـ ١ ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٦ .
٥٤ـ من المعروف أن السلطان الناصر محمد كان قد ترك السلطنة في سنة ٧٠٨هـ /١٣٠٩م وتوجه الى الكرك حيث أقام فيها حتى استعاد سلطنته للمرة الثالثة في سنة ٧٠٩هـ /١٣٠٩م.
٥٥ـ المقصود بها امير مائة مقدم ألف ، انظر القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ١٤ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، حـ ١ ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٩ .
٥٦ـ امير شكار هو لقب من يتحدث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد . وهو مركب من لفظين : أحدهما عربي وهو أمير ، والثاني فارسي وهو شكار بخفض الشين ومعناه الصيد ، فيكون المعنى الكلي أمير الصيد ، أنظر القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٢ ، جـ ٥ ، ص ٤٦١ ، ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر ، القاهرة ١٩٠٦ ، ص ٢٤٨ ، ٣٤٥ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، جـ ١ ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ، Gaudefroy – Demombynes, La Syrie a l'epque des Mamlouks, BAH, Paris, 1923, P.63
٥٧ـ المقريزي ، السلوك . جـ ٢ ، ص ١٣٧ . ابن تغري بردي ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٢٩ ،
٥٨ـ المقريزي ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ١٧٧ .
٥٩ـ ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، القاهرة ١٩٦٦ ، جـ ٢ ، ص ١٣٧
٦٠ـ المقريزي ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢١٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٦٣ .
٦١ـ عنه أنظر H. Laoust, Les gouverneurs de Damas, pp. 8-9
٦٣ـ الامير الطرخان هور الامير البطال . عن هذه اللفظة أنظر القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ ١٣ ، ص ٤٨ ، ٥١ ، ٥٢ .
Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt, A. H. 564 - 741/A.D. 1169 - 1341, Oxford, 1972, pp. 61 - 62, D. Ayalon, Discharges from Service, banishments and imprisonments in Mamluk Society, in The Mamluk Military Society, London, 1979, pp. 25 - 40.
٦٤ـ غطاء للرأس يعرف ايضا بالكلوت ، وهي من رسوم دولة المماليك البحرية ، يلبسها السلطان والامراء وسائر العسكر بغير عمامة فوقها ، ولها كلاليب تعقد تحت الذقن انظر ، القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٤٩ ، المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الاخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠هـ /جـ ٢ ، ص ٩٨ ، ٢١٧ ؛ دوزي ، المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ، بغداد ، ١٩٧١ ، ترجمة أكرم فاضل ، ص ٣١٢ ـ ٣١٣ .
٦٥ـ الحياصة هي المعروفة قديما بالنطاق اي احزام ، وكان لها سوق خاص في القاهرة يعرف بسوق الحوائصيين . وقد صار الامراء الخاصكية في أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون يتخذونها من الذهب ، أو مرصعة بالجواهر ، أنظر المقريزي الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٩ ؛ دوزي ، المعجم المفصل ، ص ١١٩ـ ١٢١ ؛
M. Quatremere, Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte, Paris, 1844 - 1845, I/2, pp. 158 - 159
٦٦ـ المقريزي ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢٨٢ ، ابن تغري بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٨٩ .
٦٧ـ المقريزي ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٣١٣ ـ ٣١٤ ؛ الخطط جـ ٢ ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ ؛ ابن حجر ، الدرر الكامنة ، جـ ٢ ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ؛ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٤٧٥ ح ، جـ ٣ ، ورقة ٣٥ ب .
٦٨ ـ كانت هذه الدار بخط درب سعادة داخل مدينة القاهرة ولم يعد لها اثر الآن ، انظر ابن تغري بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٦٢ ، حاشية رقم (٣) .
٦٩ـ اشار اليه المقريزي بقوله «ان هذا الحكر تجاه الحارة الوزيرية من بر الخليج الغربي بحري بستان العدة ويسلك منه الى قنطرة الامير حسين من طريق تجاه جامع الامير حسين ، وعرف بحكر النوبي لأنه كان بستانا من وقف جوهر النوبي احد الامراء في زمن الملك الكامل محمد بن ابي بكر الايوبي . وما زال بستانا الى نحو سنة ٦٦٠هـ /١٢٦١م فحكر ، وبنى فيه الدور في أيام السلطان الملك الظاهر بيبرس ، أنظر المقريزي ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١١٩ .
٧٠ـ ذكر المقريزي في خططه أنها واقعة على الخليج الكبير ، ويتوصل منها الى بر الخليج الغربي حيث الجامع الذي أنشأه الامير حسين بحكر النوبى ، وقد ظلت هذه القنطرة باقية الى سنة ١٨٩٧م حيث ردمت مع الجزء الاول من الخليج من جهة قنطرة غمرة. ميـــدان بـــاب الخلق ، ومكانها اليوم في الزاوية الشمالية الغربية بميدان باب الخلق ، انظر ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٦ ، ابن تغري بردى ، النجوم جـ ٩ ، ص ٦٣ ، حاشية (١) .

١٢ـ الخوخة هي باب صغير ضمن بوابة كبيرة من الخشب ، يفتح للاستعمال اليومي في حالة عدم الحاجة الى فتح البوابة الكبيرة ، وتعني أيضا الباب الصغير في سور المدينة أو على رأس الدروب أو الازقة داخل المدينة نفسها ، وقد اشار المقريزي الى خوخة الامير حسين هذه بقوله انها كانت من جملة حارة الوزيرية يخرج منها الى اتجاه قنطرة الامير حسين . أنظر الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٦ ـ ٤٧ ، بيد أنه لم يعد لها أثر اليوم شأن السور الغربي كله .

٧٢ـ عنه انظر المقريزي ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨؛ ابن حجر ، الدرر ، جـ ١ ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ ؛ احمد عبدالرازق ، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٦٦ ، رقم ١٠ .

٧٣ ـ المقصود به الباب الحالي الذي اقامه الوزير الفاطمي بدر الجمالي في سنة ٤٨٥هـ /١٠٩٢م بالسور الجنوبي لمدينة القاهرة .

٧٤ ـ سورية التوبة ، آية رقم ١٨ .

٧٥ـ M. Van Berchem, Matériaur pour un corpus inscriptionum arabicarum, I, Egypte, MIFAO, t. 19, Le Caire, 1894-1903, no. 114, p. 184, no. 3; Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, Paris, 1932, pl. 103; K.A.C. Creswell, A. Brief chronology of the Muhammadan monuments of Egypt to A.D. 1517, BIFAO, XVI, 1919, p. 95; Répertoire chronologique d'épigraphie arabe, XIV, p. 133. no. 5407.

٧٦ـ M. Van Berchem, Corpus, I, Egypte, no. 115; K.A.C. Creswell, Brief, p. 95; Répertoise, XIV, p. 134, no. 5408.

٧٧ـ القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٩٤ ، جـ ٦ ، ص ١٢٧ـ ١٤٨ ؛ حسن الباشا ، الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٤٨٩ ـ ٤٩٣ .

٧٨ـ القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٩٥ .

٧٩ـ Repertoire, XII, no. 4725.

٨٠ـ L. A. Mayer, Saracenic, pp. 135, 138, 140, 153, 209, 210, 215, 225.

٨١ـ Lane - Poole, The Art of the Saracens in Egypt, London, 1886, p. 261; Wiet, Lampes, p. 174, no. 127; Mayer, Saracenic, p. 248.

٨٢ـ القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ ١٢ ، ص ٢٨٥ .

٨٣ـ جرى مصطلح كتاب العصر المملوكي على أن يكون لقب الكريم أقل رتبة من الشريف أنظر ، حسن الباشا ، الالقاب الاسلامية ، ص ٤٣٧ .

٨٤ـ المقريزي ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٧ ؛ ابن تغري بردى ، المنهل الصافي ، جـ ٣ ، ورقة ٣٦أ .

٨٥ـ القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٢ .

٨٦ـ ابن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك ، باريس ١٨٩٤ـ ص ١١٤ .

٨٧ـ A. Nesbitt, A descriptive catalogue of the Glass vessels in the south Kensington Museum, London 1878, P. 38; Lane - Poole, The Art of the Saracens, pp. 258 - 272; L. A. Mayer, Saracenic, p. 190.

٨٨ـ L. A. Mayer, Saracenic, p. 256.

٨٩ـ L. A. Mayer, Saracenic, pl. VII/9

٩٠ـ L. A. Mayer, Saracenic, p. 52, pl. XLIV/3

٩١ـ احمد عبدالرازق ، الرنوك ، المجلة التاريخية ، المجلد ٢١ ، ص ٦٩ .

٩٢ـ L. A. Mayer, Saracenic, p. 17.

٩٣ـ احمد عبدالرازق ، الرنوك ، المجلة التاريخية ، المجلد ٢١ ، ص ٧٩ .

٩٤ـ المقريزي ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٤٧ ، السلوك ، جـ ٢ ، ص ٢١٥ ؛ ابن حجر ، الدرر ، جـ ٢ ، ص ١٣٨ ، ابن تغرى البردى ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ٦٣ .

٩٥ـ زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١٧٨ ؛ ديماند ، الفنون الاسلامية ، ص ٢٣٨ .

٩٦- ذكر ناصر خسرو أنه يصنع في مصر زجاج شفاف عظيم النقاوة يشبه الزمرد ويباع بالوزن ، أنظر سفر نامة ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٥١ .

٩٧- المقريزي ، الخطط جـ ١ ، ص ٤١٤ ؛ زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ٤٤ .

٩٨- زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١٨٠ ؛ معرض الفن الاسلامي في مصر ، القاهرة ابريل ١٩٦٩ ، ص ٢١٢ - ٢١٣ .

٩٩- أنظر ما جمعه لام عن موضوع الزجاج من ثنايا كتب الادب والتاريخ والرحلات في كتابه .
C. J. Lamm, Gläser, I, pp. 484 - 508

١٠٠- انظر اللوحات في
Aly Bahgat et Gabriel, Fouilles d'al-Foustat, Paris 1921.

- المصادر والمراجع -

أولاً : المصادر والمراجع العربية :

- ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، بولاق ١٣١٢هـ .
- ابن ثغري بردى ، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٤٧٥ح .
- ابن ثغري بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٠ - ١٩٧٢ .
- ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، القاهرة ١٩٦٦ .
- احمد عبدالرازق ، الرنوك على عصر سلاطين المماليك، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الحادي والعشرون ، القاهرة ١٩٧٤ .
- أحمد عبدالرازق ، شرطة القاهرة زمن سلاطين المماليك ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
- جمال محرز ، الرنوك المملوكية ، مجلة المقتطف ، مايو ١٩٤١ .
- حسن الباشا ، المشكاة ، بحث منشور في كتاب القاهرة ، تاريخها ، فنونها ، وآثارها القاهرة ، ١٩٧٠ .
- حسن الباشا ، الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، القاهرة ١٩٥٧ .
- حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٦٧ .
- دوزى ، المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ، ترجمة أكرم فاضل ، بغداد .
- م . س . ديماند ، الفنون الاسلامية ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٨ .
- زكي محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧ .
- عبدالرؤوف علي يوسف ، الزجاج ، بحث منشور في كتاب القاهرة ، تاريخها ، فنونها ، آثارها ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، القاهرة ١٩١٤ - ١٩٢٨ .
- القلقشندي ، ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر ، القاهرة ١٩٠٦ .
- مارلين جنكينز ، الفن الاسلامي في متحف الكويت الوطني ، مجموعة الصباح ، الكويت ١٩٨٢ .
- محمد مصطفى ، الرنوك المملوكية ، مجلة الرسالة ، مارس ١٩٤٠ .
- معرض الفن الاسلامي في مصر ، ابريل ١٩٦٩ .
- المقريزي ، السلوك في معرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٤٣ - ١٩٧٢ .
- المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠هـ .
- ناصر خسرو ، سفر نامة ، تحقيق يحيى الخشاب ، بيروت ، ١٩٧٠ .

المراجع الاجنبية :

— A. Abd ar — Râziq, Deux jeux sportifs en Egypte au temps o Mamlûks, AI, XII, (1974).

— Y. Artin, Contribution à l'étude du blason en Orient, London, 1902.

— Y. Artin, Description de quatre lampes en verre émaillé et armoiriées, BIE 5e serie, I, (1907).

— Y. Artin, description des six lampses de mosquée en verre émaillé BIE, 2e serie, no 7, (1986).

— D. Ayalon, Discharges from Services, Banishments and imprisonments in Mamlûk Society, in The Military Society, London, 1979.

— A Bahgat et Gabriel, Fouilles d'al—Foustat, Paris, 1921.

— M. Berchem, Materiaux pour un corpus inscriptionum arabicarum, I, Egypte, MIFAO, t. 19, Le Caire, 1894 — 1903.

— M. Briggs, Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine, Oxford, 1924.
— K.A.C. Creswell, A. Brief chronology of the Muhammadan Monuments of Egypt to A.D. 1517, BIFAO, XVI, Le Caire 1919.
— M.S. Dimand, A Handbook of Mohammedan Decorative Arts, New — York, 1930.
— Gaudefroy — Demombynes, La Syrie à l'époque des Mamlouks, BAH, Paris 1923.
— Hautecoeur et Wiet, Les mosquées du Caire, Paris 1932.
— M. Herz, Catalogue sommaire des monuments exposés dans le Musée National de l'Art Arabe, Le Caire, 1895, 1906.
— M. Herz, Deux lampes en verre émaillé de l'émir Toghaitimor, BIE, 5e serie, I/2, (1907).
— C.J. Lamm, Mittelalterliche Gläser und Steinschittarbeiten aus dem Nahen Osten, Berlin, 1930.
— C.J. Lamm, stüdien über die Weinornamentik in der reifen islamicschen Kunst, Svenska Orients ällskuptes arsbok, 1926 — 1927.
— S. Lane — Poole, The Art of the Saracens in Egypt, London, 1861
— H. Laoust, les gourernenes de Damas sous les mamlouks et les premiers Ottomans, Damas, 1952
— L.A.Mayer, Saracenic Heraldry, Oxford, 1933.
— G. Migeon, Manuel d'art Musulman, Paris, 1927.
— A. Nesbitt, A descriptive catalogue of the Galss vessels on the south Kensington Museum, London, 1878.
— E. Quatremere, Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte, 1844 — 1845.
— H. Rabie, The Financial System of Egypt, A.H. 564 — 741/A. D. 1169 — 1341, Oxford, 1972.
— Répertoire chronologique d' épigraphie arabe, I — XVII, Le Caire.
— G. Schmoranz, Old Oriental Gilt and Enamelled Glass vessels, Vienna and London, 1899.
— G. Wiet, Lampes et bouteilles en verre emaille, catalogue general du Musée Arabe du Caire, Le Caire, 1929.

شرح اللوحات

١ـ ٤ مشكاة باسم الامير حسين بن جندر بك الرومي من حوالي سنة ٧٢١ ـ ٧٢٧هـ /١٣٢١ ـ ١٣٢٧م ، دار الآثار الاسلامية ، متحف الكويت الوطني ، رقم السجل LNS 5G

٥ـ مشكاة باسم السلطان الاشرف خليل بن قلاوون ، تنسب الى سنة ٦٩٣هـ /١٢٩٣م ، متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ٢٦٤ .

٦ـ مشكاة باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، تنسب الى سنة ٦٩٨هـ /١٢٩٩م ، متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ٣١٣ .

٧ـ مشكاة تنسب الى السلطان حسن بن محمد بن قلاوون ، تنسب الى سنة ٧٦٤هـ /١٣٦٤م ، متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ٢٧٠ .

٨ـ مشكاة باسم السلطان الظاهر برقوق ، تنسب الى سنة ٧٨٨هـ /١٣٨٦م . متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ٢٧٤ .

٩ـ مشكاة باسم آل ملك الجوكندار ، تنسب الى سنة ٧١٩هـ /١٣١٩م ، متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ٣١٢ .

١٠ـ مشكاة باسم طغيتمر الدوادار ، تنسب الى سنة ٧٤٥هـ /١٣٤٤م ، متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، رقم السجل ٣١٤ .

اللوحة رقم ١



اللوحة رقم ٢



اللوحة رقم ٣



اللوحة رقم ٤



اللوحة رقم ٥



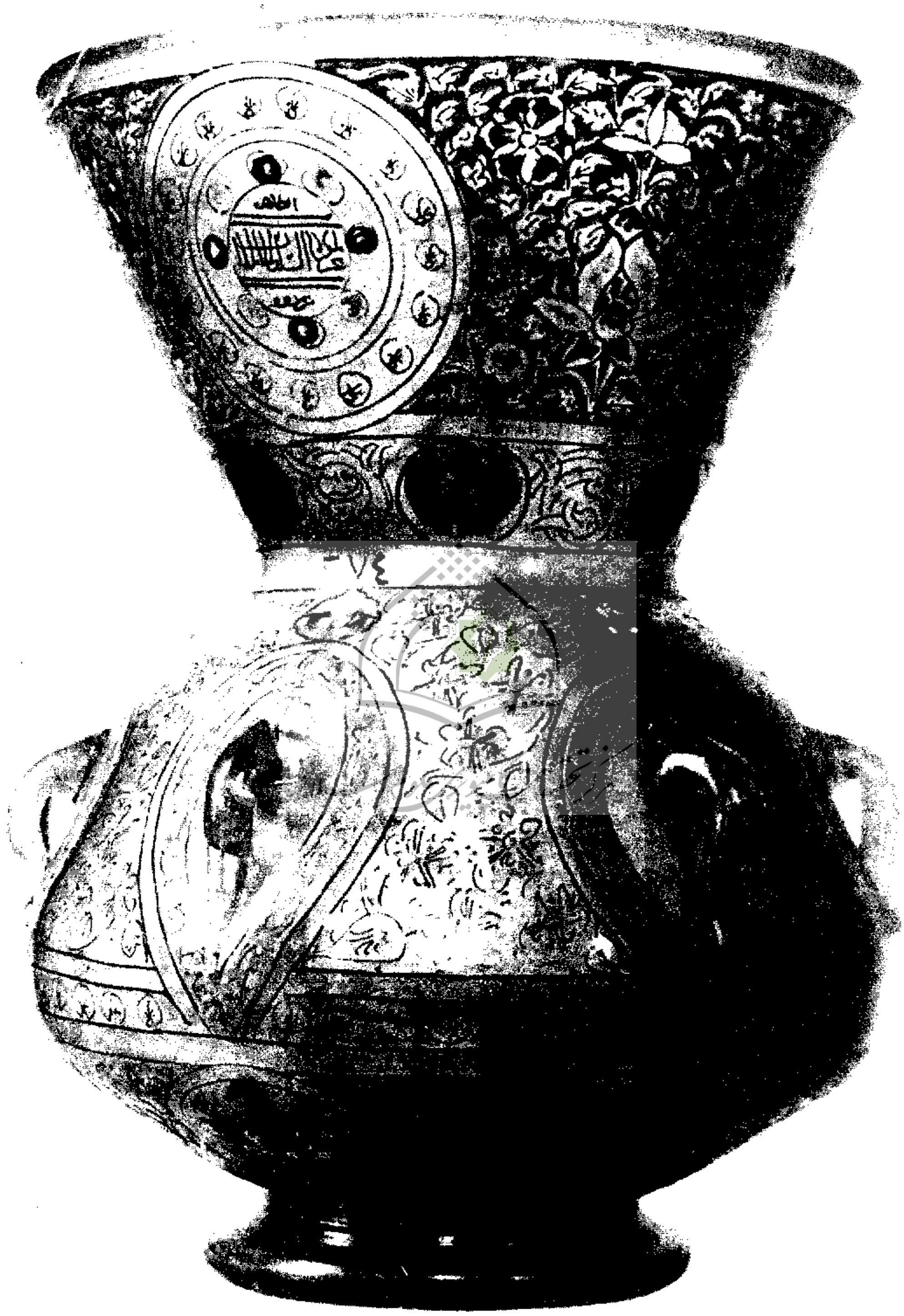
اللوحة رقم ٦



اللوحة رقم ٧



اللوحة رقم ٨



اللوحة رقم ٩



اللوحة رقم ١٠



التأثيرات الشامية في حضارة الأندلس
على عهد الأمير عبدالرحمن الداخل *
١٣٨ - ١٧٢هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨م

للدكتور محمد أحمد ابو الفضل
كلية الآداب - جامعة الامارات العربية المتحدة

كان الفتح الاسلامي لاسبانيا حدثا سياسيا وحضاريا هاما ، إذ أصبحت إسبانيا إقليما إسلاميا تابعا للخلافة الأموية ، وانسلخت عن أوروبا المسيحية . وطبع الاسلام إسبانيا بطابع مميز زاده ما اكتسبته من امتزاج حضارتها السابقة بحضارة الاسلام ، فنتج عن هذا الامتزاج فيما بعد حضارة اندلسية اسلامية .

فالمعروف أن الاندلس أصبحت منذ الفتح الاسلامي حتى سنة ١٣٢هـ /٧٥١م ولاية اسلامية تابعة لخلافة المشرق ، ولهذا فقد تأثرت الأندلس بالحضارة الشامية وسارت على نهجها . ومنذ قيام الامارة الاموية بالاندلس أخذ طابع الاستقلال السياسي عن المشرق يقوى فيها وإن استمرت الامارة الاندلسية تتلقى التأثيرات الحضارية من المشرق .

وعند اعتلاء عبدالرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ١٣٨ - ١٧٢هـ /٧٥٦ - ٧٨٨م كرسي الامارة في الأندلس عمل أولا على توحيد أقاليمها وإحلال الأمن والاستقرار بها ، واستطاع أن يقضي على عناصر الفوضى ونزعات الانفصال المتمثلة فيما اقتطعه العرب والبربر من النواحي التي تطلعوا إلى الاستقلال بها ، فأخذهم عبدالرحمن الداخل بالشدة والحزم فدخلوا في طاعته . وعلى ذلك أعاد «الداخل» هيبة الأمويين وأحاط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء ، ولكنه لم يتلقب بلقب الخليفة بل اكتفى بأن أضاف الى اسمه لقب «ابن الخلائف» ، وهو اللقب الذي استمر في خلفائه من بعده حتى سنة ٣١٦هـ /٩٢٨م عندما تلقب عبدالرحمن بن محمد بلقب الخلافة . واستمرت الاندلس على عهد عبدالرحمن الداخل تتلقى مؤثرات الحضارة الشامية في شتى المجالات العمرانية والاقتصادية والادبية والدينية .

ففي مجال العمران ، يرجع الفضل الأول في تمصير قرطبة وتجميلها وتنظيم شئونها الى الأمير عبدالرحمن الداخل ، فزودها بروائع المنشآت والعمائر ، وقامت فيها حركة معمارية وعمرانية لم تشهد لها نظيرا من قبل . فاتخذت قرطبة منذ ذلك الحين مظهر المدن الكبيرة ، وأصبحت جديرة بأن تكون عاصمة للامارة الأموية ، ويعبر المقرى عن ذلك في «نفحه» ، فيقول : «لما تمهد ملكة (أي عبدالرحمن الداخل) شرع في تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها وشيد مبانيها ، وحصنها بالسور ، وابتنى قصر الامارة والمسجد الجامع ، ووسع فناءه ، وأصلح مساجد الكور»(١). فأقام الداخل المنية المعروفة بالرصافة الى الشمال الغربي من قرطبة لنزهه وسكناه أكثر أوقاته ، في أول سني حكمه ، وذلك تشبها بما كان يفعله أجداده في المشرق من تشييد القصور خارج مدينة دمشق حاضرة خلافتهم ، ربما للتمتع بهدوء الصحراء بعيدا عن عيون رعاياهم أو لقضاء الشتاء في البوادي(٢). وعلى ذلك فإن معظم قصور الأمويين في المشرق أقيمت في أودية الأردن مثل قصير عمرة في عصر الوليد بن عبدالملك وقصر المشتى والطوبة في عصر الوليد الثاني(٣)، وقصر الحير الغربي الذي يقع جنوب غرب تدمر ،

وقصر الحير الشرقي الذي يقع شمال شرقي تدمر في عصر هشام بن عبدالملك[٤]، فحاكى عبدالرحمن الداخل ببناء الرصافة قصر جده هشام بن عبدالملك الذي بناه هو الآخر خارج دمشق سنة ١١٠هـ /٧٢٨م وسماه بهذا الاسم أيضا[٥]. وقد أوضح المقرى ذلك في قوله : «فاتخذ بها قصرا حسنا ، ودحا جنانا واسعة ، ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسولاه الى الشام من النوى المختار والحبوب الغريبة»[٦].

كما شيد عبدالرحمن الداخل قصرا آخر بقرطبة أورده مؤرخو العرب عُرف بقصر الدمشق وظهر فيه بوضوح التقليد الشامي ، اتخذه بنوه بعد ذلك «ميدان مراحهم ومضمار أفراحهم»[٧]، وحاكوا به قصرهم بالشام . وقد شيد عبدالرحمن الداخل هذا القصر بالصفائح والعمد ، وأبدع بناءه ، ونمق ساحاته ، فكسى سقفه بالزخارف المذهبة والمفضضة ، وأحاط رياضه وحدائقه وجداوله في ساحاته وأفنيته بأرضيات مرخمة[٨].

يما عن عمارة المسجد الجامع بقرطبة فقد أوضح المقرى : «أنه لما افتتح المسلمون الأندلس ، امتثلوا ما فعله أبوعبيدة ابن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر رضي الله تعالى عنه بالشام من مشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذوه صلحا ، فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كينستهم العظمى التي كانت داخل مدينتها تحت السور ، وكانوا يسمونها بشنت بنجنت ، وابتنوا في ذلك الشطر مسجدا جامعا ، وبقى الشطر الثاني بايدي النصارى ، وهُدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة ، واقتنع المسلمون بما في أيديهم ، الى ان كثروا وتزيدت عمارة قرطبة ، ونزلها أمراء العرب ، فضاق عنهم ذلك المسجد ، وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنون بها ، حتى كان الناس ينالون في الوصول الى داخل المجلس الأعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف ، وقصر أبوابها وتطامن سقفها ، حتى ما يمكن اكثرهم القيام على اعتدال ، لتقارب سقفها من الأرض . ولم يزل المسجد على هذه الصفة الى ان دخل الامير عبدالرحمن بن معاوية المرواني الى الاندلس ، واستولى على امارتها ، وسكن دار سلطانها قرطبة ، وتمدنت به ، فنظر في أمر الجامع ، وذهب الى توسعته ، واتقان بنيانه ، فأحضر أعاظم النصارى وسامهم بيع ما بقى بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليُدخله فيه ، وأوسع لهم البذل ، وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه ، فأبوا من بيع ما بأيديهم ، وسألوا بعد الجد بهم أن يباحوا بناء كنيستهم التى هُدمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به ، فتم الأمر على ذلك ، وكان ذلك ثمان وستين ومائة ، فابتنى عند ذلك عبدالرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لاحاجة الى تفسير الزيادة فيه ، وإنما الحاجة في وصفه بكماله ، وفي بنائه لهذه الزيادة ، قال : «وكمل سنة سبعين ومائة»[٩]. ونخرج من هذا النص بالمعلومات التالية : ان المسلمين كانوا يشاطرون الروم في كنائسهم مثل كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق وغيرها مما أخذوه صلحا بناء على رأي الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأنهم امتثلوا بما حدث في الشام فشاطروا أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى شنت بنجنت Sant Vincent وابتنوا مسجدهم الجامع ، وأن عبدالرحمن الداخل عندما استولى على امارة الاندلس ، وأبقى على قرطبة حاضرة لامارته نظر في أمر شراء ما بقى من كنيسة شنت بنجنت ففاوض أعاظم النصارى بالترغيب تارة وبالترهيب تارة اخرى حتى وافقوا بشرط أن يسمح لهم ببناء كنيسة لهم خارج المدينة بدل التي هُدمَتْ عليهم ، وأن عبدالرحمن الداخل ابتنى المسجد الجامع سنة ١٦٨هـ / ٧٨٤م وأكمله سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦م .

غير أننا نرتاب في أن المسلمين قاموا بمشاطرة الروم في كنائسهم مثل كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق وغيرها بناءً عن رأي الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهذا الأمر يتعارض مع ما كفله الاسلام من حرية دينية لأهل الكتاب وممارسة شعائرهم وطقوسهم دون تدخل من الادارة الاسلامية وَفْقَ القاعدة الاساسية في قوله تعالى «لا إكراه في الدين» . ولعل المقصود هنا بتقسيم كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق بين النصارى والمسلمين ، هو مشاطرة المسلمين لهم في السياج الخارجي فقط دون الكنيسة نفسها ، يؤيد ذلك

العالم الأثري كريزويل والذي يضيف بأن هذه الكنيسة ظلت قائمة وفي حالة سليمة حتى عهد الوليد بن عبدالملك فهدمها[١١]. أما عن اختيار المسلمين لموضع كنيسة يوحنا المعمدان فربما يرجع الى أن هذه الكنيسة كانت تقع في وسط المدينة وهذا يتوافق مع حرص المسلمين على أن تكون مساجدهم الجامعة في مركز المدينة .

وأما عن مشاطرة مسلمى الأندلس أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى المسماة بشنت بنجنت وتأسيس مسجدهم الجامع ، فإن المسلمين في الأندلس احتذوا ما فعله مسلموا الشام فلم يقتسموا كنيسة شنت بنجنت مع أعاجم قرطبة ، لكنهم بَنْوا مسجدهم الجامع في الأرض الفضاء الملحقة بالكنيسة والتي كانت تضم مرافقة مختلفة : كصلايات ومعمودية ودار أسقيفة وفناء . وأن الكنيسة الفعلية بمذبحها وأروقتها ظلت من نصيب النصارى[١٢]. ومن الغريب أن فلوريث Florez في دراسته التى أعدها عن قائمة الكنائس القرطبية السابقة على الفتح الاسلامي لم يورد ذكر كنيسة باسم Sant Vincent[١٣]. وهذا يحملنا على الاعتقاد بأن كنيسة شنت بنجنت كانت مهجورة قبل الفتح الاسلامي ، وأن المسلمين تفاوضوا مع نصارى قرطبة في شراء نصف الأرض المحيطة بالكنيسة لاقامة مسجدهم الأول .

ولعل فيما يُذْهبْ إليه من أن الامير عبدالرحمن الداخل نظر في شراء ما بقى من كنيسة شنت بنجنت ، فهذا لا يتعارض مع التسامح الديني مع مستعربي الأندلس إذ كان في وسع أمير الأندلس أن يستولي بالقوة عليها ولكنه آثر التفاوض بل ووافق على إعادة بناء كنيستهم التي هدمت خارج سور قرطبة والمسماة بكنيسة شنت أجلح[١٤].

بقى أن نشير إلى أن ثمة اختلافا في تأريخ بناء المسجد الجامع بين روايتي المقرى وابن عذارى ذلك أن الأول يحدد بناءه في سنة ١٦٨هـ / ٧٨٤م وانتهاءه في سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م دون الاشارة الى تاريخ انتهائه[١٥]. ويرجح العالم الأثري الاسباني توريس بالباس أن البناء لم يستكمل نهائيا في سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦م على عهد عبدالرحمن الداخل[١٦]. وإن كنا نوافق على ما ذهب اليه توريس بالباس من أن البناء لم يكتمل تماما في عهد عبدالرحمن الداخل ، وقام خلفه هشام باستكمال بعض عناصر كالصومعة وسقائف النساء والميضأة[١٧]، فإننا على الأقل نرى أن المسجد الجامع كان صالحا لاستخدامه في الصلاة .

وهكذا قام الأمير عبدالرحمن الداخل ببناء المسجد الجامع في قرطبة مقلدا ما أُتبع في الشام ، وقد أورد الادريسي وصفا لهذا المسجد الجامع يُفهم منه أنه كان ينقسم قسمين : قسم مسقوف هو رواق القبلة ببلاطاته وأعمدته ، وقسم مكشوف هو الفناء أو الصحن[١٨]. أما رواق القبلة ، فكان يتكون من احدى عشر بلاطة تسير كلها ببائكاتها في اتجاه عمودي على جدار القبلة ممتدة على اثنى عشر قوسا في كل بلاط ، وتقوم عقوده على عُمد من الرخام جلبها المسلمون من بقايا الكنائس الخربة ، وكان البلاط الأوسط أكثر اتساعا من البلاطات الجانبية (شكل ١) وهو في هذا يشبه المسجد الأقصى الذي شيده الخليفة المهدي العباسي في عام ١٦٣هـ / ٧٨٠م والذي كان رواق القبلة فيه ينقسم الى بلاطات عددها خمسة عشر بلاطة تتجه كلها عمودية على جدار القبلة ، وكان الرواق الأوسط أكثر اتساعا من البلاطات الجانبية (شكل ٢) ، أما صحن المسجد الجامع بقرطبة فقد كان مغروسا بالاشجار ، فقد عهد الأمير عبدالرحمن الداخل الى عبدالله بن صعصعه بن سلام (ت : ١٩٢هـ / ٨٠٧م) صاحب الصلاة بقرطبة أن يغرس صحن المسجد بالاشجار ، واتبع أمراء الاندلس وخلفاؤهم هذا التقليد ، ثم طبق بعد ذلك في مساجد الاندلس ، وأصبحت أبهاؤها تغرس بأشجار الليمون والنارنج[١٩]، وهذا تأثير شامي عن مذهب الامام الأوزاعي .

وقد ساد اعتقاد بين بعض الأثريين أن عمارة المسجد الجامع بقرطبة تأثرت بالنظام المتراكب للعقود المعمول به في جامع دمشق ، ويعللون ذلك بأن تدرج الارض نحو الارتفاع في شمال المسجد كان له عظيم الأثر في الاقتداء بهذا النظام ، فطبقه في قرطبة ولكن بمعالجة مختلفة وبطريقة أكثر أصالة ، فبعد أن رفع السقف إلى

ضعف ارتفاعه باستخدام الدعائم فوق العمد ، اخذت العقود القرطبية صورة جديدة مبتكرة ساعد على ذلك توافر عناصر البناء ومواده وطبيعة سطح الأرض والحاجة الى زيادة ارتفاع سقف المسجد الجامع[٢٠]. غير أننا نرى أنه ليس هناك أي وجه شبه بين فكرة ازدواج العقود بالمسجد الجامع بقرطبة والمسجد الاموي الجامع بدمشق ، ذلك أن النظام المعمول به في المسجد الجامع بدمشق يهدف الى تخفيف الثقل على العقود بعمل فتحات معقودة ، أما في جامع قرطبة فهي فكرة جديدة مبتكرة (شكل ٣) .

في حين يرى البعض الآخر أن اصل فكرة ازدواج العقود بالمسجد الجامع بقرطبة ، ترجع الى عقود الجسور الرومانية التي تقوم على طابقين أو ثلاثة وذلك بمقارنة نظام عقود جامع قرطبة بعقود الجسر الروماني بماردة وهو الجسر المعروف بجسر المعجزات Los Milagros، فزعموا أن عقود الجسر المذكور تقوم بنفس الوظيفة البنائية التي تقوم بها العقود السفلى بجامع قرطبة وهي الربط بين الدعائم المرتفعة تفاديا لانهيارها[٢١]. وقد ناقش هذه المشكلة العالم الاثري كريزويل فقال : «لقد قيل إن هذا النظام القرطبي استلهمه مهندس الجامع من العقود المزدوجة بالجسور الرومانية مثل الجسر المعروف بلوس ميلاجروس بماردة ، ولكن العقود القرطبية هنا ليست مثلها ، ولذلك فإننا يجب أن نعطي مهندس الجامع ما يستحقه من الأصالة لتوفيقه إلى هذا الحل البارع الذي لايوجد له نظير في أي مكان[٢٢]، وقد أيده في ذلك العالم الأثري المغفور له الدكتور احمد فكري الذي بيّن أن فكرة العقود المتراكبة في المسجد الجامع بقرطبة ابتداع فريد في تاريخ العمارة[٢٣].

كما يتجلى مظهر آخر من مظاهر التأثير الشامي في المسجد الجامع بقرطبة في تناوب الصنجات الحجرية مع الصنجات المتخذة من قوالب الآجر بالعقود ، مثل نظيرتها في عقود المسجد الجامع الأموي في دمشق ، وبعض العقود بجامع حماه وبعض القصور الأموية مثل حصن الحلابات حيث تتناوب صنجات رخامية مع أخرى من البازلت[٢٤]. وهي فكرة انتشرت بعد ذلك لبناء جدران العمائر وسماها المؤرخون العرب «الأبلق» حيث كان يتناوب استخدام الحجر الفاتح اللون والحجر الداكن أو البازلت ، وهذا الاسلوب انتشر في الشام حيث يتوافر الحجر الجيري وحجر البازلت (١٢٤أ) (شكل ٤) .

وفي المجال الاقتصادي ، فإن النشاط الزراعي في إمارة الأندلس كان يمثل الركيزة الأساسية في هذا المجال ، وعلى ذلك اهتم عبدالرحمن الداخل بالنشاط الزراعي وتنوعه . كان عبدالرحمن الداخل يرسل عملاءه الى المشرق لجلب الفاكهة من الشام والحبوب الغذائية التي لم تزرع في إمارة الأندلس ، من قبل ، وكان لاهتمامه ورعايته في هذا المجال عظيم الأثر إذ سرعان ما نجحت زراعتها وعم انتشارها بأرض الأندلس الخصيبة واكتسبت شهرة واسعة لما لها من مذاق طيب لم يعرفه الأندلسيون عن هذه الأنواع الجديدة من الفاكهة الشرقية من قبل[٢٥]، ولقد عدد ابن سعيد المغربي أصناف هذه الفاكهة ومنها الرمان السفري ووصفه «بالفضيلة المقدم على أجناس الرمان بعذوبة الطعم ورقة الحجم ، وغزارة الماء ، وحسن الصورة»[٢٦].

والغريب هنا أن عبدالرحمن الداخل كان يعرض رمانه على خواصه بفخر وزهو ، ويقال في سبب انتشار غرسه بأرض الأندلس أن الذي استجلبه الى الأندلس احد اجناد الأردن وهو سفر بن يزيد الكلاعى ، وأعطى عبدالرحمن بعضا من ذلك الرمان له ، فراق حسنه وخبره ، فسار سفر به الى قرية بكورة ريه ، وتفنن في غرسه واستنباطه بها ، فأثمر وأينع ، وفاق الرمان الشامي في حلاوته وشكله ، وعندما أيقن من نجاح غرسه حمل بعض ثمراته الى الامير عبدالرحمن ، فوجد أن لا يختلف عن الرمان الرصافي الشامي ، فسأله الامير عن مصدره فأخبره سفر بحيلته في استنباطه ، فأعجب الامير به وأمر فاغترس منه بمنية الرصافة وبغيرها من بساتينه ، وهكذا انتشرت زراعة الرمان وعرف بالرمان السفري الى أيام ابن سعيد المغربي[٢٧]، ولايزال هذا النوع من الرمان معروفا في اسبانيا بحلاوته وصغر حجمه ويسمى بنفس الاسم أيضا Azifiri[٢٨].

أما من الناحية الأدبية ، فقد كانت هي الأخرى متأثرة بالتقاليد الشامية ، وهذا أمر طبيعي بل يكاد يكون ضروريا لأسباب منها : ازدهار العلوم النقلية والعقلية في المشرق في الوقت الذي كان الأندلسيون أحوج الى

التزود بهذه العلوم ، لذا كثرت رحلاتهم العلمية والدينية الى المشرق الاسلامي رغبة وحبا في التزود بالعلم والايمان وأداء فريضة الحج . وقد خصص المقرى اجزاء من «نفحه» لذكر من سافر من الاندلسيين الى المشرق في طلب العلم واداء فريضة الحج ، مما أسفر عن تعرفهم على الحركة الأدبية المشرقية فساروا على نهجها ، وأسرفوا في تقليدها(٢٩). وقد لاحظ ذلك ابن بسام الشنتريني ، فعبر عن ذلك في مقدمة ذخيرته : «إلا أن أهل هذا الأفق (أي الأندلس) أبوا إلا متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما ، وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذية ، لايعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرّف فيها لسان ولا يد»(٣٠).

ومهما يكن من شيء فإن المشرق كان بصفة عامة والشام بصفة خاصة قبلة لطلاب العلم الأندلسيين نقلوا عنه وتأثروا به ، وضح ذلك فيما بعد في الأدب الأندلسي شعره ونثره على عهد الامير عبدالرحمن الداخل وخلفائه من بعده ، فالشعر الأندلسي في هذه الفترة كان يحاكي شعر المشرق ، غير أن جمال طبيعة قرطبة بنهرها الوادي الكبير ، وسهولها الخضراء ، وغياضها الملتفة ، كان له أكبر الأثر في إسراف شعرائها في تعلقهم بها ، فوصفوا رياضها وبساتينها ومنازهها ، وأدى ارتباط فن الشعر بفنون الغناء والطرب الى استكثار أهل قرطبة من مجالس الأنس والشراب ، وممن برز من الشعراء في عصر عبدالرحمن الداخل ، الشاعر عاصم بن يزيد التميمي المعروف بأبي المخشى(٣١). وكان الامير عبدالرحمن الداخل نفسه شاعرا وهذه الشاعرية ليست غريبة عليه لأنها موهبة متوارثة في بني أمية ورثها ابناؤه من بعده ، ومن شعره الذي يصف فيه نخلة أثارت شجونه(٣٢)، يتبين لنا مدى تعلق هذا الامير بمسقط رأسه الشام ، فلا نستغرب بعد ذلك اهتمامه بنقل كل ما هو شامي ليعوض به بعده عن وطنه ويحس كأنه لم يغادره.

أما الحياة الدينية في الأندلس على عهد الامير عبدالرحمن الداخل ، فكانت هي الأخرى متأثرة بالشام ، فقد اعتنق الأندلسيون مذهب عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام الشام ٨٨ ـ ١٥٧هـ / ٧٠٧ ـ ٧٧٤م(٣٣)، بحكم الرابطة المتينة بين الأندلس وبلاد الشام ، ولتجدد الدولة الأموية في الأندلس ، ولتوافق ما ذهب اليه هذا الفقيه وخاصة في التشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد(٣٤)، مع ما كان يسود الأندلس في هذه الفترة من عدم استقرار واضطراب ، فقد عالج الامام الاوزاعي الاحكام العامة المتعلقة بالحرب وأفاض فيها وعرض لجزئياتها عرضا دقيقا ، فمن الاحكام العامة أحكام الجهاد والمبارزة ، وتحريق المشركين بالنار ورميهم بالمنجنيق ، والتحريق والتخريب في بلاد العدو ، وأحكام المهادنة ، ومهادنة المسلمين أهل الحرب (الصلح المؤقت) وأسرى الحرب من المشركين ، والمفاداة ، وأحكام الغنائم ، وأحكام عقد الذمة ، والصلح الدائم وغير ذلك من القضايا الكبرى(٣٥).

وعلى سبيل المثال ، فمن الاحكام التفصيلية التي عرضها الامام الاوزاعي ، جهاد الولد وهل يتوقف على إذن أبويه ، ونقل نساء المسلمين والذرية الى الثغور ، وحكم قتال المشركين اذا تترسوا بنسائهم أو بصبيانهم أو بأطفال المسلمين أو بأسراهم ، وحكم رمي الحصن وفيه أسرى المسلمين ، وعقوبة الأسير ، وأمان الأسير ، وأمان المستأمن والحربي إذا أسلما ، وأموال من أسلم في دار الحرب ، وأسر الزوجين معا ، وأسر احد الزوجين ، والطفل السبي مع أبويه ، وحكم الاستعانة بالمشركين في القتال ، وحكم أموال المسلمين المستردة من دار الحرب وغير ذلك كثير ، وهي أحكام مستمدة من شريعة الاسلام ، موثقة بآية من الكتاب العزيز أو أثر من السنة الشريفة أو قائمة على اجتهاد أو قياس على احكام شرعية إسلامية(٣٦).

يذكر ابن الفرضي أن أول من نقل هذا المذهب الى الأندلس هو القاضي الالبيرى أسد بن عبدالرحمن السبئي (كان حيا سنة ١٥٠هـ / ٧٦٩م(٣٧)، وانتشر على يد صعصعة بن سلام الشامي (ت : ١٩٢هـ / ٨٠٧م)(٣٨). وهكذا سيطر المذهب الأوزاعي على الأندلس خلال القرن الثاني الهجري ، وكانت الاحكام تصدر وفقا لما تنص

عليه . وعلى الرغم من انتشار المذهب المالكي في الاندلس في عصر خلفه هشام إلا أن الأندلسيين احتفظوا بعادة غرس الشجر في المساجد وهي من مذهب الأوزاعي[٢٦].

من هذا العرض الموجز يتبين لنا كيف أن الأندلس قد تأثرت على عهد الامير عبدالرحمن الداخل بالتقاليد الشامية في شتى المجالات العمرانية والاقتصادية والأدبية والدينية ، فكان التيار الحضاري الشامي واحدا من تيارات حضارية اخرى حجازية وبغدادية أثرت حضارة الاندلس والتي ظهرت منابتها الاولى على عهد الامير عبدالرحمن الاوسط .

هوامش البحث

* ألقي هذا البحث في «الندوة الدولية من الشام الى الأندلس» بمناسبة مرور اثني عشر قرنا على انتقال عبدالرحمن الداخل الى الأندلس قادما من الشام وبناء جامع قرطبة الكبير ، دمشق ، ابريل ١٩٨٦ .

(١) المقرى (احمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المجلد الأول ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت (١٩٦٨)، ص ٥٤٥ .

(٢) السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة خاضرة الخلافة في الأندلس ، الجزء الأول ، مؤسسة شباب الجامعة (١٩٨٤)، ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) زكي محمد حسن : القصور الأموية في شرق الأردن ، مجلة الكتاب ، (ديسمبر ١٩٤٥) ، ص ١٥٨ .

(٤) دانيال شلو مبرجة . قصر الحير الغربي ، ترجمة إلياس أبوشبكه ، بيروت ، ١٩٤٥ .

(٥) المقرى : المصد السابق ، المجلد الأول ، ص ٤٦٧ .

(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٧) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٨ .

(٨) نفس المصد والجزء والصفحة .

(٩) نفس المصدر والجزء ، ص ٥٦٠ - ٥٦١ .

(١٠) Creswell (K.A.C.): Early Muslim Architectuer, Umayyads, Early Abbassids and Tulunids, vol. I, Oxford, (1938), pp. 102–103.

(١١) Al Sayyid Salem : Cronologia dede la Mezquita de Cordoba levantado por abd el-Rahman I, Al-Andalus,1954, p.6. Oca¯na Jemenez, la Basilica de San Vicente y la gran Mezquita de Cordaba, Al-Andalus, (1942), p.349.

(١٢) السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، جـ ١ ، ص ٢٨٦ .

(١٣) In, Creswell: Op. Cit, vol. II, pp. 138–139.

(١٤) تقع كنيسة شنت أجلج (San Acisclo) خارج باب اشبيلية - احد ابواب مدينة قرطبة في العصر الاسلامي المعروفة أيام العرب باسم باب العطارين . انظر (ابن عذاري : البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، جـ ٢ ، ص ١٠ ؛ المقرى : المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٢٦٣ ؛ محمد احمد ابوالفضل : مغيث الرومي وبنوه دورهم السياسي والحضاري في المغرب والأندلس ، بحث منشور في مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، العدد ٣٠ لسنة ١٩٨١ ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(١٥) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الأول ، ص ٥٦٠ - ٥٦١ ؛ ابن عذاري المراكشي : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(١٦) Torres Balbas (Leopoldo): Art hispano musulman hasta la Caida del Califate de Condoba, En Historia de Espana, dinigida por Don Tamon Menendez – pidal, T.V. Madrid, 1957, pp. 345.

(١٧) المقرى : المصدر السابق ، المجلد الاول ، ص ٥٦١ .

(١٨) الادريسي (الشريف): وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق ، نشر ألفريد ديسيه لامار ، الجزائر ، (١٩٤٩) ، ص ٢ ؛ وانظر أيضا ، الحميري : صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، نشره ليفي بروفنسال ، القاهرة ، (١٩٣٧) ، ص ١٥٣ ؛ السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، الجزء الأول ، ص ٣١٦ .

(١٩) ابن الفرضي (ابوالوليد بن محمد بن يوسف الأزدي): تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة (١٩٦٦)، ص ٧٤؛ النباهي (ابوالحسن بن عبدالله بن الحسن): كتاب المرقبة العليا فين يستحق القضاء والفتيا ، نشر ليفي بروفنسال ، دار الكاتب المصري ، القاهرة (١٩٤٨) ، ص ٥١ .

(٢٠) Creswell (K.A.C): Ashort account of Early muslim architecture, penguin senies, (1958), p222.

(٢١) Torres Balbas: op. cit, p.228.

(٢٢) Creswell: Ashort account, p.228. وراجع ايضا الترجمة العربية بعنوان ، الآثار الاسلامية الأولى ، نقله الى العربية عبدالهادي عبله ، وعلق على نصوصه احمد غسان سبانو ، دار قبيه ، دمشق ، (١٩٨٤) ، ص ٣٠٣ .

(٢٣) احمد فكري : المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ، (١٩٦١)، ص ١٤ .

(٢٤) Sauvaget, La mosque´e Omeyyede de M´edina, e´eude sur les Origines architecturales de la mosque´e et la basilique, Paris, 1947, p.105.

(٢٤أ) على حين شاع استخدام أسلوب آخر وهو الحجر الفاتح اللون مع لون رخر قد يكون أحمرا أو غير ذلك ، أطلقت عليه الوثائق الأثرية مصطلح المُشهر .

(٢٥) في ، المقرى : نفح الطيب ، المجلد الأول ، ص ٤٦٧ .

(٢٦) نفس المصدر والمجلد والصفحة .

(٢٧) في ، المقرى : نفس المصدر والمجلد ، ص ٤٦٨ .

(٢٨) احمد مختار العبادي وآخرون : دراسات في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، منشورات دار السلاسل ، الكويت، (١٩٨٥) ، ص ٣٩٢ .

(٢٩) احسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسي ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة بيروت (١٩٦٩)، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٣٠) ابن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، المجلد الأول ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ص ٢ .

(٣١) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص ٣٥ .

(٣٢) ومن شعر عبدالرحمن الداخل :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي من بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي

(في ، ابن عذاري : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٩٠ ، ابن الأبار (ابوالوليد عبدالله محمد بن عبدالله) : الحلة السيراء ، الجزء الثاني ، تحقيق د. حسين مؤنس ، القاهرة ، (١٩٦٣)، ص ٣٧ ؛ ابن الخطيب (لسان الدين ابوعبدالله محمد): كتاب أعمال الأعلام ، القسم الاندلسي ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ، (١٩٥٦) ، ص ١٠ .

(٣٣) هو أبو عمرو عبدالرحمن بن عمرو بن محمد الاوزاعي ، ولد بمدينة بعلبك بالشام سنة ٨٨هـ /٧٠٧م ، وأصله من عرب اليمن ، أخذ عن عطاء بن رباح مفتي مكة المتوفي في سنة ١١٥هـ /٧٣٣م ، والزهري المتوفي سنة ١٢٤هـ /٧٤٢م وغيرهما ، كما اخذ عنه سيفان الثوري ومالك بن أنس عالم دار الهجرة ، وبعد أن جال في البلاد في طلب العلم عاد الى قرطبة وأقام في بيروت ومات فيها سنة ١٥٧هـ /٧٧٤م ، ومن مصنفاته كتاب السير الذي يتناول فيه احكام الجهاد والقتال ، انظر ترجمته : كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، الجزء الثالث ، مصر ، (١٩٦٩) ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ والمصادر التي وردت به .

(٣٤) Mahmud Makki: Ensayo sobre los aporta ciones Orientales, en la Espan˜a Musulmana, en Revista del Estudios islamicos en Madrid, V. IX–X, Madrid, (1961), pp. 129-154.

(٣٥) مصطفى الشكعة ، مواقف المستشرقين من الحضارة الاسلامية في الأندلس ، مستله من مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الاسلامية ، الجزء الثاني ، الرياض (١٩٨٥) ، ص ٣١١ .

(٣٦) نفس المرجع ، ص ٣١١ - ٣١٢ .

(٣٧) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ٧٤ .

(٣٨) Mahmud Makki: Op. cit, p.130.

(٣٩) النباهي : المرقبة العليا نشر ليفي بروفنسال ، دار الكاتب المصري ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٥١ وانظر ايضا : Mohmud Makki: Ibid. pp.227-231. وكذا ، محمد احمد ابوالفضل : قضاة ثوار في الأندلس ، بحث منشور في مجلة ندوة التاريخ الاسلامي والوسيط ، العدد الثالث ، دار المعارف بمصر ، (١٩٨٥) ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .



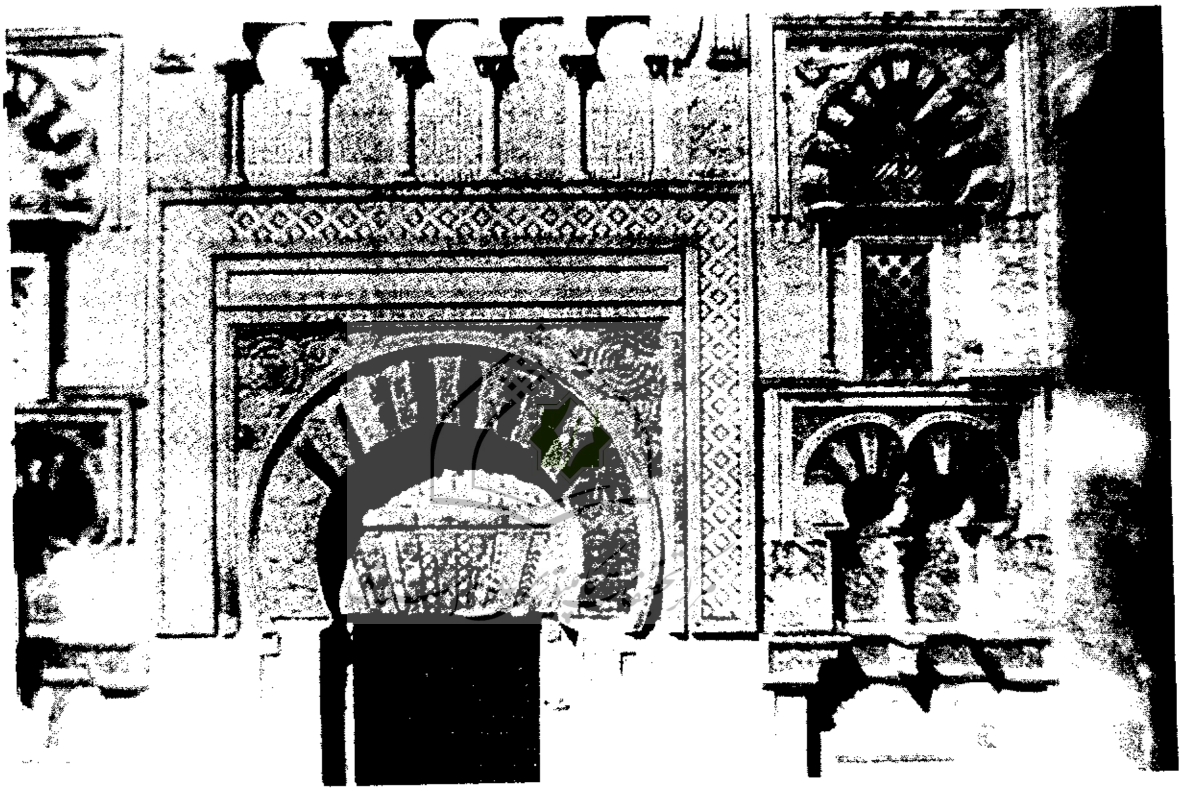
شكل (١) : مسقط رأسي للمسجد الأموي بقرطبة



شكل (٢) : مسقط رأسي للمسجد الاقصى بالقدس



شكل (٣) : المسجد الاموي بقرطبة



شكل (٤) : أحد الابواب الخارجية للمسجد الجامع بقرطبة
ويظهر فيه تناوب الحجر الفاتح اللون والحجر الداكن (المُشهر)

بحوث الأرشيف
والوثائق والتراث والمخطوطات
المحافظة على الأرشيف

د. محمد ابراهيم ابو سليم
مدير دار الوثائق الوطنية بالسودان

تعتبر مهمة الحفاظ على الأرشيف من الأسس الهامة التي يقوم عليها بناء العمل الوثائقي ولذلك يجب على المسؤولين عن الوثائق في العالم العربي وضعها في صدر المهام التي يضطلعون بها . خاصة وأن ـ مسؤوليات الحفظ تتعاظم يوميا مع تعاظم كميات الوثائق . فالى جانب الأكداس الهائلة من الملفات المخزونة منها أصلا في البلاد العربية هناك الالآف من الأوراق التي تنتج يوميا في الدوائر الرسمية وغير الرسمية . ولا بد لكل هذا الكم الهائل من ان ينتهي يوميا الى دور الوثائق سواء للحفظ الدائم او الحفظ المؤقت او القرار باعدامه .

وعملية المحافظة على التراث لها جوانب وعناصر عديدة لا بد من توفرها بحيث يصعب الفصل بينها او التغاضي عن جنب منها . فالبحث عن الوثيقة مثلا والحصول عليها سواء عن طريق الشراء او التصوير او الاهداء يعد خطوة اولى في طريق المحافظة عليها ، لأن وجودها بعيدا عن متناول يد الأرشيفيين لا يمكنهم من حمايتها من عوامل التلف والضياع التي يمكن ان تتعرض لها في ظروف حفظ قد لا يتوفر فيها قدر من الخدمات الفنية والعلمية التي توفرها دور الوثائق . كما ان وجودها بعيدا عن مستودعات الحفظ القومية قد ينتج عنه بقاء الوثيقة ، وهي مصدر هام من مصادر البحث العلمي ، بعيدا عن متناول الباحثين والدارسين لموضوعاتها أو يجعل الموصول اليها أمرا غير متيسر .

وحتى يتمكن المسؤولون في الارشيف من تقديم الخدمات الضرورية للوثائق ومعالجتها بصورة تؤمن بقائهما لابد من العمل على تحديث الارشيف في كل عملياته وذلك بادخال المكننه وتبني المصغرات الفلمية وغيرها من معدات التصوير الحديثة ، كما يجب اقامة مباني عصرية مجهزة تجهيزا فنيا كاملا واصدار التشريعات الضابطة لفعاليات الارشيف ، ومع هذا ايضا لابد من التسيير الاداري الذكي . ولا يتم ذلك الا بتوفير عناصر متخصصة وكوادر مدربة ومؤهلة تأهيلا مهنيا عاليا .

هذه هي الجوانب الحيوية لعملية المحافظة على التراث في مجملها . وحتى تكون الصورة واضحة لابد من التعرض لهذه الجوانب بتفصيل أكثر ونبدأ ذلك بالمباني كأهم عنصر في هذا العمل .

عند بدء التخطيط لمباني مراكز الوثائق لابد من مشاركة رجل الوثائق في كل مراحل البناء ووضع التصميمات وذلك حتى تتوافق الفكرة المعمارية مع الغرض الذي من أجله شيد البناء وحتى لايتغلب الطابع المعماري بعناصره الجمالية والزخرفية على المتطلبات العملية للمباني .

وبما أن المقتنيات الأرشيفية تختلف مكوناتها من افلام وصور لوثائق ورقية وغيرها فانها تتأثر بشكل واضح بنوعية المناخ وظروف البيئة التي تتواجد فيها . كما أنها تحتاج لظروف حفظ تختلف عن بعضها البعض لهذا فان نمط البناء الذي قد يلائم قطرا بعينه قد لايصلح في آخر .

ولكن رغم هذا هناك مواصفات ومتطلبات واحتياطات عامة يجب مراعاتها عند قيام المباني .

أولا : لابد من اختيار موقع المبنى في مكان يسهل الوصول اليه حتى لايجد الباحثون مشقة في ذلك ومن

الأفضل ان يكون قريبا من المؤسسات والمرافق الثقافية كالجامعات والمعاهد العليا ومراكز البحوث وغيرها ، مع مراعاة ان لايكون بعيدا عن دواوين الدولة التي تحول له أوراقها دوريا . ويجب ان يتوفر فيه الهدوء حتى يجد الباحثون جوا صالحا للدراسة والبحث .

ومن أكبر المخاطر التي تهدد سلامة التراث الحرائق ، لذلك يجب ان يبعد المبنى عن المناطق الصناعية ومحطات الوقود وغيرها من مصادر النيران وأي مخاطر أخرى مثل مناطق السيول والفيضانات والتوترات .

هناك أمر آخر له أهميته وتجب مراعاته عند اختيار موقع البناء وهو التوسع المستقبلي حتى لايواجه المسؤولون بمشكلة ضيق المكان بعد وقت قليل فيضطرهم ذلك لاقامة مباني في مكان آخر مما يعوق العمل ويشتت الجهود . ويمكن ان تقدر المساحة المطلوبة للتوسع حسب حجم الزيادة التي تستقبل سنويا . هذا بالنسبة للمباني بصورة عامة . أما بالنسبة لمستودعات الحفظ والتي تمثل أهم ادارات دور الوثائق فيجب ان يراعى فيها عدة عوامل .

أولا : لا بد من فصلها عن بقية المكاتب ، ويجب عند البناء أن يراعى ارتفاع مستوى سطحها بنسبة معقولة عن مستوى سطح الأرض للحيلولة دون تسرب المياه والأتربة والحشرات الى داخل غرف المستودع . ويفضل دائما ان تكون مبانيها على امتداد أفقي الا اذا دعت الضرورة . على أن لايكون البناء مرتفعا كثيرا وان لاتزيد حمولة المتر المربع أكثر من طن واحد .

يجب كذلك أن يصمم المبنى بشكل يحول أو على الأقل يحد من خطر الحرائق وغيرها من المخاطر التي يمكن ان تلحق الضرر بالوثائق وتسهيل مكافحتها . لهذا ينبغي ان يتم البناء بمواد غير قابلة للاشتعال او على الأقل غير سريعة الاشتعال . ويجب أيضا تغطية كل توصيلات الكهرباء بتمريرها داخل أنابيب حديدية مع مراعاة تأمين مفاتيح الكهرباء واقامة الأرفف الحديدية للوثائق بعيدا عن الجدران التي بها توصيلات كهربائية .

يفضل كذلك عدم تقسيم المستودعات الى حجرات أو مساحات واسعة لمنع انتشار النيران . وقد طبق بعض الأرشيفيين نظام الـ (Cells) وهو نظام غير عملي لأنه يعطي مساحات ضيقة للغاية تحد من حرية الحركة . ويمكن ان تحدد بدلا عن ذلك مساحات مناسبة تسمح بتحرك الوثائقيين المسؤولين وفي نفس الوقت لاتساعد على انتشار الحرائق بصورة كبيرة . ولتفادي خطر الصواعق يجب أن يتم تركيب الساري المخصص لذلك فوق مباني المستودعات .

بجانب الحرائق هناك مخاطر اخرى يمكن ان تتعرض لها الوثائق منها الحرارة الشديدة والرطوبة الزائدة واشعة الشمس . ولمكافحة ذلك لابد من توفر درجة حرارة ورطوبة ثابتة . ويمكن التحكم في ذلك باستعمال جهاز تكييف مركزي لقياس معدلات الحرارة والرطوبة بانتظام . كما يمكن استعمال المواد العازلة للحرارة ونشر المواد التي تمتص الرطوبة بين الأوراق لمنع توالد الفطريات .

وقد قدرت درجة الحرارة بمعدل يتراوح بين ١٥ ـ ١٨ والرطوبة بنسبة ٥٥ ـ ٦٥٪ للوثائق الورقية أما بالنسبة لافلام الميكروفيلم فقد قدرت الرطوبة بنسبة ٢٠ ـ ٣٥٪ والحرارة بدرجة ١٠ ـ ١٦ .

يجب كذلك ان يخلو مبنى المستودعات من النوافذ أو أي فتحات أخرى بخلاف المداخل الضرورية وأبواب الطوارىء وذلك منعا لأشعة الشمس من الوصول الى الوثائق حتى لا تؤدي الى ذبول مداد الكتابة وبهتانها او تحدث تغييرا في لون الورق وتتسبب في جفافه وتكسره . كما يجب ان تكون الابواب حديدية متينة ومؤمنة .

بجانب المستودعات ينبغي قيام غرف منفصلة لحفظ الوثائق ذات السرية العالية والمقتنيات الفنية التي تحتاج لظروف حفظ تختلف عن الوثائق الورقية ولحفظ صور الوثائق الأصلية لاستعمالها كبديل عند تعرض الوثائق لأي خطر كبير .

وتمثل مباني المستودعات بجانب مهمة حفظ التراث ، مركزا تناسب منه المعلومات الى الباحثين في الوثائق

لذلك لابد من توفير مبنى لخدمات القراء والباحثين ، ويفضل ان يكون قريبا من المستودعات لتسهيل حركة الوثائق .

وينبغي ان تكون قاعة البحث واسعة وبها تهوية واضاءة كاملة وان تكون نوافذها واسعة وليس بها أي حواجز تعترض دخول الضوء . وان يكون الزجاج عازلا للحرارة والصوت . ويعد لكل باحث منضدة صغيرة خاصة به لمنع اختلاط الوثائق ومضايقة القراء .

هناك ملحقات أخرى تحتاج لها القاعة منها مكتب المشرف ، ويجب ان يكون في وضع يمكنه من مراقبة القاعة وكشف ما يجري فيها ، حجرة استراحة للباحثين للتدخين وغيره بعيدا عن قاعة البحث ، تحتاج القاعة أيضا لغرفة للطباعة وأخرى للتصوير خاصة بالباحثين لاستخراج صور الوثائق المسموح بها بجانب قاعتين للوثائق البصرية والسمعية مثل أفلام المايكروفيلم والأشرطة المسجلة .

ومن المباني الأخرى الهامة مبنى ادارة الأرشيف والوثائق القومية . وأهم اداراته ادارة الأرشيف الأوسط التي يتم فيها استقبال المجموعات التي ترد للحفظ . وبعض البلدان المتقدمة في مجال الأرشيف تقيم لهذه الادارة – مبنى منفصلا خارج نطاق المباني الرئيسية لمركز الوثائق وبالقرب من دواوين الحكومة أو غيرها من الجهات التي تقوم بتحويل أوراقها حيث يتم في ذلك المبنى وبعيدا عن مركز الوثائق عملية الاستلام والتعقيم والفرز والتصنيف ويعدم منها ما هو غير صالح وترسل المجموعات الأرشيفية الأخرى للحفظ في المستودعات .

ولكن من الممكن اقامة مباني هذه الادارة ضمن مباني الدار الرئيسية بطريقة مناسبة وذلك باقامة قاعات واسعة معدة بأرفف حديدة لتوضح عليها الوثائق الواردة وترابيز كبيرة لعملية القربلة والفرز والتصنيف ومخزنين كبيرين للوثائق للحفظ بصورة مؤقته يستعمل واحد منها للمجموعات الواردة والآخر للأوراق التي تم تصنيفها حتى تسلم للحفظ . ويجب أن يكون بها قسم للتبخير حتى لا تنتقل الأضرار والحشرات التي بها للوثائق المحفوظة . ولذلك يفضل أن نبني حجرة التبخير ومخزن الاستلام بالقرب من مدخل الدار لتسهيل نقلها وتنظيفها بعيدا عن أماكن الوثائق .

الادارة الفنية:

وهي الجهة المتخصصة في معالجة الوثائق والعمل على اطالة عمرها وتأمين مابها من معلومات . ولذلك فهي تعد من الادارات الهامة والتي يجب ان تنشأ في كل مراكز الوثائق العربية كما يجب تدعيمها بالمعدات الفنية الحديثة التي تحتاجها عمليات المعالجة من صيانة وترميم وتصوير وتجليد .

وكما تتعدد العوامل التي تسبب التلف للوثائق كذلك تختلف طرق معالجتها وتتم حسب نوع الاصابة .

هذا أيضا مكونات الوثيقة التي تختلف من حيث مواد الكتابة وطريقة الكتابة نفسها . فمثلا لابد ان يراعى أن كانت الوثيقة مكتوبا عليها من وجه واحد او من الوجهين . وذلك لأن استعمال ورق الصيانة العادي لايتم في الوثيقة التي كتب عليها من وجهين وانما يستعمل الحرير الشفاف لتظهر الكتابة من تحته .

ومن الواضح أن طرق معالجة الوثائق التي تمارس في الدول العربية طرق تقليدية يعتمد معظم العمل فيها على اليدين . وهذا يعطي أهمية كبيرة للعناية بأمر تدريب العاملين في هذا المجال حتى يكون كل منهم ملما الماما تاما بأصول هذا العمل سواء بمعرفة نوعيات الأحبار المستعملة في كتابة الوثيقة أو الورق الذي كتب عليه أو نوع المواد التي تدخل في تركيب ذلك الورق واتجاه اليافة . كما يجب ان تكون له المقدرة والصبر على جمع الوثائق الممزقة بطريقة صحيحة حتى لا يخل بالمعلومات التي تحملها .

ويدعونا هذا الأمر بضرورة الاتجاه الى الأخذ بالنظم الحديثة والتقليل من الاعتماد على المهارات التقليدية للأفراد خاصة وأن هذا عصر السيادة فيه للعلم والتكنولوجيا .

وقد أدخلت طرق حديثة كثيرة في مجال عمل الأرشيف والمحافظة عليه من أهمها طرق التصوير المصغر وهي من الوسائل التي دخلت مؤخرا في العمل الأرشيفي للمساعدة في مجال حفظ الوثائق واستخراج المعلومات واسترجاعها .

ويضم التصوير المصغر انواعا كثيرة مختلفة منها المايكروفيلم والمايكروفيش والمايكروبرنت . ولا بد أولا عند ادخال هذا النوع من التصوير من معرفة حجم الوثائق وطرق تصنيفها وفهرستها حتى تتطابق مع الناحية الفنية والعملية مع نظام التصوير المصغر الذي سيتم ادخاله ، كما يجب التأكد من قيمة الوثائق وجدوى المعلومات التي تحملها بالنسبة للمنشأة التي انتجتها أو من حيث قيمتها التاريخية والعلمية . لأن هذا يساعد كثيرا في تحديد نوعية التصوير الذي ينبغي اختياره ، وعادة ماتصور الوثائق التجارية في أفلام مايكروفيش لأن معلوماتها قليلة كما يتم حذف واضافة بعض المعلومات اليها من وقت لآخر . بجانب انها تتطلب سرعة الاسترجاع . أما الوثائق التاريخية يفضل لها استعمال الأفلام الملفوفة لأن معلوماتها كثيرة ومتصلة .

هناك أيضا جوانب اقتصادية لا يمكن اغفالها في هذه العملية ومنها تكلفة شراء المعدات وتشغيلها والقوى البشرية اللازمة لذلك لتحديد جدوى ادخال هذا النظام من حيث حساب الربح والخسارة .

وليس بالضرورة ادخال كل أنواع الاجهزة المطلوبة في وقت واحد ويمكن أن يتم ذلك على مراحل وعلى فترات مناسبة . ومن الجوانب الايجابية لادخال التصوير المصغر انه يساعد في المحافظة على الوثائق الاصلية بعدم تداولها بين الباحثين والقراء واستعمال صورها بجانب أنه يتيح الفرصة لهم للحصول على نسخ الوثائق التي تحتاجها أبحاثهم بتكلفة معقولة . ويمكن كذلك ان توفر الصور البديل للوثائق الأصلية في حالة ضياعها أو تلفها بجانب انها لاتحتاج الى حيز كبير في مستودعات الحفظ . وفوق هذا يتيح التصوير فرصة للتبادل بين الاقطار العربية وغير العربية خاصة تلك التي لها وثائق في أرشيفات الدولة الاخرى وهي كثيرة .

بذلك يمكننا القول بأن هذه هي العناصر الحيوية التي يتطلب أمر المحافظة على التراث مراعاة توفرها . ولكن هناك جوانب أخرى لابد من الاهتمام بها لأنها تكمل هذا العمل ومنها توفر الحراسة اليومية والدائمة ويستدعى هذا قيام مبنى للحرس داخل مباني مركز الوثائق لضمان تواجدهم بصفة مستمرة . كذلك يجب تسوير المبنى مع وجود عدة مداخل على ان يكون من بينها مدخل او اثنين يسمح لدخول الوسائل التي تنقل عليها مجموعات وأوراق المصالح المختلفة .

أيضا لابد من وجود مكتبة تاريخية مكتملة لتوفير تسلسل المعلومات وتكملة ماتوفر الوثائق منها ، اقامة معرض دائم لبعض المقتنيات التاريخية كالعملات والوثائق والصور ذات الصبغة الوطنية وذلك كنوع من وسائل الجذب ومحاولة لنشر المعلومة بطريقة أسرع وأبسط .

وكما أوضحنا في المقدمة لابد من اصدار التشريعات القانونية الضابطة واللتي تنص على صلاحية الدار وتحدد سلطاتها في حفظ الوثائق . والتشريعات تعد من الوسائل الأساسية لتنظيم العمل وتحديد الحقوق والواجبات في التعامل .

ولتسير كل هذه القنوات في مسارها الصحيح لابد من الاهتمام بأمر تأهيل الأرشيفيين وتدريبهم باعداد البرامج والدورات التدريبية والزيارات وتحسين المناهج الدراسية خاصة وان هذه المناهج ، مع قلة الجامعات والمعاهد التي توفرها ، متداخلة مع علوم المكتبات والتوثيق . وفوق ذلك لاتظفر علوم الأرشيف بالوقت الكافي ، ناهيك عن الوقت اللازم لها ، لأن التركيز على علوم المكتبات يتغول على أغلب وقت الدراسة ويستحوذ على أكبر الاهتمام . كما أن عدم توفر الاساتذة المنتظمين في هذا المجال والاعتماد على المتعاونين منهم لايعطي مجالا للتقدم أو التأهيل الجامعي . علما بأن الوثائقي المتخصص يعد من أولويات تطور المهنة بكل مقوماتها من حفظ

وتأمين للمعلومات وتوفير للمادة لأنه سيكون على جانب من النضج وقدر من الوعي يساعده في سرعة الانجاز والبت في كل الأمور ، كما أنه سيكون أمينا وحريصا على المعلومات التي يحفظها ، محبا لعمله محترما لمهنته . ولن يتم الأنطلاق بهذه المهنة الا اذا تكاتف العاملون في مجال الأرشيف .

ولهذا فانني أوجه من هذا المكان نداء صادقا لكل الوثائقيين بضرورة التضامن في محاولة للتعريف بمهنتهم والنهوض بها وازالة المعوقات التي تقف في طريق انطلاقها خاصة وان مهنة الأرشيف مهنة يصعب أمر تطويرها في أغلب الدول العربية لأن معظم المسؤولين في تلك الدول لايحسون بجدوى هذه المهنة فهي لا تعد من النشاطات التي تمس حياة الناس بشكل مباشر مثل خدمات الصحة والتعليم والمواصلات . وهي مهنة غائبة عن الأذهان ويقع على عاتق الوثائقيين وحدهم عبء التعريف بها واتخاذ المبادرات لتقوية الوعي بأهميتها واشعار المسؤولين بجدواها .

التعليم والمعلومات في مجال الأرشيف في الوطن العربي

فهد ابراهيم العسكر
مدير مركز الوثائق
معهد الادارة العامة ـ الرياض

مقدمـــة:

لقد اتخذ المؤتمر العام الخامس للفرع الاقليمي العربي للوثائق المنعقد في تونس في الفترة من ٢٣ ـ ٢٥ ابريل ١٩٨٤م ، قرارا بتشكيل لجنة مهمتها الاعداد لمؤتمر استثنائي ، ومراجعة نظام الفرع .

وانعقدت اللجنة في مدريد في الفترة من ١١ ـ ١٣ يوليو ١٩٨٤م بدعوة من المجلس الدولي للارشيف . وقد رأت اللجنة طرح بعض القضايا المهمة والمتعلقة بمجال الأرشيف . وتكليف بعض المختصين باعداد بحوث لعرضها في المؤتمر الذي نحن بصدده ، ولهذا اتخذت اللجنة قرارا يكلفني باعداد بحث حول «التعليم والمعلومات في مجال الأرشيف في الوطن العربي» .

ورغم شح المعلومات المتوفرة في هذا المجال ، وصعوبة اجراء دراسة ميدانية شاملة ـ نظرا لضيق الوقت ـ ، فقد قبلت هذا التكليف لأهمية الموضوع وضرورة القاء الضوء عليه من خلال هذا المؤتمر .

واعتمدت في هذه الدراسة على بعض الدراسات السابقة ، وأعمال بعض الندوات كندوة «تدريس علم المكتبات والمعلومات في الوطن العربي» المنعقدة في الرياض في الفترة ٧ ـ ١٢ نوفمبر ١٩٨١م . اضافة الى خبراتي وممارساتي في مجال تدريس وادارة الوثائق الحكومية .

ونستعرض في هذه الدراسة أهم ملامح وأسس التعليم الأرشيفي مع استعراض لمستوى التأهيل وواقع مدارس الأرشيف في الوطن العربي ، اضافة الى عرض سريع للأدب الأرشيفي العربي وارتباطه ببعض المتغيرات التي أعاقت تطوره بالشكل المناسب . ونخلص في النهاية الى بعض التوصيات المقترحة في سبيل دفع عجلة التعليم الأرشيفي وتطوير مناهله المختلفة .

التعليم والأرشيف

بالنظر الى العلاقة الكبيرة بين علم التاريخ وعلم الوثائق نستطيع ، أن ندرك أهمية الأخير ، حيث لم يهمل المؤرخون هذه الحقيقة ، وان كان الوثائقيون يرغبون في تحديد شخصية متميزة لمهنتهم .

وقد بدأت تتجدد معالم «علم الوثائق» عندما أدرك الوثائقيون أهمية التدريب والتعليم في هذا المجال . ثم أنشأت لهذا الغرض المعاهد المتخصصة . وعقدت الدورات التدريبية المختلفة . وكانت فرنسا من الدول السباقة في هذا المضمار حيث بدأت بانشاء «مدرسة الوثائق بباريس» عام ١٨٢١ . ولم يقتصر التدريب والتعليم في مجال الوثائق على المؤسسات ، أو المعاهد المتخصصة فحسب بل عمدت بعض الدول مثل فرنسا ، والاتحاد السوفييتي ، الى ايجاد ما يسمى «بالخدمات التعليمية» ، كجزء لا يتجزء من خدمات دور الوثائق الوطنية . وكانت هذه التجربة فريدة من نوعها لأنها تساهم في خدمة البحث ، واستخدام الوثائق لأغراض التعليم خاصة فيما يتصل بالعلوم الاجتماعية كالتاريخ والقانون وغيرهما من العلوم ذات العلاقة . وفي الولايات

المتحدة اتجه الأرشيفيون الى مدارس المكتبات لدراسة موضوعات محددة في مجال الأرشيف ، لأغراض التدريب ، حيث كانت تلاقي قضية التعليمي الأرشيفي بعض العقبات .

ولقد اتجهت ـ فيما بعد ـ جمعية الأرشيفيين الامريكيين الى احداث مكتب متخصص في مجال التدريب والتعليم ، يتولى تنمية خدمات تعليمية متكاملة ، ويلبي احتياجات التدريب والتعليم المستمرة للمتخصصين ، والممارسين ، كما يساعد على مراجعة ومتابعة وتقييم المعلومات الأرشيفية .

كما أدركت بعض الدول والمنظمات المهنية ، مثل اليونسكو أهمية الأرشيف كسجل رسمي يعكس الخبرة الانسانية ويساعد في تطوير العملية التربوية ، فضاعفت من دعمها لهذا القطاع . وتبدو أهمية الأرشيف في العملية التعليمية من كونه وعاء عالمي لكل البشر ، ومؤثر ايضا في كل البشر ، وقد نصح (Solon J. Buck) بمراجعة أرشيفات كل العالم لمعرفة الخبرات الانسانية . ولهذا فهو يرى أن خسارة جزء هام من أرشيف دولة ما ، يعتبر خسارة لكل الدول[١].

ان المساهمة المتبادلة بين الأنظمة التعليمية والأرشيف ، يعني التنسيق فيما بينهما في وضع «برامج تعليم الأرشيف» عن طريق توفير الأجهزة المطلوبة ، والاستفادة من الامكانيات المتاحة ، كتوفير عدد كافي من الساعات التي تفتح فيها دور الأرشيف أبوابها للدارسين والمتخصصين ، هذا بالاضافة الى المشاركة في وضع مناهج الأرشيف التقليدية . ويرى (Hugh) في تقريره التعليم والأرشيف ان بناء وتطوير برامج تخدم نظرية أرشيفة تعليمية شاملة ـ تشمل كل المعاهد والمؤسسات الأرشيفية القومية ـ يجب أن تكون غير مستقلة ، بمعنى أن تكون متعاونة ومترابطة[٢].

ان التعاون بين الأرشيفيين ببعضهم ، وبينهم وبين السلطات التعليمية سيساعد في تحقيق وضع مناهج موحدة مكتسبة في عدة خبرات ومدارس مختلفة . وهذا بدوره سيساعد في تطوير مناهج تعليم الأرشيف خاصة في الدول النامية ، والتي لا تزال تجربتها أقل من المطلوب مقارنة بالدول المتقدمة .

وفي الوطن العربي بدأت تظهر ملامح الاهتمام بتعليم الأرشيف مع النهضة الحديثة لدولها بعد انحسار فترة الاستعمار ، والبدء في تنفيذ مشاريع التنمية الشاملة ، المبنية على أساس وطني . ولقد ارتبط تزايد الوعي الوثائقي في البلاد العربية ، بزيادة الوعي القومي ، حيث أدركت أغلب الدول العربية أهمية الوثائق كسجل تاريخي وحيوي ، فأنشأت لهذا الغرض دور الوثائق المركزية . والتي أخذت على عاتقها مهمة المحافظة على الوثائق بأنواعها . ولقد تأخرت بعض الدول العربية عن مثيلاتها في انشاء مثل هذه الدور ، وهذا بالطبع يعكس اختلاف الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فيما بينها .

ويأتي بعد مرحلة تأسيس دور الوثائق المركزية في الوطن العربي ، مرحلة التأهيل المهني للعاملين فيها ، ولهذا بدأت برامج التعليم والتدريب ترى النور حيث بدأت بعض الدول تنفذ بعض البرامج الخاصة بالأرشيف سواء عن طريق الجامعات أو عن طريق المعاهد الخاصة .

ان دراسة الوثائق ، وارتباطها بمناهج البحث التاريخي ، يعني أن عالمنا العربي ، والاسلامي ليس ببعيد عن مثل هذه الدراسات ، فقد كان تراثنا العربي يزخر بالكثير من هذه الدراسات . ورغم ين دراسة الوثائق ، من الدراسات الناشئة في العالم العربي ، إلا أن جذورها في نظري عميقة .

والدور المطلوب من المؤسسات الأرشيفية ، والتعليمية في الوطن العربي ، العمل المبني على التعاون ، وتبادل الخبرات في سبيل تطوير دراسات الوثائق ، ووضع المناهج الملائمة التي تتفق مع نوعية وثائقنا ، واحتياجاتنا ، وظروف المرحلة الراهنة .

التأهيل المهني للوثائقيين في الوطن العربي

ترتبط دائما سياسات التعليم والتدريب ، بخطة التنمية ، لتحقيق الاستراتيجيات المحددة في الخطة لأغراض التعليم . ونلاحظ أن التعليم من الاستراتيجيات الرئيسية لأي خطة تنموية في العالم سواء قصيرة المدى ، أو طويلة المدى ، يبقى للدولة أن تحدد من خلال خطتها التركيز على تخصص معين دون سواه ، وفق احتياجاتها .

وفي الوطن العربي بدأت تظهر بوادر الحاجة الى دراسات متخصصة في مجال المعلومات بمعناه الواسع في منتصف الأربعينات . حيث بدأت بعض الدول العربية مثل مصر ، العراق ، السودان ، الأردن ، والجزائر في تنفيذ بعض البرامج الخاصة بعلوم المكتبات والوثائق تم تلت ا بقية الدول العربية .

وقد تطورت هذه البرامج سواء ما يعني منها بالجوانب التعليمية الأكاديمية او الجوانب التدريبية في مسارين متوازيين :

الأول : المسار النوعي ، وذلك عن طريق تطوير المناهج والوسائل التعليمية واخضاعها للمقاييس التربوية العالمية ، واصدار التشريعات اللازمة لتحقيق التأهيل الاكاديمي المعترف به دوليا .

ثانيا : المسار الكمي ، عن طريق تعدد التخصصات المختلفة في دائرة المعلومات . فنجد مثلا المكتبات ، ودراسات الأرشيف (الجاري) ودراسات الوثائق ، ودراسات المخطوطات ... وغيرها . ولكل من هذه الدراسات تخصصاتها الفرعية وبرامجها الخاصة ، اضافة الى تعدد المدارس المعنية بتدريس هذه التخصصات .

وقد ساعد على تطور علم الأرشيف عدة اعتبارات أهمها :ـ

١ـ التطور الذي طرأ على علوم الادارة ، شمل الأرشيف والمعلومات كاحدى العلوم المتعلقة بعلم الادارة.

٢ـ اتجاه الدول العربية نحو التنمية الشاملة في كافة القطاعات ، يحتم بالضرورة توفير معلومات متكاملة لمتخذي القرارات في الوقت والشكل المناسبين .

٣ـ الانفجار المدهش للمعلومات لم يعد من السهل السيطرة عليه ، وفقا لأساليب تقليدية . بل يتطلب تنظيم علمي حديث وفقا لأسس واعتبارات موحدة .

٤ـ التوسع في قطاع التعليم بصفة عامة ، وخاصة التعليم الجامعي ، وما يواكبه من توسع مجال البحوث ، والدراسات ، يحتم بالضرورة توفير المعلومات وتيسير الاستفادة منها .

ويعتبر علم الأرشيف من العلوم المعنية بمعالجة نوع معين من المعلومات وهذا يؤكد ارتباطه بعلم المعلومات . وفي نفس الوقت يرتبط علم الأرشيف بكل من التاريخ ، والادارة . فالأرشيف ينتمي الى الادارة ، والادارة تنتمي الى المجتمع ، وكل منهما لديه وسائله وتنظيماته الخاصة به ، ولهذا نجد أن الأرشيف يتأثر بتاريخ وأيديولوجيات وظروف المجتمع[1]. وهذا بدوره يعكس أهمية الأرشيف ، واحتياج الدول الى خدمات أرشيفية متكاملة .

ومبدأ «الحاجة» يعتبر الخطوة الأولى نحو بناء أساس علمي للمهنة[2].

ويترتب على مبدأ الحاجة الى الأرشيف ، ايجاد الوسائل العلمية في سبيل جمع ، وتنظيم ، وحفظ ، وتيسير الوثائق للمستفيدين منها . وبهذا يمكن أن نحدد أن مهنة الأرشيف ، لا تعود عن كونها «مهنة علمية» .

ولكن هل ينظر الى المهنة على أساس علمي ، لاسيما في الدول النامية ؟ أعتقد وبكل أسف أن الجواب بالنفي فلا زال عمل الأرشيف عمل جانبي ، بل نجد أن بعض الدول العربية تسند وظائف الأرشيف الى الأشخاص المطلوب تأديبهم ، أو غير المرغوب فيهم . ويعكس عدم اهتمام بعض الدول بالأرشيف ، رغم خطورته وأهميته

كذاكرة خارجية للأمم والشعوب ، انخفاض المخصصات المالية المعتمدة لوظائف الأرشيف ناهيك عن عدم الاهتمام بتأهيل العاملين عن طريق ايجاد برامج تدريبية مركزة ، ودراسات أكاديمية متكاملة .

ولقد كان لهذه الأسباب انعكاسات سلبية على المهنة ، بحيث أصبحت القوى البشرية المتخصصة في مجال الأرشيف غير متوفرة بالشكل المناسب ، وفي أحد التقارير المعدة عن احتياجات القوى البشرية في العالم لأغراض الأرشيف تبين أن جملة العاملين من المهنيين في مجال الأرشيف في الوطن العربي (٨٧٧) الفنيون منهم (٤٠٩) بينما الوظائف الجديدة ـ الشاغرة ـ أو المقترح احداثها (١٢٤٥) وظيفة[٦] وهذا يعني أن هناك نقصا شديدا في مجال القوى البشرية ، وهذا بلا شك سيؤثر سلفا على طبيعة المهنة ومستقبلها .

ولم تكن الدراسات الأرشيفية في الوطن العربي بأحسن حظا من غيرها في دول العالم الأخرى ، حيث اعترضتها كثير من العقبات أهمها :

١ـ انعدام الوعي الوثائقي لدى أغلب المسئولين في الادارة العامة ، خاصة المعنيين منهم بشئون التخطيط .

٢ـ تأخر بعض الدول العربية في تأسيس دور المحفوظات الوطنية .

٣ـ لم تحقق دور المحفوظات الوطنية ، الموجودة في بعض الدول العربية كافة أهدافها ، خاصة فيما يتعلق بالتعليم . واقتصر دورها على جمع ما يمكن الحصول عليه من وثائق .

٤ـ قلة الفرص ، والحوافز المتاحة للمتخصصين في مجال الأرشيف وهذا بدوره ساعد على قلة الراغبين في هذه الدراسات .

٥ـ التأهيل المتدني لبعض القائمين على برامج التعليم والتدريب ، ناهيك عن النقص الشديد في الأدب الأرشيفي العربي .

٦ـ ضعف التنسيق والتعاون بين المؤسسات التعليمية وبعضها ، وبينها وبين المؤسسات ، والمنظمات المهنية .

وفي الجدول التالي نلاحظ الحاجات الفعلية من القوى البشرية والمطلوبة لأغراض التدريب ، مقارنة بالعاملين فعلا في قطاع الأرشيف في الوطن العربي وبشكل عام[٧].

التوظيف			التدريب		
الوظائف المهنية المشغولة	الوظائف الفنية المشغولة	الوظائف الشاغرة	احتياجات التدريب في المستوى المتوسط	احتياجات التدريب في المستوى المتقدم	نسبة التوسع المقترح
٨٧٧	٤٠٩	١٢٤٥	٨٣٠	٢١٨	٪١١٤

ان هذه النسبة المرتفعة من التوسع المقترح لأغراض تدريب واعداد الأرشيفيين تعني ضرورة وضع استراتيجية عربية جديدة لتطوير أساليب ومناهج التدريب الأرشيفي ، والعمل على توسيع قاعدة تعليم علوم الأرشيف سواء على مستوى الجامعات العربية ، أو المعاهد المتخصصة وبالاشتراك والتعاون مع دور المحفوظات الوطنية والمنظمات المهنية .

أسس ومبادىء تأهيل الوثائقيين

يختلف التأهيل المهني للوثائقيين من دولة لأخرى ، وفقا لفلسفة التعليم ، واحتياجات الدولة ، وامكانياتها ، ولهذا نلاحظ نوعين من البرامج :ـ

١): برامج مطولة : تهدف الى تخريج متخصصين على مستوى الدراسات الجامعية ، أو مستوى الدراسات العليا . وتختلف مدة البرامج المطولة من دولة لأخرى ، حيث نجد أن بعض الدول تحدد أربع سنوات للتأهيل يزود فيها الدارس بالمعلومات الفنية المتخصصة اضافة الى التعليم العام ، وبعض الدول ترى تكثيف هذه البرامج واختصار مدتها الى سنتان فقط ، أو ثلاث سنوات ، ويقتصر تزويد الدارس فيها على المعلومات الفنية والتقنية فقط دون الالتفات الى التعليم العام .

٢): برامج قصيرة : وتهدف هذه البرامج الى اعداد العاملين المساعدين دون المستوى المتخصص . ومدة هذه البرامج تتراوح بين أربعة ، وثمانية أسابيع . ونلاحظ هذا النمط في التدريب الصيفي في أمريكا ، وفي بعض الدول العربية التي تنفذ برامج تدريبية خاصة أثناء الخدمة . وينبغي عند الاعداد المهني للوثائقيين الأخذ بعين الاعتبار الأسس التالية :

أولا : ضرورة الاهتمام بتطوير المستوى الثقافي للعاملين في مجال الأرشيف .

ثانيا : اعداد العاملين بشكل يساعد على تحديد دورهم في دفع عجلة التنمية ، والبحث العلمي في مجالهم .

ثالثا : تحديد دور الوثائقيين في مجال الادارة والعمليات الأساسية المطلوبة للتنمية .

رابعا : مشاركة جميع الجهات المعنية في تخطيط الخدمات والدراسات الأرشيفية .

خامسا : تطوير المهارات والقدرات الادارية والفنية للعاملين في هذا المجال .

سادسا : تحديد الاحتياجات الفعلية من فئة المتخصصين في مجال الأرشيف ، والفئة المساعدة لهم ، وتخطيط البرامج المناسبة لكل فئة وفقا لمبدأ «الحاجة» .

ولتحقيق أغراض التعليم والتدريب لابد من الأخذ بعين الاعتبار الحقائق التالية :

١ـ التوزيع الجغرافي لأماكن التدريب .

٢ـ المباني والتجهيزات والأدوات الضرورية للتدريب .

٣ـ الاعداد المهني المتخصص للمدرسين .

٤ـ الاعداد الفني للمنهج الدراسي .

٥ـ تيسير الوصول الى المعلومات والوثائق والاستفادة منها لأغراض التعليم .

٦ـ مشاركة دور الوثائق ، وأجهزة الدولة في بناء وتطوير البرامج التدريبية .

٧ـ مراعاة الفروق الوطنية ، والثقافة ، واللغوية ، والاجتماعية في تطوير البرامج التدريبية .

٨ ـ الاستفادة من التكنولوجيا الحديثة ، لتطوير الخدمات الأرشيفية من الوسائل التجريبية الى الوسائل التخصصية والعلمية .

مؤسسات تعليم الأرشيف في الوطني العربي

تعني كثير من المؤسسات الأكاديمية ، والتدريبية في الوطن العربي بتدريس علوم الأرشيف ، ورغم العقبات التي تعترض مثل هذه الدراسات ، إلا أن الضرورة أصبحت ملحة لايجادها ، خاصة بعد تزايد حجم المعلومات الوثائقية بشكل كبير كنتيجة طبيعية لتطور أنظمة الحكم والادارة في الوطن العربي .

وتعكس برامج تعليم الأرشيف في الوطن العربي احتياجات الدولة واهتماماتها وهذا يعني ـ بطبيعة الأمر ـ اختلافا بين الدول العربية في أساليب التأهيل المطلوبة .

ولهذا تعددت المؤسسات المعنية بالتعليم والتدريب وفقا لمستوى التأهيل ويمكن أن نحصرها بالتالي :

أ- الجامعات .

ب ـ المعاهد المتخصصة .

جـ ـ معاهد الادارة .

د ـ دور اورشيف الوطنية .

هـ ـ الجمعيات والمنظمات المتخصصة .

وسوف نعرض بإيجاز لأهم المؤسسات المعنية بالتدريب الأرشيفي في الوطن العربي مستعينين في ذلك بأحدى الدراسات المقدمة لندوة تدريس علم المكتبات والمعلومات في الوطن العربي والمنعقدة في مدينة الرياض في الفترة من ٧ ـ ١٢ نوفمبر ١٩٨١(١).

مصـــر :

لقد كان «لجمعية المكتبات المصرية» دور فعال في ايجاد دراسات مكتبية وأرشيفية متخصصة ، ويتمثل هذا في المساعدة نحو تأسيس «معهد الوثائق والمكتبات» عام ١٩٥١م والذي تحول في عام ١٩٥٤م الى قسما للمكتبات ، بعد أن تم دمجه الى كلية آداب جامعة القاهرة .

وفي العام ١٩٥٤ تم انشاء «المعهد العالي للتوثيق» ويلحتق بهذا المعهد الحاصلون على درجة الليسانس في الآداب ، ويمنحون دبلوما عاليا في الوثائق بعد ثلاث سنوات من الدراسة . ولقد كان لانشاء «دار الوثائق التاريخية القومية» عام ١٩٥٤م دورا في تطوير الدراسات الوثائقية في مصر ، حيث تحتوي هذه الدار على وثائق مهمة وبلغات مختلفة ، ويتبع هذا الدار معرض خاص للوثائق القديمة .

العـراق:

لقد أنشات جامعة بغداد دراسات عليا في التوثيق والمكتبات ، مرتبطة بعمادة الدراسات العليا في الجامعة ، ومدة الدراسة عشرة أشهر ، وتمنح الدبلوم العالي في المكتبات والتوثيق . كما أحدثت «الجامعة المستنصرية» في عام ١٩٧٠ برنامجا خاصا بتدريس علوم المكتبات . مدته سنتان ، ويرتبط بكلية الآداب ، ويقبل الحاصلين على الشهادة الثانوية .

ولقد شاركت جامعة بغداد في الاشراف على المركز الوطني للوثائق ، الذي تأسس بموجب القانون رقم

(١٤٢) لسنة ١٩٦٣م . ولمدة خمس سنوات تلت تأسيسه . وساعد المركز الوطني للوثائق في تطوير الدراسات التاريخية والوثائقية في العراق ، كما ساعد في تأسيس «معهد الوثائقيين العرب» في أواخر عام ١٩٧٧م ، والذي تأسس نتيجة للقرار المتخذ من قبل الجمعية العامة للفرع الاقليمي العربي للوثائق في اجتماعها المنعقد في بغداد في الفترة من ١٥ ـ ٢٢/٩/١٩٧٣م ، وفي عام ١٩٨٣ تم تحويل هذا المعهد الى قسم تابع لمعهد الادارة في مؤسسة المعاهد الفنية بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي .

السودان :

رغم تقدم انشاء دار الوثائق المركزية في السودان ، والذي يرجع لعام ١٩٥٣ ، الا أن تنظيمها بشكل جديد قد تم في عام ١٩٦٥م . واصدرت لوائحها الخاصة في عام ١٩٦٦م ، وفي نفس العام ١٩٦٦م ، تم تأسيس «قسم الوثائق والمكتبات» بكلية آداب جامعة أم درمان الاسلامية . ويمنح هذا القسم درجة الليسانس ، ويؤهل للعمل في دور الوثائق التاريخية القومية ، وقد اختفى هذا القسم فيما بعد ، نتيجة للظروف التي مرت بها الجامعة ، ولكن ما برحت الدراسات الأرشيفية والمكتبية أن عادة من جديد في عام ٦٨/١٩٦٩م . حيث أعدت مكتبة الجامعة بالتعاون مع مركز الوثائق الوطني برنامجا خاصا لاعداد مساعدين اختصاصيين للمحفوظات ، ولقد كان لجامعة الخرطوم ـ أيضا ـ نصيبها في اعداد برامج تدريبية خاصة ، يتم تنفيذها تحت اشراف مكتبة الجامعة .

تونــس :

بدأت دراسات التوثيق والمكتبات في توس في عام ١٩٦٤م ، عندما استعان «معهد علي باش حامبه» بالاتحاد الدولي للتوثيق ، لاعداد برامج خاصة مدتها ستة أشهر ، وفي عام ١٩٧١م ، تولت «المدرسة القومية للادارة» اعداد الكوادر المتخصصة عن طريق برامج تدريبية مدتها سنتان ، وبعد خمسة بعوام احدثت دراسات في مستوى الليسانس مدتها أربع سنوات ، ولكنها الحقت في عام ١٩٧٩م ، بمعهد الصحافة وعلوم الأخبار .
وفي سبيل تطوير الدراسات الوثائقية ، أحدثت جامعة تونس في عام ١٩٨١م ، «المعهد الأعلى للتوثيق» ، ومدة الدراسة فيه عامان ، ويقبل حامل الشهادة الثانوية .

السعودية:

بدأت الدراسات الأرشيفية والمكتبية في معهد الادارة العامة بالرياض في عام ١٣٨٦هـ على شكل دورات تدريبية قصيرة أثناء الخدمة تتراوح مدتها بين ٦ ـ ٨ أسابيع ، وفي عام ١٩٨٤ بدأ المعهد في احداث برامج اعدادية مدتها سنتان . يلتحق بها خريجو الثانوية العامة يمنحون بعدها دبلوما في الدراسات المكتبية يؤهلهم للعمل في المكتبات . ومراكز التوثيق والمحفوظات . كما أحدثت كل من جامعة الملك عبدالعزيز عام ١٩٧٣ ، وجامعة الامام محمد بن سعود في العام ١٩٧٤ ، أقساما خاصة بالمكتبات والمعلومات ، هذا بالاضافة الى الدورات التدريبية في هذا المجال والتي تعقد بالتنسيق بين وزارة المعارف وكل من جامعة الملك سعود ، وجامعة الامام .

الجزائـر:

تولت وزارة الارشاد القومي في عام ١٩٦٤م احداث دراسات تدريبية مدتها ثمانية شهور ، يحصل المتدرب بعدها على الاجازة الفنية لخزانات الكتب والمحفوظات ، ويلتحق بهذه الدورة الحاصلين على الشهادة الثانوية العامة . كما أحدثت «جامعة الجزائر» في عام ١٩٧٦م «معهد علم المكتبات» ويلتحق به الحاصلين على الشهادة الثانوية ، ويمنح درجة الليسانس ، ولقد ساعد تأسيس «مؤسسة الوثائق الوطنية» عام ١٩٧١م تطوير الحركة التعليمية والوعي الوثائقي .

ليبيــا:

لقد ساعد المعهد القومي للادارة في توفير برامج تدريبية أثناء الخدمة لتطوير مهارات وقدرات العاملين في هذا المجال ، كما قامت جامعة الفاتح بتأسيس قسم المكتبات والمعلومات في عام ١٩٧٦م . والحق بكلية التربية .

المغـرب:

بدأت الدراسات الوثائقية في المغرب عندما استعانت الدولة بمنظمة اليونسكو لانشاء مدرسة خاصة لاعداد الوثائقيين والمكتبيين ، وقد تم هذا في عام ١٩٧٤م ، حيث أنشأت «مدرسة علوم الاعلام» ، ومدة الدراسة ثلاث سنوات للحاصلين على الشهادة الثانوية ، وسنتان للحاصلين على الدراسة الأولى ، أو الليسانس .

الأردن :

لقد كان لجمعية المكتبات الاردنية دورا بارزا في عقد البرامج التدريبية المتعددة ، أثناء الخدمة . كما ساهمت في هذا المجال الجمعية العلمية الملكية عندما وفرت دورة تدريبية مدتها سنة في العامين ١٩٧٣ ، ١٩٧٤م .

وفي الآونة الأخيرة تبنت كليات المجتمع تدريس علم المكتبات والمعلومات وقد بدأت في العام الدراسي ١٩٨١/٨٠م ، ومدتها سنتان ، يقبل فيها خريجو الثانوية العامة . أما في مستوى الدراسات العليا . فقد أقرت الجامعة الأردنية برنامجا خاصا بتدريس علوم المكتبات منذ عام ١٩٧٧ ، وألحق بكلية التربية ومدته عامان ، ويلتحق به الجامعيون .

الأدب الأرشيفي العربي

• تعاني المكتبة العربية من نقص ملحوظ في الانتاج الفكري العربي في مجال الأرشيف ، بل قد ينعدم احيانا في بعض الموضوعات ، وهذا النقص يشمل كافة أوعية المعلومات وأنواعها . مثل الكتب الدراسية ، والمراجع ، والمصادر ، والدوريات ، والسلاسل والببليوجرافيات ، وغيرها ...

ومشكلة الأدب الأرشيفي عدم وجود خطة ثابتة من قبل المؤسسات والمنظمات العربية المعنية لتغطية جميع الموضوعات المتعلقة بالأرشيف ، ولهذا نجد أن أغلب المتوفر من هذا الأدب لا يعدو ان يكون مجرد معلومات متفرقة تعكس الاهتمامات الشخصية للمؤلفين ، أو لأغراض ادارية فقط . ورغم المحاولات التي تتم بين الفينة والأخرى من قبل المسئولين في الفرع الاقليمي العربي للوثائق (عربيكا) والمختصين في بعض مراكز الأرشيف الوطنية . والجامعات العربية إلا أن النقص في هذا الانتاج لا زال شديدا وملحا ، وفي الدليل الببليوجرافي للانتاج الفكري في مجال المكتبات والتوثيق ، الصادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في طبعته الثانية (١٩٨١م)، نجد ان الانتاج الفكري تحت موضوع «المحفوظات والوثائق» لا يعدو (١٦٠) عنوان ، منها دوريتين فقط هما «الوثائق» وتصدر عن دار الوثائق المركزية في السودان نصف سنوية ، و«الوثائق العربية» وتصدر عن الفرع الاقليمي العربي للوثائق (سنوية) .

وقد بدأت تظهر في الآونة الأخيرة بوادر الاهتمام بهذا المجال من قبل المختصين والتي أفرزت بعض الأدب الأرشيفي ، ويلاحظ هذا في ولادة بعض الدوريات الجديدة في مجال الوثائق ، مثل «المجلة المغربية للتوثيق» والتي صدر العدد الأول منها في اكتوبر ١٩٨٣م . وتخصيص أبواب رئيسية للوثائق في بعض المجلات المعنية بقطاع المعلومات بمعناه الواسع مثل «باب الوثائق» والذي يعني بنشر الجديد من الوثائق السعودية في مجلة «مكتبة الادارة» يضاف الى ذلك بعض الجهود المتفرقة على شكل مقالات ، ومحاضرات وندوات .

ورغم كل الجهود التي تبذل ، فلا زال الأدب الأرشيفي غير محقق لاحتياجات الباحثين ، والدارسين ، والمسئولين في هذا المجال . وحتى نستطيع التوصية بدفع حركة التأليف في هذا المجال لابد في البداية من التعرف على العقبات التي أعاقت وقد تعيق في المستقبل ، توفير الأدب الأرشيفي العربي المتكامل ، والعمل على ايجاد الحلول المناسبة لها . والعقبات - في نظري - مجرد قضايا فنية ، واجتماعية ، متداخلة يشترك في مسئولياتها ليس المختصون في مجال الأرشيف وحسب ، بل عدة مؤسسات وهيئات مختلفة . ويمكن أن نطرح بعض تلك القضايا في التالي :

أولا : التعليم : ويلاحظ ان برامج التعليم لازالت قاصرة على تطوير وتنمية الأدب الأرشيفي المتكامل ، وكما حددنا في الفصل السابق نلاحظ ايضا ان أغلب الجامعات العربية لا تعني ببرامج تعليم الأرشيف سواء عن طريق التعليم الداخلي ، أو الابتعاث الخارجي مقارنة بالعلوم الأخرى وهذا بالطبع انعكس على قلة الكوادر الفنية المتخصصة ، والتي ينتظر ان تقوم بعبء الدراسات والبحوث وتطوير حركة التأليف .

ثانيا : النشر : يعتبر النشر من المشكلات التي يعاني منها الانتاج الفكري العربي بصفة عامة ، وذلك لعدم وجود قانون عربي موحد يلتزم به الناشرون في أعمالهم ، ويحدد حقوقهم وواجباتهم ويساعد على توسيع قاعدة التعاون والعمل المشترك ، ويضمن حقوق كل من المؤلف والناشر والموزع . ومن الممكن أن نحدد أهم المعوقات المرتبطة بالنشر في التالي[٩].

١- يعتبر النشر في بعض البلاد العربية أمرا تجاريا بحتا ، لا يلتزم بشرف المهنة وأخلاقياتها ، وجاء هذا في غياب التشريعات المحددة لمهنة النشر ، وكيفية تنظيمها كعمل قومي له انعكاساته على الفكر العربي بصفة عامة .

٢- غياب قوانين الايداع في بعض الدول العربية ساعد على تزوير الكتب ، واعادة طباعتها بعناوين مختلفة ، ناهيك عن السرقات الأدبية بدون علم المؤلفين .

٣- ضعف التنسيق بين الناشرين العرب والتنافس غير الشريف فيما بينهم ساعد على افراز الفكر العربي المتميز بالضعف والسطحية .

٤- عدم الالتزام بقواعد ومعايير موحدة تنظم بيانات النشر وتساعد في اعداد الفهرسة المتكاملة سواء للكتب أو الدوريات .

٥ـ غياب الببليوجرافيات الوطنية في أغلب الدول العربية ساعد على افراز فكر عربي متكرر ، وبالتالي انعدم التوازن بين الموضوعات المختلفة .

٦ـ اختلاف الأيديولوجيات السياسية والاقتصادية في البلاد العربية ساعد على احكام الرقابة على المطبوعات ، وفرض الضرائب والرسوم ، وبالتالي لم يعد في امكان القارىء العربي الحصول على المعلومات المتوفرة بالسهولة الممكنة ، رغم توفر أساليب الاتصال الحديثة .

ومن الطبيعي ان تكون انعكاسات هذه السلبيات على الأدب الأرشيفي كبيرة خاصة في غياب الوعي الوثائقي لعامة الناس ، الذي سيؤثر بدوره على قبول الناشرين لمثل هذا الانتاج .

ثالثا : ـ المصطلحات الأرشيفية: لقد أصبحت الحاجة أكثر إلحاحا الى تحديد المصطلحات الأرشيفية وتقنينها بشكل يسهل على الباحثين والدارسين الاستفادة من الأدب الأرشيفي في اللغات الأخرى ، خاصة في هذا الزمن المتميز بثورة المعلومات في كافة الحقول ، والمجالات ، والذي كان للأدب الأرشيفي نصيب منه ، حيث أفرز الفكر الأرشيفي العالمي ، الكثير من الكتب ، والدوريات ، وغيرها من أوعية المعلومات في مجال الأرشيف .

والمصطلحات لا تعني قائمة من الكلمات تترجم الى لغات مختلفة . بل هي مجموعة من التصورات تنبثق من التبادل المستمر لوجهات النظر ، ومن الحاجة الى مناقشة مجموعة متكاملة من المشكلات . ولهذا يجب ان تجتمع عدة لجان متخصصة للتعاون فيما بينها في خلق المواد ، ثم تتولى بعد ذلك لجان المصطلحات تهذيبها[١] .

وتحتوي المكتبة العربية على بعض المعاجم التي عالجت بعض قضايا وموضوعات الأرشيف ولكنها في أغلبها لا زالت قاصرة في تحديد المعاني الدقيقة للمصطلحات الفنية ويلاحظ هذا في اختلاف الترجمات لكثير من المصطلحات . ويمكن أن نحدد أهم المعاجم التي عالجت بعض المصطلحات الأرشيفية ، سواء في شكل وحدة موضوعية ، أو في اطار المصطلحات المكتبية في التالي :

- قاموس مصطلحات الوثائق والأرشيف (عربي ـ فرنسي ـ انجليزي) ١٩٨٣م ، من اعداد سلوى ميلاد .
- معجم المصطلحات المكتبية (انجليزي ـ عربي) ١٩٧٨م ، من اعداد محمد أمين البنهاوي .
- معجم مصطلحات علم المكتبات والمعلومات (انجليزي ـ عربي) ١٩٨٠م ، من اعداد عبدالله الشريف .
- أل سيفيرز (Elsevier-s) قاموس علم المكتبات والمعلومات والتوثيق (٦ لغات ، مع ملحق باللغة العربية) ١٩٧٦م .

- «مصطلحات السكرتارية والمحفوظات» ، من اعداد المنظمة العربية للعلوم الادارية . ضمن أعمالها في دليل المصطلحات العربية الموحدة في العلوم الادارية ، القاهرة ١٩٧٤م .

وهناك بعض الجهود المتفرقة في هذا الصدد ، والتي جاءت استجابة لتوصيات المؤتمرات العامة للفرع الاقليمي العربي للوثائق أو من ضمن أعمالها ، خاصة المؤتمر الثاني الذي عقد ببغداد في الفترة من ١٥ ـ ٢٢/٩/١٩٧٣م .

وتمتاز هذه الجهود بالمبادرات الشخصية . ولكننا في حاجة الى عمل مشترك تحت اشراف الفرع الاقليمي العربي للوثائق . ويدعى له المختصون في هذا المجال من كافة الاقطار العربية ، ولابد من التنسيق مع المجامع اللغوية ، للمساعدة في تعريب المصطلحات التي لم تدخل اللغة العربية بعد ، وهذا بدوره سيعين في اثراء الأدب الأرشيفي العربي بشكل عام .

رابعا: الترجمة : تعتبرة الترجمة من الأعمال الضرورية في الفترة الراهنة لسد النقص الحاصل في بعض فروع وموضوعات الانتاج الأرشيفي ، خاصة وان علم الارشيف لم يؤخذ مكانه الطبيعي في جامعاتنا العربية .

ورغم أن الترجمة ستواجه صعوبات متعددة أهمها مشكلة المصطلحات الأرشيفية ، الا أن العمل المشترك والتعاون بين الهيئات والمؤسسات الأكاديمية ، والمنظمات المتخصصة سيساعد في ترجمة الأعمال المهمة والتي

تعتبر امورا ملحة للاغراض التعليمية أو الممارسات الفنية ، ويمكن للفرع الاقليمي العربي للوثائق أن يقوم بدوره الحيوي في هذا المجال عن طريق تشكيل لجنة خاصة متفرغة عملها الترجمة ، ويكون تركيزها على منشورات اليونسكو ، والمجلس الدولي للأرشيف ، وبعض المنشورات المتخصصة التي يعتقد أنها ذات فائدة للقارىء العربي .

النتائج والتوصيات

يعتبر علم الأرشيف وآدابه أحد العلوم المهمة ، وأهميته تنبع من الحاجة اليه ، خاصة في الدول العربية التي تمر بمراحل تنموية سريعة ، وهذا يعني ان علم الارشيف وآدابه جزء من متطلبات التنمية لارتباطه المباشر بالادارة ، والتاريخ ، ومن هذا المنطلق أصبحت الحاجة ملحة الى تطوير الدراسات والبحوث الأرشيفية بالشكل الذي يحقق احتياجات الدول العربية ، ويناسب ظروف المرحلة الراهنة . ولتحقيق هذا الهدف لابد أن يوضع في الاعتبار الآتي :

أولا : مناشدة الدول العربية التي لايوجد لديها مراكز وطنية للوثائق بالمسارعة في ايجادها ـ حفاظا على تراثنا العربي .

ثانيا : تطوير الخدمات الوثائقية ، بشكل يجعلها اكثر التصاقا وتفاعلا مع المجتمع ، بتيسير الخدمات التعليمية ، والبحث العلمي في كافة المراكز الوطنية للوثائق .

ثالثا : حث الجامعات والمؤسسات الأكاديمية بأن تأخذ دورها الطبيعي في العناية بالدراسات والبحوث الأرشيفية ، وتطوير مناهج وأساليب التعليم والتدريب الأرشيفي .

رابعا : التنسيق والتكامل بين المنظمات والمؤسسات الاقليمية المتخصصة عن طريق تبادل الخبرات والمعلومات ، ورسم السياسات والبرامج المشتركة ، والتعاون فيما بينها ، وبين الهيئات والمنظمات الدولية عن طريق جلب الخبرات الفنية ، أو تمويل المشاريع التنموية المتخصصة .

خامسا : دعم الفرع الاقليمي العربي للوثائق ماديا ومعنويا ، وحث الدول العربية على المصادقة على نظامه ولوائحه الداخلية ، حتى يستطيع أن يقوم بدوره الطبيعي ، كمنظمة اقليمية هدفها الحفاظ على التراث العربي ، وخلق الوعي الوثائقي .

1- Hugh W.L payne, Education and archives, report the 9th International Congress,(London 15-91 sep. 1980), p. 128

2- Ibid, p. 128

3- Arie´ Arad The International Council on Archives and archival methodology, Report to the 9th International Congress, (London 15-19 Sep, 1980) p. 182

4- Ibid, p. 183

٥- عبدالله عمر الباردوي ، دراسات مختارة في المكتبات والتوثيق والاعلام (بيروت : عالم الكتب ١٤٠٣هـ) ص ٧٥ .

٦- المرجع السابق . ص (٧٤) .

٧- عبدالباقي الدالي . «مؤسسات ومدارس علم المكتبات في الوطن العربي» . المجلة العربية للمعلومات ، مج ٣ ، ع ٢ ، ١٩٨٢ . ص ٢٩ - ٥٣ .

٨- عامر القنديلجي ، وآخرون ، الكتب والمكتبات المدخل الى علم المكتبات والمعلومات (بغداد : الجامعة المستنصرية ١٣٩٩هـ) ص ٢٢ - ٢٤ .

10- Arie Arad, (Ibid), p. 183 .

المراجع

ـ الباروي ، عبدالله عمر ، دراسات مختارة في المكتبات والتوثيق والاعلام . بيروت : عالم الكتب ١٤٠٣هـ .

ـ بل ، ليوبل ، «التدريب المهني لأمناء المكتبات» . (ترجمة محمود الأعصر) . مجلة اليونسكو ، ع ١٥ ، س ١ ، ذو الحجة ١٣٩١هـ .

ـ بهر ، هانس جوخيم . «دور الوثائق والمدارس وعلاقتها من حيث امكانياتها ومشكلاتها وحدودها» . ترجمة محمود الأعصر . مجلة اليونسكو ، ع ١٧ ، س ٤ ، شوال ١٣٩٤هـ .

ـ حموده ، محمود عباس . المدخل الى دراسة الوثائق العربية ، القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٨٠م .

ـ الدالي ، عبدالباقي . «مؤسسات ومدارس علم المكتبات والمعلومات في الوطن العربي» . المجلة العربية للمعلومات ، مج ٣ ، ع ٢ ، ١٩٨٢م .

ـ علي ، عبداللطيف ابراهيم . «اعداد الوثائقيين في البلاد العربية» . الوثائق العربية ، ع ٢ ، ١٩٧٦م .

ـ القنديلجي ، عامر ابراهيم ، وآخرون . الكتب والمكتبات المدخل الى علم المكتبات والمعلومات . بغداد : الجامعة المستنصرية ، ١٣٩٩هـ .

ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . بحوث ندوة تدريس المكتبات والمعلومات في الوطن العربي . السعودية ، الرياض ، ١٩٨١م .

الوثائق في المملكة المغربية

سالم عبود الآلوسي
اتحاد المؤرخي العرب

أولاً - المقدمة:

بالرغم من عراقة تاريخ المملكة المغربية ، وقدم مؤسساتها الحكومية الادارية والمالية والقضائية ، وسعة صلاتها وعلاقاتها الدولية ، شرقا وغربا ، ونفاسة مجموعاتها الوثائقية وتنوعها وأهميتها ، فلم يصدر تشريع ، قانوناً كان أو نظاماً، ينص على تأسيس مركز أو دائرة أو مصلحة تتولى امر جمع الوثائق المغربية وحفظها وصيانتها وتنظيم شؤون الاطلاع عليها من قبل المؤرخين والباحثين . وما صدر من تشريعات تتصل بالوثائق ، كان الظهير الشريف الصادر عام ١٩٢٦ المنظم للمكتبة العمومية (الخزانة العامة فيما بعد) بالرباط وسلا ، وسنتناول بشرحه وبهذا الصدد[١] يقول مؤرخ المملكة الاستاذ عبدالوهاب بن منصور : «الحقيقة ان الوثائق والمستندات موجودة وكائنة منذ كان المغرب دولة ولكن لم تؤسس لها دائرة[٢] خاصة ولم يعيّن لها موظفون مسؤولون يعنون بجمعها» .

وفي العقد الثاني من هذا القرن شرعت الحكومة المغربية بجمع ما تفرق من وثائق المغرب ومستنداته مما عثرت عليه مكاتب الموظفين المخزنيين ، وصادرته مع ما صادرت من ممتلكاتهم وممتلكات قنصليات الدول المعادية خلال الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) .

وفي الآونة الاخيرة التفت المسؤولون في المملكة المغربية الى تراثهم الوثائقي الضخم فشمروا عن سواعد الجد وبذلوا الجهود المضنية لدراسته بعد جمعه لاسيما وقد استجدت قضايا وامور اساسية ومهمة استوجبت الرجوع الى الوثائق للاستفادة منها لاظهار الحقائق ورد كيد الخصوم .

وقد عبر عن ذلك مؤرخ المملكة بقوله «... مع التخلص من ربق الحمايتين الفرنسية والاسبانية وازدياد نار الثورة الجزائرية اشتعالا وبداية ظهور ازمة الحدود بني المغرب والاقطار المجاورة ، بدأت الحكومة المغربية والاحزاب السياسية وعمداء الجامعات واساتذتها يفكرون في مسألة الارشيف الوطني المغربي وبعثه من مرقده[٣].

وفيما يلي نلقي بعض الاضواء على أبرز المؤسسات المعنية بالوثائق في المغرب فنقول بشيء من الايجاز أن أهمها هي :

١- وثائق القصر الملكي:

لاشك في أن وثائق القصر الملكي تعد من أهم الوثائق المحفوظة في المغرب ، وهي في حيازة مصلحتين متكاملتين من مصالحه[٤].

أ - الخزانة الملكية (او الخزانة الحسنية) .

ب - مديرية الوثائق الملكية .

ج - وثائق الصدارة العظمى المحفوظة بقبوين من اقباء القصر الملكي وهي في الاصل وثائق دار النيابة المنقولة الى الرباط مضافة اليها الوثائق التي تجمعت بالصدارة العظمى الى عام ١٩٥٦ وقد بدأ ترتيب هذه الوثائق على يد الموظفين الاجانب في سنوات سابقة من تلك السنة ووضع عدد منها خلاصات بالفرنسية مع مقارنة تواريخه الهجرية بالتواريخ الميلادية .

ب ـ الخزانة الملكية :

حفظت فيها مجاميع مهمة من المراسلات المخزنية والكنانيش وهي بحاجة الى جرد مفصل للوقوف على مضامينها .

ب ـ مديرية الوثائق الملكية :

تم انشاء هذه المديرية بأمر جلالة الملك الحسن الثاني في الاول من يناير (كانون الثاني) ١٩٧٥ ، وهي تابعة الى القصر الملكي ، ومحتوياتها تكاد تقتصر على الوثائق التاريخية .

وقد عملت هذه المديرية على جمع الوثائق التي كانت محفوظة بالقصور الملكية وحيازة مجموعة مهمة مما صادرته الدولة بعد التحرر مباشرة من بيوت بعض المتعاونين مع السلطة الاجنبية المحكوم عليهم ، أو ممن اشترته بالمال او حازته من وثائق بعض الاسر التي سبق لرجال منها . أن تولوا من القدم مناصب سامية في الدولة(٥)، كما اضطلعت مديرية الوثائق الملكية بعمل جليل وهو القيام بتصوير شامل لمجموعات من الوثائق الاخرى المحفوظة في مؤسسات حكومية أو لدى اسرات فضلت الاحتفاظ بأصولها(٦)، هذا اضافة الى اتصالها بالحكومات الاجنبية التي كانت لها علاقات قديمة بالدولة المغربية لتصوير الاجزاء الخاصة بالمغرب من أرشيفاتها .

وقد حققت مديرية الوثائق الملكية منجزات عظمى في هذا المجال أهمها اصدار دورية متخصصة باسم «الوثائق» تنشر فيها منتخبات من وثائقها ومستنداتها سواء كانت مغربية أو أجنبية وقد اشرنا الى هذه الدورية سابقا(٧).

٢ـ الخزانة العامة بالرباط .

منذ عام ١٩٢٤ كان المغرب يتوفر على مصلحة حكومية لحفظ الوثائق والمستندات للدولة المغربية ، وكانت هذه المصلحة ولاتزال تكون جزء من الخزانة العامة بالرباط وقد أودع فيها من بداية الامر الوثائق الحكومية والادارية التي مر عليها عشرة أعوام(٨) وذلك استنادا الى الفصل(٩) من الظهير الشريف الصادر عام ١٩٢٦ كما تم ايداع مجموعة تحتوي على وثائق ومستندات السفارة الفرنسية بطنجة والقنصليات الفرنسية بمختلف المدن المغربية وضم الى الخزانة بعض وثائق المخزن القديمة التي عثر عليها اثناء العمليات العسكرية وسلمت من النهب والابتزاز ، وكذلك وثائق سفارة المانية وسفارة دولة النمسة ـ هنغارية وقنصلياتهما بالمغرب التي حجزتها الحكومة المغربية اثناء الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وانضمام المغرب الى صفوف الحلفاء(١٠).

وسارت الحكومة المغربية أشواطاً في جمع الوثائق وتضخم قسم المستندات في الخزانة العامة بالرباط مما حفظ فيه من وثائق القنصليات الفرنسية بالمغرب ومن الوثائق الحكومية والادارية التي كانت تبعث للحفظ من دواوين الحكومة بالعاصمة او من مكاتب الادارة بالاقاليم ، كما نشط بعض المواطنين المغاربة والاجانب لنشر عدد من الوثائق والدراسات التاريخية المهمة(١١).

غير أن هذه الحركة العلمية النشيطة لم تستمر مع الأسف حيث أصيبت بنكسة عندما استعاد المغرب استقلاله في أواخر عام ١٩٥٥ وتحرره من ربقة الاستعمارين الفرنسي والاسباني وتخلصه من هيمنتهما ذلك أن هاتين الدولتين «عمدتا الى نقل اكثر ما كان بالمكتبات الرسمية المغربية من المستندات الى بلديهما ولم تبقيا الا القليل منها»(١٢).

وقد ذكر مؤرخ المملكة الاستاذ عبدالوهاب بن منصور تفصيلات هذه العملية : «في أوائل عام ١٩٥٦ قامت السلطات العسكرية الفرنسية وعلى حين غفلة من المسؤولين المغاربة فأرسلت عدد من سيارات الجيش الفرنسي

الى الخزانة العامة (المكتبة العامة) بالرباط ومعها الجنود بكامل اسلحتهم ففتح لهم محافظ المكتبة العامة ـ وكان يهوديا جزائريا يحمل الجنسية الفرنسية ـ أبوابها ومكنهم من جمع ونقل ماكان محفوظا فيها من المستندات والوثائق الى القاعدة الجوية الفرنسية بمدينة (سلا) لتنقل هذه المجموعات المهمة من التراث الوثائقي المغربي على متن الجو الى فرنسا .

وقد تم ذلك باتفاق سري مع محافظ الخزانة العامة اليهودي الذي خان الامانة ولم يخبر رئيسه المباشر وهو وزير التربية الوطنية المسؤول عن الخزانة العامة الا بعد ما أودع الارشيف المنهوب بمخازن القاعدة الجوية الفرنسية(١٣) ومثل ما حدث بخزانة الرباط فعله الاسبانيون ـ بشكل اخف ـ بالارشيف المحفوظة بالخزانة العامة بتطوان .(١٤)

٣ـ قسم الوثائق التاريخية بباريس

كانت الحكومة المغربية قد أنشأت بالعاصمة الفرنسية باريس ، ضمن تشكيلات مكتب المغرب العربي ، قسما تاريخيا(١٥) عهدت اليه بجمع كل ما تحتوي عليه مكاتب الدول الاوروبية وارشيفاتها من وثائق ومستندات وخرائط ومعلومات تتعلق بالمغرب وتاريخه وقد حقق هذا القسم اعمالا جليلة بما جمع وترجم ونشر من وثائق ودراسات تخص المغرب .

وقد تعرضت محتويات القسم التاريخي ايضا للنهب من طرف موظفيه وكلهم من الفرنسيين ، وكان يحتوي زيادة على الوثائق المصورة والمنسوخة على ذخائر لا تقدر بثمن من الكتب القديمة النادرة والصور والرسوم والمسكوكات والمصوغات والمنمنمات وسواها من الذخائر والاعلان .

وقد بقي هذا القسم التاريخي عرضة الى الاهمال الى ان تمت تصفية تركة مكتب المغرب العربي بباريس فنقل طرف ما بقي فيه الى السفارة المغربية بباريس وطرف آخر الى الخزانة العامة بالرباط .

ثانيا ـ التشريعات الوثائقية في المغرب

ذكرنا في المقدمة ، ان المغرب لم يصدر تشريعا خاصا بالوثائق ، سواء كان قانونا او نظاما ينص على تأسيس مصلحة تتولى امر جمع الوثائق والعناية بها ، ولما كانت الوثائق والمستندات تقع ضمن مسؤوليات المكتبة العامة فإن التشريعات الصادرة بهذا الشأن اقتصرت على (الظهير الشريف) الصادر عام ١٩٢٦ .(١٧)

وكان الظهير الشريف المشار اليه قد صدر في الرباط ونشر في الجريدة الرسمية بعددها ٧٣٦ المؤرخ في ١٤ دجنبر (ديسمبر) أو كانون الاول من عام ١٩٢٦ وهو خاص بتنظيم المكتبة العامة (التي اصبحت تسمى فيما بعد بالخزانة العامة للكتب والوثائق) اداريا وماليا .

يتألف الظهير الشريف من بابين مقسمين الى اربعة وعشرين فصلا وفيه اشارات مقتضبة الى الوثائق والمستندات ، فقد جاء ذكر (الأوراق القديمة الرسمية والخارطات ، والصور الشمسية وجميع الاوراق والمستندات.. الخ) في الفصل الثاني منه ، اما الفصل التاسع فقد ورد نص (تودع في المكتبة العمومية الاوراق الرسمية الاعتيادية المختصة بالادارات والفروع الادارية بالاقامة وبالادارة الشريفية .. الخ) .

وتوثيقا لهذا الاجراء من النواحي التاريخية رأينا ان ننشر الفصول (١ ، ٢ ، ٩ ، ٢٤) التي لها صلة بالوثائق وهي مع مقدمة الظهير وخاتمته .

وقبل ان نختتم هذا البحث نقول اما آن الاوان لأن يبادر المسؤولون في المملكة المغربية لوضع التشريع الذي يتناسب ويتلائم مع الثروة الوثائقية التي يفتخر المغرب بحيازتها .

ظهير شريف

في ادارج المكتبة العامة للدولة الحامية في مصاف المعاهد العمومية يعلم من كتابنا هذا اسماه واعزه امره اننا أصدرنا امرنا الشريف بما يأتي :-

الباب الاول - مقتضيات عمومية
الفصل الاول

تدرج المكتبة العامة للدولة الحامية في مصاف المعاهد العمومية .

الفصل الثاني

انه من اختصاصات المكتبة العمومية للدول الحامية الاهتمام بالمحافظة على التئاليف الاساسية التي يعتمد عليها وتمكين العموم من الاطلاع عليها وكذلك على المطبوعات اليومية والنشرات الصادرة بأوقات معينة المتحتم على اربابها ان يودعوا منها نسخا بمقتضى القانون وعلى الاوراق القديمة الرسمية وللخارطات والتصوير المطبوعة بعد نقشها على النحاس او الخشب والمسكوكات والصور الشمسية وجميع الاوراق والمستندات الموكولة اليها صيانتها طبق الشروط التي ستعين بقرار من المدير العام لادارة العلوم والمعارف والفنون الجميلة والآثار القديمة مع مراعاة مقتضيات ظهيرنا الشريف فيما يتعلق باطلاع العموم على الاوراق الرسمية القديمة الادارية .

الفصل السادس

يدير شؤون المكتبة العمومية للدولة الحامية حافظ من شأنه الاهتمام بالمحافظة على محلاتها وصيانة التئاليف والمستندات المتحصلة من العطايا والهبات بوصية والمعاوضة والشراء .
ويراقب الحافظ تحرير فهارس التصانيف وطبعها ويرشد ويعين موظفي المكتبة في عملهم الموكول اليهم ويدير شئون الابحاث والبيانات العلمية .

الفصل التاسع

تودع المكتبة العمومية للدولة الحامية الاوراق الرسمية الاعتيادية المختصة بالادارات والفروع الادارية بالاقامة العامة وبالادارة الشريفة ويكون قد مضى على تاريخها أكثر من عشرة اعوام وذلك ما عدى الاستثناءات المرخص بها بقرار من المقيم العام .

الفصل الرابع والعشرون

يجرى العمل بظهيرنا الشريف هذا ابتداء من فاتح يناير سنة ١٩٢٧ والسلام .
وحرر بمراكش في ٢٤ ربيع الثاني عام ١٣٤٥ الموافق فاتح نونبر سنة ١٩٢٦ قد سجل هذا الظهير الشريف

في الوزارة الكبري بتاريخ ٢١ / جمادى الاولى عامه الموافق ١٦ نونبر سنة ١٩٢٥ .

محمد المقري

اطلاع عليه واذن بنشره المعتمد بالاقامة العامة اوربان بلان - الرباط في ٨ دجنبر سنة ١٩٢٦ .

---

(١) اعتمدنا في بحثنا هذا على ما توفر لدينا من مصادر ومراجع نذكر منها ما كتبه مؤرخ المملكة الاستاذ عبدالوهاب بن منصور فيما يلي :-

أ - الوثائق : وهي دورية تصدرها بالعربية مديرية الوثائق الملكية بالرباط صدرت المجموعة الاولى منها عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦). وسيشار اليها فيما بعد بـ(الوثائق) مع الاشارة الى رقم الصفحة .

ب - مجلة دار النيابة : وهي فصلية وثائقية دراسية تعنى بتاريخ المغرب . صدر العدد الاول منها (بالعربية والفرنسية والاسبانية) بطنجة في مطلع عام ١٩٨٤ ، وسيشار اليها اختصار بـ(د.ن) مع ذكر رقم الصفحة .

ج - الظهير الشريف : الصادر عام ١٩٢٦ . وهو الظهير المنظم للمكتبة العمومية (الخزانة العامة فيما بعد) بالرباط وسلا . وقد تفضل مشكورا صديقنا الاستاذ المؤرخ عبدالرحمن الفاسي الفهري محافظ الخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط ، فبعث الينا بنسخة مصورة من هذا الظهير .

(٢) راجع :

أ - الوثائق : المجموعة الاول (١٩٧٦) ، ص ٦ .

ب - مجلة دار النيابة : ١ (١٩٨٤)، ص ١٠ .

(٣) د.ن - ١ (١٩٨٤) ، ص ١٠ - ١١ .

(٤) راجع : د.ن - ٣ (١٩٨٤) ، ص ٥ :

الوثائق - ٤ (١٩٧٦) ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٥ - ٦) د.ن ١ (١٩٨٤)، ص ١١٠ .

(٧) راجع الهامش (١- أ) .

(٨) الوثائق ، ١ (١٩٧٦) ، ص ٦ .

(٩) المصدر نفسه .

(١٠) د.ن - ١ (١٩٨٤) ، ص ٩ - ١٠ .

(١١) من بين هذه الدراسات كما جاء في مجلة دار النيابة ١ (١٩٨٤) نذكر مايلي :-

١- الرسائل الشريفية : نشرها الكومندان نهليل .

٢- الرسائل الموحدية : نشرها المستشرف الاسباني ليفي سرفنصال .

٣- رسائل سعدية : نشرها الاستاذ عبدالله كنون .

٤- اتحاف اعلام الناس . نشرها مؤرخ الدولة الاستاذ عبدالرحمن بن زيدان .

٥- مدونة القوانين : الخاصة بمنطقة الحماية الفرنسية والاخرى الخاصة بمنطقة الادارة الدولية بطنجة .

(١٢) - د.ن - ١ (١٩٨٤) ، ١٠ وكذلك الوثائق ١ (١٩٧٦) ص ٧ - ٨ .

(١٣) كان وزير التربية الوطنية يومذاك العلامة الاستاذ محمد الفاسي .

(١٤) د.ن - ١)١٩٨٤) ص ١٠ .

(١٥) المصدر نفسه ص ١٠ ، وكذلك الوثائق ١ (١٩٧٦) ص ٧ .

(١٦) د.ن - ١ (١٩٨٤) ، ص ١٠ .

(١٧) الظهير - جمعة ظهائر - وهو مصطلح استعمل في الاندلس والشمال الافريقي ، كما استعمس ي عصر الخلافة العباسية ببغداد . والظهير في اللغة هو السند والمساعد الذي يقصد به مايعادل الفرمان السلطاني او الادارة الملكية او المرسوم الجمهوري والقرار الذي يعين بموجبه موظف او مكلف بمهمة رسمية .. الخ .

وقد ورد ذكر الظهير في عدد من التأليف العربية المعروفة مثل صبح الاعشى للقلقشندي وتاريخ ابن خلدون ونفح الطيب للمقرى ومؤلفات لسان الدين بن الخطيب كالاحاطة في اخبار غرناطة .

عدد ٧٣٨ - ١٤ دجنبر ١٩٢٦ «الجريدة الرسمية» ٢٢٢٧

الحمد لله وحده

«رسالة في اوجاع الاطفال»
لابي علي بن احمد بن عبدالرحمن بن مندوية

تحقيق ودراسة
أ. د. داور مزبان الثامري
كلية الطب - جامعة بغداد

المقدمة: - حياة المؤلف

لقد تخصص العديد من الاطباء العرب والمسلمين في فروع الطب كالجراحة وامراض النساء والامراض العقلية والكحالة والتجبير وغيرها .

وبحث العديد منهم في امراض الاطفال فمنهم من الف كتابا عن المولودين لسبعة اشهر واصول تربيتهم ومنهم من بحث في شروط المرضعة واصناف الحليب وفي علل الاطفال ووسائل معالجتهم ومن هؤلاء ابن مندوية المتوفي سنة ٤١٠هـ وهو ابو علي احمد بن عبدالرحمن بن مندوية .

لم توضح كتب التراجم تاريخ ولادته ونشأته ولكنها اشارت الى انه عاش في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري وقد أشارت كتب التراجم الى ان لأبن مندويه رسائل علمية عديدة في الطب . ومن ذلك اربعون رسالة / مشهورة الى جماعة من اصحابه في الطب . وله ايضا «كتاب المدخل في الى الطب» ، كتاب الجامع المختصر من علم الطب وهو عشرة مقالات ، كتاب المقالات في الطب ، كتاب في الشراب ، كتاب الاطعمة والأشربة ، كتاب نهاية الاختصار في الطب ، كتاب الكافي في الطب ويعرف ايضا «بكتاب القانون الصغير» وقد ذكرت جميعا في كتاب «عيون الانباء في طبقات الاطباء» لأبن ابي اصيبعه ومنها كذلك هذه الرسالة «رسالة في اوجاع الاطفال» الذي قمنا بدراستها وتحقيقها .

٢- الدراسة العلمية

يدعي الغربيون انهم اول من كتب في اختصاص طب الاطفال وأورد له المؤلفات المستقلة لما لذلك من أهمية ولاختلاف امراض الاطفال منها في الكبار .

ان هذا الادعاء مجاف للحقيقة فأول من كتب عن الحصبة والجدري هو الرازي ولو تركنا جانب الابداع في الاكتشاف الطبي في فصل هذين المرضين احدهما عن الآخر لوجب علينا اعتبار ان تلك الرسالة هي ايضا تخص امراض الاطفال بحيث ان الحصبة هي من امراض الطفولة وانواعها قد تصيب الكبار ايضا . لقد قام الاخ الدكتور محمود الحاج قاسم بعمل مثمر وجليل عندما حقق كتاب تدبير الحبالى والاطفال والصبيان وحفظ صحتهم فهو بعمله هذا قد سد أفواه المغرضين ووضع الحق في نصابه فهذا هو أول كتاب في اختصاص طب الاطفال لمؤلفه احمد بن محمد بن يحيى البلدي الغير معروف الولادة والذي توضع وفاته بين عام ٣٦٨هـ او ٣٨٠هـ (المرجع ذاته) يجيب على ذلك الافتراء وللسير على نفس الخط ولابراز مايكنه العرب للاطفال من محبة ولاثبات ان الاطباء العرب هم أول من فرق بين امراض الاطفال والكبار أردت ابراز رسالة بن مندوية في اوجاع الاطفال وتبيان الحقائق الطبية المذكورة فيها .

ان ابن مندوية يحذو حذو كافة الاطباء العرب والمسلمين عند كتابتهم في الطب فهم دائما يبدؤن بتعريف المرض ثم ذكر اعراضه وبعدها معالجاته او طرق مداوته وهذا اسلوب لازال متبعا الى اليوم في كتب الطب ،

فعند وصفه للمغص عند الاطفال يقول «يستدل على ذلك بتلويه وبكائه» ولم يزد طب اليوم من ملاحظات سريرية عند فحص الطفل اكثر من ذلك .

اما استعماله للتكميد فهو وارد طبيا حيث ان المغص عند الاطفال قد يتأتى بسبب تعرض الطفل للبرد ونحن نستعمل اليوم الماء الدافىء في قناني بلاستكية لتدفئة الطفل ، إنه يشير الى الاطباء المشهورين قبله ويستدل على ما فعلوه في بعض الحالات الطبية والتي نتبعه اليوم فيما نسميه تسجيل الحالة الطبية نظرا لندرتها او صعوبة تشخيصها او انفرادها بعلاج خاص وهذا ما يقوله ـ قال محمد بن زكريا الرازي في تجاربه رضيع يوجع جنبه أمر بأن ينقص من ارضاعه نصف ما كان يرضع ـ ص ١ من المخطوطة ـ وهذ ما يفعله طبيب اليوم ايضا ، حيث ان قلة الطعام تفيد الطفل ايضا وتمنع الجوع الذي يسبب البكاء .

ان امراض التسنن الذي يذكرها ابن مندويه لا تختلف كثيرا مما يوجد في الكتب الطبية الحديثة فهي ورم الدرور واللثة وورم الحلق واللوزتين والخدين وحكة الآذان ويسيل من اذنيه مده وبرد وتقي وربما حدث ببعضهم حمى وتنطلق بطونهم وربما عرض لبعضهم كزاز ـ ص ١ من المخطوطة .

ان هذه الاعراض معروفة للعامة ايضا ولكنها مبالغ فيها وقد تعزى بعض الاعراض المرضية لها وقد يكون سبب ذلك قدم تداولها من جيل لجيل قد تكون بدأت في زمن مندويه وانتقلت منه لأجيالنا هذه ولكن طرأ عليها الحذف والزيادة بسبب تناقلها .

ان طريقة المعالجة التي يتبعها بن مندويه للتسنين لا نتبعهااليوم بسبب معرفتها لحقيقة التسنين من أنه مرض غير خطير ولا يوجب تدخل الطبيب كما ان طرق معالجاته غير مفيدة كصب الماء المطبوخ فيه البابونج والشبت وتضميد سدخاه ـ ص ٢ من المخطوطة .

ان استعمال ذلك لحالات الاسهال لايفيد ايضا اما استعمال العسل للامساك فهو وارد طبيا ونحن نستعمل سكر الطعام اليوم عند حصول الامساك ولكن عن طريق الفم وبن مندويه يشير الى سابقة في العلاج الطبي وهي استعمال الشرج لاعطاء الادوية وهي احد الطرق التي نستعملها اليوم بحيث ان القولون يقوم بامتصاص بعض الادوية وهي طريقة سليمة وتستعمل عند عدم استطاعة الطبيب ادخال الادوية عن طريق الفم . ان ابن مندويه يقوي حجته الطبية في المعالجة بالاشارة الى فطاحل الطب ومنهم ابقراط الذي يقول عنه انه ينصح باستعمال التربد الذي ينفع من التأثيرات الحادثة في فم الاطفال ـ ص ٢ من المخطوطة .

ان ماجاء في الرسالة حول السرة وقطعها جدير بالتسجيل والملاحظة فهو يقول «اذ ولد الطفل فينبغي ان نقطع سرته اربع اصابع ـ ص ٤ من المخطوطة» ، ويستمر بالوصف والمهم منه هو تنظيف المنخرين والفم والاذنين واللطيف انه ينصح الطبيب باستعمال اصبع مقلمة الظفر حيث ان ذلك يؤدي الى جروح الفم التي تحدث عرضيا دون قصد وهو بذلك يسبق الجميع بهذه الممارسة الطبية .

اما تقطير الزيت في العين فهو ما متوفر له ونحن نستعمل اليوم القطرة الطبية لمعرفتنا ان بعض الامراض قد تنقل للطفل من والدته اثناء الولادة ولابد ان يكون تقطير الزيت هو الشيء الذي يبغيه بن مندوية .

اما مسح الدبر بالخنصر واخراج جميع ما فيه فهي احسن طريقة للتأكد من ان دبر الطفل غير مسدود نتيجة لتشوه خلقي وهذا جزء من فحص الوليد اليوم اما ربط السرة بصوف نقي فهو الذي يمنع الالتهابات ومرض الكزاز الولادي الذي يدخل من جرح السرة ولاينسى ان ينصح بأن الطفل يجب ان يتوقى عليه من البرد . حيث انه وليد جديد ولاقدرة له على تحمل البرد وهذا ما نمارسه في الاقسام الخاصة بحديثي الولادة من منع الالتهاب والتدفئة والتغذية التي يفرد لها ابن مندوية بابا خاصا ، اما عندما تقع السرة بعد ذلك فيجب ان يغطي محلها برماد الودع المحروق وهذه احسن مادة متوفرة لديه خالية من الجراثيم وخاصة مرض الكزاز وبهذه الطريقة قضى الاستاذ جلف على مرض الكزاز الولادي في قارة افريقيا بعد ان اقنع الاهالي باستعمال الروث المحروق بدل الرطب منه والحاوي على مرض الكزاز فهل جاء الاستاذ جلف بشيء جديد كلا ولكن ربما

كان يعرف ان الاطباء القدامى استعملوا تلك الطريقة فكثير من كتب الطب العربي الاسلامي ترجمت الى اللغات اللاتينية .

انه لا ينسى أهمية المكان الذي يوضع فيه الطفل وحتى فراشه يجب ان يكون معتدل الدفء وليست فيه رائحة نتنه ولاشعاع كثير . اما تغذية الوليد فيجب ان تكون من عسل منزوع الرغوة يلعق منه بالاصبع او يمزج بشراب وماء فان ذلك ينقي معدته ومجاريه ثم يرضع من امرأة غير امه ولا يرضع في اليوم الاول عليه اكثر من مرتين او ثلاث وينبغي ان لا ترضعه امه حتى يأتي له ثلاثة أو اربعة ايام . ـ ص ٥ من المخطوطة . ان في هذه الاسطر كثير من المعلومات والامور العلمية فاعطاء الطفل العسل يمنع منه نقص السكر في الدم الذي يسبب الاختلاجات كما يمنع تولد مادة الصفراء بسبب تزويد الطفل بالسكر اما ارضاعه في اليوم الاول مرتين او ثلاث فقد أصاب كبد الحقيقة العلمية بذلك حيث ان الوليد الحديث قد مر بعملية الولادة وهي ليست عملية سهله ، لذا يجب ان يترك للراحة التي هي أهم له من التغذية والتي لم ينسها البته ولكنه نصح باقلالها ليتسنى للرضيع الراحة . أما منعه الرضاعة من الاول فهو تحقيق شيئين اولها الراحة للأم المتعبة من الولادة ومعرفته ان الأم لا تنتج الحليب في الأيام الثلاثة أو الاربعة الاولى بل تفرز المادة الصمغية التي لا تكفي لتغذية الوليد . لذا فكر بطريقة تؤمن الراحة للام والتغذية للطفل اما طبيب اليوم فهو مجبر على استعمال البديل الصناعي وهو الرضاعة الصناعية التي لاتفيد الطفل وخاصة في ايامه الاولى مثل حليب الام سواء كانت أمه أو امرأة اخرى . والعرب كانوا يعرفون ذلك وحليمة السعدية مرضعه النبي (ص) اكبر شاهد على ذلك . اما ما جاء في بقية الرسالة من وصف لامراض يصاب بها الاطفال والمعالجات الموصوفة لهم فهي نتيجة لما هو معروف في زمانهم من ادوية مستخرجة من الاعشاب فللسعال يستعمل الصمغ العربي ومن كثيرا وحب السفرجل ورب السوس . اما امتناع الصبي من الرضاعة فيعالجه بالمرويزر القرع ولا أحد يستطيع ان ينتقده على ذلك فقد تكون تلك المواد ذات مفعول طبي وهي احد الاسباب وراء التحقيق من وضعها بين يد المتخصصين لتجربتها ودراستها ومعرفة مفعولها أفليس أدوية اليوم كلها صناعية بل ان اكثرها ذا مصدر نباتي وهذا ما يصبو له المحقق من تحقيق من أن يرى بعض تلك الادوية مجربة ومستعملة حيث انها سبق وان استعملت دون ان نوجه اللوم والاستخفاف للطب العربي والاسلامي ونعتبره خرافات وأوهاما بل يجب ان نقدر الظروف التي كان يعمل بها اجدادنا العظام مسلحين بالايمان والفراسة والحدس والتخمين والتجربة وقبول ما يقبله العقل والمنطق لايساعدهم مختبر ولا أجهزة متطورة ولا يسندهم معمل ادوية وهذا ما يزيدهم فخرا وزهوا بأنهم كانوا الاساس الذي بني عليه التقدم الطبي اليوم ولولاهم لما وصل الطب لما وصل اليه والجميع يعترف بجدهم سواء رشوا ام لم يرضوا ...

٣ـ المخطوطة

وصف المخطوطة : مقالة ضمن مجموع مخطوط تحت رقم ٣٧٧٠ ـ ١٢ مكتبة المتحف العراقي . مكتوبة بخط واضح ذات حواشي وفيها بعض الكلمات التى لا تقرأ .

٤ـ نص المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم ويمنا بذكره العلي الاعلى ، رسالة في اوجاع الاطفال لأبن علي بن مندويه ترحمه الله .

● تغط الجلد : قال قد يعرض للمولود ان تغط جلده وعلاجه أن يحمم بماء الورد والاذخر والورد ويوضع عليه

مرهم الاسفيداج ويغسل ايضا بالورق غسلا رقيقا وينبغي للعليل اذا عرض ذلك ان يستعمل الاغذية المعدلة الحلاوة ويغذي الطفل بأغذية متوسطة فلا يشبع كثيرا ولا يجوع كثيرا . فأن اشتدت طبيعته فينبغي ان يخلط في طعامه شيء من عسل فأن لانت طبيعته بذلك والا شيب طعامه بمثل ٣/٤ الحمصة من علك العلم وتمرخ بطنه بالزيت تمريخا رقيقا .

● السعال : وقد يعرض للطفل السعال وعلاجه ان يحمم بماء يسخن كثيرا ويدلك رأسه بعسل كثيرة ويدخل الاصبع وتقلب لسانه ويكبس فأنه سيئا لمن كبر وبرأ . لعوق للصبيان . يؤخد صمغ عربي وعصارة السوس وكثير وفايند من كل واحدة اربع دراهم جت السفرجل يدق ويعجن بالحلاب . وقد يعرض للطفل مغص ويستدل على ذلك بتلوية وبكائه وعلاجه ان تكمد بطنه بالماء الحار والدهن الكثير الذي اذيب معه شيء من شمع . قال محمد بن زكريا في تجاربه رضيع يوجعه جنبه(١) يمر بأن ينقص من ارضاعه نصف ما كان يرضع فاذا انتبه في كل يوم من نومه اجلس في الماء الحار قبل سقيه اللبن . قال احضر صبي ابن ثلاث سنين وقيل انه توجعه قلبه وفي الاحيان يضيق عليه النفس وتلين طبيعته امر بأن يعطي اقراص الورد ويكمد على الرأس بماء البابونج .

● نبات الاسنان : ويعرض له عند نبات اسنانه ورم في الدرور واللثة وورم الحلق واللوزتين والخدين وحكة الاذنين ويسيل من اذنيه مده وبرد وقيء وربما حدث ببعضهم حمى وتنطلق بطونهم وربما عرض لبعضهم كزاز وعلاج جميع ذلك أن يبدأ في الدرور واللثه فتدلك بالاسبع دلكا رقيقا ويعمد عليها بالمريخ بالاشياء المحللة مثل الزيت والشيرج وشحم الدجاج ودماغ الارنب وتمرخ مرة اخرى بعسل قد طبخ طبخا معقدا وفيه علك(٢) الانباط ومذاب ذلك بزيت مغسول وتمرخ به اللثة والدرور ويصب على رأسه ماء طبيخ البابونج والشبت صبا دايما ويضمد صدغاه بضمادات فاذا طلعت وبانت اسنانه من اللثة فليشد رأسه وعنقه وخداه بصوف نقي ناعم وينطل نطلا بليغا وينقى رأسه بزيت مغسول ملخوط بماء حار ويقطر من ذلك في اذنيه ويكون غذاؤه بمقدار قصد ويحمم بماء حار .

● الاسهال : فأن عرض للطفل اسهال فينبغي ان يحبس من خارج بالضمادات الحادة للذرب مثل أن يؤخذ الكمون فيدق ويذر على صدغيه ويلزم البطن الانيسون او بزر الكرفس اذا خلط فيه بزر الورد وما شاكله من الاشياء المجففة .

● الاعتدال : فأن عرض للطفل عند نبات أسنانه حصر واستمساك البطن فينبغي أن تلين الطبيعة بالعسل وذلك بأن يعمل منه مثل البلوطة الرقيقية وتدحس في دبره أو يؤخذ الفودنج فيدق بالعسل ويعمل منه فتيله ويحملها .

● الكزاز : وأن اصاب الطفل كزاز بسبب نبات الاسنان فينبغي ان يحمم الطفل بماء طبيخ فيه قثاء الحمار وقد ينفع ذلك ايضا دهن الفودنج ومن قثاء الحمار مخلوطين بالجملة ينبغي ان تسكن بطنه فأذا نبتت اسنانه شيئا فينبغي ان يسقى من اصل السوس المقشر الذي لم يجف كثيرا فأن ذلك مما ينفع من القروح ايضا ويدلك فوه بسمن وعسل فأن الآثار الباقية في اللثة من القروح فينفعها رماد السماك المالح .

● آثار اللثة : وقد يعرض للطفل بثر كأنه قرح فيكون منذلك ماهو أسود ومنه ما هو احمر الا ان البثر الاسود الشبيه بالمحترق يدل على موت المولود .

● بثور اللثة : قال ابقراط خاصية التربد ان ينفع من البثر الحادث في فم الاطفال ومما ينفع من بثر لثات الاطفال العسل والبنفسج وكذلك البنفسج وحده اذا جفف ودق ووضع في الدواء ورق الورد اليابس المسحوق والزعفران وشيء من المر والعفص وقشور الكندر اذا عملت جميعا وعجنت بالعسل او عجن كل واحد على حده ووضع على الموضع وقد ينفع لذلك ماء العسل ورب الرمان الحلو وينفع معه جميع الأدوية النافعة من اوجاع الفم .

● الشرى : فأما الشرى الذي يعرض للاطفال فينفعهم ان يغسلوا بطبيخ البنفسج وماء الشعير المقشر والقرع وورق النيلوفر ولايقرب منهم الدهن وتسقى المرضعة طبيخ الاهليلج والشاهترج والطرسعوق ويمنع من الادوية المالحة والحريفة وتعاهد ماء الشعير وماء الرمان وماء الخيار وبزر البقلة الحمقاء .

● انسلاخ اصل الفخذ : فاذا انسلخ اصل فخذ الطفل فينبغي ان يذر عليه اس مسحوق وورد مدقوق او دقيق شعير . فاما الرطوبة التي تسيل من آذان الاطفال فينبغي ان تجفف بصوفه تحشى بشب يماني وتدخل في الاذنين او غمس الصوفة في شراب عتيق وتدخل في الاذن او يقطر في الاذنين ماء العسل او يؤخذ الزعفران فيسحق بالشراب ويقطر منه في الاذنين او يقطر بالاذن ماء العسل أو يؤخذ الزعفران ونطرون مسحوق يلقى في شيء من خل ممزوج ويقطر في الاذن .

● ورم اليافوخ : وقد يعرض الطفل ورم اليافوخ وينحدر الوجع الى العينين والحلق فيصفر لذلك لون الجسد ويجف البدن فينبغي ان يعالج بأن يؤخذ البيض بدهن ورد ويضمد به اليافوخ ويبدل مرات كثيرة .

●ضرر النفس : وقد يعرض للطفل ضرر في نفسه وعلاج ذلك ان يعمد الى بزر كتان يدق ويعجن بعسل ويلعق منه ويقطر في افواههم ماء العسل مسخنا تقطيرا دايما يدهن اصول اذيب بالزيت المسخن ويعصر اصل اللسان ويكبس الى اسفل ويقيأ فأنه اذا قاء برىء .

●انتفاخ العين : وقد يعرض للطفل انتفاخ العين وعلاج ذلك الحضض فيداق باللبن ويطلى على الاجفان وتغسل العين بماء طبيخ الباذروخ ويعرض للطفل من البكاء بياض عينيه فينبغي ان يكحل بعصارة عنب الثعلب .

● الفطاش : ويعرض للطفل داء يقال له الفطاش ويكون من ورم يحدث في الدماغ وطبقاته فتغور العين لذلك ويأخذه لذلك حمى صبا وعلاج ذلك دلك الاسنان بالاشياء المحلله للاورام المطفية للهيب ويمرخ البدن كله بعصارة الكرزة ودهن الورد أو يؤخذ قشور القرع الرطب فتوضع على هامته . أو ورق الكروم الطيب أو ورق البقلة الحمقاء يوضع بدهن وردا وتطلى الهامة بالبيض مضروبا بدهن ورد يفعل ذلك مرارا . قال بولس فينجذب اليافوخ الى الداخل فيكون عمقا وصفره في العينين وييبس في الجسد وينتفعون بمح اليض مع دهن الورد اذا وضع ذلك على اليافوخ وبدل في كل حين .

●التعريق : وكذلك يفعل بالخيار وقشور القرع وقشور القثاء والبطيخ وماء عنب الثعلب مع دهن الورد وما ينفع الطفل أن يؤخذ لب القصب الرطب فيسحق وتطلى به هامته ورجلاه ويدثر بالثياب .

● نتوء السرة : وقد يعرض للطفل وحده نتوء السرة اما الافراط التمدد والعارض من قبل البكاء الكثير واما بسبب سقطه او ضربه فيكون ذلك شبيها بالفتق وعلاج ذلك أن تسحق النانخواه وتجن ببياض المح ويلطخ على السرة ثلاث ايام ويؤخذ الترمس والمر محروقان ويذران على السرة ويصير فوق ذلك مشاقة مبلولة بنبيذ فان اردت علاج ذلك بدواء فأفعل منها سيعمل بعض الأدوية التي ذكرناها وانها نافعة من القيله مثل المر وجوز السرو والصبر والأقيا واشباه ذلك .

● قطع السرة وتربيته : واذا ولد الطفل فينبغي ان نقطع من سرته اربع أصابع ويملح ساعة مولده بملح قد خلط معه شاذنج وقسط وسماق وحلبة وشعير كل ذلك مسحوق فيملح جسده كله الا الفم والانف ويترك ذلك عليه حتى ينحل ومخه ثم يغسل حينئذ بماء فاتر وينظف من جميع الوسخ وينقى منخراه وفمه واذناه بأصبع مقلمة الظفر ويقطر في عينيه شيء من زيت ويمسح دبره بالخنصر فيخرج جميع ما فيه وتربط سرته بصوف نقي ويتوقى عليه من البرد . فاذا وقعت سرته بعد ذلك لثلاث ايام أو أربعة فليذر على الموضع رماد الودع المحروق ورماد عرقوب عجل محرق وقد سحق بالشراب ثم يطلى على الموضوع ويشد وينبغي للقابلة ان تعمد الى إعصابه ونعم ماوجب ان يكون عريضا واسعا ثم يلصق ذراعيه بركبتيه ما بين الركبة والركبة وبين الكعب ويعمم بمصفى لبن ويلف رأسه بصوف نقى وينوم في بيت معتدل الدفء وليست فيه رائحة نتنه ولا شعاع كثيرا لئلا

يضر ذلك بصره وينبغي ان يكون براشه مستويا في المهد لئلا ينحل لحمه ولا يكون لينا جدا لئلا يتغلب عظم صلب ويلتوى ويكون رأسه اعلى من بدنه وينبغي ان يكون اول ما يغذى به عسل منزوع الرغوة ويلعق منه بالاصبع او يمزج بشراب او ماء ويسقى فأن ذلك ينقي معدته ويفتح مجاريه ثم يرضع من امرأة غير امه ولا يرضع في اليوم الاول عليه اكثر من مرتين او ثلاث الى ان تستمري معدته وينبغي ان لاترضعه امه حتى يأتي له ثلاث أو اربعة ايام .

لقيء الصبيان (كلمة ناقصة في المخطوطة) وشيء من زعفران يسقى منه قليل . لاستطلاق بطن الصبي يؤخذ فخذ جدي وزن ونصف ويصقى بماء ورد . وللقولنج يلطخ على سرته مرارة البقر او بخور مريم ولضعف المعدة يلعق السوسن ويصنع بماء بارد وماء الآس او سكر وقرنفل من كل واحدة قيراط ويسقى بماء السفرجل . لسعال الصبيان صمغ عربي كثيرا وحب السفرجل درب السوس من كل واحدة جزء فايند وزن الجميع ويؤخذ كثيرا او سكر وشيء من لبن حليب ويسقى اياما . ولعطاس الصبيان : بزر الفرفخ درهم سكر دانق ونصف عود صرف دانق ونصف مردا منج دانقين سكر طبرزد درهم يدق وينخل ويسقى وزن درهم مع درهم دهن ورد وتؤخذ بماء اطراف الحلاف وماء البقلة الحمقاء ودهن ورد ويضمد بها جميعا الى مؤخرها . لامتناع الصبي من الرضاع يؤخذ مر وبزر القرع من كل واحد جزء يسقى منه ويطلى ايضا على الثدى . لخروج المقعدة قشور الرمان ودهن رطب وجفت البلوط وورد ياسمين وقرن محروق ومن جلنار وعفص من كل واحدة جزء يطبخ ناعما حتى يخرج قوته ويقعد فيه الصبى فاترا . لأفراط الصبيان عروق وقشور الرمان الحلو والعفص من كل واحد اربعة دراهم جلبان وسماق وشب يماني من كل واحد درهمين يدق ويحل ويذر في فن الصبي قليلا قليلا .

الهــوامش

---

(١) وردت في المخطوطة ـ يوجع
(٢) وردت في المخطوطة ـ بين

اسماء الأدوية التي وردت في المخطوطة مرتبة ابجديا واسماء الاعلام

● الاذخر : إذْخِرٌ : الحشيش الاخضر الواحدة أذخرة طيب الريح يسقف به البيوت فوق الشخب ينبت في الحزون والسهول ويقال لهُ حلفة مكة وخلال ص ١٠ معجم اسماء النبات (اشير اليه المصدر نفسه لاحقا) .

● الأَسفِيَداج ، اسفيذاج ، اسبيداج : بباض الوجه ، معرب عن الفارسية ـ هو الدواء المتخذ من الرصاص اذا كلس ويسمى الباروق وهو نوعان انكي ورصاصي ص ٢٠٥ كتاب القولنج تحقيق د . صبحي حمامي .

● أَنِيسُونٌ : نباتٌ له بزرٌ عطرٌ ذو طعم لذيذ فيه حرافة محللٌ للرياح معرب انيزون باليونانية الواحدة انيسونة والعامية تقول يانسون ص ٢٠ محيط المحيط .

● الأَقَاقِيا : عصارة القرظ ويسمى شجرها بالشوكة المصرية لكثرة وجودها في مصر . ص ١٢ محيط المحيط .

● اهْلِيْلَجٌ وإهْلِلِجٌ : هو معرب هليلة الواحدة اهليلجة ثمر معروف ص ١٥ المصدار نفسه . Tesmimalia Chebula .

● شربد : جنس نباتات عشبية ملتفة سنوية قريبة جداً من اللبلاب منها البطاطة الحلوة والجلبة . كتاب القولنج د . صبحي حمامي ص ٢١٠ .

● بَنجٌ : نبت مسبت مخدر معروف هو غير حشيش الحرافيش مخبط للعقل مجنن المخ . ص ٢٤ معجم اسماء النبات . Hyoscyamus miger L

● البابونك : بَابُونَجٌ : زهرة معروفة وهي المشهور بمؤنس وهو الأقحوان وهو دخيل فارسيته بابونه . ص ١٧ المعجم نفسه : اسماء النبات .

● بَنَفْسَج : معروف جنس زهر مشهور من الفصيلة البنفجسية انواعه وضروبه كثيرة ، ص ٢٠٩ كتاب القولنج ـ تحقيق د . صبحي حمامي .

● البَاذَرُوُجُ : بقلة معروفة طيبة الريح . Ocimum Basilicim ص ١٧ المصدر نفسه .

● بُخورُ مَرْيَم : نبات وأصله العرطنيثا Cyclam'en europaeuml ص ١٨ المصدر نفسه .

● بولس ـ لولص ـ بولصن الاجنيطي نبغ في عام ٦٤٠م ويدعوه العرب (بولس القوابلي) طبيب اغريقي كان موجودا ايام فتح المسلمين مصر عرف بشهرته بالجراحة والتوليد . ص ١١٢ كتاب توليد الحبالى ، تحقيق د . محمود الحاج قاسم .

● البَقْلَةُ الحَمْقَاء : سيدة البقل تسميها العامة الرجلة ، وهي اسمها في الجاهلية الجهلاء Pokrulaca Oleracea ص ٢٢ المصدر نفسه .

● جلاب ـ لعله جِلِبْلاتٌ : نبت تدوم خضرته في القيظ وله ورق اعرض من الكف وهو الذي تسميه العامة اللبلاب الذي يتعلق على الشجر . ص ٢٣ المصدر نفسه .

● حلبه ـ الحُلْبَةُ : العِضَاة او خوص العرفج والقتاد اذا خرج ورقة وعسا واغبر وغلظ عودة وشوكة ص ٦١ معجم النبات والزراعة .

● الحُضَضُ : هو عصارة شجر وهو نوعان العربي منه عصارة الخولان ويعرف بالمكي والهندي عصارة شجرة الفلز هرج وقيل وهو دواء وعليه اقتصر الجوهري Berberis Lycium ص ٤٢ المصدر نفسه .

● الزَعْفَران : ج زعافر وزعافير هذا الصبغ المعروف هو من الطيب وفي خواصه المجربة ما ذكره الاطباء في كتبهم ص ٦٧ المصدر نفسه

● الذَرَب : عند الاطباء استطلاق البطن المتصل وقيل هو ان لا ينهضم الطعام في المعدة والفرق بينه وبين الهيضة ان الهيضة يكون معها قيء وهي من الامراض الحادة ، ص ٣٠٦ محيط المحيط .

● جُلُبّانٌ : وهو الخلرَّ كسكر وهو نبت يشبه الماش الواحدة جلبانة وفي التهذيب حب اغبر اكدر على لون الماش Lythyeus Satiwus ص ٣٥ المصدر نفسه .

● جفن البلوط : الجفيف ما يبس من النبت ص ١١٤ محيط المحيط .

● السُبْتُ : وسَبْتٌ نبات كالخطمي . سِبتٌ : الشِبتّ نبت معرب عن شِبِت وزعم بعض الرواة انه السنوت واصلها بالفارسية شوذ Apium Graveolens ص ٦٩ المصدر نفسه .

● سُوْسٌ : ج سيسان شجر معروف في عروقه حلاوة شديدة وفي فروعه مرارة وهوببلاد العرب كثير Glucusslinga ص ٧٧ المصدر نفسه .

● سُماقٌ : واحدته سماقة ثمر معروف وهو من شجر القفاف والجبال وله ثمر حامض عناقيد فيها حب صغار يقال لها العَبْرَب Rhus Eoriaria ص ٧٥ المصدر نفسه .

● سَوْسَنٌ : وسُوسَن معرب عن العبرية واليونانية وقد جرى في كلام العرب Lilium Tousn - Lily ص ٧٧ المصدر نفسه .

● سكر الحلاف . السُكّرُ : ضرب من العنب وضرب من الرطب طيب شديد الحلاوة ، وبقلة من احرار النبت ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ معجم النبات والزراعة الاحلاف بني اسد وغطفان وايضا قوم ثقيف . ص ١٨٧ محيط المحيط .

● الشَيْرَج ـ السِيَرَج : الحلُ وهو دهن السمسم ويقال الشِيرج بالشين المعجمة معرب شِيَره بالفارسية ص ٤٤٥ محيط المحيط .

● شَاذَنَج : حب معروف نافع في قروح العين معرب ص ١٥٩ معجم اسماء النبات والزراعة .

● الشَاهْتَرَجُ : معرب شاه تره معنان سلطان البقول يقال له كسفرة الحمار . Fumosia Ojfiumalis ص ٧٩ المصدر نفسه .

● الطرسعوق : عِنَبُ الثَّعْلَب نبت وهو الربرق والثلثان وربرق ص ١٠٨ المصدر نفسه .

● عَفْصٌ : معروف يقع على الشجر وعلى الثمر وهو الذي يتخذ منه الحبر مولد وليس من كلام اهل البادية وهو شجرة من البلوط وفي اللسان حمل شجرة البلوط .Quescus Infectasia Oliv ص ١٠٥ المصدر نفسه .

● عَلْجٌ : وعَلَجان نبت معروف قيل شجر مظلم الخضرة وليس فيه ورق داؤما قضبان وتجمع علجات . ص ١٠٦ المصدر نفسه .

● العُرْقُوب : عصب غليظ مؤثر فوق عِقب الانسان وفق الدابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها اي بين موصل العظيف والساق ٥٩٥ محيط المحيط .

● العُطَاش : داءٌ يصيب الانسان بشرب الماء فلا يروى ص ٦١١ محيط المحيط .

● عِلْك : كل صمغ يُعلك من لبان وغيره فلا يسيل ج علوك واعلاك . ص ٦٢٧ محيط المحيط .

● العَلَمْ : الجبل الطويل او عام ج اعلام وعِلاَم . ص ٦٣٩ محيط المحيط .

● الفَرْ فَخ : البقلة الحمقاء المعروفة بالرَجلة ويأتي في الخاء ايضا . ص ١٨٨ معجم نبات وزراعة .

● الفُودَنج : فُوتَنَجٌ : دواء معروف وهو فارسي معرب بوتنك وفودنج وهو معروف عند الاطباء ص ١١٩ ـ ١٢٠ معجم اسماء النبات .

● فَانِيْد : هو عصارة قصب وطبوخة الى ان يثخن ويعمل منه الفانيد ويكون ذلك ببلاد مكران من ناحية كرمان ، كتاب القولنج تحقيق د . صبحي حمامي .

● قُسْطٌ : عود هندي يتبخر به . يجعل في البخور والدواء ايضا عربي قيل عقار في عقاقير البحر كما في الصحاح . ويدخل في اصناف كثيرة من الطيب وهو أحسن الطيب رائحة عند التبخر Costuo Asahicus ص ١٢٥ المصدر نفسه .

● قِيله : الأَدرة بالكسر افصح ص ٧٦٦ محيط المحيط ، والادرة عِظم الخصىٰ وانتفاخها ص ٤ المصدر ـ محيط المحيط .

قِثاءُ الحمار : الخيار واحداته قثّاءةٌ : وقيل هو نوع يشبه الخيار . ص ٢٤ معجم النبات والزراعة .

● كَمُونٌ : حب معروف ادق من السمسم واحداته بهاء وقال ابوحنيفة عربي معروف يزعم قوم انه السنوت Cumimum Cumimum ص ١٣٦ المصدر نفسه .

● الكَرفس : بقل معروف وهو من أحر البقول والكُرفس بالضم القطف Apuim Gsaveolens ص ١٢٣ المصدر نفسه .

● الكرزه : خرج الراعي محيط المحيط ٧٧٦ .

● كَتَان : الزَيِّرُ وتتخذ منه الحبال ص ٣٠٣ والقنب خوبٌ من الكتان ص ١٠٢ معجم النبات والزراعة .

● الكُزاَز : داءٌ من شدة البرد او الرعدة من شدة البرد ص ٧٧٨ محيط المحيط ، ويطلق اليوم على مرض تسببه عصيات الكزاز وهو مرض خطر قتال يصيب كافة الأعمار ـ المحقق .

● الكُنْدُرُ : قال ابن سيدة ضرب من العلك الواحدة كندرة قال الاطباء وهو اللبان . ص ١٣٧ المصدر نفسه .

■ الكَثِيْرَاء : عِقيْرٌ معروف وهو رطوبة تخرج من اصل شجرة تكون بجبال بيروت وله منافع وخواص طبية ، ص ٣٥١ معجم النبات والزراعة .

● مَشَاقَه : ما يبقى من الكتان بعد المشق وهو أن يُجْذَب في ممشقه ، ص ٨٥٣ محيط المخيط .

● مرداسنج : اسم دواء لم أحصل عليه في المراجع المتوفرة لدي .

● النانخواه : بنج خراساني ـ فارسيته زينان ونانخواه (منتخب النفائس) ص ٧٠ و ٨٦ معجم اسماء النبات .

● نَطْرُوْنُ : البورق الارمني . ص ٨٩٩ محيط المحيط .

● النَيْلُوْفَر : ويقال النينوفر ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة المسمى عند اهل مصر بالبشنن وقول له العوام النوفر كجوهر . Numphaea Alba ص ١٥٤ المصدر نفسه .

● وَدع : اليربوع وهي خذر بيض تخرج من البحر تتفاوت في الصغر والكبر شقها كشق النواة تعلق لدفع العين ، الواحدة وَدَعْة . ص ٩٦٣ محيط المحيط .

المصادر

١) مخطوطة ـ الرقم ٣٧٧٠ ـ ١٢ مكتبة المتحف العراقي ـ كتاب مخطوطات الطب والصيدلة والبيطرة . اسامة ناصر النقشبندي ـ دار الحرية للطباعة / بغداد ١٩٨١ .

٢) كتاب تدبير الحبالى والاطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الامراض العارضة لهم ، تأليف احمد بن محمد بن يحيى البلدي ، تحقيق الدكتور محمود قاسم محمد ، منشورات وزارة الاعلام / بغداد .

٣) عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ ابن ابي اصيبعه ـ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥ ص ٤٦٠ ـ ٤٦١ .

٤) محيط المحيط تأليف بطرس البستاني ـ مكتبة لبنان ١٩٤٤ ـ ١٩٧٩ ، ساحة رياض الصلح ـ لبنان .

٥) معجم اسماء النباتات الواردة في تاج العروس للزبيدي جمع وتحقيق محمود مصطفى الدمياطي ـ الدار المصرية للتأليف والنشر .

٦) كتاب القولنج ـ تحقيق د. صبحي محمد حمامي ـ منشورات جامعة حلب ـ معهد المخطوطات العربية ١٩٨٣م .

٧) معجم النبات والزراعة ـ تأليف الدكتور الشيخ محمد حسين آل ياسين ـ وطبعة المجمع العلمي العراقي جزء أول ـ ١٩٨٦م .

سيرة مؤرخ

(سيرة مؤرخ)

الأستاذ الدكتور حسين علي محفوظ

ولد في دار جد أبيه القديمة ـ في شارع قريش في محلة الشيوخ بالكاظمية ـ يوم الأثنين ٢٠ شوال سنة ١٣٤٤هـ / ٣ أيار ١٩٢٦م . وتعلم في مدارس الكاظمية وبغداد . وتخرّج في دار المعلمين العالية ببغداد ، وحصل ليسانس الآداب في اللغة العربية صيف سنة ١٩٤٨م ، بدرجة الامتياز والأولية . ونال دكتوراة الدولة في الآداب الشرقية «الأدب المقارن» في خريف سنة ١٩٥٥م .

ولقد جمع الدراستين القديمة والجديدة واطلع على اصول التاريخ والأدب والثقافة في بيته ، وتتلمذ على افاضل اسرته ، وقرأ مقدمات المنطق والأصول على العلماء من أهله ، وطالع شيئا من كتب الأدب واللغة والبلاغة والتفسير والتجويد وعلوم القرآن وعلوم الحديث والفقه والعربية والفلسفة والحساب والفلك والطب والاخلاق والآداب وبعض العلوم والمعارف القديمة والحديثة في خزائن والده وعمه وأقاربه .

قال الشعر وهو صغير . وكانت أول قصيدة اثبتها أبيات في وصف الربيع نظمها يوم السبت ٣٠ أيلول ١٩٣٩ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ونظم الشعر التعليمي في سنة ١٩٤١ .

عين مدرسا في دار المعلمين العالية ببغداد سنة ١٩٥٦ . ومفتشا اختصاصيا للغة العربية في وزارة المعارف حتى ١٩٥٩ . ثم انتقل الى كلية الآداب بجامعة بغداد .

ودرّس اللغة العربية وآدابها في الكلية الشرقية بجامعة بطربورغ منذ سنة ١٩٦١ حتى سنة ١٩٦٣ .

أسس قسم الدراسات الشرقية في كلية الآداب بجامعة بغداد سنة ١٩٦٩ ورأسه حتى سنة ١٩٧٣ . وهو ـ الآن ـ استاذ الدراسات الشرقية الأقدم في جامعة بغداد .

نشر حوالي (٤٠٠) أثر بين كتاب ورسالة ودراسة وبحث ومقالة ونص ونبذة ، تأليفا وتحقيقا في مختلف حقول العلم والأدب واللغة والثقافة والمعرفة والفن اضافة الى مئات النقول عنه في المصادر والمراجع والأبحاث والدراسات والموسوعات . وله في خدمة التراث العربي والاسلامي وتحقيقه والتعريف به وفهرسته واحيائه ونشره ما ينيف على (٢٠٠) أثر .

نال وسام (الثناء) في الثقافة سنة ١٩٥٧ ، و (وسام اقبال الذهبي) سنة ١٩٧٨ . وفاز كتابه (المتنبي وسعدي) بجائزة (أحسن كتب العام) سنة ١٩٥٨ ، ونال وسام المؤرخ العربي في عام ١٩٨٦ من اتحاد المؤرخين العرب .

يبدأ عمله المجمعي في الخمسينات فقد انتخب عضوا في اللجنة الأدبية في بعض المجامع العلمية ، وفي الجمعية الآسيوية الملكية في لندن سنة ١٩٥٤ . ثم انتخب عضوا مراسلا في مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٥٦ ، والمجمع العلمي الهندي في عليكره سنة ١٩٧٦م .

وهو عضو في اللجنة الثقافية في اللجنة الوطنية العراقية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري (١٩٧٩ ـ ١٩٨٢) . ومن اعضاء المجلس الاسلامي في وزارة الاوقاف والشؤون الدينية في بغداد سنة ١٩٨١ . وعوض لجنة التقويم الهجري الموحد سنة ١٩٨٢ .

شارك ومثل العراق في عشرات المؤتمرات العالمية والاستشراقية ، والندوات والمجالس العلمية ، والحلقات الدراسية ، والمهرجانات الأدبية ، في العراق والبلاد العربية والأجنبية ، منذ سنة ١٩٥٤م .

من مؤلفات الدكتور حسين علي محفوظ ومحققاته ودراساته :

١ـ امهات النبي ﷺ ابن حبيب (١٩٥٢) .
٢ـ رسالة الفراسة / ابن الخوام البغدادي (١٩٥٤) .
٣ـ شرح عينية ابن سينا / السيد نعمة الله الجزائري (١٩٥٤) .
٤ـ المنتخب من أدب البحرين (١٩٥٤) .
٥ـ سيرة الكليني (١٩٥٥) .
٦ـ رسالة في الهداية والضلالة / الصاحب بن عباد (١٩٥٥) .
٧ـ رسالة في تحقيق لفظ الزنديق / ابن كمال باشا (١٩٥٦) و (١٩٦٢) .
٨ـ المتنبي وسعدي «مجلدان» (١٩٥٧) .
٩ـ اربعون حديثا / حسين عبدالصمد الحارثي (١٩٥٧) .
١٠ـ صحيفة الرضا «من الأحاديث النبوية» /الامام الرضا (١٩٥٧) و (١٩٧١) .
١١ـ ديوان ابن سينا (١٩٥٧) .
١٢ـ فتيافقيه العرب /ابن فارس (١٩٥٨) .
١٣ـ فضولي البغدادي (١٩٥٩) .
١٤ـ عراقيات الكاظمي (١٩٦٠) .
١٥ـ ابن الكوفي (١٩٦١) .
١٦ـ كتاب الادوار في معرفة النغم والأدوار / صفي الدين الارموي (١٩٦١) .
١٧ـ حمزة بن الحسن الأصفهاني ، سيرته وآثاره (١٩٦٢) .
١٨ـ سعدي خريج بغداد في العصر العباسي الأخير (١٩٦٣) .
١٩ـ آراء حمزة بن الحسن الاصفهاني في اللغة والتاريخ والبلدان (١٩٦٤) .
٢٠ـ معجم الموسيقى العربية (١٩٦٤) .
٢١ـ العلامات والرموز عند المؤلفين العرب قديما وحديثا (١٩٦٤) .
٢٢ـ الشيخ محمد عياد الطنطاوي (١٩٦٤) .
٢٣ـ اثر اللغة في اللغة التاجيكية (١٩٦٤) و (١٩٦٥) و (١٩٨٢) .
٢٤ـ الورقات في اصول الفقه / امام الحرمين الجويني (١٩٧٠) .
٢٥ـ الحدود والحقائق / البريدي الآبي (١٩٧٠) .
٢٦ـ مختار ديوان ابن الخيمي (١٩٧٠) .
٢٧ـ قواعد الفارسية «مع د. زهتابي» (١٩٧٢) .
٢٨ـ شعر جلال الدين الدواني (١٩٧٢) .
٢٩ـ نظرة في تراث البحرين (١٩٧٢) .
٣٠ـ معجم الاضداد (١٩٧٣) .
٣١ـ مختصر معجم الأضداد (١٩٧٣) .
٣٢ـ الصغاني (١٩٧٤) .
٣٣ـ اثر اللغة العربية في اللغة الفارسية (١٩٧٤) و (١٩٨٢) .
٣٤ـ آثار جيش التفليس (١٩٧٥) .

٣٥- تأثير اللغة العربية في اللغة التركية (١٩٧٥) .
٣٦- الفارابي في المراجع العربية (١٩٧٥) .
٣٧- مؤلفات الفارابي «مع د. جعفر آل ياسين» (١٩٧٥) .
٣٨- العناصر العربية في حياة الفارابي وثقافته ونتاجه (١٩٧٥) و (١٩٧٩) .
٣٩- علم المخطوطات (١٩٧٦) .
٤٠- مصادقة الأخوان / ابن بابويه (١٩٧٦) .
٤١- أثر اللغة العربية في اللغة الأردية (١٩٧٧) .
٤٢- دوائر المعارف والموسوعات العربية (١٩٧٧) .
٤٣- قاموس الموسيقى العربية (١٩٧٧) .
٤٤- نظرة في تراث اقبال (١٩٧٧) .
٤٥- فهرس مخطوطات كلية الاداب مع «د. نبلية عبدالمنعم داود» (١٩٧٧) .
٤٦- مصادر دراسة تراث البحرين (١٩٧٧) .
٤٧- تقريب العامية من الفصحى (١٩٧٨) .
٤٨- نظرة في تاريخ البحث والتأليف والاستشراق (١٩٧٨) .
٤٩- تأثير المتبني في الأدبي الفارسي (١٩٧٨) و (١٩٧٩) .
٥٠- نظرات متفرقة في حياة الصافي وتراثه وأدبه (١٩٧٨) .
٥١- طرائف من سيرة الحبوبي وأدبه (١٩٧٨) .
٥٢- الاسطرلاب العربي (١٩٧٨) .
٥٣- سعة اللغة العربية وغناها واصالتها (١٩٧٩) .
٥٤- ذكرى الزيتونة (١٩٧٩) .
٥٥- نثر الفارابي (١٩٨٠) .

٥٦- التخريج في التحقيق (١٩٨٠) .
٥٧- فصول في علم المخطوطات (١٩٨٠) .
٥٨- المصطلحات المعمارية في التراث العربي (١٩٨٠) .
٥٩- المصطلحات الموسيقية في التراث العربي (١٩٨٠) و (١٩٨٣) .
٦٠- مشروع أسس تحقيق التراث العربي ومناهجه «مع العلماء العرب» (١٩٨٠) .
٦١- اثر اللغة العربية في الشعوب الشرقية (١٩٨١) .
٦٢- أبناء الأثير في المراجع العربية (١٩٨٢) .
٦٣- تحديد بدايات القرون ونهاياتها (١٩٨٢) .
٦٤- دراسة مظاهر تأثير اللغة العربية في اللغة الفارسية (١٩٨٢) .
٦٥- الطفل في التراث العربي (١٩٨٢) .
٦٦- قواعد التحقيق واصوله وضوابطه (١٩٨٣) .
٦٧- مشروع تحقيق ذخائر التراث العربي (١٩٨٣) .
٦٨- صورة الاستاذ في التراث (١٩٨٣) .
٦٩- ١٥ قرنا من تاريخ التراث العربي في البحرين (١٩٨٣) .

عرض الكتب ونقدها

ذكر بلاد الأندلس
لمؤرخ مجهول
تحقيق : د . لويس مولينا

عرض : د. محمد عبد الحميد عيسى
جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

من بين المخطوطات المصورة ، تحتفظ مكتبة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد بالمخطوط رقم ٣٦ بعنوان «ذكر بلاد الأندلس» لمؤلف مجهول ، أما المخطوط الأصلي لهذه الصورة ، فيوجد بالخزانة العامة بالرباط ويحمل رقم ٨٥ جـ من مجموعة «الغلاوي» ويتكون من ٨٩ ورقة .

ولقد ظل هذا المخطوط كامنا بعيدا عن النشر رغم أنه كان واحداً من أكثر المصادر التاريخية الأندلسية مرورا بين ايدي الباحثين ، كما قام الاستاذ الدكتور حسين مؤنس بنشر بعض قطع منه في مقالات له بمجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد منذ عام ١٩٦٣م . وبعد ذلك وعد اكثر من واحد من الباحثين العرب والاجانب بنشره دون أن يتعدى ذلك مجرد الوعد الى التحقيق الفعلي الى ان قيض الله له الباحث الاسباني المتخصص في الدراسات العربية «لويس مولينا» لكي يتخذ من دراسته وتحقيقه موضوعا لرسالته للدكتوراه ، وقام بترجمة النص الى اللغة الاسبانية وحصل بذلك على أطروحته في يونية من عام ١٩٨١م . كما عمل المجلس الاعلى للبحث العلمي بأسبانيا على نشرها في عام ١٩٨٣م .

المؤلف المجهول :

وقف الباحثون حيارى كثيرا أمام هذا الكتاب متسائلين عن مؤلفه الذي نجح في اخفاء شخصيته واخفاء كل ما يدل عليه ، كما أنهم أيضا لم يتمكنوا من التحديد الفعلي لزمن كتابته ، أو تاريخ نسخه ، وأنقل إلى القراء الأعزاء ملخصا معربا من الدراسة الاسبانية التي قام بها صديقي العزيز الدكتور «لويس مولينا» للتقديم لهذا الكتاب حيث بين أن المشكلة الحقيقية التي تواجه الباحث في هذا الكتاب تكمن في عدم وجود اية اشارة تدل على اسم الكتاب الحقيقي أو على مؤلفه ولقد ظل هذا الكتاب مهملا حتى القرن السابع عشر الميلادي حين بدأ «المقري» مؤرخ تلمسان الذائع الصيت في وضع كتابه الرائع «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» ولكن دون أية اشارة الى مؤلفه .

وتشير الدلائل الى ان الرجل الذي صاغ كتاب «ذكر بلاد الأندلس» ليس هو مؤلفه الحقيقي ، بل من الممكن القول بأنه لايعدو ان يكون مجرد ناسخ فحسب قام بنقل هذه النصوص من كتاب أقدم . واذا كان قد نجح في حجب شخصيته عن جميع الناس ، فإن الأمر يزداد غموضا وطرافة إذا ما قلنا إن هناك صعوبة أكبر : ألا وهي تحديد تاريخ كتابة هذا المؤلف .

من هو المؤلف :

من أطرف ما يثير فضول الباحث وغيظة في نفس الوقت أن الرجل نجح في اخفاء شخصيته تماما ، وانه حرص بشدة على عدم القاء أي شعاع من الضوء يسمح باستكشاف اسمه أو موطنه أو أي شيء عن شخصيته .

الشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني ، صاحب كتاب «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب» المتوفي عام ١٠٤١هـ بمصر ، يعد من أحسن من احتفظ لنا بكتاب عام عن تاريخ الأندلس ، هو المرجع الأساسي لجميع الباحثين والدارسين في هذه الحقبة التاريخية ، ولقد أشار مرارا الى كتاب «الذكر» ناقلا منه بعض رواياته ، ورغم قرب «المقري» من العصر وذاكرته القوية إلا أنه كان يشير الى مؤلف هذا الكتاب بقوله «صاحب كتاب الجغرافيا» و «أحد العلماء» و «أحد مؤرخي الأندلس» و «مؤرخ» و «مؤرخ متأخر» و «مؤرخ مغربي» ، وهذه اشارات ـ باستثناء الأخيرتين ـ غامضة لا تدل على شيء فاذا كان ذلك هو حال المقري ـ العالم الثقة ـ المشهور بدقته في التحري وعلميته وسعه اطلاعة ، فمما لاشك فيه أن هذا المؤلف بالفعل مجهول الاسم والكنية ولا يحتمل التعرف عليه ، لكن ماذا تعني عبارتي : «انه متأخر» و «مؤرخ مغربي» ؟

أما الوزير الغساني والذي قام بسفارة نيابة عن سلطانه في المغرب الى بلاط ملك اسبانيا «كارلوس الثالث» من أجل استرداد مكتبة مولاي زيدان التي استولى عليها الاسبان من سفينة فرنسية كانت قد هربت بها من المغرب ، ولقد سجل أحداث سفارته هذه في كتاب قيم يعرف باسم «رحلة الوزير في افتكاك الأسير» ، وضمن «الغساني» كتابه كثيرا من المعلومات عن الأندلس ومدنه الاسلامية ، وأشار مرارا الى كتاب «الذكر دون تحديد لاسم كاتبه أو مؤلفه» .

الملاحظة الوحيدة التي يمكن ان تلقى بصيصا من الضوء على شخصية كاتب «الذكر» فهي في قول المقري «أنه متأخر» و «مؤرخ مغربي» فكون المؤلف متأخرا سوف نتناوله في تحديدنا لفترة كتابة المخطوط ، أما أنه «مغربي» فاننا نميل الى ذلك مع المقري لوجود عدد من المؤشرات الاخرى التي تؤيد ذلك الفرض منها :

١ـ الاهتمام الكبير الذي يتجلى على صفحات الكتاب لذكر مدينة «فاس» مما قد يوحي بأن المصدر الاصلي لهذا الكتاب كان مؤلفا «فاسيا» .

٢ـ العلاقة الوحيدة التي تربط بين المؤلفين اللذين استعملا كتاب «ذكر بلاد الأندلس» ونقصد بهما المقرى والغساني ، هي تواجدهما في مدينة فاس في فترة من حياتهما فالأول عاش فيها ردحا من الزمن ، أما الثاني فكانت المدينة مقرا لمثواه الأخير مما يمكن أن يوحي لنا بأن مخطوط الذكر كان بهذه المدينة .

٣ـ أهم مركزين للثقافة الاسلامية عن عصر بني مرين كانا في مدينتي فاس ومراكش الى درجة أن كلا منهما قد برزت بنفسها كمركز علمي متميز . وفي الوقت الذي تكثر الاشارات في المخطوط عن مدينة فاس وفضائلها ، لا يظهر اسم مدينة مراكش في أي صفحة من صفحات الكتاب ، مما يوحي بانتماء المؤلف الى هذه المدينة العريقة .

تاريخ كتابة «الذكر»:

حاولنا في السطور السابقة التحديد المكاني لكاتب هذا النص ، ولنحاول الآن إلقاء بعض الضوء على الفترة التي كتب فيها النص .

نستطيع ان نقول باطمئنان أن كتاب «ذكر بلاد الأندلس» لا يمكن ان يكون مكتوبا قبل سقوط مدينة الجزيرة الخضراء في ايدي المسيحيين ، ولا أن يكون متأخرا عن سقوط مدينة ألمرية . بتوضيح أكثر نعتقد أن

الكتاب من أبناء النصف الثاني من القرن الرابع عشر أو بدايات الخامس عشر الميلاديين .

وتحديد الفترة بدقة أكثر أمر بالغ الصعوبة ، كما أن المصادر التي استعان بها الكاتب في صياغة مؤلفه لا تستطيع أن تقدم لنا أية مساعدة في هذا المجال ، لأن أحدثها يرجع الى ما قبل النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي ، وهو كتاب ابن رشيق الذي مات بعد سنة ٦٩٤هـ /١٢٩٥م .

القراءة المتأنية لمحتوى الكتاب لا تساعد أيضا في القاء أي ضوء يمكن أن يكشف عن تاريخ كتابته ، وان كانت بعض الفقرات لها من الدلالات ما يشير الى بعض المعلومات ونقصد بهذه الفقرات الأحاديث التي تتناول فضل الأندلس .

سوف يجد القارىء المتمعن ان العدد الاكبر من هذه الاحاديث الواردة في الكتاب تشير الى الثواب العظيم الذي ينتظر الشهداء ومن جادوا بأرواحهم دفاعا عن الاسلام على أرض الأندلس .

فاذا وافقنا على أن الإشارة الى هذه الأحاديث لم يكن مصادفة بقدر ما كان هدفا مقصودا لذاته ، فانه يمكن ان يقدم لنا بعض الدلالات في تحديد فترة صياغة الكتاب .

واذا كنا قد حددنا أنه كتب بعد سقوط الجزيرة الخضراء في عام ٧٤٤هـ /١٣٤٤م ، وقبل سقوط المرية في عام ٨٩٥هـ /١٤٨٩م فعلينا أن نبحث على مدار هذه الفترة الطويلة عن لحظة معينة يتحقق فيها شرطان : أن تكون المملكة النصرية في غرناطة معرضة لخطر شديد ، وان تكون مملكة بني مرين على استعداد لمساعدة أشقائهم في الدين في بلاد الأندلس ولديهم الرغبة في ذلك . فإذا كان الشرط الأول قد ظل حاضرا باستمرار على مدار هذا القرن ونصف القرن الذي تلاه بالنسبة للمملكة النصرية ، لمواجهتها أعداء الاسلام باستمرار ، فإن الحال لم يكن كذلك باستمرار بالنسبة لبني مرين لأن سقوط الجزيرة الخضراء في أيدي المسيحيين والهزيمة التي لاقاها بنو مرين في معركة طريف قد وضعا حدا معينا لتدخل بني مرين المباشر في الحروب ضد المسيحيين في الأندلس ، ومع ذلك فلن نعدم على مدى هذه الاعوام الطويلة ، توافر هذين الشرطين احيانا بصورة واضحة ، وذلك ابان حكم السلطان النصري محمد الخامس والمريني عبدالعزيز ، فأولهما خشية مواجهة حملة صليبية ضد مملكته في غرناطة طلب مساعدة بني مرين ورحب بذلك السلطان عبدالعزيز ونادى بالجهاد في المغرب ومن المحتمل قيام الاسطول المريني بمعاونة الغرناطيين في استرداد مدينة الجزيرة الخضراء في عام ٧٧٠هـ /١٣٩٩م . ولكن جاء موت السلطان المريني عبدالعزيز ليضع حدا نهائيا لتدخل بني مرين في الأندلس .

فهل هذه الأعوام هي أعوام كتابة هذه المدونة التاريخية ، العلم لله وحده ؟.

وهل من أجل ذلك جمع المؤلف كل هذه الأحاديث في فضل الأندلس مع العلم أنها كانت تدور في أرجاء الأندلس مئات الاعوام قبل ذلك .

المصادر الجغرافية لكتاب الذكر :

أعتمد المؤلف تماما على مصدرين هما : كتاب الجغرافية «للزهري» ولدينا هذا الكتاب كاملا في عدد كبير من المخطوطات وكتاب ترصيع الاخبار للعذري الذي لم يصلنا منه الا بعض الاجزاء ولذلك كان من السهل تحديد ما نقله المؤلف من كتاب الجغراقيا بصورة أكثر وضوحا مما حدث مع كتاب ترصيع الاخبار للعذري . كما استفاد الكتاب من مؤلفات القزويني حيث نقل بعض النصوص من كتابيه «آثار البلاد» و «عجائب المخلوقات» .

بالاضافة الى هذه المصادر ذات التأثير المباشر في الكتاب فإننا نجد ان للكتاب مصادر أخرى وان كانت غير مباشر منها «الروض المعطار» للحميري « و «نزهة المشتاق» للادريسي ، و «جغرافية الأندلس» للرازي ، و «المسالك والممالك» للبكري بالاضافة الى غيرهم من المؤلفين الجغرافيين الذين أشار إليهم الكتاب .

المصادر التاريخية للذكر:

يكاد ينقسم كتاب «ذكر بلاد الاندلس» من الناحية التاريخية الى قسمين واضحين تماما في انقسامهما ، أولهما القسم الذي يروي تاريخ ما قبل الاسلام ، والثاني هو الذي يتناول تاريخ الاندلس من الفتح وحتى عصر ملوك الطوائف .

المطالعة المتأنية للقسم الاول الذي يتناول عصر ما قبل الاسلام تبين لنا أنه على درجة عالية من القيمة والأهيمة ، ليس من وجهة نظر التاريخ ، وانما وجهة نظر التدوين التاريخي ، لقد أضاف هذا القسم معلومات جديدة وخاصة فيما يتصل بالعلاقة بين كتابي الرازي «تاريخ ما قبل الاسلام» و «مدونة الرازي» . وهي نقطة معقدة جدا جدا ومازالت حتى الآن . يضيف «الذكر» معلومات جديدة ، لاشك في ذلك ، ومنها مثلا تلك القائمة الطويلة باسماء الملوك الأفارقة والرومان وبعض النقاط الأخرى التي تجعل من هذا النص التاريخي اقرب النصوص العربية شبها بما وصل الينا من الترجمة الاسبانية لمدونة الرازي ، بل أن الكتاب يتفوق على هذه الترجمة بتقديمه مزيدا من الايضاحات والبيانات ولا يعني هذا أن جميع الصعوبات التي تقابلنا في مدونة الرازي قد وجدت حلا مرضيا وتفسيرا مقنعا بنشر هذا الكتاب ، وانما علينا ان ننتظر طبع النص العربي من «تاريخ أوروسيوس» الذي ظهر حديثا وما زال تحت الطبع حتى الآن .

روض القرطاس:

يعتبر كتاب الروض النص العربي الوحيد الذي نجد له علاقة قوية بكتاب «ذكر بلاد الأندلس» ، ومن الكتب التي تعتبر نموذجا تقليديا يدل بوضوح على فن التدوين المغربي وان كان قد تعرض للتاريخ الاندلسي بصورة عرضية .

ولقد قام محقق الكتاب بدراسة قيمة استطاع ان يستخلص منها أن كاتب الذكر لم يكن ينقل مباشرة من كتاب روض القرطاس ، وأنه من المحتمل ان كلا الكتابين كانا ينقلان من مصدر تاريخي مغربي واحد ما زال مجهولا ولم يصل الينا حتى الآن . وما لدينا الآن من معلومات تاريخية في كتاب الذكر انما هي في الحقيقة «القسم الاندلسي» من ذلك المصدر المجهول الذي لم نعثر عليه بعد .

ابن حيان وآخرون:

يعد ابن حيان القرطبي «شيخ مؤرخي الاندلس» المصدر الأساسي الراسخ لكل من اشتغل بالتدوين التاريخي عن الاندلس منذ الفتح وحتى عصر ملوك الطوائف ، ولا تشذ مخطوطتنا هذه عن الآخريات في اعتمادها على كتاب ابن حيان «المقتبس في أخبار بلد الأندلس» . وحيث أن كتاب ابن حيان هذا ـ مثله مثل الغالبية العظمى من المؤلفات الأندلسية الأخرى ـ لم يصلنا كاملا ، فهنا صعوبة المقارنة لتحديد ما استفاده الذكر على وجه التحديد من كتاب «المقتبس لابن حيان» . أما ما ورد في مدونة «الذكر» من اشارات الى اسماء مؤرخين أندلسيين سابقين على «ابن حيان» مثل احمد بن موسى الرازي ، و «ابن الفرضي» و «الخشني» و غيرهم وما نقل من كتاباتهم فنعتقد بنقلها من كتاب «ابن حيان» دون الرجوع الى مصادرها الاصلية .

كتاب «ذكر بلاد الأندلس» والمؤرخون المعاصرون :

لم يكن مخطوط الكتاب بعيدا عن تناول المؤرخين المحدثين ، وانما كان ميسرا الاطلاع عليه بمكتبة المعهد المصري بمدريد ولذلك نشر منه أربع قطع قبل نشره كاملا ، ويحسن ان نشير الى هذه القطع حسب ترتيب نشرها :

١- «وصف جديد لقرطبة الاسلامية» بقلم الدكتور حسين مؤنس بمجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد ، العدد ١٤ (٦٥ - ١٩٦٦م) .

٢- «رواية جديدة عن فتح المسلمين للأندلس ، دعوة الى ترديد النظر في الموضوع» أيضا للدكتور حسين مؤنس ونشر في نفس المجلة المشار اليها ، العدد ١٨ عام ١٩٧٥/٧٤م .

٣- وصف جغرافي لمدن قطالونيا حسب مخطوط عربي لم ينشر بالمكتبة الملكية بالرباط وذلك بقلم باحث اسباني قدم له بدراسة جيدة وان أخطأ في نقل الكلمات العربية وفهمها فهما حقيقيا .

٤- «حملات المنصور بن أبي عامر حسب نصوص جديدة» ، نشرها الدكتور لويس مولينا بمجلة القنطرة التي تصدر عن المجلس الاعلى للابحاث العلمية في اسبانيا العدد الثاني ١٩٨١م .

كما أشار الى مخطوطة الكتاب ، واستفاد منهما عدد كبير من الباحثين والدارسين العرب والأجانب الذين أتيح لهم رؤية صورة المخطوطة بالمعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد أو المخطوطة الاصلية بمكتبات المغرب .

محتوى كتاب «الذكر» :

يبدأ الكتاب بالتحديد الجغرافي لبلاد الاندلس ، وذكر ما خصت به هذه البلاد من الأشجار والنبات والمعادن والأحجار حيث هي كما قال فيها ابو عمارة البصري :

لله أندلس وما جمعت بها من كل ما ضمت لها الأهواء
كأنما تلك الديار كواكب وكأنما تلك البقاع سماء

وينتقل الى الحديث عن فضل الأندلس ، وما نقل في شأنها وفضلها من الأحاديث الواردة حيث خرّج ابن بشكوال امام المحدثين بالأندلس الحديث النبوي «ان الأندلس حيها سعيد وميتها شهيد» . ومن كتاب فضل الأندلس خرّج مسلم رضي الله عنه في صحيحه عن هشام بن بشير الواسطي عن داوود بن أبي هند عن أبي عثمان الهندى عن سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لايزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» . وروي عبد الملك بن حبيب بسند عن النبي ﷺ أنه قال : تفتح بعدي جزيرة بالمغرب يقال لها الأندلس ، حيها سعيد وميتها شهيد ولهم مع العدو كل يوم وقائع وغارات فانهم يسكنونها على رغم العدو ، على قلتهم وانقطاعهم اذ بين أيديهم بحر مهلك ومن ورائهم عدو مدرك ، والعدو في وَقْرهم واتصال بلادهم ، فلا يرى بالأندلس غير سامر في ذات الله أو مجاهد في سبيل الله أو مجاور للعدو ومطيع لله» . ص ٩ - ٢٦ .

جغرافية الأندلس:

سبقت الاشارة الى انقسام الكتاب بصورة واضحة الى جزئين أحدهما جغرافي والآخر تاريخي ، ويبدأ الجزء الجغرافي بقوله :

«الخبر عن بلاد الأندلس على التفصيل مدينة بعد مدينة ، وما اختصت به كل مدينة من الفضائل والمحاسن» . ويقول :

«والأندلس في ديوان العجم جزيرة خضيبة مخصوصة بكثرة البر والبحر وأنواع الفواكه والنعم كثير النسل عظيمة البركة كثيرة الصيد من الوحش والطير والحوت ، طبيعة البقاع والتربة ، عذبة المياه» . ص ٢٩ .

«وأهل الأندلس أشد الناس عضدا ، وأصعبهم قيادا . يقال ان قيصر الاعظم الذي كان على عهد عيسى عليه السلام كان قد طاع لسطوته أكثر أهل الدنيا ولم يقاتل في كل من لقى من الأمم أصعب منهم ولا أشد بأسا ونجدة في الحرب» . ص ٣٠ .

قرطبة :

أما قرطبة فهي قاعدة الأندلس وقطبها وقطرها الأعظم ، وأم مدائنها ومسكنها ومستقر الخلفاء ، ودار المملكة في النصرانية والاسلام ومدينة العلم ، ومقر السنة والجماعة نزلها فيما نقل رجل من الصحابة وجملة من التابعين ، وتابعي التابعين رضي الله عنهم أجمعين ، ـ ولقد سبق لي مناقشة مسألة وجود الصحابة في قرطبة في كتابي «تاريخ التعليم في الأندلس» ، أنظر الصفحات من ١٥٦ ـ ١٥٧ ... واتصلت بها العمارة في أيام بني أمية ثمانية فراسخ طولا وفي عرضها فرسخين ، وذلك من الاميال اربعة وعشرون ميلا في الطول وستة أميال في العرض كل ذلك ديار وقصور وبساتين ومساجد وقيساريات وخانات وأسواق وحمامات بطول ضفة الوادي المسمى بالوادي الكبير وليس بالاندلس نهر يسمى باسم عربي غيره ... ص ٣٠ ـ ٣٥ .

المسجد الجامع :

وبعد ان يفصل القول عن مدينة قرطبة في حوالي خمس صفحات فانه ينتقل الى الخبر عن جامع قرطبة جبرها الله للاسلام وصفة بنائه ، وقدر مساحته كما حكى خبره ، ثم يقدم لنا تاريخ المسجد حين دخول المسلمين ، وبناءه والزيادات التي طرأت عليه خلال حكم الامير هشام وعبدالرحمن الاوسط ، والناصر ، والحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر ، ويعدد لنا «سواريه الحاملة لسقفه والملاصقة لبناؤه وقبابه ومناره ما بين كبار وصغار ألف سارية وأربعمائه سارية وتسع سوار منها بداخل المقصورة مائة سارية وتسع عشرة سارية ومنها في الصومعة من خارجها ومن داخلها مائة وأربعون سارية ومنها الحاملات لسقف البلاطات وما اتصل بها ألف سارية ومائتان وثلاث وخمسون سارية» .

ويتحدث عن منار الجامع ومساحته وصفته ثم يصل الى «وعدد ثرياته الصغار مائتان وخمس وثلاثون ثرية في كل ثرية منها ستة أكولس ، وعدد ثرياته الكبار تسع وثمانون ثرية منها في الصومعة خمس ، ومنها في بلاط القبلة أربع وهي أعظمها تحمل كل ثرية منها سبعة أرباع من الزيت تحترق فيها في ليلة واحدة ، إلى ان يصل الى القول «وليس بالأندلس ولا في بلاد الاسلام جامع أكبر منه» الصفحات من ٣٥ الى ٤٠ .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى ذكر اقاليم قرطبة وعددها داعيا الله سبحانه وتعالى ان يعيدها الى الاسلام بفضله ومنه ، وهي خمسة عشر اقليما كل اقليم منها يحتوي على حصون وقرى وبروج كثيرة .

ومن قرطبة واقاليمها ينتقل الكاتب الى وصف المدن المجاورة فيذكر مدينة «قبره» وهي مدينة أزلية كثيرة الفواكه ، عليها من القرى ستمائة قرية ونيف وثلاثون قرية ، وسبعون حصنا وثلاثمائة برج . ومدينة «جيان جبرها الله للاسلام وهي التي جمعت بين طيب الأرض وسعتها وعذوبة الماء وكثرة الثمار والعيون .

طليطلة :

لطليطلة مكانة خاصة في تاريخ وجغرافية الأندلس ، فهي كما وصفها المخطوط ، «مدينة ازلية من بنيان الأول عظيمة القدر ، جليلة الوضع ، قديمة البناء ، منيعة حصينة كثيرة المياه والثمار» . ص ٤٧ . ولقد كانت هذه المدينة مقر الحكم القوطي عند دخول المسلمين الاندلس ، وظلت تلعب دورا هاما خلال الحكم الاسلامي ، وهي أول مدينة تسقط فيأيدي المسيحيين وأحدث سقوطها دويا هائلا في العالم الاسلامي عامة وفي الأندلس خاصة ، حتى نادى الشعراء في ذلك الحين بالرحيل عن الأندلس نتيجة لتلك الصدمة القاسية ، فقال أحدهم :

حثـوا رواحلكـم يـا أهـل أنـدلس فمـا البقـاء بـهـا إلا مـن الـغلط

الثـوب ينسـل مـن أطـرافـه وأرى ثـوب الجـزيـرة ينسـل مـن الـوسط

وحين استطاع الفونسو السادس احتلال طليطلة اتخذها عاصمة لمملكة قشتالة وظلت موطنا للمملكة الاسبانية عصورا طويلة .

علم الزرقال وجهل الاسبان واليهود :

وحين الحديث عن مدينة طليطلة يروي لنا هذا الكتاب عن عمل قام به الفلكي الأندلسي المسلم عبدالرحمن الزرقال بطليطلة اسماه «البيلتين» وكانا في جوب النهر الأعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين .

«ومن عجبها انهما تملآن مع زيادة القمر ، وتحسران وتنقصان مع نقصانه» ص ٤٨ ، ويصف المؤلف هاتين «البيلتين» بأنهما «أعجب من الصنم الذي بالهند لأن ذلك في نقطة الاعتدال من الفلك الاعلى والأرض السفلى وبالموضع الذي لا ينقص ليلة ولا يزيد نهاره ، وهذا الموضع خارج عن الاعتدال يزيد ليله ونهاره ينقصان فهما أغرب .

«وكانتا هاتان البيلتان في بيت واحد فلما ملك النصارى دمرهم الله تعالى مدينة طليطلة أراد «ألفنش» لعنه الله أن يبحث عن حركاتهما ، فأمر ان تقلع الواحدة منهما لينظر من حيث يأتي اليهما الماء ، وكيف الحركة فيها فقلعت فانبطلت حركتها ، وكان قلعها وفسادها في عام ٥٢٨ من الهجرة .

وقيل : كان السبب في فسادها حنين بن ربوة اليهودي المنجم لعنة الله تعالى وهو الذي جلب حمام الأندلس كلها الى طليطلة في يوم واحد وذلك عام ٥٢٧هـ ، وهو الذي أعلم «الفنش» أن حفيده سيدخل قرطبة ويملكها ، فأراد اليهودي لعنه الله أن يكشف عن حركة هاتين البيلتين فقال له : «أيها الملك . أنا أقلعها وأردها أحسن مما كانت ، وذلك أنى أردها تمـلأ بالنهار وتحسر بالليل ، فلما قلعها لم يقدر على ردها وانما أراد الملعون أن يسرق صناعتها ، فبقيت الواحدة مبطولة والثانية تعطي حركتها» . ص ٤٩ .

لشبونة عاصمة البرتغال:

من المعروف ان بلاد الأندلس شملت كلا من اسبانيا والبرتغال ، وان اقتصر الحديث على اسبانيا فحسب ، ويشير كاتبنا الى مدينة أشبونة بينها «مدينة عظيمة أزلية كثيرة القطر ، هي على البحر الاعظم المحيط وعلى آخر النهر المعروف بنهر تاجة حيث يصب في البحر فهي برية بحرية ، وبها أرزاق كثيرة وخيرة واسعة ، ص ٥١ .

ثم يتحدث المؤلف عن بلاد غرب الأندلس ، وأغلبها ضمن أراضي البرتغال حاليا ، فيذكر مدينة شنترين ، ومدينة شلب التي كانت مرتع صبا المعتمد بن عبادة ملك أشبيلية المعروف ، ومن قوله فيها بأنها «فاقت جميع

بلاد الأندلس بكثرة الخيرات السنية والفواكهة الشهية والصيود الكثيرة البرية والبحرية فحازت بذلك شرفا باذخا وفخرا ساميا ، ذكره أبوعبدالله محمد بن مزين الازدي في تاريخه المسمى «المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» ص ٥٤ .

شرق الأندلس :

لا يمضي المؤلف على خطة معينة في تناوله بلاد الأندلس حيث يذكر هنا مدينة «باجه» من بلاد شرق الأندلس ، لينتقل الى مدينة «ماردة» من بلاد جوف الأندلس ليعود الى الحديث عن مدينة «لبلة» الحمراء من غرب الأندلس ليصل الى الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس .

أشبيلية :

هي عاصمة الأندلس الثانية بعد قرطبة ، بل عاصمة الأندلس الادبية والفنية على مدار تاريخه ومن حكامها المعتمد بن عباد أشهر شعراء الأندلس وأخلدهم ذكرا ، وجديرة بأن يخصص لها المؤلف ثلاث صفحات و «هي أعظم المدن وأكبرها ، قاعدة بلاد الأندلس وحاضرتها ومدينة الأدب واللهو والطرب ، وهي على ضفة الوادي الكبير عظيمة الشأن ، طيبة المكان لها البر المديد والبحر الساكن والوادي العظيم قربت من البحر المحيط» ، ص ٦٠ - ٦١ .

سرقسطة :

ويصعد المؤلف الى الشمال ، الى الثغر الاعلى ، ليصور لنا عاصمة بني هود بأنها المدينة التي نزلها واختصها بنو الانصار والتابعون رغبة فيها من أجل الخبر الوارد فيها ، ص ٧٠ .

«وتسمى بالبيضاء لأن عليها نور مشرق وبها رجلان من الصحابة مدفونان ، وهما حنش الصنعاني وفرقد الشنجي رضي الله عنهما ، وهما مدفونان في قبلة الجامع أمام المحراب من خارجه ...

ولها أعمال كثيرة ، ومدن وحصون وقرى منها مدينة سالم (حيث دفن المنصور بن ابي عامر) ومدينة يارشة وروطة .. ص ٧٠ - ٧١ .

بلنسية :

عاصمة شرق الاندلس ، وأهم قواعده ، وارتبطت بسقوطها في يد «السيد القمبيطور» الذي أحرق قاضيها «ابن جحاف» حيا أمام أهله وسكان المدينة ، وهي قصة مروعة في التاريخ الأندلسي ، وقد ذكر المؤلف استخلاص المرابطين لها من أيدي المسيحيين الى ان عادت مرة ثانية للسقوط في أيديهم على يد «ملك برشلونة» ، ويصف الكتاب بلنسية بأنها من أعلا المدائن وبقعتها بقعة طيبة ذات انفساح ، وبها مبان شريفة وقصور رائعة ، وبساتين مؤنقة ...

وهي دار علم وفقه وآداب خرج منها جملة من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء وأهل اللغة ، ص ٧٣ .

ويختم المؤلف هذا القسم الجغرافي بالحديث عن طرطوشة ودانية ومرسية وبسطة وطلياطة وأخيرا مدينة المرية كلأها الله . وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر وهي محدثة أحدثها العرب في الاسلام وكانوا يرابطون فيها .

تاريخ الأندلس في الكتاب :

يقسم المؤلف القسم التاريخي من كتاب «ذكر بلاد الأندلس» الى عدد من الفصول يتناول في الأول منها «ذكر من نزل الأندلس من الأمم والملوك من الطوفان الى أن فتحها الاسلام» ويرى أن أول من نزلها قوم من ولد «أندلس من نقرش بن يافث بن نوح عليه ومن هنا جاءت التسمية بالأندلس ، ثم يتحدث عن هجرة الافارقة الى الأندلس في رواية خيالية . ثم يروي قائمة طويلة بأسماء الملوك الذين حكموا هذه البلاد حيث يرى أن الافارقة أقاموا بالأندلس مائة ست واثنتين وخمسين عاما .

وينتقل بعد ذلك للحديث عن «الملوك الرومانيين من اليونانيين بالأندلس ، وعدد ملوكهم» ، ويقدم أيضا قائمة بأسماء ملوك الأندلس من الرومان وهي قائمة طويلة تعتبر من أجمل الاضافات التاريخية التي يزودنا بها هذا المخطوط .

ويصل بالحديث الى دولة القوط في الأندلس ، وهو العصر السابق مباشرة على الفتح الاسلامي واسماء ملوكهم حتى يصل الى لذريق» آخر ملوك القوط ، وقيامه بفتح البيت الذي كان يحوي الطلسم الحامي للأندلس مما يبشر بسقوط الأندلس .

عصر الولاة في الأندلس .

في هذا الباب الذي عنون «باب ذكر فتح المسلمين للأندلس ومن ملكها من أمراء العرب الى أيام عبدالرحمن الداخل يتناول قيام موسى بن نصير بايفاد طارق بن زياد لفتح الأندلس ، وانتصار طارق على لذريق وانتقال موسى الى الأندلس واكمالهما عملية الفتح الخالدة في ما لايزيد عن ثلاث سنوات فقط .

ثم ينتقل الى الخبر عن ولاة الأندلس من العرب من حين فتحها الى أيام عبدالرحمن الداخل رحمه الله ، موردا أسماء هؤلاء الولاة حسب ترتيب توليتهم .

عصر الامارة بالأندلس :

يخصص الفصل السادس من الكتاب للحديث «عن دخول عبدالرحمن بن معاوية الأندلس وتملكه عليها هو وبنوه من بعده» ، ويقدم في بداية الفصل مختصرا بأسماء أفراد الاسرة الاموية الذين حكموا الأندلس وهم عبدالرحمن بن معاوية ، هشام بن عبدالرحمن ، الحكم بن هشام ، عبدالرحمن بن الحكم ، محمد بن عبدالرحمن ، المنذر بن محمد وعبدالله بن محمد ، ثم عبدالرحمن الناصر ، والحكم المستنصر ، وهشام المؤيد .. الخ .

ويعود الى التفصيل الموسع فيذكر لعبدالرحمن الداخل مولده وصفته وكنيته وفصاحته وشعره ، ويذكر قضاته وغزواته وحروبه وأعماله وصراعه مع العباسين . وتأسيسه المسجد الجامع في قرطبة الى أن يقول : «وهو أبو الأموية من بني أمية بالأندلس ، وكان له من فتح البلاد ذات الأعادي ، وتوكيد الملك ما لم يكن لأحد من آبائه رحمة الله عليه» ص ١٠٧ ـ ١١٨ .

وبعد عبدالرحمن الداخل يتناول بالتفصيل حكم الامراء من بعده بتفصيل واسع قد لا تأتي به مصادر التاريخ الأندلسية الأخرى باستثناء عمدة مؤرخي الأندلس ، أبو مروان بن حيان .

عصر الخلافة في الأندلس :

نحن الآن مع مطلع القرن الرابع الهجري في الأندلس وصعد الى عرض الامارة عبدالرحمن بن محمد حفيد عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الأسط الذي تلقب لأول مرة بأمرة المؤمنين ومن ثم أصبح أول خليفة أموي منذ سقطت الدولة الأموية في عام ١٣٢هـ ، ومن ثم يركز المؤلف حديثه على هذا العصر فيذكر صفته وكنيته ووالدته ، وقضاته ووزراءه وعماله وشعره الى أن ينتهي الى مدينة الزهراء التي بناها الناصر فيسهب القول في وصفها وعمارتها فهي من «أنبل ما بناه الأنس وأجله خطرا وأعظمه شأنا وأغرب ما بنى في الاسلام وأعجبه» . ص ٦٣ ب .

وأما ابنه الحكم المستنصر بالله ، فقد تولى عام ٣٦٦هـ ، وكان من «أهل الدين والفضل والورع ، ومن أعدل الملوك واتقاهم وأعلمهم وأخملهم وأحمدهم وأحسنهم سيرة وأرفعهم قدرا وأعلاهم ذكرا ، وكان معتنيا بالعلم ، مقتنيا بالدفاتر مستجلبا للرواة ، مواظبا للجهاد مؤيدا منصورا ، لم تلحق الرعية في أيامه مذلة ولا نالتهم مظلمة ، وكان مع ذلك عالما ثبتا ذكيا وافيا ، وكان فقيها في المذاهب عالما بالانساب والسير حافظا للتواريخ عارفا بأيام الناس ، جمع أهل العلم من كل مصر» ص ١٦٩ .

ترك الحكم الخلافة لابنه هشام وهو صغير السن ، مما مكن للمنصور بن أبي عامر التمكن في أمر البلاد حتى ان عهد هشام يعرف باسم «الدولة العامرية» ولا غرابة في ذلك فقد أراد المنصور محاكاة بني أمية والتفوق عليهم ، وقد حالفه الحظ في غزواته وجهاده بحيث لم تنكس له راية ولم يهزم له جيش وخاض في ٢٧ عاما ما ينيف على الخمسين غزوة . كما أن للمنصور زيادة في المسجد الجامع تصل الى أكثر من نصف مساحته وأجزل العطاء لأهل الدور المجاورة للمسجد وأدخلها فيه .

وحكم بعد المنصور ولداه عبدالملك وعبدالرحمن ، لكنهما لم يكونا في حزم ودهاء المنصور مما ترتب عليه سقوط دولة بني عامر على عهد عبدالرحمن بن المنصور ودخول الاندلس كله عصرا سيئا ، دمر فيه كل شيء يسمى عصر الفتنة الذي لم ينته الا بتقسيم الأندلس الى ممالك الطوائف .

عصر الفتنة وملوك الطوائف :

تناول الكتاب باختصار هذين العصرين مما يبين لنا كراهيته لفترة الضعف في بلاد الأندلس ، وهي الفترة التي سمحت للمسيحيين في مملكة قشتالة وقطالونيا من التقدم والاستيلاء على بلاد المسلمين وخاصة مدينة طليطلة ، مما أوجب الاستنجاد بالمرابطين ويتوقف الكتاب عن ذكر الفتى الكبير خيران العامري الذي كان يحكم في شرق الأندلس ، وهو وزميله زهير العامري وهما من فتيان العامرية الذين هربوا بعد سقوط دولتهم في نهاية القرن الرابع الهجري .

خاتمـة :

صدر الكتاب في مجلدين ، تضمن الاول منهما النص العربي للكتاب والفهارس المتنوعة للكلمات والقوافي والاماكن والاعلام ، ودراسة موجزة ، بينما تناول المجلد الثاني الترجمة الاسبانية للنص العربي ، والدراسة الكاملة التي حاولنا تقديم بعض نقاطها في هذا التعريف ثم الوصف وطريقة التحقيق واعداد المخطوطات التي وجدت من هذا الكتاب .

ومحقق الكتاب هو الدكتور «لويس مولينا» درس في قسم اللغة العربية بجامعة مدريد المركزية وحصل على الليسانس في عام ١٩٧٨ ، ويعمل حاليا باحثا بالمجلس الاعلى للابحاث العلمية بمدريد في المعهد المعروف باسم المستشرق الاسباني الكبير «ميغيل أسين بلاثيوس» ، وقد نشر المجلس هذا الكتاب في مدريد عام ١٩٨٣م .

أثر الاقطاع في تاريخ الأندلس السياسي
من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة

عرض : ابراهيم القادري بوشيش
المملكة المغربية

نتائج البحث:

أسفرت الدراسة عن تحليل شامل للاوضاع السياسية في الأندلس ابان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري انطلاقا من أثر النمط الاقطاعي ، وهي أول محاولة من هذا القبيل حسبما نعلم . وقد بدأ التمهيد لذلك بتحليل مفهوم الاقطاع الاسلامي ، فاتضح ان كتب الفقه تباينت في تعريفه وتحديد شروطه ، وأنه لهذا السبب تباينت نتائج الدارسين المحدثين ـ مستشرقين وعرب ـ فذهبنا الى عرض تلك النتائج وتصنيفها في ثلاث اتجاهات ، ثم تحليلها ونقدها ، فتبين انها اسقطت مفهوم الاقطاع الاوروبي على نظيره الاسلامي ، ولم تفصل بين الجانب الفقهي النظري والواقع الملي ، كما جرى عرض بعض المقولات كمقولة النمط الخراجي التي كشف التحليل افتقارها الى رؤية تاريخية متكاملة ، كذا مقولة النمط الاسيوي للانتاج التي تم اثبات تناقضها مع الواقع التاريخي ، واعتماد اعجابها الى النصوص الماركسية السابقة لسنة ١٨٨١م ، والتي تراجع عنها ماركس نفسه .

وبعد توصيف الاشكالية ، اقترحنا ان يكون الرصد العياني التاريخي لوضعية الارض هو الوسيلة الاجدى لمعرفة وجود الاقطاع الاسلامي أو عدمه ، فجرى تتبع وضعية الارض منذ عهد الرسول ﷺ مرورا بالعصر الراشدى ، فتبين ان الخليفة الثالث رسخ النمط الاقطاعي الذي زاد تفاقما في العصر الاموي ليتخذ في العصر العباسي الثاني طابعا عسكريا . وبعد اثبات وجود الاقطاع تاريخيا استخرجت خصائصه ، وقورن مع الاقطاع الاوروبي ، فتأكد انه لا يختلف بحال عن نفس الظاهرة التي عرفتها أوروبا باستثناء المعطيات المحلية لكل منهما .

اما بالنسبة للاقطاع الاندلسي الذي شكل جوهر الموضوع ، فبعد اظهار خطورته ، وعزوف الباحثين عن معالجته ، جرى تصنيف نتائج الدراسات حولة في اتجاهين : واحد ينفيه ، وآخر يؤكده فاتضح مرة اخرى ان الاول اتخذ الاقطاع الاوروبي معيارا ، وان الثاني لم يتجاوز الرؤية التأملية المفتقرة الى النصوص التاريخية وانتهينا الى ضرورة دراسة الاقطاع الاندلسي انطلاقا من المحيطات الحضارية والجغرافية الشيء الذي مكن من اثباته وفهم خصائصه المحلية .

وأحاطت الدراسة بالجانب القانوني لوضعية الأرض ، اذ امكن الوقوف على مادة طيبة في هذا الصدد . وتبين بعد مناقشة كافة النصوص والاسترشاد بالاحكام الفقهية ان الملكية العقارية في الأندلس لم تقم على أساس شرعي منذ بداية الفتح ، وأمكن الوصول الى نتيجة هامة وهي أن جزءا من ارضها خمست عكس ما ذكر ابن حزم ، ولكن هذا التخميس بقي مبتورا خلافا لما تذكر المصادر ايضا . في حين ظل توزيعها رهين القوة والغلبة .

وجرى تتبع وضعيتها القانونية في عصر الولاة ، فتجلى بوضوح ان الجند اقطعوا الاراضي تحت التهديد بالجلاء عن الأندلس ، وان هذه الوضعية اللاقانونية استمرت في عصر الامارة وتم الاستشهاد على ذلك بمادة جديدة ؛ فضلا عن احكام بعض الفقهاء والقضاة الذين عاصروا الفترة موضوع الدراسة كما جرى تجميع النصوص لابراز ظاهرة اغتصاب الاراضي وتزوير العقود .

وتمت معالجة اشكال الملكيات في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بفضل لم شتات النصوص المبعثرة في الحوليات التاريخية ، واضافة نصوص جديدة استخلص منها ان الامير مع عائلته وأقربائه المروانيين كانوا منذ عصر الامارة من أكبر الملاكين غير ان ملكيتهم تقلصت في هذه الحقبة واقتصرت على ضياع عرفت باسم «العنيات» التي اتخذت سمة الاقطاعية بحكم ايلولتها الى الامراء بمن عليها من العبيد والاماء والدواب . وأبان التحليل ان ملكية الدولة تقلصت ايضا كذا الشأن بالنسبة لاراضي الاحباس التي دخلت في دائرة الاقطاع عندما اصبحت الدولة تعهد بها الى متقبلين يتعاقدون بدورهم مع بعض المزارعين لخدمتها .

وأكد البحث ان اقطاع العسكر شكل أهم انواع الملكيات في الفترة موضوع الدراسة ، وذلك بعد ان جرى تتبع تطور الاقطاع العسكري منذ بداية الفتح الاسلامي للاندلس . وفي هذا الصدد نوقشت اراء بعض المستشرقين خاصة حول اقطاع «ارش اليمن» واقطاع الاقاليم الثغرية للجند . وعرضنا باسهاب لاقطاع الكور المجندة فطرحت أراء كثير من الباحثين الذين ذهبوا الى القول بأن اقطاع اموال الاهالي ، ففندها ذلك وأثبتنا أنطلاقا من مختلف الروايات ان الامر يتعلق باقطاع الأرض كذلك وبفضل ما توفر من مادة ، تم ابراز التحول الذي عرفته هذه الكور في علاقتها مع السلطة المركزية فاستخلصنا ان بعضها استمر في اداء الجباية بينما استحوذ البعض الآخر على الضرائب ، وثلث المحصول الذي كان يؤديه الاهالي ثم اوضحنا الاقطاعات التي حضي بها قادة الجيش النظامي والجند المرتزق ، وقادة العسكر المستقلين الذين حصلوا على اقطاعاتهم بحد السيف .

وتعرضت الدراسة لاقطاع الفقهاء فتبين بفضل نصوص جديدة انهم حازوا إقطاعات شاسعة مغتنمين ضعف السلطة المركزية بنفوذهم الروحي .

وفي اطار البحث عن اقطاع البيوتات الكبرى ظهر ان أغلبها حصل على أراضي شاسعة عن طريق الارث بينما ارتبطت اقطاعات الكتاب بحاجة الامارة اليهم . وفي نفس الوقت حضي الاشراف وزعماء القبائل الوافدين من الشرق باقطاعات عرفت باسم «الانزال» .

وفيما يتعلق بمظاهر الاقطاع في النشاط الاقتصادي ، أبرزت الدراسة أهمية الزراعة كقوة انتاج رئيسية نتيجة سيادة النمط الاقطاعي ومع ذلك فقد عانت من التدهور نتيجة الظروف الطبيعية وخاصة الجفاف .. ثم استنتاج ندرة الانتاج كما هو الحال في الاقطاع الاوروبي بالاضافة الى طابعه الاستهلاكي ، وبقاء وسائله بسيطة مع وجود تقنيات غير متطورة . كما لوحظ طغيان الزراعات المعاشية مثل الحبوب والحنطة على حساب الزراعات الاخرى .

اما الصناعة ، فقد أكد البحث بصمات الاقطاعية فيها من حيث سلبيتها وانحطاطها وطابع الكفاف الذي ميزها وبقاؤها في علاقة تبعية مع العمل الزراعي وهو نفس ما عرفته الصناعة في ظل الاقطاعية الاوروبية .

وعن أثر الاقطاع في النشاط التجاري ، أظهر التحليل ان التجارة الداخلية تميزت بالاكتفاء الذاتي فجرى استعراض السلع ـ لأول مرة حسبما نعتقد ـ انطلاقا من النوازل المعاصرة فاتضح ان المواد المعاشية والعبيد كانت اكثر البضائع رواجا في الاسواق ، بينما اكدت نتائج دراسة التجارة الخارجية أنها تدهورت من جراء فقدان المسلمين السيطرة على البحار ، وضعف البحرية الاندلسية واحتكار زعماء الامارات الاقطاعية الساحلية للموانىء .

وبناء على النتائج السابقة ، جرت دراسة البنية الاجتماعية التي افرزها الاقطاع وفق منظور طبقي لا عنصري كما دأبت على ذلك الدراسات الاستشراقية وما جاراها من دراسات معظم الباحثين العرب . واتضح من خلالها تواجد مجتمع ترانبي تصدرته الطبقة الارستقراطية الاقصادية بشرائحها العسكرية والبيروقراطية والدينية وظلت هذه الطبقة تعيش منعزلة عن المجتمع من وارادات اقطاعاتها وكشفت بعض النصوص الجديدة عن الوضعية الممتازة لبعض الفقهاء الذين عاشوا في كنف الامارات الاقطاعية . كما عالجت الدراسة وضعية

شريحة اخرى تنتمي الى نفس الطبقة وهي شريحة المصطنعين ونوقشت آراء بعض الباحثين حول معنى الاصطناع فتأكد أنه يمثل نوعا من الولاء الشخصي الذي وجد في الاقطاع الاوروبي نفسه .

وبعدها عرض البحث للطبقة الوسطى ـ «البورجوازية» ـ فأثبت أفولها على الصعيد الاجتماعي ، وتمكن قسم منها ـ ممثلا في بعض الانتهازيين من تكوين «رأس مال» هام دون السعي الى توظيفه في تنمية النشاط التجاري مما جعل الطبقة الوسطى في الاندلس بعيدة عن أي تأثير في الحياة السياسية .

أما في ادنى درجات السلم الاجتماعي ، فقد أكدت الدراسة وجود طبقتين هما طبقة العوام وطبقة العبيد ؛ ومن ثم تصدت لمعالجة اوضاع الفلاحين والرعاة ، فتبين انهم كانوا مجبرين على اداء ضرائب قاسية ، وانهم تعرضوا لاقصى اشكال السخرة والتصفية الجسدية . كما تمت معالجة اوضاع عوام المدن فتجلى ما عانوا من عسف المحتسب ، وظلمه الذي وصل احيانا الى حد الاعدام بدون محاكمة هذا فضلا عن المشاكل التي جابهتهم مثل مشكلة السكن وانعدام الامن وارتفاع الاسعار وجرى بحث متوسط الاجور التي كان يتقاضاها العامل فتبين انها لم تكن تضمن له الحد الادنى من لزوميات المعيشة .

أما طبقة العبيد فأكدت نتائج البحث ارتباط تواجدها ببذخ الارستقراطية الاقطاعية وسعة اراضيها التي كانوا يفلحونها ويعيشون فيها تحت رحمتها .

وقد امكن الربط بين تفاقم احوال هذه الطبقات والانحطاط المدني الذي عم في هذه الحقبة فظهر ان اغلب المدن تعرضت للخراب نتيجة الحروب الاقطاعية ، وان التي استحدثت شيدت من طرف زعماء الامارات الاقطاعية ، وانها اتخذت شأنها شأن المدن الاوروبية في العصر الاقطاعي شكل المدن المحصنة .

وتمخضت الدراسة عن الربط ـ لأول مرة ـ بين سيادة الاقطاع وأثره في تغيير البنية السياسية ، فاوضحت ان تملك العسكر للاراضي وازدياد نفوذهم مقابل عجز السلطة المركزية جعلهم يجردونها من كافة سلطاتها ويستأثرون بالحكم ، مما اجبرها على الاستنجاد بالجند المرتزق غير ان المحاولة اسفرت عن خلق بؤرة صراع بين العسكرين ، مما أدى الى استقلال قادة الجند النظامي وتأسيسه كيانات انفصالية فكان ذلك أهم تحول في البنية السياسية . وحللت الدراسة النتائج المترتبة عن ذلك ومنها اهدار رسوم الامارة مثل مبدأ توريث الحكم الذي اصبح رهين التنافس والغلبة ، وتدخل العسكر في تولية الامراء ، وما صاحب ذلك من دسائس ومؤمرات داخل البلاط في الوقت الذي اصبح زعماء الامارات الاقطاعية يعينون وزراءهم ويبعثون بسفرائهم ويضربون العملة باسمهم كما حدث في الاقطاع الاوروبي كما كشفت عن نفوذ الفقهاء الذين تطاولوا بدورهم على السلطة حتى ان الامارة اصبحت تستشيرهم في كل صغيرة وكبيرة وتستعملهم كواجهة دينية لتبرير قمعها للثورات .

وتصدى البحث كذلك الى النتائج المترتبة عن سيطرة العسكر والفقهاء على الحكم ، وما صاحب ذلك من تحولات في البنية السياسية فأثبت تزايد ضعف الحكم المركزي واكتفائه بأي شكل من اشكال الخضوع ، واعتماده على صنائعه في مواجهة الخصوم الشيء الذي نجم من تحولات سياسية اهمها ظهور صيغ جديدة من علاقة السلطة المركزية مع الامارات المستقلة وجرى ادراجها في ثلاث مستويات أولها «اقطاع التسجيل» وهو اشراف سياسي يقوم به المقطع يمارس من خلاله كافة السلطات بمعزل عن الامارة ولكنه يتضمن شروطا تتلخص في التبعية للحكم المركزي وأداء الجباية والقيام بالخدمة العسكرية . أما الثاني فهو اقطاع السفارقة والذي لا يستند الا على شرط واحد هو دفع ضريبة سنوية ، وهو في حد ذاته شرط غير ثابت بينما يمثل المستوى الثالث في «الاقطاع اللاتاوي» الذي يعبر عن الاستقلال التام للمقطع .

وبفضل ربط الاوضاع السياسية بهيمنة النظام الاقطاعي أمكن تحديد العوامل التي تمخضت عنها التجزئة السياسية ، وهي تتمثل في ثلاثة أولها سياسي يتجلى في صراع العسكر النظامي مع الجند المجلوب ، وثانيها يتمثل في فراغ بيت المال ، أما ثالثها فهو اجتماعي ربط بما افرزه الاقطاع من عصبية ، وبالاعتماد على هذه العوامل اسفر البحث عن اعطاء صورة متكاملة للتجزئة الاقطاعية التي عرفتها الاندلس في هذه الحقبة

والامارات المستقلة التي نشأت مع ضعف السلطة المركزية فجرى عرض خصائصها وأهمها استقلال زعمائها بالسلطة السياسية والقضائية والعسكرية على غرار امراء الاقطاع في أوروبا واقامتهم لنظم استبدادية وراثية منافسة للحكم المركزي .

وبالمثل وقف الباحث على حالة بعض الكيانات «البورجوازية» التي عاشت الى جنب الامارات الاقطاعية وأهمها بجانة التي أنشأها التجار البحريون ، وانتهى الى تشبيهها بالكومون «الذي أوروبا الاقطاعية . وأفادت النصوص في الوصول الى استخراج خصائص النظام السياسي الذي اقامه تجار بجانة ، فاتضح انه كان نظاما شوريا يتسم بروح العدالة ، وهو نفس ما عرفته الكيانات البورجوازية الاخرى التي كانت قليلة بالنسبة للامارات الاقطاعية .

وتمت معالجة النشاط العسكري انطلاقا من سيادة النمط الاقطاعي ، وليس بكيفية معزولة كما فعل اغلب الدارسين ، فأكدت نتائج هذه الرؤية ان التحولات التي عرفتها البنية السياسية وضعف الحكم المركزية ، ونشأت الكيانات الاقطاعية كل ذلك ساهم في توجيه الحروب التي تمثلت داخليا في الحروب الاقطاعية ، وخارجيا في تحرشات نصارى الشمال . ونوقشت آراء الباحثين الذي جعلوا من الحروب الاقطاعية حروب «عصبيات» فتبين من خلالها ان ظاهرة العصبية وجدت في الاقطاع الاوروبي كذلك ، وأنها لم تكن سوى ستار يحجب الصراع الاقتصادي خاصة بعد اثبات قيام تحالفات تضم عصبيات شتى ، وبهذا المنظور تم الوصول الى الاسباب الحقيقية التي كانت وراء الحروب الاقطاعية وهي الخروج من الضائقة الاقتصادية التي كانت تعيش فيها الامارات الاقطاعية وقد أفادت النصوص في اعطاء الحجة على ذلك .

وأحجم الباحث عن ذكر وقائع الحروب بشكل تفصيلي ، ومع ذلك عرض لأهمها ولكن في اطار ما خلفته من أثر في مجريات الاحداث وما تركته من تغيير في البنية السياسية وجرى تحليل النتائج المترتبة عنها وأهمها انهيار الامارات الضعيفة واتساع املاك الامارات القوية ونشأة التحالفات التي تمخض عنها قيام كيانات اقطاعية جديدة . وأبرز البحث نشوء ظاهرة سياسية جديدة وهي ظاهرة الاتباع و «عمال» الامراء المقطعين الذي كانوا ينوبون عنهم في المناطق التي تدخل تحت نفوذهم .

اما النتائج الاقتصادية التي أبانت عنها الدراسة فتتمثل في اتلاف المحاصيل الزراعية والاضرار بالصناعات الاستهلاكية ، وتخريب طرق المواصلات كما اوضحت ان ما عرفته بعض الكيانات من انتعاش نسبي يرجع فقط الى استفادتها من واجهتها البحرية أو من توسعها على حساب جيرانها . وفي حين تمثلت نتائج الحروب الاقطاعية على العمران فيما خلفته من خراب المدن وانتشار الحصون وكشف البحث عن ان النشاط الحربي للامارة والموجه ضد الامارات الاقطاعية لم يكن يهدف الا للحصول على الجباية التي امتنع زعماؤها عن ادائها وضمان فتح الطرق التجارية المؤدية الى قرطبة . فجرى تتبع حملاتها العسكرية انطلاقا من هذه الاهداف بالذات مما جعلها تصل الى نتائج تتجلى في فراغ خزينة الدولة وازدياد ضعف السلطة المركزية وانهاك الجبهة الداخلية .

وعند تناول الغزو النصراني ، توصلت الدراسة الى أنه لم ينطلق من بواعث دينية محضة بل حركته حوافز اقتصادية مغلقة بغلاف ديني قومي ، وأمكن ربط الحملات المتبادلة بين الامارة والنصارى بهيمنة النظام الاقطاعي بحيث أن معاهدات السلم التي عقدتها الامارة مع القوى المسيحية لم تكن سوى تعبيرا عن ضعف الجبهة الداخلية التي انهكها تناحر الزعماء المقطعين ومن ثم امكن الوصول الى النتائج التي خلفها الغزو النصراني وأهمها حركة الاعمار .

وفي دراسة ردود الفعل الشعبية التي جاءت مناهضة لسيادة النظام الاقطاعي عولجت الثورات الاجتماعية في البوادي انطلاقا من مخلفات هذا النظام ، فاتضح انها كانت وثيقة الصلة بالمجاعات التي شهدتها الحقبة ، والاقتصاد الاقطاعي القائم على الاكتفاء الذاتي ورداءة الانتاج . وبناء على ذلك تم استنتاج وجود نوعين من

الانتفاضات ، أولهما حركات الصعلكة التي أمكن الوقوف عليها من خلال جمع النصوص فتم تبيان نشاطها ضد ضياع الارستقراطية ، وعند دراسة نتائجها توصل البحث الى انها تمكنت من الحد من المغانم والضرائب التي ارهق بها عوام البوادي ، فضلا عن اغتيال قادة العسكر وسبي أطفال ونساء الارستقراطية وتحويلها الى عبيد كما أمكن معرفة اسباب فشلها التي تتلخص في عدم تنسيق مواقفها وافتقارها للتنظيم وكذا عدم صلابة قاعدتها المادية .

اما بالنسبة للثورات الفلاحية المنظمة فقد حدد المنظور الذي يجب رؤيتها من خلال ويتمثل في التناقض الرئيسي الذي طبع المجتمع الريفي ، وبقاء سكان البادية تحت رحمة كبار الملاكين الذين اعتبروهم عبيدا وأقناناً مرتبطين بالارض . وفي هذا الاطار جرى ادراج حركة ابن حفصون التي ربطناها ـ لأول مرة ـ بالنظام الاقطاعي . وانتهت الدراسة الى انها حركة اجتماعية مناهضة للاوضاع الاقطاعية ، وان العصبية لم تكن حافزا عن قيامها . كما كشفت عن بعدها الاجتماعي وتحامل المؤرخين عليها ، وعرضت لأهم اطوارها تبعا لتطور الحقبة الاقطاعية ذاتها وجرى تحليل النتائج التي تمخضت عنها ومنها قيام جمهورية مستقلة لها دورها الامني والاقتصادي والسياسي ، واتاحت النصوص دراسة طبيعة نظام الحكم الذي اقامه ابن حفصون فدحضنا الروايات العربية التي تصف نظامه بالاستبداد ، واوضحنا الاسس التي قام عليها ، والوظائف السياسية التي اشتمل عليها كما اشرنا الى ما حققه من امن في ربوع دولته وركزت الدراسة على علاقة الحركة الحفصونية مع الخارج والآثار الاقتصادية والاجتماعية التي خلفتها ومنها اضعاف الارستقراطية الاقطاعية وتحرير العبيد وتخفيف الضرائب عن المزارعين .

اما ثورات المدن ، فقد تمت دراستها كحركات مناهضة للاقطاع ، وليس كما ذهب الى ذلك أغلب الدارسين الذين تصوروها كصراع بين المولدين والعرب . وأبان تحليل الاسباب التي أدت الى اندلاعها ارتباطها بتفاقم المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الناجمة عن سيادة النمط الاقطاعي . وتأسيسا على ذلك تم عرض أهم الانتفاضات التي عرفتها المدن مثل استجة وطليطلة وقسطلة ولبلة واشبيلية التي انتهينا من خلال وصف ثورتها الى القول بوجود حركة الفتوة في الاندلس كما حدث في الشرق الاسلامي ، وتأكد انها استطاعت ان ترد الامن ، والاستقرار الى المدينة . غير ان الطغمة العسكرية البت الامارة على زعيمها الذي اغتيل ، فتحولت الحركة الى ثورة اجتماعية ، شارك فيها كل عوام المدينة .

وفيما يتعلق بحركة الفتوة خارج المدن ، انتهت الدراسة الى تأكيد صلتها بالنظام الاقطاعي السائد ، اذ تحولت الى حركة اجتماعية ذات مرامي اصلاحية ، وجهادية تجاوزت دور السلطات المركزية المهتزئة . وفي هذا الاطار ، تمت دراسة حركة ابن القط في مرحلة الدعوة التي نظمها ابوعلي السراج ، ومرحلة الظهور التي جمع فيها زعيم الحركة انصاره، واتجه الى مدينة سمورة لاستردادها من النصارى . وأمكن الوقوف على الاسباب التي أدت الى هزيمة سمورة . كما تم توضيح ان هذه الحركة كانت تستهدف اقامة دول شيعية مناهضة للاقطاع وذلك من خلال ربطها بالايديولوجية الشيعية في الشرق . كما ناقشنا النزعة التصوفية التي تضمنتها الحركة ، وانتهينا الى القول بأن اقتران التصوف والتشيع في الاندلس ، يعكس ما حدث في الشرق الاسلامي تماما حيث ان التياران معا ناهضا الاقطاع .

ومن نفس المنظور ، أكد البحث الدور الذي قامت به القطاعات المثقفة في المدن ، وما خاضته من نضالات سرية ضد السلطة المركزية ، فتصدى الى ابراز الدور التاريخي الذي لعبته الحركة المسرية انطلاقا من تحليل اهم التيارات الفكرية التي كونت شخصية قائدها . وابان التحليل النهائي انها لم تكن مذهبا فكريا محضا ، بقدر ما كانت تعبيرا عن مواقف سياسية ، وقضايا اجتماعية ، وانها صارت احد اشكال الوعي الاجتماعي المعبر عن ردود الفعل تجاه الاقطاع السائد .

وفي دراسة العوامل التي ادت الى اضمحـــلال الاقطاع في الاندلس ، تبين ان ثمة عوامل داخلية وخارجية

كانت وراء ذلك . تمثلت العوامل الداخلية في تناقضات الطبقة الاقطاعية ، وعدم تجانسها واعتمادها على العصبية ، ومبدأ الغلبة ، والحروب الاقطاعية التي انهكتها ، ثم عدم تنظيم وراثة الارض فضلا عن المصادرات التي تعرضت لها ، هذا بالاضافة الى الجهود العسكرية التي قامت بها الخلافة من اجل استئصال شأفتها ، وكذا اجراءاتها الاقتصادية في ضعضعة الاقطاع الاندلسي ، فلخصتها الدراسة في عودة قوة البحرية الاندلسية ، والسيادة الاسلامية على البحار في بداية القرن ٤ الهجري نتيجة المد البورجوازي الذي عرفة العالم الاسلامي ، واوضحت اثر هذا المد في تصدع الاقطاع الاندلسي ، بحيث ان الاوضاع الجديدة خلقت الشروط الملائمة لازدهار التجارة الاندلسية ، ومن ثم عودة البورجوازية الاندلسية الى نشاطها بمساعدة الدولة مما اسفر عن مد برجوازي اندلسي عمل على انهيار الاقطاع في نهاية المطاف .

الحضارة العربية ، طابعها ومقوماتها العامة

نشر دار النهضة العربية ، ١٩٧٠ ـ بيروت (٩٨ ص)

اعداد : كفافي، محمد عبد السلام

عرض : فؤاد قزانجي ـ باحث علمي

كتاب صغير بجهد كبير يضاف الى الدراسات الجادة المستقاة من تاريخ امتنا وحضارتها المجيدة في القرون الوسطى حينما وصلت الى قمتها وذروتها في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين .

تناول المؤلف موضوع الحضارة بأربعة فصول موجزة تضمنت الحضارة قبل الاسلام وفجر الحضارة العربية والنهضة العلمية والثقافة العربية وابعادها التأريخية .

أوضح المؤلف عند تعريفه بالحضارة والثقافة ، بأن الثقافة ذات معنى مشابهاً في بعض الاحيان لتعبير الحضارة ، فيما عدا بعض الانجازات المادية كالنقل والمواصلات فلذلك فأن مفهوم الحضارة أوسع مدلولاً في الثقافة .

اما حضارة العرب قبل الاسلام فهي حضارة لها ميزات مادية وثقافية تعطي دلالة على أن للعرب قدرات عقلية في العمل والبناء والصنع الحضاري لايمكن انكارها وخاصة في اليمن حينما قامت الدولة المعينية والحميرية التي انتشرت فيها الديانات السماوية وكانت ذات صلات ثقافية مع روما وبيزنطة والحبشة وكذلك الحال بالنسبة لدول اللخميين بالحيرة ودولة الغساسنة على حدود الدولة البيزنطية .

بدأت حضارة العرب بالتدوين العلمي ، وكانت لصناعة الورق أثر كبير في انتشار الكتب والثقافة . وبعد تدوين العلوم النقلية ، انتقل العرب الى تدوين العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق والطب والرياضيات وغيرها ، واصبح العرب ، بعد المامهم بثقافات عصرهم واستيعابهم لحضارات سبقتهم ، لايقتصرون على التدوين بل امتد فكرهم ونتاجهم الى الابتكار والابداع واستخلاص التجارب العملية التي قاموا بها وخصوصا في مجالات الطب والرياضيات والكيمياء والجبر . ومنذ القرن الثاني عشر راح الأوروبيون ينهلون من نتاج الثقافة العربية عن طريق الترجمة والاتصال المباشر في اسبانيا وغيرها من الممتلكات العربية في أوروبا ثم عن طريق الحروب الصليبية حينما اتصلوا بصورة مباشرة بحياة العرب وحضارتهم .

ثم يتحدث المؤلف عن ابعاد الثقافة العربية وأهميتها فيثبت المقولات التالية :

١ـ انها عملت على استيعاب كل ما وصل اليها من حضارات الأمم القديمة .

٢ـ لم يكن استيعاب الحضارات التي سبقتها اساس تكوين الثقافة العربية وحدها ، بل انها وجدت في ارض لها حضارات عريقة مهمة كالحضارة البابلية والفرعونية والآشورية بالاضافة فانها ارض الانبياء .. أرض القيم الروحية .

٣ـ كانت الحضارة العربية ، حضارة انسانية متسامحة غير عنصرية ، فلقد استوعبت الدولة الاسلامية ونتاجها الثقافي شتى العناصر ، فكانت حضارتها عالمية .

٤ـ بالرغم من غزو المغول لجزء كبير من الدولة العربية وتفكك بعض أجزائها إلا أن مظاهر الحضارة بقيت تؤثر فيما حولها حتى القرن الرابع عشر .

٥ـ اصبحت الثقافة العربية هي الثقافة الأم لمختلف ثقافات الشعوب الاسلامية ، واصبحت اللغة العربية لغة العلم والثقافة في القرون الوسطى .

«موارد بيت المال في الدول العباسية ١٣٢ ـ ٢١٨هـ /٧٤٩ ـ ٨٣٣م»[١]

تأليف : الدكتور ضيف الله يحيى الزهراني
جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة
عرض : الدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني
الجامعة المستنصرية ـ بغداد

ان تاريخ الامة العربية بحاجة الى اعادة نظر في ضوء المستجدات التي ظهرت بسبب نشر العديد من كتب التاريخ والتراث ، غير أن هناك جوانب اخرى لم تزل بحاجة الى دراسة وتوضيح وتحليل ، وبالاخص الدراسات الخاصة بالنظم الاقتصادية والتاريخ الاقتصادي ، ان موضوع موارد بيت المال في الدولة العربية الاسلامية هو أحد المواضيع المهمة التي يشملها النظام المالي الاسلامي ، وثانيهما مصارف المال في الدولة الاسلامية ، ولقد أنبرى لهذا الموضوع الدكتور ضيف الله يحيى الزهراني الذي اختار موضوعاً عنوانه «موارد بيت المال في الدولة العباسية ١٣٢ ـ ٢١٨هـ /٧٤٩ ـ ٨٣٣م» التي تتناول دراسة لنظام الضرائب في اقليم العراق لفترة تمثل أزهى فترات الحضارة الاسلامية إقتصادياً ، ولقد قسم الباحث الموضوع ، بعد ذلك ، الى ثلاثة أقسام متوازنة ومترابطة : أنواع الضرائب المختلفة بتفصيلاتها ، وطرق الجباية المطبقة واساليبها ، والادارة المالية في الدولة خلال فترة البحث مما له صلة بالجباية ، والتي شملت دراسة دواوين الخراج وبيت المال والزمام ، وبالاضافة الى ذلك فقد أفرد النظام النقدي باهتمام متميز كما تعرض لبحث دور البريد في الحياة الاقتصادية خلال فترة الدراسة ، وأخيراً فقد الحق بالبحث جملة من الملاحق المهمة التي تخدم في توضيح الدراسة ومتابعتها .

لقد تضمنت المقدمة التعرض الى ثلاثة موضوعات وهي تحديد العراق خلال فترة البحث واستعراض موجز للواردات الشرعية لبيت المال ، ثم التطبيقات الضريبية في عصر الخلافة الاموية كتمهيد لموضوع الرسالة .

وافرد الفصل الاول للحديث عن واردات بيت المال خلال العصر العباسي الاول ١٣٢ ـ ٢١٨هـ ، حيث كانت الواردات المالية كثيرة ومتنوعة ، فمنها ما كانت شرعية مصدرها الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ومنها ما دعت اليها حاجة المجتمع وفرضت في اطار اسلامي لا يضر المواطن ولا يضر بيت المال ، ومنها ما كانت تعسفية لا أساس لها في الشريعة ولا مبرر لها .

وقد تضمن الفصل الثاني الحديث عن طرق الجباية واساليبها اذ جرى الحديث عن اصولها ومنشئها وصلاحية كل طريقة وكل اسلوب منها ، وكيفية تطبيقه في الدولة العباسية .

وافرد الفصل الثالث للحديث عن الدواوين المالية وبالتحديد حول ديوان الخراج ، وديوان بيت المال ، والدواوين المتصلة بها كديوان الزمام ومدى أهميته ووظيفته التي أنشىء من أجلها .

وقد جرى الحديث في النهاية عن دور عُمال البريد في الحياة الاقتصادية ذلك الدور الذي كان يتمثل في نقل كافة المعلومات وبضمنها ما يتصل بالوضع الاقتصادي وتصرفات العمال والجباة الى مقر الخلافة بشكل دوري وما يحققه ذلك من أثر في الاصلاح وتحقق العدالة .

اما الخاتمة فقد أوجز الباحث فيها نتائج بحثه ، وكانت مركزة ورائعة ، استخلص من خلالها كافة الافكار والنتائج التي توصل اليها من خلال بحثه .

وألحق الباحث كتابه بعدة ملاحق ، تناول الملحق الاول منها الاطوال والمساحات ، لما لذلك من صلة وثيقة بموضوع بحثه .

اما الملحق الثاني فقد كان عن المكاييل والاوزان الاسلامية ، التي لها صلة بموضوع بحثه .

وتناول الملحق الثالث قائمة باسماء عمال الخراج ، وتضمن الملحق الرابع النظام النقدي الاسلامي خلال زمن البحث .

لقد بذل الدكتور ضيف الله يحيى الزهراني جهودا كبيرة في تحليل مصادرة واستنتاج نتائجه منها ، وقد وفق الى حدٍ كبير في رسم صورة متكاملة عن الضرائب في الدولة الاسلامية خلال فترة البحث ، ورجع الدكتور ضيف الله الى عدد كبير جداً من المصادر الاصيلة الخطية والمطبوعة ، اضافة الى المراجع الحديثة من كتب وبحوث ومقالات ، فكانت مصادرة متنوعة شاملة وافية اسهمت بقسط وافر في تقديم صورة رائعة وواضحة عن بناء هيكل البحث . وبحق فقد اسهم الدكتور الزهراني مساهمة فاعلة في سد فراغ مهم في المكتبة العربية والاسلامية .

---

(١) الكتاب من منشورات المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، المعابدة ، ١٤٠٥هـ /١٩٨٤م .

(التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب : دراسة وثائقية)

تأليف : الأستاذ الدكتور مصطفى عبد القادر النجار

عرض : ندى نعمان السعدي
اتحاد المؤرخين العرب

طبع الكتاب في البصرة في مطبعة الموانيء العراقية ، ١٩٧٤ ، ويتكون من ٣٨٥ ص كما يحتوي على خرائط من ص ٣٦٣ ـ ٣٦٥ وجدول تحويل السنين من ص ٣٦٧ ـ ٣٧٧ وفي بداية الكتاب جدولاً للأشهر المتعارف عليها بالسنة الميلادية واسماء الأشهر للسنة الهجرية .

وصدّر الكتاب بمقدمة للدكتور احمد عزت عبدالكريم رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ومدير جامعة عين شمس سابقاً مكوّنة من صفحتين ونصف ثم مقدمة المؤلف مع خمسة فصول مهّد لها بعرض جغرافي بذكر التسمية وتحديد النهر وتكلم عن تأثيرات المد والجزر على الملاحة وعن كارون رافدا لشط العرب وعن الترسيبات وعمليات الحفر ومهمات مصلحة الموانيء العراقية وضفاف شط العرب وجزره .

وقد سار المؤلف في بحثه هذا ملتزماً الخط العلمي ، متقصيّاً الحقائق ، موالياً اهتماماً كبيراً بالوثائق ، متجنباً التحيز الوظفي الذي يتسم به الكُثيرون من كتاب تاريخنا الحديث ، متجرداً من الانفعالات العاطفية والالتزامات السياسية المحدودة ، وموضوع البحث قريب الصلة بالعصر الذي نعيشه وقد تناول مجمل «تاريخ العلاقات السياسية بين العراق وايران في شط العرب» تلك العلاقات التي اتصفت بالتوتر الشديد منذ ايام الدولة العثمانية وحتى الوقت الحاضر ولم تعرف الهدوء إلاّ في فترات مؤقتة وتجلى ذلك في فصول الكتاب الذي مهّد له بدراسة جغرافية لشط العرب كما ذكرت قبل قليل .

ولقد تكلم عن الاصول التاريخية لتلك العلاقات في شط العرب . والواقع ان الدراسات جلت لنا عن أن السيادة العربية الفعلية ظلت مستمرة في منطقة شط العرب طوال فترة النزاع العثماني ـ الفارسي ، ولئن أدخلت الدولة العثمانية تنظيماتها الادارية على اقطار الخليج العربي وجعلتها تابعة للبصرة ، فإنها لم تستطع ان تفعل الشيء نفسه في ضفة شط العرب الشرقية حيث ظلت السيادة فيها لابنائها العرب المحليين . ولكن المنطقتين في كل هذا كانتا ترتبطان اجتماعيا واقتصاديا وحضاريا بالعراق .

وجرت محاولات عديدة لتثبيت الحدود في المنطقة وقد أرغمت مقدمات الحرب العالمية الاولى الاطراف المتنازعة على مناطق النفوذ في شط العرب والخليج العربي الى تسوية عاجلة وسريعة . فتمت تسوية مشكلة شط العرب ـ بعد طول نزاع بين الدولتين العثمانية وفارس بموجب بروتوكول الاستانة سنة ١٩١٣ . فوضعت بموجب ذلك اسس الحدود في المنطقة التي اخذت الاطراف المعنية بعدئذ في المطالبة بالسير وفقا لها . وهذا ما أدخلها في نزاع جديد بعد الحرب العالمية الاولى لمحاولة كل طرف تفسير التسويات التي تمت قبيل الحرب وفقا لمصلحته .

وقد استغلت بريطانيا هذا النزاع لمصلحتها ، ولا سيما بعد أن غدت المنطقة تحت النفوذ البريطاني بدون منازع . وبدلاً من أن تعمل على حل المشاكل فقد زادتها تعقيداً . وقد وصلت بين ايران والعراق في شط العرب حداً أصبح من المتعذر التفاهم حوله . الأمر الذي حدا بالعراق لأن يرفع شكواه الى عصبة الامم للقول الفصل .

ووقفت بريطانيا في شكوى العراق الى عصبة الامم حول شط العرب موقفا سلبيا . فأرغمت العراق للعودة لها لتجري التسوية بإشرافها المباشر سنة ١٩٣٧ بعد أن ضغطت عليه ليتنازل عن جزء من شط العرب ،

وبعض حقوقه الى ايران . وقد جرى ذلك في ظروف كانت بريطانيا تخطط فيه لتسوية جميع مشاكلها في الشرق الاوسط . فكانت تسوية شط العرب جزء من تسويات شاملة جرت في المنطقة . ومن ضمنها عقد ميثاق سعد اباد وعقد معاهدات التسوية مع بعض اقطار الشرق الاوسط ـ ومنها مصر ـ وتسوية الاسكندرونة مع تركيا والدخول مع فرنسا في تفاهم حول الوضع في سوريا ولبنان ، وما إلى ذلك من تسويات .

وحول تلك المحاور الرئيسية دارت فصول الكتاب التي سأذكر عناوين أجزائها وهي :

أما الفصل الأول الذي كان عنوانه «الأصول التاريخية لمشكلة شط العرب» تناول فيه المؤلف :

- المنافسة التجارية الأوروبية في شط العرب .
- السيادة العربية على شط العرب .
- جذور النزاع الفارسي العثماني على شط العرب .
- مشروعات الحدود البريطانية في شط العرب .
- لجنة تحديد الحدود العثمانية ـ الفارسية الأولى .
- معاهدة ارمزوم الثانية لسنة ١٨٤٧ .
- لجنة تحديد الحدود العثمانية ـ الفارسية الثانية .
- التسوية المؤقتة لتحديد الحدود العثمانية ـ الفارسية ونتائجها .
- قضية تحصين شط العرب .
- مشكلة حق مرور السفن البريطانية في شط العرب .
- المقاومة العربية للنفوذ البريطاني في شط العرب .

أما الفصل الثاني فكان عنوانه «محاولات التسوية وتخطيط الحدود» تناول فيه المؤلف:

- بروتوكول طهران لسنة ١٩١١ .
- اتفاقية شط العرب بين الدول العثمانية وبريطانيا سنة ١٩١٣ .
- بروتوكول الاستانة لسنة ١٩١٣ .
- محاضر جلسات تحديد الحدود (القومسيون) العثمانية ـ الفارسية لسنة ١٩١٤ .
- الوضع الدولي في شط العرب خلال الحرب العالمية الاولى .

أما الفصل الثالث فكان عنوانه «تعقد المشكلة واستمرار النزاع العراقي الايراني في شط العرب»تناول فيه المؤلف :

- موقف الدولة المنتدبة (بريطانيا) من قضية شط العرب .
- اعتراف فارس بالملكة العراقية وتجدد النزاع .
- دخول العراق عصبة الامم وتصاعد مشاكل الحدود في شط العرب .

أما الفصل الرابع فكان عنوانه «مشكلة شط العرب امام عصبة الامم» تناول فيه المؤلف :

- موقف بريطانيا من رغبة العراق في تقديم الشكوى .
- شكوى العراق الى العصبة والرد الفارسي عليها .
- نتائج الشكوى .
- المفاوضات المباشرة .
  (١) المرحلة الاولى : من المفاوضات في روما .
  (٢) المرحلة الثانية : من المفاوضات في طهران .
- سحب العراق لشكواه واستئناف المفاوضات .

أما الفصل الخامس فكان عنوانه «تسوية سنة ١٩٣٧ ونتائجها» تناول فيه المؤلف :

- انقلاب بكر صدقي وأثره على تسوية المشكلة .
- المشروعات الايرانية ـ العراقية لعقد معاهدة الحدود .
- عقد معاهدة سنة ١٩٣٧ والظروف التي احاطت بها .
- دراسة معاهدة سنة ١٩٣٧ بين العراق وايران حول شط العرب .
- قضية التصديق على المعاهدة وموقف الشعب العراق منها .
- لجنة تخطيط الحدود لسنة ١٩٣٨ .
- محاولة عقد اتفاقية الصيانة والملاحة في شط العرب .
- نظرة في تطورات مشكلة شط العرب بعد الحرب العالمية الثانية .
- مناقشة الادعاءات الايرانية في شط العرب .

وبعد هذه الفصول ذكر مصادر الكتاب ومنها الوثائق والمذكرات والصحف والمقالات والبحوث المنشورة في المجالات الدورية والمراجع الانكليزية والفرنسية والالمانية والمترجمة عن لغات أجنبية والعربية .

علاقات الدولة الغزنوية بالبويهيين والخلافة العباسية

اعداد : كفافي، محمد عبد السلام
عرض : فؤاد قزانجي ـ باحث علمي

ان الجذور التاريخية لموجة الحقد الفارسي على الامة العربية لم تكن وليدة الحاضر ، اذ تمتد الى عهد ما قبل الاسلام ، فقد حاولوا جاهدين فرض هيمنتهم على المشرق العربي ومنه العراق ، وتمدنا المصادر التاريخية بشواهد كثيرة لعل ابرزها ما قام به سابور ذو الاكتاف من قتل آلاف الابرياء من العرب الذين رفضوا الخضوع له ، ومع ذلك جهوده ومن جاء بعده باءت بالفشل ، وعاد حقدهم متأججا بعد سقوط الدولة الساسانية على يد العرب المسلمين الذين تمكنوا من تحرير الشعوب الايرانية من التسلط الفارسي عليها ، خاصة من قبل الفئة التي تضررت مصالحها بالفتح ، فاستغل هؤلاء قيام الثورة العباسية ضد الامويين بانضمامهم الى جانب العباسين في محاولة منهم لتحريف الثورة عن أهدافها التي قامت من أجلها ، ولضرب الوجود العربي في بلاد ايران ، وعندما نجح العباسيون بثورتهم سرعان ما انضم هؤلاء الى جانب الحركات المعارضة للعباسيين لغرض اسقاطهم عن الحكم وتأسيس دولة فارسية بدلا منها ، كما استغل البعض منهم ممن تبوأ مناصب ادارية مهمة في الدولة مركزة لغرض ضرب الخلافة من الداخل كما فعل البرامكة وبني سهل وآل طاهر . وعلى الرغم من تمكن الخلافة العباسية من اجهاض هذه الحركات ، نجد أن النزعة العنصرية الفارسية استمرت خاصة بعد ضعف الخلافة العباسية ، والدراسة التي هي موضوع العرض والمرسومة بـ «علاقات الدولة الغزنوية بالبويهيين والخلافة العباسية» والمقدمة من قبل ادهام فاضل خطاب الى عمادة كلية الآداب جامعة الموصل كجزء من متطلبات درجة الماجستير تسلط الضوء على ذلك .

تضمنت الدراسة اربعة فصول ، تناول الفصل الأول قيام الدولتين الغزنوية والبويهيه ، حيث اسهب الباحث في استعراض الظروف التي مكنت بتكين ـ قائد جيش السامانيين في بلاد خراسان ـ من التمرد على السامانيين وتأسيس نواة للدولة الغزنوية عند احتلاله لغزنة سنة ٣٥٦هـ /٩٦٦م واعتراف السامانيين بسيادته عليها ، غير أن سبكتكين الذي عده الباحث المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية ، وارجع نسبه الى الأصل التركي تمكن من توسيع حدود امارته بحيث شملت المسالك المؤدية الى بلاد الهند ، وسار على نهجه ابنه محمود بن سبكتكين وبلغت الدولة على عهده أوج قوتها واتساعها لما اضاف اليها من ممتلكات من بلاد ايران وبلاد الهند ، ونشر الاسلام بين الهنود ، وكان لعمله الأخير أثر في ارتقاء مكانة هذه الدولة في العالم الاسلامي حتى عدّ الخليفة العباسي الامير محمود «مجدداً لعهد الصحابة في فتح البلاد ونشر الاسلام» كما ورد ذلك عند ابن كثير .

اما الدولة البويهية فيرجع نسبها الى آل بويه وهم اسرة فارسية ديلمية لعبت دوراً بارزا ومؤثرا في تاريخ ايران والعراق في القرن الرابع الهجري ، وقد عاصرت الدولة الغزنوية زهاء قرن من الزمان ، ويعد علي بن بويه المؤسس الحقيقي لها ، اذ تمكن من الاستيلاء على بلاد الكرج من الدولة الزيارية ، ثم وسع نفوذه بمساعدة اخويه الحسن واحمد بحيث شملت اصبهان وكازران وشيراز واتخذ من الاخيرة قاعدة لحكمه ، ثم حاول ان يسبغ صفة الشرعية لحكمه فأرسل الى الخليفة العباسي يطلب منه التقليد مقابل طاعته ومبلغ (٨) ملايين درهم يدفعه سنويا للخلافة ، وقد وافاه الخليفة الراضي بالله بالموافقة ، غير ان ابن بويه نقض العهد الذي كان قد تعهد به ، وبذلك كشف البويهيين منذ بداية نشأتهم عن نواياهم الشريرة واخلاقيتهم الملتوية تجاه الخلافة ،

ومع أن الخلافة العباسية ارادت فيما بعد ان تحد من سلطان علي بن بويه عندما ارسلت جيشا الى الاهواز ، غير انها لم تفلح في ذلك ، اذ كان لهزيمة الجيش العباسي ـ الذي كان يقوده ياقوت على أثر خيانة ابي عبدالله البريدي ـ كاتب ياقوت ـ سببا في احتلال البويهيين الاهواز ومن ثم اصبهان وكرمان .

اما الفصل الثاني الذي يُعد محور الرسالة فقد تناول العلاقات السياسية بين الغزنويين والبويهيين والخلافة العباسية ، فبحث أولا العلاقات بين الغزنويين والبويهيين في ايران ، ونظرا لكون هاتين الدولتين معاصرتين ومتجاورتين فمن الطبيعي ان يحصل احتكاك واتصال بينهما سواء كان ذلك سلباً أم ايجابا ، وأرجع الباحث هذه العلاقة الى ثلاثة عهود شملت عهد سبكتكين حيث اتصفت العلاقة بينهما بحسن الجوار وفي عهد ابنه محمود بن سبكتكين توترت العلاقة بينهما ، اذ تمكن محمود من انتزاع الري من البويهيين نظرا لأهمية هذه الولاية الاستراتيجية والاقتصادية ، ولرفض البويهيين اقامة الخطبة باسم محمود في الولاية ، واستمرت هذه الحالة في عهد مسعود بن محمود ، اذ كان البويهيون يطمحون الى استعادة ما اغتصبه منهم الغزنويون ، كما ان مسعود ومن قبله محمود كانا يخططان من اجل التوجه نحو بغداد لفرض تخليص الخلافة العباسية من السيطرة البويهية وقد اسند الباحث ذلك بشواهد تاريخية ، ومع ذلك نجد أن هذه العلاقة في عهد محمود ومسعود قد تخللتها حالات قليلة من الود ، خاصة عندما كان ملوك الغزنويين يحتاجون الى البويهين لفرض التوسط لهم لدى امرائهم في بغداد ليسعوا بدورهم لدى الخليفة من أجل تلبية مطالبهم من الحصول على تقليد في حكم البلاد التي سيطروا عليها . وخصص الباحث في ختام هذا الفصل فقرة تناولت علاقة الغزنويين بدار الخلافة منها تبعيتهم الاسمية بدار الخلافة والتي تعكس جانبا مهما من حسن العلاقة والمتمثلة باقامة الخطبة باسم الخليفة العباسي وبكتابة اسماء الخلفاء العباسيين على سكتهم بجانب اسمائهم واسباغ صفة الشرعية على حكمهم بالحصول على عهود التولية من الخلافة العباسية فضلا عن ان الخلافة كانت تتولى منحهم الالقاب الفخرية .

اما الفصل الثالث فتناول العلاقات الثقافية ، فاستعرض الباحث اثر الثقافة العربية الاسلامية في الثقافة الاسلامية وبين ان من النتائج المهمة للفتح العربي الاسلامي لبلاد ايران هو تأثر اهلها بالحضارة العربية وتعاليم الدين الاسلامي بحيث اصبحت الثقافة العربية هي الأساس لثقافة الشعوب الايرانية ، وبين الباحث عند حديثه عن دور البويهين والغزنويين في احياء الثقافة الفارسية بأنه على الرغم من ان العالم الاسلامي في العهد البويهي كان يسوده مظاهر الاضطراب والفوضى فإن الحياة الفكرية بصورة عامة استمرت في الازدهار لانها لاقت بعض التشجيع من حكام الدولتين البويهية والغزنوية ، حيث اتخذ هؤلاء الثقافة وسيلة لكسب رضا الخلافة ومجارات العالم الاسلامي لغرض تحقيق مطامعهم التوسعية والعنصرية ، فضلا عن انهم كانوا ينظرون الى التفاف الشعراء والعلماء حولهم بأنه مظهر من مظاهر الجاه والسلطان وواسطة لذيوع شهرتهم . وبين الباحث بأن تطلعات حكام هاتين الدولتين الشعوبية والعنصرية كانت واضحة المعالم اذ لعبوا دوراً فعالا ومؤثراً في احياء الثقافة الفارسية القديمة باتخاذهم اللغة الفارسية لغة للدولة وللثقافة ، كما احيوا العادات والتقاليد ورسوم الحكم الفارسية .

وتضمن الفصل الرابع دراسة الحياة الاقتصادية في كلا الدولتين ، فدرس كافة الانشطة والظواهر الاقتصادية كالنشاط الزارعي والصناعي كما درس أهم المعادن الموجودة في المنطقة ، اضافة إلى الثروة الحيوانية ، وقد أفرد الباحث دراسة خاصة لتجارة المنطقة لبيان أهمية التجارة والمواد المتاجرة بها مع اعطاء صورة واضحة عن أهم الطرق التجارية والواردات والصادرات التي كانت مع الخلافة العباسية ، واختتم هذا الفصل بدراسة الخراج حيث بين أهميته في العلاقات السياسية بين اقاليم الدولة العباسية وبين دار الخلافة ببغداد في القرن الرابع الهجري .

وأخيرا لابد أن نشير الى ان الباحث اعتمد على مصادر ومراجع متنوعة اغنت البحث .

جمهورية الريف في مراكش
١٩١٩ - ١٩٢٦

تأليف : محمد علي داهش
عرض : كفاح كاظم الخزعلي
الجامعة المستنصرية

تعتبر ثورة الريف التي قامت في المغرب في الفترة ما بين ١٩١٩ وحتى منتصف عام ١٩٢٦ ، واحدة من أعظم الثورات التحررية العربية في القرن العشرين ، حيث تركت بصمات واضحة في مسيرة النضال العربي ضد الاستعمار وخاصة في المغرب العربي ، مثلما كان لها أثرها الايجابي في مسيرة بعض الثورات العالمية ، وقد قامت هذه الثورة بقيادة الامير محمد بن عبدالكريم الخطابي الذي واصل نضاله من أجل الحرية والاستقلال بعد انتهاء المقاومة المسلحة عام ١٩٢٦ ، اثر رجوعه من المنفى عام ١٩٤٧ ، وبقي في القاهرة رئيسا لمكتب المغرب العربي حتى عام ١٩٦٣ حيث وافاه الاجل .

كتب عن نضال الأمير الخطابي العديد من المقالات الصحفية التي استقاها اصحابها منه مباشرة أو من خلال معايشتهم لأحداث الثورة الريفية ، وكتب معظمها باللغة الأجنبية ، وترجمت فيما بعد الى اللغة العربية كما ظهر عدد من «الكتب» العربية التي تحدثت عن نضال الامير الخطابي جامعة بين نضاله العسكري والسياسي ، إلا أن المكتبة العربية بقيت تفتقر الى دراسة اكاديمية جادة تؤرخ للثورة الريفية ونظامها السياسي ومؤسساتها المدنية والعسكرية باللغة العربية . ومن هنا تأتي أهمية رسالة الاستاذ محمد علي داهش الموسومة «جمهورية الريف في مراكش ١٩١٩ - ١٩٢٦» التي قدمها لنيل شهادة الماجستير من المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية - الجامعة المستنصرية - عام ١٩٨٣ .

قدم الباحث صورة اجمالية لتاريخ المغرب في العصر الحديث ، وأشار الى الاطماع الاوروبية لاحتلال المغرب حتى مطلع القرن العشرين ، مركزاً على الاطماع الاسبانية والفرنسية التي كان لها قصب السبق في تأكيد هذه الاطماع حتى تكللت بالسيطرة على المغرب عام ١٩١٢ .

يقول الباحث ، أن مراكش ظلت طيلة خمسة قرون وحتى مطلع القرن العشرين في منأى عن السيطرة الاوروبية على الرغم من خضوع بعض الجيوب الساحلية فيها للاستعمارين البرتغالي والاسباني ومنذ مطلع القرن الخامس عشر . وقد استمرت مراكش تقاوم محاولات التغلغل الاجنبي حتى بدأ التنافس الاستعماري بين الدول الاوروبية يأخذ مداه منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وكان الاتفاق الفرنسي - البريطاني المبرم في ٨ نيسان - ابريل عام ١٩٠٤ فاتحة لاطلاق يد كل من فرنسا واسبانيا في مراكش والذي تكلل باعلان الحماية الفرنسية والاسبانية على البلاد عام ١٩١٢ بعد سلسلة طويلة من محاولات التغلغل الاقتصادي والعدوان العسكري المباشر والتدخل في الشؤون الداخلية . وقد خضع القسم الشمالي من البلاد لنفوذ اسبانيا بموجب الاتفاق الفرنسي الاسباني المبرم في ٢٧ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩١٢ .

لقد شهدت منطقة الشمال المراكشي مقاومة عنيفة للاحتلال الاسباني في اقليمي الريف وجبالة . واذا كان اقليم الريف قد شهد نهاية لثورة الشريف محمد امزيان في منتصف عام ١٩١٢ ، أي قبل اعلان الحماية ، فقد كان لأقليم جبالة حضوره الفاعل في الرد الشعبي على المحتلين الاسبان بعد ان خضعت سلطة المخزن للنفوذ الكامل للاجنبي بعد اعلان الحماية سواء الفرنسية او الاسبانية ففي جبالة تصاعد النضال الشعبي المسلح بقيادة الشريف احمد الريسوني منذ منتصف نيسان - ابريل ١٩١٣ وحتى نيسان من عام ١٩٢٥ ، حيث استطاع الشريف الريسوني ان يحقق انتصارات ساحقة على الاسبان وان يعيقهم لفترة تجاوزت العقد من الزمان عن التغلغل الى داخل البلاد والسيطرة عليها ، واذا كان الطابع القبلي هو الذي طغى على نضال هذين

القائدين الوطنيين ، فأن بروز الامير محمد بن عبدالكريم الخطابي عام ١٩١٩ في اقليم الريف يعد نقطة الانطلاق المنظمة والعصرية في طريقة الكفاح المسلح من خلال الثورة الشعبية التي قادها أنذاك والتي عرفت باسم «ثورة الريف» واستمرت حتى استسلامه في منتصف عام ١٩٢٦ .

اشار الباحث الى ان ثورة الريف بحق من أولى التجارب التحررية العربية ليس في المغرب الاقصى وحده بل في الوطن العربي ، فقد هدفت طيلة فترتها الى تحرير الريف من الاستعمار الاسباني ، وتجاوزت ذلك الى تحرير مراكش بأجمعها من النفوذ الاجنبي ، وقد تجلى ذلك من خلال المبادىء والأفكار التي انطوى عليها «الميثاق القومي» المعلن في اعقاب الانتصار الريفي في معركة أنوال في ٢٢ تموز - يوليو - ١٩٢١ ، واعلان تأسيس «جمهورية الريف» . ولعل أبرز ما يميز هذه الثورة ، أنها كانت تطمح الى تحقيق وحدة الوطن المراكشي وبناء دولة على أسس حديثة ، حيث نلمس من خلال الرسالة ان ثورة الريف كانت تطمح الى تحقيق حرية واستقلال مراكش بأجمعها ، وكان تحرير الريف المرحلة الاولى على طريق تحرير مراكش كاملة . ان ثورة الريف لم تقم بمعزل عن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت في المغرب آنذاك . بل كانت انعكاسا لها وخاصة في الفترة التي سبقت اعلان الحماية الاجنبية على البلاد عام ١٩١٢ . كما أنها لم تمثل رد فعل عفوي على الوجود الاستعماري، وانما كانت حركة واعية لطبيعة الضعف في النظام السياسي المغربي وهمينة الاجانب على مقدرات البلاد السياسية والاقتصادية . ولقد تميزت تلك الحركة التحررية بأنها تجاوزت الاطار القبيلي في النضال ضد الاستعمار والذي كان يطبع المقاومة المراكشية آنذاك الى الاطار الوطني الشامل ، وعكست عمق الوعي الوطني للشعب العربي في مراكش لطبيعة التحالف بين القوى الاستعمارية من جهة والمتعاونين معهم من بعض اصحاب المصالح من جهة اخرى .

لقد ادركت ثورة الريف الهوة العميقة بين امكاناتها وامكانات الخصم الاستعماري ، ومن هنا جاء انتاجها لاسلوب «حرب العصابات» وكان هذا الاسلوب أحد مفاخر النضال العربي في التعامل مع القوى الاستعمارية .

وفي المجال السياسي ، وفيما يتعلق بنظام الحكم الذي شيدته ، فقد عبرت ثورة الريف عن «تبني صريح ومتطور للمنظور الاسلامي في مجال الحكم والادارة والقائم على مبدأ الشورى في الحكم وفق أسلوب معاصر في الحكم وصفة وطنية اشتهرت بين الريفيين باسم «جمهورية الريف» التي اعلنت في ايلول عام ١٩٢١ .

اشار الباحث الى انه رافق اعلان الجمهورية رغبة جامحة في بناء مجتمع جديد والوصول بالبلاد الى حالة اكثر تطورا تستطيع من خلالها مسايرة العصر ، وقد بدا ذلك من خلال الجهود الحثيثة لحكومة الريف في تنظيم البلاد اداريا واجتماعيا واقتصاديا .

تضمن الرسالة خمسة فصول تقع في (٣١٥) صفحة ، تناول الباحث في الفصل الاول اوضاع مراكش العامة في النصف الاول من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وفي الفصل الثاني ، بداية الكفاح المراكشي ضد الحماية الاسبانية بين عامي ١٩١٢ - ١٩٢١ . وفي الفصل الثالث ، تحدث المؤلف عن اعلان جمهورية الريف ١٩٢١ - ١٩٢٦ . فيما تضمن الفصل الرابع ، جمهورية الريف في مواجهة الاستعمار الاسباني ١٩٢١ - ١٩٢٥ ، وتناول في الفصل الخامس ، التحالف الفرنسي الاسباني وسقوط جمهورية الريف ١٩٢٥ - ١٩٢٦ . اضافة الى مقدمة وخاتمة وقائمة بالمصادر العربية والاجنبية .

ان هذه الرسالة ، اضافة اكاديمية جديدة الى المكتبة العربية ، مثلما هي اضافة جديدة في كشف الجوانب المضيئة لنضال الانسان العربي وقدرته على مواجهة التحديات المصيرية التي استهدفته . وان هذه الثورة بحاجة ماسة الى دراسات معمقة تكشف ما خفي منها ، ومن هنا فان الدعوة تلح علينا الى ضرورة عقد مؤتمر تاريخي عربي لدراستها ، على غرار الندوة الفرنسية التي عقدت عام ١٩٧٦ والتي تمخض عنها كتاب «الخطابي وجمهورية الريف» الذي ضم مجمل الدراسات التي قدمت باللغة الفرنسية والتي ترجمت عام ١٩٨١ .

الخدمات الصحية في العراق خلال العصر العباسي
١٣٢هـ ـ ٦٥٦هـ ، ٧٤٩م ـ ١٢٥٨م

تأليف : مؤيد عيدان كاطع
عرض : جعفر حسن صادق
كلية الآداب جامعة الموصل

كانت الحياة هدف الانسان منذ وجوده على الارض ومن اجل ذلك عاش في منافسةٍ مع الطبيعة بكل صعابها مبتكراً الوسائل الكفيلة بحمايته لكي يبقى قويا معافا وتديم الحياة ، فنراه تارة قويا يقف بكل قوة وشموخ امام الصعاب ، وتارة ضعيفا امام ما ينتاب اعضاء جسمه من الامراض فيقف حائرا منحور القوى لا يدري ما السبب وكيف يمكنه التخلص من حالته غير الاعتيادية تلك ، وبذلك برز الطب كفرع من فروع علم الطبيعيات وهي صناعة تنظر في جسم الانسان من حيث يمرض ويصح ويحاول صاحبها المحافظة على الصحة وشفاء المرض بالادوية بعد تشخيصه كما عرفه ابن خلدون ، ومن الجدير بالذكر ان صناعة الطب كانت معروفة لدى العرب في الجاهلية على الرغم من اعتمادها على التجارب الشخصية المتوارثة من مشايخ الحي ، فقد عرفوا العلاج بالعقاقير والاشربة وامتلكوا في ذلك اصولاً ، ولم يختلف الطب في صدر الاسلام عما كان عليه في الجاهلية كثيرا ، حيث بقت الاصول نفسها مع زيادة في النصائح والارشادات الواردة في الآيات القرآنية والاحاديث النبوية التي تهتم بالصحة .

ومع تطور الحياة بجوانبها المختلفة برز الطب كعلم له أصوله الخاصة وتجاربه وبرزت أهميته في قدرته على اسعاد الانسان بابعاد ما قد يصيبه من امراض مختلفة ، واخذ المهتمون به بالتزايد وبدأ العقل البشري يتنور باسباب حدوث الامراض وكيفية التخلص منها بايجاد افضل الطرق الوقائية من خلال تقديم الخدمات الصحية وطبيعة تلك الخدمات ومما هو معلوم بأن لعلماء العرب المسلمين دورهم البارز في ذلك ، وبما أن العراق كان مركزا للخلافة العربية الاسلامية في العصر العباسي لذلك شهد نشاطا متميزا وكبيرا في جانب الخدمات الصحية ومن هنا جاءت أهمية الدراسة التي تقدم بها السيد مؤيد عيدان كاطع والموسومة بـ «الخدمات الصحية في العراق خلال العصر العباسي ، ١٣٢ ـ ٦٥٦هـ ، ٧٤٩ ـ ١٢٥٨م» الى مجلس كلية الآداب جامعة الموصل كجزء من متطلبات درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي .

احتوت الدراسة على اربعة فصول شملت كافة الجوانب المتصلة بالخدمات الصحية ، وقد تضمن الفصل الاول منها اهتمام العرب بالصحة قبل وبعد الاسلام وانعكاس ذلك على الواقع كتخطيط المدينة الاسلامية من حيث اختيار الموقع والحرص على نظافة البيوت والاسواق والطرقات ، وكيفية توفير المياه النقية للشرب والتخلص من المياه القذرة التي تضر بالصحة العامة . وقد ابرز الباحث اهمية الحمامات والتي كانت تزخر بها بغداد العاصمة وكانت لهذه الحمامات ـ العامة والخاصة ـ دورها الكبير في توفير المجال لنظافة الانسان استجابة للتعاليم الدينية وبخاصة العامة منها والتي كانت مفتوحة طيلة ايام الاسبوع .

اما الفصل الثاني فقد انصب الحديث فيه على المستشفيات الثابتة والسيارة ، وقد ابرز الباحث نوعين من المستشفيات الثابتة ، الاول «المستشفيات المتخصصة» كمستشفى الجذام والمجانين ، والثاني «المستشفيات العامة» كمستشفى «الرشيد» ، و «بدر» ، و «الموصل» ، و «البصرة» ، و «المستنصرية» ، وكما تناول الباحث ايضا نظام المعالجة ، والنظام الاداري والمالي واجور الاطباء في تلك المستشفيات .

وتخصص الفصل الثالث بالقاء الضوء على اعداد الاطباء ودورهم في تقديم الخدمات بوصفهم النخبة التي اهتمت بهذه الحرفة الانسانية ، وقد ركز الباحث على مراكز اعداد الاطباء مشيرا الى ثلاثة مراكز هي : مجالس

الاطباء ، والمدارس الملحقة بالمستشفيات ثم المدارس المستقلة ، وكما ميز نوعين من طرق اعداد الاطباء ، الاولى الطريقة التي اعتمدت على اسس نظرية في دراسة الطب بشكله العام وتسمى «بالطريقة النظرية» ، اما الثانية فهي التي اعتمدت على التمرن من خلال الفحص السريري وتشخيص المرض ووصف العلاج وتسمى «بالطريقة العملية» ، اما بالنسبة للاطباء فكان احسنهم الذي اعتمد الطريقتين في الاعداد ، ولم يخلو هذا الفصل من عرض موجز لمناهج دراسة الطب اللازمة للمبتدئين مشيرا الى بعض الكتب الطبية التي غدت دليلا معولا عليه لدى الاطباء الممارسين .

اما الفصل الرابع فقد عني بتحديد اثر الدولة وجهودها في الاشراف والرقابة على نوعية الخدمات الصحية وطبيعتها وأهمية نظافة المدن من حيث موقعها ومرافقها العامة كالشوارع والاسواق والحمامات والحفاظ على البيئة من التلوث موضحا دور الدولة في الحرص على صحة المواطنين وسلامتهم وذلك بفرض الرقابة على الاطباء وذوي المهن الصحية الاخرى كالكحالين والمجبرين والحجامين والصيادلة .

وقد اعتمدت الدراسة على مصادر كثيرة تأتي في مقدمتها كتب الطبقات التي اهتمت بسير الاطباء واشنطتهم اضافة الى الكتب الاخرى التي اسعفت الباحث في تغطية جوانب الدراسة المختلفة .

واخيرا نقول بأن الباحث قد وفق في رفد المكتبة التاريخية العربية بكتاب خاص يصور الخدمات الصحية في العصر العباسي .

المدن القديمة في الجزائر
(وزارة الاعلام ، الجزائر ١٩٨٢)

تأليف : منير بوشناقي

عرض : الدكتور سامي سعيد الاحمد
جامعة بغداد

يتألف الكتاب من مقدمة وبابين وخاتمة ، بيّن في المقدمة كثرة الآثار الرومانية في الجزائر نتيجة النمو الهائل للمدن خلال العصر الروماني والتي كشف عن القليل منها في القرنين التاسع عشر والعشرين وحيث كان السكان الحضريين الأوائل في تلك البلاد (المسكونة من قبائل البربر البدوية) من الجنود الرومان الذين انهوا خدمتهم العسكرية . ويذكر المؤلف انه كما كانت المصادر المدونة المتوفرة عن هذه المدن قليلة صارت الآثار المكتشفة هي المعول عليها في تقرير تاريخها .

الباب الاول وعنوانه ظروف الاستقرار العمراني في العصر الروماني : وعالج فيه:

أ- الاستقرار العمراني قبل الغزو الروماني حيث غطى المدن الساحلية امثال المحطات التجارية والمستوطنات الليبية - البونيقية . فشمال افريقية قد دخل التاريخ مع مجيء الفينيقيين من سواحل لبنان . فأحد ملوك صور اسس اوزا (ربما سور الغزلان) في ليبيا (التي كانت تشمل كل ليبيا الحالية حتى شواطىء المحيط الاطلسي) . كما شيد الفينيقيون مدينة هيبون (ربما هيبور يجيوس قرب عنابة) وأما هيبور ديار يتوس (قرب بنزرت بتونس) . ثم انشاء قرطاجة قرب تونس العاصمة التي سرعان ما كونت امبراطورية كبيرة نافست روما وحاربتها . وشيدوا الكثير من المحطات التجارية على الساحل الافريقي امثال ايكو سيم (مدينة الجزائر) .

ب - مدن الممالك النوميدية والموريتانية للسكان الاصليين ومن المواقع القديمة التي سبقت مملكة سيفاقس مدينة سيغا التي ذكرها ادوار خون بوليبيوس ، بليني الكبير ، سترابوت وميلا الخ . وهناك جزيرة راشغون ، وتحولت سيغا من محطة تجارية قرطاجية الى مدينة افريقية مهمة . وكانت مدينة سينما عاصمة الملك سيفاقس الذي كان من القوة بحيث صارت كل منقرطاجةوروما يخطبان وده سنة ٢٠٦ ق.م . ففي نهاية القرن الثالث ق.م . كانت هناك مملكتان متعايشتان سلميا في شمال افريقية الاولى تبدأ املاكها من شرق الجزائر الحاليه وتشمل جزءا من تونس وتسمي باسم قبيلة الماسيلني وعاصمتها سيرتا (قسطنطية الحالية) والثانية مملكة الماسايسيليين وسميت باسم القبيلة التي ينتمي اليها الملك سفاقس . وقد كشف قبر هذا الملك في سيغا سنة ١٩٧٧ . ثم وسع سيفاقس مملكته مستوليا على المملكة السابقة . وفي الملوك اللاحقين كان بوخوس . ولما اندحرت قرطاجة في حربها الثانية مع روما انتهز ماسينيسا الفرصة لاسترجاع مملكته والاستيلاء على مملكة خصمه القديم سيفاقس . واستقر ملك في أيول (شرشال الحالية) فصارت عاصمة مملكة موريتانية التي امتدت من منطقة اسطيف الى المحيط الاطلسي التي عثر فيها خلال القرن الماضي على نقش اسم ميسيبا ابن وخليفة الملك ماسينيا . وقد كشف ضريح الاخير في الخروب . ثم اختار اوكتافيان (اوغوسطوس) ايول لتكون عاصمة لملكة استحدثها في شمال افريقية ونصب عليها ابن يوبا الاول ملك نوميديا باسم يوبا الثاني الذي تزوج من كيلوباترة سيليني (القمر) ابنة كيلوباترة أخر ملكات البطالمة في مصر من انطوني احد حكام الوفاق الروماني الثلاثة . وان قبري يوبا الثاني وزوجته ربما هو القبر الذي يسمى خطأ بالسابق ضريح المسيحية او قبر الرومية . وخلف يوبا الثاني ولده بطليموس .

ثم عالج المؤلف المؤسسات العسكرية والاستراتيجية بالجزائر خلال العصر الروماني . وتبرز خارطة الاحتلال الروماني اختلافات في كثافة التمركز الحضري التي كان سببها دون شك عسكريا والمثالان المهمان هما لامبيز وتيمقاد (ربما بتامو غادي) . وصارت لامبيز عاصمة نوميديا حتى فترة حكم قسطنطيني الذي نقل

العاصمة الى سيرتا . وتمتاز لامبيز (تازولت الحالية) بموقعها الاستراتيجية على مشارف جبال اوراس التي كانت تحمي وينطلق منها رجال المقاومة المحلية لقوات الاحتلال الروماني . وأقام الرومان موقعا لهم على محور تيفسيت (تبسة) ، أكواي قيصربس (يوكس الحمامات) ، فازايفي (عين الزوي) وتيمقاد الخ . وشق طريقا عسكريا عبر جبال اوراس من لامبيز الى بسكرة (فيسير الحالية) . ثم مدينة تيمقاد التي شيدت على شكل معسكر حربي بنيت في البداية عند منفذ طريقين طبيعين عبر جبال اوراس . وقد شيدت على الطريقة الجيبودامية (المنظمة على شكل مربعات) وتيمقاد مدينة كاملة بدأت الحفريات فيها منذ سنة ١٨٨٠ . ولاتزال محتفظة بكمالها القديم وتغطي مساحة ٦٠ هكتار . ويقع الفورم (ساحة مليطة فسيحة ٥٠×٤٣ مترا) في وسط المدينة .

وعنون الباب الثاني ، تنوع المدن والاطلال العمرانية المتميز . وقد غطى فيه المباني العمومية كالتحصينات والمنشآت الدفاعية منذ العصري الليبي ـ البونيقي وحروب النوميديين مع الرومان خاصة ايام يوغورتاويوبا الاول . فبحث المنشآت في العصر الليبي ـ القرطاجي امثال هيبون التي استفادت من مرسى حصين وموارد طبيعية متنوعة .

ثم عالج حصون وبوابات العصر الروماني والبيزنطي الذي تلاه . ومن هذه حصون سور جواب (رابيدوم القديمة قرب سور الغزلان وحصن شرشال وحصن بتبازا وجميعها مواقع موريتانية) وهناك بوابات مدن لامبيز ، تيديس . وكانت البنايات الدفاعية البيزنطية في شرق البلاد لانهم لم يسترجعوا الجزء الشرقي من المقاطعات الموريتانية . ولدينا في هذه بوابة الشرق وهي عبارة عن ممر مقوس بين برجين محفورا على الحجر .

وبحث المؤلف ايضا البنايات المدنية كالمعارض والاسواق ثم الدينية كالمعابد والكنائس المسيحية في العصر البيزنطي التي شيدت حسب خطة الباسيليكا المستطيلة الشكل ثم الحمامات والنافورات التي كانت تشكل على حد تعبير المؤلف محاور حقيقية للحياة الاجتماعية والثقافية امثال حمامات شرشال وهيبون وتيديس ثم الاحواض امثال حوض فلافيان قرب خنشلة وحمام بارد قرب قالمة (هليوبوليس) . ثم القنوات . كما غطى المسارح التي عثر على بقية منها في عنابة ، جميلة ، قالمة ، خميسة ، مادور ، تيمقاد وشرشال والمدرجات مثل مدرج تبسة ، والنافورات امثال تلك في ساحة تبسة العمومية . وخصص المؤلف فصلا للمباني الخاصة كبيوت المواطنين ومعاصر الزيت (التي عثر منها في تيديس وبرزفان (تبسة ومادور) ومقابر كمقبرة القديسة سالسا في تيبازا .

وفي الخاتمة تطرق المؤلف الى الاسباب التي دفعته الى معالجة بعض جانب تاريخ الجزائر القديم وظاهرة التخطيط العمراني الحضري .

التوثيق الاعلامي

مجلة علمية نصف سنوية تعنى بنشر وتوثيق الانتاج الفكري في مجالات : الاعلام ، توثيق المعلومات ، شؤون الخليج العربي

النشر في المجلة

يشترط في البحوث والدراسات المقدمة الى مجلة التوثيق الاعلامي ما يأتي :-

- أن تكون ذات علاقة باختصاص المجلة (التوثيق ، الاعلام ، شؤون الخليج العربي) .
- ان تتسم بالاصالة من حيث اضافة الجديد المفيد الى فكر القارىء .
- أن تتسم بالمنهج العلمي في البحث والاسناد والموضوعية .
- ان لا يقل عدد الكلمات عن الفين وخمسمائة كلمة ولايزيد عن خمسة آلاف كلمة بصفة عامة .
- يرفق مع البحث او الدراسة مستخلص واف ودقيق مع تعريف موجز بالكاتب .
- يخضع البحث او الدراسة للتقييم العلمي من قبل المركز قبل نشره .
- ان يكون البحث او الدراسة قد كتب حديثا ولم يسبق نشره .
- لاتعاد البحوث والدراسات التي لا تنشر الى اصحابها .
- يخضع ترتيب محتويات المجلة لاعتبارات فنية .
- تصرف للبحوث والدراسات التي تنشر مكافاءة طبقا لتعليمات تعضيد البحث العلمي الخاصة بالمركز .

المراسلات
مركز التوثيق الاعلام
لدول الخليج العربي

بغداد ص.ب ٥٠٦٣
الجمهورية العراقية

المجلة المغربية للتوثيق والمعلومات

* تصدر عن المعهد الأعلى للتوثيق في تونس .
* يصدر منها عدد واحد في كل سنة .
* مديرها المسؤول الدكتور عبدالجليل التميمي .
* تعنى بالبحوث المتخصصة في علوم المكتبات والمعلومات والارشيف .
* تنشر بحوثها باللغات العربية والفرنسية والانكليزية داخل غلاف واحد .
* تضم هيئة تحريرها نخبة من الباحثين ينتمون الى الجامعات العربية في المغرب العربي والى منظمة اليونسكو .
* تراسل المجلة على العنوان الآتي :ـ

المعهد الأعلى للتوثيق
ص.ب ٦٠٠
تونس
الجمهورية التونسية .

مجلة معهد المخطوطات العربية

* مجلة متخصصة محكمة يصدرها معهد المخطوطات العربية بالكويت .
* تصدر مرتين سنويا في حزيران وكانون أول .
* رئيس تحريرها الدكتور خالد عبدالكريم جمعة .
* تنشر الدراسات والبحوث والنصوص المحققة والفهارس والتقارير المتعلقة بالتراث العربي المخطوط والمطبوع .
* يتضمن كل عدد البحوث وتعريف بالمخطوطات ونقد الكتب .
* الاشتراك السنوي في المجلة في دولة الكويت ديناران كويتيان وفي خارج الكويت عشرة دولارات امريكية .
* تنشر بحوثها باللغة العربية فقط .
* تصدر المجلة باشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة للجامعة العربية .
* تراسل المجلة على العنوان الآتي :ـ

معهد المخطوطات العربية ص.ب ٢٦٨٩٧
الصفاه ـ الكويت

«ســـرتا»

*مجلة تاريخية اجتماعية تصدر دوريا عن معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة .
* جمع محكمة يشرف على اصدارها لجنة من متخصصين جامعين .
* تعني بدراسة تاريخ المغرب العربي بصورة خاصة والوطن العربي بصورة عامة .
* تنشر موضوعاتها باللغتين العربية والفرنسية داخل غلاف واحد .
* تعطي اهتماما خاصا بالبحوث التي تتعلق بنضال الشعب العربي في الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي .
* تراسل على العنوان الآتي :ـ

مجلة سرتا
معهد العلوم الاجتماعية
جامعة قسنطينة
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية .

«الوثيقة»
مجلة دورية نصف سنوية

* تصدر عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين .
* رئيس تحريرها الشيخ عبدالعزيز آل خليفة .
* تعنى بدراسة التاريخ القديم والمعاصر لدولة البحرين بصورة خاصة والوطن العربي بصورة عامة .
* تعطي أهمية كبيرة للوثائق وتفرد لها بابا خاصا .
* بالامكان ارسال البحوث والمقالات للمجلة على العنوان الآتي : مركز الوثائق التاريخية ص.ب ٢٨٨٨٢ دولة البحرين .

«الأمن القومي»

* مجلة علمية فكرية فصلية تصدرها كلية الأمن القومي .
* رئيس تحريرها الاستاذ الدكتور فاضل البراك .
* لها ابواب ثابتة تتضمن البحوث وعرض الكتب والتقارير .
* تعنى المجلة بالبحوث المتعلقة بالأمن القومي من جميع الجوانب من منطلق اكاديمي علمي .
* تخضع البحوث المنشورة فيها للتحكيم من قبل متخصصين ، وما ينشر فيها معتمد في الترقيات العلمية للباحثين الذين ينتمون الى الجامعات ومراكز البحث العلمي .
* تتم المراسلات على العنوان الآتي :ـ

الجمهورية العراقية
بغداد ـ المنصور ص.ب ٦٠١٨

«الـــداره»

* مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز في الرياض بالمملكة العربية السعودية .
* رئيس تحريرها الاستاذ محمد حسين زيدان .
* مدير تحريرها الشيخ عبدالله حمل الحقيل .
* تنشر بحوثها باللغة العربية فقط .
* تتبنى البحوث المتعلقة بتاريخ وتراث المملكة العربية السعودية بالدرجة الاولى وشبه الجزيرة العربية والوطن العربي والعالم الاسلامي بالدرجة الثانية .
* الاشتراك السنوي في المجلة ١٥ ريالا داخل المملكة العربية السعودية أو ما يعادلها في البلاد العربية ، و ٦ دولارات خارج البلاد العربية .
* تتم مراسلة المجلة على العنوان الآتي :ـ

المملكة العربية السعودية / ص.ب ٢٩٤٥ رياض ١١٤٦١ .

مجلة المجمع العلمي العراقي

* مجلة دورية تصدر أربعة مرات في السنة .
* رئيس تحريرها الدكتور صالح احمد العلي رئيس المجمع العلمي العراقي .
* تعنى بالبحوث والمقالات الشاملة التي تلقي الضوء على التراث العلمي العربي ودوره في بناء الحضارة الانسانية من جميع الوجوه .
* تتكون المجلة من بابين أساسيين هما البحوث والمقالات وعرض الكتب .
* بحوثها متنوعة ولا يتسغني عنها المهتمون والمتخصصون لتتبع الحركة العلمية والفكرية .
* سعر النسخة دينار ونصف ويمكن مراسلتها على العنوان الآتي :ـ

الجمهورة العراقية ـ بغداد ـ الوزيرية ص.ب ٤٠٢٣ .

«الباحث العربي»

* مجلة فصلية يصدرها مركز الدراسات العربية في لندن .
* رئيس التحرير : عبدالمجيد فريد .
* تعنى بدراسة ومناقشة القضايا الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية .
* وتعنى المجلة بالدراسات المستقبلية حول أهمية القضايا بها .
* تقدم المجلة في كل عدد مجموعة من الزوايا الثابتة وتشمل :
  ١ـ الشئون العربية في الوثائق البريطانية .
  ٢ـ القضية العربية في المؤسسات الأوروبية .
  ٣ـ عرض لأحد مراكز الدراسات أو المؤسسات الثقافية العربية والاجنبية .
  ٤ـ ماذا قدمت دور النشر العربية والاجنبية حول القضايا العربية .
* المجلة تصدر باللغتين العربية والانجليزية داخل غلاف واحد تباع بالمكتبات الرئيسية في العواصم العربية والاجنبية .

مجلة جمعية تاريخ المغرب

تصدر بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي / الرباط صندق البريد ٤٤٧ الرباط

مجلة التاريخ والمستقبل

دورية اكاديمية محكمه . تعنى بنشر الابحاث والدراسات التاريخية يصدرها قسم التاريخ بكلية الآداب / جامعة المنيا .
المراسلات / ترسل باسم الاستاذ الدكتور محمود متولي / كلية الآداب / جامعة المنيا .

سـبأ

مجلة تاريخية تصدر عن الجمعية التاريخية كلية التربية العليا ـ جامعة عدن .
المراسلات ـ مجلة سبأ ـ عدن ص.ب ٦٠١٤

ديلمون

مجلة جمعية تاريخ وآثار البحرين
المراسلات / المنامة ـ البحرين ص.ب ٥٠٨٧

مجلة دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة تعنى بالدراسات في تاريخ العرب .
المراسلات / جامعة دمشق ـ لجنة كتابة تاريخ العرب .

أ. تشكيلات الاتحاد في مجال النشر

أولا : الهيئة العربية العليا لكتابة تاريخ الأمة العربية :

١ـ الدكتور محمد عدنان البخيت	ممثل	مشروع كتابة تاريخ بلاد الشام / المملكة الاردنية الهاشمية
٢ـ الدكتور عبدالجليل التميمي	ممثل	مشروع كتابة التاريخ العثماني / الجمهورية التونسية .
٣ـ الدكتور عبدالرحمن الانصاري	ممثل	كتابة تاريخ الجزيرة العربية /المملكة العربية السعودية .
٤ـ الدكتور نبيه عاقل	ممثل	لجنة كتابة تاريخ العرب / الجمهورية العربية السورية .
٥ـ الدكتور سلمان سعودن البدر	ممثل	هيئة كتابة تاريخ الأمة / دولة الكويت .
٦ـ الدكتور صالح احمد العلي	ممثل	هيئة كتابة تاريخ الامة العربية / الجمهورية العراقية .
٧ـ الدكتور محي الطاهر الجراري	ممثل	مؤتمر تاريخ الأمة العربية / الجماهرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ثانيا : لجنة تعضيد المنشورات التاريخية :

١ـ الدكتور فاضل عبدالواحد (رئيسا)
٢ـ الدكتور حسن فاضل زعين
٣ـ الدكتورة رجاء حسني الخطاب
٤ـ الدكتورة صباح ابراهيم الشيخلي
٥ـ الدكتور عبدالامير عبد دكسن
٦ـ الدكتور فاروق عمر فوزي
٧ـ الدكتور هاشم صالح التكريتي
٨ـ الدكتور يحيى الشاهرلى
٩ـ الدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني (مقرا) .

ثالثا : اللجنة الاستشارية للدراسات التاريخية في اتحاد المؤرخين العرب:

الدكتور محمد عبده حتاملة
المملكة الاردنية الهاشمية / عمان / كلية الآداب / الجامعة الاردنية / رئيس قسم التاريخ .

الدكترو احمد جلال التدمري
دولة الامارات العربية المتحدة / رأس الخيمة (ص.ب ٥٦٥)
مدير مركز الوثائق والدراسات في الديوان الاميري .

الدكتور سعيد خليل هاشم
دولة البحرين / جامعة البحرين / كلية الآداب والعلوم / ص.ب ١٠٨٣ ـ قسم التاريخ .

الدكتور محمد الهادي الشريف
الجمهورية التونسية / الجامعة التونسية ـ عميد كلية العلوم الانسانية والاجتماعية (٩٤ الشارع ٩ افريل) «رئيس جمعية المؤرخين الجامعيين التونسي» .

الدكتور محمد البشير شنيتي
الجمهورة الجزائرية الديمقراطية الشعبية / الجامعة الجزائرية عميد معهد الآثار ٢ نهج النقيب عزوق .

الاستاذ سعيد احمد ورسمه
جمهورية جيبوتي / معهد البحوث العملية والآثار ص.ب / ٤٨٦ .

الدكتور احمد حسين العقبي
المملكة العربية السعودية / جدة / جامعة الملك عبدالعزيز / كلية الآداب / رئيس قسم التاريخ .

الدكتور احمد ابراهيم دياب
جمهورية السودان / جامعة ام درمان / كلية الآداب / قسم التاريخ .

الدكتور احمد سعدالدين طربين
الجمهورية العربية السورية / جامعة دمشق / كلية الآداب / قسم التاريخ .

الدكتورة آمنة حاج آدم
جمهورية الصومال / مقاديشو / الجامعة الوطنية كلية الآداب / قسم التاريخ .

الدكتور خضر جاسم الدوري
الجمهورية العراقية / نينوى / جامعة الموصل عميد كلية التربية .

الاستاد علي احمد الشنفري
سلطنة عمان / مسقط / وزارة التراث القومي والثقافة مدير دائرة الآثار .

الدكتور عزالدين غربية
دولة الكويت ـ متحف الكويت الوطني (ص.ب ١٩٣) مستشار علمي .

الاستاذ سلطان جاسم جابر
دولة قطر / الديوان الاميري / رئيس قسم الوثائق والابحاث / الدوحة (ص.ب ٩٢٣) .

الدكتور عبدالملك التميمي
دولة الكويت / جامعة الكويت / كلية الآداب / قسم التاريخ .

الدكتور مسعور ضاهر
الجمهورية اللبنانية / طرابلس / الجامعة اللبنانية كلية الآداب / قسم التاريخ .

الدكتور عبدالله علي ابراهيم
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية جامعة قاريونس / بنغازي / كلية الآداب والتربية امين قسم الدراسات التاريخية والاثرية .

الدكتور محمود متولي
جمهورية مصر العربية / جامعة المينا / كلية الآداب والعلوم الانسانية / رئيس قسم التاريخ / وكيل الكلية .

الاستاذ اسماعيلي مولاى عبدالحميد
المملكة المغربية / رئيس جمعية البحث التاريخي في المغرب الشرقي / وجدة (ص.ب ٤٣٢) .

الدكتور محمد المختار ولد السعد
جمهورية موريتانيا الاسلامية / جامعة نواكشوط / كلية الآداب والعلوم الانسانية / رئيس قسم التاريخ .

الدكتور عبدالله محيرز
جمهورية اليمن الديمقراطية / عدن / مدير المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف .

الدكتور عبدالله حسن الشيبة
الجمهوري العربية اليمنية / جامعة صنعاء / كلية الآداب / رئيس قسم التاريخ .

ب ـ نشاطات الاتحاد في مجال النشر

أولا : الكتب المنشورة

قام الاتحاد بنشر الكتب التالية :

١ـ كتاب يوميات البصرة بجزئين تأليف الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار والدكتور الامير محمد امين (بيروت ١٩٨٠) باللغة الانكليزية .

٢ـ بحوث مهرجان المؤرخ توينبي (بغداد ١٩٧٩) باللغة الانكليزية والعربية واشرف على اعدادها الدكتور هاشم التكريتي والدكتورة عالية سوسة .

٣ـ الحركة الصهيونية في تونس من الفترة ما بين (١٩١١ ـ ١٩٢٧) تأليف الاستاذ التيمومي (بيروت ١٩٧٩) .

٤ـ نشأة الحركة الأياضية الدكتور عوض خليفات (عمان ١٩٧٨) .

٥ـ ملامح النهضة العلمية في العراق من القرنين الرابع والخامس الهجريين (٣٣٤هـ ـ ٤٤٧هـ) (٩٤٥م ـ ١٠٥٧م) للدكتور محمد حسين الزبيدي (بيروت ١٩٨٠) .

٦ـ ديوان جواهر الملوك في مدايح الملوك ، للشاعر هلال بن سعيد بن عرابة العماني تحقيق الدكتور داود سلوم (بيروت ١٩٧٩) .

٧ـ القبائل العربية في المشرق خلال العهد الأموي (٤٠ ـ ١٣٢هـ /٦٠٠ ـ ٧٤٩م) للدكتور ناجي حسن (بيروت ١٩٨٠) .

٨ـ حضارات الوطن العربي كخليفة للمدينة اليونانية للدكتور سامي سعيد الاحمد (بيروت ١٩٨٠) .

٩ـ الامير مسلمة بن عبدالملك بن مروان ، للدكتور عواد مجيد الاعظمي (بيروت ١٩٨٠) .

١٠ـ مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني للدكتور فاروق عمر فوزي (بغداد ١٩٧٩) .

١١ـ المدخل الى تاريخ اللغات الجزرية للدكتور سامي سعيد الاحمد (بغداد ١٩٨١) .

١٢ـ دراسات تاريخية لمعاهدات الحدود الشرقية للوطن العربي للدكتور مصطفى عبدالقادر النجار (بيروت ١٩٨١) .

١٣ـ فلسطين تاريخها وحضارتها للدكتور عزالدين غربية (بيروت ١٩٨١) .

١٤ـ كتاب المسعودي مؤرخا للاستاذ عبدالرحمن العزاوي (بغداد ١٩٨٣) .

١٥ـ مقدمة في التصوف وحقيقته للامام ابي عبدالرحمن السلمي البغدادي تحقيق الاستاذ الدكتور حسين أمين (بغداد ١٩٨٤) .

١٦ـ فهارس مجلة المؤرخ العربي للدكتور محمد جاسم حمادي المشهداني (بغداد ١٩٨٤) .

ثانيا : الكتب التي تحت الطبع

١ـ كتاب مخطوطة المفاخر في اخبار العرب الأواخر ، تحقيق الدكتورة رمزية الاطرقجي .

٢ـ كتاب المستنصرية في التاريخ ، لنخبة من المؤرخين والباحثين .

٣ـ كتاب ملجأ الاضطراب ، لابن الهائم ، تحقيق السيدة نجلاء قاسم وآخرون .

٤ـ كتاب تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني ، للدكتور خالد جاسم الجنابي .

٥ـ كتاب النظام الاساسي المعدل لاتحاد المؤرخين العرب .

٦ـ كتاب دليل المؤرخين العرب .

٧ـ كتاب دليل رسائل الماجستير والدكتوراه في التاريخ .

٨ـ كتاب دليل المراكز التاريخية الدولية (باللغة الانكليزية) .

٩ـ كتاب دليل اتحاد المؤرخين العرب في الصحافة العراقية والعربية والعالمية .

ثالثا : المجلــة

قام الاتحادباصدار مجلة تاريخية علمية وهي (مجلة المؤرخ العربي) تحتوي على النتاجات العلمية الجيدة للمؤرخين والباحثين العرب .

ان الاتحاد يعتزم تطوير مجلة المؤرخ العربي وجعلها اكثر ملاءمة مع تطور الدراسات والمفاهيم العلمية ، وهي تصدر بانتظام اعتبارا من سنة ١٩٧٥ تاريخ صدور العدد الاول وحتى الآن .

ج ـ نشاطات الاتحاد في مجال الندوات والمؤتمرات

أولا : المؤتمرات والندوات التي نظمها الاتحاد

أ ـ المؤتمرات التي تم عقدها

١ـ ندوة تأصيل المقام العراقي تاريخيا ـ بغداد — ١ـ٩/١٠/١٩٨٤
٢ـ الشهيد في التاريخ العربي الاسلامي ـ بغداد — ١/١٢/١٩٨٤
٣ـ المخطوطات والتراث — ٢٢/١٢/١٩٨٤
٤ـ مكانة الاسير في التاريخ العربي الاسلامي — ٨/١/١٩٨٥
٥ـ الدول الكبرى والقضية الفلسطينية — ١٨/٢/١٩٨٥
٦ـ المستنصرية مدرسة وجامعة (بالاشتراك مع الجامعة المستنصرية) — ٤/٥/١٩٨٥
٧ـ حركة مايس ١٩٤١ — ٢/٥/١٩٨٥
٨ـ تطور الفكر العربي القومي (اتحاد المؤرخين العرب ، بالاشتراك مع مركز دراسات الوحدة العربية ، والمجمع العراقي ، ومركز البحوث والدراسات العربية) — ٨ـ١٠/٥/١٩٨٥
٩ـ الندوة العلمية الاولى لمدراء تحرير المجلات الانسانية — ٢٧/٦/١٩٨٥

بـ المؤتمرات والندوات التي عقدها الاتحاد حتى نهاية عام ١٩٨٥

١ـ البطل في التاريخ بالاشتراك مع وزارة الثقافة والاعلام — ١٠ (أو) ١١/١٩٨٥
٢ـ الاسطورة بين الواقع والخيال في حضارة العراق القديم — شهر تشرين/١٩٨٥
٣ـ الحضارة العربية الاسلامية — ١٩٨٥
٤ـ الاسلام والقومية — ١٩٨٥
٥ـ المستشرقون والتاريخ العربي — ١٩٨٥
٦ـ التحدي الشعوبي للأمة العربية (بالاشتراك مع نقابة المعلمين) — ١٩٨٥
٧ـ جوانب من تاريخ ايران الحديث والمعاصر — ١٩٨٥
٨ـ الشواهد التاريخية في احاديث ، السيد الرئيس القائد صدام حسين حفظه الله — ١٩٨٥

ثانيا : المؤتمرات العربية والعالمية التي شارك بها الاتحاد

اسم المؤتمر أو الندوة	مكان الانعقاد	الجهة المنظمة	التاريـــخ
١ـ مؤتمر الثروة النفطية وآثرها على السياسة العربية المعاصرة	ولاية نيوجيرسي الامريكية	جامعة روجر	آب / ١٩٨٤
٢ـ ندوة الحوار العربي الأوروبي	ميلانو كادينانبا ايطاليا	المعهد الدولي العالمي التابع لمؤسسة كونرادايناور	١٩٨٤/١٢/١ـ١١/٢٥
٣ـ الاجتماع الثالث للتنسيق بين الأمانة العامة / الجامعة العربية / الادارة العامة لشئون الاعلام والمنظمات والاتحادات العربية	تونس مقر جامعة الدول العربية	جامعة الدول العربية الادارة العامة لشؤون الاعلام	١٩٨٥/٢/١٠ـ٩
٤ـ المؤتمر الثالث للعلاقات العربية التركية	جامعة اليرموك	جامعة الاردن / جامعة اليرموك / جامعة مؤته	١٩٨٥/٤/٢٥ـ٢٠
٥ـ ندوة التحديات الحضارية والغزو الثقافي لدول الخليج العربي	سلطنة عمان	مكتب التربية لدول الخليج العربي	١٧/١٥ شعبان ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م
٦ـ اجتماعات الدورة (٤٢) للجنة الدائمة للاعلام العربي	تونس / مقر الجامعة العربية	جامعة الدول العربية الادارة العامة لشئون الاعلام	١٩٨٥/٦/٣٠ـ٢٩
٧ـ الدورة العادية (٢١) لمجلس وزراء الاعلام العربي	تونس / مقر الجامعة العربية	جامعة الدول العربية الامانة العامة لشئون الاعلام	١٩٨٥/٧/٣ـ٢
٨ـ اجتماع الامانة العامة للخليج العربي والجزيرة	جامعة صنعاء	مركز البحوث اليمني	١٩٨٥/٧/٥
٩ـ اجتماعات الدورة (٣٧) للمجلس التنفيذي للمنظمة	تونس / مقر الجامعة العربية	المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والامانة العامة	١٩٨٥/٧/٩ـ١
١٠ـ الدورة التدريبية العربية في طرق التدريس واستخدام التقنيات التربوية	قابس / تونس	الاتحاد العربي التقني بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم العالي والبحث العلمي التونسية	١٩٨٥/٧/١٢ـ٦/٢٨
١١ـ ندوة حول ثورة اكتوبر والعالم	شتوتجارت /المانيا الاتحادية	معهد البحث العلمي السوفيتي	آب / ١٩٨٥
١٢ـ الاجتماد السادس عشر لمؤتمر العلوم التاريخية الدولي	شتوتجارت /المانيا الاتحادية	المنظمة العالمية للعلوم التاريخية	١٩٨٥/٩/١ـ٨/٢٥
١٣ـ الحلقة الدراسية في ادارة وتطوير معاهد التعليم التقني العربية / بغداد	بغداد	الاتحاد العربي للتعليم التقني / الامانة العامة	١٩٨٥/١٠/٢٩ـ٢٥
١٤ـ افريقيا المحررة بمناسبة مرور مائة عام) على مؤتمر برلين حول تقسيم افريقيا (١٨٨٤)	جمهورية اثيوبيا	وزارات الاعلام الافريقية	١٩٨٥/١١/٧
١٥ـ ندوة العراق في الثورة (المنظور التاريخي)	جامعة الموصل كلية الآداب		١٩٨٥/١١/١٦ـ٤
١٦ـ ندوة الموانىء في الخليج العربي	بغداد	مركز علوم البحار الخليج العربي / جامعة البصرة	١٤ـ١٦/كانون ١٩٨٥
١٧ـ ندوة الوحدة العربية تجاربها وتوقعاتها	جامعة صنعاء	مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع جامعة صنعاء	١٩٨٦/٢/١٢ـ١٧
١٨ـ المؤتمر السنوي لجمعية دراسات الشرق الاوسط	مدينة أورليانز/ الولايات المتحدة الامريكية		١٩٨٦
١٩ـ المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز آل سعود	الرياض جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية		١٩٨٦
٢٠ـ الندوة العلمية الاولى لدراسة مصادر تاريخ البصرة			١٩٨٦
٢١ـ ندوة اليمن عبر التاريخ	جامعة عدن عدن		١٩٨٦
٢٢ـ ندوة آفاق واستراتيجية السياسة العربية	بغداد	الجمعية العربية للعوم السياسة في بغداد	١٩٨٦
٢٣ـ اجتماع الدورة التاسعة للامانة العامة لمراكز الخليج والجزيرة العربية	بغداد		١٩٨٦

8. "The Development of the National Arab Ideology". In collaboration with the Centre of Arab Unity Studies, Iraqi Scientific Academy and the Centre of Arab Studies and Researches".
   8-10 May, 1985.
9. The First Scientific Symposium for Humanistic Journals Editors"
   27th June 1985.
10. "The Hero in History" - in collaboration with the Ministry of Culture & Information
    10-11 Nov. 1985.
11. "The Legend - Reality and Imagination in Mesopotamia History".
12. "Islamic Arab Civilization".
13. "Islam Nationalisation"
14. Arabists & Arab History
15. "The Shuubi Challenge to the Arab Nation" - in collaboration with Teacher's Union.
16. "Symposium on the Seaports of the Arabian Gulf" - in collaboration with the Centre of Sea sciences of the Arabian Gulf. University of Basrah.
    14-16, Dec. 1985.

Consulative Committee for Historical Publications

1.	Dr. Salih Al-Hamaarna	Jordan
2.	Dr. Sultan Al-Qasimi	Arab Emirates
3.	Dr. Said Khalil Hashim	Behrain
4.	Dr. Mohamed Al-Shareef	Tunisia
5.	Dr. Mohamed Shneiti,	Algeria
6.	Dr. Yousif Al-Thaqafi	Saudi Arabia
7.	Dr. Taaj as - Sir Heran	Sudan
8.	Dr. Ahmed Terbeen	Syria
9.	Mr. Muhamed Ali Kareem	The Somalia
10.	Dr. Ibrahim Ahmed	Iraq
11.	Mr. Ali Al-Shanfari	Uman
12.	Mr. Ahmed Al-Anaani	Palestine
13.	Dr. Sultan Jasem	Qatar
14.	Dr. Abdul Malik Al-Timeemi	Kuwait
15.	Dr. Umar Tadmuri	Lebanon
16.	Dr. Mahmood Motawali	Egypt
17.	Dr. Mohamed Bin hayaan	Moritanya
18.	Dr. Abdul Hadi Al-Taazi	
19.	Dr. Hussain Al Omari	Yemeni Republic
20.	Dr. Mohamed Ukasha	Democratic Yemen
21.	Abdula Ali	Libya
22.	Said Ahmed	Jabuti

SOME OF THE UNION'S ACTIVITIES CONCERNING CONFERENCES & SYMPOSIUMS STARTING FROM Ist SEPT. 1984.

A) The Conferences that the Union has organized

1. The Symposium on the historical Originality of Iraqi Al-Maqam.
   1-9 Oct. 1984.
2. "The Martyr in the Islamic Arab History"
   Ist Dec., 1984.
3. "Manuscripts and the Tradition"
   22nd Dec. 1984.
4. The Status of the Prisoner of War in the Islamic Arab History".
   8th Jan. 1985
5. "The Super Powers and the Palestinian Question".
   18th Feb. 1985.
6. "Al-Mustansiriya as a school and as a university", in collaboration with Al-Mustansiriya University
   4th May, 1985.
7. "May 1941 Movement".
   2nd May, 1985.

(B) The Union' Journal

The Union has issued a scientific journal concerned with history entitled :
"The Arab Historian"
It contains many original and scientific works of the Arab Historians and researchers. The Union also intends to develop the journal and make it more convenient for advanced studies and scientific trends. Twenty five volumes have already been issued, 26, 27 and 28 are forthcoming and still in print.

THE UNION'S ACTIVITIES

The Union has formed the following committees :

1. The Higher Committee for writing up the History of Arab Nation.
   a. Dr. M.A. Al-Bukheet. Representing the project of the writing up of Al-Sham History.
   Jordan
   b. Dr. A.A. Al-Timeemi. Representing the project of the writing up of the Ottoman History.
   Tunis
   c. Dr. A.A. Al-Ansary. Representing the project of the writing up the Arab Peninsula History.
   Saudi Arabia
   d. Dr. N. Aaqil. Representative of the Project of the writing up of Arab History.
   Syria
   e. Dr. S.S. Al-Badri. Representing the project writing up the History of the nation.
   Kuwait
   f. Dr. S.A. Al-Ali. Representing the Committee of writing up the History of the Nation.
   Iraq
   g. Dr. M.T. Al-Jarrary. Representing the conference for writing up the Arab Nation History.
   Libya

2. The Committee for Supporting and Subsidizing Historical Publications :
   1. Dr. F. Abdul Wahid. Chairman
   2. Dr. H.F. Za'ain
   3. Dr. R.H. Al-Khatab
   4. Dr. S.T. Al-Sheikhly
   5. Dr. F.O. Fawzi
   6. Dr. H. Al-Tikriti
   7. Dr. Y. Al-Shahiri
   8. Dr. M.J.H. Al-Mesh hedani (Secretary)

PUBLICATIONS OF THE UNION OF ARAB HISTORIANS

(A) The Union of Arab Historians has issued the following works:

1. "Busserah (Al-Basrah) Diaries".
   Dr. M.A. Al-Najar & A.M. Ameen
2. "A.J. Toynbee : A Presentation Volume". - in English & Arabic.
   Dr. H. Al-Takriti & Dr. A. Susa
3. "The Zionist Movement in Tunis in the Period 1911-1927".
   Mr. Al-Taimomy — Beirut 1979
4. "The Start of the Abadhian Movement"
   Dr. A. Khlaifat - Amman 1978.
5. "The Aspects of the Scientific Renaissance in Iraq in the Fourth & Fifth Centuries of Al-Hijra".
   Dr. M.H. Al-Zubaidy - Beirut 1980.
6. "Jawahir Al-Mulook Fi Madayih Al-Mulook" A collection written by the Poet Hilal Ibn Sa'eed Ibn Araba Al-Omani
   Dr. D. Saloom - Beirut 1979.
7. "The Arab Tribes in the East during the Al-Amawi Reign".
   Dr. N. Hasan - Beirut 1980.
8. "Arab Civilisation as a Substitute for Greek Civilization".
   Dr. S.S. Al-Ahmed. (Beirut 1980).
9. "The Prince Maslama Ibn Abdul Malik Ibn Marwan"
   Dr. A.M. Al-Adhamy. (Beirut 1980).
10. "Introduction to the Study of the Resources of Omani History".
    Dr. Faruk K.A. Fawzy Baghdad 1979.
11. "Introduction to the Jazre Languages"
    Dr. S.S. Al-Ahmed. (Baghdad 1981).
12. "Studies in the Convention of Arab Nation Frontiers 1847-1980.
    Dr. M. A. Al-Najar. (Beirut 1981).
13. "Palestine : Its History and Civilization".
    Dr. A.A. Garbia (Beirut 1981).
14. "The Book of Al Masudy as a Historian"
    Mr. A. Al-Azawi (Baghdad 1983).
15. "Introduction to Mysticism and its Reality"
    Al-Imam Abdul Rahman Al-Salamy
    verified by
    Dr. H. Ameen.
16. "Index to the Arab Historian Journal"
    Dr. M.J.H. Al-Mesh Hedani (Baghdad 1984).

Requirements of Publications

1. Papers should be truly academic.
2. Papers should be compatible with the aims of the union.
3. Papers should not exceed 50 pages.
4. Papers should be original and not sent elsewhere.
5. Papers could cover any area in history, and written either in Arabic or in English.
6. Title should be typed on a separate sheet, with the name(s) of authors in full.
7. Papers should be typed in two copies on every other line, and properly numbered.
8. In case the paper is delivered at a conference, this should be foot-noted.
9. Foot-notes should be unified and correctly numbered.
10. All papers are evaluated before being accepted.
11. Papers are alphabetically ordered.
12. Address and name of authors should be clearly written in English.

Editorial Board

The Arab Historian
Al - Muarrikh al - Arabi

A quarterly issued by:
The Union of Arab Historians
Baghdad

No. (35) (1988)
Eleventh Year (1408) A.H.

Annual Subscription

		Inside Iraq	Outside Iraq
1.	Governmental and Semigovernmental offices	50 dinars	150 dollars
2.	Historians	20 dinars	60 dollars
3.	Students of history	10 dinars	30 dollars

All Correspondence: to Editor-in-Chief
P.O. Box 4085
Baghdad - Iraq
Union of Arab Historians
Tel. 4448006

JOURNAL

OF

ARAB HISTORIANS

Office of the General Secretary
Iraq . Baghdad - P.O. Box 4085
Cable : MOARKHEEN Baghdad

دار الفجر تلفون : ٤٧٨٣٠٠ — أبوظبي

JOURNAL OF ARAB HISTORIANS



Office of the General Secretary
Iraq - Baghdad - P.O. Box 4085
Cable: MOARKHEEN Baghdad